

المركز القومى للترجمة

256

لورانس جيمس

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

ترجمة وتقديم: عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة: شوقى عطا الله الجمل

(المجلد الثانى)



كتاب موسوعى شامل يعرض تاريخ العالم من خلال مراحل تطور الإمبراطورية سواء فى الأمريكتين أو فى أوروبا أو فى آسيا أو فى أفريقيا عبر أكثر من ثلاثة قرون، وبالتالى فهو مرجع كامل يناقش قضايا دولية وتاريخية لواحدة من أعرق الإمبراطوريات وعوامل ازدهارها وتطورها ثم مراحل الانهيار، والتركيز على حرب السويس باعتبارها من أهم عوامل انهيار هذه الإمبراطورية، ودور الزعيم جمال عبد الناصر فى مصر.

إنه كتاب لا غنى عنه لأى دارس لتاريخ العالم من خلال صعود الإمبراطورية البريطانية وسقوطها، خصوصاً أنه لمؤرخ وكاتب أمريكى قام بجولات وأجرى مقابلات واستمع إلى أقوال الساسة والمؤرخين، واعتمد على الكثير من الوثائق والدراسات والتحليلات التى جعلت من كتابه هذا ركيزة أساسية وموسوعة تاريخية سياسية لإمبراطورية غيرت مجرى تاريخ العالم خاصة فى قارتى آسيا وأفريقيا.

تصميم الغلاف: رحاب حسن

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

(المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2564
- شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (الجزء الثانى)
- لورانس جيمس
- عبد الله عبد الرازق إبراهيم
- شوقى عطا الله الجمل
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:
The Rise & Fall of the British Empire
By: Lawrence James

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها

(المجلد الثانى)

تأليف : لورانس جيمس

ترجمة وتقديم : عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجعة : شوقي عطا الله الجمل



2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

جيمس، لورانس.
شروق الإمبراطورية البريطانية وغروبها (المجلد الثاني) /
تأليف: لورانس جيمس، ترجمة وتقديم: عبد اللــه عبد الرازق
إبراهيم، مراجعة: شوقي عطا اللــه الجمل.
ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦
٥١٦ ص ، ٢٤ سم
١ – بريطانيا – تاريخ
(أ) إبراهيم، عبد اللــه عبد الرازق (مترجم ومقدم)
(ب) الجمل، شوقي عطاللــه (مراجع)
(جـ) العنوان ٩٤٢

رقم الإيداع ٥٤٥٦/ ٢٠١٢

الترقيم الدولي : I.S.B.N-978-977-216-004-4

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

الجزء الرابع: انتهاء عصر الاستعمار (٩١٤-١٩٤٥)

الإمبراطورية التي يجب أن نموت من أجلها (١٩١٤ - ١٩١٨) 9

التخلي أو الحكم والاضطرابات الأيرلندية (١٩١٩ - ١٩٣٩) 39

كرامة وطنهم: مصر (١٩١٩ - ١٩٤٢) 55

السيادة العليا في الشرق الأوسط (١٩١٩ - ١٩٤٢) 69

قوة جديدة وسلطة جديدة: الهند (١٩١٩ - ١٩٤٢) 93

لصالح الجميع: المفاهيم المرتبطة بالإمبراطورية خلال الفترة من (١٩١٩ - ١٩٣٩) 119

ميثاق الروح الواحدة والرأي العام في الإمبراطورية (١٩١٩ - ١٩٣٩) ... 135

لا أمل في الوعيد - حدود النفوذ الإمبريالي من (١٩١٩ - ١٩٣٦) 149

الإمبراطورية تتحول إلى الحرب (١٩٣٧ - ١٩٣٩) 169

رفاق مخلصون - ضغوط الحربة 211

الدفاع عن امتياز قديم - استرداد الإمبراطورية (١٩٤٢ - ١٩٤٥) 235

الجزء الخامس: الشمس الغاربة (١٩٤٥-١٩٩٣)

الاستعماريون يثورون: الإمبراطورية في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية 255

العلاقات الودية: الهند وتصفية الإمبراطورية (١٩٤٥ - ١٩٤٧) 285
العالم كما هو: المصائب الآتية من الشرق الأوسط (١٩٤٥ - ١٩٥٦) .. 313
اضرب مؤخراتهم: حرب السويس وما بعدها 337
العالم القديم: ردود فعل إمبراطورية تحتضر 363
الحرية: تضييق الخناق (١٩٥٩ - ١٩٨٠) 393
مهمة لم تنته 417
الهوامش 428
ملحق الصور 443
الببليوجرافيا 493

الجزء الرابع

انتهاء عصر الاستعمار

(١٩١٤ - ١٩٤٥)

(١)

الإمبراطورية التى يجب أن نموت من أجلها

(١٩١٤-١٩١٨)

جعلت موارد الإمبراطورية من بريطانيا- القوة الأكبر المشاركة في الحرب، وقد كانت الإمبراطورية تغطى ما يقارب من ربع سطح الكرة الأرضية، وكان عدد السكان الذين يعيشون في إطارها ٤٢٥ مليونا منهم ٣٦٦ من الملونين، منهم ٣١٦ يعيشون في الهند. وهذه القوة العاملة تم استغلالها بقسوة؛ وذلك لتوفير الأيدى العاملة والمقاتلين والحمالين الذين كانوا يدعمون جيوش الإمبراطورية على كل الجبهات.

وعند نهاية الحرب فإن إجمالي الجنود والبحارة والطيارين في الإمبراطورية بلغ ٥,٨ ملايين - منهم ٧,٥ ملايين قدموا من المملكة المتحدة (أربعة أخماسهم من إنجلترا)، و١,٤ ملايين من الهند و٦٣٠٠٠٠ من كندا و٤٢٠٠٠٠ من أستراليا و١٣٦٠٠٠ من جنوب أفريقيا، و ١٢٩٠٠٠ من نيوزيلاندا. والرقم الأخير كان مؤثرًا للغاية؛ لأنه يمثل نصف عدد الرجال القادرين على تقديم الخدمة العسكرية[١]. والمستعمرات الأفريقية قدمت ٥٧٠٠٠ من الجنود، والأكثر أهمية أنها قدمت ٩٣٢٠٠٠ من العتالين والعمال، وكانوا هم المسئولين عن تقديم أغلب الخدمات في معسكر شرق أفريقيا الألمانية[٢]. وقد كان هناك أيضا ٣٣٠٠٠٠ من العمال المصريين

الذين يعملون فى فرنسا والشرق الأوسط، و٤٣٠٠٠ من السود من جنـوب أفريقيا الذين كانوا يعملون فى الأعمال النظامية خلف الخطوط فـى شـرق أفريقيا وفى شمال فرنسا، وبعض الفيالق من العمال الصينيين الـذين تـم تجنيدهم للعمل أيضًا فى فرنسا. وبحلول عام ١٩١٨م كان هناك ما يقـارب ثلث المليون من الصينيين والأفارقة والمصريين فى فرنسا وحـدها. ومـن خلال قيامهم بالأعمال الشاقة وأعمال العتالة لخدمة الحـرب فـإن هـؤلاء الرجال، مثل رفاقهم فى الجبهات الأخرى، قد أقاموا للرجال البيض للتفـرغ لخطوط النار. وهذا الرقم استند لأحد التقديرات الرئيسية للعاملين فى مجال الخدمات؛ من أن مسألة قيام بريطانيا بتـسخير كـل القـوى العاملـة فـى الإمبراطورية هو ادعاء سخيف فقد قامت نياسـالاند بتقـديم ١٥٠٠٠ مـن العسكريين، و٢٠٠٠٠٠ من العمال فى الفترة من ١٩١٤ وحتى ١٩١٨، وهو ما يمثل ثلثى عدد سكانها الرجال البالغين[٣]. والجزء الخاص بالجنود السود قد يكون أكبر، ولكن وزارة المستعمرات كانت متضايقة من فكرة قيام رجال سود بمحاربة رجال بيض، وقد تخيل كبار المسئولين بها أن الزنوج يفتقرون إلى الثبات والإقدام اللذين يتمتع بهما ما الأوربيون[٤].

وقد أظهرت الحرب بشكل قوى التوجيهـات والأحكـام ذات الطـابع العرقى التى كانت مخفية والتى كانت تنتشر تحت سـطح الإمبراطوريـة. والسير جيمس ويلكوكس الذى قام بقيادة القوات الهندية فى فرنسا فى الفتـرة ما بين أكتوبر من عام ١٩١٤ حتى سبتمبر من عام ١٩١٥م، مـدح بـشكل علنى المقاتلين الهنود، وقال إنهم جنود من الطبقة الأولـى وإنهـم رجـال متحضرون، ولكن فى السر كان يشمئز من فكرة أن هؤلاء الرجال كانت تتم رعايتهم بواسطة ممرضات بيض[٥]. وقد كان اللورد لوجارد مرعوبًا مـن فكرة أن تُعالج زوجته بواسطة أطباء سود، وفى عـام ١٩١٨م فـإن أحـد

مسئولى وزارة المستعمرات أصابه الرعب من احتمالية أن يقوم الجنود المنتمون إلى غرب الهند بقضاء فترة النقاهة فى مستشفى ليفربول تحت رعاية ممرضات إنجليزيات[٦].

وفى مارس من عام ١٩١٥م تلقت قوات الماورى فى مصر الأوامر بأن يقوموا بأداء مهام حامية مالطة بدلا من القيام بمشاركة زملائهم البيض فى شن الهجوم على منطقة الدردنيل، وهو ما أدى إلى إصابتهم بخيبة الأمل[٧]. وقد كان من البدهى بين كبار القادة أن مكانة الإمبراطورية فى الشرق الأوسط من الأفضل أن يتم الحفاظ عليها بواسطة جنود بيض. وهذا لم يكن حكمًا مسبقا عرقيا بالكامل، بل للتدفق المفاجئ للوحدات الهندية والسوداء على هذه المنطقة فى يونيه من عام ١٩١٨م، وقد أدى نقل الجنود البيض إلى فرنسا إلى انتشار شائعات فى مصر أن بريطانيا على وشك الهزيمة، وأن القادمين الجدد كانوا جنودًا ضعفاء سريعا ما سيتم اكتساحهم بواسطة الأتراك والألمان[٨]. ولكن ما أثار أقاويل المصريين من هذه الأحداث هى خبرتهم بالتوجهات العرقية للبريطانيين.

وقد كان هذا واضحا فى كل مكان فى جيش الشرق الأوسط الذى كان يضم بريطانيين، وهنودًا والقوات الاستعمارية، ورجال الكتيبتين الملكيتين الحاملتين للبنادق الذين تم تجنيدهم من اليهود القاطنين فى لندن، وقد اعترضوا أن يكون هناك رئيس عليهم ممن ينتمون إلى غرب الهند، وكانوا هم أنفسهم غاضبين من أن يتم وضعهم فى مستشفى تتم حراسته من الآسيويين والأفارقة غير الصالحين لحياة الجندية، "حيث كانوا جاهلين باللغة الإنجليزية والعادات الغربية"[٩]. والمنتمين إلى غرب الهند كانوا أكثر سخطًا من تكليفهم بأداء أعمال الأحمال فى السكك الحديدية، وهى المهمة التى كان الجنود الأنزاك (Anzac) قد رفضوها للتو[١٠].

وقد كان الحادث الذى وقع فى عام ١٩١٨م مثالاً آخر لسمعة الجنود الأستراليين العنيدة والسيئة، والتى أصبحت تمثل صداعًا بالنسبة لكبار الضباط، وهو ما كان يُقارن دائما بتومى البريطانى سهل الانقياد. فالمحارب الأسترالى كان مخلوقا ذا عقل مستقل، وكان ارتباطه الأول والدائم بوحدته الموجود فيها. أما الضباط الأستراليون، والذين كان أغلبهم قادما من خلفية ترجع إلى الطبقة الوسطى، فكانوا يقومون بقضاء بعض من وقتهم بين جنودهم، وعلاقتهم معهم كانت منفتحة وبسيطة. وامتدادًا لروح الزمالة، قام أحد الضباط الأستراليين بمشاركة زجاجة الويسكى الخاصة به مع بعض قوات (NOC) البريطانية، وقد تم توجيه اللوم له من جانب المحكمة العسكرية البريطانية، وهو ما تم تفسيره بأن سلوكه هذا يُنقص من انضباطه العسكرى. ومثل هذه النظرة للانضباط العسكرى، بل أيضًا لكامل مفهوم الطبقية الذى قصد منه الدعم، كان مبهما تماما بالنسبة للجندى الأسترالى، ففى البداية شعر الأستراليون بالارتباط بالطاعة التى تشبه طاعة العبيد التى يظهرها الجنود الإنجليز لضباطهم (وقد كان الأسكتلنديون أقل خضوعا) ولكن توجههم أصبح لاحقًا، وأحد مظاهر الإذلال التى كانت موجهة لمن رفض أن يلزم نفسه بمثل هذه الطاعة(١١).

كان القادة البريطانيون، خاصة الجنرال هايج، منزعجين من أن روح العصيان الموجودة لدى الأستراليين يمكن أن تؤثر على طبيعة الجنود البريطانيين. ولكن فى الواقع كانت هناك غيرة غير مفهومة شعر بها الكثيرون من الجنود البريطانيين نحو الأستراليين؛ لأن الجندى الأسترالى كان يدفع له خمسة شلنات (٢٥ قرشا) فى اليوم مقابل شلن واحد للجندى البريطانى(١٢). وفى مصر، وفى فرنسا، فإن هذه الزيادة فى الرواتب كان يتم إنفاقها على شرب الخمر وعلى العاهرات، وقد كان هناك معارضون فى

الصحافة الأسترالية حول تعريض الشباب الغض لفساد الدولة السابقة[١٣]. وقد كان هناك ما يشبه الوباء من الأمراض التناسلية منتشرًا فيما بين الجنود الأستراليين الأنزاك في بداية عام ١٩١٥م وهو ما أدى إلى حالة من الشغب في القاهرة أدت إلى نهب الكثير من المواخير وحرقها. والمؤشرات اللاحقة لتمرد الأستراليين شملت حالتى تمرد فردى فى فرنسا فى عام ١٩١٨م وتدمير إحدى القرى العربية وقتل العديد من سكانها كانتقام لقتل أحد الجنود النيوزيلانديين.

وعلى العكس من ذلك فإن الجنود الهنود المحترفين كانوا يعرفون أن واجبهم هو الحفاظ على النظام، أو كذلك كان يعتقد ضباطهم. ولكن ضغط الحرب قد برهن على أنهم يخطئون، فبالنسبة للروح القتالية للقسمين الهنديين اللذين تم إرسالهما إلى فرنسا فى خريف عام ١٩١٤م، فقد تبخرت هذه الروح بسرعة. وعلى الرغم من الإصلاحات الداخلية التى تمت خلال العقد السابق فإن الجيش الهندى والضباط الرئيسيين فيه كانوا غير مجهزين بدنيا وعقليا لخوض حرب أوربية حديثة. فاجتماع كل من البرد والطقس الرطب والإصابات الثقيلة غير العادية (بعض الوحدات نقص عددها إلى النصف فى عملية واحدة) التى عانوا منها فى المعركة؛ فإن هذا أدى إلى تدهور معنوياتهم وهو ما انعكس فى شكل قيام بعضهم بإصابة نفسه بنفسه أو ادعاء المرض خلال شتاء ١٩١٤، ١٩١٥م[١٤]. وفى مايو عام ١٩١٥م فإن خطابات مراقبى الجنود الهنود قد أظهرت أن عددًا كبيرًا منهم كان مصابًا باليأس من الحياة، وخاف الجنرال هايج أن لا يكون هناك أى مانع من قيام تمرد[١٥]. والحكومة الهندية التى حاولت عبثًا أن تظل على علم بمدى سخط جنودها. حاولت التعاون، وفى سبتمبر تم سحب البعثة الهندية من فرنسا وإرسالها إلى بلاد ما بين النهرين.

وكانت عملية نقل القوى العاملة الخاصة بالإمبراطورية فى عام ١٩١٤ قد تمت وفق مراحل بطيئة وبدون خطة سوى الحاجة إلى إيجاد جنود ليحلوا محل الحاميات الإمبراطورية المكونة من الجنود النظاميين البريطانيين؛ هناك حاجة ماسة لهم فى فرنسا. وقد كانت هناك أحداث أثناء شتاء ١٩١٤، ١٩١٥ أدت إلى تخفيض شكل المجهود الحربى واتجاهه فى الإمبراطورية. فمع نهاية العام كان الصراع مع فرنسا قد تطور إلى ما يمكن وصفه بأنه حصار ممتد. وقد كانت هناك جبهتان محصنتان جيدا، وكل منهما تبلغ فى العمق عدة أميال وتمتد من القناة الإنجليزية حتى جبال الألب. وطوال السنوات الثلاث والنصف سنة التالية فإن الجيوش الإنجليزية والفرنسية والألمانية حاولت القيام بكسر التحصينات المكونة من الخنادق والأسلاك الشائكة والمتاريس واختراقها. وفى نفس الوقت فإن المناورات المضادة من القادة الكبار لاكتشاف صيغة عن طريقها يمكن الجمع بين كل آلات الحرب الحديثة مثل المدافع الرشاشة والقذائف عالية الانفجار وقاذفات القنابل والطائرات والغازات السامة والدبابات واللاسلكى فى فتح الحصار، ولكن هذا الإجراء أصبح أكثر صعوبة عن طريق التحسينات المستمرة فى تقنيات الدفاع.

وكانت عملية محاولة اكتشاف طريقة لإنهاء حالة الفشل التام فى الغرب كانت بطيئة للغاية. وقد اتصفت بوجود عدد من أعمال الهجوم الضخم فى الفترة ما بين عام ١٩١٥ وعام ١٩١٨ مع إصابات فى الرجال بلغت مئات الآلاف، ولم تحقق إلا أهدافًا تكتيكية ضئيلة للغاية. وقد كان الجنرال هايج، الذى تسلم قيادة القوات الخاصة البريطانية فى ديسمبر من عام ١٩١٥، قد برر هذه الإستراتيجية على أنها ستؤدى إلى إيصال الجيش الألمانى إلى حالة إجهاد مادى ومعنوى. وقد كانت هذه مسألة مشكوكًا فيها.

وقد كان ما يحتاج إليه الحلفاء هو استمرار تدفق المحاربين لتعويض الخسائر التى كانت نتيجة لا يمكن تجنبها من الإنهاكات التى سببتها الحرب. وحتى يتم ذلك، مع الإيمان بأن المعارضة سوف تنتهى قريبا، فإن البريطانيين قد اعتمدوا على المتطوعين.

وقد تم النظر إلى التجنيد الإجبارى على أنه غير مقبول من أولئك المشبعين بأفكار تتعلق بالحرية الفردية التى تم اكتسابها فى بريطانيا. ومبادئ هذا النوع من الأفكار، كانت تعتبر بمثابة كماليات فى وقت الحرب ولأن تدفق المتطوعين قد ضعف: فإن الحكومة البريطانية أجبرت على العمل بالتجنيد الإلزامى منذ عام ١٩١٦. وقد اتبع النيوزيلنديون نفس الأسلوب فى مايو، أما فى أستراليا فكانت هناك مقاومة كبيرة للخدمة الإجبارية فى الجيش.

وقد كانت المشكلة مزدوجة، ولكن الجماهير صوتت ضد الإجباري فى التجنيد فى استفتاءين تما فى أكتوبر عام ١٩١٦ وفى ديسمبر عام ١٩١٧. وفى إحدى المرات كانت هناك معارضة قوية من جانب الأستراليين المنحدرين من أصل أيرلندى الذين كرهوا ما قام به البريطانيون فى دبلن الشرقية فى عام ١٩١٦، وقد كانت الحكومة البريطانية مترددة فى أن تسمح بالحكم الذاتى لهم. وقد فتح التجنيد الإجبارى أيضا الباب أمام الاختلافات العرقية فى كندا؛ حيث عارض الكنديون الفرنسيون تشريع التجنيد الإجبارى الذى تمت الموافقة عليه فى أغسطس عام ١٩١٧م. وقد أدى تنفيذه أثناء الشتاء والربيع من عامى ١٩١٧، ١٩١٨م إلى تصاعد أعمال العصيان فى إقليم كويبك. وكان الخوف من حدوث صدام فيما بين من لهم أصول بريطانية الذين كانوا يدعمون الحرب بشكل كامل، وذوى الأصول الأفريقية الذين كانت هناك أقلية منهم فى السابق قد أحبطت محاولات حكومة جنوب

أفريقيا عن أن تقوم بفرض التجنيد الإجباري. وكانت ردود الفعل على تجنيد الأستراليين ذوي الأصول الأيرلندية والكنديين والبوير تذكرة أنها داخل الحلف الأبيض، وكانت هناك مجتمعات جعلت الذاكرة الجماعية لها من المستحيل أن يكون لديهم أي تعاطف طبيعي مع بريطانيا أو أي ارتباط عاطفي مع فكرة الإمبراطورية.

في حين قامت الدول المتحالفة بوضع الكلمة الفاصلة في أنها ستقوم بتطبيق التجنيد الإجباري أم لا، فإن السيطرة الكلية على المجهود الحربي في الإمبراطورية وتوزيع الموارد الإمبراطورية كانت مسئولية وزارة الحرب البريطانية والقادة الكبار. وقد عمل كل منهم بجد وبتجانس مع رفقائهم الفرنسيين، وكانوا ملتزمين بأن يأخذوا في اعتبارهم احتياجات حلفائهم. ولكن المؤامرات والجدالات السياسية الداخلية لم تنته بنشوب الحرب، بل إنها أصبحت أشد وأقوى؛ لأنه أصبح من الواضح أن الحكومات المتتالية قد فشلت في تحقيق انتصارات. وحكومة الحرب الليبرالية التي كان يرأسها إسكيث، والتي حصل فيها بطل الإمبراطورية كتشنر على وزارة الحرب- قد حلت محلها حكومة ائتلافية في عام ١٩١٥م. وقد بقي إسكيث في المنصب حتى ديسمبر عام ١٩١٦م، عندما أطيح به بواسطة مؤامرة قام بها أصحاب الصحف والسياسيون الذين اعتقدوا أنه لا يملك القدرة والإرادة اللازمتين للفوز في هذه الحرب. وقد حصل لويد جورج على منصبين بالإضافة إلى الحضور الكاريزمي. وقد خلف إسكيث في رئاسة الحكومة الائتلافية التي ظلت برغم أنها كانت غير مستقرة، لعامين آخرين.

جعلت عملية قيام الوزارات وسقوطها كلا من الوزراء وبالطبع لواءات الجيش والبحرية يجدون في ذلك دليلاً على وجود نزاع وانقسامات بين أولئك المسئولين عن تقرير إستراتيجية الحرب. ومع حلول عام ١٩١٥ كانت

هناك وجهتا نظر متميزتين ظهرتا بخصوص طبيعة سير الحرب وكيف يمكن الفوز بها. فقد كانت هناك وجهة نظر الغربيين الذين رأوا، وكان يدعمهم في ذلك الفرنسيون أيضا، أنه يجب تركيز الموارد في فرنسا على الأراضي الوحيدة التي يمكن بها هزيمة الجيش الألماني وتحقيق النصر. ومن جهة أخرى كان هناك الشرقيون الذين كانوا يرون أن الحرب في فرنسا قد أصبحت في مأزق شديد، كما كان يظهر ذلك من قوائم الإصابات اليومية، وهم الذين كانوا يرون أن تحقيق تقدم في هذه الجبهة لا يؤدي إلا إلى خسائر في الأرواح. وبدلا من ذلك لا بد من الهجوم على حلفاء ألمانيا، وهي بمثابة الأوعية الأضعف التي يمكن أن تتكسر بسهولة وتدميرها يؤدي إلى إضعاف ألمانيا ذاتها.

وقد كانت تركيا هي الهدف الأول لتيار الشرقيين؛ فالهجوم على منطقة المضايق التركية قد يؤدي إلى هزيمة تركيا وفتح الباب أمام روسيا التي يبدو أنها تعاني بشدة من الحرب. بالإضافة إلى أن هذا المشروع كان ذا جاذبية للاستعماريين أنصار الإمبراطورية من أمثال تشرشل وكتشنر، فبإمكان بريطانيا أن تأخذ نصيبها من الأقاليم التركية. وقد كان الزحف نحو تركيا قد بدأ بالفعل من قبل في نوفمبر عام ١٩١٤م؛ حيث قامت القوات الخاصة الهندية باحتلال البصرة، وقد كانت تتقدم بتردد نحو الشمال، بينما كان الروس يقومون بغزو شرق الأناضول. وقد كانت الاتصالات الدبلوماسية لتقسيم الغنائم فيما بعد الحرب ممكنة. ومع نهاية العام فإن روسيا كانت قد مُنحت منطقة المضايق، وبعد أن تم توقيع اتفاقية (سايكس بيكو) في مايو من عام ١٩١٦م حددت هذه الاتفاقية الحدود الرسمية وغير الرسمية للإمبراطورية البريطانية والفرنسية في سوريا ولبنان وفلسطين والعراق.

ولذلك فإنه طبقا لرأي الشرقيين فإن العمليات ضد تركيا سوف تؤدي إلى اختراق البطن الرخو لألمانيا، وهو ما يقود إلى جبهة البلقان ضد

الإمبراطورية النمساوية المجرية ويقدم فرصة لتوسيع الإمبراطورية. وكما كان يبدو فى الفترة ما بين عامى (١٩١٥-١٩١٧م)، كان من المستحيل كسر الحصار المفروض على فرنسا، ففى هذا الحالة فإن محادثات السلام مع ألمانيا سوف تؤدى إلى تحقيق الهدف. ولذلك فإن بريطانيا كان يجب عليها أن تقوم بمساومات مضادة، وأن تكون لديها نظرة للمستقبل. وقد ذكر السير مارك سايكس، وهو عضو برلمانى عن يوركشاير متخصص ولديه خبرة كبيرة بالشرق الأوسط، فى عام ١٩١٦ أنه عن طريق تضييق الخناق على جنوب العراق، فإن بريطانيا سوف تكون فى وضع أفضل لمقاومة تعديات الروس فى المنطقة بعد الحرب، وهو مثل آخرين كثيرين مثله، يعتقد أنه بعد انتهاء الحرب، فإن القوى العظمى بعد أن تنتهى الحرب سوف تستمر صراعاتها حول النفوذ واحتلال الأقاليم.

وقد سادت آراء الشرقيين داخل وزارة الحرب، وكانت النتيجة هى حملة الدردنيل فى ربيع عام ١٩١٥م. والداعمون لهذه الحملة قد ادعوا أنها لن تؤدى فقط إلى إخراج تركيا من الحرب، ولكنها سوف يكون لها أيضا تأثير كبير على القوة العسكرية للإمبراطورية البريطانية وفرنسا. ولكن هذه الثقة الزائدة فى قوة الإمبراطورية قد تبين خطؤها بسرعة. فقد كان عدد القوات التى تم إنزالها ١٢٩٠٠٠ كان ثلثهم من الأنزاك، ولكن المقاومة التركية كانت عنيدة. وقد استمرت الحملة حتى الخريف، وعندما كان من الواضح أنه لن يكون هناك نصر فإن وزارة الحرب قامت بشكل متردد بالموافقة على الانسحاب.

وعملية الجلاء من شبه جزيرة جاليبولى فى ديسمبر من عام ١٩١٥م بمثابة عملية إذلال للقوى الاستعمارية، خاصة بريطانيا.

والحكمة الاستعمارية التقليدية، التي تم ذكرها بعد فترة قصيرة من أحد كبار الضباط الهنود، تقول "إننا نحتل المكانة الأساسية وإننا ورثة سيادة الأوروبيين باعتبارهم رجال حرب على الآسيويين"(١٥). ولكن هذه الحكمة لم تعد حقيقية فقد هزم الجيش التركى جيش البيض، وأثبت أن الأوروبيين يمكن هزيمتهم. وقد كانت معركة جاليبولى قد أكدت للشعوب الموجودة فى آسيا وفى الشرق الأوسط أن درس هزيمة روسيا على أيدى اليابان منذ عشر سنوات مضت تعنى أن جيوش البيض ليست هى الجيوش التى لا تقهر. ومصطفى كمال باشا، الذى قام بالتخطيط والتنفيذ لعملية الدفاع عن الدردنيل والمعروف باسم كمال أتاتورك، صار مركز الحركة القومية التركية وقائدها وأصبح مثالاً يحتذى به للقوميين الآخرين فى الشرق الأوسط. وقد كانت هناك انتكاسة أخرى للسيادة الأوربية فى أبريل من عام ١٩١٦م، عندما أجبر جيش مكون من الهنود والإنجليز على أن يستسلم عند كوت الأمهرة على نهر دجلة.

وقد أدت الانتكاسات فى غاليبولى وكوت إلى تدمير هيبة بريطانيا. وأكدت الأخيرة عدم صلاحية الجيش الهندى لاستخدام معدات الحرب الحديثة، أو على الأقل عدم صلاحيتهم لاحتلال المناصب القيادية فى الجيش، والزحف على تركيا قد اتضح أنه مهمة أكثر صعوبة من تلك المهمات المماثلة التى تمت فى كل من أفريقيا والصين. وفيما يتعلق بالفوز فى الحرب فإن حملتى جاليبولى والعراق كانتا، كما كان يؤكد التيار الغربى قبل ذلك، أقامتا عروضًا جانبية لا تؤدى إلا إلى فقد الرجال الذين نحتاج لهم لخوض الحرب الحقيقية فى فرنسا.

وقد مثلت حملة جاليبولى الأساس الذى بنى عليه جون بوشان روايته (Green mantle)، التى نشرت فى أكتوبر من عام ١٩١٦. وتدور أحداث الرواية

تدور حول محاولة القيادة التركية الألمانية العليا إشعال ثورة فيما بين المسلمين في شمال أفريقيا وفي منطقة الصحراء الكبرى وفي الشرق الأوسط والهند باسم رجل مسيحي مقدس. وقد تم منع قيام الحرب المقدسة الوهمية في آخر لحظة، ولكن احتمالية قيام حرب حقيقية كانت مصدرًا لا ينتهي لقلق الحكومات البريطانية والهندية طوال فترة الحرب. وفي نوفمبر من عام ١٩١٤م، تحدث باعتباره خليفة المسلمين (أى الرئيس الروحي لجميع المسلمين السُنّة في العالم) وقد أعلن الجهاد ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا. هذه القوى الثلاث كانت بمثابة العدو الذى لا يرحم للإسلام، فقد قاموا بمحاربة المسلمين لقرون عديدة، وقاموا بانتزاع أراضيهم منهم في أفريقيا والشرق الأوسط وآسيا. والآن فإن المسلمين يمكنهم أن يتوحدوا ويقاوموا تحت راية الإيمان، لاسترجاع ما أخذوه منهم.

وأصبح الكابوس حقيقة. فقبل ثلاث سنوات ذكر اللورد فيشر أن "العالم لا يعلم بعد ما الذى يمكن أن يفعله المسلمون إذا تملكت الحماسة المقدسة منهم"[١٦]. وقد شاركه هذا الفهم الحكام البريطانيون الذين حكموا مناطق إسلامية. فإعلان الجهاد يمكن أن تكون له آثار ضارة كبيرة خاصة في الهند؛ حيث هناك سبعة وخمسون مليون مسلم، وهم يشكلون المصدر الأساسي للمجندين في الجيش. وكانت عاطفة الجهاد أقوى في الحدود الشمالية الغربية، وكان الشباب القادمون من هذه المنطقة ميالين بشكل أكبر لوضع العقيدة قبل الولاء لملك الإمبراطورية، ويمكن أن يهجروا الجيش. وهناك عدد من سكان صحراء باثان كان من المعروف أنهم يعملون مع المخابرات التركية والألمانية أثناء الفترة من ١٩١٥، ١٩١٦م، وبعض منهم قد يرجع إلى موطنه الأصلي لإشعال الثورات ضد بريطانيا. والأكثر خطورة هو العصيان الذى حدث في عام ١٩١٤، عندما رفض ١٣٠ رجلاً من البلقان الحرب ضد

تركيا، حيث كان هناك تمرد آخر أكثر دموية فى فبراير من عام ١٩١٥م من كتيبة المشاة الخفيفة الخامسة فى سنغافورة، وفيه قام المتمردون بقتل ضباط ومدنيين أوربيين. وفى كلتا الحالتين فإن المتمردون، كانوا يحاصرون ويُصابون بالإرهاق ويتم إعدام زعماء الثورة علنًا. وقد أجرى تحقيق رسمى بعد أحداث سنغافورة أظهر أنه كانت هناك آثار مدمرة لفكرة الوحدة الإسلامية، وأن هناك انتشارًا لعدم الارتياح لدى كثير من الجنود بسبب ما يُنشّر فى التقارير عن الخسائر الثقيلة التى تحدث بين القوات الهندية فى فرنسا.

وقد شعرت الإدارة الهندية بصدمة كبيرة من هذه الأحداث؛ توقعت حدوث المزيد من القلاقل. وقد أخبر اللورد هاردينج نائب الملك كتشنر فى مارس من عام ١٩١٥ "إننى أحتاج لكل جندى أبيض فى الهند يمكننى الحصول عليه"[٦٧]. وقد كان الذعر المصاب به معديًا ففى أبريل من عام ١٩١٦، فإن وزارة الحرب قد قامت بتحويل قسمين كانا فى مصر فى ذلك الوقت إلى الهند؛ حيث كانت هناك فى هذه اللحظة علامات على وجود ثورات جهادية أو حدوث غزو أفغانى[٦٨]. وبعد شهرين فإن ونجت كان يطلب من القاهرة ولندن باستمرار قوات من أجل مواجهة ثورة على دينار. وقد كانت ذكريات تمرد عام ١٨٥٧ فى الهند والمهدية فى السودان لاتزال حية، وأدت إلى زيادة المرارة فى حلق المسئولين، ولكن سلوكياتهم أيضا كانت تشير إلى وجود اعتقاد راسخ بأن السلطة البريطانية فى العالم الإسلامى سريعة الزوال.

ولأنه قد اتضح فيما بعد أن هذه الإنذارات كان مبالغًا فيها. فإن البرنامج الطموح الذى قد تكون له خطورة محتملة للوحدة الإسلامية الذى

كانت تخطط له المخابرات التركية والألمانية فى سرية قد فشل بسبب سوء الإدارة والنزاعات الداخلية وتباعد خطوط الاتصال. فانفجار التعصب والتمرد والانقسامات التى تمت هناك قد أثبتت أنها عوامل مثبطة. فهجوم السنوسيين الليبيين على مصر فى عام ١٩١٦م وثورة على دينار فى السودان فى عام ١٩١٦م، وسلسلة الثورات التى تمت فى الصحراء الفرنسية كانت تحركها جميعها قوى داخلية. والثورات التى تمت فى منطقة الصحراء الكبرى فوجئت بوجود عساكر نيجيريين، تمت إعارتهم لفرنسا فى الفترة من عام ١٩١٦-١٩١٧، وهو ما يعطى مثالا على التعاون بين القوتين الاستعماريتين المتنافستين سابقا[١٩].

وساعد على إحباط هذه الثورة الاسلامية هؤلاء الأمراء المسلمون فى الهند وفى أفريقيا الذين كانوا يدينون بسلطاتهم لبريطانيا. فكل من أغاخان وسلطان زنجبار وأمراء شمال نيجيريا (الذين قاموا بالتبرع بمبلغ ١٨٨٠٠٠ جنيه إسترلينى لصالح صندوق الحرب البريطانى) قد ظلوا متمسكين بولائهم وقاموا بإصدار دعاوى جهادية مضادة لمشاركين لهم فى الدين، وتلك الدعاوى كانت، من بين عوامل أخرى، تقول بأن فكرة الجهاد ليست أكثر من خدعة ماكرة من الألمان. والتأثير الروحى للشريف حسين، شريف مكة، أيضا أضاف كثيرًا من الثقل إلى الدعاية البريطانية بعد يونيه من عام ١٩١٦م عندما قام رسميا بإعلان انفصاله عن الإمبراطورية العثمانية وتحالف مع البريطانيين.

وقد كان الشريف حسين هو الزعيم القوى لما أطلق عليه فيما بعد الثورة العربية، وما بدا فى البداية خدعة إمبريالية بارعة هو ما قام بوضعه مجموعة من المتخصصين فى وزارة الحرب والخارجية والمخابرات الموجودين فى القاهرة ومنهم كان الكابتن، الذى أصبح فيما بعد الكولونيل،

ت. إ. لورانس (لورانس العرب) الذى أصبح مشهورًا جدًا. فمن خلال جهود الشريف حسين أملوا أن يقوموا بحصار الجهاد وفصل كامل للعرب عن الأتراك ومنعهم من التحالف معهم. ومن الناحية السياسية، فإن رأس العائلة الهاشمية المحافظ بشكل زائد كان شريكًا مثاليًا، ولكن دعوة الشريف حسين أدت أيضًا إلى جذب القوميين العرب الأكثر راديكالية، الذين كانوا يبحثون عن زعيم للدولة العربية التى سوف تنشأ بعد الحرب عن انهيار الإمبراطورية العثمانية. والمشكلة كانت، وقد أصبح ذلك واضحًا فى الفترة من ١٩١٧، ١٩١٨ حيث قامت القوات العربية التى يقودها لورانس بالتحرك صوب الشمال من الحجاز، وقد كانت لكل من بريطانيا وفرنسا مطامع سابقة فى الأراضى التى كان العرب يأملون أن يأخذوها لأنفسهم. بالإضافة إلى أن الحكومة الهندية كانت تقوم بوضع الخطط لكى يتم إلحاق العراق بها فيما بعد الحرب، وهذا ليس فقط إجراء دفاعيًا، ولكنه أيضًا يجعل من العراق مستعمرة يمكن للمهاجرين الهنود الإقامة فيها. ومن خلال رعاية القومية العربية فإن الحكومة البريطانية قامت بصنع ما وصفه اللورد هاردينج فى نبوءة له "وحش فرانكشتاين"[٢٠].

أدت قدرة بريطانيا على القيام بهجوم على الدردنيل؛ أدت إلى إمكانية تقديم مساعدات بحرية للعرب فى البحر الأحمر ونقل القوات من الهند ودول الحلف إلى أى مكان يرغبون فيه؛ وذلك بالاعتماد على السيطرة على المياه الدولية. وقد تحقق ذلك مع نهاية عام ١٩١٤. لقد كان ذلك مختلفًا تمامًا عما حدث عندما تحطم الأسطول البريطانى الضعيف بواسطة أسطول ألمانيا فى الشرق الأقصى عند كورونيل القريبة من ساحل تشيلى فى نوفمبر. وفى خلال شهرين تمت استعادة الهيبة والسيطرة على المنطقة من خلال معركة جزر فولكلاند؛ حيث هزمت السفن الألمانية بواسطة ضربة حظ؛ أمطرتها القوات البريطانية بوابل من القذائف.

وقد كان الأسطول يتحرك منفردًا ويحارب بالقرب من جوتلاند مع نهاية مايو عام ١٩١٦ ، وقد نتج عن ذلك استنتاج أن الألمان لن يعودوا مرة أخرى إلى الميناء بعد الخسائر الضخمة التى تكبدوها فى جراند فليت. ومع ذلك فإن ميزان القوة البحرية ظل لصالح بريطانيا.

وقد كانت البحرية الملكية حرة فى الاستمرار فى تضييق الحصار البحرى على الأراضى الألمانية، وقد بدأ هذا الحصار فى أغسطس من عام ١٩١٤. وقد كانت مقاومة الألمان، والتى أجهضت بسرعة فى عام ١٩١٥، قائمة على استخدام قوارب الحرب التى أعيد استخدامها مرة أخرى فى فبراير عام ١٩١٧. وقد توقع القيصر انهيار بريطانيا، وقد كان على حق تقريبًا فقد كان الهجوم الذى شنه على السفن البريطانية والسفن المحايدة المتجهة من الموانئ البريطانية، والذى يقصد منه تجويع البلاد وتحطيم اقتصادها خلال ستة شهور. وبيتى الذى كان يشغل منصب الأسطول الكبير، قد خمن ما هو مخبوء قبل يومين من بداية الحملة الألمانية فقد استنتج ما قد يحدث بقوله:

"لقد أصبحت فرنسا مجهدة". "إيطاليا متعبة". "وكل منهما لا يستطيع الحفاظ على استمرار عمل مصانعه بسبب النقص فى الفحم، ونحن لا نستطيع الحفاظ على الإمدادات لأن كل سفننا قد أغرقت". وقد تكون جيوشنا قد تقدمت وكبدت جيوش العدو آلاف الخسائر، ولكن السباق الحقيقى هو هل نستطيع هزيمتهم من خلال الحصار المضروب عليهم قبل أن يهزمونا عن طريق إغراق السفن التجارية الخاصة بنا[٢١]؟".

وعلى ذلك فقد كانت هناك حربان واحدة فى البحر وأخرى على البر، وقد كان الحلفاء يخشون كثيرًا من نتائج كلتا الحربين. وفى الحرب البحرية فإن الغواصات الألمانية قد أصبحت لها اليد العليا بحلول شهر أبريل من

عام ١٩١٧ عندما بدا كأن التجارة البريطانية عبر البحار كلها قد أصيبت بالشلل. ولكن الوضع المأساوى انعكس فى اللحظة الأخيرة عن طريق تطبيق نظام القوافل فى يونيه بعد أن اتجه لويد جورج لعدم الالتفات إلى نصيحة المتخصصين فى البحرية الذين صرحوا بأن الخطة التى يتبعها لن تنجح. وقد كان المتخصصون العسكريون قد أصيبوا بالإحباط، وأدركوا أن طريقهم فى فرنسا مسدود، وأن إمكانية الوصول إلى نتائج تؤدى لنصر نهائى ليست قريبة التحقيق. فالهجوم البريطانى على السلوم فى يوليو عام ١٩١٦ وعلى أراس فى أبريل عام ١٩١٧ وعلى باشندال فى يوليو ١٩١٧، قد فشل وقد فشل الهجوم الفرنسى على أسين فى ١٩١٧ فى كسر خط الهجوم الألمانى وانتهى بأن عانى المهاجمون تحمل الإجهاد والخسائر الثقيلة. بالإضافة إلى أن المعركة الدامية التى حدثت فى أسين أدت إلى انتشار أعمال العصيان فى مختلف أجزاء الجيش الفرنسى.

وعندما كان الهدف الذى تحارب من أجله فرنسا قد بدأ يتلاشى، انهارت روسيا تمامًا. فقد انهار حكم القيصر فى فبراير من عام ١٩١٧ ورأت الحكومة المؤقتة التى خلفته أنه من المستحيل الاستمرار فى الحرب. وفى نوفمبر من عام ١٩١٧ استولى البلاشفة على السلطة فى روسيا، وفى خلال ستة أسابيع قاموا بتوقيع هدنة عسكرية مع كل من ألمانيا وتركيا. وكان دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب فى أبريل من عام ١٩١٧ قد أعاد الاطمئنان إلى الحلفاء، ولكن كانت هناك حاجة لسنة على الأقل لحشد القوات الأمريكية المسلحة وتجنيدها وإرسالها لفرنسا؛ حيث كانوا يعتقدون أنه المكان الذى يمثل رأس الحربة فى إعادة التوازن. وقد رحبت بريطانيا بالبحرية الأمريكية ولكنها لم ترحب بالتدخل الأمريكى فى توجيه الحرب. وقد لخص الضيق البريطانى روبرت فانستريت وهو أحد الدبلوماسيين المبرزين بقوله:

"إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تزال لها هيبتها أكثر منا، وإنها تصر على القفز على الإمبريالية البريطانية، ولذلك دخلت الحرب وقد تساءلنا إن كانت الدولة المحاربة الجديدة لها احتياجات تتشابك مع احتياجاتنا أم لا؟"[٢٢].

وإذا نظرنا من المنظور المجرد لأحداث عام ١٩١٧، يبدو أن الحلفاء لن يستطيعوا أبدًا هزيمة الجيش الألمانى مهما قال الجنرال هيج (Haig) وزملاؤه بخلاف ذلك. وهذا الاستنتاج بأن الحرب قد تنتهى بتسوية سلبية قد سيطر على عقول الوزراء ومستشاريهم. وإذا كان لا بد من عقد معاهدة، أعتقد أنها لا بد أن تكون على نسق تسوية فيينا فى عام ١٩١٥ مع إعادة توزيع الأقاليم ومناطق النفوذ. وعلى ذلك فسوف يكون من الضرورى عندما يتوقف القتال أن يكون البريطانيون فى موقف يمكنهم من الحصول على أى مما يحتاجون إليه لحماية إمبراطوريتهم القائمة أو ربما لتوسيعها.

ومن جوانب عدة فإن هذه النظرة للحرب البريطانية كانت تهدف إلى توسيع نطاق فلسفة التيار الشرقى، وأنهم يعارضون التخلي عن أفكار الاستعماريين الذين سيطروا على وزارة الحرب التى ترأسها لويد جورج. ورئيس الوزراء الذى كان فى السابق أحد البوير، وكان مناهضًا للإمبريالية قد غير مبدأه فى أغسطس عام ١٩١٨، وأظهر إعجابه بكل من دزرائيلي وتشابرلين وموافقته على ما كان يقوم به ليو أمرى، على الرغم من أن معلوماته عن الإمبراطورية كانت لا تزال مشوَّشة، لأنه تحدث عن نيوزلندا ذات مرة، وذكر أنها موجودة فى مكان ما غرب أستراليا[٢٣]. ولا شك أن جهله بالطبيعة الجغرافية للإمبراطورية كانت تعوضه الخبرة الاستعمارية لرفقائه المقربين وهم ملنر وكورزون. وقد انضموا بعد مارس ١٩١٧ بواسطة رؤساء وزارات دول الكومنولث أو نوابهم؛ حيث سمح لهم بحضور اجتماعات وزارة الحرب من وقت لآخر. ومن هؤلاء القادمين الجدد فإن

الأكثر ذكاءً وقدرة منهم كان المقدم جان إسموتس، وقد كان وزير الحرب فى حكومة جنوب أفريقيا. وهو من قاطنى أفريقيا، وقد تعلم فى جامعة كامبريدج وعمل محاميًا، وقد قاد قوات الكومندوس أثناء حرب البوير، ثم بعد ذلك أصبح مساندًا للاستعمار ومن أنصار ارتباط جنوب أفريقيا بإنجلترا. وقد كان إسموتس مثله مثل باقى وزراء الحرب يتلقى تحليلات أسبوعية عن وضع العالم، وهذه التحليلات كان يقوم بها استعماريون أذكياء مثل ليوأمرى والسير مارك سايكس.

وقد كان الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية ورفاهيتها المعيار الحاسم لتحديد أهداف بريطانيا من الحرب. وقد أوضح كيف يمكن تحقيق هذه الأهداف فى مذكرة بتاريخ ديسمبر عام ١٩١٦ اقترح فيها أن تسمح بريطانيا لألمانيا بالاحتفاظ بمستعمراتها مقابل حصول البريطانيين على السيطرة المطلقة على كتلة من الأقاليم تمتد من البحر الأحمر حتى الخليج الفارسى. "والجرمانية النقية" كانت هى رد اللورد روبرت سيسل، سكرتير وزارة الخارجية[٢٤]. ولكن فيما يتعلق بالأمن الإمبراطورى المستقبلى فإن سياسة أمرى كانت تتميز بأنها ذات حس ممتاز. ففى غضون أشهر قليلة أصبح لويد جورج ملتزمًا باستعادة العراق وفلسطين بعد الحرب، وفى يونيه قام بتعيين السير جنرال إدمون اللنبى ليقوم بقيادة القوات الخاصة المصرية مع إصدار أوامر له بالاستيلاء على القدس بحلول أعياد الميلاد. وقد كان رئيس الوزراء يأمل أن يقوم هذا النصر بدعم سمعة وزارته، وأن يكون بمثابة العلاج للإرهاق من الحرب الذى كان قد أصاب العديد من قطاعات المجتمع البريطانى.

وقد سقطت القدس وفقًا للجدول المحدد، وتم توزيع التسجيل الرسمى لدخول اللنبى القدس على شاشات العرض كافة فى أنحاء الإمبراطورية كنوع

من الدعم المعنوى. وقد ذكر لويد جورج فى إحدى المناقشات التى جرت فى مجلس العموم قبل أعياد الميلاد، وأشار فى حديثه إلى سقوط القدس، وأن بغداد بعد أشهر قليلة سوف تخضع للغزو الاستعمارى:

"أنا أعرف أن هناك من تحدث عن صفقة جيدة تحدث فى الأروقة الجانبية. والإمبراطورية البريطانية تدين للصفقة الجيدة التى تتم فى الأروقة الجانبية. فخلال السنوات السبع من الحرب، التى كانت أيضًا حربًا أوربية عظمى... فإن الأحداث التى يذكرها جميع الإنجليز ليست هى المعارك الكبيرة على أرض القارة الأوربية ولكن المعارك التى تمت على الأراضى المقدسة وعلى جبال إبراهيم(٢٥)"..

ودلالات هذه الإشارات كانت واضحة، وهى أن تحتفظ بريطانيا بكل من كندا والبنغال، وقد تحتفظ بكل من فلسطين والعراق بعد الحرب. وتحول لويد جورج نحو تأييد الإمبريالية لا بد أنه قد جلب السرور لضباط الجيش ذوى المراتب العليا الذين كانوا دائمًا مهتمين لوجود حدود آمنة يمكن الدفاع عنها للإمبراطورية. وتقسيم أراضى الشرق الأوسط قد يؤدى إلى خلق مسار واسع يمكن أن يربط مصر والهند، ويعمل كدرع ضد أى عدوان قادم من الشمال. والاستعماريون الكبار مثل سيسل ورودس كانوا يفكرون على نطاق واسع. وأحدهم، وهو عضو مسئول له سجل طويل فى خدمة الحدود فى آسيا، إنه لم يوجد شىء يعادل تقدم الجيوش البريطانية فى كل من فلسطين والعراق منذ ما يقارب ألفى عام. والسكان الأصليون- كما كان يعتقد- سوف يخضعون لإصرار عرقنا على البقاء. فجنسنا قد فتح عينيه على ما لم يقم أوربى بفتح عينيه عليه منذ أيام الإمبراطورية الرومانية(٢٦).

هل ما كان يرتب لحدوثه فى أوربا بعد هذا التوجه الإمبريالى الجديد سوف يؤسس على رمال الشرق الأوسط؟ ولكن الأمور أصبحت معقدة بشدة

بسبب توجهات الرئيس الأمريكى ويدرو ويلسون والنقاط الأربعة عشر التى وضعها وقدمها للكونجرس الأمريكى فى يناير من عـــام ١٩١٨ باعتبارهـــا الأهداف التى يسعى لها الحلفاء من خوض الحرب. وبرنامج الـــسلام الـــذى اقترحه كان عبارة عن مزيج مقدم؛ كرد على المطالب التى قُدمت أخيرًا إلى البلاشفة من جانب الألمان؛ حيث ذكروا لهم بشكل واضح أن ثمن السلام هو سيطرة ألمانيا على جزء من الإقليم الروسى. وقد كـــان ويلـــسون مـــشبعًا بالمثالية. والقائمة التى قدمها للحلفاء كانت تتضمن الاعتراف فى فترة ما بعد الحرب بحق تقرير المصير لشعوب وسط أوربا وجنوبهـــا، الـــذين كـــانوا يخضعون إما لحكم الألمان أو لحكم الإمبراطورية النمساوية المجرية. والمادة الخامسة وسعت نطاق هذا المبدأ ليشمل مناطق بخلاف أوربـــا. والقـــرارات الخاصة بالمستعمرات التى سوف تحرر مستقبلاً من سلطة الألمان، وكـــذلك الأقاليم العثمانية: كان سيتم التوصل لها بعد مراعاة مـــصالح الـــشعوب ذات الصلة، تلك الشعوب التى كانت القوة الاستعمارية تطالب بأراضيها. وقد كان ويلسون مترددًا للغاية فيما يتعلق بهذا الاقتراح خوفًا من أن يواجه بمعارضة بريطانيا، ولكنه استخدم أسلوبًا فى صياغة النص أمَّل منه ألا يـــؤدى إلـــى تصدع التحالف الأمريكى البريطانى(٢٧).

ولكنه لم ينجح، فعقلية ويلسون وطريقته فى التفكير دمرت كل أمل فى إحلال السلام على طول الحدود التقليدية فى أوربا التى قايـــضت بريطانيـــا المستعمرات مقابل إعادة رسم الحدود فى القارة. وقد كان هذا مزعجًا للويـــد جورج والحكومة ولكنهم كانوا مـــضطرين للتعامـــل معـــه للحفـــاظ علـــى المساعدات المادية والمالية الأمريكية. وقد علق فانستريت على شروط السلام التى قدمها ويلسون بقوله: "إن الطبقة الحاكمة لدينا لن تستمتع بحكـــم جـــون بول وهو يضع خاتمًا فى أنفه". وقبل تسعة شـــهور مـــن نـــشر اقتراحـــات

ويلسون، فإن رئيس الوزراء المحافظ السابق آرثر بلفور حذر الحكومة بــألا تسمح للإحسان لدول وسط أوربا بــأن تقــف فـــى ســبيل تحقيــق الأمـــن الاستعمارى فيما بعد الحرب[٢٨]. فمصالح البولنديين والتشيك والرومـــانيين واليوغسلافيين الذين قاموا بالقليل أو لم يقوموا بشىء مطلقًا: يجب أن تظـــل أقل فى الأهمية من مصالح بريطانيا. بالإضافة إلى أن كـــلاً مـــن أســـتراليا ونيوزلاندا، اللتين حصلتا على الجزر الألمانية فى المحيط الهادى، وجنـــوب أفريقيا والتى قامت باحتلال جنوب غرب أفريقيا رفضت أن تتخلى عنها مرة أخرى، وبالمثل فإن الحكومة البريطانية لم تكن ترغب فى التخلى عن توجو والكاميرون اللتين استولت عليهما فى الفترة من (١٩١٤– ١٩١٦) ولا شرق أفريقيا الألمانى، تلك المنطقة التى احتلت بشكل نهائى بعد القيام بحملة دامية ومطولة فى ديسمبر من عام ١٩١٧.

كانت كل الأفكار التى تتعلق بالسلام ذات طبيعة أكاديمية خالصة حتى يناير من عام ١٩١٨. وقد تحولت القوات الألمانية، التى تحررت أخيرًا من الجبهة الروسية إلى جهة الغرب للتحضير لهجوم ساحق للفوز بالحرب؛ حيث توقعت أنه سوف يكون نصرًا غير مسبوق. وأولئك الذين ظلوا فى الخلف قد كانوا قد بدأوا التقدم نحو الشرق جهة البحر الأسود، بينما كان جيش الإسلام التركى المكون حديثًا يستعد للانطلاق نحو بحر قزوين. ولم تكن هنـــاك أى قوات روسية تستطيع مجابهتهم. ومع انتهاء العام فإن موقف الحلفـــاء قـــد تحسن فى كل مكان وأصبح آمنًا فى البحار، حيث ضعف تهديد الغواصـــات الألمانية.

وقد قامت ألمانيا بثلاث هجمات متعاقبة على فرنسا فى الفتـــرة مـــن مارس وحتى يوليو ١٩١٨، تلك التى اخترقت جزءًا من خط الحلفاء، ولكـــن فى كل مرة كانت القوات قادرة على إعادة التجمع والحفاظ علـــى مواقعهـــا

الدفاعية. وقد بدأت الهجوم المضاد فى أغسطس واستمر حتى نهاية أكتوبر. وقد فقد الجيش الألمانى الهدف والرغبة فى الاستمرار فى الحرب. وجاءت النهاية على غير ما كان الحلفاء يتوقعون، فقد كانت القيادات العليا لهم تحضر لعمليات يتم القيام بها فى عام ١٩١٩ على احتمال أن يتم تحقيق النصر فى العام التالى. وأثناء الأسبوع الأول من نوفمبر قررت عدم القدرة على الحفاظ على النظام فى ألمانيا، وتنازل القيصر عن العرش، والتمرد الذى قام به البحارة فى أسطول أعالى البحار؛ كل هذا جعل الحكومة مجبرة على طلب شروط للصلح. والمعاهدات التى سجلت استسلام الألمان دخلت حيز التنفيذ فى ١١ نوفمبر. وعلى الجبهات الأخرى كان هناك نفس القصة من اضطرابات قوية يتبعها انهيار سريع. وفى الشرق الأوسط فإن الهجوم الذكى والسريع الذى قام به اللنبى قد أدى لسحق الجيش التركى- الألمانى وقد تم تحرير دمشق بواسطة القوات الأسترالية فى ٣٠ سبتمبر. وخلال شهر، فإن كلاً من ألبو وأنتيوك قد أسقطا الحكومة التركية وأجبراها على الاستسلام. وبالمثل فإن هجوم الحلفاء على شمال إيطاليا وجنوب شرق أوربا أدى لتوقيع كل من النمسا والمجر وبلغاريا.

لقد ظلت الإمبراطورية البريطانية قائمة وانتصرت. ولاحقًا بعد احتلال ألمانيا تحدث كرزون، مدفوعًا بالحماسة؛ تحدث عن مستقبل تكون فيه للإمبراطورية السلطة العليا وقال:

"العلم البريطانى لم يرفرف من قبل على إمبراطورية أقوى وأكثر توحدًا من الإمبراطورية فى الوقت الحالى. فالبريتون لم يكن لديهم ما يدفعهم للنظر فى وجه العالم، ولم يكن لنا صوت مسموع بين الأمم ولم نكن نقوم بتحديد مستقبل الجنس البشرى ومصيره"[٢٩].

وهذا الحماس هو ما طغى على أقوال وأقلام رجال الدولة والسياسيين والصحفيين طوال الأشهر القليلة التالية. وأغلب هذه الأقوال كانت مبررة، فقد قامت الإمبراطورية بجهد خارق ودفعت ثمنًا باهظًا. وقد كانت الأعداد الكلية للقتلى والجرحى كالآتى:

	القتلى	الجرحى
بريطانيا العظمى	أربعمائة وستون ألفًا	سبعة وستون ألفًا
الهند	سبعمائة وألفان	١,٦٧ مليون
أستراليا	٥٩٣٠٠	١٥٢٠٠٠
كندا	٥٦٧٠٠	١٥٠٠٠٠
نيوزيلاندا	١٦٧٠٠	٤١٣٠٠
جنوب أفريقيا	٧٠٠٠	١٢٠٠٠
نيوفوندلاند	١٢٠٠	٢٢٠٠

وأغلب الإصابات قد حدثت على الجبهة الفرنسية؛ حيث فى نوفمبر١٩١٨، كان هناك ما يقارب مليونى جندى بريطانى بجانب ١٥٤٠٠٠ كندى و ٩٤٠٠٠ أسترالى و ٢٥٠٠٠ نيوزيلاندى. وقد كان هناك أيضًا ٣٠٦٠٠٠ من قوات الإمبراطورية؛ منهم٩٢٠٠٠ هندى و ٢٠٠٠٠ أسترالى يعملون فى مصر وفلسطين وسوريا. وقد كان هناك ٢٢٢٠٠٠ جندى يخدمون فى العراق؛ منهم ١٢٠٠٠٠ هندى و ١٠٢٠٠٠ بريطانى. وقد كان هناك ما يزيد على ثلث مليون من سكان البلاد الأصليين يعملون كعمال على خطوط الاتصال الممتدة فى أنحاء الشرق الأوسط كافة[٣٠].

وبالنسبة لدول الكومنولث، فإن خبرة الحرب كانت بمثابة الطريق نحو الوطنية. فعيد الأنزاك، الذكرى السنوية لإنزال الجنود فى جاليبولى، أصبح هو العيد الوطنى فى كل من أستراليا ونيوزلندا. وقد كانت المعانى العاطفية قد لعبت جزءًا فى تكوين صورة لأولئك الذين ماتوا فى سبيل الواجب الوطنى، وهو ما كان واضحًا فى الاحتفالات الصغيرة التى كانت تقام فى الاجتماعات الصباحية فى مدارس نيوزيلاندا أثناء فترة العشرينيات. وقد وقف صبى أمام صورة لجورج الخامس وقال: "ملكنا يدعونا للولاء والتضحية من أجل بلادنا وقوانينها التى صار يحكمها برضاء من شعبها. فليحفظ الرب الملك". بعد ذلك تلا الصبى هذه الأبيات:

"لقد برهنت الحرب العظمى على أن هناك آلافًا من النيوزيلانديين

يؤمنون بأن بلدنا الجميل يستحق الموت من أجله

ومثلهم فإننا نتعهد لأنفسنا بالحياة أو الموت من أجل بلادنا

ومن أجل قادتنا فى كل أنحاء الإمبراطورية"[٣١].

ولكن هل مات فعلاً الرجال من أجل الإمبراطورية؟ فحشد الشعارات والملصقات قد ضخم من فكرة الإمبراطورية.

والنشيد الوطنى الخاص بالجنود الكنديين المرتب على شكل حروف أبجدية، قد نص على أن حرف الـ E يعنى الإمبراطورية التى نستعد للموت من أجلها، وقد كانت هناك وفرة من البيانات والنشرات التى تظهر الأسد البريطانى يزأر ويداعب أشباله (دول الدمنيون)[٣٢]. وكيث فالث، وهو ابن أحد رجال الدين وكان عمره تسعة عشر عامًا عندما تم إلحاقه بالجيش الكندى، آمن أنه- وقد كان ذلك شائعًا بالنسبة للآخرين أيضًا - قد تعرض لعملية غسيل مخ بواسطة الدعاوى الإمبراطورية فى فترة ما قبل الحرب.

وقد ذكر "أنا لم أشك أبدًا" ثم أضاف: "فى أن ما كنا نقوم به هو الصواب، وأن الألمان كانوا على خطأ تام، وأننا كنا نحارب من أجل عالم أكثر أمنًا وديموقراطية[٣٣]". والجبهة لم تكن فى مكان للتلويح بالأعلام؛ لأن عقول الجنود كانت مركزة بالكامل على البقاء أحياء أو تجنب الإصابة فى المعارك. والجنود البريطانيون المنتمون للطبقة العاملة فى فرنسا كانوا لا يتأثرون بكلمة إمبراطورية، على الرغم من أن بعضًا منهم كان يثأر منها معتقدًا بشكل خاطئ أنها تُشير إلى صالة الموسيقى الإمبراطورية[٣٤]. وأثناء المحادثات التى قامت بها وزارة الحرب فيما يتعلق بمستقبل تنظيم الإمبراطورية فى يوليو ١٩١٨ فى ذلك الوقت كان رئيس الوزراء الأسترالى العمالى بيلى هيجز قد أشار إلى أن ثلاثة أرباع الرجال المنتمين لبلده والعاملين فى فرنسا لم يكونوا يريدون عمل شىء مع الإمبراطورية[٣٥].

ولم يكن معرفة دافع الجنود السود للقتال من السهل فى جميع الأحوال؛ فمن النادر أن نجد أحدًا منهم قد ترك أى تسجيل لخبراته. وعندما تطرح عليه أسئلة حول سبب الحرب فإنه كان يركز على احتمالية قيام الألمان باحتلال بلاده. وهذا ما كان يسمعه المجندون فى نياسلاند فى عام ١٩١٤[٣٦]. والنيجيرى الذى عمل حمالاً أثناء الفترة من (١٩١٦ – ١٩١٨) في حملات الكاميرون قيل له إننا سوف ندخل الحرب العظمى من أجل مساعدة جنود الملك الذين يحاولون منع الألمان من القدوم لبلادنا وحرقها[٣٧].

ومنذ بداية الحرب كانت هناك معطيات رسمية خاطئة فيما يتعلق بالتجنيد الضخم للجنود السود. وأحد المسؤلين فى وزارة المستعمرات ذكر أن وزارة حرب فى عام ١٩١٥ ذكرت:

"يجب ألا ننسى أن سكان غرب أفريقيا الأصليين الذين تم تدريبهم على استخدام الأسلحة وتعبئتهم بمقدار كبير من الثقة بالنفس عن طريق العمليات الناجحة التي كانت تقوم بها القوات المسلحة التي كان يقودهم فيها الأوربيون، يبدو أنهم لن يكونوا سهلي الانقياد في فترة السلم(٣٨).

لقد تم فهم هذه المسألة من جانب آخر وفق الحاجز العرقي. وفي جنوب أفريقيا اعترف أيضًا سولمون بلاتيج بخطر أن يقوم السود بمحاربة البيض. وعلى الإمبراطورية أن تطبق مبدأ ينص على أن الرجل الملون لا بد ألا يقوم برفع يده ضد الرجل الأبيض إذا كان هناك أي قانون أو أمر صادر له سواء في الهند أو في أفريقيا أو أي جزء من الإمبراطورية(٣٩).

لم يكن أتباعه من السود يطلبون قتل الرجال البيض، ولكن يقومون بأعمالهم الروتينية، أو كما قال جورج الخامس عنهم عندما وصلوا لفرنسا في يوليو عام ١٩١٧: "من دون توفير الذخيرة فإن جيوشي لا تستطيع القتال، وبدون الطعام فإنهم لا يستطيعون الحياة. إنك تساعد على إرسال هذه الأشياء إليهم يوميًا، وبذلك فإنك تصوب رماحك تجاه العدو"(٤٠). وكان تأثير حديثه هذا على مستمعيه غير معروف. والكثير كان مندهشًا من مقابلة رجال سود متعلمين، يظهرون بوضوح على أنهم مساوون للبيض، عندما كانوا ينزلون لفترة قصيرة في فري تاون في سيراليون. وقد كانوا أيضًا مندهشين من رؤية رجال بيض يعملون في أحواض السفن في ليفربول والطرق المفتوحة والسهلة لدخول النساء للميناء(٤١).

ترك السود القادمون من جنوب أفريقيا خلفهم بلدًا فيه يدفع الرجل الأسود إلى قاع المجتمع. والهنود المنتمون لغرب الهند كانوا قادمين من مجتمع يتمتع فيه الرجل الأسود بميزات أكبر، فقد كان يتعلم على يد الإرساليات التبشيرية ويُحكم بأسلوب عصري من خلال الإدارة الاستعمارية.

على الرغم من بسالتهم فى القتال أثناء الحملة على فلسطين، فإن المتطوعين من غرب الهند، المتحمسين لخدمة بريطانيا، قد واجهوا بعض التمييز العرقــى وهو ما أصابهم بالاستياء والغضب. وقد انفجر استياؤهم فى شكل تمرد فــى تورنتو في ديسمبر عام ١٩١٨. وأثناء اجتماع مع المحتجين فإن أحد الرقباء صرخ قائلاً: "الرجل الأسود يجب أن يُمنح الحرية، وأن يحكم نفسه بنفــسه فى غرب نهر السند". وقد حذر السير جورج فيتس وهــو ســكرتير دائــم فى وزارة المستعمرات المسئولين فى غرب نهر السند من أن الطبقة البيضاء لا تقدر العادات المختلفة للرجال السود(٤٢).

وقد نظر القوميون الهنود للمجهود الحربى الذى قامت به بلادهم كخطــوة على طريق الحكم الذاتى. وقائدهم هو مهندس غاندى، خدم فى إحدى الوحــدات الميدانية فى حرب البوير، وأثناء تمرد قبائــل الزولــو فــى عــام ١٩٠٦، عرض خدماته مرة أخرى، ولكن إصابته بمرض ذات الجنب منعتــه مــن الذهاب إلى العراق. وقد كان مقتنعًا برؤية الرئيس ويلــسون للحــرب، وأن على المرء؛ أن يتحدث بالنيابة عن القوميات الضعيفة والأقل عــددًا، وفــى يونيه عام ١٩١٨ طلــب مــن تابعيــه أن يقومــوا بالالتحــاق بــالجيش. والمتطوعون القوميون، كما ذكر لجمهور مستمعيه فــى بومبــاى، ســوف يُشكلون جيشًا وطنيًا للحكام الوطنيين. وقال "إنهم سوف يذهبون للقتال مــن أجل الإمبراطورية ويجب عليهم أن يقوموا بهذا القتال على أمل أن يُصبحوا شركاء فيها"(٤٣).

ولم تكن هناك أيديولوجية تربط المقاتلين فى الإمبراطورية. والحماسة الاستعمارية، خاصة فى بريطانيا، ساعدت على التعاون فى فتــرة الحــرب وأعطت مثالاً مبهرًا عن نتائج الوحدة الإمبراطورية، وقدمت الأساس الــذى يمكن الحفاظ به مستقبلاً على ترابطها. فهى الحالة الطارئة التــى جعلــت بريطانيا ودول الكومنولث تترابط بعضها مع بعض، على الرغم من أن هذه الدول فى عام ١٩١٤ كانت مهددة بالهيمنة الألمانية على أوربا.

وقد حارب الجنود البريطانيون وجنود دول الكومنولث بشكل جيد، ولكن فيما بعد خاصة بالنسبة للأستراليين والكنديين، فإنهم قد شعروا بالضيق والاستياء بسبب جمود النظام الاجتماعى البريطانى، وهو ما فسروه على أنه يشبه حياة العبيد. والكثير كان مسرورًا أنهم أو أسلافهم قد هاجروا من بريطانيا. واكتشف الرجال السود والملونون؛ اكتشفوا عوامل جديدة، وكانوا معرضين لتلقى أفكار جديدة، وأصبحوا أكثر وعيًا بموقعهم داخل الإمبراطورية؛ ثم عادوا إلى أوطانهم وهم يشكّون فى كثير من قناعاتهم السابقة.

برغم ذلك فإن الحلم الفيكتورى والإدواردى المتأخر بأن يتم جمع الأجزاء المختلفة للإمبراطورية بعضها مع بعض لتشكل جبهة قتالية واحدة قد تحقق. وما فشل الاستعماريون فى ذلك الوقت وبعده فى أن يكتشفوا أهميته، هو أن أولئك الذين طلب منهم عمل تضحيات لا بد أن يتوقعوا أن يحصلوا على تعويض عن هذه التضحيات. بالإضافة إلى أنه، فيما كانت الموجة الأخيرة من بناء الإمبراطورية، فإن بريطانيا قد استغلت الحرب فى الاستيلاء على أقاليم الشرق الأوسط بالتحالف مع القوميين العرب. وفى عام ١٩١٨ بقى: كيف أن تبنّى الإمبريالية يمكن أن يؤدى إلى أن يتوافق مع حقوق القوميات الأضعف والأقل عددًا، كما ذكر غاندى، والتى كانت مصالحهم هى ما حاربت من أجله بريطانيا طوال الأحد عشر شهرًا الأخيرة من الحرب.

(٢)

التخلى أو الحكم والاضطرابات الإيرلندية

(١٩١٩ – ١٩٣٩)

كان النفوذ الإسبانى مسئولاً عن تغيير الأوضاع، وينعكس ذلك فى التأثير على آراء الدول الأخرى، حيث إن الأسباب فى تطور الوضع كانت تتمثل فى النقاش العام بين المسئولين، وكذلك تتجاوز قدرات المسئولين مثل آرثر بلفور الذى يمثل وزير الخارجية الذى أرسل خطابًا خاصًا إلى رينالد وينجت المفوض البريطانى فى مصر؛ فى نهاية ١٩١٩ كانت تعود الاضطرابات المصرية إلى حركة الاضطرابات الدولية التى اتخذت أشكالاً عديدة فى الدول والقرارات المختلفة، وأن بداية هذه الاضطرابات تشير إلى حركات التمدن الحضرى من أجل التخلص من الانقسامات الدولية والاجتماعية[١]. ويتضح ذلك إلى الإيمان بضرورة التمدن الإنسانى؛ حيث إن القوة المتمدنة كانت تؤيد النظام العالمى القديم والسعى العام نحو التخلص من الفوضى والاضطرابات، إلى جانب وجود البراهين على ذلك، ووجود العديد من القوة المحتجة من هذا النظام الدولى الذى كان يمثل خطرًا على الإمبراطورية بالكامل.

خلال الشهور الثلاثة الماضية فإن بلفور كان يشهد على الإعلان عن جمهورية إيرلندا والاضطرابات العامة فى مصر؛ نظرًا إلى الرعاع والمخربين من أجل القضاء على الاستعمار الإنجليزى؛ حيث كان بلفور

يخشى من تدهور الأوضاع، وخلال شهر أبريل ومايو أعلن غانـدى عـن الاحتجاج من هذا الانقسام ومن القوانين التى أدت إلى هذه الاضطرابات، إلى جانب أحداث الشغب فى جاميكا والهندوراس، بينما أعلن الأكراد الثورة على الاضطراب البريطانى فى هذه المنطقة، وفى العـراق وفـى مـايو ١٩٢٠ ظهرت أحداث الشغب ضد اليهود فى فلسطين، مع حرب العـصابات مـن جانب الجيش الجمهورى الإيرلندى.

كانت بريطانيا تشهد أحداث الشغب؛ نظرًا إلى عدم التعبئة العامة فـى شتاء ١٩١٩ وربيعه، وفى يوليو فإن إحدى الكتائب قد رفضت الرحيل عـن الهند، بينما شهد صيف هذا العام العديد مـن الاضـطرابات مـن جانـب الشرطة[٢]. مع الدور العظيم من المسئولين فى النقابة التجارية، الذى ينعكس عن مجموعة من الإضرابات فى عامى ١٩١٩ و١٩٢٠، بينما كان بلفـور يسعى للحصول على الدعم من هذه الهجمات المستمرة على النظام القـائم، بينما أعلن السير إدوارد كارسون على مجلس العموم فى يوليو ١٩٢٠ عـن الاعتقاد الراسخ فى وجود المؤامرة من أجل خروج الإنجليـز مـن الهنـد ومصر[٣]. إلى جانب خروج الصين من زعيم الحزب الإمبريالى الذى أشار إلى الأسباب العديدة والظروف التى أدت إلى الاستياء العام لدى القوميين فى مصر وتركيا وروسيا والهند[٤]. ولكن لم يشر إلى التنسيق بين هذه الجهود، بينما أعلن المسئولون فى المخابرات العامة أن روسيا هى السبب فـى هـذا العداء لبريطانيا فى الشرق الأوسط[٥]. بينما أشار السير مـوريس هـانكى السكرتير العام للجنة الدفاع إلى أسباب الحرب والصراع، وأعلن عن الوعد بالحق فى تقرير المصير[٦].

وبحيث إن التخلص من هذا الاستياء العام فى بريطانيا هو الذى يعود فى الأصل إلى انتـشار الـشيوعية والعـداء العـام للقـوة الاسـتعمارية

فى موسكو عام ١٩١٧، حيث إن الروس كانوا يقدمون الدعم إلى الرجال العسكريين خاصة فى الهند وقد تأسست اللجنة الدولية الشيوعية عام ١٩١٩ وذلك من أجل السعى إلى نشر هذه الثورة العامة على الشيوعية، ومن أجل إيقاظ المشاعر لدى الشعوب المستعمرة وهوما يمثل الهدف الثانى الذى يعتمد كثيرًا على جهود الطبقة العاملة والصناعية فى أوربا وأمريكا، حيث إن اتحاد التجارة الاستعمارى كان يمثل الهدف الطبيعى لدى هذه اللجان إلى جانب وجود الأعضاء الشيوعيين فى الهند قبل العشرينيات، الذين حصلوا على الأوامر من أجل نشر الشيوعية فى التعاملات التجارية، ويعود ذلك إلى المقاييس المتخذة من جانب هيئة المخابرات الهندية(٧). وكذلك الاحتياطات من دور النقابات التجارية فى مصر فى ١٩٢٠(٨)، كما أن أقسام الشرطة المختلفة كان لها دور فى هذا المجال خاصة فى فلسطين عام ١٩٢١ كما يتضح من تقارير الشرطة المختلفة والتاريخ الطويل عن الأحداث المختلفة بين اليهود فى فلسطين(٩). إلى جانب بعض التفاصيل التى تشير إلى المخاوف من جانب المخابرات الإنجليزية، وفى عام ١٩٢٧ فإن القائد العام للحزب الإمبريالى أجرى التحليل على الجهود الشيوعية فى الهند(١٠)، والذى يتضح من التقارير الأساسية من الوكلاء الروس فى الصين؛ وذلك من أجل القضاء على الحركة القومية الهندية والمعلومات السرية التى تشير إلى دور هذه الشخصيات، والمثاليات العليا التى أعلن عنها هؤلاء الوكلاء إلى جانب الحرب بين بريطانيا وأفغانستان عام ١٩١٩، حيث إن المخابرات البريطانية قد أدركت أن الأفغان يتطلعون إلى الدعم الروسي(١١). إن الأشباح القديمة التى ظهرت من جديد فى محاور دلهى وخطط الدفاع عن أفغانستان ضد غزو روسى قد أخرجت من جديد وتم تحديثها(١٢).

وفى عام ١٩٤٣ فإن بريطانيا تحالفت مع روسيا، بينما كان على المخابرات العسكرية أن تواجه المحرضين الروس وزعماء القبائل عند

الحدود الشمالية والغربية[١٢]. حيث إن الخطر الحقيقى يتضح من الآراء المختلفة التى انتشرت عام ١٩١٩، وهى التى يمكن أن تعلل لنا الاضطرابات المختلفة فى ذلك العام، إلى جانب السعى إلى الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية نظرًا إلى ظاهرة العولمة اعتبارًا من عام ١٩١٩، وكذلك الإعلان عن قواعد صهيون من جانب الصحافة التابعة للجناح اليمينى، إلى جانب العداء ضد السامية، والاتجاه الروسى خاصة مع الحكم القيصرى والثورة الروسية، وكذلك الاضطرابات الشيوعية تعود إلى تطبيق هذه الخطة، التى كانت تمثل أحد الأهداف التى تسعى إلى القضاء على الإمبراطورية البريطانية إلى جانب النظرية العامة التى أعلنت عنها المخابرات البحرية فى تحديد هذه الإمبراطورية نظرًا إلى التآمر فى موسكو، والإعلان عن هذه القواعد عام ١٩٢٠ لم يؤد إلى زعزعة هذه العقيدة، ومن بعد منتصف العشرينيات تم اتخاذ العديد من الحركات الفاشية البريطانية، والسعى إلى المصادر المشتركة للمشكلات العديدة ينعكس من تصريحات جون بوشين التى تعتمد على استعداد الشعب من أجل التعامل مع الدسائس والخطط الموضوعة من أجل التخلص من الحكومات، إلى جانب العديد من المكايد التى أدت إلى الفوضى العامة فى الأحداث؛ حيث إن الحرب أدت إلى التصدعات فى هذه النظم وظهور العديد من الاحتجاج عام ١٩١٩، وبحيث أصبح من الأفضل إلى للمدافعين عن النظام القديم التصدى الهجمات المختلفة على النظام الدولى الجديد.

هذه الآراء المختلفة تلازمت مع المخاوف من انتشار الشيوعية فى العديد من الدول؛ خاصة بين أبناء الطبقة الحاكمة فى بريطانيا، والاتجاه العام من جانب الجهود فى تصنيف المشاركين على أنه من الخونة الذين يتطلعون إلى تحقيق الأهداف الشخصية أو الخاصة، وأن الأسباب التى أدت إلى

الاستياء العام جعلت التدريب من الصعب على رجال السياسة والمسئولين في هذه الحكومات(١٤).

يعود حدوث الأزمات والكوارث في إيرلندا إلى وجود الغالبية من الكاثوليك والغاليين الذين لم يكن لديهم إيمان في الطرق البريطانية المتبعة في تحقيق الوفاق السياسي، إلى جانب الفشل في بعض القوانين والمعاهدات المختلفة بين الدول حول الأوضاع العديدة، وعدم الاعتماد على البرلمان الإنجليزي من أجل تحقيق الأهداف العامة للشعب البريطاني، وبعد عام ١٩١٤ فإن العديد من هؤلاء الزعماء القوميين تحولوا إلى الحزب الجديد الذي كان يسعى إلى التحول من حزب الشين فبين، والذي يطالب الإيرلنديين الرجال والنساء بالحصول على الحرية لأنفسهم، حتى على حساب حياتهم، وإذا اعتمدنا بشدة على مثاليات الوطن القومي مازاني، فإن الشين فبين شجعت الإيرلنديين على اكتشاف إحساسهم بالشخصية القومية التي تعطيهم وحدة الهدف والقوة الداخلية الضرورية للنضال الوطني ضد الإنجليز.

هذه المخاوف العديدة تشير أن فيست هو أفضل مثال على التضحية الشخصية في إيرلندا، عندما قامت إحدى المجموعات بالانقلاب في عاصمة هذه الدولة، ولكنه تمكن من إحباط هذا الانقلاب.

الجنرال ماكسويل الذي أدرك كيفية التعامل مع أعداء الإمبراطورية القومية في السودان، والذي كان يبرر أفعاله في عدم الاعتماد على الرحمة في التعامل مع الخونة، ولكن نظرًا إلى وجود لا مبلاة من معظم أفراد شعب إيرلندا، وشجاعة الشهداء، والإحباط العام من الحكومة الحليفة التي لم تؤيد الرأي الشعبي، إلى جانب النفوذ البريطاني في جنوب إيرلندا الذي قد زال كثيرًا؛ نظرًا إلى اهتمام الحكومة بالحرب ضد ألمانيا، بينما الإدارة العامة في العاصمة كان عليها أن تحافظ على الأجزاء العديدة من هذه الدولة، خاصة

فى أبريل ١٩١٨، وإن الرأى الداعم العام إلى فيست، وكذلك نفوذ الحكومة البريطانية كان يتمثل فى تصويت الشعب على الانتخابات العامة عام ١٩١٨، حيث إن فيست قد تمكن من دعوة الأعضاء المختلفين فى يناير ١٩١٩ من أجل الإعلان عن جمهورية إيرلندا، ومع وجود اثنتين من الحكومات فى هذه الدولة كانتا تتنافسان وتتنازعان فى الآراء؛ حيث إن فريق اللواء لورد فرنش قد تمكن من احتلال قلعة دبلن التى كانت تابعة إلى الرئيس فليرا الذى كان مشغولاً بالأجهزة الإدارية، وكذلك الدفاع الخاص، مع وجود أكثر من ١٠٠٠٠٠ من المتطوعين، وإن الهدف الرئيسى لدى فيست كان يتمثل فى أن يثبت للحكومة البريطانية أن الحكومتين أهم من الحكومة الأخرى، ويتضح ذلك من الاضطرابات العديدة عام ١٩١٩ مع الحملة العامة واغتيال عدد من رجال الشرطة الذين كانوا يتعاملون مع أحداث الشغب، وفى نهاية هذا العام فإن الحكومة البريطانية كان عليها أن تواجه الحملات الإرهابية فى إيرلندا وتقضى على اضطرابات الثوار وتؤكد أن الطرق التى كانت تنجح فى الماضى قد لا تنجح فى المستقبل.

كان على الحكومة البريطانية أن تتصدى إلى الحملة الإرهابية فى إيرلندا فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وكان عليها أن تتكيف مع الاضطرابات المدنية والاضطرابات خلال ١٧٩٨ وأواخر العشرينيات والأربعينيات والستينيات من القرن التاسع عشر.

كما يتضح من منظور وايت هول الذى يؤكد أن أساليب الماضى قد لا تنجح فى المستقبل، خاصة فى مجال السياسة الخارجية، وحتى منتصف ١٩١٩ فإن تفكير الوزراء كان يتناول المفاوضات السابقة على توقيع معاهدة فرساي؛ حيث إن مجلس رئاسة الوزراء فى إيرلندا أشار إلى وجود العديد من العقبات السياسية التى تحتاج إلى الحل، وضرورة توافر الجهود من أجل

تحقيق هذا الحل، وخلال العامين التاليين فإن مكتب رئاسة الوزراء كان عليه قبول رأى لويد جورج عن الولايات المتحدة؛ حيث إن الولايات الجنوبية قد انسحبت من هذا الاتحاد، بينما إيرلندا كانت جزءًا، من المملكة المتحدة، بينما الأحداث التالية فى النصف الأول من عام ١٩١٩ تشير إلى الاستياء العام، ووجود مجموعة من المتعصبين الذين يعملون على تحقيق أهدافهم من خلال العمليات الإرهابية.

قد أخطأ مكتب رئاسة الوزراء فى تقييم رأى الغالبية فى جنوب إيرلندا، مع وجود العقبة الإضافية أمام الاستيطان، وهى التى تتمثل فى عدم الميل إلى أبناء المذهب الكاثوليكى، مع وجود تراث من الدعاية السياسية والدينية، وعجز المسئولين الإنجليز، وكيفية التخلص من ذلك، والرأى الخاص من زعيم الحزب المحافظ الذى أعلن عن شعب إيرلندا أنه يمثل الجنس المتدنى عن الشعوب الأخرى، وأن ذلك قد يشير إلى إحساس بالمرح، وهذا يجعلنا نضحك كثيرًا[١٥]. وكلما اشتدت الحملة الإرهابية فى إيرلندا وجد الغضب البريطانى مخرجا فى التعسف العنصرى[١٦]، حيث إن بريطانيا كانت ترعى المخرج من هذا التعسف العنصرى، كما يتضح من الخطاب الذى يؤكد إلى القراء هذا الرأى فى مجلة السبت، وذلك يشير إلى الآراء الأخرى من جانب المسئولين فى الحكومة الذين يعملون على وقف أعمال القتل والاغتيال فيما بينهم وبين جهود الإنجليز، وفى ديسمبر ١٩١٩ فإن مكتب رئيس الوزراء كان يؤيد البيان العام الذى يوضح بعض القواعد الموجودة منه والتى تهدف إلى الحفاظ على القومية.

كان لا بد من تقسيم إيرلندا مع وجود الغالبية من المحتجين الذين يدافعون عن هذه القضية عام ١٩١٢، ولا يقبلون رئاسة المسئولين من جانب الشعب الإيرلندى، بينما أولستر لن يذعن إلى حكومة إيرلندا والكنيسة

الرومانية واجتماع المسئولين فى بلفاست فى ١٢ يوليو ١٩٢٠ من أجل احتفال بانتظار المحتجين، وانتصار البروتستانت عام ١٦٩٠ إلى جانب وجود العديد من المسئولين من الكاثوليك فى المناصب المختلفة فى أوربا.

مع وجود عدد من أبناء إيرلندا فإن الحكومة البريطانية قد أعلنت إليهم، خاصة المقيمين فى الجنوب، عن قيام البرلمان فى دبلن، وكذلك المقيمين فى الشمال، عن تكوين بعض الجمعيات المسئولة عن جمع الضرائب وإنفاقها، وكذلك تولى شئون الدفاع والشئون الخارجية على ضوء القانون الجديد والانتخابات فى مايو ١٩٢١ والأمل المعقود على الجيش البريطانى فى القضاء على العناصر المنشقة من إيرلندا، وأن فيست قد أعلن عن رفض رأى من ليودل من أجل تقييم الدعم إلى المبعدين إلى بريطانيا والإمبراطورية البريطانية، والمفهوم العام والمخاوف من إيرلندا المنشقة، والاعتقاد فى أهمية التعاون بين الأطراف المسئولة خاصة من الحزب الجمهورى الذى له اليد العليا على الخصوم، والذى أعلن عن الخطاب العام إلى الشعب الإنجليزى نظرًا إلى المخاوف والتعاطف عن إيواء هؤلاء المنشقين كما كان يؤيد هذا الجيش من الرجال والشباب، وأن استمرار حرب العصابات طوال عام ١٩١٧ يعود إلى الحكام الذين أصدروا الأوامر إلى الجنود من أجل القدرة على التعرف على مشاعر الغضب العام من جانب اللواء مكريدى الذى أشار إلى رأى الحكومة البريطانية التى لا تعترف بحرب العصابات.

كما أعلن عن المهمة المطلوبة من الجنود، وكذلك تعبئة الرجال من أجل إقامة هذا الجيش(١٧)، كما أن مكريدى تمكن من تعيين القائد العام فى أيرلندا خلال أبريل ١٩٢٠، وتمكن من القضاء على بعض الثوار؛ حيث إنه كان خبيرًا فى العلاقات العسكرية الميدانية، كما كانت لديه الخبرة فى حل النزاعات الصناعية فى عام ١٩١٩، وعندما تولى هذا المنصب فإنه قد أعلن

عن ضرورة التصدى إلى الدعاية لحرب العصابات، والاعتماد على القضاء على الإرهاب من خلال دور الشرطة والشرطات المسئولة، والناتجة عن ذلك تتمثل فى وجود عدد من السود فى إيرلندا الذين يقدمون الخدمات العديدة فى لندن خلال يناير ١٩٢٠، والذين كانوا يرتدون الزى الرسمى ويعملون على الحصول على الرجال من خارج إيرلندا؛ وبحيث إن هذه الفرق اكتسبت الشهرة والسمعة عن أعمال الوحشية ضد الشعب المدنى ومع وجود السود فى إيرلندا الذى يمثل نهاية السياسة المدنية فى هذه الدولة. وفى صيف ١٩٢٠ فإن نموذج الحرب قد أصبح ثابتًا وواضحًا نظرا إلى أحداث الشغب فى الشوارع والقتل العشوائى فى قوات حزب السلام والمتطوعين من الوطنيين الذين كانوا يدافعون عن هذه القضية، بينما كان الأعداء يمثلون القتلة ضد الشعب المدنى والمسئولين عن الأعمال الانتقامية التى أدت إلى مقتل اثنى عشر من رجال الشرطة فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٠، ويتضح ذلك من استمرار احداث الشغب والفوضى العامة.

تمثل الأشكال المختلفة من الأعمال الانتقامية النتيجة من الجيش المسئول عن احتواء حرب العصابات، دون وجود المصادر الموثوق فيها من أجل الكشف عن هؤلاء الأعضاء، ومع اشتداد هذه الأعمال وانتقاد الحكومة من جانب الصحافة اليسارية والمتحررة التى كانت تقارن بين سلوك القوات الإنجليزية فى إيرلندا مع سلوك الألمان فى بلجيكا المحتلة، واتساع الفجوة بين رجال السياسة والمسئولين فى الجيش، وفرض قانون الطوارئ الذى يمثل الحل الوحيد من أجل التصدى لهذه الأعمال.

كان السير هنرى ويلسون يواجه المشكلة الصعبة؛ حيث كان يرغب فى توقيع العقوبة على أعمال الانتقام وإعدام جميع القادة الجمهوريين(١٨)، وفى مايو ١٩٢٠ أشار إلى أن لويد جورج قد وقع ضحية لذلك؛ نظرًا إلى تعامله

مع التجار من إيرلندا، وأن هـذه الظـروف كانـت تمثـل الخطـر علـى الإمبراطورية البريطانيـة؛ لأن هنـرى كـان يعتقـد فـى غيـاب الإرادة الحكومية[١٩]، بينما كان تشرشل يعمل على تحقيـق العدالـة فـى توزيـع الامتيازات فـى مـصر وإيرلنـدا، التـى أسـهمت فـى ضـعف هـذه الإمبراطورية[٢٠].

فى النصف الثانى من عام ١٩٢٠، فإن الوزراء كانوا يـشكون مـن الاستمرار فى الحرب ضد إيرلندا، وأن هذه المشكلة تـشير إلـى تـصميم بريطانيا على الحفاظ على المسئولية البريطانية، وبحيث يتمكن رجال السياسة من السيطرة على الأحداث، بينما أشار ملنر المسئول عن المستعمرات إلـى جنوب أفريقيا التى كانت لا تواجه هذه الصعوبات العملية فى تطبيق قـانون الطوارئ فى إيرلندا، ولكنه كان يشكك فى حصول الضباط الـشباب علـى السلطات العريضة[٢١]، وفى أبريل ١٩١٩ فإن مأمور الشرطة داير قد اعتمد على قانون الطوارئ من أجل تبرير فتح النـار علـى المتظـاهرين فـى أمريستار، مما أدى إلى مقتل أربعمائة شخص، وأن نظام داير فـى توقيـع العقوبات على المنشقين يمثل النتيجة من المباحثات فى مجلس العموم خلال يوليو ١٩٢٠، بينما لم ير كارزون أى سبب لعدم تطبيق الأساليب التقليديـة على إيرلندا من أجل الحصول على الطاعة[٢٢]، كما أن رجال الـسياسة قـد تنازلوا عن موقفهم، بينما كان على مكريدى تطبيق قـانون الطـوارئ فـى ديسمبر ١٩٢٠ على أربع من الدول.

يشير نقل المعدات العسكرية والدوريات المتحركة إلى الاتصال علـى هذا الوضع فى منتصف ١٩٢٢، وأن هذا التفاؤل قد واجه الإحباط؛ نظـرًا إلى اشتداد العمليات الإرهابية فى ربيع ١٩٢١، والانتخابـات فـى إيرلنـدا خاصة فى الجنوب فى بداية مايو؛ حيث إن مكريدى كان يحذر من القهر[٢٣]،

بينما أدى هذا الإجراء المتبع من المحاكم العسكرية إلى اعتقال ٤٤٠٠ من المشتبه فيهم خلال ٦ أشهر، إلى جانب عمليات البحث عن السلاح، وإن مايكل كولنز الذى يمثل القائد العام لهذه المنظمات أشار أنه لم يكن فى وسعه أن يستمر فى ذلك أكثر من ثلاثة أسابيع، ولكنه قد أخطأ فى تقدير قوة الخصم حيث إن الجيش الإنجليزى لن يحل العديد من المشكلات مع غياب المخابرات المركزية. وفى بداية يونيه فإن الطرفين قد توصلا إلى ما يمثل الطريق المسدود[٢٤]. بعد المفاوضات العديدة من جانب جورج الخامس، عندما افتتح البرلمان الإنجليزى فى ٢٣ يوليو واتفق على الهدنة بين فيست والحكومة فى ١٢ يوليو، بينما جاء الممثلون عن إيرلندا إلى بريطانيا من أجل المشاركة فى المفاوضات بعد ثلاثة أشهر.

أشار العقيد لورانس المسئول عن إطلاق فرق العصابات الدولية ضد الأتراك إلى عدم إمكانية شن الحرب على الثوار، بينما فى مناسبة أخرى أعلن التحذير إلى الحكومة من أن الإنجليز لم يتمكنوا من الحفاظ على الإنجليزية من خلال الاعتماد فقط على القوات المسلحة[٢٥] وفرض قانون الطوارئ، ومن الواضح أن إيرلندا لم تتمكن من إعادة الانتخابات فى الجنوب، وأن البديل الوحيد يتمثل فى استعمار ست وعشرين من المستعمرات من خلال تطبيق قوانين الطوارئ، بينما ماكريدى كان يشك فى هذه السياسة.

تردد مجلس رئاسة الوزراء فى تقديم جنوب إيرلندا إلى فرق العصابات وأن العامين الماضيين كانا يشهدان ارتفاع عدد المحتجين من رجال الدين والحزب العمالى والنقابات التجارية التى كانت تطالب بجلاء القوات البريطانية فى يوليو ١٩٢٠، وأن أحد الصحفيين تمكن من وصف هذه السياسة الرادعة والانتقام العشوائى مع القلق العام فى الخارج، خاصة بعد انقلاب الأحداث فى إيرلندا، وبعد زيارة فليرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خلال عام ١٩١٩، حيث كان يمثل أحد الزعماء القوميين مثل غاندى وسون ياتسن.

وقد حدث الاستقبال الحار من المجموعات الأمريكية والإيرلندية التي قدمت خمسة ملايين دولار من أجل مساعدة ضحايا الحرب إلى جانب المعوناتْ الغذائية والأسلحة الخفية، والتي مارست الضغط السياسي على مجلس الشيوخ، والذى يشير إلى النجاح في حل بعض المشكلات، وأن الرئيس الجديد هاردينج قد استبعد التدخل الرسمي في هذه المشكلة الاقتصادية(٢٦)، بينما كانت إيرلندا تضم عددًا من الأستراليين، حيث إن اللواء جون سموتس كان يتوقع بأن الطرق المتبعة مع أيرلندا يمكن أن تؤثر على العلاقات بين الإنجليز وبين الحكام عن هذه المستعمرات في يونيو ١٩٢١، وقد تردد بالزيارة إلى دبلن التي تمثل العدوة إلى بريطانيا، كما تمكن من إقناع فيست من أجل البحث عن الحل الوسط(٢٧) وقبول الحكم الذاتي على إيرلندا.

بدأت المباحثات بين فيست والحكومة الإيرلندية في أكتوبر، واستمرت شهرين على مائدة المفاوضات، مع التوقيع على هذه المعاهدة في بداية ديسمبر، وأن كلاً من الطرفين يرى هذه المعاهدة على أنها تمثل المتنفس، بينما حصلت المقاومة الايرلندية على خمسة وأربعين ألفًا من المتطوعين بين يوليو وديسمبر، وأعلن إليود جورج عن الخطة الموضوعة من أجل الاستمرار في الحرب عند عدم التوصل إلى الاتفاق(٢٨). وفي ٢ ديسمبر فإن تشرشل قد حصل على التهديد من جون بول، وبعد أربعة أيام عند التوقيع على المعاهدة أعلن أن الجيش على استعداد من أجل استئناف العمليات(٢٩)، وأن ذلك قد أقنع العديد من الإيرلنديين بأن هذه المعاهدة قد اعتمدت على التهديد، وأن كولنز وزملاءه يمثلون الضحايا لهذه الخدعة، مع وجود الأسباب الرئيسية في دعوة هؤلاء إلى المفاوضات تمثل الحجة من أجل استمرار الحرب.

ظهرت الآراء المختلفة حول الظروف العديدة التي أحاطت بهذه المعاهدة بين المسئولين في شمال إيرلندا: في الحصول على السلطات واعتبارها تمثل الدولة الحرة؛ حيث إن هذه المعاهدة جاءت في مصلحة الأقلية من الكاثوليك في المملكة المتحدة، إلى جانب تجدد الأمل والحلم لدى أبناء إيرلندا في التحرر، وفي حق تقرير المصير، على الرغم من وجود الفاصل بين الشمال والجنوب.

تأثرت الحركة القومية في إيرلندا كثيرًا بهذه المعاهدة التي حصلت على التصديق من ديل ومن ٧ من المصوتين، بينما اعترض المعارضين على ذلك، ولكن مع هذا تمكنوا من الإعلان عن المثاليات في الحرب المدنية في عام ١٩٢٣، والخديعة التي أدت إلى مقتل كولنز، والاتصال الأخير يعود إلى فليرا وأتباعه عام ١٩٥٧، فإنه أعلن عن الحلم في اعتبار إيرلندا الجمهورية، ومع ذلك فإن القوميين قد تمكنوا من التوصل إلى الحل الوسط عام ١٩٢١، واعتبار من ١٩٣١ فإن الحاكم العام على إيرلندا حصل على الحرية الكاملة في إدارة الشئون الداخلية والخارجية، ولكن فقد هذه الحرية في سبتمبر ١٩٣٩ عندما أعلن فليرا عن موقف إيرلندا المحايد في حرب بريطانيا على ألمانيا.

انقسمت الآراء المختلفة داخل بريطانيا عن المعاهدة الإنجليزية الإيرلندية والعواقب المترتبة والرغبة في طرد الإيرلنديين من الإمبراطورية، مع حصولهم على بعض الامتيازات[٣٠]، ولكن الحكومة لم تكن على استعداد إلى التضحية بهذه الأهمية الإستراتيجية، نظرًا أن القواعد الإيرلندية لم تكن لها القيمة أثناء الحملة في جنوب إيرلندا[٣١].

اعترض هنري ويلسون وكذلك الأتباع بشدة على هذا الوضع، وأعلن عن أن ذلك يمثل الانسحاب الجبان أمام تهديد السلاح، وأن بريطانيا قد بادلت

السلطة دون أن تستغلها[٣٢]، وويلسون كان قد أصر فى مايو ١٩٢١ على مجلس رئاسة الوزراء الذى اختار الطرق القديمة فى إيرلندا، عندما استقال ثم شارك فى الانتخابات؛ حيث إن ويلسون لم يكن مختلفًا عن المحافظين والعاملين فى الصحف اليمينية، وأنه سوف يستمر فى هذا المنصب طوال قدرة بريطانيا على أن تمثل القوة العليا، بينما رجال السياسة ليس لديهم الحل؛ نظرًا لتضارب المصالح وعدم التفاهم فيما بينهم إلى جانب الآراء المعلنة فى الصحف ووجود العديد من المستعمرات فى بريطانيا، حيث إن ويلسون كان يبالغ فى اعتبار أهميته الخاصة حول دوره فى شكله المنقذ للإمبراطورية القومية. ولكنه لم يتمكن من أن يلعب دور المحدد لمصير بريطانيا، وفى يوليو ١٩٢٢ فإنه قد تعرض للاغتيال خارج داره فى إيتون على يد اثنين من المسلحين الإيرلنديين، والذين تم القبض عليهما بينما ويلسون الذى كان يشعر بالمرارة من ذلك قد تمكن من جمع بعض الرجال العسكريين على مدى أربع سنوات حتى يتمكن من إنقاذ الإمبراطورية التى تعرضت للخيانة من رجال السياسة الضعفاء والمترددين والذين أعلنوا عن قدرة هؤلاء الرجال فى التصدى إلى المحتجين فى الإمبراطورية، مع وجود الأقلية التى لا تحصل على التمثيل من بعض المتسببين فى المشكلات، كما أن ويلسون من أولئك الذين يتخذون نفس هذا الرأى، حيث أعلنوا عن ذلك إلى الصحافة، واتخذوا العديد من الإجراءات من أجل التغلب على المحتجين والمعارضين فى الإمبراطورية، بينما الأقلية التى لم تحصل على التمثيل لم تتمكن من تحقيق أهدافها، وأن غاندى الذى أعلن عن التوقعات حول العواقب المترتبة من هذه المعاهدة، تمكن من الإشارة إلى الظروف التى أدت إلى هذه الاتفاقية، والتى تشير إلى تأكيد المبادئ الأخلاقية التقليدية، وأن الخوف من خسارة الأرواح هى التى جعلته مترددًا، عندما أعلن عن ذلك فى ديسمبر ١٩٢١، وأشار كذلك إلى تطبيق الوكالة على الأفراد عند تطبيق الحرية،

وحتى تقرير المصير[٣٣]، وأعلن عن ذلك إلى أحد المؤرخين الذى يمثل رئيس إحدى المؤسسات التعليمية، عن الامتيازات القومية المقدمة إلى إيرلندا من أجل الإشارة إلى الإنجازات العظيمة من التحريريين[٣٤]، وهى التى تمثل السر الذى لا يمكن أن يحدده تبعًا إلى الحزب والاتحاد التجارى، قبل الدخول فى عمل المباحثات حول المعاهدة نحو بريطانيا وإيرلندا[٣٥]. ومن أجل تقرير المعاهدة فإن هذه التصريحات المختلفة كانت تتقاسم العديد من العناصر المشتركة إلى جانب التصريحات من المعارضين للحرب الأمريكية والتناقضات العديدة خلال القرن العشرين بين آراء المسئولين عن الإمبراطورية البريطانية، والرغبة فى تحقيق الديمقراطية مع وجود الإقطاعيين والمعارضين، كما أعلن أيضًا عن الطلب ومن أجل التخلص من الثوار.

كانت بريطانيا مثل اليونان فخورة بهذه الديمقراطية والحرية التى يتمتع بها الشعب البريطانى من بعد القرن السابع فى المستعمرات المختلفة، وفى عام ١٩١٩ فإن هذه الإمبراطورية قد حصلت على مخرج جديد حيث أصبحت مجموعة من الدول والأمم، وكانت تمثل الإمبراطورية القادرة على الحكم على المستعمرات، وكان يشير العديد من الكتاب السياسيين فى القرن السادس عشر إلى تحقيق المساواة والعدالة والسعى إلى المصالح المشتركة من أجل تحقيق الصالح العام للجميع، إلى جانب التعلق العاطفى بهذه الإمبراطورية؛ على أنها تمثل الحاكم المطلق عن الملكية البريطانية التى كانت تشهد نفس هذه الدورة الثورية من المستعمرات المحتلة، وحتى الدول التى لها حق تقرير المصير، ومن خلال جميع هذه المراحل التى شهدت العديد من التطورات فى الأوضاع، والافتراض العام أن بريطانيا لديها جميع الحقوق السياسية، وبين عام (١٩١٩ - ١٩٢٢) فإن بريطانيا قد تمكنت من القضاء

على هذا النموذج؛ نظرًا لأنها كانت مترددة في الخضوع للحكومة البريطانية، وأن الثورة الإيرلندية كانت تمثل بداية النهاية، حيث إن إيرلندا عليها أن تخضع إلى الجو الإنجليزى. بينما الاضطرابات الإيرلندية كانت تمثل بداية الأحداث المريرة، والتى كانت تعتمد على نمو هذه الإمبراطورية.

(٣)
كرامة وطنهم
مصر (١٩١٩ – ١٩٤٢)

لقد كان المشير فسكونت اللنبى القائد العام للجيش – والذى قلب فى النهاية الإمبراطورية العثمانية، وجعل بريطانيا السلطة العليا فى الشرق الأوسط- متشائما فيما يتعلق بمستقبل الإمبراطورية التى وسعها، وأبقى هذه الشكوك لنفسه؛ لأنه صار المندوب السامى فى مصر فى مارس ١٩١٩، وهو تعيين يدين كثيرًا إلى قوة شخصيته المعروفة وإرادته الحديدية- لكنه كان ينقصه الإقناع الداخلى لمساعدى القناصل المحاربين، لأنه كان رجلاً واسع الأفق الفكرى وله عقل مستنير، ولقد ساعده هذا على دراسة القوى التاريخية التى بدأت تتجمع فى تلك اللحظة وربما تؤثر حالاً على الإمبراطورية البريطانية، ولاحظ بعد وجبة غداء مع صديق حميم فى إحدى أمسيات عام ١٩٢٠، أن الإمبراطورية سوف تتأثر حين يصبح رعاياها على درجة من التعليم(١).

وكان قلقًا من أن ما يتعلمونه لن يساعدهم على القيام بمسئولياتهم وتكسُبهم وحدة القيادة التى تعد أساسية لهؤلاء الذين يمارسون السلطة على الآخرين، لقد جعلته الأحداث التى وقعت فى الأشهر الثمانية الماضية يشعر ويدرك بشكل غير مريح أن التلاميذ فى المدارس المصرية يتعلمون كيف يكرهون بريطانيا وكل شئ ترمز إليه، وكان أحدهم هو جمال عبد الناصر

الذى ولد فى عام ١٩١٨، وبعد ذلك تذكر أنه عندما كان طفلاً صغيرًا، كلما شاهد طائرة تحلق فوق رأسه كان قد تعود الصياح، يا إلهى ربنا يأخذ الإنجليز وتحل بهم مصيبة[٢].

كما أن قائدًا مصريًا فى المستقبل وهو أنور السادات المولود عام ١٩٢١، تذكر العداء البغيض عند والده؛ الذى كان مثله الأعلى كمال أتاتورك الزعيم الوطنى التركى الذى استطاع التغلب بنجاح على الإيطاليين واليونانيين والفرنسيين وبعدها تفوق على البريطانيين، ففى عام ١٩٣٢ كان السادات الشاب متأثرًا بما قرأه فى الصحف عن حياة الزعيم غاندى الذى مر على مصر فى طريقه لمناقشة القضية الهندية أمام الحكومة البريطانية[٣].

ومع ذلك وبشكل متناقض يشارك الوطنيون من الشباب مع اللنبى إحساسًا بأنهم أيضا يقاومون قوى عنيدة، وكان عبد الناصر الذى وصل إلى مرحلة الدراسة العليا قد استعاد الهتاف بصوت عال فى المظاهرات ضد بريطانيا عام ١٩٣٥، ولكن دون جدوى، لقد ماتت هتافاتنا فى رد فعل ضعيف لم يحرك أى جبال، ولم يحرق أى صخور، ويبدو أن الإمبراطورية لم تتحرك، كما حدث لشباب آخرين رفعوا شعارات وألقوا بالحجارة وتشاحنوا مع البوليس والجنود، وعلاوة على ذلك فقد اكتشف المصريون بمرارة أن الطائرات التى كانت تحلق من حين لآخر فوق مدنهم وعواصمهم يمكن أن تُسقط قنابل.

لقد كان الشباب أمثال ناصر والسادات بين آلاف المصريين الذين خرجوا إلى الشوارع بالنظام بين الحروب يطلبون وضع نهاية للتدخل البريطانى فى إدارة شئون وطنهم، وقد توجت احتجاجاتهم بظهور الوفد الذى كان أكبر حزب سياسى فى مصر، وبالنسبة للسادات وغيره من الشباب صار رمزًا للنضال بين الشعب المصرى والبريطانيين.

وبالنسبة لبريطانيا كان الوفد مصدر إزعاج لا بد أن ينتهى فى النهاية، وللتعجيل برحيله قاموا بالتجسس على أنشطته دون نجاح وقبضوا على زعمائه ونفوهم، عندما ظهر أنهم أقوياء جدًا، وفى مرات أخرى حاولوا التظاهر بعدم وجوده.

لقد بدأ الوفد حياته بشكل سلمى، وبعد بضعة أيام من نهاية الحرب اتصل وفد من السياسيين المصريين المحترمين بالمندوب السامى السير ريجنالد ونجت، وبكل أدب وإصرار طالبوا بوضع نهاية للحماية البريطانية واستعادة الاستقلال، وكان زعيمهم سعد زغلول، وهو رجل وصفه اللورد كرومر بأنه الرجل ذو المنفعة العامة الكبرى، حيث لفت اهتمام ونجت بوعود بريطانيا الحديثة لتقرير المصير للعرب، واقترح أن المصريين الذين أصبحوا مؤهلين لحكم أنفسهم بأنفسهم يستحقون نفس المعاملة، وعرف أن البريطانيين المحبين للحرية سيكونون متعاطفين معهم، وكان خوف ونجت من أن مصر على استعداد لعرض قضيتها أمام الرئيس الأمريكى وليس فى مؤتمر فرساى القادم(٤).

وعامل المندوب السامى الوفد بكل صرامة- لكنه لم يحطم آمالهم، وكانت مصر تعانى من التضخم والتمزق بسبب الحرب، والتأديب العام سيشغل بسهولة القلق الشعبى، وهناك بعيدًا فى لندن كان اللورد كيرزون وزير الخارجية مندهشًا من محاولة التوفيق، وأمَرَه بالعودة إلى الوطن، وكان كل ما يحتاج إليه يد قوية وليس الكلام المعسول، وكان على الوفد أن يُقضى عليه بعد البداية، قبل أن تنتشر الجرثومة القومية التى أصابت الهند، وفى مارس ١٩١٩، وبناءً على تعليمات اللورد كيرزون قبض الرسميون على زغلول وزملائه وأرسلوهم إلى المنفى فى جزيرة مالطة، وبانتهاج سياسة الهجوم لم يقدر كيرزون طبيعة المصريين، وعلى الفور لو أن الإدارة

البريطانية فى القاهرة أخطأت تقدير الموقف؛ لأنهم توقعوا بعض الرؤيا فى العقل المصرى، لكن لم يحدث هذا، وإلى حد ما بقى الموظفون المدنيون البريطانيون على حالهم، وظلوا بعيدين عن الطبقة المصرية العليا التى نظروا إليها بمزيج من التسلية والاحتقار، وقبل ذلك الموقف بعام واحد شرح مسئول بريطانى كان يخدم فى السودان إلى زملائه إلى السيد ليو أمرى (Amery) الوضع بقوله " إننى أخشى أن نظام المدرسة العامة التى لا تشجع حب الاستطلاع الفكرى، وتجعل كل شخص ينضم إلى الآخرين لأجل ألعاب جماعية وتسلية هو دون شك يعمل كحاجز كبير بيننا وبين الطبقة المتعلمة فى بلد مثل مصر[٥]".

وهناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة، فقد حاول السير رونالد ستورز (Storrs) أكثر الرياضيين بين الحكام الاستعماريين أن يسلم الأمر لزميل فى علم المصارعة الرجولى، ولكن على العموم التزم البريطانيون بلعبة التنس واجتماعات السباق ولم يجازفوا بالبعد عن نواديهم وفندق شبرد. وكما لاحظ ستورز أن عددًا قليلاً من المصريين اهتم بتعلم اللغة الإنجليزية، ولكن واصلوا الحديث باللغة الفرنسية حتى بعد ثلاثين عامًا من السيطرة البريطانية الغربية[٦].

وفى بداية الاضطرابات؛ طرد الرسميون الجنود الأساسيين من الوطنيين وقطيعًا من الدهماء ومن الطلاب الذين لا يعملون والعاطلين من المثقفين الغوغاء الذين لا يجدون أفضل من ضياع ساعاتهم فى المقاهى يخططون للتحريض على الفتنة، وأثناء محادثات ملنر مع المصريين فى نهاية ١٩١٩، أصيب بدهشة من غزو طبقة الأفندية ووصفهم هم ومؤيديهم فى الشوارع بأنهم أقلية تتحدث فقط عن نفسها[٧].

إن الوقت الذى يضيع فى النقاش مع المصريين الأذكياء قد ضاع فعلاً حسب رأى الجنرال ولتر كونجريف القائد العام فى مصر بعد عام ١٩٢٠[٨].

عندما تتحدث عن السياسة إلى الرجل الشرقى فتأكد أنك ستحصل على الأسوأ منها، وعندما تركله فإنه يحبك ويحترمك[٩].

وقد اتفق هؤلاء الذين يركلون مع الجنرال، فالقوات التى تم استدعاؤها لاستعادة النظام عام ١٩١٩، استمتعوا بالمهمة حتى التسريح من الخدمة فالبريطانيون والهنود ورجال خدمة الأنزاك (Anzac أو Gyppe) على أنه مخلوق منحرف، وعلى هذا كانوا سعداء لهذه الفرصة لاسترداد ظهورهم خلال الاضطرابات التى جاءت بعد نفى سعد زغلول.

واكتشف المسئول عن الجنود رأى جون بوليش (John Bullish) فى الخارج والغضب على نطاق واسع بين المصريين[١٠]، واستمر ذلك بعد ثورة ١٩١٩ وكانت هزيمة المصريين الذين يحتفلون بامتيازات اللنبى من الجنود البريطانيين والأستراليين الذين يتوقون للحفاظ على كرامة الإمبراطورية، وخلال عشرينيات القرن العشرين كان على المندوب السامى أن يواجه سيلاً من الشكاوى من المصريين من كل الطبقات والذين أهينوا من رجال الخدمة[١١].

وكان الاحتقار العنصرى وراء كل هذه الحوادث، برغم أن الجنود الواعين سياسيًا بسبب اضطرابات ١٩١٩، لاموا أنفسهم بسبب النقاط الأربع عشرة للرئيس الأمريكى ويلسون[١٢].

لقد كانت ثورة ١٩١٩ احتجاجًا تلقائيًا ضد المعاملة الحسنة للوفد، وكانت هناك إضرابات فى المدن الكبرى ومحاولات منهجية للاضطرابات

وأعمال التدمير لشل طرق السكك الحديدية فـــى الدولـــة وشـــبكة التليفـــون والتلغراف، واستجاب الجنرال السير إدوارد بولـــسفين بـــسرعة، باســـتخدام إجراءات مناسبة، وكان يتم إطلاق النار علـــى الجمـــاهير، وفـــى بعـــض المناسبات قصفت بعض المناطق بالطائرات، وكان المشكوك فيهم بالإثـــارة يحاكمون ويضربون بعد محاكمات حسب قوانين الطوارئ، وكان عدد مـــن رجال الخدمة البريطانيين قد أثار موجة من الغضب، ولفترة ما شعرت القيادة العليا أن رجالها خارج نطاق السيطرة، ومات علـــى الأقـــل نحـــو ١٥٠٠ مصرى خلال ثمانية أسابيع من القتال فى حملة تشبه فى قـــسوتها القـــضاء على التمرد الهندى.

وظهر اللنبى فى هذه المرحلة قائدًا باسم مستعار "الثـــور: The Bull" وتوقع كيرزون منه أمرًا عنيفًا سوف يعيد المصريين إلى صـــوابهم، ومـــرة ثانية أخطأ الماركيز الحسابات، وكان اللنبى نفعيًا بدرجة خيال كافية لفهم أنه لن يستطيع حكم مصر بالقوة إلى الأبد، خصوصًا أن الرجال المتـــاحين لـــه صاروا متمردين بسبب تأجيل إلغاء تعيينهم، وأن مصر فى حاجة إلى وزارة مدنية لوزراء مصريين يستطيعون التعاون مع المندوب الـــسامى بالطريقـــة القديمة، ومن أجل الوصول إلى هذا قدم اللنبى غصنًا من الزيتون فى شـــكل إنهاء عزل زعماء الوفد.

وبدأت امتيازات اللنبى فى توسيع اللعبة السياسية بين نفسه وخلفائـــه والوفد، وبالنسبة لبريطانيا فإن (Stake) كان مهتما للحفاظ على أمـــن قنـــاة السويس التى كانت أحيانا تسمى حلقة وصل كلافام (Clapham) الإمبراطورية. وفى أوائل عشرينيات القرن العشرين سجلت السفن البريطانية المارة بالقنـــاة ما بين الثلثين من حمولات كل السفن التى تمر بالقناة، وصـــارت الأهميـــة الإستراتيجية للقناة أكثر مما كانت من قبل بعد عام ١٩٣٥، عندما كان على

بريطانيا أن تتفق مع الادعاءات اليابانية فى الشرق الأقصى، وإيطاليا فى البحر المتوسط، وإذا كان على الأسطول الملكى أن يركز جهوده ضد أى من القوتين فإنه لا بد أن يستخدم القناة، وتعتمد سلامة الممر المائى على حامية بريطانية مدعومة، وقوات تمركز بالقرب من القاهرة والإسكندرية، ولكن كما توقع اللنبى فإن القناة ستكون فى خطر دائم إذا انشغلت القوات البريطانية بصفة مستمرة فى سحق الاضطرابات المصرية، ولن يتوقف الرأى العام عن التسامح مع حالة لا تنتهى من الطوارئ فى مصر، وتعليقًا على الحاجة إلى معاهدة مصرية بريطانية دائمة فى عام ١٩٢٠، ادعت جريدة الديلى ميل (Daily Mail) أن الشعب البريطانى لا يحب أبدًا أن يتمسك بشعب فى حالة دائمة من الاضطرابات، وأن أفضل وسيلة لتدعيم الإمبراطورية طوال الوقت هى كسب حب الشعوب التى صارت تحت مسئوليتنا وثقتها"[١٣].

وعبرت كثيرًا عن هذا الرأى فى جارديان الحزب الليبرالى والأوبسيرفر والديلى نيوز برغم أن المورننج بوست والديلى تلغراف تبنت آراء المحافظين من جناح اليمين الذى أراد وضع أنف المصريين أرضًا بجرعة أكثر من الأحكام العرفية.

وتم استخدام القوة من حين لآخر ضد المصريين، وكان ذلك فى عام ١٩١٩، وأيضا خلال الأزمات السياسية فى عامى ١٩٢٤، ١٩٢٥ وعام ١٩٣٦ عندما ظهرت البوارج الحربية البريطانية بعيدًا عن الإسكندرية وبورسعيد، ومسيرة القوات البريطانية إلى القاهرة، وفى كلتا الحالتين كانت الحكومة البريطانية تسيطر بشكل غير مباشر على السلطة لدى التاج المصرى، وهو أمير له قيمته فى لعبة السيطرة على رعاياه، وتولى السلطة فؤاد الذى حمل لقب الملك فى عام ١٩٢٢، وكان وطنيًا حسب أهوائه

الخاصة وضد الوفد بشكل مكثف، وهذا ما جعله يعمل لصالح البريطانيين طالما أنه دائما يكسب أى مناورة سوف تؤذى الوفد، وذات مرة وهو فى حالة الغضب انقطعت كلماته بنباح غريب نتيجة جرح فى الحنجرة كان يعانى منه(٤١).

وأخبر فؤاد اللنبى أن زعماء الوفد كانوا جماعة من الثوريين والأوغاد، على أن ما كان يثير فؤاد هو أن الوفد يمثل ثورة بديلة للعاطفة الوطنية، ويستمد قيادته من طبقة الأفندية من ملاك الأرض ورجال المهن؛ بمن فيهم بطرس بطرس غالى، الأمين العام للأمم المتحدة، وكانت ثرواتهم تؤهلهم للحصول على مقاعد فى البرلمان المصرى وتعطيهم الفرصة لتمويل تنظيم الوفد، ولم يكن غريبًا أن تكون سياسات الوفد الاجتماعية والاقتصادية محافظة، ولكن وطنيته التى لا نساوم عليها كسبت له تأييد الاتحادات التجارية والطلاب وأطفال المدارس والفلاحين، برغم أنه كما خمن المواطنون الرسميون البريطانيون: أن صوت الفلاحين يمكن كسبه بسهولة من خلال الرشوة والإجبار القسرى خلال عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، وتصرف الوفد وكأنه يمتلك احتكار الرأى العام، وكان يرفض باستمرار توفيق أوضاعه لاستكمال الاستقلال عن بريطانيا.

وكان هذا العناد والتصلب حيويًا؛ إذ كان الوفد يربط معًا قطاعاته المختلفة، ويقاوم الضغوط من الجماعات الراديكالية مثل الإخوان المسلمين ومصر الفتاة التى ظهرت فى ثلاثينيات القرن العشرين، وأما خارج الوفد فكانت هناك مجموعة من السياسيين المصريين الذين كانوا على استعداد للوصول إلى اتفاق مع بريطانيا، ومنهم الملك فؤاد والمندوبون السامون القادمون بعد ذلك والذين يستطيعون اختيار الوزراء.

إن تولى السلطة من خلال الموافقة البريطانية عمل خطير؛ لأنه كانت هناك فى الوفد خلايا صغيرة من الإرهابيين، والذين اتخذوا أسماء مثل

عصابة المسدس الأسود، أو مجموعة الضحايا السرية، وقاموا باغتيال الرسميين البريطانيين ورجال الخدمة من المصريين والذين كانوا يعملون مع المندوب السامى أو من أجله.

وانتهت الجولة الأولى بين الوفد وبريطانيا فى عام ١٩٢٢، عندما هالها الإرهاب وعدم مرونة سعد زغلول وعناد إليود جورج فى التخلى عن الحماية، وتشرشل واللنبى، حينما طالب زغلول وقيادة الوفد بإجراءات أكثر لإعطاء مصر حرية كاملة من القيود البريطانية، ومر عام من التشاحن؛ حيث تم نفى سعد زغلول، وظهرت روح جديدة من النضال فى عام ١٩٢٤ بخصوص امتلاك السودان، ومرة ثانية أظهرت بريطانيا عضلاتها، وكانت الحكومة الليبرالية مستعدة لأن تظهر للناخبين أنها هشة ورفضت حتى إقرار تغيير وضع السودان.

وأخيرا جاء مصرع السير لى ستاك الحاكم العام للسودان فى شوارع القاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ لتنتهى سياسة اللنبى، وصار الثور متوحشا، واتهم زغلول والوفد بأنهم القتلة، وطالبت بريطانيا بشروط مهينة من مصر وهددت باتخاذ إجراءات أخرى وقتل الرهائن إذا استمر العنف السياسى، وكان هذا كثيرًا على حكومة منتخبة حديثًا لستانلى بولدوين، والتى استدعت اللنبى وعينت مكانه اللورد إليود الاستعمارى الذى يميل إلى العنف ومعه (تكنيك) أعظم.

لقد وضع إليود حكما بريطانيا مثاليا فى مصر، وهو، كرومانسى من الحزب الثوري، تصور أن الفلاح رجل قوى القلب وشخص وديع، وهو من داخل قلبه يعرف أن البريطانيين كانوا أصدقاءه المخلصين، لكن خدعهم الثائرون الأشرار، وأن الكثير مما تحقق من خلال الإشراف البريطانى على

الحكومة المصرية، وحتى اليوم يستخدم المصريون تعبير "الممر الإنجليزى:- English Path - ليدل على طريق السير بأمانة وعدالة[١٥].

وخشى إليود وبدون أيه أسباب، أن شكل الحكومة الذى تأسس عام ١٩٢٢ سوف يعيد إلى الخلف أيام ما قبل ١٨٨٢، لهذا السبب لم يكن الرجل (Cutting Losses) ويرفض الاختفاء خلف القيمة الأخلاقية التى هى سياسة تقرير الحكم الذاتى والتى ظهر أنها خداعة[١٧].

وفى عام ١٩٢٩ سحبت حكومة العمال الجديدة إليود، وهو رجل يبدو أن أفكاره تنتمى إلى عصر آخر، وأرسلت دبلوماسيًا محترفًا كمندوب سام.

وانساقت اللعبة بين بريطانيا والوفد إلى ما بين أعوام (١٩١٩ - ١٩٣٥) وتم عقد ثمانية مؤتمرات رسمية لتسوية مسألة السيادة العليا فى مصر دون نجاح، وخلال نفس الفترة كانت هناك عشرون حكومة مختلفة، لكن الوفد لم يخرج بعيدًا عن السلطة.

وفى عام ١٩٣٥ تنظيم موجة جديدة من المظاهرات الشعبية والاضطرابات التى كان لا بد من اتخاذ إجراءات جدية ضدها أكثر من السابقة؛ لأن وضع بريطانيا فى مصر صار تحت تهديد خارجى، ودعم موسولينى قبضته الوحشية على ليبيا وأحلامه عن بحر أبيض متوسط؛ بحر لهم، وأيضًا طموحاته الحديثة فى الحبشة، فكان من الضرورى على بريطانيا أن تحل المسألة المصرية، وإذا فشلت فى القيام بذلك، وحدثت أزمة بين بريطانيا، وإيطاليا فإنه من المستحيل أن تقاوم من ليبيا وفى نفس الوقت تحتل مصر، وكانت القناة تهم أكثر من الكرامة والوقار، وكانت النتيجة توقيع معاهدة بريطانية مصرية فى عام ١٩٣٦، وهى التى أعطت لتاريخ السبعين عامًا الماضية انتصارًا دبلوماسيًا، واكتفت بريطانيا بحاميتها وقواعدها الجوية

فى مصر، واستمرت فى التمتع بالتسهيلات الملاحية فى الإسكندرية، ودخلت فى تحالف مع مصر التى حصلت على استقلالها التـام، وصـار للـسفارة البريطانية مقر فى القاهرة وصار المندوب السامى السير مـايلز لا لمبـسون أول سفير بريطانى فى مصر منذ ١٨٨٢، وأثبتت الشهور التى أعقبت اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ أهمية مصر فى نضال إنجلترا ضد قوى المحور، وفى سبتمبر ١٩٣٩ رفضت الوزارة المصرية إعلان حرب ضـد ألمانيا، ولكن ادعت أنها سوف تلتزم بشروط المعاهـدة وتقـدم المـساعدة لبريطانيا، وخلال الشهور القليلة التالية كانت مصر علـى الحيـاد، ولكـن انقطعت العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا، وتمت مصادرة الممتلكات الألمانية، وواصلت بريطانيا سياستها فى تحويل مصر إلى قاعدة أساسية للدفاع عـن القناة والشرق الأوسط كله.

وارتعدت الحكومة المصرية عندما دخلت إيطاليا الحرب فى يونيه ١٩٤٠ وقطعت العلاقات الرسمية بها، حول احتكار لستين ألفًا من المجتمع الإيطالى القوى فى مصر، وشك لامبسون– وله أسباب وجيهة فى ذلـك– وفـى أن الحياد الكريم كان واجهة، وأن الملك فاروق والكثيرين مـن المقـربين إليـه يتمنون انتصار المحور، وكان فاروق قد صار ملكًا فى عام ١٩٣٩، وهناك مـن الأسباب ما يدل على أنه ربما ينتهج سياسة والده، وأن ينسحب مـن الخـط البريطانى لأنه كان قد تربى كضابط فى سندهرست (Sandhurst) حيث من المأمول أن يكون قد امتص القيم البريطانية، ولكن كان عام ١٩٣٦ عامًا سيئًا للملوك وورث فاروق عدم انسجام والده مع الوفد، وآماله فى أن يكون مركز اهتمام شعبه وآماله الوطنية، وكان الملك المتوقع أن يكون وطنيًـا، جامعًـا لكتابات الصور الداعرة، وكانت له أكبر مجموعات منها فى العـالم، وكـان يطارد النساء، ومدمن شراء السيارات، وكشف تصرفه السريع أثناء الحرب أن ارتباطه ببريطانيا هش مثل طبعه الأخلاقى، واعتقد مع عدد كبيـر مـن

قيادات الجيش والوزراء أن بريطانيا ستخسر الحرب[١٨]، وهو رأى مفهوم بسبب الخسائر التى عانت منها بريطانيا خلال عامى ١٩٤٠ و ١٩٤١ فى الصحراء الغربية واليونان وكريت، وكان المصريون العاديون منزعجين من الغزو وقاذفات قنابل الغارات التى أحيانًا عانت منها القاهرة فى عام ١٩١٧ ووجدت الطبقات العليا فى الفاشية والنازية أفكارًا جذابة[١٩].

وفى نهاية عام ١٩٤١ اضطر لامبسون إلى الاختيار بين الأعظم والأقل شرًا فاروق أم الوفد، وكان فاروق متأرجحًا أكثر وأكثر ناحية المحور، ولا يمكن الوقوف معه، وقرر لامبسون أن الوقت قد حان إما أن يدوس عليه أو يعزله من منصبه.

وخلال ليلتى الثالث والرابع من فبراير ١٩٤٢ اقتربت سرًا قوة من البريطانيين والنيوزيلنديين وقوات جنوب أفريقيا حاملة بنادق آلية من قصر عابدين وحاصرته بينما اندفع عدد من الدبابات إلى ميدان عابدين، وفى الساعة التاسعة صباحًا دخل لامبسون القصر وقدم للملك فاروق المندهش وثائق بتعيين النحاس باشا رئيسًا للوزراء، وطلب من الملك أن يوقع عليها، وكان فاروق قد استجاب بتردد شديد، كما ادعى أنه احتج بقوة، وعلل ذلك بأن الورقة التى قدمت إليه كانت مكسورة وقذرة وحقيرة، بل إهانة إلى كرامته الملكية، وبعد ذلك انتشرت الشائعات أن دبابة قد اقتربت وأخذت تضرب بوابات القصر، وأن اثنين من المرافقين للامبسون من جنوب أفريقيا قد رفعا المسدسات على الملك الغاضب.

ولقد حافظ لامبسون على الأمن فى مصر كقاعدة للعمليات البريطانية، وقد فاق هذا الهدف كل الاعتبارات الأخرى، وكان مستعدا لعزل فاروق إذا ثبت أنه مكابر وعنيد، لكن هذا الاستعراض للقوة قد أزعج وأفزع

المصريين، وذكرهم أنهم لا يزالون شعبًا ضعيفًا يستطيع البريطانيون أن يفعلوا معهم ما يشاءون(*).

ولكن ما الحيلة الآن، وماذا يمكن عمله والكارثة قد حلت عليهم؟ وتساءل عبد الناصر وهو الآن ضابط صغير في الجيش: إذا عاش المصريون الذين كانوا على استعداد لمحاربة الاستعمار، الذى سوف ينسحب مثل المرأة الباغية؟

برغم هذا فقد استمرت مظاهرات شعبية فى المعارضة، لكن عدم الانتقام فى وقتها قد ترك أثرًا عميقًا "لقد كان لهذه الحادثة تأثير جديد على روح الجيش ومشاعره وأنفسنا" كما يذكر عبد الناصر؛ ومن ثم لم يتحدث الضابط عن الفساد واللذة، ولكن عن التضحية واستعدادهم لبذل أرواحهم فداء لإنقاذ كرامة وطنهم[٢٠].

(*) هذا كلام المؤلف وهو عكس الحقيقة. (المراجع).

(٤)

السيادة العليا فى الشرق الأوسط

(١٩١٩ـ ١٩٤٢)

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بخمس سنوات بــدأت المستكــشفة جيرترود بيل مراسم الحج إلى الشرق الأوسط، فقد كانت تريد اكتشاف أهمية آسيا من أجل تحقيق الثورة، وبعد عامين من التجوال فى ســوريا والعــراق القديمة توصلت إلى أن الإخاء والمساواة تمثلان أهم المفاهيم فى المنطقة التى تضم العديد من الأجناس والديانات المختلفة، ولكن غياب تحمل المسئولية من إنجلترا وألمانيا كان يمثل أهم العقبات التى واجهت شعوب الشرق الأوســط التى اعتمــدت على بعض أشكال الديمقراطية[١].

تتضح الاختلافات فى الأحــداث بعــد عــام ١٩١٨ مــن رأى هــذه المستكشفة الذى أشار إلى الأوضاع، وكذلك العقيد جونوارد زعــيم حــزب العمال ومؤسس نقابة المهن البحرية؛ نظــرًا إلــى وجــوده فــى الــسودان عام ١٨٨٤ عندما أعلن إلى مجلس العموم البريطانى عــام ١٩٢٢ أهميــة الأفكار السياسية الأوربية المسئولة عن الكوارث العديــدة لهــذه الــشعوب الشرقية، وتصورات عامة حول صورة الفلاح الهندى الذى لا يختلف عنــه فى كولومبيا، والذى ينتمى إلى الطبقة العاملة فى الدولة[٢]. بينما المثاليــات التحررية تمكنت من تحقيق قدر من الرخاء ومن تحديد مــصير الــشعوب الشرقية [٣].

الأحداث العديدة على مدى أربع سنوات أشارت أن حكومة لويد جورج كانت تضم العديد من الرجال الذين اكتسبوا العديد من الحقوق والامتيازات التى تمكنت من تحديد الأوضاع المستقبلية فى الشرق الأوسط.

يشير التجاهل العام للواقع إلى هذه الدبلوماسية من جانب الحكومة التى اعتمدت على سياسة العداء والإمبريالية التوسعية والعمل على ضم الدول المجاورة، يتضح من جهود وزير الخارجية كارسون الذى كان فى الستينيات والذى كان يسعى إلى تحقيق الأمن فى الهند، فى حين أنه فى نوفمبر ١٩١٨ فإن تركيا وروسيا قد أصبحتا عدوتين لبعضهما، فى حين كان بريطانيا كان لديها أكثر من ثلث مليون من الجنود الموزعين فى الشرق الأوسط خلال هذه الفترة وفى سوريا وفلسطين المحتلة، مع وجود عشرة آلاف من المحاربين فى إيران من أجل حماية آبار البترول والأملاك البريطانية فى السواحل الجنوبية لبحر قزوين، إلى جانب العديد من القوارب المحملة بالأسلحة فى هذا البحر، وكذلك فى شرق تركيا مع وجود العديد من الوحدات التى تضم القوات الهندية والبريطانية فى الحاميات، والتى تعتمد على خطوط السكك الحديدية، إلى جانب السفن الحربية البريطانية فى البحر الأسود والقسطنطينية التى كانت تخضع إلى النفوذ البريطانى.

إن النفوذ البريطانى هو الذى أتاح كارسثون تحقيق حلمه؛ حيث إن بريطانيا كان عليها توفير المعبر الآمن من قناة السويس إلى حدود الهند فى وسط آسيا، وكذلك العمل على إبعاد الروس من إيران وأفغانستان، هذه الإمبراطورية التى قويت نظرًا إلى التوسع فى الأراضى ومن خلال الاتصالات التى اعتمدت على قناة السويس والرحلات بين القاهرة والهند فى بداية ١٩١٩، بينما شهر نوفمبر فإن روثميس قد سافر على رأس عدد من السفن الحربية من إنجلترا إلى أستراليا عن طريق مصر والهند وسنغافورة،

وفى منتصف الرحلة فإنه تردد على جنوب فلسطين والعراق وإيران، وبعد عدة سنوات فإن هذه المنطقة شهدت شق الطرق البرية بين دمشق وبغداد.

تحولت توقعات كارسون عن الأوضاع فى الشرق الأوسط إلى كابوس؛ حيث إن هذا الجيش العريق فى المنطقة خلال نوفمبر ١٩١٨ كان يضم المتطوعين والمجندين الذين شاركوا فى الحرب ضد ألمانيا وتركيا وليس من أجل توسع الإمبراطورية، وفى النصف الأول من عام ١٩١٩ عاد هؤلاء الجنود إلى الديار بعد أداء هذه المهمة، فى حين كان على الحكومة البريطانية أن تحصل على مزيد من الرجال من أجل المهام الأخرى بين ١٩١٩، ١٩٢٠ من أجل الحاميات فى ألمانيا وسيليسيا البلشفيك فى روسيا وإيرلندا وكذلك شمال غرب الحدود مع الهند.

لقد بنى الجنود الذين بقوا فى بريطانيا والذين كانوا يعملون فى المجالات الصناعية مثل عمال المناجم والسكة الحديد حيث إن الهند قدمت ١٨٠ ألفًا من الرجال إلى الشرق الأوسط، وأعلنت عن الشكوى إلى لندن حول تكلفة هؤلاء الرجال على الأمن الداخلى، فى حين أشارت نيوزيلندا إلى أنها ليست لها مصالح فى الشرق الأوسط مع استثناء قناة السويس[٤]. حتى إذا كان من الممكن الحصول على الرجال فإن الحكومة البريطانية لم يكن لديها المال لذلك، وإن الطفرة عام ١٩١٩ والتى جاء بعدها الفساد والبطالة واللتين ارتفعا ٣% عما كانتا قبل الحرب ثم إلى ١٧% عام ١٩٢١ نظرًا إلى ارتفاع الديون من الدخول فى الحروب المختلفة، وكذلك من ارتفاع حجم الإنفاق الداخلى الذى بلغ ثلاثين مليون إسترلينى، من أجل بقاء بريطانيا فى إيران، الذى اعتمدت فيه على وزارة المالية والدافعين للضرائب إلى جانب تمويل الجيش والوزراء الحاكمين لهذه الجيوش والقائد العام فيليب شيتود الذى أعلن فى أغسطس ١٩٢١ عن التدخل فى شئون الشعوب الأخرى من أجل السلام الإنجليزى[٥].

كانت المصاريف الخاصة لهؤلاء الجنود فى جنـوب روسـيا خـلال العشرينيات الثقل من أجل الدفاع عن البلشفيك فى ربيع هذا العـام؛ نظـرًا للعواقب الضارة على العظمة البريطانية واتخاذ القرار من مجلـس رئاسـة الوزراء من أجل حل بعض الوحدات فى شمال إيران فى مـايو ١٩٢٠[٦]. بينما أشار كارسون إلى عدد من الكوارث الأخرى من الثورة البلشفية فـى إيران، كما أن القائد العام إيدموند أيرنسايد كان يُشير بالفضل إلى الـشيوعية من أجل إنقاذ الطبقات العليا[٧].

لم تكن روسيا فى الوضع المثالى من أجل الدخول فى هذا الـصراع نحو الشرق الأوسط، على الرغم من أن الحكومة الشيوعية قد أعلنت عـن نفوذ الإمبريالية البريطانية، وفى عام ١٩٢١ أعلنت عن توقيـع معاهـدات الصداقة مع حكومات تركيا وإيران وأفغانستان.

جاءت مقاومة الطموحات الإنجليزية من الداخل ولـيس مـن خـارج الشرق الأوسط، وهو الذى يعود إلى طبقة النبلاء فى بريطانيا الذين كـانوا يرون هذه المنطقة على أنها تبدو مثل أفريقيا فى القرن الماضى، والتى يمكن تقسيمها من أجل سهولة غزوها، بينما أصبحت الحركة القومية التى استيقظت عند نهاية الحكم العثمانى قوية نتيجة تشجيع بريطانيا للدول الأخرى من أجل الدخول فى الحرب.

كانت الاضطرابات التى أصابت القومية العربية تمثـل أحـد أبعـاد سياسة بريطانيا فى زمن الحرب فى الشرق الأوسط، واتضح ذلك من اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ من أجل تقسيم المنطقة إلـى الأمـلاك الفرنـسية والإنجليزية، وكذلك وعد بلفور عام ١٩١٧ من أجل إقامـة دولـة اليهـود فى منطقة فلسطين البريطانية، إلى جانب التفاصيل التى أعلن عنها الـرئيس ويلسون فى ١٤ نقطة التى توضح سياسة بريطانيا فى الشرق الأوسط؛ وهى

التى تختلف عن معاهدة سايكس المعروفة للعرب، وأن فرنسا وبريطانيا كان عليهما التخلى عن طموحات الإمبريالية فى الأيام الأخيرة من الحرب، عندما أعلنت هذه الحكومات عن تطبيق مبادئ ويلسون عن الإمبراطورية العثمانية وكذلك الأكراد الذين أعلنوا الترحيب بالإنجليز، والجنود لأنهم يمثلون المحاربين المنقذين عام ١٩١٨، وإن القائد الشيخ محمود البرتانى كان يؤيد المعاهدة الإنجليزية الفرنسية من أجل تحويل هذا الشعب إلى الأمة العريضة وخلال ستة أشهر ظل مشغولاً فى دولة الأكراد التى تقع شمال العراق.

اعتمدت كردستان المستقلة على الحكومة الذاتية داخل العراق، وبحيث إن العقيد أرنولد ويلسون، الذى كان يمثل البطل العسكرى السابق والذى يؤيد الفاشية، كان يرغب فى استقلال العراق عن الهند نظرًا إلى وجود العديد من المهاجرين الهنود(٨). وفى مايو ١٩١٩ أصدر الأوامر من أجل القضاء على مقاطعة الأكراد من خلال الاعتماد على القوات البريطانية والهندية، ولكن حركة المقاومة الكردية قد تمكنت من مواجهة هذا الاعتداء، وبحيث إن المسئولين قد استفسروا من تشرشل وزير الحربية حول استخدام الغازات السامة(٩). وقد وافق على ذلك، ولكن لم يتم استخدامها، وفى أقل من عام فإن بريطانيا قد أعلنت عن روح التعاون والود حتى تكفى الأطماع العديدة فى هذه المنطقة.

وفى ديسمبر ١٩١٨ فإن التجارة بين الرئيس الفرنسى كليمانصو وإليود جورج فى شمال العراق كانت تعتمد على نقل البترول من الآبار؛ حيث إن فرنسا تحصل على ربع الكمية فى سوريا ولبنان، وفى شتاء ١٩١٨ فإن القوات الفرنسية بدأت فى الرحيل عن بيروت، كما أن القوميين العرب أشاروا إلى الأمل فى معاهدة فرساى ومبادئ الرئيس ويلسون على غرار

القوميين في مصر، الذين أشاروا إلى الخلاف في الرأى مع بريطانيا التى لم تكن لها مصلحة في سوريا ولبنان اللتين كانتا تخضعان للحكم الفرنسى بناء على قرارات الأمم المتحدة، مع اعتبار الجزء البريطانى في فلسطين والعراق، ويتضح ذلك من العلاقة بين هذه الدول العُظمى في تقسيم هذه الأراضى، بناء على قرارات الأمم المتحدة، والواجب المطلوب منهم في حماية الرعايا الإنجليز والفرنسيين في هذه الدول العربية، إلى جانب الاتفاقات التى جرت في مايو ١٩٢٠ في سان ريمو في الشرق الأوسط.

لم يكن لدى القوميين العرب إيمان في هذه الإمبريالية المستنيرة التى أدت إلى انحصار دورهم، وبحيث إن الأمير فيصل الهاشمى الذى كان في صف الحلفاء قد وقع في الاعتقاد الزائف بأنه سوف يحصل على مكافأة في إقامة مملكة سوريا التى حصلت على الاستقلال عام ١٩٢٠، وأن هذا الإجراء أدى إلى غضب القوميين العرب في القدس وكذلك الأعضاء في جيش فيصل، والذى أدى إلى أحداث الشغب في العديد من المدن العربية التى أعلنت عن رفض وعد بلفور والهجوم الجماعى على اليهود والرغبة بين الدول العربية في استعادة فلسطين وطرد اليهود منها[١٠].

جاءت الثورة العربية التالية في العراق بعد هذه الأحداث وبناء على توقيع معاهدة سان ريمو، وخلال شهر مايو الذى كان يوافق رمضان فإن القادة من الشيعة والسنة انضموا إلى القوات في الجيش الهاشمى التابع إلى الملك فيصل من أجل الاحتجاجات العامة ضد الحكم البريطانى،[١١] والتى تحولت إلى الثورة الأهلية في بداية يوليو؛ حيث إن المسئول السياسى البريطانى قد اعتقل الشيخ المسئول عن هذه المقاومة العربية، في حين تمكن النظام السياسى لويلسون من استعادة المصاريف التى ذهبت على الجنود الذين تدخلوا في هذه الحرب. وقد أدت أعمال الدعم والتحصينات في الهند

إلى إعفاء الجنود التابعين للسيخ، والذين كانوا يحصلون على مائـــة روبيــة تعادل ١٦ جنيهًا إسترلينيًا(١٢).

فى شهر سبتمبر كان القائد العام إيلمار هودين اكتسب اليد العليا، على الرغم من أنه كان يائسًا من الحصول على الغازات الــسامة(١٣) مــن أجــل استخدامها فى الحرب، ولكنه لم يكن فى حاجة إليهــا، حيــث إن الحكومــة البريطانية قدمت إليه الأسلحة الأخرى والقوات، وفى نهاية هذا العام صدرت الأوامر من القيادة العليا من أجل اتباع التكتيك الحربى؛ حيث كان مــساعد وزير الحربية سعيدًا؛ نظرًا إلى المشاعر القومية من الشعب البريطانى مــن الأعمال الوحشية من السود فى إيرلندا، ولكنه لم يشر إلى الأحداث الجاريــة فى العراق(١٤).

أعلن الجمهور والصحافة ومجلس العموم البريطانى عــن الــسياسات الحكومية فى الشرق الأوسط التى لم تحقق الأهداف المطلوبة منها، وأدت إلى ضياع الأموال الضخمة والأرواح؛ حيث إن الإدارة الهندية للعقيد ويلسون كانت المسئولة عن تدهور الأوضاع؛ حيث إن العراقيين قــد وجــدوا أن دورهــم منحصر من جانب الضباط الذين تدخلوا فى جميع الــشئون، وإن الاعتمــاد على التكنولوجيا الحديثة أتاح للفرنسيين القضاء على العــرب فــى ســوريا وتكمن الإنجليز من القضاء عليهم فى القدس والعراق، وكان من المــستحيل التصدى لهذه المخاطر باستخدام الغاز السام ضد القبائل العربية، نظرًا إلــى خوف فرنسا وإنجلترا من إثارة الغضب العالمى من استخدام هذه الأســلحة غير المشروعة فى الحرب على العرب فى هذه المدن العربية.

أشار لورانس عام ١٩٢٠ أنه سوف يجرى الحملة الصحفية التى يُعلن فيها عن حق العرب فى تقرير المصير واتخــاذ القــرار والحكــم الــذاتى، والإعلان عن القهر من الإمبراطورية البريطانية، وكذلك استياء العــراقيين

من الحكم البريطاني، والإعلان عن الميزانية من أربعين مليون إسترليني من أجل حرب العراق، وفي بداية ١٩٢١ فإن المجلس الحربي التابع إلى تشرشل شارك في المفاوضات حول الاستيطان، ومن أجل العمل على خفض هذه التكاليف العسكرية، وذلك من خلال مؤتمر القاهرة في مارس ١٩٢١ فإن التحالف في زمن الحرب بين السعودية وبريطانيا قد تجدد مرة أخرى حيث حصل فيصل على عرش العراق مع أخيه عبد الله، وذلك من أجل إقامة المملكة الأردنية الهاشمية التي كانت تضم الضفة الشرقية لنهر الأردن، وكان الملوك في هذه الدول قد حصلوا على المشورة من المسئولين الإنجليز من أجل الانتداب البريطاني على فلسطين وتحقيق الأمن الداخلي لليهود في فلسطين، إلى جانب الحفاظ على الأجناس الأخرى من الزنوج والجنسيات الآسيوية.

كان السلام بين العراق والأردن يعتمد على الرقابة الجوية وعلى الأوامر الصادرة من تشرشل ولورانس وليو إمرى القائد العام للقوات الجوية، مع استخدام الطائرات الحربية في حفظ السلام في السودان وفي الحدود الشمالية الغربية، وبحيث إن هزيمة المهدى عام ١٩٢٠ جاءت بعد قصف المواقع الحصينة في السودان، والتكلفة الإجمالية لهذه الغارات بلغت سبعين ألف جنيه إسترليني وهي التي تمثل الحرب القصيرة والرخيصة.

اعتمد ملوك الأردن والعراق على المدرعات والطائرات الحربية المقدمة من بريطانيا، إلى جانب الكتائب من الجنود الإنجليز، وأدت الاضطرابات الناتجة عن أعمال القصف إلى القضاء على أعداد كبيرة من الأرواح والمواشي في قرى المملكة، وفي ديسمبر ١٩٣٨ حصل المقيمون في المنطقة الشمالية الغربية على تعليمات عن مواعيد هذه الغارات؛ وذلك من أجل الاختباء في المغارات التي كانت تعتمد أيضًا على القوات البرية

فى المواقع الخفية[١٥]، والتى أدت إلى هذه الغارات على العراق خلال الفترة بين (١٩٣٠ - ١٩٣٢) من أجل منع القرويين من المقاومة الشعبية، ومن خلال هذه الغارات التى اعتمدت على النقل الجوى، وكذلك على عدد من الاحتياطات فإن الرقابة الجوية قد تمكنت من خفض حجم الميزانية الحربية التى أدت إلى الجدل بين المسئولين عن هذه الحرب فى الاعتماد على الأساليب الحربية والتكتيكات من أجل هذه الغارات التى انتهت إلى إبراز دور الأبطال فى هذه الغارات الدولية[١٦].

شهدت الفترة التالية سياسة الحرص والحظر وتوقيع العقوبات الدولية والجهود المبذولة من أجل الوقاية من وفاة المدنيين، وكذلك الحملات التى تهدف إلى توقيع العقوبات على قتل المدنيين والمواشى وأعمال الدمار الشامل، إلى جانب الخصوم المعارضين للرقابة الجوية، والذين يشملون الجنود والفنيين فى الإصلاح الفنى للطائرات، والعقيد فرنسيس همفرى المسئول عن تطبيق السياسة الإنجليزية عند الحدود الشرقية الشمالية الذى اكتشف أن الرقابة الجوية سوف تؤدى إلى ارتفاع عدد الضحايا، إلى جانب الأعمال الوحشية ضد زعماء القبائل، وذلك على سبيل الرغبة فى الانتقام.

وكان عدم الاعتماد على القواعد المشروعة فى الحرب من جانب بريطانيا[١٧]. التى كانت تمارس الأعمال الانتقامية ضد زعماء القبائل من خلال الغارات الجوية على العراق، وبعد عدة شهور من المؤتمر أصدر تشرشل خطابًا رسميًا يوضح فيه وصفًا عامًا للغارات الجوية، ويشير إلى مقتل النساء والأطفال فى القرى المختلفة من العراق[١٨]. ويشير أن هذا الشعب قد خرج من الدرس المستفاد من هذه الوقائع، مع استبعاد القائد الجوى جون سالمون الذى تمكن من الرقابة الجوية على العراق بين (١٩٢١ - ١٩٢٥) وأشار إلى الفضل فى هذه الرقابة الجوية من أجل لَمّ شمل زعماء القبائل، من خلال المقاومة الشعبية ضد الغارات البريطانية [١٩].

كان الاستقرار السياسى فى العراق، والاعتماد على طائرات سالمون مصيريًا فى التصدى إلى الغزو التركى من الموصل فى شتاء ١٩٢٢، وإن هذا الهجوم يعيد إلينا الفكرة عن حكومة لويد جورج التى فشلت فى الاستيلاء على تركيا، وبين (١٩٢٠ - ١٩٢٣) فإن التشجيع المقدم إلى الفرنسيين والإيطاليين واليونانيين من أجل الحصول على أجزاء من آسيا الصغرى كان يواجه القوات الكبيرة من أتاتورك، وقد جاء الدور على بريطانيا فى خريف ١٩٢٢ عندما قاد هذا الزعيم التركى إلى التحول إلى القوات الإنجليزية على الساحل الآسيوى فى الدردنيل، ولكن على الرغم من هذه الإجراءات كان مجلس رئاسة الوزراء قد أعلن عن الرغبة فى البقاء عن تركيا التى التمست المساعدة من جميع الدول مع استثناء نيوزيلندا.

كان حزب المحافظين يرفض هذا التحالف، حيث إن لويد جورج قد تخلف عن منصبه مع بقاء القوات البريطانية فى الأراضى التركية خلال فترة قصيرة، وهو ما أدى إلى القلق العام وانخفاض الموارد البشرية والمالية من أجل الجنود المحاربين، بحيث اضطرت بريطانيا إلى التخلى عن هذه الطموحات، وبعد عام ١٩٢٢ فإن المجد البريطانى كان يعتمد على الماضى القديم، وإن الاتفاقية مع تركيا فى مدينة لوزان فى سويسرا خلال فبراير ١٩٢٣ أتاحت إلى الموصل فى العراق أن تحكم نفسها، بينما أتاتورك قد خالف وعده عام ١٩٢٥ عندما اعتمد على تعديل الخطة الموضوعة من أجل الحفاظ على الموصل فى العراق، والاعتماد كذلك على القوات البحرية والجوية التى تهاجم المضايق والحفاظ على آبار البترول فى الموصل والعراق[٢٠].

احتياطى البترول فى الشرق الأوسط لم يكن يمثل العامل الأساسى فى الشئون الدولية بعد عام ١٩٤٥، وخلال العشرينيات؛ فالولايات المتحدة

والمكسيك كانتا تنتجان أربعة أخماس البترول فى العالم؛ بحيث إن المعاهدة الكبرى كانت تستهدف الاستهلاك المحلى الأمريكى، ومع ارتفاع حجم الطلب قبل عام ١٩١٤ من أجل التحضير للتعامل مع إيران والعراق، فإن الحكومة الفارسية قد منحت الشركة الإنجليزية الفارسية للبترول، الامتياز الذى يشمل نصف مليون ميل مربع، والذى ينتهى عام ١٩٦١، وأعمال الحفر والتنقيب عام ١٩٠٩ أدت إلى إقامة محطة تكرير الوقود فى جزيرة أبادان، وإن حجم الإنتاج بلغ ٧٥ مليون برميل عام ١٩١٩ و ٧ ملايين عام ١٩٣٤، وفى أوقات السلم فإن هذه الآبار كانت تعتمد على السياسة الحسنة من الحكومة الإيرانية وقدرتها على الحفاظ على السلام الداخلى، والتى كانت تعتمد على بهلوى الذى حصل على الاعتماد من بريطانيا، والذى تمكن من حركة انقلاب عام ١٩٢٠، وجعل نفسه شاه إيران بعد خمس سنوات؛ حيث اعتمد على الجيش الخاص الذى تمكن من تكوينه من خلال التعاون مع أصحاب المصالح الأجنبية، إلى جانب الحقول البترولية فى كركوك عام ١٩٢٧، والذى اعتمد على الشركة التركية للبترول التى حصلت على التوكيل من فرنسا وبريطانيا وأمريكا من أجل إقامة أنابيب البترول التى تمتد من ميناء حيفا فى فلسطين حتى الحدود العراقية.

كان بترول العراق يخضع للإمبراطورية البريطانية، وفى عام ١٩٣٠ فإن بريطانيا قد تخلت عن الانتداب، وحصلت العراق على الاستقلال، ولكن كانت تخضع للرقابة من الأقمار الصناعية البريطانية، بحيث إن بريطانيا كانت تعمل على تجهيز الجيش العراقى من أجل الاستعداد لأوقات الحرب، وأدت المعاهدة الإنجليزية العراقية التى تُعادل الاتفاقية المصرية الموقعة بعد ٦ سنوات إلى السخط القومى.

تعمل هاتان الاتفاقيتان على تقديم الضمان إلى بريطانيا من أجل ممارسة النفوذ فى الشرق الأوسط، حتى على الدول التى حصلت على الاستقلال والتى تضم المصالح البريطانية، وإن بريطانيا لم تتمكن من تمهيد الطريق نظرًا إلى أحداث العصيان المدنى فى مصر عام ١٩١٩، والشرق الأوسط، التى قد أجبرت الحكومة على التوفيق مع القومية العربية، وإن الأحداث المختلفة خلال هذه الفترة قد أشارت أيضًا إلى الوعى السياسى لدى العرب فى بريطانيا؛ حيث إن إدوار عطية اللبنانى الذى أقام فى الإسكندرية قد أعلن عن أن رجال التجارة والاستثمار كانوا يعتقدون فى الشرف البريطانى والنزاهة والعدالة، ولكن الدبلوماسية الإنجليزية الفرنسية فى أوقات الحرب وخلال معاهدات سايكس بيكو... ويمثل وعد بلفور ومؤتمر سان ريمو الصدمة لرجال التجارة[٢١].

إن الذى زعزع إعجاب عطية (Atiyah) واحترامه لبريطانيا هو سلوك ممثليها، وكان خجولا من زملائه البريطانيين فى كلية غوردون فى الخرطوم؛ حيث كان مدرسا فى منتصف العشرينيات. وإن الحاكم العام عندما زار هذه الجامعة كان يعمل على تفقد الأوضاع من أجل التعرف على مشاعر العرب تجاه بريطانيا، وكان يدافع عنها، عندما أشار إلى الإصلاح التجارى والاقتصادى والتعليمى، ولكن أشار إلى استحالة مواجهة الشكاوى من السودانيين والمصريين والعرب حول أعمال الإهانة من الإنجليز، وهو الذى يشير إلى ضرورة الشراكة والتعاون والمساواة بين جميع الأجناس والحكام[٢٢]. حيث إن القراء الذين يتعرفون على خطة لورانس وروايته أعمدة الحكمة السبعة، سوف يدركون وجود العديد من الرجال والقوميين العرب مثل عطية الذين حصلوا على التعليم الغربى والذين يرون أنفسهم على قدم المساواة مثل الأوروبيين.

لورانس كان يُشير إلى العرب الذين لم يتأثروا بالمؤثرات الخارجية، والذين يعتمدون على الحياة التقليدية والقيم القومية من البدو، إلى جانب النظام الاجتماعى الطبقى الذى يعتمد على التسلسل الهرمي؛ بحيث إن هذه الحياة القبلية قد استمرت وهى غير ملوثة بالطبع البريطانى فى منطقة الخليج العربى خلال القرن العشرين، مع وجود العديد من الشيوخ الذين يحكمون هذه المواقع ويحصلون على المعونات الإنجليزية والصداقة مع بريطانيا، ولكن عندما قام الزعماء القبليون السعوديون بتهديد حدود الكويت عام ١٩٢٩ من خلال استخدام عدد من الطائرات التى دخلت من العراق عاد الغزاة بسرعة، وهذا الأسلوب فى الحياة هو الذى يتضح من وجود جيل من القادة الإنجليز مثل العقيد فريدريك بيك القائد العام للكتيبة العربية الأردنية، الذى أعلن عن تقرير إلى العرب يُشير فيه إلى الوصف الخاص عن المصالح البريطانية فى الأردن وعمان ودول الخليج العربى.

الإرادة الحسنة – من جانب العرب خاصة بعد عام ١٩٣٦ مع احتكار بريطانيا للسلطة فى الشرق الأوسط الذى كان يعانى من الضغط؛ حيث إن إيطاليا كانت تسعى إلى السيطرة على البحر الأبيض وشرق أفريقيا مع ظهور موسولينى وهتلر وإجراء العديد من الترتيبات الدبلوماسية، أدت إلى إعادة اهتمام بريطانيا لمنطقة الشرق الأوسط.

كان لهتلر تأثير على الشعوب فى الدول العربية المختلفة؛ حيث كان يمثل نموذجًا للقوة والنفوذ؛ بحيث إن الشعوب كانت ترى فيه صورة البطل كما فى الأفلام الأمريكية القديمة، ويمثل على نموذج الديكتاتور الألمانى من وجهة نظر الشعوب البسيطة، والتى تراه المنقذ من الدول المعادية فى الحرب العالمية الأولى والثانية، خاصة بعد أن تمكن من تحرير العديد من الدول من النفوذ البريطانى، ولكنه لم يحصل على نفس هذا الرأى الإيجابى فى إنجلترا نظرًا إلى العداء القديم والمعروف بين بريطانيا وألمانيا[٢٣].

هذا الكلام من الممكن أن يكون مبالغا فيه، فما كان مهما بحق هو أن انتصارات موسوليني وهتلر في الفترة بين عامي (١٩٣٦ - ١٩٣٩) تزامنت مع محاولات بريطانيا قمع الثورة العربية في فلسطين. وقد يكون من الصعب المبالغة في تقدير أثر أحداث فلسطين على الرأى العربي؛ فقد أصبحت الثورة ومحاولات بريطانيا لإخمادها بؤرة اهتمام العرب القوميين في الشرق الأوسط. وقد مثلت فلسطين العقم العربى وتبلد الإنجليز تجاه مشاعر العرب، ولم يكن هناك ما يدعو للمفاجأة عندما اعتبر العرب بشكل تلقائي، أعداء بريطانيا العالميين أصدقاء لهم.

أدى الوضع المعقد في فلسطين إلى إرباك الحكومات البريطانية التالية وإغضابها، حيث كان الوضع كذلك غالبا عندما وجدت بريطانيا نفسها مسئولة عن مقاطعة مقسمة عرقيا ودينيا، وكانت المشكلة هي كيف يمكن موازنة الحساسيات والمصالح بين الفرق المتنازعة. ووفقا لإعلان بلفور؛ تعهدت بريطانيا بالترحيب بالمهاجرين اليهود إلى فلسطين. وبهذا؛ تحالفت مع حركات الصهيونية العالمية التي كانت تبحث عن مأوى ليهود أوربا. كانت الصهيونية رد فعل عمليًا لعداوة السامية برعاية الدولة والكنيسة في الإمبراطورية الروسية وازدياد عدد المذابح هناك. وكانت هناك أيضا عداوة السامية الخطيرة والتدريجية وغير المصرح بها التي بدأت تظهر في دول من تلك التي تدعى الانفتاح والتنوير مثل فرنسا والنمسا. وبشكل أبسط، قبل عام ١٩١٤، واجه كثير من يهود أوربا تهديد إنهاء وجودهم دون الاعتماد على الحماية الطبيعية التي تكفلها الدولة لرعاياها. أصبحت الأمور أسوأ أثناء الحرب وبعدها: أي بين عامي (١٩١٧ - ١٩٢٢)، حيث عادت إلى الذاكرة أحداث المجازر في منطقتين كانت عداوة السامية فيهما أكثر وأشرس ما تكون: بولندا وأوكرانيا.

كسب الموقف اليهودى دعم العديد من رجال الدولة البريطانيين الإنسانيين والليبراليين مثل بلفور وتشرشل وليو أمرى، وكان الأخيران من أشد مؤيدى الصهيونية بين الحروب. ولكن نشأ من تلك اللحظة، وبما أن وعد بلفور قد تم إعلانه، حدث إحساس من الشك بين العرب، وقد تساءلوا بشكل طبيعى عن الوضع الذى يجب أن يكون عليه اللاجئون اليهود الذين دخلوا فلسطين وعن الأعداد التى من الممكن أن تأتى.

شارك ت إ لورانس – الذى تحول فيما بعد إلى الصهيونية– العرب مخاوفهم وقلقهم تجاه تدفق أعداد كبيرة من يهود شرق أوربا من الفقراء، على الرغم من ترحيبه بيهود أمريكا وبريطانيا من الطبقة الوسطى المتعلمة، وهى الطبقة التى تعرف عليها فى أكسفورد[٢٤]. كانت أفكاره شائقة؛ حيث عكست عداوة السامية التى وجدت فى بريطانيا فى الحقبة الإدواردية، التى أدى فيها وصول أعداد كبيرة من يهود الطبقة العاملة من الإمبراطورية الروسية إلى زيادة مفاجئة فى العداء تجاه "الغرباء". كان هناك شعور بالاضطهاد بين الطبقات العليا تجاه اليهود الذين انتعشت أعمالهم وتجارتهم، وكانت هناك إيحاءات من عداوة السامية صعبة الملاحظة فى أعمال التقليديين الكاثوليكيين، مثل هيلير بيلوك وج. ك. تشسترتون. شجعت التوقعات المنذرة عن ارتباطات بين اليهود والشيوعيين وشائعة "بروتوكولات صهيون" عام ١٩١٩ عداوة السامية بين اليمينيين. وفى عام ١٩٢٠ اقتنع الكولونيل ريتشارد ماينرهاجن – وهو شديد التأييد للصهيونية– أن معظم إخوانه من الضباط الذين كانوا يخدمون فى فلسطين قد تم تدريبهم بعداوة للسامية، ومن ثم فهم غير قادرين على الحكم بشكل محايد فى تعاملاتهم مع اليهود والعرب[٢٥].

بالتأكيد كان هناك شيء من الحقيقة في هذا، ولكن أيضا كان هناك الكثير من الرجال المحتكين بالأحداث، وفي وايتهول، الذين كانوا يؤمنون أن الحقوق العربية كانت في خطر وفي حاجة للدفاع عنها. كان المستعمرون اليهود يتمتعون بتمويل جيد، وكانوا يملكون وسائل شراء مساحات كبيرة من الأراضي من أجل مستوطناتهم، التي كان ملاكها يفضلون توظيف رجال ونساء من ذوي جلدتهم. وبدأ العرب يقارنون فلسطين بالجزائر، التي سلمت فيها الحكومة الفرنسية معظم الأراضي المثمرة إلى المستعمرين الفرنسيين والإسبان، وليبيا التي كانت خاضعة لسياسة الاستعمار الخاصة بموسوليني، وكان المستوطنون الإيطاليون يقصون العرب. وبالإضافة إلى هذا شعر الفلسطينيون العرب أن الصهاينة والمتعاطفين معهم كانوا يملكون أذن الحكومة البريطانية.

الأهم من ذلك يتمثل في انتصارات هتلر وموسوليني بين ١٩٣٦، ١٩٣٩ التي جاءت مع مشاعر بريطانيا من أجل قمع الثروة العربية في فلسطين، ومن الصعب علينا أن نبالغ في تقدير الأثر على الرأي العربي عن الأحداث التي جرت في فلسطين، وجهود بريطانيا من أجل التغلب على النزعة القومية العربية في الشرق الأوسط؛ حيث إن فلسطين كانت ترمز إلى القوة العربية وعدم اهتمام بريطانيا بالحس العربي، وليس من الغريب أن العرب لهم خصوم وأصدقاء من الإنجليز. كانت الأحداث الفلسطينية تمثل العبء على الحكومات البريطانية المتتالية؛ بحيث إن بريطانيا وجدت نفسها مسئولة عن التمييز الديني، إلى جانب المشكلة التي تتمثل في التوازن بين المصالح والأضرار، وفي ظل وعد بلفور، فبريطانيا كانت ترحب بالمهاجرين اليهود في فلسطين، وتحالفت مع الحركة الصهيونية من جانب يهود أوربا. التي تمثل رد الفعل المنطقي للنزاعات المعادية للكنيسة في الإمبراطورية

الروسية، إلى جانب النزعة المعادية للسامية التى ازدهرت فى الدول المتقدمة مثل فرنسا والنمسا، وقبل عام ١٩١٤ كانت هناك أعداد كبيرة من اليهود المهددين من حيث البقاء؛ والذين لا يمكنهم الاعتماد على الحماية من الدول الأوربية، والذى أدى إلى تفاقم الأحداث أثناء الحرب التى جرت بين أعوام ١٧ و ١٩ و ١٩٢٢ خاصة مع معاداة السامية فى بولندا وأوكرانيا.

انحصرت المعضلة اليهودية فى تأييد المسئولين الإنجليز المتحاربين مثل بلفور، وتشرشل وليو أمرى الذين يمثلون أهم المؤيدين للصهيونية بين الحربين العالميتين، كما أن الإعلان عن الوعد أدى إلى تضارب الآراء بين العرب الذين يتساءلون عن وضع اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين.

وكان لورانس الذى تحول إلى الصهيونية يتقاسم الخشية العربية من اليهود القادمين من أوربا الشرقية، مع أنه كان يرحب بالأمريكان المتعلمين من الطبقة المتوسطة أو يهود بريطانيا.

كانت أفكار لورانس ذات أهمية خاصة؛ لأنها كانت تعكس معاداة السامية فى بريطانيا مع قدوم أعداد كبيرة من روسيا، مما أدى إلى العداء نحو الغرباء، ومن بين أبناء الطبقة العليا كانت هناك الفئة التى تتحامل على اليهود من رجال الاستثمار، إلى جانب بروتوكولات صهيون المعلنة عام ١٩١٩، والتى أدت إلى معاداة السامية من حزب اليمين، وفى عام ١٩٢١ فإن العقيد ريتشار مانيرهاجن الصهيونى الشرس كان على اقتناع مثل مجموعة من الضباط فى فلسطين، بضرورة معاداة السامية، وكذلك الرأى الخاص فى الصراع الطويل بين العرب واليهود.

هناك قدر من الحقيقة فى الآراء التى تحدث عنها وايت بول، والذى كان يعتقد فى حقوق العرب فى الدفاع عن أنفسهم من المستعمرين اليهود الممولين جيدًا والقادرين على شراء مساحات شاسعة من الأراضى؛ وبحيث

تحولوا إلى الإقطاعيين الذين يتمكنون من توظيف العرب فى فلسطين؛ حيث إن العرب بدأوا فى المقارنة بين أحداث فلسطين والجزائر، حيث إن الحكومة الفرنسية تمكنت من تقديم الأراضى إلى المستعمرين الفرنسيين والإسبان. وكذلك الأوضاع فى ليبيا من خلال السياسة الاستعمارية من موسولينى بينما المستوطنون الإيطاليون كانوا يحرصون على طرد العرب من ليبيا؛ بحيث إن عرب فلسطين استشعروا الخطر من الصهاينة الحاصلين على التعاطف من الحكومة البريطانية.

أدى الإحباط والتوتر العرقيين والعنصرى إلى اندلاع المظاهرات ضد اليهود فى الأعوام ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩، والتى أدت إلى مقتل ٩٠٠ من اليهود؛ حيث إن هذه الأحداث المأساوية قد أعادت الذكرى لدى الحكومة البريطانية التى كان عليها أن تتخذ القرار المصيرى من أجل التوازن العرقى بين اليهود والعرب، ولم يكن الوقت كافيًا من أجل سد هذه الثغرة؛ نظرًا إلى عدم استعداد أى من الطرفين للتفاهم أو الحل الوسط؛ حيث إن ذلك سوف يمثل للعرب التنازل عن الأرض، بينما يمثل لليهود اغتصاب الأرض من العرب مع أنهم ليست لهم نفس هذه الرؤية، ولكن مع ذلك فإن احتلال الأراضى من اليهود كان يشير أن ذلك سوف يمثل المستقبل الدائم الذى يجب على العرب التكيف معه فى الطريق نحو إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين، بينما المستعمرون اليهود كانوا يرون أنهم الورثة الشرعيون لأرض الميعاد المقدمة إليهم من الذات الإلهية، ويرون أنهم ينتزعون هذا الحق من العرب المغتصبين، وفى عام ١٩٢٢ أصبح من الواضح للجميع أن مستقبل كينيا سوف يتحدد بناء على مصالح الأجناس الأصلية وليس المستعمرون البيض؛ حيث إن الحكومة الإنجليزية كانت ترى أنه من الأفضل أن تنتظر حتى نهاية هذه الأحداث فى فلسطين.

هذه الفترة أشارت أن هذه المشكلة سوف تحل من نفسها بين أعوام (١٩٢٧ - ١٩٣٢) وأن معدل تزوج المهاجرين اليهود قد ارتفع كثيرًا، وهو الذى جاء فى مصلحة الانتداب البريطانى، على الرغم من ارتفاع المواليد العرب؛ حيث إن عام ١٩٣٣ كان يشهد وجود ٨٠٠٠٠٠ من العرب و ٢٠٠٠٠٠ من اليهود فى فلسطين.

أمَّا الأحداث فى أوربا فقد تبدلت كثيرًا، وهو الذى أدى إلى تغيير النظرة الأوربية إلى مشكلة فلسطين مع وجود ١٠٠٠٠٠٠ يهودى فى ألمانيا، عندما حصل هتلر على السلطة فى يناير ١٩٣٣، وبعد خمس سنوات فإن السلطات النازية تمكنت من طرد ١٥٠٠٠٠ من اليهود خارج ألمانيا، وذلك بالاتفاق مع السلطة اليهودية فى فلسطين من أجل التيسير من عملية الهجرة؛ حيث إن أعداد اليهود ارتفعت فى وجود الحكم النازى مع ضم النمسا عام ١٩٣٨ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٣٨ إلى ألمانيا؛ حيث إن النظام النازى كان يعادى السامية اليهودية فى أوربا، وهو الذى أدى إلى انشقاق وإتساع الفجوة واتساعها مع اضطهاد اليهود فى بولندا والمجر ورومانيا ودول البلطيق والطرد الجماعى لليهود من شرق أوربا، كما أن الحكومة النازية عملت على تنظيم لحركات الهجرة والترحيل لعدد ٥٠٠٠٠ من بريطانيا، والحركة الثانية لليهود من شرق أوزبا، التى تمثل هجرة ٧٤٠٠٠ من بولندا إلى فلسطين وبحيث إن ستة الأعوام قد شهدت هجرة ٢١٥٠٠٠ من اليهود إلى فلسطين؛ بحيث إن العدد الإجمالى بلغ ٤٧٥٠٠٠[٢٦].

أمَّا الإسلام الذى يتناقض مع آراء الكنائس الكاثوليك والأرثوذوكس فقد أعلن عن تسامح المسلمين مع اليهود، ولكن مع ذلك فإن الهجرات الكبيرة لليهود أدت إلى إعلان العرب عن الشروط الصعبة لحركات الهجرة من جانب منظمة التحرير الفلسطينية؛ حيث إن هذه الاستجابة أدت إلى الثورة

العربية فى أبريل ١٩٤٦، وأدت إلى ضعف الأمن الداخلى فى المنطقة، على الرغم من ١٩١٨ من ثمانى عشرة سنة من الحكم البريطانى، بينما تشير الأوضاع فى الأراضى الجنوبية عام ١٩١٩ إلى عجز الشرطة عن التصدى إلى الكمائن وعمليات القتل والتخريب لوسائل الاتصالات والإضرابات العامة، كما أن الجهود المبذولة من الحكومة كانت ضعيفة؛ بحيث إن الآلاف من القوات لم تنضم للدفاع عن فلسطين فى سبتمبر ١٩٣٦، وعلى الجانب الآخر فإن جميع العرب لم يعلنوا إلا عن مشاعر التعاطف فقط دون تقديم المساعدة الحقيقية[٢٧].

الجهود المستمرة من أجل التوفيق كان عليها الاعتماد على المقاييس السلمية، وهو الذى يعكس التخبط فى القرار من مجلس رئاسة الوزراء الذى أدان قصف القرى والقواعد وتطبيق قانون الطوارئ والأحكام العرفية[٢٨]، بحيث إن اللواء أرثر وانشوب المفوض العام كان يرفض تطبيق السياسة السلمية، وهو الذى أعاق عملية تصحيح الأوضاع أو التفاوض والتفاهم على الحل خلال الأعوام الثلاثة التالية[٢٩]، فإن الجيش والبحرية والدفاع الجوى قد أعلنوا الحرب على أجزاء عريضة تشمل القدس ونابلس من أجل الرقابة على توسعات العدو، والأمل فى التوصل إلى حل الوسط من خلال الملكية الإنجليزية والحكومة البريطانية التى تجنبت التدخل السياسى، وأدت إلى اشتداد الصراع، كما أن الأعضاء فى مجلس العموم أعلنوا فى سبتمبر ١٩٣٧ عن الالتماس من أجل خفض عدد المهاجرين اليهود، ولكن الجانبين رفضا هذا الحل.

أمَّا المشكلات المحلية فى فلسطين فقد أصبحت تمثل الإزعاج الدولى فى بريطانيا، والحاج أمين الحسينى مفتى القدس والمتحدثون العرب الذى عملوا على إقناع رؤساء الدول العربية المجاورة من أجل الضغط على

بريطانيا، إلى جانب الحملة المناهضة للإنجليز من عرب فلسطين والمؤيدين لهم، والتى أدت إلى إزعاج وزارة الخارجية وأنطونى إيدين، والعديد من المسئولين عن النفوذ البريطانى فى العالم العربى.

جاء العداء العربى تجاه بريطانيا فى مصلحة بريطانيا وألمانيا اللتين تتنافسان على المواقع البحرية فى فلسطين، وبين عام ١٩٣٨، ١٩٣٩ فإن هذه الدول أعلنت عن الأعمال الوحشية البريطانية ضد العرب، وبعض هذه الروايات صحيحة، وتأتى من المصادر العربية خارج فلسطين[٣٠]، وفى بداية ١٩٣٩ فإن المخابرات الإنجليزية كانت تطارد اثنين من الوكلاء النازيين الذين يعملون على جمع العتاد من أجل القوات الإنجليزية التى تواجه حرب الشوارع العربية، مع وجود الدليل على أن روسيا ترسل الوكلاء من بين العرب إلى موسكو من أجل التدريب[٣١].

وعلى الرغم من الدعاية المقابلة من إذاعة الـ بى. بى. سى فإن الممثلين الإنجليز فى الدول العربية كان عليهم أن يلتمسوا من الحكومة اتخاذ بعض الإجراءات المخففة فى فلسطين، وأن حرب الكلمات لم تؤد إلا إلى الإزعاج والتوتر ومزيد من المشكلات، والصعوبة فى حل هذه المشكلات الدولية وتدهور العلاقات مع إيطاليا بعد غزو ألبانيا عام ١٩٣٥، إلى جانب العداء بين اليابان والصين الذى انتهى فى يوليو عام ١٩٥٧، بينما فى ١٩٣٨ اكتشفت بريطانيا أنها يمكن أن تحقق التوازن فى القوى داخل أوربا من خلال تقديم الامتيازات إلى ألمانيا؛ وذلك من أجل الحصول على الأراضى فى المقابل، كما أن الظروف والتوقيت الذى كان يشهد الصدام مع اليابان والدول الآسيوية أديا إلى عدم تأثير القضية الفلسطينية على بريطانيا، وفى حالة نشوب حرب مع اليابان أو ألمانيا أو إيطاليا فإن الانحياز العربى والاضطرابات فى المنطقة على ضفاف قناة السويس أصبحا يمثلان الخطورة

الشديدة، واتخذت الحكومة القرار السريع من أجل تهدئة الأوضاع في فلسطين، ومن خلال اتفاقية ميونخ التي تهدف إلى التحصين في فلسطين، ومن خلال[٣٢] صعيد العمليات في بداية صيف ١٩٣٩، التي أدت إلى إعادة النظام العام، بينما في مايو تم الإعلان عن البيان الدولي الذي يشير إلى السياسة البريطانية على مدى السنوات الخمس التالية، وذلك من أجل خفض عدد المهاجرين اليهود إلى ٢٥٠٠٠ في السنة، والاستعداد إلى إقامة هذه الدولة المستقلة التي تضم الغالبية من العرب، والمساعي نحو نقل اللاجئين اليهود إلى مستعمرات أخرى، بينما فكر حاكم كينيا في أن منطقة يهودية لم يكن مرغوبا فيها برغم أنه لم يعارض في الوضع الصحيح لليهود (أي ألماني أو نمساوي) وكان المستقرون في روديسيا الشمالية في منتهى البرود، وكانت غينيا البريطانية مشجعة[٣٣].

مع هذه الضرورة الإستراتيجية التي اكتسبت الأهمية على مدى عشرين سنة، فإن جميع اليهود قد اكتشفوا هذا الوهم الزائف؛ لأن الاستيطان الاستعماري والعسكري والسياسي عامي (١٩٣٨، ١٩٣٩) أشار أن بريطانيا سوف تكشف عن القسوة في حالات الطوارئ أو عند وقوع المشكلات، وأن هذه البشائر قد اتضحت في الأعوام الأولى من خلال الرأي العام العربي الذي كان يأمل في الظفر العربي في الشرق الأوسط والتملص من السيادة البريطانية، بينما الأوضاع في العرق تمثل انعكاسات من أحداث فلسطين والحس المعادي لبريطانيا من الضباط والفئات المسئولة؛ حيث إن رقابة بريطانيا على جيش العراق لم تمنع من إدراك الصفوة لأهمية التعاون من أجل تحرير العراق وتشجيع بعض السياسات؛ نظرًا إلى عدم استقرار الأوضاع بعد وفاة الملك فيصل عام ١٩٣٢، كما أن الأعوام الثمانية التالية كانت تشهد الحكومات المدنية التي كانت تمثل العقبة الكئود أمام القوى الاستعمارية.

مع أن العراق كانت متحالفة مع بريطانيا بشكل فنى فـإن الحكومـة العراقية كانت تسعى إلى المساندة التى قدمتها إلى المجهود الحربى البريطانى وعلى غرار مصر التى كانت تخفى تعاطفها مع الدول التى تمثـل المحـور وفى مارس ١٩٤٠؛ فإن الوضع قد أشار أن القيادة العليا فى القـاهرة كانـت تستعد من أجل وضع الخطط وتطبيقها؛ التى تهدف إلـى احـتلال حقـول البترول فى الموصل والذى يمثل الإجراء الاحتياطى أو الحذر، ولكن لم تكن تدرك من أين يمكن أن تحصل على الرجال، وبعد مرور ثمانية أشهر مـن ذلك فإن ألمانيا قد أعلنت عن التهديد بغزو العراق من جانب الخطة العليا من برلين، وأن النفوذ الألمانى فى البلقان واليونان فى ربيع ١٩٤١ يشير إلـى احتمالات فى قدرة سلطات فيشى فى دمشق على بناء القواعد الألمانية فـى سوريا من خلال الدعم من جانب بريطانيا للتدخل فى العراق، بينما اثنان من الفيالق الهندية هبطا على البصرة من أجل تنفيذ الأوامر للرقابة على حقـول البترول من الشمال.

لم تخالف هذه المناورات المعاهدة الإنجليزية العراقية، ولكن القوميين اعتقدوا أنها تمثل المقدمة أو الحُجة من أجل النفاذ إلى بغداد؛ حيث إن رشيد على نائب رئيس الوزراء الذى تولى السلطة بمساندة الجيش فى الثالث مـن أبريل التمس من المحور المساعدة، بينما استغل الإنجليز هذه الدسيسة مـن خلال الاتصالات اللاسلكية بين ألمانيا وإيطاليا، والأوامـر الـصادرة مـن القوات فى فلسطين من أجل الدخول إلى العراق، بينما هـاجم العراقيـون؛ مطار الحبانية والمدرعات البريطانية، وقد وصلت بغداد فى منتصف مـايو إلى أجل إحداث النتيجة المتوقعة من هذه الحملة التى استمرت فـى الـستة الأسابيع، والتى أدت إلى مقتل ثلاثة آلاف من أفراد القوات العراقية مع فصل ثلاثة آلاف من الضباط من الجيش، وبناء على أوامر الحكومة البريطانية فى

عهد نورى السعيد الذى كان يحارب فى صف لورانس منذ خمس وعشرين سنة ماضية، بينما تمكن رشيد على من الفرار إلى برلين.

أمَّا حركة الانقلاب ضد العراق، وكذلك حركة قلب نظام الحكم فى قصر الرئاسة فى القاهرة، فقد استمرت تسعة أشهر، على الرغم من مرور أكثر من عشرين عامًا على القومية، وكذلك النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط الذى كان لا يزال صارمًا، وباقى الإجراءات الاستثنائية فى حالات الطوارئ من جانب هذه الدولة التى كانت تحارب من أجل البقاء، مع اختلاف النظرة تجاه العرب والمصريين، وحيث إن استعراض القوة أدى إلى مشاعر الإحباط والمرارة من جانب الضحايا المستضعفين، حيث إن بريطانيا ظلت لفترة طويلة القوة السائدة فى المنطقة والتى تفعل أى شيء من أجل تحقيق جميع أهدافها.

(٥)

قوة جديدة وسلطة جديدة

الهند (١٩١٩ ـ ١٩٤٢م)

كانت الإمبراطورية الهندية دائما كيانًا متعددًا. وخريطتها السياسية عبارة عن فسيفساء من الإمارات (لقد كانت الإمارات تزيد على ٥٠٠ إمارة في عام ١٩١٩م) والأقاليم تحكم مباشرة من قبل المسئولين البريطانيين. وهذه الإمارات كانت تشكل نحو خمسي مساحة شبه القارة الهندية، وتحتوى على ربع عدد السكان بها. وقد كان من المستحيل أن يتم رسم خريطة عرقية ودينية دقيقة للهند، على بالرغم من أنه - كقاعدة عامة- كان المسلمون يتركزون في المناطق الشمالية الغربية وفي البنغال. وقد كان المسلمون يشكلون أقلية تمثل نحو سبع عدد السكان البالغ عددهم نحو ٢٨٠ مليون نسمة في عام ١٩٤٠م.

وقد كان التسامح العرقي والديني نادرًا في الهند، فجنود الجوركا (Ghurka) الذين قاموا بإطلاق النار على الجماهير في عام ١٩١٩م- اعترفوا فيما بعد أنهم كانوا يستمتعون بقتل الناس الذين في السهول[١]. وفي عام ١٩٢٣م أظهرت مصادر المخابرات أن الهندوس كانوا يشعرون بالسعادة من الغارات الجوية التي تم تنفيذها على قرى باثان (Pathan) على الحدود الشمالية الغربية[٢]. وفي التحقيق العسكري الذي تم في عام ١٩٤٣م كان هناك جنود ملائمون للقيام بخدمات الشرطة، وظهر أن "السيخ لا يجدون شيئا

عندهم أكثر متعة من قتل المسلمين[٣]". ولا يوجد أى سبب لتكذيب هذه الأحكام، ولا يجعلنا أيضا ننفى أن بريطانيا قامت عن طريق غرس التمايزات القومية والتلاعب بالاختلافات العرقية والدينية من أجل أن تقوم بتطبيق قاعدة "فرق تسد".

ومن ناحية أخرى فإن السياسيين المتطرفين الذين أرادوا لحكم الإمارات أن يستمر بأى وسيلة، ادعوا أن بريطانيا وحدها هى القادرة على حفظ السلام، وأن تكون حاكما غير منحاز، وأن تقوم بالموازنة بين الحقوق المتعارضة لديانة معينة مقابل ديانة أخرى. وهذه المقولة قد قويت للغاية أثناء فترة العشرينيات عندما ازدادت الاضطرابات الطائفية بشكل غير مسبوق. وأغلب الحوادث العادية التافهة كان يمكن أن تسبب عمليات قتل وسلب ونهب، وعلى سبيل المثال فقد أدت حادثة شجار فيما بين طالبين فى المدرسة أحدهما هندوسى والآخر مسلم إلى عشرة أيام من أعمال الشغب والسلب والنهب فى دكا فى عام ١٩٢٩م[٤].

وقد كان قادة المؤتمر الهندى المهيمن على الهند يصابون بالرعب من مثل هذه الحوادث ومن أحداث العنف الطائفى بشكل عام. وقد كانت هذه الأحداث تمثل العائق الرئيسى الذى يمنع الهنود من أن يفكروا فى أنفسهم على أنهم هنود أولا ثم مسلمون أو هندوس ثانيًا، وأن يتصرفوا بناء على ذلك. وقد كان جواهر لال نهرو (Jawahrlal Nehru) يرى أن الدين يمثل اللعنة الكبرى فى الهند، وقد كان يرى أنه يؤدى إلى تغذية التعصب وضيق الأفق[٥]. وقد كان جواهر لال نهرو قد تلقى تعليمه فى هارو وكمبريدج، قادمًا من عالم فيه الذبح العلنى لبقرة، أو القصص المثيرة عن القيام باغتصاب النساء العذراوات من الهندوس، يجعل الهندوسى يغضب لدرجة أن يقوم بقتل جيرانه من المسلمين وحرق منازلهم.

وأغلب الهنود، أيا كانت عقيدتهم، كانوا شديدى الفقر، ويعيشون فـــى القرى ويعيشون على العمل فى الأرض. وكان غاندى (Gandhi)، الذى كان منذ عام ١٩١٩م هو ضمير المؤتمر الهندى، يرغب فى أن يظل جميع الهنود شعبًا بسيطًا، وقد قام بتشجيع الهنود على زراعة الأراضى القابلة للزراعـــة التى كان يعتقد أنها سوف تقوم بإعادة خلق الهند من جديد. ولهذا السبب فإنه كان يقوم بغزل القطن، وقضى وقتًا كبيرًا فى تعليم الآخرين كيف يقومـــون بذلك. وقد كان يرى أن المركزية غير الموثوق بها والتحول الصناعى فـــى العالم الحديث سوف يؤديان إلى تآكل كل ما هو خير فى الهند التقليدية. وقد كان غاندى يرغب أيضا فى أن يستبدال باللغة الإنجليزية كلغة تعلـــيم للغـــة الجواجارتى (Gujarati) إلا أنه هو والصف الأول من حزبه قد تلقوا تعليمهم باللغة الإنجليزية، فقد كان محاميًا ينتمى للطبقة الوسطى، وقد كانـــت جـــل مبادئهم السياسية فى جوهرها هى مبادئ بريطانية.

وهذا يعنى أن نخبة حزب المؤتمر ذات التعليم البريطانى، كانوا هـــم نتاج مثاليات العمال الهنود فى القرن التاسع عشر، الذين كانوا يعتقـــدون أن التعليم هو الذى سوف ينهض بالهند. فمعرفة الفلسفة والعلوم الغربية سوف تؤدى إلى انفتاح العقلية الهندية، وتؤدى إلى تكـــوين طبقـــة مـــن الرجـــال المتنورين القادرين على إدارة شئون بلادهم. وقد انتشر التعليم وفق الأسلوب البريطانى فى كل مكان فى الهند، ولكن لم يكن هذا الانتشار بالتساوى فيمـــا بين أنحاء الهند المختلفة. ففى "ترافانكور: Travancore" (الولاية الأساسية) كان ٦٨ فى المائة من السكان أُميين، ولكن كانت هناك مناطق أخرى فيهـــا النسبة أقل من ٢٠%. وقد كانت هناك محاولة منظمة لتلقين أبناء الأمـــراء ورجال الأعمال والأعمال المهنية مثاليات الحكـــم البريطـــانى مـــن خـــلال المدارس الهندية العامة. وقد كانت هذه المدارس بمثابة إعادة إنتاج لأصولها

من المدارس البريطانية، ومثلها مثل المدارس البريطانية، فإنها كانت تسعى لتهذيب الشخصية. والفتيان القدامى الذين التحقوا بهذه المدارس لم يكونـوا بنفس براعة نظرائهم من البريطانيين وفقا لتقرير رسمى صادر عام ١٩٤٢م نص على الآتى:

النتاج قد يكون محدودًا فى بعده الفكرى فالطلاب كانوا ضيقى الأفـق ولكنهم كانوا شديدى الطموح، ولكن فى نفس الوقت فإنهم أظهروا قدرة على التعليم والالتزام بمعايير السلوك والاستعداد لتحمل المسئولية(٦).

وقد أخفقت المدارس الثانوية الحكومية فى هذا المجال، لأنه علىَ خلاف المدارس العامة الهندية فإنها لم تكرس نفس الوقت للعب الألعاب الجماعية.

لقد كانت علاقات الكشميرين مثل صرير الأسنان هذا ما ذكره تيندال- بريسكو (Tyndale-Briscoe) مدير مدرسة إرسالية الكنيسة فـى سـرينجار (Siringar) فى الفترة ما بين عام (١٨٩٠ - ١٩٤٧م) وهو ما يعنى أنه قـد قضى معظم حياته هناك. فالمسيحيون النشطون ذوو التفكير المستقل والبنية الجسمية القوية من طلبة كامبريدج بالزى الأزرق، هم فقـط الـذين كـانوا مؤهلين لأداء المهمة. فلعب الكريكت والرجبى وكرة القدم والملاكمة (حيث اعتقد أنها تمثل الترياق ضد اللواط الذى كان منتشرًا فيما بـين المـراهقين الكشميريين) كانت تمثل العمود الفقرى للمنهج الذى تقدمه المدرسة. وقد كان تيندال- بريسكو يقوم أيضًا، بنفس القوة، بتشجيع الإحساس بالواجب العـام، وقد كان الفتيان الذين تعلموا عنده يمثلون فرقة عسكرية تعلمت أن تـساعد الضعفاء والفقراء، وقد كانوا يتعلمون كيف يُعاملون الحيوانات بلطف، وقـد قاموا بعمل أقصى ما يمكن من عمليات الإنقاذ أثناء انتشار وباء الكوليرا (٧). وقد كان هناك آخرون مثلهم متفرقون فى أنحاء الهند، ليس فـى المـدارس فقط، ولكن فى كل مكان استطاعوا اكتساب القيم المطلوبة.

وفى الجامعة، فإن طلبة المدارس الثانوية الهندية وجدوا أنفسهم في أجواء يمكن لهم فيها البحث ومناقشة الأفكار السياسية بحرية، وكذلك تطبيق ما قد تعلموه على الهند المعاصرة. وعلى سبيل المثال فإن أولئك الذين كانوا يدرسون التاريخ في جامعة ميسورى تم سؤالهم فى أحد الاختبارات في عام ١٩٢٤م السؤال الآتي: "الديمقراطية هى اختراع أوربى، وربما تكون مناسبة فقط للجنس والثقافة الأوربيتين. قم بمناقشة ذلك فى ظل دراستك للتاريخ الهندى، وقم بالتعليق على تغيير الاسم من الإمبراطورية إلى الكومنولث- كيف يمكن أن يؤثر هذا التغيير على الهنود وسكان سيلان وجنوب أفريقيا؟"(٨). وقد كانت خطب برك (Burke) التطورية حول فرض الضرائب فى أمريكا من بين النصوص التى كان يقوم طلاب اللغة الإنجليزية بدراستها فى كلكتا (Calcutta) فى عام ١٩٢٢م.

وعلى ذلك فإن أجيالا من الشباب الهندى كانت قد تشبعت بتقاليد الفكر السياسى التى تؤكد حقوق الفرد والقيود التى يجب أن تتقيد بها السلطة الشرعية الدولية. وأولئك الذين تعلموا أن يفكروا بالطريقة البريطانية تخيلوا أنهم متساوون فكريًا بمن يحكمونهم، ومن الطبيعى أن يرغبوا فى أن يتعامل معهم البريطانيون على نحو متساو. ولم يكن هذا سهلاً على الرجال والنساء الذين اعتادوا النظر لأنفسهم على أنهم ممثلون لثقافة أعلى، وأن يكونوا متساوين مع النخبة المتعلمة فى الهند التى كانت تمثل قسمًا ضئيلاً للغاية من المجتمع الهندى. وإذا نظرنا للموضوع نظرة شاملة فإن تقدم الهنود كان تقدمًا واضحًا، ولكنه كان عملية بطيئة للغاية. واكتمالها، وكذلك ساعة الحكم الذاتى، كانت بعيدة للغاية.

وفى بعض الأحيان فإن الأمر كان يحتاج إلى العديد من العقود. والنظرة الإدارية الرسمية لهذا الموضوع عبر عنها فى عام ١٩١٦م الجنرال

السير إدموند بارو (Edmund Barrow)، وهو أحد المسئولين العسكريين الكبار وقد بدأ الخدمة فى الهند قبل ما يقارب أربعين عاما من هذا التاريخ بقوله:

من خلال منح الحرية والعدالة والتعليم فى الهند، فإننا نكون قد قدمنا الكثير لتحريرها من قيود النظام الطبقى والأحكام المسبقة، ولكن الأمر لا يزال يحتاج إلى عقود لكى نصل إلى المثاليات التى قال بها الفلاسفة ومحبو الخير، ولإرضاء أشواق الهند المتحفزة(٩).

وبعد عام ١٩١٩م فإن مشوار الهند نحو الحكم الذاتى بدأ يتسارع وأدى إلى تجمع الزخم الذى أدى تلقائيا إلى عدم صبر القوميين الهنود والمحافظين المرتعدين فى كل من الهند وبريطانيا. وقد كانت الحرب هى المحرك الدافع للتغيير. فقد شهدت الهند إصرارًا غير عادى خلال الفترة ما بين عام ١٩١٤م وعام ١٩١٨م، حيث قام شعبها بمقاومة الدمار الألمانى وقدموا ما يزيد على ٥٠٠٠٠٠ محارب وقدمت ١٠٠ مليون جنيه إسترلينى لخزانة الحرب الإمبراطورية(١٠). والجهود التى تم بذلها على هذا النحو كانت تستحق ردًا كريمًا من البريطانيين، ففى عام ١٩١٧م ألزمت الحكومة البريطانية الكريمة نفسها بسياسات تم وضعها من أجل وضع الهند على الطريق لكى تكون مسئولة عن الحكم فى الإمبراطورية. وقد كان الوعد فى الأساس بمنح "الحكم الذاتي" ولكن اعترض كرزون (Curzon) على ذلك(١١).

فمن جانب معين نجد أن هذه الإشارة، مثل التعهدات التى تم منحها للعرب فى السنة التالية- قد عكست رغبة الحكومة فى قبول مبدأ تقرير المصير من الناحية النظرية لا يقتصر الأمر على أعراق بعينها. ومن ناحية أخرى، هو جانب أقل وضوحا، فإن هذا الإعلان كان بمثابة اعتراف بأن حكومة الهند كانت تحتاج إلى عملية إصلاح شامل؛ حيث لاحظ قبل ذلك إدوين مونتاجو (Edwin Montagu)، الذى كان لويد جورج (Lloyd George)

قد عينه وزير دولة لشئون الهند فى عام ١٩١٧م، أن الحكومة الهند هى حكومة متخشبة ومقيدة للغاية وجامدة للغاية وبدائية للغاية، بحيث لا تصلح للأغراض الحديثة التى نريدها لها". وما كان يفكر فيه هو الجمود والافتقار للخيال بالنسبة للبيروقراطية الهندية، كما ظهر فى التحقيق فى الهزائم التى شهدها الجيش الهندى فى بلاد ما بين النهرين، فقد كان الجيش الهندى عبارة عن عضلات فقط دون عقل، وفى حالة كهذه فإنه ليس من المتوقع أن تدعم وضع بريطانيا باعتبارها قوة آسيوية.

وقد قام مونتاجو بزيارة الهند فى عام ١٩١٨م، وهو ما جعله أول وزير دولة يهتم للتعرف على البلد الذى يقوم بالإشراف عليه. وقد قام بالاجتماع مع نائب الملك الجديد، اللورد شيلمسفورد (Chelmsford)، لوضع سلسلة من الإصلاحات التى أصبحت قانونا فى مارس من عام ١٩١٩م.

(وكان شيلمسفورد أكثر من حاكم عادى؛ فقد كان ابن جنرال حرب الزولو سيئ الحظ، وقد خدم فى مجلس مقاطعة لندن، ثم بعد ذلك، مثل بطل قصص بيلوك (Belloc) أرسل لكى يحكم جنوب وليز الجديدة) وقد رغبوا فى أن يمنحوا الهنود أول جرعة من مسئولية الحكم من خلال إنشاء أحد عشر إقليمًا تتمتع بالحكم الذاتى، والمؤسسات العامة، فيها مثل مؤسسات الصحة العامة والتعليم والزراعة، يمكن أن تدار بواسطة وزراء هنود منتخبين، والشئون المالية وشئون النظام العام قد تم وضعها فى يد وزراء يتم اختيارهم بواسطة نائب الملك، سواء كانوا من الهنود أم البريطانيين.

وقد أراد المؤتمر أن تخطو الهند خطوة أوسع من ذلك وبحذر نحو الحكم الذاتى، وعلى ذلك فإن أعضاءه قد أصيبوا بالإحباط من هذا الإجراء ووجدوا فيه روح البخل. وبجانب إعلان إصلاحات مونتاجو شيلمسفورد فقد تزامن معها إصدار قوانين رولات (Rowlatt)، وهى مجموعة من القوانين

المتتابعة كان الهدف منها التقليل من حالة التدهور. وقد مثل هذا التشريع رمزًا لأوتوقراطية الراج (raj) ولذلك فإنه كان سببا فى إثارة المؤتمر الهندى.

وكان الكفاح ضد قوانين روليت أول صراع كبير فيما بين الراج والمؤتمر. وقد قدم أيضًا أرضية لاختبار مبادئ المقاومة الشعبية التى كان غاندى قد وضعها فى أثناء حملته من أجل الحصول على حقوق الهنود فى ناتال (Natal) قبل عشرين عاما. وقد كان السلاح الذى استخدمه غاندى هو الساتيجراها (satygraha)، التى ترجمها بمعنى "قوة الروح" أو "قوة الحب". وكما كان يشرح لأتباعه خلال مارس من عام ١٩١٩م فإنهم يجب أن يستغلوا الميتافيزيقيا فى المعارضة السياسية. والساتيجراها كانت هى حالة روحية يتم الوصول إليها بواسطة الرجال والنساء، وتؤدى إلى منحهم الاستقرار الداخلى والصبر والإيمان بالإله، وهو ما يحتاجونه من أجل المقاومة السلبية ضد السلطة غير الأخلاقية، ودرجة المعاناة البدنية التى يتحملها كاهن الساتيجراها - كانت تسير كمقياس على درجة استقامته وسعيه من أجل قضيته[١٢]. ومن الناحية السطحية فإن الساتيجراها كانت هى أداة مثالية لتحدى الراج. وقد كان يستهدف ضمير البريطانيين. فلأجيال عديدة كان الشعب البريطانى يؤكد أنهم يحكمون الهند بموافقة أهلها، وهو الافتراض الذى كان يعنى أنهم كانوا يقبلون بفكرة أن الإمبراطورية لها ضمير خير. وكما قصد غاندى، عبر آلاف أو ربما ملايين من الهنود بألطف طريقة ممكنة، أن هذا غير حقيقى فإن الأساس الأخلاقى للراج يتم نسفه، هذا إلى جانب أنه كان يقوم بتقديم الأسرار الغامضة للساتيجراها لتابعيه، فقد اقترح غاندى إقامة مسيرة عامة للاحتجاج على قوانين روليت. وكانت هذه عبارة عن مسيرة تقليدية عامة للحداد أو عدم الموافقة، وأثناءها كانت جميع المحلات والأعمال والمدارس تغلق وتعطل المواصلات العامة تاركة أعدادًا كبيرة حرة فى الشوارع.

وقد كانت هناك مجموعة من أعضاء المؤتمر المثقفين الذين ينتمــون إلى الطبقة الوسطى، وكانوا قادرين على فهم جوهر الساتيجراها واستخدامها في الغرض الذى يطالبون به. وأغلب الذين انضموا إلى المسيرة لم يقدروا أحدًا. والمسيرات تحولت إلى أعمال شغب؛ حيث قام المتظاهرون بالقتال مع قوات الشرطة ومهاجمة الأوربيين وقتلهم وسرقة ممتلكاتهم وإحراقها. وحتى غاندى نفسه قد ارتعب من عمق الشعور المضاد للبريطانيين وقوته؛ الذى بدا أنه انطلق وأصبح خارجًا عن قدرته على السيطرة عليه(١٣).

وقد وصلت الثورة إلى ذروتها فى البنجاب، حيث كان السير مايكــل أودوير (Michael O'Dwyer) هو الحاكم. وقد كان رجلاً إيرلنديًا صــريحًا وقويًا ولديه إحساس قوى بالعدالة، وقد كان يحكم بقبضة من حديــد. وقــد واجه أودوير تحريضا على العصيان أثناء الحرب وتغلب عليه، وفى أبريــل عام ١٩١٩م كان يرغب فى عمل ذلك مرة أخرى. وأكثر أعمــال الــشغب تدميرًا كانت فى أمريتسار (Amritsar)، حيث تم ذبح الأوربيين، وحيث فقدت الحكومة أى سيطرة على الناس، لفترة من الزمن. وفى هذه الأثناء وصــل العميد رينالد دير (Reginald Dyer) مع تعليمات بفرض الأحكــام العرفيــة واستعادة الهدوء المدنى. ولكنه لم يكن الرجل المناسب لأداء هــذه المهمــة، فطوال عشرين عاما سابقة على ذلك، عندما كــان ضــمن هيئــة تــدريس الجامعة- فإن أخاه الضابط قد وصفه بأنه كان أكثر الجنود ســعادة عنــدما زحف إلى حظيرة بورميس (Burmese) للماشية وهو يضع مسدسا فى فمه، وفى عام ١٩١٩م فإن مرضا شديدًا أدى إلى شحذ حبه الفطرى للقتال.

وعندما قام قادة المؤتمر المحليون بتحدى الحظر الذى فرضــه علــى الاجتماعات العامة، وبعد أن حصل على منشور ملتهب المــشاعر يحــرض الجنود الهنود على العصيان، فإن دير قرر أن يقوم بعرض للقوة. فقــد قــام

بقيادة كتيبة صغيرة إلى أمريتسار حيث كانت المظاهرات جارية في جاليانوالا باغ (Jallianwala Bagh)، وأمر رجاله بإطلاق النار على الجماهير. ووابل الرصاص الذى تم إطلاقه وتوجيهه بعناية استمر لمدة عشر دقائق وأدى إلى قتل ٣٧٩ من الهنود وجرح المئات، وبعد ذلك عبر دير عن أسفه من أنه كان غير قادر على استخدام المدافع الرشاشة التى كانت منصوبة على عربتين حربيتين قام بجلبهما إلى المدينة. وفى الأيام القليلة التالية قام بأعمال فى غاية الشناعة والقسوة، وقد أمر الهنود بأن يقوموا بالزحف على بطونهم بطول الشارع؛ حيث تم اغتصاب سيدة من أعضاء الإرساليات التبشيرية بواسطة القائمين بأعمال الشغب، وقد تم إنقاذها بالصدفة بواسطة مجموعة أخرى من الهنود.

كان عام ١٩١٩م نقطة تحول فى تاريخ الهند، وقد كانت أمريتسار هى محور هذا التحول؛ ففى ١٨ أبريل، أى بعد أربعة أيام من حادث إطلاق النار هناك، نادى غاندى بوقف المظاهرات. وقد كان من الواضح أنه قد فقد السيطرة على أتباعه، على الرغم من أنه قد لام الشرطة على أنها هى السبب فى حدوث الاضطرابات وادعى بشكل غريب أن الحشود الهندية هى أسهل حشود يمكن تفريقها فى العالم[١٤]، فإن إيمان بالساتيجراها ظل قويًا، وفى يونيه أعلن أن المسيرة قد أدت إلى بروز قوة وسلطة جديدة، وهي قوة أثبتت أنه لا يمكن مقاومتها، وهى على كل حال تبرهن على أن الحق فى صفنا[١٥].

وقد ثبت بعد مذبحة أمريتسار أن الحكم البريطانى للهند استند بشكل مطلق على القوة. تأكد ذلك فى عقل غاندى وأعضاء المؤتمر حسب الأحداث التى تلت التهدئة فى البنجاب.

وانتشرت الأخبار الخاصة بما حدث فعلاً في أمريتسار ببطء، وعندما تم إدراك حدوث هذه الجريمة البشعة فإن الحكومة قامت بعمل تحقيق في الحادثة تحت رئاسة القاضي الأسكتلندي، اللورد هنتر(Hunter). وقد وجدت المحكمة أن دير مخطئ، ولذلك تم طرده من الجيش على الفور، في حين أن أودوير، الذي كان قد أمر بإلقاء القنابل على المتمردين في أي مكان من البنجاب، تمت تبرئته. وهذا الحكم قد أدى إلى إغضاب المجتمع البريطاني في الهند، والضباط في كل مكان، وكذلك المحافظون في بريطانيا الذين آمنوا أن العميد والحاكم كانا أبطالاً، وأنهما أنقذا الهند من الوقوع في براثن الفوضى.

وقد أثار المؤيدون البريطانيون لأعمال دير القضية في البرلمان. وكانت دوافعه وأفعاله موضع نقاش محزن في يوليو عام ١٩٢٠م، وفي هذا النقاش فإن الجناح اليميني من المحافظين طالب بدم مونتاجو، وتم توجيه اللوم له؛ لأنه كان شديد اللين مع مثيري الفتنة الهنود وقاسيًا للغاية مع رجل شريف امتلك الشجاعة الكافية للتعامل بحزم معهم. وبدون أي تردد فإن مونتاجو قد أنب دير على الإذلال العرقي الذي قام به في أمريتسار، وهو ما يخرق المبادئ التي تم بناء إمبراطورية الهند عليها، وقد واصل في توجيه الاستهجان؛ لشجب عنصرية حلفاء دير وقال:

إن الهندي هو شخص مقبول طالما يطيع الأوامر التي توجهها له، ولكن إذا فكر في حاله، فلماذا إذا حاول أن يأخذ مرة لنفسه الميزات التي تعلمها في المؤسسات التعليمية التي وفرناها له، وإذا قام مرة باستيعاب أفكار الحرية الفردية العزيزة على الشعب البريطاني تقومون بتصنيفه على أنه هندي متعلم وهندي همجي[١٦]؟

وقد ساند تشرشل (Churchill) هذا الرأى ولعن ما حدث فى أمريتسار باعتباره "حدثًا رهيبًا"، وقد قام برفض الرأى الذى قال بأن دير بطريقة ما قام بإنقاذ الهند على أساس أن السلطة البريطانية لا تستند إلى القـوة العاريـة. وقد رد السياسيون المتطرفون تحت قيادة السير وليـام جوينـسون هيكـز (William Joynson Hicks)، على الاتهام بأن دير قد قُدم على أنه كبش فداء للحكومة التى ذهبت بعيدا للغاية إرضاءً للأقلية الصاخبة.

وقد فازت الحكومة فى التصويت، ولكن ظل هناك كثير من المقـاتلين فى معسكر دير. وقد قامت صحيفة المورنينج بوست بالإعلان عن صندوق من أجله، وفى أقل من أسبوعين جمع ما يزيد على ٢٦٠٠٠ جنيه إسترلينى من المتبرعين الذين كان من ضمنهم كيبلنج(Kipling).

وقد كان ضباط الجيش على نحو خاص غاضبين من المعاملة التـى عومل بها رجل قام بواجبه بالطريقة التى رأى أنها مناسبة، ثم بعد ذلك تـم التخلى عنه من جانب الحكومة التى كان يجب عليها أن تـدعم مـن يقـوم بخدمتها[١٧].

وقد كان للمناقشات التى تمت حول أمريتسار، بجانب ما حدث فى المدينة، تأثير جذرى على آراء الهنود. فقد كان غاندى والمؤتمر الهندى يتـصرفان على أنهم يمكن أن يؤثروا على الضمير العام لبريطانيا، ولكن المناقشات التى تمت حول دير، أظهرت أن هذا غير موجود. فقد كانت، كما برهن حـديث مونتاجو، مجموعة من أصحاب الرأى الليبرالى الـذين ذكـروا أن الهنـود المتعلمين يستحقون أن يعاملوا على أنهم مخلوقات عاقلة، وأنهم يـستطيعون ممارسة الحرية التى نتمتع بها فى بريطانيا، ولكن كان هناك قطاع آخر من الرأى العام البريطانى يدعى أن الهنود بطبعهم غير قـادرين علـى تحمـل المسئولية. وإذا أخذنا فى الاعتبار المقالة الافتتاحية لجـريدة إسبكتاتـور

في ديسمبر عام ١٩١٩م، التي كانت ترى أن حكم البريطانيين للهند كان ضرورة مطلقة؛ حيث إن الراج قد حمى كلاً من الهنود والمسلمين من أنفسهم، وإذا رحل البريطانيون فإن الهند سوف تسقط في يد طبقة البراهمة والنظام الطبقي المغلق ونحن الأنجلو ساكسون نحب أن نحكم أنفسنا. لكن لماذا نفترض أن البشر من أصحاب البشرة الأكثر سوادا لا يشاركوننا مثل هذه الرغبة؟ الإجابة يمكن أن نجدها في العقلية الشرقية والتاريخ الشرقي [١٨]. وكل منهما يبرهن على عدم تأهل الهنود للحصول على الحكم الذاتي في الوقت الحالي، ولسنين عديدة قادمة، إن لم يكن للأبد.

والسير مايكل أودوير الذي ظل يدافع عن دير حتى وفاة الأخير في عام ١٩٢٧م، وفيما بعد ظل يحارب ضد أي تنازل تجاه حكم الهنود لأنفسهم، كان يزعم دائما أن الهنود قد أدمنوا الابتزاز، بالإضافة إلى أن المؤتمر الهندي ما هو إلا وسيلة لعصبة من الرجال الجشعين والطموحين الذين لا يسعون إلا للحصول على السلطة. والحقيقة هي أنه، وفق ما كتب أودوير، أن الجميع، سواء الهنود أو البريطانيين، من الذين يفهمون العقلية الشرقية، إن ٩٩% من الشعب لا يبالي بكيفية تكوين الحكومة وهم ما يتحدث محامي المؤتمر الهندي دائما باسمهم. وهذه هي الوسائل التي تبناها تشرشل الذي، منذ عام ١٩٣٠، قاد حملة الكفاح في البرلمان ضد أي إجراءات من شأنها أن تؤدي إلى تحمل الهنود مسئولية الحكم في الهند. وحتى عندما أصبح رئيسًا الوزراء لم يستطع إخفاء احتقاره للمؤتمر، فإنه قام بإخبار مجلس العموم في سبتمبر عام ١٩٤٢م عن حزب المؤتمر بأنه" عبارة عن منظمة سياسية بنيت حول آلة حزبية، ويتم الحفاظ عليه من خلال أصحاب المصالح المالية والصناعية، وهو ما كان يعارضه جميع المسلمين وملايين من الهندوس الذين كانوا يخضعون لحكم الأمراء"[١٩].

وقد صدم خطابه هذا أعضاء البرلمان عن حزب العمال. وتساءل أنيورين بيفان (Aneurin Bevan) إن كانت مثل هذه اللغة المؤسفة التي يتحدث بها رئيس الوزراء مقبولة لدى أعضاء حزب العمال المنضمين للائتلاف الحكومي أم لا؟

وقد رد تشرشل أنه بقوله لقد كان وسخر من موجه السؤال وقال عنه إنه تاجر الفظاظة. ومن المحتمل أنه كان محقا في النقطة الثانية من طرحه، ولكنه كان خاطئا في الأولى. فمنذ بداية القرن فإن حزب العمال قد مد يد الصداقة والتعاطف والتشجيع لحزب المؤتمر، و كانت هناك روابط قوية فيما بين بعض مثقفيه مثل نهرو وكريشنا مينون (Krishna Menon) وعدد من نظرائهم في حزب العمال البريطاني؛ وذلك بالاستناد إلى اشتراك كلا الحزبين في التقاليد الراديكالية والإصلاحية التي تمتد قديما حتى القرن السابق.

وبالنسبة لأغلب الناس في كل من بريطانيا والهند فإن المؤتمر كان يعني غاندي. وقد كان من الصعب المغالاة في تقدير تأثيره على الأحداث في الهند بعد عام ١٩١٩م بسبب حالة الإعجاب العاطفي الجارف التي صُبغت عليه من خلال مؤيديه والمختلفين، فقد أصبح شخصية دولية يهيمن على عقول جميع الفلاحين وخيالهم، وكذلك القوميون الذين شاركوا في الكفاح ضد الإمبريالية الغربية خارج الهند. فقد كان الطابع الكاريزمي واضحًا للغاية على شخصيته، على الرغم من أنه في بعض الأوقات بدا تواضعه نوعا من التكبر المعكوس. وقد كان قادرا أيضا على القيام بخداع العامة، كما هي الحال في يونيه من عام ١٩٤٢م، عندما كتب يقول "إن قوة النازية ظهرت مثل إله الانتقام لتعاقب بريطانيا على خطاياها من الاستغلال والاستعباد للأعراق الأفريقية والآسيوية"(٢٠).

وقد كان الإنجاز الأكبر لغاندى هو إعلان أفكاره عن عدم العنف أمام حزب المؤتمر، على الرغم - كما اعترف لأحد الصحفيين الأستراليين فى أبريل من عام ١٩٤٢م - أن جماهير الهنود تظهر وكأنها لا تُقدر ما تتطلبه الاستياجراها بالفعل[٢١]. وقد كان هذا واضحا منذ أعمال الاضطرابات التى حدثت فى عام ١٩١٩م. فقد كان هناك فرق شاسع بين الأفكار السلمية التى يدعو إليها غاندى والسلوك الفعلى لتابعيه فى الشوارع. وعندما بدأ فى حملة العصيان المدنى التى قام بها فى بردولى (Bardoli) فى نوفمبر عام ١٩٢١م، كانت هناك أعمال شغب قُتِل فيها ٥٣ شخصًا وجرح ٤٠٠ شخص. وقد كان، كما هو حاله فى كل مناسبة، مصدومًا، وقام بتأجيل زيارة العودة إلى المدينة، وهو ما لم يمنع حدوث المزيد من الاضطرابات فى فبراير من عام ١٩٢٢م. وهذا النمط تكرر كلما بدأ فى إطلاق حملة للتحدى السلمى أو عدم التعاون مع الحكومة.

ومنذ عام ١٩٢٠م، كان هدف غاندى هو تحقيق السواراج (swaraj)، أى التحكم الكامل فى النفس والاستقلال الكامل، الذى كان جزءًا من برنامج كبير للتجديد الأخلاقى للشعب الهندى. وأثناء فترة العشرينيات أنفق أغلب وقته وطاقته فى محاولة تحويل أعضاء المؤتمر الهندى المنتمين للطبقة الوسطى نحو غزل القطن، وعن طريقه فإنهم سوف يكتشفون جذورهم الحقيقية التى تنتمى للريف، وهذا الإصرار على القيام بثورة داخل روح الفرد بدلا من القيام بها داخل المجتمع لم يرض العديد من أعضاء المؤتمر، فنهرو، على سبيل المثال، لم يقر تمجيد سيده للفقر الذى كان يأمل الرجل الأقل سنا منه فى القضاء عليه.

ولم يكن هذا عمليا فيما يتعلق بما يحدث داخل الهند أثناء المائتى عام الماضيتين، واحتفى بالنموذج المثالى لغاندى حول المجتمعات الريفية

الصغيرة ذات الاكتفاء الذاتى. إلا أن قوة الروحية التى روّج لها غاندى أكبر من الجناح الراديكالى داخل المؤتمر الذى أذعن لسلطته وقيادته. وفى حين أن عناد غاندى قد أغضب البريطانيين، فإن قيادته للحركة القومية الهندية قد أعطته العديد من المزايا. حيث كان يقوم بكبح الفتن، وأبعد الحزب عن السير على طريق الشيوعية وعن القيام بثورة مسلحة. وتأثيره، وفق ما نصت عليه تقارير الشرطة، قد أدى إلى أن الحزب الشيوعى الهندى فى عام ١٩٤٢م لم يكن به ما لا يزيد على ٥٠٠٠ عضو.

وكان الكفاح من أجل السواراج كان بطيئا ومعقدا. وقد سعى المؤتمر لأن يحصل على تنازلات، من خلال تتابع الحركات السلمية للتحدى وعدم التعاون، والتى انتهت على غير المراد لها بسفك الدماء. وقد حاولت الحكومة البريطانية الحفاظ على زمام المبادرة من خلال عرض القيام بمساومات، ولكنها كانت تراوغ فى الموضوع عندما يأتى الحديث عن متى يتم تحقيق الاستقلال الكامل وكيف. ومنذ عام ١٩٢٩م فإن كل شيء علق على شماعة عبارة "وضع الكومنولث" التى كانت قد عرضت بشكل فيه نوع من التردد على الهند. وطبقا لما يمكننا فهمه من كل من شاركوا، فإن وضع الكومنولث سوف يمنح الهند نفس الحرية السياسية والاستقلال عن بريطانيا وفق ما تتمتع به كندا. ولكن ما الحال إن سعى الهنود للسير فى نمط من الكومنولث يتضمن روابط رقيقة للغاية كما هى الحال فى إيرلندا؟ بالنسبة للهند لكى تسير فى هذا الطريق، فإنها كانت لا تضع فى ذهنها أن تقوم بدعم الوضع السيادى لبريطانيا كقوة فى آسيا والشرق الأوسط.

وأيا كانت التسوية التى تم التوصل إليها، فإن بريطانيا لم تكن سوف تسمح أبدا للهند بأن تظل على الحياد فى ظل وضع الكومنولث. ولكى يتم ذلك فى ظل الظروف الدولية التى كانت سائدة فى منتصف الثلاثينيات من

القرن العشرين فإنه قال سيكون انتحارا. لكن كان من الممكن توسيع نطـاق مشاركة الهنود فى الحكومة بدون أن يشاركوا فى مناقشة المسألة المعقـدة المتعلقة بوضع الكومنولث. وقد أدى قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥م إلـى خلق فيدرالية هندية تضم الأقاليم المحكومة من قبل بريطانيا والولايات التى يحكمها أمراء والتى تم وضع شرط حذر لتمثيل الأقليات غير الهندوسية فيها. وقد تم عقد انتخابات لاختيار حكومات الأقاليم فى عـام ١٩٣٧م، وحـصل حزب المؤتمر على الغالبية فى كل الدوائر.

وكان النجاح الذى حققه الكونجرس متوقعًا. حيث كـان لديـه نحـو مليون عضو فى جميع أنحاء الهند، وتنظيم يتسع ليشمل جميع أنحاء الـبلاد، وهو ما منحه القوة والميزة على جميع الأحزاب الأخرى، ولهذا السبب فقد تم التأكيد دائما على أن هذا الحزب هو صوت الهند، إلا أنه حتى فى الفتـرات التى شهدت معارضة عامة قوية فى عـام ١٩١٩م، وفـى فتـرة الأعـوام (١٩٣٠-١٩٣٤م) فإنه لم يقترب من الإطاحة بحكم الجار أو حتى أثبـت أن هناك شكًا فى أن الهند غير قابلة للحكم.

ولم يحدث المزيد من حادثة أمريتسار، ولكن السلطات بطريقـة مـا حاولت أن تكون لها اليد العليا من خلال عمليات الاعتقال الجماعى للنشطاء فى قيادة الحزب، بمن فيهم غاندى، وقد تم التعامل مع حالات الإضـرابات بقوة من جانب الشرطة بمساعدة الجيش. وعندما تبدو الأمور علـى حافـة الخروج عن السيطرة، كما حدث أثناء الاضطرابات فى عـام ١٩٣٠م فـى بيشاور يتم استخدام العربات المصفحة والطائرات، ومثل هـذه الإجـراءات الصارمة كانت استثنائية، حيث كان هناك ٢٠٠٠٠٠ من قوات الشرطة فـى الهند أثناء فترة الثلاثينيات، وقد كانت تدفع لهم مرتبات عالية وكـانوا فـى وضع اجتماعى عالى. ومع قوات شرطة موالية، واحتمال عودة أى جـيش؛

حيث كان يبلغ تعداد الجيش فى عام ١٩٣٩م: ١٩٤٠٠٠ شخص، ووجود درجة كبيرة من الصرامة فيما بين ضباطه، فإن الراج كان يستطيع الاستمرار بدون أن يفقد كثيرًا من موارده.

إلا أنه حتى فى الأوقات التى بدا فيها الراج مرعبًا، خاصة من وجهة نظر الشارع فى بيشاور أو أى مكان آخر فى الهند أثناء الثلاثينيات، لكن مستقبله لم يعد مأمونا فكل الأحزاب البريطانية الثلاثة قد أذعن للحكم الذاتى المتدرج منذ عام ١٩١٩م، وعلى الرغم من احتجاجات الجناح اليمينى للمحافظين وقد كان هناك فهم عام بأنه، من حيث المبدأ، أن هناك نهاية لحكم الراج، على الرغم من أنه لم يقم أحد بتحديد جدول زمنى لتحطيمه. وقد قبل المؤتمر، على الرغم من كراهيته لذلك، قانون عام ١٩٣٥م. ولكنه قبله فقط كحجر زاوية فى الطريق الذى سوف يؤدى إلى الساراج غير المشروطة فى المستقبل القريب.

وقد كان يفترض أثناء المراحل الأولى من الحملة المطالبة باستقلال الهند أن الدولة التى ستولد سوف تشمل كل الأقاليم التى تحكمها بريطانيا فى ذلك الوقت. وقد بدا هذا مبررًا أثناء بداية العشرينيات، عندما كان هناك توافق بين الأغلبية الهندوسية فى حزب المؤتمر والمنظمات الإسلامية، وقد كان هذا نتيجة تنامى المشاعر المعادية للبريطانيين فيما بين المسلمين فى كل مكان، بعد أن أصبح معروفًا أن بريطانيا تنوى إجبار السلطان التركى على التخلى عن لقبه الروحى باعتباره خليفة لا نبيًا. ومن وجهة النظر البريطانية فإن هذا الإجراء كان تأمينا ضد أى تهديد بقيام جهاد مستقبلى، ولكن من وجهة نظر المسلمين كان ذلك بمثابة اعتداء على الإسلام. ولذلك فإن الهنود المسلمين قد انضموا للمؤتمر الهندى أثناء أحداث الاضطرابات التى تمت فى عام ١٩١٩م، وخلال السنوات الخمس التالية كانت هناك سلسلة من الدعوات للوحدة الإسلامية على الحدود الشمالية الغربية.

وقد قلّت الروح القتالية للمسلمين فيما بعد عام ١٩٢٤م، وفيما بعد ذلك كان هناك نمو مستمر لخوف المسلمين من تنامى قوة المؤتمر والخوف على وضع الإسلام فى ظل دولة هندية يحكمها الهندوس. وقد زادت الصدامات فيما بين المسلمين والهندوس من حيث نطاقها وشدتها، وقد أدى رفض أصحاب المحال المسلمين الانضمام إلى المسيرة التى تمت فى كلكتا فى فبراير من عام ١٩٣٠م إلى أعمال شغب قتل فيها ما بين أربعمائة شخص إلى خمسمائة. وقد هددت هذه النهضة فى وعى المسلمين بشكل مباشر المؤتمر، حيث إنه حتى ذلك الوقت كانت قوته السياسية تقوم على ادعائه بأنه يمثل الصوت الحقيقى والأصيل لجميع الشعب، وبرنامجه للحصول على الاستقلال الكامل أكد حياة كل الهنود فى تناغم وانسجام.

والذاكرة التاريخية للمسلمين الهنود قد زادت من الكراهية الدينية الموجودة. وعندما بدأ الدكتور محمد جناح (Muhammad Jinnah)، رئيس الرابطة الإسلامية، فى كراتشى فى أكتوبر من عام ١٩٣٨م، كانت تتبعه مظاهرة من المؤيدين يبلغ طولها ثلاثة أميال، وهو ما كان يشبه الاستعراضات العسكرية العامة التى كان يقوم بها الأباطرة المغول[٢٢].

ومنذ هذا التاريخ فإن الرابطة الإسلامية أصبحت محط آمال المسلمين والوصى على مصالحهم السياسية، وقد تكون قد بالغت فى قاعدة الدعم المؤيدة لها، ولكن مع نهاية عام ١٩٤٣م فإن الرابطة كانت تدعى أنها تتحدث باسم جميع المسلمين فى الهند. والبريطانيون، بعد أن قاموا بالانتهاء من بناء الحكم الإمبراطورى من خلال الدخول فى علاقات مع أولئك الذين كان يبدو أنهم يملكون السلطة، فعلوا بوجود الرابطة. وقد تحسن ذلك نوعًا ما من خلال نتائج انتخابات عام ١٩٣٧م، التى أظهرت أن المسلمين يفقدون الثقة سريعا فى حزب المؤتمر[٢٣]. وقد نفر الكثير من المسلمين من حزب المؤتمر

بسبب محاولات المؤتمر ضمان احتكاره للسلطة في حكومات الأقاليم والإصلاحات الزراعية التي قام بها، والتي أدت إلى الإضرار بمالكي الأرض من المسلمين. وإدراكا لقيمتها لدى البريطانيين باعتبارها جناحًا معارضًا للمؤتمر: فإن الرابطة الإسلامية بدأت في تحسس طريقها نحو التسوية النهائية للمشكلات القائمة في الهند، التي سوف تتضمن تقسيم الهند وتأسيس دولة للمسلمين بها وهي باكستان.

وقد بدأت فكرة إنشاء باكستان تنتشر فيما بين دوائر المثقفين المسلمين في أواسط الثلاثينيات، وقد كان هناك كثير من الجدال اللاحق حول متى وكيف يمكن أن يكون تقسيم الهند أمرا لا يمكن تجنبه، وأيضًا إن كان مثل هذا التقسيم أمرًا مرغوبًا فيه أم لا. والمهم أنه في عام ١٩٤٠م أعلنت الرابطة الإسلامية أنها تُلزم نفسها بأن تقوم بإنشاء دولة باكستان، وخلال السنوات الثلاث التالية فإنها حولت نفسها إلى منظمة جماهيرية ضخمة مكرسة من أجل تحقيق هذا الهدف. وفي قلب الأيديولوجية الخاصة بها صيحة القتال القديمة "الإسلام في خطر"، وقد كان هناك طابع جهادي واضح في الدعاية التي كانت تقوم بها. ومن بين الأدوار التي قامت بها الرابطة هي كتابة الأغاني الشعبية في الفترة من ١٩٤١، ١٩٤٢م التي كانت تقول (من خلال الآيات القرآنية على الشفاة والسيف في اليد فإننا سوف نقاتل من أجل إنشاء باكستان)[٢٤].

وفي ٣ سبتمبر عام ١٩٣٩م أعلن نائب الملك، اللورد لينليثجو (Linlithgow)، في الإذاعة أن الهند في حالة حرب مع ألمانيا. وقد كان مخولا للقيام بإعلان الحرب وفقا لتعديل تم على قانون الحكومة الهندية؛ حيث تم إقرار هذا التعديل من خلال البرلمان في أبريل السابق[٢٥].

وقد ذهل المؤتمر بسبب إعلان الحرب، وعارضوا بأن أحد أفراد الطبقة الأرستقراطية الأسكتلنديين ليس له أى حق فى أن يدفع بالشعب الهندى للحرب بالنيابة عن البريطانيين. إلا أنه أثناء تحويل قرار نائب الملك إلى رمز بأن الهند لا تزال خاضعة للإرادة البريطانية، فإن أعضاء المؤتمر كانوا بالفعل على وعى بأن بريطانيا تحارب ضد الأنظمة السياسية التى اعتبرتها بغيضة، وأثناء السنوات الأربعة السابقة فإن المؤتمر قد تبنى موقف الجناح اليسارى فى السياسة الخارجية، وعارض سياسة استرضاء كل من هتلر وموسيلينى وحياد بريطانيا أثناء الحرب الإسبانية.

والانقسامات حول الدور الذى يجب أن تضطلع به الهند فى الكفاح ضد النازية والفاشية قد أعاقت المؤتمر عن أن يقرر استخدام الحرب كفرصة لاعتصار التنازلات من بريطانيا. وفى اليسار المتطرف، شاندرا سوباس بوس (Chandra Subhas Bose)، قائد كتلة التقدميين داخل المؤتمر، كان يفضل أن يسلك طريقة مشابهة لما قام به الشين فين (Sinn Fein) فى عام ١٩١٦م، ومن خلال العصيان الشامل تم انتخابه كرئيس لحزب المؤتمر فى عام ١٩٣٨م ولكن غاندى كان يعارضه. وفى نهاية عام ١٩٤١م فر إلى برلين، عن طريق كابول، وعرض خدماته على هتلر الذى اتضح- وهو ما أرعب بوس - أنه معجب بالراج.

كانت السنوات فيما بين عام (١٩٣٩ - ١٩٤١م) هادئة نسبيًا. ولم يقل غاندى أو يفعل أى شيء يؤدى إلى إعاقة المجهود الحربى، ولكنه استمر فى الضغط من أجل الحصول على الاستقلال الكامل للهند. والصدام فيما بين المؤتمر والحكومة حول بعض الأمور الدستورية، مر من دون حوادث خطيرة مثل تلك التى كانت تحدث خارج الهند، أو بتعبئة القوى العاملة والموارد التى كانت تحشد بسرعة.

ودخول اليابان إلى الحرب فى ديسمبر من عام ١٩٤١م، وقيامها باحتلال سنغافورة فى فبراير عام ١٩٤٢م وتقدمها اللاحق بسرعة عبر بورما، وبعد ذلك وصلوا إلى حدود الهند فى أبريل. وبورما التى انفصلت رسميا عن الهند فى عام ١٩٣٥م، كانت بها حركتها القومية الخاصة بها، تلك الحركة التى أسرعت بالارتماء فى أحضان اليابانيين. وقد ذكرت المخابرات العسكرية أن هناك جماعات كبيرة من الفلاحين ورجال الشرطة والطلاب فى بورما قد تحركوا لمساعدة الغزاة. "فلم تكن هناك صعوبة كبيرة فى الحصول على متطوعين من أجل الالتحاق بالمقاومة بإرادتهم وبدون الحصول على مقابل مادى من أجل تحرير وطنهم"[٢٦].

وقبل أن يكتشف الجيش اليابانى هشاشة القوة البريطانية فى آسيا، فإن لينلثجو كان متشائما للغاية. وفى وقت سابق فى يناير كتب إلى الحكومة بكل صراحة يقول:

لا يوجد أى رابط طبيعى يربط كلاً من الهند وبورما بالإمبراطورية، فهما غريبتان عنها بحكم الانتماء العرقى والتاريخ والدين، ولذلك فإنه ليس لديهم أى تعاطف طبيعى معها، وكل منهما موجود فى الإمبراطورية؛ لأن كل منهما بلد محتلة وقد تم ضمهما إلى الإمبراطورية بالقوة، واستمررنا فى الحفاظ عليهما بالقوة، وحتى الآن فهما خاضعتان لحمايتنا[٢٧].

ولهذه الأسباب فإن قسم المخابرات فى الجيش قد أحكم رقابته على القوات الهندية، وقام بفحص الخطابات الخاصة بها لتتبع أى شكل من أشكال عدم الرضاء أو القلق أو الإثارة السياسية. وقد كان ستون فى المائة من الضباط الهنود يخدمون فى الملايو (Malaya) فى الفترة ١٩٤١،١٩٤٢م وكانت لديهم مشاعر قومية قوية، وتطلعوا لحصول الهند على الاستقلال مع نهاية الحرب. وعلى ذلك فإن هذا الشعور الكامن لديهم كان دائمًا ما يبرز

انفصالهم عن الإمبراطورية، عندما رفضوا الدخول فى نواد يغلب عليها الطابع الرسمى ومليئة بالمجتمعات الاستعمارية البريطانية والمزارعين المالاويين ومجتمع الأعمال. وقد أشار أحد الضباط الهنود إلى أنه هو وإخوته فى الجيش "قد أُرسلوا من الهند لكى يدافعوا عن أولئك الأوربيين" وقد كان يلعن من يقوم بذلك"[٢٨]. وأحد جنود المدفعية السيلانيين قد تم إعدامه بسبب التمرد فى عام ١٩٤٢م، وهذا الجندى ذكر فى أثناء محاكمته أن مشاعره المعادية لبريطانيا قد ظهرت لأول مرة على السطح بعد أن عانى من التفرقة العنصرية فى الملايو.

فبطريقة ما فإن الرجال ذوى البشرة البنية مضطرون إلى أن يسعوا لحتفهم من أجل إمبراطورية الرجل الأبيض. وأحد الطرق التى من خلالها يمكن أن يحدث ذلك من خلال سد الطريق أمام مستقبل الهند، وفي عام ١٩٤٢ فإن السير ستافورد كريبس (Stafford Cripps)، وهو أحد وزراء حزب العمل المنتمين للجناح اليسارى ذات المبادئ المتغطرسة، تم إرساله للهند للوصول إلى اتفاق مع حزب المؤتمر. ولكنه فشل، فعلى الرغم من تدخل الولايات المتحدة، وذلك يرجع فى جانب كبير منه إلى أنه لا هو ولا وزارة الحرب كانا يستطيعان قبول مطالب حزب المؤتمر بالمشاركة المعقولة فى كل مؤسسات الحكومة خاصة الدفاع.

وقد أصبح الآن الدور على غاندى من أجل أن يستولى على زمام المبادرة. وفى نهاية أبريل كتب يقول "إذا قامت بريطانيا بالانسحاب الفورى من الهند فإن اليابانيين لن يقوموا بالهجوم. عدو الهند هو الإمبريالية البريطانية وليست الإمبريالية اليابانية، والمساعدات العسكرية الأمريكية التى كانت تهطل على الهند فى ذلك الوقت تعنى إضافة الحكم الأمريكى إلى البريطاني"[٢٩]. وهو لم ير قط أن اليابانيين هم محرضون لهم، ولكنه كان

يتصور أنه إذا قامت جيوشهم بغزو الهند فإنها سوف تنهزم بواسطة الساتيجراها[٣٠]. وقد كان يعتقد أن البريطانيين من دون شك سوف ينهزمون بواسطتها، وفى يوليو طالب مؤيديه بالتحرك الضخم من أجل حملة "تحرير الهند".

وعلى الرغم من أن المؤتمر لم يكن موحدا بشأن الحملة الجديدة، فإنها لم تكن من الممكن أن تأتى فى وقت أسوأ من ذلك بالنسبة للبريطانيين. والتحضيرات كانت على قدم وساق للدفاع عن الحدود الشمالية الغربية ضد التقدم الألمانى المحتمل من منطقة بحر قزوين.

وقد كانت هناك حركة لا تهدأ فى هذه المنطقة، يقودها ميرزا على خان (فقير إبي)، وهو قائد روحى تقليدى للمسلمين كان يقوم بتوجيه مقاومة الباثانيين (Pathan) خلال السنوات السبع الماضية. وفى الحدود الشمالية الشرقية فإن اليابانيين كان من المتوقع أن يقوموا بهجوم، وقد يترافق هذا مع غزو بحرى لجنوب شرق الهند أو سيلان(Ceylon). وفى ضوء انهيار المحادثات بين الحكومة وحزب المؤتمر، فإن فريق التخطيط المشترك فى دلهى لم يكن يعتقد أن الهند سوف تقاوم[٣١]. وعلى الرغم من ذلك فإن أولئك الذين كانوا مسئولين عن الدفاع فى وقت الحرب فى الهند قد أخذوا فى اعتبارهم الميل الداخلى لإحداث اضطرابات، وقد اتخذوا مجموعة من الإجراءات الاحترازية ضده، بما فى ذلك المجابهة العنيفة مع حزب المؤتمر[٣٢]. بالإضافة أن القوانين العرفية التى تخول نائب الملك أن يقوم بإعلان الحرب تمنحه أيضا العديد من الصلاحيات للقيام بأى إجراءات تكون مطلوبة لتأمين المجهود الحربى الهندى.

بدأت حملة "تحرير الهند" أثناء الأسبوع الثانى من أغسطس، وقد أخذت شكل جهود جماعية من أجل إصابة البلاد بالشلل، مع محاولات

عاطفية لقطع السكك الحديدية والاتصالات التلغرافية. والمناطق التي كانت متأثرة بشكل سيئ للغاية كانت هي مدراس وبيهار والأقاليم المتحدة، حيث تعرضت خطوط السكك الحديدية فيما بين كلكتا ودلهي وبومباي للخطر، وتم الهجوم على رجال الخدمات البريطانيين من قبل المتمردين وقتلوا كثيرين منهم. والرابطة الإسلامية التي كانت ذات موقف قوي في تدعيم الحرب وقفت على الحياد. والطلاب الهندوس قاموا بمظاهرات حاشدة أثارها سياسيو حزب المؤتمر. وقد كانت الحكومة مستعدة لحالة الطوارئ وتصرفت بأقصى درجات القسوة والعنف، حيث تم اعتقال غاندي والمئات من أعضاء حزب المؤتمر الهندي، وتم التحفظ عليهم وفرضت الرقابة على الصحافة، وتم تحويل خمسة وخمسين لواءً من القوات البريطانية والهندية من مخيمات التدريب؛ لكي يقوموا بدعم قوات الشرطة، وقد تم إطلاق النار على المظاهرات التي شهدتها المدن، بأوامر من لينلينجو، وتم السماح للطائرات بأن تقوم بقصف مثيري الشغب الذين كانوا يقومون بتحطيم خطوط السكك الحديدية[٣٣]. وفي بومباي تم ضرب المتظاهرين بعصي الخيزران، وهو العقاب، الذي قال عنه ليو آمري (Leo Amery) لمجلس العموم "إن له قوة ردع مهمة... للمجرمين قاطعي الطرق"[٣٤]. وكما هي الحال في جميع الاضطرابات السياسية الأخرى، فإن حالة التمرد المؤقت في الشوارع كانت لها آثار سيئة وصاحبها القليل من الأعمال الإجرامية، وكانت بمثابة الفرصة لإحداث الأذى والسلب والنهب.

وقد تمت استعادة النظام في غضون ستة أسابيع. ومع بداية شهر سبتمبر، فإن أقل تقدير لعدد القتلى من جانب المسئولين كان ٣٠٠ شخص. وعلى الرغم من وجود مخاوف من أن أعمال الاضطرابات قد تكون غطاء لأعمال الطابور الخامس لليابانيين، فإنه لم يكن هناك أي دليل على وجود

تواطؤ لحزب المؤتمر مع اليابان. ومرة أخرى فإن الراج قـد ظهـر مـرة أخرى بعد فترة من الاضطرابات المدنية أقوى مما كان عليه، وعلى الـرغم من أن أولئك الذين كانوا موجودين داخل الهند وخارجها معذورون للاعتقاد بأنه قد تم من سلطة لا تقوم إلا على القوة المسلحة، فقـد تعـرض غانـدى والمؤتمر لعدم تصديق مؤقت بسبب ثورات "تحرير الهنـد"، خاصـة فـى الولايات المتحدة التى كانت أثناء الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٢م، تقوم بالضغط على بريطانيا للوصول إلى توافق مستقر مع المؤتمر.

وقد ظل الراج باقيًا طوال السنوات الثلاث التالية من الحرب، وطوال العامين التاليين لها، وجعل من الهند قاعدة آمنة لقوات الحلفاء فـى جنـوب شرق آسيا. ولم يتم حتى ذلك الوقت الوصول إلى تسوية دستورية تحظـى برضاء القوميين الهنود وكذلك من يحكمونهم. ومع نهاية عام ١٩٤٢م كان من الواضح أنه عندما تمت صياغة مثل هذه الترتيبات بشكل نهـائى فـإن الكلمة العليا قد أصبحت للهنود وليس لسادتهم. وقد ظلت الأحداث السياسية فى الهند تتمحور حول سؤال إلى متى سوف يبقى حكم الراج؟ ولكن لم يـتم السؤال كيف سوف تتم إزالته وما الذى سوف يحل محله؟

(٦)

لصالح الجميع: المفاهيم المرتبطة بالإمبراطورية خلال الفترة من (١٩١٩ ـ ١٩٣٩م)

لقد كانت الحرب العالمية الأولى بمثابة الرياح القاتلة للوطنية المتطرفة، على الرغم من أن سكرات موتها ظلت مستمرة طوال أربعين عامًا تالية أو أكثر. والوطنية المولعة بالحرب في بريطانيا قبل عام ١٩١٤م، التي وصلت إلى أقصى مداها أثناء الحرب قد أصيبت بثقب واسع بعد عام ١٩١٨م، عندما فكرت أمة مذهلة في القيام بمذبحة جماعية، وقد تم طرح السؤال: هل كان الأمر يستحق بالفعل. لقد بدت بريطانيا منتصرة، ولكن شعبها كان خائفًا أن يُترك وحده يشارك في حرب أوربية أخرى. والخبرة التي خلفتها الجبهة الغربية والمزاج الجديد للرأي العام جعلا من المستحيل إعادة إحياء الإمبريالية المغالية في الوطنية التي شهدها العصر الفيكتوري والإدواردي السابقين، التي كانت تصرخ بتحدي العالم وتجعل كلاً من الرجال والنساء يقومون بالتضحية بأنفسهم من أجل الإمبراطورية. وهذا النوع الحاد من الوطنية أصاب الجماهير في السنوات السابقة للحرب، وكما ذكر البعض فقد أسهمت كثيرًا في جعل الحرب مقبولة ويمكن تحمل خسائرها.

وليست فقط الإمبريالية القديمة هي التي أصبحت بالية ومشكوكًا فيها، ولكن ظهرت حتى بطولاتها وكأنها قد وضعت أرجلها في الوحل. فالقرارات الإستراتيجية والتكتيكية التي تم اتخاذها في زمن الحرب من جانب

محاربى الإمبراطورية الذين احتلوا مواقع صنع القرار العليا قد أصبحت موضع نقد لاذع وقد أصبحت مستهدفة. وانقلب هيج (Haig) الذى كان يتخيل بالفعل أنه مُعين من قبل الرب من أجل إنقاذ الإمبراطورية البريطانية من أصعب المخاطر التى تحيط بها - على مبادئه. فأبطال الأمس وأنبياؤه أصبحوا موضع سخرية اليوم.

وفى كتابه "الفيكتوريون المتفوقون: Eminent Victorians" (١٩١٨م) فإن "لوتن ستراشى: Lytton Strachey" سخر من غوردون حاكم الخرطوم (Gordon of Khartoum)، بجانب آخرين غيره. وبشكل جماعى وغير متردد فإن الحراس القدامى الأحياء للإمبراطورية قد تم تجسيدهم فى شكل الكولونيل بليمب (Blimp) القوى، وهو ضابط متقاعد ذو شارب فظ وآراء متطرفة، وهى الشخصية التى ابتكرها رسام الكرتون الأسترالى دافيد لو (David Low) فى عام ١٩٣٤م.

ولقد كان هناك الكثيرون من الأشخاص الذين يشبهون بليمب فى كل مكان فى فترة ما بين الحربين، وكان لديهم الكثير ليتحدثوا عنه مثل موضوعات السيطرة على الهند ولكن، بحكمة، فإن حزب المحافظين أبعد نفسه عنهم وعن آرائهم. فالمحافظون لم يعودوا يختارون ضرب طبول الإمبراطورية، مفضلين بدلاً من ذلك إغراء الناخبين من خلال سياسات الضرائب المنخفضة، وتوسيع نطاق تشريعات الرفاهية المبكرة وامتلاك المنازل(١). وهذا التصرف نجح فقد ظل المحافظون يحتفظون بالسلطة طوال أغلب هذه الفترة، وسيطروا على الحكومة الائتلافية التى شكلها لويد جورج والحكومة الوطنية التى استمرت فى الفترة من (١٩٣١ - ١٩٣٥م). وبشكل عام فإن قضايا الإمبراطورية قد تم تنحيتها جانبًا لصالح القضايا الأكثر إلحاحا مثل الاقتصاد ومسألة الحفاظ على الأمن الدولى. وعندما كانت مثل

هذه الشئون تخضع للنقاش فإن قادة الحزب كانوا يذهبون إلى حد كبير نحـــو تأمين توافق عام فى البرلمان حولها. فقد تم استشارة جميع الأحزاب فيمـــا يتعلق باقتراحات مونتاجو- شيلمسفورد بشأن الهند، وقد وافق ستانلى بلدوين (Stanley Baldwin) على سياسات ماكدونالد بـــشأن الهنـــد (MacDonald) على الرغم من التذمر الذى أبداه أعضاء البرلمان من المحافظين، وقد حظى قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥م بدعم جميع الأحزاب.

وقد انزعج الكثيــرون مــن المحـــافظين بـــسبب هـــذه التطـــورات. وفى عام ١٩٣١م فإن تشرشل عبّر عن غضبه من الانتهاكات التى يقوم بها السيد غاندى، بصفته محاميًا ينتمى للطبقة الوسطى مثيرًا للفتن، والآن فإنـــه يتظاهر بأنه أحد الصوفية الفقراء من ذلك النوع المعروف جيدًا فى الشرق، وهو يخطو خطوات واسعة وهو نصف عار متوجهًا نحو قصر نائب الملك، وبينما هو يستمر فى تنظيم حملة للعصيان المدنى وتنفيذها، فإنـــه يتفـــاوض حول شروط متكافئة مع ممثل ملك الإمبراطورية". وهذه المعارضة بجانب المعارضات اللاحقة لتوسيع نطاق الحكم الذاتى فى الهند كانت تعزف علـــى النغمة المفضلة للعديد من المحافظين، وقد كان هناك ما يزيد علـــى ســـتين عضوًا فى البرلمان مستعدين لمساندة تشرشل فى حملته التى استهدفت قلـــب السياسة الرسمية. ولكن جهوده لم تُجْدِ نفعًا، ولكنهم ظلوا يتذكرون، أنه من الآن وفيما بعد هناك أقلية صاخبة فى الجناح اليمينى من حزب المحـــافظين بالنسبة لهم كانت الإمبراطورية يمكن استردادها، وأنه بطريقـــة مـــا يمكـــن الحفاظ عليها لأجل غير مسمى.

لكن التاريخ لم يكن فى صف هذه النظرة للإمبراطوريـــة. فالتـــاريخ دائمًا كان متقلبًا ويحدث كثيرًا من التغييـــرات المتكـــررة فـــى نـــوع إدراك

الجماهير وغايتهم فيما يتعلق بالإمبراطورية حيث تعرض أيضا للتغيير. وإذا نظرنا إلى أحد النقاشات التى جرت فى مجلس العموم فى عام ١٩٣٨م بشأن المستعمرات، فإن إيرنست إيفانز (Ernest Evans)، وهو أحد أعضاء البرلمان عن الحزب الليبرالى قد قارن بين نظرة الجماهير للإمبراطورية فى وقت شبابه والآن.

ولد فى عام ١٨٨٥م، وقد قضى فترة صباه فى زمن كانت فيه فكرة الإمبراطورية مرتبطة فى أذهان الناس بروح تحية العلم وممارستها. لكن الآن، فإن المزاج العام فى البلاد مختلف تمامًا، فهناك معرفة أعمق بالإمبراطورية، وحالة من الأسف لبعض أحداث الاستغلال التى تمت فى الماضى ورغبة صادقة فى تطوير المستعمرات لكى تصبح فى صالح الجميع(٢).

وهذه النظرة الحيادية غير الذاتية المتعلقة بواجب بريطانيا نحو رعاياها لم تكن جديدة فهى ترجع بجذورها إلى المثاليين الإنجيليين والليبراليين فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، الذين اعتقدوا أن رسالة بريطانيا هى أن تقوم بترقية الأعراق الجاهلة والمتخلفة، سواء من الناحية المادية أو الأخلاقية. وإلى حد ما فإن هذه النظرة للإمبراطورية القائمة على الخير قد فقدت بريقها أثناء فترة التوسع العدوانى فى ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته، عندما كان بناء الإمبراطورية نشاطًا تنافسيًا وكانت فيه الميزات الاقتصادية والإستراتيجية هى الجائزة، إلا أنه حتى عندما جار الوطنيون المتطرفون عاليًا بأن الإمبريالية لا تحتمى بالمبادئ الأخلاقية فإن هذه الأفكار استمرت فى الازدهار، على الرغم من أن تطبيقها كان قاصرًا على المناطق التى يسكنها البيض، التى تمتعت بالحريات الموجودة فى الوطن الأم وقد حققت بشكل مطلق الحكم الذاتى لها.

وكان العالم فيما بعدْ الحرب أكثر تقبلاً لمثل هـــذا المفهـــوم التقليـــدى للإمبراطورية كقوة تعمل من أجل التجديد والتقدم. والإمبريالية ذات الطـــابع الأبوى انتعشت بقيام عصبة الأمم عندما قامت الأخيرة بوضع نظام الانتداب فى عام ١٩٢٠م. وقد حصلت بريطانيا على ما كان يُطلق عليه فى السابق شرق إفريقيا الألمانية، والتى تمت إعادة تـــسميتها بتنجانيقـــا، والكـــاميرون وكذلك العراق وفلسطين بينما قامت كل من أستراليا ونيوزيلانـــدا باقتـــسام المستعمرات الألمانية فى المحيط الهادى. وكل دولة من هذه الدول تعهـــدت بأن تكرس نفسها من أجل "تحسين حالة المستعمرات والعمـــل علـــى تقـــدم الأعراق المختلفة الموجودة فى المستعمرات" التى وضعت تحت مـــسئوليتها. والطريقة التى تم بها إنجاز هذه الأهداف فى مختلف أنحاء الإمبراطورية تم شرحها بواسطة وليام أورمسبى جـــور (William Ormsby Gore)، وزيـــر المستعمرات، فى إذاعة البى بى سى فى مايو من عام ١٩٣٧م. فقد كانـــت وزارته مسئولة عن أربعين مستعمرة ملكية وأقاليم واقعة تحـــت الانتـــداب يبلغ مجموع سكانها خمسة وخمسين مليـــون نـــسمة. وقـــد كـــان مـــستقبل هذه المستعمرات يعتمد على طريقة حكم شعوبها تلك الطريقة التـــى أطلـــق عليها "فن وممارسة الإدارة المتحضرة" من خلال التعليم وإعطاء الأمثلـــة ". وفى ذلك الوقت فإن "الإدارة المدنية " المشكلة من الـــسكان الأصـــليين قـــد أصبحت بشكل كامل ونهائى مسئولة عن الإدارة والتى كانت تنشأ وتخطـــو على نفس خطى الإدارة البريطانية السابقة لها. وقد كان هذا أمـــر لا يمكـــن تجنبه وفى نفس الوقت مرحبا به، كما ذكر أورسمبى جور، "حتـــى النـــوع الأفضل والأكثر تنورا من الحكم الخارجي لا يمكن أن يكون علـــى المـــدى الطويل هو أفضل بديل للحكم الذاتى فيما يتعلق بالتقاليد والخصائص المحلية لكل شعب على حدة"[٣].

وقد كانت كفـــاءة الإدارة الاســـتعمارية البريطانيـــة هـــى مـــصدرًا مبررًا للفخر.

"فشعوب المستعمرات ليست مجرد رعايا لجلالة الملك"، وقد تباهى مالكوم ماكدونالد، وزير المستعمرات فى الفترة من (١٩٣٨ - ١٩٤٠م)، "أنهم بالفعل سعداء باعتبارهم رعايا جلالة الملك"[٤]. وهذا هو ما كانوا يظهرونه فى الصحافة الشعبية. وفى إبريل ١٩٣٩م فإن قراء جريدة بكتشر بوست قد شاهدوا صورًا لمجموعة من التلاميذ الهنود يجتمعون حول سبورة مستديرة فى مدرسة مفتوحة فى الهواء الطلق. وبعد شهر فإن نفس المجلة قامت بنشر لمجموعة من الزعماء من الكاميرون يتعلمون كيف يحكمون بالعدل بجانب نص يعكس التنوير الإنسانى الذى تُقدمه الإدارة البريطانية للمستعمرات عكس ما كانت تقوم به ألمانيا التى كانت تحكم هذه المستعمرة قبل عام ١٩١٦م[٥].

وقد كانت الدروس التى يتلقاها الزعماء جزءًا مما أطلق عليه ماكدونالد "عملية ثورية" تجرى فى جميع أرجاء الإمبراطورية. وقد كانت السياسة الرسمية تجاه إفريقيا: "أن يتم تعليمهم وتشجيعهم دائمًا حتى يستطيعوا أن يكونوا قادرين على الوقوف على أقدامهم". والحب الذى نكنه للحرية ليس فقط لنتمتع بها وحدنا ولكن أيضًا من أجل الآخرين، وهى هدف السياسة الصحيحة التى يتم تطبيقها فى كل أرجاء الإمبراطورية". وقد كان وضع مثل هذا المبدأ موضع التطبيق يحتاج إلى وقت، وقد أضاف مشيرًا إلى أن نيجيريا، كانت فى ذلك الوقت واحدة من أكثر المستعمرات تقدما، " كانت مستعدة من أجل الحصول على الحكم الذاتى"[٦]. ووفقا لكلمات أحد المعلقين المعاصرين على الشئون الإمبراطورية، "بالنسبة للأوربيين، فإن الأفارقة ما زالوا أطفالاً فى سن المدرسة"[٧]. وقد كان هذا، على الأقل تحسنا نوعيًا فى مقابل الطفولة الجاهلة والعنيدة التى اتصفوا بها منذ خمسين عاما مضت.

وعندما تتقدم الأعراق السوداء والملونة الخاضعة للإمبراطورية للأمـــام، فإنه من المفترض أنهم سوف يتقدمون للأعلى. وتقدم البشرية نحو التحضر كان يُنظَر له فى ذلك الوقت على أنه يشبه صعود جبل، والأوربيون يقومون بتسلق هذا الجبل بسرعة أكبر وقد أصبحوا قريبين الآن من القمـــة، إن لـــم يكونوا قد وصلوا لها بالفعل، فى حين أن الأعراق الأخرى ما زالت لم تقـــم بتجاوز منطقة السفح. وهذا الفهم لطبيعة التقدم البشرى بجانـــب النظريـــات الحديثة الخاصة بالداروينية الاجتماعية، قد منح الأوربيـــين شـــعورًا قويـــا بالتفوق العرقى. ففى حين أنهم قد قاموا بالتكيف بشكل جيد مع بيئتهم فـــإن شعوب أفريقيا وآسيا وأستراليا يفتقرون إلى المهارات العلمية والفنيـــة التـــى دفعت بالأوربيين للأمام وخلال القرن التاسع عشر وجعلتهم سادة على أغلب أنحاء العالم. وعلى العكس من ذلك فإن ما كان يطلق عليه الشعوب البدائية أو المتخلفة قد تخلفوا بسبب ارتباطهم اللاعقلانى بخرافات ســخيفة وأحيانـــا خطرة. وبذلك فإن الإشارات كانت لا تزال عامة فى فترة ما بين الحربين، وبالنسبة للهندوس فإنها كانت تعمل بمثابة كوابح للتقدم الهندى.

فمجموعة التابوهات (المحرمات) والشعائر الخاصة بالأفارقة كانـــت تعرض فى الغالب، خاصة بواسطة رجال الإرساليات التنصيرية، كمعيقـــات أمام التقدم الأخلاقى والمادى. ولأن هذه الأشياء مستقرة داخل قلب الأفارقة فإن ذلك القلب المظلم عادة يبدو أنه من المستحيل إيصال النور إليه. وفـــى عام ١٩٢١م فإن أحد رجال الإرساليات التنصيرية فى كينيا قد أظهر استياءه من قوة المعتقدات الوثنية التى لا تزال تؤثر على عقول الشباب من الـــسكان الأصليين. فأى فتاة وفق ما كتب، هى "بقرة تظل تحت رعاية أمها الوثنيـــة التى لديها أفكار عن الجنس والاستجمام تبدو بدون شك سيئة للغاية مقارنـــة بالتعاليم المسيحية"[٨]. وهذه الأفكار التى كان يعتقد بها رجل الإرسالية هـــى

بالضبط ما ذكرها أحد حكام كينيا الذى شاهد حفلة ختان لفتاة فى عام ١٩٤٤م. بعدها قام بكتابة الآتي: "الأمر كله تعصب وشيطانية وقد جعلنى أتساءل إن كنا التقينا قبل ذلك مع الأفارقة"(٩)، ومثل هذه الخبرات قد أقنعت حتى أكثر العقول ليبرالية بأن عملية تحديث أفريقيا الجارية قد تتطلب الكثير من العقود من أجل أن تتحقق.

أكدت أدبيات الرحالة المشهورين تخلف رعايا المستعمرات البريطانية أو غرابة عاداتهم وأزيائهم. وفى تسجيل لإحدى الرحلات عبر نيجيريا فى عام ١٩٢٥م والتى كانت مخصصة لاصطياد الحيوانات البرية فيها، تضمنت هذا التوضيح الجانبى: "هنا بشر كاملون من الناحية البدنية ولكنهم يملكون عقلا لا يزال فى مرحلة التطور وإدراكًا محدودًا للغاية". وقد عدّ المؤلف هذه الحالة نتيجة إما بسبب "الكسل" أو أن المخ لا يزال لم يكمل تطوره بعد"(١٠). وقد كان من المعتاد للغاية أن من يكتبون عن أفريقيا وأستراليا يركزون على ما هو غريب، ومن خلال الجمع بين النثر الجميل والصور الرائعة، يصورن الإمبراطورية الاستوائية على أنها مسكونة بنوع من الوحوش البشرية فيها مخلوقات ترتدى أزياء رائعة أو لا ترتدى ملابس على الإطلاق. وهذا النوع من المواد قد ظهر بشكل منتظم فى كل من جريدة إليوستراتيكر لندن (illustrated London) وجريدة الكوكب (sphere)، عادة مرتبطة بجولة ملكية، وهو ما يجعل الأخبار تستحق أو بطريقة أخرى تصور المياه الراكدة للمستعمرات.

وكانت الأنثروبولوجيا الشعبية من هذا النوع إحدى الدعامات الأساسية لموضوعات المجلة الجغرافية الوطنية الأمريكية، والتى كانت تقوم بصياغة صور أكثر تضليلا عن المستعمرات البريطانية. وقد كانت مثل هذه المقالات منتشرة للغاية، وكانت تصاحبها نصوص لقصص كُتبت بلغة صحفية شائقة.

والكتابات التى تمت فى فترة ما بين الحربين كانت تلخص الصراع فيما بين سيارات المؤلفين ووحيد القرن، وهو ما كان يرمز إلى الشعوب الأصلية، الذين يظهرون عادة مبتسمين ويرتدون ملابس مزخرفة فى مهرجاناتهم. وقد كانت كفاءتهم توصف بشكل يحمل طابع الوطنية، وقد كان مكانهم فى مخطط الأشياء محدد بوضوح: الباغندا (Baganda) هم شعب مرح ولطيف وهم يتجهون بسرعة لتقليد البيض فى أزيائهم وأسلوب حياتهم، وهم يتدربون على أن يصبحوا خدمًا فى المنازل أو مرشدين أو ما شابه ذلك من أعمال[١١].

وهناك أيضًا نمط كان مألوفا فى هذه الفترة وهو الرجل الأسود المضحك على المسرح وفى المجلات الفكاهية. وقد ظهر هذا الشكل من التنميط بشكل متكرر خلال أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين فى رسومات مجلة بنش (punch) التى كان يرسمها تشارلز جراف (Charles Grave) والتى كانت دائمًا ما تتحدث من خلفية غرب أفريقيا. وهذه الأشكال الساخرة كانت تعتمد على مظهر الشخصيات، الذين كانوا فى العادة صورًا مقلدة من الزى الأوربى، واللهجات الخاصة بلغاتهم. وفى إحداها كانت مؤسسة الشحن التى تعمل على أحواض سفن شبية بالسفن الأفريقية ويرتدون بذلة بيضاء غير مناسبة. وقد نص العنوان على الآتى بلهجة تخطئ فى نطق الحروف: "لماذا ترتدى نظارات سوداء لعينة؟ هل هناك شىء أصاب عينيك؟"، "لا ولكنها تتماشى مع وجهى"[١٢].

ومثل هذه الصور واللوحات المرسومة للشعوب الأصلية فى الكتب والمجلات الأكثر جدية كانت بمثابة أدوات تذكير غير مباشرة بأنه لا تزال هناك نظم عرقية داخل الإمبراطورية. وأولئك الذين يحتلون قاع الجبل هم فى هذا المكان لأنهم مصابون بالعديد من أوجه النقص والقصور، وهى أوجه نقص أخلاقية فى المقام الأول، إلا أنهم كانوا أحرارًا فى أن يرتقوا بأنفسهم

إذا توقفوا عن بغض العادات والقيم الخاصة بحكامهم وقبلوا بريادتهم لهـم. وحتى عندما يسيرون فى هذا الطريق فإنهم سوف يكونون عرضة للسخرية، ولا يمكن لهم أن يحققوا المساواة بشكل تلقائى مع الرجل الأبـيض والقـدرة على أن يكونوا جزءًا من مجتمعه.

ولكن هل هذا يستحق التعـب؟ فتومـاس بيرلـى (Thomas Birley)، أسقف زنجبار، والذى امتدت إبراشيته لتشمل تنجانيقا، تـساءل فـى عـام ١٩٢٠م إذا كان الرجل الأسود هو الخاسر بشكل مطلق إذا قام بتحويل نفسه إلى "شكل مزيف" من الرجل الأبيض". "بمعرفة ما يكرهه الأوربيون فـيهم" فإن الزنوج "يسعون إلى خداع أنفسهم من خلال التقليد الأعمى لعرق أرقـى منهم"[١٣]. وأولئك الذين قد تغير مظهرهم من خلال التعليم الغربى كانوا أيـضا معقدين بسبب ما يحدث لهم، خاصة اغترابهم عن جذورهم. فى عـام ١٩١٦م، فإن جريدة سـجل لاجـوس اليـومى (Lagos Daily record) قـد رأت أن النيجيريين المتعلمين يمكن أن يتّعلموا شيئا من التاريخ الحديث لليابان، وهى الأمة التى استعارت الكثير من أوربا، ولكنها لم تهجر ديانتها المحلية وكذلك القيم الأخلاقية لها ولا أنماط الأزياء التى يرتدونها[١٤]. ومثل هذا الطرح كان مفهوما بمجرد أن يبدأ السود فى أن يكتشفوا أنفسهم بعيدًا عن البيض الذين، وفق ما حققوه، يعتبرون مساوين لهم.

واعتقد الكاتب الذى ينتمى للهند الغربية س. ل. ر. جيمس (C. L. R James) أنه يجب عليهم ذلك، وقد وضح فى أحد الحوارات التى أُجريت معـه فـى إذاعة البى بى سى فى مايو عام ١٩٣٣م، وكان ذلك الوقـت يتـزامن مـع الذكرى المئوية لإلغاء العبودية، وجيمس المنحدر من عبيد، شرح كيف قامت عائلته بتطوير نفسها من خلال التعليم. ويتذكر المستمعون أن فريق الكريكت

الخاص بالهند الغربية الذى تجول فى بريطانيا فى عام ١٩٣١م كان يشتمل على معلمين ورجال أعمال وصيارفه ومشرفين صحيين، الذين كانوا يمثلون الطبقة الوسطى المتنامية فى هذه الجزر، إلا أن البيض استمروا فى القول بأن السود ما زالوا غير جاهزين لحكم أنفسهم.

لقد كان ولاء شعوب الهند الغربية للإمبراطورية قويًا للغاية، كما وضح ذلك فى الحرب العالمية الأولى واتضح مرة أخرى فى الحرب العالمية الثانية، ولكن جيمس كان يرى أن "الشعوب التى تحكمها أجانب عادة ما يشعرون أنهم يعاملون بطريقة دنيا وعلى أنهم متخلفون وغير ناضجين وهذا ما كان يؤدى إلى استياء الكثيرين منا"[١٥].

وطبقا لما ذكره جيمس، فإن مستقبل شعوب الهند الغربية يعتمد على شبابها، وكانوا فى ذلك الوقت قد سافروا للدراسة فى بريطانيا. والبعض منهم قد شهد ترحيبًا باردًا. ولكن أيا منهم، مهما كانت مؤهلاته، لم يُسمح له بأن يدرس فى مستشفى سانت مارى فى لندن لأن عميدها، وقد كان الطبيب الخاص لتشرشل وهو لورد موران (Lord Moran) كان يكن البغض لجميع السود[١٦]. وقد كان محظورًا على السود أيضًا التسجيل فى الأكاديمية الملكية الخاصة بالفنون الدرامية[١٧]. وقد كانت هذه أمثلة لما كان يُطلق عليه فى هذا الوقت "حاجز اللون" وهى مجموعة من الأحكام الفردية المسبقة التى كانت تستثنى جميع السود والملونين من الإقامة فى المنازل والفنادق وأماكن الترفيه العامة، خاصة صالات الرقص، فى جميع أنحاء بريطانيا.

وظهر مدى عمق التمييز العرقى البريطانى وعنفه بشكل جلي فى أعمال الشغب العرقية فى ليفربول وكارديف التى حدثت فى يونيه عام ١٩١٩م. فكلتا المدينتين كانت تسكن فيها نسبة كبيرة من السكان السود، وهم فى أغلبهم قادمون من أقاليم ما وراء البحار، وممن وصل حديثًا من الذين

كانوا يسعون للحصول على عمل فى فترة الحرب فى السفن وفى المصانع. والخبرة الخاصة بالمهاجرين من الإيرلنديين واليهود فى القرن السابق، قد جعلت التوترات عادة ما تكون أسوأ فى المناطق التى كانوا يتجمعون فيها بأعداد كبيرة، وفى الأوقات التى يكون فيها الصراع على فرص العمل شديدًا. وقد توفرت هذه الظروف فى كل من ليفربول وكارديف، حيث إن الخدم المسرحيين دخلوا إلى سوق العمل وقد مثلوا إضافة إلى الكراهية العرقية الموجودة.

ففى ليفربول حيث كان عدد السود يصل إلى ٥٠٠٠ شخص، هوجم أحد منازل الملونين بواسطة ٢٠٠٠ شخص من الغوغاء، والعديد من السود فروا مرعوبين يلتمسون الحماية من مركز شرطة توكستث (Toxteth)، وقد تم اعتقال أحدهم وهو يحمل قضيبًا حديديًا وراية مكتوبًا عليها "فليسقط الجنس الأبيض"، والآخرون ذكروا بأنهم رعايا بريطانيون؛ ولذلك فمن حقهم الحصول على العدالة. وفى كارديف، حيث كانت هناك جماعات من الزنوج والعرب والصوماليين، فإن المشكلات التى بدأت بالشجار بين جماعات من السود والبيض انتهت بمقايضة العمال. وقد أدى هذا إلى أعمال شغب على نطاق واسع، وفى أثنائها فإن العصابات قد ثارت فى جميع أنحاء ما كان يطلق عليه السكانُ حى الزنوج، بالقرب من أحواض السفن. وقد قام الدهماء باقتحام منازل السود، وبعض المالكين قاموا بالدفاع عن أنفسهم باستخدام المسدسات. وقد قتل رجل إيرلندى وأحد الزنوج. وقد ذكرت التقارير الخاصة بهذه الاضطرابات أنه قد ظهر عداء شديد للرجال السود المتزوجين من نساء بيض.

وقد لفت ذلك انتباه رالف ويليامز، (Ralph Williams)، وهو مدير سابق فى بتسوانا لاند (Bechualand)، ووصفه بأنه انحدار بغيض. وقد كتب

لجريدة التايمز وأكد أن "الارتباط الحميم فيما بين الرجال السود أو الملونين والنساء البيض شيء يرعب كل رجل أبيض موجود فى المناطق الاستوائية[١٨]. فالقلق الجنسى والغيرة هى أمور قريبة من قلب البريطانى، وبسبب ذلك ظهرت العنصرية الأمريكية. فلقرون عدة كان هناك اعتقاد شائع بأن الزنوج يملكون طاقة جنسية خاصة، جزء منها يرجع إلى أنهم أشبه بالحيوانات وجزء آخر راجع إلى الأساطير التى نسبت إليهم أنهم يملكون عضو ذكر أطول من الرجال البيض. ولم توجه مثل هذه الغيرة الجنسية أو الحقد المصاحب لها إلى الرجال القادمين من الشرق الأقصى أو الملايو، الذين تعلموا ألا يساوون أنفسهم بالأوربيين، وقد يكون هذا هو السبب فى السجل الجيد لنيوزيلندا فيما يتعلق بالتجانس العرقى[١٩]. والقلق من الطاقة الجنسية المزعومة للرجال السود كان هو السبب خلف تلك القوانين التى فرضت على بعض سكان جنوب أفريقيا الذين كانوا يُحكمون بواسطة أوربيين، مثل قانون مكافحة الفجور فى جنوب أفريقيا سنة ١٩٢٧م، هذا القانون الذى حرم إقامة علاقات جنسية فيما بين الأعراق. والممثلون البريطانيون الذين رحلوا إلى جنوب أفريقيا للقيام بتصوير فيلم زولو (Zulu) فى عام ١٩٦٢م قد تم عمل محاضرة لهم عن المحرمات الجنسية فى البلد، وهو ما حث السير ستانلى باكر (Stanley Baker) أن يقول بأن عدة مئات من نساء الزولو كان عليهم أن يقبعوا فى السجون لآلاف السنين. وقد كان الزواج المختلط مسموحًا به فى جنوب أفريقيا حتى عام ١٩٤٩م، ولكن الذين كانوا يقومون به يعانون من النبذ، بالنسبة للنساء من البيض، والاحتقار ممن ينتمون لجنسها. وفى عام ١٩١٥م عندما تزوج أمير من بودوكوتا (Rajah of Pudukota) من الآنسة موللى فينك (Molly Fink)، وهى فتاة أسترالية، فقد تعرض لمعارضة مشتركة من أوستن تشامبيرلن (Austen Chamberlain)، وزير الدولة لشئون الهند، وجورج الخامس

والملكة مارى ومنع من أى فرصة لإقامة دعوى أمام المحكمة[٢٠]. والمثير أنه فى ذلك الوقت فإن ثلاثين من الولايات الأمريكية الثمانى والأربعين كانت تحظر الزواج المختلط.

وقد كان من البدهى أن حياة أى امرأة بيضاء وعفتها، كانتا مقدستين فى جميع أنحاء الإمبراطورية، على الأقل إلى أقصى حد يمكن أن يعرفه السكان الأصليون. وحادثة قتل إحدى النساء البريطانيات وإجهاض ابنتها بوساطة الباثانيين على الحدود الشمالية الغربية فى عام ١٩٢٣م قد أدت لاقتناع أحد المسئولين الكبار بأن الهنود لم يعودوا يحترمون السلطة البريطانية[٢١]. وهذا العرف لم يكن يمتد ليضفى نفس الحماية على النساء السود أو الملونات. "فأوربا تعانق المرأة الأفريقية وفى نفس الوقت تطلق على الرجل الأسود "الزنجى الملعون"، وهذه هى العبارة التى وصف بها أسقف زنجبار هذا التمييز[٢٢]. وقد كان هناك ما يشير أن الممارسات العصرية التى من خلالها يكون من المسموح للناشرين المحترمين بأن يعرضوا كتبهم وبها صور لنساء أفريقيات أو أستراليات عاريات الصدور أو لا ترتدى المرأة إلا القليل للغاية من الملابس، ولكن لا تسمح بنشر صور لنساء بيض شبه عاريات. ونحن لسنا فى حاجة إلى قول، بأنه كان يتم تصوير الرجال السود عادة وهم عرايا فى وضع خاص مخجل. وإلى حد كبير، فإن حاجز اللون كان يمثل سدا يمنع الاتصال الجنسى، وقد كان ذلك مرحبا به.

وقد أرسلت إحدى الأمهات القلقات تسأل إحدى الصحف المحلية فى لندن فى عام ١٩٤٣م "ما الذى كان سوف يحدث إذا ذهب الشباب الإنجليزى كل ليلة بصحبة فتيات هنديات أو صينيات أو ملايويات جميلات وهناك كثير منهم يقومون بذلك"[٢٣]. ومثل هذه الأحكام المسبقة لم تكن تقتصر فقط على البيض غير المتعلمين أو اليمين الساذج، ولكنها كانت تتجاوز كل الحدود الطبقية والانتماءات السياسية. ففى حين كان الراديكاليون والاشتراكيون

المنتمون للطبقة الوسطى عادة يختلطون بسهولة مع نظرائهم مـن الأفارقـة أو الهنود، فإنهم يمكن أن يخضعوا بسهولة للتعصب العرقي. وقد كانت بياتريس ويب (Beatrice Webb) مرعوبة من عادات الصينيين فى أثنـاء زيارتهـا للصين فى عام ١٩١١م، وقد تركتها وهى مقتنعة بـأن الـشذوذ الجنـسى والمخدرات والعلاج بالشعوذة كانت بمثابة الدليل على وجود انحطاط أخلاقى لا يمكن تغييره(٢٤). وبشكل عام فإن حزب العمال كان يقف عادة ضـد أى تمييز عرقى، ولكن عندما اختارت سيريتس خاما (Seretse Khama)، فـى عام ١٩٤٨ أن تتزوج روث ويليامز (Ruth Williams)، وهو أحـد رجـال الدين البيض، فإن وزراء حزب العمل قد وضعوا مصالحهم فـوق المبـدأ. واستجابة لضغوط جنوب أفريقيا والخوف من حدوث ردود أفعال معاكسة فى بانجواتو (Bangwato) فإن الحكومة قد منعت سيرتيس خاما من الحـصول على ميراثه. وباتريك جوردون والكـر (Patrick Gordon Walker)، الـذى أصبح فيما بعد وزير الدولة لعلاقات الكومنولث أراد أن يقوم بحظـر كـل أشكال هذا الزواج(٢٥). إلا أنه كان هناك ماسـونيون أحـرار بـين الطبقـة الأرستقراطية مكنوا سلاطين الملايو وراجات الهند بأن يتحركوا بحرية فيما بين أعضاء الطبقة العليا البريطانية.

وعن طريق واحد من هؤلاء الأشخاص المذهلين الذين كانوا يوجهون التقاليد الاجتماعية والعرقية، وهو النائب من باتاودى (Nawab of Pataudi) الذى سافر باعتباره رجلا مهذبا، ولا تعوزه الخبرة، مع فريق الكريكت الذى قام بجولة فى أستراليا أثناء شتاء عام ١٩٣٢، ١٩٣٣، قبل المباريات وبعدها كان يشارك غرف الملابس مع غيـره مـن الرجـال المهـذبين، بخـلاف المحترفين أو اللاعبين، وهى العادة التى كان يعتبرها الجميع عـادة شـاذة؛ لأنها كانت تحدث فى بلد يقوم باستبعاد جميع المهاجرين الملونين.

وقد كان حاجز اللون آفة تأكل فى الإمبراطورية. وقد مر بها، ولكن بدرجات مختلفة، الجنود السود والملونون أثناء الحرب العالمية الثانية وهو ما أدى إلى اهتزاز إيمانهم بالإمبراطورية باعتبارها مجتمعًا مكونًا مـــن بـــشر متساوين. فلون جلد الرجل كان يحدد ما إذا كان يمكن أن يستوطن فى أســـتراليا أم لا، وكذلك إن كان سوف يعطى حق التصويت فى كولومبيا البريطانية أم لا، ومضيقًا عليه فى كل الأنشطة التى يقوم بها فى جنوب أفريقيا أم لا. وقد كان البريطانيون فاسدين للغاية. وعندما أصـــبح الـــسير هـــاج كناتـــشبول-هوجيسين (Hugh Knatchbull-Hugessen) سفيرًا فى فارس فى عام ١٩٣٤م اكتشف أنه كانت هناك "مشاعر بأننا لم نقم بتطهير أنفسنا مـــن" عقـــد القـــرن التاسع عشر" ولم نكن نقوم بمعاملة الفرس على أنهم مساوون لنـــا"(٢٦). وقـــد اشترك كل من المصريين والعرب والهنود فى الإحساس بنفس هذا الشعور، واكتشفوا أنه خلف الستار الذى كان يغطى الحكومات البريطانية المتتالية التى كانت تمانع فى منح حق تقرير المصير لبلادهم يكمن اعتقاد متجـــذر بـــأن الأعراق غير البيضاء تعانى من عجز غير قابل للمحو فى قدرتهم على إدارة شئونهم الخاصة.

وعلى العكس من ذلك فإن اكتساب المهارات السياسية كان يتم بسرعة وسهولة أكبر بالنسبة للبيض. وبالنسبة لمن أُصيبوا بعدم الصبر والإحبـــاط، فإن الكومنولث كان ناديًا للرجل الأبيض؛ لأنه قام باستبعاد كل من ينتمى إلى سنغافورة ونيروبى على أساس عرقى، من أن يكون لهم الحق فى الـــدخول إلى صالات الرقص.

(٧)

ميثاق الروح الواحدة والرأى العام في الإمبراطورية

(١٩١٩ـ ١٩٣٩)

يتضح حاجز اللون أثناء الفترة التى كانت تبذل فيها جهود عظيمة من أجل تدعيم وحدة الكومنولث والإمبريالية.

حسنت ثورة الاتصالات– التى بدأت وتيرتها تتسارع بعد عام ١٩١٩– فرصة تكون إمبراطورية مترابطة بشكل أكبر، فقد حررت وسائل السفر الجوى بعيد المسافات ووسائل الاتصال اللاسلكى الإمبراطورية من القيود الجغرافية، وقد تم اعتبار الطيران رباطا يمكنه الربط بين مستعمرات الإمبراطورية المتناثرة بشكل عشوائى فى كل أنحاء العالم. وبحيث إن الرحلة لا تستغرق عشرين يومًا من لندن إلى أستراليا فى نهاية هذا العام؛ حيث إن روس سميث كان يعتقد أن ذلك قد يحقق التقارب بين الجهات المسئولة فى الإمبراطورية. مستكشفة أخرى، هي السيدة ج. أ. مولينسون آمي جونسون، أخبرت مستمعى هيئة الإذاعة البريطانية (بى بى سي) فى عام ١٩٣٢ أن غرض طيرانها الأخير من لندن إلى رأس الرجاء الصالح عن طريق غرب أفريقيا كان "المحافظة على الصداقة والرفقة بين كل الأجزاء المتناثرة لإمبراطوريتنا"[١].

كانت استجابة الحكومة إلى الرغبة فى السفر السريع خيالية وغير متوقعة، وفى نهاية الحرب كانت بريطانيا تمتلك أكبر صناعة للطائرات فى العالم التى كانت تنتج فى منتصف عام ١٩١٨، ٤٠٠٠ من الطائرات شهريا والكثير من الطيارين المدربين[٢]. وبعد شهور قليلة من نهاية الحرب اعتمدت على أكثر الطيارين مهارة وجرأة للقيام برحلات جوية رائدة طموح، فألكوك وبراون عبرا المحيط الأطلسى فى مايو، وتمكن روس أسميث من الوصول إلى أستراليا من خلال العراق والهند والملايو، وفى مايو ١٩٢٠ طار اثنان من جنوب أفريقيا من القاهرة إلى كيب تاون. أثارت هذه الإنجازات الكثير من الإثارة فى الرأى العام، ولكن اقتناع الحكومة بالطيران المدنى فى الإمبراطورية كان خجولا جدا. وأدى اختلاف الأمر واحترام مبادئ التجارة الحرة ومبادئ السوق الحر إلى تردد الوزراء والموظفين الحكوميين فى استثمار الأموال العامة فى الطيران فى زمن كانت تعانى فيه الحكومة من عجز فى المال.

الإعلان عن العديد من الأفكار فى غرب أفريقيا عن الخدمات الجوية التى كانت ضحية الروتين الرسمى، وفى ديسمبر ١٩٢٣ مع ممارسة الضغط من جانب المؤتمر الإمبريالى عام ١٩٢١ اتخذت الحكومة القرار من أجل إقامة الطيران المدنى وإقامة العديد من المسارات الجوية التى اعتمدت على مليون جنيه إسترلينى، والإعلانات الحكومية على مدى عشر سنوات واحتكار هذه الطرق المختلفة فى إطار تطوير صناعة الطائرات البريطانية، والتى قد تحولت إلى الأمام والمنافسين من الألمان والأمريكان والفرنسيين[٣]. وتم الوصول إلى مستوى أبعد من الخيال والتنظيم على أيدى الأستراليين؛ عندما تم تأسيس خدمة الطيران لكوينزلاند والأقاليم الشمالية (QANTAS) عام ١٩٢٠، لتربط بين مستوطنات المناطق النائية الأسترالية المتفرقة،

وفى عام ١٩٢٥ بدأت رحلات جوية منتظمة من بريسبان (Brisban) إلى سنغافورة وافتتحت شركة الطيران الإمبراطورية خدماتها إلى القاهرة وكراتشى فى نفس العام، متحدية خدمات الحكومة المصرية التى اعترضت على احتكار الشركة البريطانية. وفى يناير ١٩٣٩ انتظمت الرحلات بين لندن وكيب تاون من خلال باريس وبرنديزى والإسكندرية والقاهرة والخرطوم، والتى حصلت على المعونات من الحكومات الاستعمارية، بالإضافة إلى الطرق الجوية وبريطانيا وجنوب أفريقيا الذين تعهدوا معا بمليون جنيه إسترلينى سنويا لمدة خمس سنوات(٤).

بعد هذه التجربة الخاصة فى السفن الجوية والتى انتهت عام ١٩٢٩ خاصة بعد سقوط عدد من الطائرات فى الهند من ماركة (R101) فإن وزارة الطيران قد تحولت إلى الطائرات من أجل تقدير الخدمات الخاصة، والتى تقطع المسافات الطويلة عبر البحيرات والموان، والتى تتمثل أيضًا فى الأسطول البحرى الذى بدأ فى العمل عام ١٩٣٨، حيث الطائرة كانت تنقل ثمانية عشر من الركاب وتقدم العديد من الخدمات والرحلات الأسبوعية من إنجلترا إلى مصر، والتى تمر على شرق أفريقيا وسنغافورة وهونج كونج وأستراليا، كما أن الاتصال اللاسلكى كان يشهد التطور السريع من أجل تلبية الاحتياجات فى أوقات الحرب، وكذلك من أجل الاستخدامات الميدانية التى يمكن أن تعمل على تقوية الروابط الإمبريالية وتعمل على إبراز الهوية القومية بين الرعايا.

العلاقات مع العالم المتحضر عبر الحدود الشمالية الغربية، وتقديم هذه الخدمات التى فشلت خلال عام ١٩٢٧، على الرغم من انتشار الاتصال اللاسلكى سريعًا عام ١٩٢٩، وإصدار الترخيص إلى ٢٩٩ ألفًا من محطات الاتصال فى أستراليا و٢١٦ ألفًا فى كندا و ١٦ ألفًا فى جنوب أفريقيا؛ حيث

إن سيلان قد اعتمدت على محطة خاصة عام ١٩٢٥، ولكن هذا التطور لم يكن سريعا فى الهند ولم يكن مخططا، قبل عام ١٩٣٥ كانت هناك أجهزة بث فى بومباى وكلكتا، وكان البرنامج متاحا لتوزيع أجهزة الراديو فى القرى الريفية، وفى وقت استطاعت المستعمرات البعيدة أن تلتقط الموجات من الإذاعة البريطانية، والتى أدت إلى إقامة العديد من المحطات المحلية، وفى عام ١٩٤١ مع وجود ٣٨٥ من المحطات اللاسلكية فى شمال بورنيو التى يبلغ تعدادها ٣٠٠٠٠٠ نسمة، والتى كانت تعتمد على اثنتين من المحطات المحلية (*). التى لم تكن جذابة إلى الشعب الصينى الذى يميل إلى الاستماع إلى البرامج الموسيقية الشعبية من مانيلا وسايجون وعدم الرغبة فى التعرض إلى الثقافات الغربية التى لم تكن كلها تنسجم مع الإمبراطورية.

تتمثل القيمة العليا من الاتصال اللاسلكى فى الربط بين الشعوب والإحساس بالمجتمع بين أنحاء الإمبراطورية البعيدة إلى جانب تقوية العلاقات بين بريطانيا والمستعمرات التابعة لها والتركيز على ولاء الرعايا كما يتضح من أعياد الميلاد عام ١٩٣٣، حيث إن الأعضاء من الأسرة الإمبراطورية قد استمعوا إلى جورج الخامس الذى يتحدث من سندرين هام (Sandringham) عن الولاء إلى هذه الخدمة المستمرة إلى جانب بعض الإذاعات الحية من كندا وأستراليا ومضيق جبل طارق والسفن الموجودة عند شاطئ بورسعيد.

لقد كانت إذاعة جورج الخامس لعام ١٩٣٣ انقلابا إمبراطوريا فى عالم المسرح، حيث وجدت الموجات الجوية من أجل الربط بين أنحاء الإمبراطورية إلى جانب البرنامج الطموح لهذه المحطة الإذاعية خلال هذه الفترة، والتى كانت تعمل على تقوية الصلات وكذلك تحقيق التنوع الثقافى والتعرف على الثقافات الأجنبية.

أعلنت إحدى المحطات عن عدم وجود اختلاف بين الأفراد والفئـــات والسهولة من استيعاب البرامج من هذه القنوات والمحطات، ويتضح ذلك من انتشار هذه القنوات المختلفة التى تعلــن عــن آراء المــسئولين؛ حيــث إن الاتصال اللاسلكى كان يساعد فى الربط بين الشعوب المختلفة؛ والذى يخضع إلى المبادئ التى أعلن عنها جون رايس فى المباحثات بين الخبــراء حــول الشئون المختلفة للإمبراطورية فى الماضى والحاضر والمستقبل إلى جانــب الجدل حول العديد من الأمور والمشكلات عام ١٩٣٠، حيث إن عالم الآثار لوى ليكى أشار إلى خبراته الخاصة فى كينيا عند استمرار المسئولين فى حكــم أفريقيا وتجاهل العادات والتقاليد البنائية والاستياء العام من الاضطرابات[٦].

وأحداث الشغب؛ حيث إن هذه المحطات كانت تؤكد الحاجة إلــى الإعــلان إلى الجمهور والشعب فى الإمبراطورية عن المثاليات والأمور المهمة مثــل السينما التى كانت تتمتع بالعهد الذهبى خلال هذه الفترة مع اعتبار أن الأفلام تمثل من أفضل الوسائل الترفيهية إلى الجمهور والمشاهدين مع إنتاج أكثــر من ٣٠٠٠ من الأفلام عن الحرب فى بريطانيا خلال عام ١٩٢٦ و ٥٠٠٠ من الأفلام عام ١٩٤٠، ولذلك فإن السينما كانت تمثل الوسيلة من أجل نشر الرسائل الإمبريالية إلى الشعب والجمهور، وتوضح ذلك أهمية الأفلام خلال الفترة بين (١٩٢٦ - ١٩٣٠) وانعقاد المؤتمرات التى كانت تؤكد العديد من الأهداف الإمبريالية من جانب العاملين فى صناعة السينما، ويتضح ذلك من رئيس نقابة التجارة الذى أعلن عن القيمة السياسية لهذه الأفلام فــى التــأثير على الفكر العام لدى الشعب البريطانى إلى جانب انتشار العديد من الأفكــار القومية، وكذلك الرأى الخاص من السير جرامن فير الذى يمثل المفوض العــام فى لندن والذى يشير إلى أن جميع الأطفال لا بد أن يشاهدوا هــذه الأفــلام البريطانية التى تصور الأحداث المختلفة فى تاريخ هــذه الإمبراطوريــة[٧].

والتى تدعو إلى إثارة المشاعر الوطنية لتعمل كترياق مضاد لــسيل المــواد

الحسية والعنيفة وفى كثير من الأحيان الجنسية التى تتدفق من ستديوهات هوليوود. حيث، إن نسبة ٩٠ % من الأفلام المعروضة فى بريطانيا تأتى من أمريكا بينما العناصر الأخرى من المجتمع ترى أنها تمثل مصدرًا للتلوث الأخلاقى.

لقد فعلت الحكومة ما عليها من أجل احتواء هذا التلوث وتعمل كذلك على حماية الإمبراطورية؛ وهى التى تمثل الواجب على المجلس البريطانى للرقابة التى تأسس عام ١٩١٢، والذى يعمل على النظر فى موضوعات الأفلام، وإن اقتراح هذه النظرية يشير أن المجلس على استعداد أن يمارس الضغط على الحكومة كما حدث عام ١٩٢٥ عندما رفض تقديم الترخيص لأحد الأفلام التى تصور الجنود الإنجليز الذين يكشفون عن بعض الأعمال الشائنة، وأن العلاقات الجنسية بين السود والبيض من الإناث والذكور من بين الموضوعات المحظورة من جانب هذا المجلس، والذى أعلن عن ذلك عام ١٩٢٨ وقد أثير هذا الخطر عام ١٩٣٣ فى قضية فرانك كابرا (The Bitter Tea & of General yen) ويتضح ذلك من هذا الفيلم الذى يصور الفتاة الأمريكية التى تقع فى حب أحد رجال الحرب الصينيين، كما أن هناك بعض المحظورات الأخرى التى تشمل تصوير الممتلكات الإنجليزية على أنها لا تخضع للقانون أو التصوير للرجال البيض فى حالة انحلال أثناء أعياد الميلاد، وأن هذه الحماية تمتد إلى الهنود والضباط فى المستعمرات، وتشير إلى الغرب الأمريكى البرى الذى يمثل من أهم مصادر أفلام المغامرات، وأن أحد هذه الأفلام يصور إحدى الملحمات الأمريكية ويعلن عن بعض التصريحات وكذلك الواجب على بعض الضباط وعلى الملك فى الحفاظ على السلام وتصوير بعض الأشرار فى هذه الأفلام من قبائل الهنود الحمر[٨]. كما أن هذا الفيلم الأمريكى يتناول هذا الموضوع الدرامى، بينما هناك فيلم آخر

يحمل اسم العاصفة فى بلاد الهنود الحمر فى بورما، ويصور أيضًا الجيش البريطانى وعددًا من القضاة من خلال هذا السيناريو الذى يوضح الإمبراطورية الإنجليزية، وتشير إلى عدد من القضاة والزعماء إلى جانب العديد من الأفلام الإنجليزية التى تهدف إلى أكثر من الترفيه، وتشير كذلك إلى الشخصيات الطيبة والشريرة والرجال الشجعان والأمناء، وتصور لنا أيضًا المشاعر الخاصة عن المنتجين لهذه الأفلام والمخرجين لها (٩). كما أن الحكومة تؤكد قيمة هذه الأعمال خاصة موقع أحد الأفلام المنتجة عام ١٩٣٨ والذى يحمل اسم (الريشات الأربع) وعام ١٩٣٩يشير إلى الجيش الهندى الذى يقدم القوات فى ساحة المعركة والسلطات السودانية التى تضم ٤٠٠٠ من الجنود فى ساحة القتال فى أم درمان.

كما أن الحكومة السودانية قد ساعدت فى توريد عدد كبير من المحاربين، التى تمثل اللمسة الأصلية على مشاهد المعركة إلى جانب أحد الأفلام الخاصة التى تشير إلى إقدام هؤلاء المحاربين(١٠).

الرسالة التى تتضح من هذه الأفلام البريطانية القديمة قد تكون مختلطة حيث إن فيلم روديس فى أفريقيا وفيلم كالايف فى الهند ١٩٣٦، يمثل أحد الأفلام الوثائقية عن السيرة الذاتية التى توضح الرؤية البعيدة وتشير إلى الازدواج التاريخى من خلال القائد البطل كودا فى فيلم سندرز والنهر الذى يتصف بالعملية، ويسعى إلى تحرير أفريقيا ويمثل الحاكم على منطقة النهر والذى يعلن إلى زعماء القبائل عن القوانين المختلفة التى يمكن أن تحقق الرخاء والسلام، وأن الإمبراطورية تشهد التقدم بفضل الزعيم بوزامبو الذى يرمز إلى سندرز ويتقاسم معه نفس الآمال فى المستقبل، وأن الماضى الأفريقى عن التشاؤم يتضح من المالك موفو بولا الذى يعتمد على العرافين والسحر، بينما سندرز يعلن عن شائعة وفاته، وهو الذى يؤدى إلى تعثر

مسيرة السلام، وأن العديد من المصادر الأفريقية تؤكد أن سندرز عاد في الوقت المناسب عند مقتل موفو بولا، بحيث إن أفريقيا الجديدة تتقدم إلى الأمام بفضل سندرز وبوزامبو الذى أصبح القائد العام والذى يعلن أن ابنه سوف يحصل على التعليم من أجل أن يتعرف على المبادئ التى عاش من أجلها.

يتضح أن الصراع بين التنوير الإمبريالى والظلام القبلى من موضوع هذا الفيلم الذى يدور فى الحدود الشمالية الغربية من الهند مع وجود الحاكم البريطانى روجار، بينما الخان هو المسئول عن الجهاد والذى يعتمد على الأسلحة المهربة من روسيا، وأن المؤامرة بين روسيا قد اعتمدت على سابو الذى يحترم شجاعة الخادمين للإمبراطورية والقيم والتضحية بالذات، وقبل زيارة الخان فإن الحاكم كان يرفض الالتماسات المقدمة من أجل الإقامة فى قلعته فى سبيل تقدم الحضارة بعد وفاته.

تشير هذه الأفلام إلى روح المغامرة وتصور كذلك الأبطال العائدين إلى الوطن والاعتقاد فى أن الامبراطورية هى رمز الاستقرار والعدالة والتى تعتمد على الرجال الشجعان، وعندما يأتى الوقت المناسب فإن ابن بوزامبو سوف يتحمل المسئولية عن الشعب وسوف يلاقى النماذج مثل سندرز ويتعلم منه حب العدالة والحقيقة، وأن الجمهور الهندى يختلف فى الاستجابة إلى هذه الأفلام المصورة فى مدراس فى الهند والتى تصور المنازل والشوارع والمظاهرات فى حالات الاحتجاج.

من الصعب أن نتوصل إلى السبب فى أن هذه الأفلام تشير إلى الدعاية إلى الإمبراطورية الطيبة فى الهند، وفى عام ١٩٣٨ فإن ماركيز زيتلاند وزير الدولة لشئون الهند قد توقع بقدوم لاكنو الذى سوف يشعل الحس والوعى الوطنيين، ويتدخل فى الاجتماعات فى مجلس العموم من أجل الرقابة بينما

عضو البرلمان عن حزب العمال إيمانويل شينويل يعلن أن الحكومة سوف تعلن الحظر على حالات العصيان الهندى الذى يهدد الطابع الإمبريالى فى البلاد[١١] إلى وجود بعض الادعاءات حول هذا الطابع من جانب الحكومة التى تجرى الرقابة على الصحف والجرائد أثناء وبعد أزمة موينخ وبعدها.

هذا الفيلم الوثائقى يعلن عن العديد من الحقائق، ومنذ عام ١٩٠٣ فإن إحدى الشركات كانت تعمل على تمويل الفيلم القصير عن هذه المستعمرة، وتوضح العديد من الأحداث فى هذا الفيلم الذى اعتمد على الدعاية والإعلان فى إنجلترا عام ١٩١٣، وهو الذى يشير إلى زراعة الكاكاو فى ساحل الذهب من أجل مصنع الشيكولاتة فى إنجلترا، وبحيث إن مجلس التسويق الإمبريالى أنتج هذا الفيلم عام ١٩٣٣، إلى جانب الأفلام الممولة من شركات الطيران والمعلنة فى المدارس وفى الجماعات الشبابية، لتقنع الجمهور بقيم الإمبراطورية كانت تأتى فى ذيل أولويات وزارة المالية، وقد سقطت وحدة أفلام إدارة التسويق الإمبراطورية سريعا كضحية للبخل الحكومى. وقد كان رجال السلطة فى وزارة المستعمرات مسرورين سرا؛ حيث اعتبروا عمل العلاقات العامة بأكمله و"الترويج والبيع" للإمبراطورية بأنه عمل غير أخلاقى[١٢].

"بيعت" الإمبراطورية إلى الجمهور العام بطريقة ليس لها مثيل وبصورة خالية من أى إحساس بالخزى والعار فى معرض الإمبراطورية البريطانية الذى عُقد فى ويمبلى عام ١٩٢٤ و١٩٢٥، الذى يوضح لنا الأبعاد الغربية من هذه الإمبراطورية، والذى يضم العديد من الأجنحة ووجود العديد من القصور التى تتصل من خلال الشوارع وتشير أيضًا إلى التكلفة الإجمالية من إقامة هذا المعرض، والتى بلغت ٣,٢ ملايين إسترليني؛ حيث إن الحكومة عملت على تمويل نصف هذا المبلغ من أجل دعم التجارة والافتتاح

الرسمى لهذا المعرض عام ١٩٢٥، حيث إن أمير ويلز وعد والده جورج الخامس بالدعاية إلى العالم عن هذه الحضارة التى تنعم بالسلام، وبهذا الجنس البشرى، والذى أشار إلى التعاون بين الشعوب من الأجناس المختلفة.

لقد تردد سبعة وعشرون مليون نسمة على هذا المعرض من أجل التعرف على هذه الإمبراطورية والحصول على الذكريات حول هذه الحضارة التى تضم القصور الفنية والصناعات المختلفة مثل الخرسانة مع وجود الجناح الكندى والأسترالى الذى يعتمد على التراث المعمارى الإنجليزى المعروف فى الملايو وبرما، وأن هذه المبانى تشير إلى هؤلاء الزوار الذين ينبهرون بالمجوهرات التى يحملها أمراء الأشانتى والذين يحصلون على الحراسة من رجال الشرطة إلى جانب تصوير النساء من الطبقات العليا[١٣].

معظم الزوار سوف يتعرفون على جوانب هذه الإمبراطورية، إلى جانب الشخصيات المختلفة القادمة من أفريقيا، إلى جانب تعليقات الصحافيين حول هذه المعروضات وتصوير اتحاد الطلاب السود من خلال النماذج المعروضة، والتى توضح لنا أعمال السحر الأفريقى، وإن جورج الخامس وابنه الأكبر ارتبطا بهذا المعرض وأهدافه[١٤]. كما يتضح من مناصب الاحتفال والإعلان عن المثاليات الإنسانية لهذه الإمبراطورية والتى تعتمد على الإرادة الحسنة والاحترام المتبادل، إلى جانب مشاعر أعضاء الأسرة الملكية الذين يرمزون إلى الوحدة الإمبريالية والولاء وتكوين الروابط والتعرف على الشعوب المختلفة لهذه الإمبراطورية، وإن الراهب موراى قد تمكن من وصف هذا المفهوم عندما أعلن عن تحية الدوق جلوسستر خلال زيارته إلى نيوزيلندا عام ١٩٣٤ "مرحبا بك أى بنى، يا من فى وجهك نرى والدك ووالدتك وأخاك الأكبر الملكيين، يا من خطت أقدامه الملكية والأميرية على أمواج التانجاروا الواسعة والمتلاطمة"[١٥].

من المستبعد أن يتمكن الجنود من التعرف على كل الألم الرهيب الأم لأمير ويلز أثناء زيارته عام ١٨٧٧ عندما تمكن من عبور شبه القارة، وذلك بعد المرور، وقتل النمور في الغابات، وبعد العديد من المغامرات من خلال هذه الزيارة الملكية بين ابنه جورج الخامس الذى حصل على التتويج مع الملكة مارى عام ١٩١٢، وكذلك حصل على التكريم من الأمراء الهنود فى دلهى.

كان هناك تركيز أقل على الاحتفالات والبهرجة المغولية الزائفة أثناء رحلات ما بعد الحرب التى تم اتخاذها من قبل أمير ويلز، ومن سيصبح بعد ذلك إدوارد الثامن تم إرساله من لويد جورج الذى رأى أن الرحلات الملكية تدريب سياسى على حب الظهور الذى كان المدخل إلى التحكم فى الناس وجعل حكامهم أكثر قابلية للانصياع. "إن ظهور أمير ويلز المحبوب من شأنه أن يفعل أكثر لتهدئة الاحتجاجات – من نصف دستة من المؤتمرات الإمبريالية البائسة"(١٦). إلى حد ما كان رئيس الوزراء محقا، فقد كان الأمير اليافع رقيقا لينا صنع مظهره الحسن وشبابه وسلوكه غير العتيق انطباعا محببا فى الإمبراطورية.

كان يتصف أيضا باستعداده لتحمل واجباته؛ وبحيث إن تشرشل دربه على الخطابة السياسية، وألقى عليه اللورد ستامفوردهام– سكرتير الملك– محاضرات عن الجدية فى تحمل المسئوليات. "إن العرش هو المحور الذى تعتمد عليه الإمبراطورية، فقوته وثباته سيعتمدان بالكلية على شاغله"(١٧)، وواضعا فى الاعتبار هذه المقولة رحل الأمير إلى كندا عام ١٩١٩، وأقام فيها تسع سنوات، كما تردد على غرب الأنديز ونيوزيلندا والهند وكندا وأستراليا عام ١٩٢٣، كما تردد على ساحل الذهب ونيجيريا وجنوب أفريقيا وكينيا وأوغندا، وحصل على التكريم من رؤساء الدول فى المبانى العامة، والتى

كانت تشهد الاحتفالات الراقصة والغنائية التى تميز هذه الجولات الملكية عندما اعتلى العرش إدوار الثامن، كان مسئولا عن الإمبراطورية، والذى قد حصل على حب الشعب وتمكن من التخلص من التطور السياسى والعرقى فى كندا وجنوب أفريقيا، كما أن الأمير قد أشار إلى أن الهنود لم يكونوا على استعداد لحكم أنفسهم ويحتاجون إلى المستوطنين البيض فى كينيا[١٨].

من المستحيل أن نتعرف على طبيعة هذه الإسهامات والجولات الملكية التى كانت تهدف إلى تحقيق التعاون الإمبريالى، ومع ذلك فإن الوثائق المختلفة مثل تلك التى تحمل اسم رواية خمسين ألف ميل مع أمير ويلز ١٩٢٥ تشير إلى التقدم الإمبريالى، الذى كان يعلن عن أحوال الشعوب المختلفة والرايات المرفوعة والمتحدة فى ظل الولاء إلى التاج الملكى كما تشير المقالات الصحفية حول الخطب التى تعلن عن الشكر والترحيب والولاء والتعاطف إلى أحد الجانبين على حساب الجانب الآخر،[١٩] كما أن هذه الصحف كانت تعلن عن هذه القيم المشتركة التى تسعى إليها الدول الأوربية والإمبراطورية والتى تتمثل فى الرسالة المعلنة إلى الأمير من بيلى هوج وزير العمل الأسترالى الذى أعلن عن الشعب الأسترالى الذى يرى مجد هذه الإمبراطورية التى تدعو إلى المثاليات العديدة مثل الحرية والعمل والتى تتمثل فى ذلك عن الإمبراطوريات الأخرى القديمة والحديثة.

شكل آخر وجديد لهذا التعاون بين التاج الملكى والإمبراطورية هو الذى يتضح من إصدار طوابع البريد من هذه المستعمرات من أجل الاحتفال باليوبيل الفضى لجورج الخامس عام ١٩٣٥[٢٠].

لقد شاركت القضايا الاستعمارية فى تصميم مهذب ومحترم أظهر الملك وقلعة وندسور، كما سجلت مسألة جماهيرية تتويج جورج السادس فى مايو ١٩٣٧، وبهذه التصميمات عكست هذه الطوابع البريدية وحدة الإمبراطورية، وحثت على جمع الكثير من المسائل الإمبراطورية خاصة بين الشباب[٢١].

شهدت الطوابع الإمبراطورية تغييرا فى الشكل، ويرجع الفضل فى ذلك إلى السير رونالد ستورز، وباعتباره حاكم قبرص، فقد أمر بإصدار طابع لطيف فى عام ١٩٢٨ لإحياء ذكرى خمسين عامًا من الحكم البريطانى، ونصت على أن المستعمرة تحتاج إلى إعلان شعبيتها[٢٢].

أصبحت الإمبراطورية الآن جزءًا من حياة الطقوس البريطانية؛ حيث يتجمع الناس حول أجهزة اللاسلكى بعد عشاء أعياد الميلاد لسماع خطاب الملك، وكان الفصل قد سجل حضور الفرق الرياضية وذهابها من مختلف مناطق الدومنيون وإليها، وقد كسبت لعبتان بريطانيتان من منتصف القرن التاسع عشر فى مختلف أجزاء الإمبراطورية، ومع حلول عشرينيات القرن العشرين صار اتحاد الرجبى فى جنوب أفريقيا لعبتهم المفضلة. وقد انتشرت اللعبة فى أستراليا ونيوزيلندا وفيجى وسامو الغربية.

وعلى العموم كان الجمهور البريطانى أكثر تآلفا مع الإمبراطورية أكثر من أى فترة ماضية، وليس هذا القول إنه عندما يلتقى الناس ويتجمعون فى عربات السكك الحديدية أو ملاعب كرة القدم فإنهم يتحدثون عن الإمبراطورية، وفى الوقت الذى كان الناس المعادون فى بريطانيا مهتمين بقضايا الشوكة والسكينة ومثل هذه الأعمال، لم تكن الإصلاحات الدستورية فى الهند أو السياسة الوطنية فى كينيا تجذب اهتمام العامة، ومع ذلك فإنه من خلال الراديو والسينما والدروس فى المدارس كان كثير من الناس واعين بوجود الإمبراطورية، كما كانوا يدركون أن الإمبراطورية كيان مهم يشعر فيه الناس بالفخر، وكان السكان فخورين باعتبارهم بريطانيين، وأكدت ذلك الصورة الجماعية التى انعكست فى السينما أو التى جلبها الناس إلى منازلهم من الإذاعة الملكية السنوية.

وعرف الجمهور في ذلك الوقت أن الإمبراطورية تتغير وأنها قوة من التقدم البشرى، ولا يعرف أحد طول المدة التى تستمر فيها فترة التغير الحالى أو شكل الإمبراطورية الذى سيظهر، وتخيل بيفيل تشامبرلين الذى صار رئيسا للوزارة عام ١٩٣٧ أن الهند ستحقق استقلالها الكامل مع عام ١٩٨٠ أو قبل ذلك، وكان تشرشل يفكر فى نفس الأمور، وكتب عام ١٩٣٧ إلى النائب "إننى أريد أن تحتفظ الإمبراطورية البريطانية لأجيال أكثر بقوتها وعظمتها، وتستطيع العبقرية البريطانية تحقيق ذلك" وكانت قوة الإمبراطورية واضحة أمام الجميع وهم يشاهدون نشرات الأخبار والسفن الحربية فى موانئ سيدنى وكيب تاون تحمل الأمراء الملكيين إلى رعاياهم الذين يحبونهم، ولكن هل كانت الإمبراطورية مستمرة، من المحتمل لا، ولكن ممتلكاتها مريحة فى عالم صار فجأة بعد عام ١٩٣٥ متغيرا وخطيرا.

(٨)

لا أمل فى الوعيد

حدود النفوذ الإمبريالى

بين (١٩١٩ - ١٩٣٦)

عام ١٩٢٤ سمى أدولف هتلر- بمزيج من الحسد والتبجيل- بريطانيا "أكبر قوة عالمية على الإطلاق" وهى التى كانت تنعم بالتجانس والنفوذ الدولين[١]، توصل إلى هذا الرأى عندما كان فى زنزانة فى سجن بافارى وعندما كان يدون الكتاب الذى يحمل اسم "كفاحي" وكانت كل التفاصيل صحيحة عدا نقطة واحدة: بريطانيا كانت القوة العالمية الوحيدة عام ١٩٢٤، أما القوى الأوربية التى كانت موجودة قبل الحرب فكانت تعانى من الانحلال؛ حيث كانت روسيا تسعى إلى أن تعود إلى مجدها بعد سبع سنوات من الحرب الأهلية والضعف الذى جاء على فرنسا التى كانت تعانى من الاضطراب السياسى، إلى جانب معاهدة فرساى التى أدت إلى تقسيم ألمانيا والإمبراطورية النمساوية المجرية التى تحولت إلى الدول الضعيفة، والولايات المتحدة منذ ١٨٩٠ كانت تمثل الدولة الأغنى فى العالم والمعزولة عن الشئون الأوربية، والتى كانت تحافظ على الثروة عن طريق عدم الدخول فى صناعة السفن الحربية أو الطائرات أو الأسلحة المطلوبة لوضع القوى الكبرى، واستمرت فى الهيمنة على حديقتها الخلفية أمريكا اللاتينية، الأمر الذى يتشابه كثيرا مع ما فعلته اليابان- الدولة الصناعية الوحيدة فى آسيا -

فى الشرق الأقصى. كانت بريطانيا لها مصالح وأراضى فى جميع الأنحاء وكانت تملك الوسائل لحمايتها.

إن عصب النفوذ البريطانى كان يتمثل فى إمبراطوريتها، كما يتضح من إحدى المقالات المنشورة فى مايو ١٩١٩[٢]. ولا يختلف اثنان داخل بريطانيا أو خارجها على صحة هذه المقولة، والتى اتضحت صحتها أخيرًا من خلال مساهمة الإمبراطورية فى الجهود الحربية البريطانية فى هذه الإمبراطورية، حيث الإمبراطورية قدمت لبريطانيا ما هو أكثر من مجرد الرجال والمواد الحربية، فمثلت المكون الرئيسى "للهيبة البريطانية"، "الهيبة هى ما يجعل بريطانيا قوة عظمى"، لاحظ هذا محلل أمريكى عند اندلاع الحرب العالمية الثانية[٣].

ولكنه لم يشر بدقة كيف خدمت هذه الفكرة المعنوية مصلحة بريطانيا فى الشئون الدولية، ولكن بعد ذلك لم يشر أيضا الساسة والقادة والدبلوماسيون البريطانيون الذين استشهدوا بلفظة "الهيبة" كلما تعلق الأمر باتخاذ قرارات مهمة. برزت أهمية الهيبة على المستوى المحلى مع وجود أجناس من الشرق الأوسط والأقصى بحيث كان الجميع يدرك أهمية بريطانيا وقوتها التى قد تمثل الخطر على الدول الأخرى وقدرة بريطانيا على هزيمة الأعداء، وفى بداية ١٩٤٢، فإن استجابة باثان على الحدود الشمالية الغربية عند وقوع سنغافورة فى يد اليابان "علامة على الاستخفاف لأنه كان من المفترض أن يكون الانسحاب مريرا وخطيرا بين أيدى عدو بهذا القدر"[٤]. اتفق هتلر مع هذا الكلام وتساءل عما إذا كان العالم قد بالغ فى تقدير الهيبة البريطانية خلال العقدين الماضيين[٥].

ثمة آخرون لم يفاجأوا بهذا التحول فى مجرى الأحداث، ففى عام ١٩٣٤ صرح قائد ياباني- عاكسا أفكار العديد من مواطنيه-

أن "الإمبراطورية البريطانية تبدو فعليا رجلا عجوزا"[٦]. أما نظـراؤه فـى الجيش وكليات البحرية فى أمريكا فقد كانوا يتـشجعون تـدريجيا ليعتقـدوا الشيء ذاته[٧]، بل إن البعض داخل بريطانيا اتفق مـع هـذا. إن ضـعف الاستجابة البريطانية إلى الإهانات التى تعرض لها مواطنوها علـى أيـدى القوات اليابانية فى تينتسين فى يونيو ١٩٣٩ أرقـت اللـورد شـاتفيلد، أول لورد بحرى. وقد كتب قائلا عن هذه الأحداث إنها "من شـأنها أن تـسمح للقادة الجورجيين والفيكتوريين بإصدار تهديدات عنيفة"[٨]، إذا كان بإمكـانهم أن يفعلوا هذا إذا عجزت الدولة المهاجمة عن الـدفاع عـن نفـسها، لكـن الممارسين السابقين لدبلوماسية القوارب المدفعية كانوا يفهمون هذه النقطـة جيدا، بينما نادرا ما قدرها القادة أو المؤرخون التالون.

جون بول الذى كان لا يزال على قيد الحياة فى بعض من هذه المناطق أشار إلى المفهوم المصرى عن السفن الحربيـة والمعـارك الحربيـة فـى الإسكندرية عام ١٩٣٦، بينما الحكومة كانت تعترض على العديد من شروط المعاهدة مع الحدود؛ بحيث لم يكن هناك شك فى شروط هذه المعاهدة، بينما فى عام ١٩٢٨ مع ١١٠٠٠ من القوات الهندية والبريطانية فى شمال الصين من أجل حراسة الأملاك البريطانية وأبعاد الإقطاعيين[٩]. كانـت القـوارب الحاملة للأسلحة تجوب نهر يانجتسى، وكانت توقع عقوبات فى حالة إسـاءة معاملة الرعايا البريطانيين. وفى سبتمبر ١٩٣٧ فإن أنتونى إيـدين وزيـر الخارجية أعلن عن إغراق السفينة الإسبانية الكانازيز، بينما كان الوطنيون وحلفاؤهم يصرون على الهجوم على السفن البريطانية، على الرغم من عدم الحاجة إلى الانتقام، حيث إن ذلك يمثل دور الدبلوماسيين.

لم يكن هناك شك فى أن أسطول البحر الأبيض كان لا يواجه الصعوبة فى القضاء على السفن الإسبانية الحربية. المشكلة الحقيقيـة آنـذاك كانـت

تتلخص فيما إذا الحكومة البريطانية تنوى التصرف بهذا الشكل الجذرى. أما عن المقياس الذى اتخذه هتلر للنجاح السياسى للدول فهو استعدادهم للتصرف بشكل وحشى عندما يتعلق الأمر بالمصالح.

وفى عام ١٩٢٤ فإن الحكام الإنجليز اتخذوا القرار من أجل الحفاظ على أنحاء الإمبراطورية، مع وجود العديد من الهنود والمصريين والعرب فيها إلا ان المؤرخين ليسوا على يقين من ذلك، وبحيث إن تتبع مراحل انهيار بريطانيا يتضح من الفترة التى امتدت لسنوات، والتى تشهد الحروب المختلفة التى أدت إلى ضعف بريطانيا عن الحفاظ على أملاكها البعيدة، وأن التفسير المقبول لهذه الظاهرة يتضح من أحد الباحثين الذى يؤكد أن الحكام الإنجليز لم يكونوا مؤهلين لهذا النوع من القرارات من أجل الحفاظ على الهيبة البريطانية، وأن النتيجة من أفكار هؤلاء المسئولين لا تزال واضحة من تعليم المدارس الحكومية والجامعات فى بريطانيا خلال آخر الحقبة الفيكتورية وفى الحقبة الإدواردية[١٠]. إن المزيج بين المسيحية الإنجيلية وشيم النبلاء والفرسان وكذلك الإيمان أن بقدرة الإنسان حل مشكلاته عن طريق تشغيل العقل والمنطق قد أنجب سلالة من الحكام غير مهيأة عقليا للمواجهة بدلا من محاولة خداع جنرالات هتلر وموسولينى وهيروهيتو وأدميرالاتهم.

أشار الباحثون الأمريكان إلى بعض الخصائص التى تشمل الاعتدال والرغبة فى التوفيق بين الوزراء الإنجليز والدبلوماسيين والخطط المتبعة فى التفاوض بين السفراء.

وفى عام ١٩٣١ أعلنت وزارة الخارجية عن التوقعات حول مستقبل بريطانيا من أجل استعادة المجد الضائع والاعتماد على بعض الوسائل التى تشمل "الرجوع إلى تقليد (اللعنة على عينيك) البالمرستونى فى الدبلوماسية"[١١]. تركت المشاورات بين المسئولين الإنجليز والأمريكان

عام ١٩٤١ انطباعا لدى الأمريكان بأنهم يتعاملون مع طاقم مخادع ومتمسك بمواقفه وعنيد. فبعد مؤتمر خليج الأرجنتين فى أغسطس، عندما قال أحد المسئولين الأمريكان "هناك نقطة واضحة فى المستندات البريطانية ألا وهى انصياعهم للسياسة طويلة المدى لتنظيم الشعوب الأخرى بشكل مباشر للقتال من أجل المحافظة على قوة الإمبراطورية"[١٢]، ومنذ إخفاق الرئيس الأمريكى فى الانتخابات أدرك الأمريكيون أنه لا يمكنهم الثقة فى شركائهم، وقد أشار الرئيس الأمريكى روزفلت إلى نفس هذا الرأى، عندما أعلن عن الدهشة التى أصابت الأمريكان من الصورة العامة لبريطانيا فى مجال الشئون الدولية.

يتضح التناقض من مقولة أحد الوزراء الأمريكان الذى أشار أن الإنجليز لا يدركون كيفية لعب الكريكت[١٣].

من الواضح أن الصفوة المسيحية التى تحكم بريطانيا لا ترى أن القواعد الإنجليزية القديمة يمكن ان تحكم جميع الأنشطة الانسانية، وحتى أولئك الذين لا يدركون هذه القواعد، فإنهم يدركون الحيل من أجل البقاء على الساحة الدولية، وبحيث إن المؤسسات الدولية المختلفة يمكنها أن تحقق التنوير الأخلاقى والروحى والمعنوى داخل الأمة التى تعتمد على دهاء غير الشرفاء ومكرهكم وخارجها، وأن هذا السبب يوضح أن المسئولين فى المدارس العامة لم ينهلوا الجانب الشرير فى الطبيعة الإنسانية وكيفية تطويع هذا الجانب من أجل تحقيق المصالح المختلفة.

لم ينهر المجد والهيبة البريطانيان نظرا لأن الحكام الإنجليز قادرون على قوة الإقناع عند التعامل مع الأجانب من رؤساء الدول الأخرى والسفراء والاعتماد على قوة الكلمات وتأثيرها والتعبير فى الإقناع والخديعة، ولذلك فإن نيفيل تشامبرلين ربما؟ نفس هذه شرائط الأخبار بعد زيارة ميونخ، وأشار إلى تحفظات هتلر الذى يمثل نموذج الرجل العارف والمحنك، وبحيث إن هذا

السلوك البريطانى قبل أزمة ميونخ وأثناءها هو الذي يمثل الدليل القوى على انحسار دور هذه الإمبراطورية ومجدها، وأن سياسة تهدئة النفوس كانت تهدف إلى الحفاظ على الإمبراطورية فى الظروف الصعبة والحد من تأثير الدول الأوروبية الأخرى على الشئون الداخلية فى بريطانيا(١٤).

ومن الممكن أن نؤكد ذلك بعد عدة سنوات من مؤتمر ميونخ، حيث إن الهيبة البريطانية كانت تمثل الواجهة التى تخفى فى الوراء الدهاء والمكر، والتى تشير إلى السمة الزائفة عن بريطانيا التى كانت تمثل فى هذا الوقت الدولة الأقوى فى العالم؛ من حيث الثراء الاقتصادى والفكرى والتقدم العسكرى. مع وجود العديد من المصانع التى تحولت من الصناعات المدنية إلى الحربية من أجل صناعة الأسلحة المطلوبة فى أوقات الحرب والتى كانت تمثل الدافع الأول فى نمو الاقتصاد البريطانى فى الثلاثينيات وهى التى توضح لنا هذه الدراما الإنسانية، كما يتضح من المعلومات الحكومية وكذلك من انخفاض سوق البورصة الإنجليزى عام ١٩٢٩، وارتفاع معدل البطالة إلى ثلاثة ملايين نسمة، والتى تمثل أكثر من ٢٠% من القوى العاملة، ولكن مع ذلك فإن الفترة اللاحقة كانت تشهد انخفاض جودة منتجات هذه المصانع التى تخصصت فى صناعة البوارج الحربية وعمليات الإصلاح التى استنفدت ٦٢% من الاقتصاد البريطانى عام ١٩٣٢.

تشير عمليات التسريح من مصانع النسيج ومناجم الفحم ومسابك الحديد، وكذلك الصناعات الثقيلة فى جنوب بريطانيا وشمالها خلال عام ١٩٣٢ إلى تنوع أوجه الصرف من الميزانية القومية بعيدًا عن رخاء الشعب البريطانى والطبقات العاملة، وأن استعادة الأوضاع الصحيحة جاء تدريجيا ولم يخل من الصعوبات، مع انخفاض البطالة إلى ١١% عام ١٩٣٩ والبعد عن الصناعات القديمة، وبعد عام ١٩٣٧ فإن الطلب على الإسكان فى جنوب إنجلترا

وشرقها، إلى جانب الحاجة إلى الأسلحة الثقيلة كان يمثل العقبة والدافع من أجل النمو الاقتصادى والمحلى مع ظهور المنتجات الجديدة مثل الراديو، والتنوع فى صناعة السيارات والثلاجات إلى جانب التوسع فى الصناعات الحديثة مثل الصناعات الإلكترونية والكهربائية التى حلت محل المصنوعات القديمة.

تمكنت بريطانيا من احتمال هذا الوضع والخروج من فترة الركود الاقتصادى قبل ١٩١٤ نظرا إلى وجود العديد من العوائد الخارجية ١٩١٨التى تأتى من الاستثمارات الأجنبية فى الخارج والعوائد من الحروب، كما أن الطلب الدولى بعد عام ١٩١٨ قد اعتمد كثيرًا على البنوك الأمريكية التى حصلت على ودائع الإنجليز.

وفى الفترات المختلفة بين الحروب فإن المستثمرين الإنجليز من القطاع العام والخاص كانوا فى حظر من الوقوع فى نفس الأزمة الاقتصادية، وهو الذى أدى إلى الحظر الشديد فى مجال الاستثمار والعمل على الاستثمار فى المجالات المضمونة، وأن ارتفاع الطلب على الاستثمار الحكومى وسياسات القطاع العام من أجل رفع مستوى الاقتصاد على المستوى القصير والطويل يشير أن الحكومة عادت إلى الطرق القديمة من أجل موازنة الميزانية الداخلية والخارجية، ورفع العديد من الشروط على الاستثمارات الأجنبية داخل بريطانيا، إلى جانب تحرير التجارة الدولية وخفض الضرائب وإعادة بناء الأجهزة الحكومية عام ١٩٣١ الذى كان يمثل الإجراء الوقائى من أجل الخروج من الأزمة وتأمين المواد الخام والغذاء الرخيص وإيجاد بعض منافذ من أجل المنتجات المصنعة، على الرغم من التقلص فى الأسواق الدولية والدخول فى عدد من الاتفاقيات أثناء مؤتمر أوتاوا وبعده عام ١٩٣٢، والاقتراحات على بريطانيا فى مجال الخطط الاستثمارية مع كينيا، والتى تعتمد على التمويل من الحكومة الإنجليزية، وكذلك تحقيق العلاقات

الاقتصادية بين بريطانيا والإمبراطورية البعيدة من أجل إنشاء كتلة على الجنيه والدومنسون الإسترليني الذى كان مقصودا عن قيمة الجنيه، مع العملات الصعبة الأخرى مثل العملات الدولية، والاعتماد كذلك على الاحتياطى من المستعمرات والحفاظ على القيمة النقدية للجنيه الإسترليني.

كانت السياسات الحكومية تهدف إلى الخروج من هذه الأزمة والحفاظ على الاقتصاد، ثم العمل على رفع الاقتصاد الذى ظل هشا، وفى عام ١٩٣٧ فإن العجز التجارى بلغ ٣٠٢ مليون جنيه إسترلينى، والذى انخفض إلى ٧٠ مليوناً بفضل العوائد غير المعروفة، وإن المقارنة تشير أيضا إلى رقابة الدولة على الاقتصاديات والاستثمارات، وذلك من خلال الرقابة البريطانية على نصيبها فى مجال الإنتاج الصناعى الدولى.

النسبة المئوية من التصنيع العالمى:

الدولة	١٩٢٩	١٩٣٢	١٩٣٧	١٩٣٨
الولايات المتحدة	٤٣,٤	٣١,٨	٣٥,٠١	٢٨,٧٢
روسيا	٥,٠	١١,٥	١٤,١	١٧,٦
ألمانيا	١١,١	١٠,٦	١١,٤	١٣,٢
بريطانيا	٩,٤	١٠,٦	٩,٤	٩,٢
فرنسا	٦,٦	٦,٩	٤,٥	٤,٥
اليابان	٢,٥	٣,٥	٣,٥	٣,٨
إيطاليا	٣,٣	٣,١	٢,٧	٢٨

بخلاف الظروف التى أحاطت بهذا الكساد الدولى فإن وضع بريطانيا أصبح أضعف مما توحى التقديرات، وطوال هذه الفترة فإن الحكومات البريطانية المتتالية كانت تتردد فى تطبيق السياسات الوقائية التى تشير إلى انحلال صناعة الطائرات، كما أن المصدرين الإنجليز أهملوا الطرق الصحيحة فى البيع والتعبئة والإعلان. وفى عام ١٩٢١- وبشكل افتراضي- لم يكن أى من رجال الأعمال البريطانيين يولى اهتماما لسوق الملايو المتنامى والمتوسع[١٥]، وبعد فترة انتعاش المطاط أثناء الحرب صدرت الملايو سلعا بمبلغ مائة مليون جنيه إسترلينى سنويًا تقريبا، وردت منها بريطانيا ١/١٦، وكان أبرز السلع المصدرة من السلع الحديثة، وقد جاءت جميع سيارات الملايو تقريبا من أمريكا، أما دول غرب أفريقيا فكانت تشترى شاحنات ثقيلة من فورد بدلا من شاحنات أوسطن؛ بحيث كان إجمالى عدد الشاحنات البريطانية عام ١٩٢٦ فى ساحل الذهب عام ١٩٣٨من أصل ٢٤٠٠ شاحنة[١٦]: كما أن ٩٣ % من منتجات القطن المبيعة فى شرق أفريقيا عام ١٩٣٨ كانت تأتى من المصانع اليابانية[١٧]. إضافة لما تقدم؛ فإن رأس المال للمنظمات الإمبريالية الجديدة، مثل مناجم النحاس فى روديسيا الشمالية أو آبار النفط فى الخليج الفارسى، كان أمريكيا بشكل كبير.

كان شعب الملايو يقود السيارات من أولد موبيل، وكانت الشاحنات من ماركة فورد تسير فى شوارع أكرا، بينما كانت النساء ترتدى الملابس القطنية من أوزاكا، ورجال المال فى نيويورك كانوا يحصلون على المال فى المناجم فى سيسيل رودس، والمصانع المختلفة كانت تعمل على صناعة السفن إلى جانب المؤشرات التى توضح لنا انخفاض مستوى الأداء الاقتصادى البريطانى خلال هذه الفترة.

ويترتب على ذلك زوال الهيبة البريطانية وارتكاز بعض المقاييس من أجل توجيه قدرات الأمة من الناحية الاقتصادية، وهي التي تؤكد أيضًا توجيه الفائض نحو صناعة الأسلحة، حيث إن الإحصائيات البريطانية تشير إلى إنتاج ٣٩,٧ من الطائرات، بينما روسيا كانت تنتج ١٠٨٢ من الطائرات المنخفضة الجودة، وألمانيا تنتج ٨٥٩٥، وفرنسا ٤٦٧٧، إن بقاء بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية كان يعتمد على إنتاج السلاح وشراء السلع من الخارج بما يعادل سعرها قبل الحرب العالمية الأولى، كما أن انخفاض قيمة الاستثمارات الخارجية، والميزان التجارى الذى كان يواجه العديد من الصعوبات التجارية، وإن الهيبة البريطانية كانت تعتمد كثيرًا على السلاح خاصة فى حالات الطوارئ، حيث إن الحكومة كانت تتردد عند التوقيع على الشيكات حيث إن النظرية هذه الحقيقة تشير إلى حرية بريطانيا فى اتخاذ الفعل؛ حيث إن دبلوماسيا- ألسكندر كادوجان- قد أخبر بحارا- الأدميرال لورد تشاتفيلد- خلال أزمة الصين عام ١٩٣٧ أنه "لا جدوى من الصراخ الغاضب ما لم نكن متيقنين من قدرتنا على تنفيذ تهديداتنا"[١٨]. عندما أعلن عن هذه الأوضاع قبل ١٩٣٥، حيث إن حكام بريطانيا لم يتوقعوا تكرار الجهود الخارقة بين (١٩١٤- ١٩١٨) عندما كان لديهم النفوذ فى ظل الاستقلال الدولى والأمن من خلال عصبة الأمم المتحدة، والتوقيع على الاتفاقيات خلال العشرينيات، إلى جانب الأمن والأمان والنظام العالمى الجديد الذى ساعد على حماية الإمبراطورية واستمرارها، إلى جانب السياسات التى كانت تتبع مبادئ عصبة الأمم المتحدة.

قد أعلنت عصبة الأمم عن التفاؤل، عندما تمكنت من إقناع الدول الأعضاء حول أهمية الألفية الجديدة فى الفترة بين (١٩٣٣ - ١٩٣٦) مع وجود الأمن والأمان الذين كانا على وشك الانهيار؛ حيث إن القطاعات العديدة

من الطبقة الجديدة والطرق المختلفة المتبعة منهم فى التصدى إلـى الملـك والأمة واتباع نفس الخطوات المعروفة فى برلين وروما وطوكيو من أجـل الحفاظ على السلام الدولي؛ وبحيث إن الحكومة الإنجليزية كـان عليهـا أن تستعيد أوضاعها بعد الحرب العالمية الثانية.

لم تتمكن بريطانيا من أن تتجاهل أهمية الدومنيون المختلفة فى أنحـاء هذه الإمبراطورية، بعد توقيع بريطانيا على اتفاقية عصبة الأمم مـن أجـل تحقيق السلام الدولى، وأن بريطانيا قد التمست المعونة من الدول الأخـرى خلال مواجهة شاناك عام ١٩٢٢، حيث إن أستراليا قد أشارت أن ذلك يعود إلى رأى العصبة، بينما حذر ستانلى بروس - الذى كـان يمثـل أسـتراليا فى العصبة- بريطانيا من أنه "لا يمكننا أن نغض الطـرف ونخـضع لأى سياسة من الممكن أن تورطنا فى حرب"[١٩] عن عدم الالتزام بسياسة واحدة فى سنوات الحرب ووجود العديد من الصعوبات والمشكلات فـى جنـوب أفريقيا وكندا وأستراليا فى حزب العمال خلال الأزمة الأوربية عام ١٩٣٨، حيث إن بريطانيا لم تتمكن من الحفاظ على المستعمرات البعيدة من خـلال دعم السياسات الأوربية.

كان الأمن الدولى يهدف إلى نزع السلاح، وإن الفتـرة بـين ١٩٢٠ و١٩٣٢ كانت تشهد تعاقب الحكومات البريطانية، وكذلك الميزانيات الموجهة إلى الدفاع على مدى عشر سنوات من الحرب الأوربية والتـوازن الجديـد فى القوى فى الشرق الأقصى فى بداية ١٩٢٢، بعد رفض بريطانيا تجديـد التحالف مع اليابان، والرغبة فى التعاون مع الولايات المتحـدة وأسـتراليا، إلى جانب القيود على حجم هذه القوى والأساطيل التابعة لهـا مـن خـلال المعاهدة البحرية فى واشنطن التى تهدف إلى تقدير النفوذ البحـرى حـسب النسب التالية.

بريطانيا والولايات المتحدة خمس مقاتلات

اليابان ثلاث مقاتلات

فرنسا وإيطاليا ستة آلاف وستمائة وإحدى مقاتلة

نفس هذه النسب يمكن أن تسرى على حاملات الطائرات والبوارج الحربية فى الثلاثينيات مع عدم وجود القيود على الغواصات، وقد أعلنت اليابان عن الاتفاقية الدولية التى جعلتها تأتى فى مرتبة متدنية نظرًا إلى رفض بريطانيا الذى جاء فى مصلحة الأمريكان، وكذلك الاتفاقيات العديدة من جانب البحرية اليابانية التى لها العديد من السفن فى بحر الصين وغرب المحيط الهادى، وفى عام ١٩١٩ فإن الأدميرال جيليكو عاد من أستراليا ونيوزيلاند وأشار إلى بعض التقديرات عن الجيش والبحرية والقوات الجوية اليابانية، والجيش والقوات الجوية فى جنوب شرق آسيا والملايو وجزر الهند الشرقية، وكذلك الجزر فى غرب المحيط الهادى، وكان زميله بيتى الذى صار الآن البحّار الأول يدرك مجال الطموح اليابانى.

أشار لورد سالزبورى إلى الخرائط العديدة التى تشير إلى هذه الأنشطة الخطرة، وكذلك المسئولين عن وضع هذه الخطط الإمبريالية والروايات المخيفة عن أعداء الإمبراطورية، وكذلك عن التوسع اليابانى المحاط بالشكل فى بعض الأنحاء، حيث إن تشرشل والعديد من المسئولين كانوا على ثقة من عجز اليابان من الناحية المادية والفكرية عن إقامة هذه الحملة والغزو؛ وذلك نظرا إلى الاحتقار العنصرى لليابانيين من جانب الحكومات البريطانية والأمريكية خلال العشرينيات والثلاثينيات[٢٠] والأحداث التى جرت خلال الحرب اليابانية الروسية إلى جانب المسئولين الذين أشاروا إلى الجيوش الآسيوية التى كانت تضم أعدادًا صغيرة من الأوربيين، وهو الذى يتضح من الملحوظة المعلنة عام ١٩٣٤ من الملحق البحرى البريطانى فى طوكيو[٢١].

الإنجليز كانوا يشعرون أنهم متفوقون عنصريًا عن اليابانيين، وكانوا لا يميلون إلى اتخاذ القرارات والمخاطر مع الحلفاء السابقين، وفى يونيه ٢٧ فإن مجلس رئاسة الوزراء كان يخشى على الوضع الأمنى، ولذلك تعهد بأن يقيم القاعدة البحرية الضخمة فى جزيرة سنغافورة، التى سوف تؤدى إلى زعزعة توازن القوى فى الشرق الأقصى لصالح بريطانيا.

كان هذا الفكر يمثل من أهم القرارات الحاسمة فى تاريخ الإمبراطورية، على الرغم من اعتلال هذا القرار فإن الفكر الإستراتيجى من وراء سنغافورة التى تنتمى إلى العصر الحديث فى القرن الثامن عشر وتصميم هذه القاعدة على غرار مضيق جبل طارق، بحيث إنها تمثل القلعة الحصينة المستخدمة فى قصف الأسلحة الثقيلة على الممر بين المحيط الهندى والهادى ومن الناحية النظرية فإن هذه القاعدة كان لا بد أن تؤدى نفس وظيفة مضيق جبل طارق خلال الحروب الفرنسية، وذلك من أجل الحفاظ على الهيمنة البريطانية فى المياه البعيدة، فإذا كان اليابانيون سوف يزحفون إلى الجنوب فإن هذا المسار سوف يواجه العقبة فى سنغافورة، كما أن الأسطول الحربى البريطانى سوف يتجمع فى المياه الإقليمية، ولكن على الرغم من بعض الظروف الجوية السلبية والنشاط فى قناة السويس فإن هذه القاعدة الحقيقية سوف تمتد إلى سنغافورة بعد سبعين يومًا من بناء القاعدة المستخدمة من أجل تمويل البحرية اليابانية، وهو الذى يوضح لنا القوى البريطانية البحرية فى إقليم البحر الأبيض عند نهاية الحرب الأمريكية.

مع شئ من الحظ فإن هذه الإستراتيجية يمكن أن تنجح حتى إذا كانت سنغافورة جديرة، ولم يكن كذلك بهذه المهمة، ويعود الفضل إلى اقتصاديات وزارة المالية البريطانية، وكانت تكلفة التركيبات التى بلغت ٥,١٦ ملايين إسترلينى، وتسعة ملايين من أجل الوقود الذى كان سيتم تخزينه فى القاعدة،

وكان هذا هو كل ما جرؤت قيادة البحرية على طلبه من وزارة مالية لـديها عجز فى النقدية وكانت حريصة على التوفير[٢٢]. ونتيجة لهذا؛ كانت مبانى المرفأ صغيرة جدا عما يتطلبه الأمر لأسطول يمكنه أن يهـزم اليابـانيين. وعلى الرغم من هذا بدأ التشييد فى بداية ١٩٢٣ واستمر أربعة عشر عاما، وفى هذه الأثناء زاد قلق الأستراليين والنيوزيلنديين– الذين كانت سـنغافورة خط دفاعهم الأول والوحيد– بشأن أهمية الإستراتيجية التـى كـان حجـر الأساس لها وصلاحيتها، وشاركهم الشك كبار ضباط البحرية الـذين كـانوا يخدمون فى الشرق الأقصى[٢٣].

فى حالة الصدام مع اليابان فإن بريطانيا ونفوذها فى الشرق الأقـصى والذى يعتمد على ناقلات الطائرات وعدد من البوارج والمدافع الثقيلـة مـن خلال هذه القاعدة التى تمتد إلى ٣٠٠٠ ميل من طوكيو، وكذلك تمتـد إلـى ١٠٠٠٠ ميل من الجانب الآخر من العالم، وبحيث لم يكن غريبًا أن الحكومة البريطانية كانت تستمر فى الجهود حتى تتمكن من العودة إلـى الاتفاقيـات القديمة مع اليابان، وفى نوفمبر ١٩٣٤ فإن بريطانيا كانت تلتزم بسياسة عدم الاعتداء على اليابان، على الرغم من نفوذ اليابان على الصين، ولكن اليابان لم تعلن عن الاهتمام فى نهاية ذلك العام عندما انسحبت من المباحثات حول نزع السلاح البحرى، حيث إن اليابان لم ترغب فى الخضوع إلى النظام الذى أعلن عنه الأدميرال إيزوروكو من أجل الهجوم على بيرل هاربر؛ حيث إن المعاهدات البحرية المختلفة قد انتهت مع عام ١٩٣٦ بينما فى يناير ١٩٣٤ فإن الحكومة اليابانية قد أعلنت أن الوقت أصبح مناسبا من أجل بناء الـسفن الحربية المطلوبة.

تعود السياسة اليابانية الحربية إلى رغبة الحكومة اليابانية فى الاعتماد على قرارات الضباط والمسئولين والاعتماد على القوانين القديمة فى العهـد

الإمبريالي؛ حيث إن الإمبراطور هيرو هيتو قد وعد برفع الاقتصاد اليابانى القومى من خلال الغزوات المختلفة؛ كي تتمكن اليابان من حماية نفسها من الفساد الاقتصادى والحصول على المواد الخام والأسواق من خلال البرنامج المصمم من أجل تحقيق التبعية الاقتصادية من الصين على اليابان، بينما الفترة بين (١٩٢٩ - ١٩٣٢) فإن اليابان كانت قد غزت مانشوريا وحصلت على العديد من المعادن من أجل المزيد من الغزوات فى جنوب الصين.

كان توازن القوى فى الشرق الأوسط يميل ضد بريطانيا، حيث كانت البحرية تأمل فى تصحيح الأوضاع من خلال الاعتماد على رجال الحرب عام ١٩٣٤ مع اتخاذ أعضاء الحكومة المركزية عام ١٩٣١، وذلك من أجل تحقيق الموازنة فى الميزانية العامة وقد أعلن تشامبرلين وزير المالية البريطانى عن الاعتقاد فى الحكمة القديمة حول النفوذ الاقتصادى البريطانى الذى يمثل السلاح الأقوى فى الحروب المستقبلية، وإن الدم الإمبريالى يجرى فى عروق تشامبرلين ووالده جوزيف الذى نجح فى استمرار هذه الإمبراطورية من خلال استمرار جهود الابن، وبحيث إنه لم تكن أمة أخرى خلال هذه الفترة تعادل الإمبراطورية البريطانية.

فى النصف الأول من عام ١٩٣٤ فإن تشامبرلين وأتباعه كانوا يواجهون المشكلة فى تحقيق الموازنة فى السجلات الاقتصادية والمالية فى الدولة وحماية الإمبراطورية من العودة لقانون الغابة، بينما فى فبراير أعلن عن البيان الذى يشير إلى لجنة الدفاع، والتى أعلنت عن اليابان أنها تمثل الخطر على الإمبراطورية، وأشار أيضًا إلى الخوف من ألمانيا على المدى البعيد التى تمثل العدو اللدود؛ حيث إن تشامبرلين هو الذى تنبأ بالغزو اليابانى، وعند حصول هتلر على السلطة فإنه أشار إلى انهيار الأمن العالمى، بينما كانت بريطانيا تعمل على توجيه الميزانية النقدية إلى التسلح وتشامبرلين كان يهدف إلى الدفاع القومى.

تلك كانت الاستجابة التقليدية إلى هذه المشكلة القديمة، وعلى مدى القرنين الماضيين فإن الحكومات كانت تدرك أن بقاء الإمبراطورية يعتمد كثيرًا على القاعدة المحلية وأن تشامبرلين الذى يمثُل أحد أعضاء مجلس رئاسة الوزراء كان يعتمد على برنامج التسلح الضخم من خلال مشاريع الدفاع البريطانى وكذلك العمليات الاستثمارية خارج الإمبراطورية.

فإذا كان علينا أن ندخل فى صراع ضد ألمانيا وعداء مع اليابان فى الشرق فإن علينا أن نستجمع القوى والجيوش من أجل حماية المصالح البريطانية فى الشرق الأقصى، وكذلك تمويل مصاريف الحرب فى أوربا والهند وهونج كونج وأستراليا، إلى جانب التعامل مع الخطر الأكبر من الجيش الألمانى المنظم والمسلح.

تلك كانت المعضلة الإستراتيجية القديمة، وكيف تتمكن بريطانيا من الدفاع عن الأراضى الداخلية والخارجية فى أوقات الحرب، إلى جانب انتشار السفن والمحاربين، وعام ١٩٣٤ من خلال الحرب الأوربية التى اعتمدت كثيرًا على القصف الجوى من الطرفين؛ حيث إن لندن كانت تعانى من الغارات فى عام ١٩١٧ و ١٩١٨ السلاح الجوى (RFA) كان على استعداد للهجوم على برلين، وإن التطور فى صناعة الطائرات والأسلحة الكيميائية فى زمن الحرب يشير إلى الغزو البريطانى على النطاق الواسع وارتفاع عدد الضحايا والقتلى من اضطرابات النظام المدنى فى المدن المهمة؛ وبحيث إن الدراسة لهذه الفترة تشير إلى الحرب الأهلية الإسبانية، عندما كان السلاح الجوى يضرب غرناطة وبرشلونة خلال ١٩٣٧، ١٩٣٨ وهو الذى يمثل تكرارًا للحرب الأخيرة التى اعتمدت على الحكمة العسكرية فى أن بريطانيا سوف تنتفع كثيرًا من التسلح ومن الموارد البشرية فى الحروب الأوربية.

تشير هذه الأفكار كذلك إلى المهام المطلوبة من الحكومة البريطانية والمثاليات التى أعلنت عنها عصبة الأمم المتحدة من أجل السلام الدولى وكذلك سياسة الأخذ والعطاء قبل عام ١٩١٤، والتوعية العامة خاصة إلى حزب اليسار الذى يؤمن بنفس هذه المبادئ.

فى عام تم تأكيد فاعلية عصبة الأمم والتى تشير إلى ضعف الدفاع عن الإمبراطورية وأن موسولينى قبل أن يحصل على السلطة عام ١٩٩٢ كان يشير إلى الآراء الفاشية؛ يجب الانتقام من معركة عدوه، وفى نهاية ١٩٣٤ كان على استعداد للهجوم على إثيوبيا، ويتضح ذلك من الأحداث المتتالية وحادثة الحدود التى تشير إلى الشجار مع الإمبراطورية الحبشية، وفى يوليو ١٩٣٥ فإن إيطاليا كانت تتجاهل شروط عصبة الأمم المتحدة من الاعتداء على الدول المجاورة، وإن الحظر البحرى على إيطاليا أدى إلى التزام بريطانيا بدعم السفن الحربية، بينما فرنسا لم تكن على استعداد فى هذا المجال، وكان الأسطول فى البحر الأبيض يحتاج ثمانية أسابيع من الاستعداد الفجائى للدخول فى الحرب.

تشير الأنشطة المختلفة من أجل دعم الأساطيل فى البحر الأبيض وسواحل الصين والمحيط الهادى والمحيط الهندى إلى مهارة الأدميرال فى التعامل مع المخططين فى اليابان، من أجل التوصل إلى الخلاصة العامة وإرغام بريطانيا على الحرب ضد إيطاليا فى إقليم البحر الأبيض، على الرغم من قلة السفن فى المواقع البحرية فى الشرق الأقصى، وقد قال تشاتفيلد "لقد أصبح وتر الدفاع الإمبريالى مشدودا ومتوترا، فقد أصبحت إيطاليا بعوضة كبيرة يمكن لوزنها أن يقسمها لشطرين"[٢٤]، والأسوأ من هذا أن قناة السويس كانت تمثل الموقع الإستراتيجى المتنازع عليه، بما أن إيطاليا كان عليها أن تمول الحامية فى ليبيا من عشرين ألفا حتى خمسين ألف جندى،

وهو ما يمثل عشرة أضعاف عدد القوات البريطانية فى مصر، وأن توقعات هذا الرجل، كانت صحيحة وتميل إلى التشاؤم والاستعداد من أجل تدهور الأحوال وإن السابقين عَلى الأدميرال كانوا يواجهون نفس الصعوبات عام (١٧٩٧، ٩٨) نظرًا إلى سوء الحظ والاستعداد للمخاطرة وغياب الزعماء الإنجليز الأكفاء فى الثلاثينيات واستبعاد دور الناخبين فى هذه السياسات الخطرة التى أدت إلى الحرب العالمية.

وعلى عكس الأوضاع فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر- فإن الحكام الإنجليز كانوا يعتمدون على المثاليات العليا نحو التعاون بين الدول على السلام العالمى وحركات الانتخابات والسياسات السلمية مع الدول الأخرى، ويتضح ذلك من حركات الإضراب فى الدانمارك ضد البحرية الإيطالية والتى أنقذت الإمبراطورية البريطانية ومنعت موسيلينى وهتلر من الزحف، وإن الأوضاع خلال هذه الحقبة تشير إلى أفكار الزعماء المختلفين نظرًا إلى الضعف الإستراتيجى للإمبراطورية البريطانية التى كانت فى الطريق نحو الانحلال والزوال.

مع الدور الفاعل لبريطانيا، فإن إيطاليا تمكنت من غزو الحبشة فى شهر أكتوبر، وبعد شهر ونصف الشهر أعلنت الأمم المتحدة عن البرنامج الخاص لتوقيع العقوبات الدولية الذى مهد الطريق إلى الاعتداء على قناة السويس، ونزاع الدول على البترول الذى يمثل الوقود من أجل السفن الحربية التى تدخل إلى بورسعيد، مع وجود البحارة الإيطاليين والإنجليز؛ حيث إن بريطانيا كانت تسعى إلى الرقابة على البحر الأبيض، وفى ديسمبر أعلن صموئيل هور وزير الخارجية ونظيره الفرنسى بيير الإعراض عن السياسة الخاصة التى أتاحت لإيطاليا الحصول على ثلثى الحبشة أو إثيوبيا الحديثة، إلى جانب الغضب العام من مجموعات اليسار وقوات حفظ السلام وإعادة

المفاوضات مع عصبة الأمم المتحدة من أجل الاعتماد على الدبلوماسية المعروفة قبل عام ١٩٤١ من الاحتياط من الدول التى تمثل القوى العظمى.

من هذه الأحداث؛ فإن هتلر تمكن من إعادة غزو الدول المجاورة لألمانيا مثل النمسا، وبعد شهرين زحف الجيش الإيطالى زحف إلى أديس أبابا فى الحبشة، وفى أقل من تسعة أشهر تمكنت إيطاليا من الاستيلاء على جميع أنحاء الحبشة، بينما تنازلت ألمانيا عن أملاكها فى فيرساى الفرنسية، بينما النبلاء الإنجليز مثل تشامبرلين وجدوا أنفسهم وحدهم فى الدفاع عن المصالح الخاصة بعد تخلى بريطانيا عنهم، بينما كانت ألمانيا على الواجب الأدبى فى الحفاظ على حدود هذه الدول؛ حيث إن إيطاليا قد توسعت كثيرًا فى أقل من عشرين عامًا، مع وجود المستوطنين فى كينيا الذين طلبوا من الإنجليز السيطرة على الحبشة.

تشامبرلين الذى تولى الحكم بعد والده المسن كان على استعداد إلى التقسيم الغريب لقارة أفريقيا وإعادة الاستقرار فى أوربا، بينما تمكنت إيطاليا من غزو الحبشة بالكامل، والرعايا الأفارقة فى الإمبراطورية البريطانية كانوا يشهدون النفوذ البريطانى على الحبشة، بينما الرعايا من نيجيريا كانوا يرون سلوك بريطانيا على أنه دليل على النفوذ العريض، إلى جانب القوميين من السود الذين اختلفوا مع بريطانيا حول إرسال القوات من أجل حماية اليهود فى فلسطين والتخلى عن الحبشة البعيدة، وذلك من أجل تحويل فلسطين إلى قاعدة لليهود فى الشرق، وإن المستعمرات الأفريقية التابعة إلى بريطانيا كانت تمثل جزءًا من المساومة مع ألمانيا من أجل الحفاظ على الرعايا والأملاك البعيدة، وذلك من خلال التفاوض بين الدول حول تقسيم الدول الضعيفة، بينما الأحداث خلال عام ١٩٣٥ تشير إلى انحصار الهيبة البريطانية.

كانت التعزيزات لأسطول البحر المتوسط، والعداء المصاحب حـول العقوبات قد حول إيطاليا وهى صديق فى السبعين عاما الماضية إلى عـدو، وأظهرت لليابان أن اللحظة التى انشغلت فيها بريطانيا بالصراع الأوربـى، فإن توابعها فى الشرق الأقصى صارت بلا دفاعات.

(٩)

الإمبراطورية تتحول إلى الحرب

(١٩٣٧ – ١٩٣٩)

أصبح نيفيل تشامبرلين نائب رئيس الوزراء في مـــايو ١٩٣٧، وهـــو المنصب الذى ظل يعمل فيه لسنوات طويلة نظرًا إلى طموحاته العديدة فـــى الحصول على السلطة والنفوذ كما كان عليه أن يؤدى إحدى المهام الخاصـــة نظرًا أنه قادر وحده على إنقاذ، الإمبرطورية وبريطانيا من هـــذه الورطـــة، والاحتمالات العديدة التى تشير إلى قيام الحرب الأوربية؛ حيث أصبح المنقذ القومى واكتسب سمعته فى مجال الإصلاح الاجتماعى، ولكنه لم يكن محنكًا فى مجال الدبلوماسية كما كان يحيط نفسه دائمًا بعشرة من الحـــراس ولكـــن كانت لديه بعض المواهب، ومع ذلك فإن الأمور لم تكن كما كان يريد، بينما كان أنتونى إيدن يميل إليه[١].

كان تشامبرلين يكشف فى العديد من المواقف عن الظلـــم والتحامـــل، ويتضح ذلك من احتقاره للأمريكان وما كان يتضح فى كلامه مـــن بغـــض للروس[٢]. وكوافد جديد على المفاوضات العالمية؛ افترض أنها ستكون مـــن النوع المألوف بالنسبة له كما هـــى الحـــال بـــين المـــديرين والمرؤوســـين الإنجليز[٣]. وأن ذلك لم يكن يوعد بشئ، كما يتضح من المقارنة ما يكـــشف عن حسن النية، والطبيعى من أجل حل الوسط العادل، ومع ذلك فإن تشامبرلين كانت لديه الثقة فى مهاراته المختلفة، كما كان لديه اعتقاد راسخ فـــى أنـــه يهدف إلى تحقيق مصالح بريطانيا من خلال العودة إلى الأسلوب القديم.

المتبع فى التعامل مع السياسة الخارجية ومبدأ الأخذ والعطاء بين القوة العظمي؛ فإن هؤلاء المتفقين والمعارضين، وكان هناك دور بارز في علاقات بريطانيا والدول الأخرى خلال القرن الثاني عشر، والثالث عشر حيث كانت بريطانيا تتنازل عن بعض الأراضي من أجل تخفيف التوتر بين الدول الأوربية وتحقيق التوازن بين القوى العظمى، ومن أجل تحقيق هذا الهدف فإن بريطانيا كانت على استعداد للجلاء عن مالطا عام ١٨٠٢، والسماح للنمسا فى أن تحكم شمال إيطاليا وبولندا الروسية، وأن هذه الترتيبات أدت إلى تركيز اهتمام بريطانيا على الموارد المختلفة من أجل تحقيق مصالح بريطانيا عبر البحار، والتى كانت مهددة عام ١٩٣٧، والتى كان من الممكن إنقاذها بإعادة الاستقرار فى الأوضاع فى أوربا.

كان السعى إلى تهدئة الأوضاع يمثل الهدف العام لدى العديد من الدول الأوربية خاصة الدول الفقيرة والضعيفة التى كانت مجبرة على استقبال الحكام الأجانب حيث يمثل مخالفة لمبدأ حق تقرير المصير، كما أن تهدئة الأوضاع كان يمثل الهدف القريب، الذى يمكن أن يحقق الأمن والأمان ويعود إلى الأسلوب القديم فى الحكم، وأن هذا الأمر يتطلب الاعتماد على الدبلوماسية الخاصة فى التوفيق بين مصالح الدول ومواقفها وإعادة المباحثات مع موسلينى، وبحيث تحتفظ بريطانيا بالحق فى مصالحها التوسعية[٤].

كان الحزب اليسارى يعتمد على العودة إلى الأساليب القديمة وتحقيق مثاليات المبالاة والتخلص من الأعداء السياسيين لتشامبرلين، وكذلك القضاء على المذنبين، وبحيث إن الأسلوب المتبع فى سرد هذه الأحداث من الصحف المعاصرة هو الذى يشير إلى أعمال الدعاية والإعلان على مصالح الدول المختلفة، وبحيث تحولت إلى أداة من أجل الرأسمالية فى ظل العولمة، إلى جانب الحزب الجمهورى والإسبانى والتشيكى، والذى قضت عليه الفاشية التى كانت على وشك أن تطيح بالاتحاد السوفيتى والشيوعية.

كانت الحكومة المحافظة تعتمد أيضًا على هذا الاتجاه الرأسمالى الذى كان يمثل الهدف الوحيد من السياسة الأجنبية المتبعة من تشامبرلين، كما يتضح من الكتاب الصادر عن الحزب اليسارى والذى يحمل عنوان "الطريق إلى الحرب" عام ١٩٣٧ وسطوة اليابان على منشوريا والصين من أجل تحقيق نفس هذه الأهداف نظرًا إلى الاعتقاد العام فى وجود بعض المخاطر البسيطة من اندلاع الحرب ومن إعادة الفاقد من الخسائر من الاستثمارات التجارية، التى كانت تشمل الثورة الاجتماعية فى اليابان والاتجاه العام من الصحافة القومية التى كانت تمثل أداة فى يد الحزب المحافظ أو حزب المحافظين[٥].

والتى تشير إلى إحباط الطموحات من جانب الطبقة العاملة، وآراء النقاد فى الصحف المختلفة، كما يتضح أيضًا من الحزب العمالى الأسترالى الذى كان فى شك من تأييد تشامبرلين للفاشية[٦].

إن الحكام الذين كانوا يميلون إلى سياسة الموالاة والاستمالة لم يفكروا فى صراع المثاليات الجديدة، وهو الذى لم يوصل إلى الخير المنتظر؛ بحيث إن الكاتب لا يرى كيف يمكننا الدفاع عن هذه المصالح نظرًا إلى العدد الكبير من الأطراف المتنازعة، كما أن الأفكار المختلفة من ألسكندر كالوجان عام ١٩٣٧[٧]. تشير أن تشامبرلين لم يكن يسعى إلى تهدئة الأوضاع على المدى الطويل، والمخاطر العديدة على الأمن العام فى بريطانيا، بينما كان هتلر يخشى من تدهور الأوضاع؛ نظرًا لأنه كان معزولاً ولم يكن له حلفاء من الدول، بينما تشامبرلين كان عليه أن يعيد العلاقات الودية مع بريطانيا، مع الموقف المحايد من هتلر والموقف المؤيد من موسولينى؛ بحيث إن بريطانيا تحولت إلى الاهتمام بالشرق الأقصى واليابان.

كانت محاولات تشامبرلين من أجل استقرار الأوضاع فى أوربا تتلازم مع البرنامج الإيطالى مع وجود العديد من الأولويات البريطانية التى

قد حصلت على القبول العام فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وبحيث إن الدفاع الداخلى والقومى كانت له الأولوية الأولى، والذى كان يحصل على النصيب الأكبر من الميزانية القومية، على الرغم من الأهداف على المدى المتوسط والبعيد التى تتناقض مع الأهداف الصناعية فى ألمانيا، وفى سبتمبر ١٩٣٩ مع استمرار هذا البرنامج ثلاث سنوات، والاستعداد العام من القوات المسلحة من أجل التدخل فى هذه الأمور مع وجود ألفين من الطائرات المقاتلة و٤٢٥ من الطائرات الأخرى فى الشرق الأوسط والهند والملايو. وخلال السنوات الخمس السابقة فإن صناعة القرار البريطانى كان يعكس الخوف العام من القوات الجوية الألمانية، وعند اندلاع الحرب التى تم الإعلان عنها رسميًا كانت ألمانيا لديها ٢٠٠٠ من الطائرات المقاتلة و ١١٨٠ من الطائرات الأخرى.

وبحيث إن الحكومة كان لديها اليقين بالإعلان عن هذه اللحظة المواتية للحرب، والاعتماد على القوات الجوية الضاربة لدى هتلر، والتى يمكن استخدامها فى قصف المدن البريطانية، إلى جانب الاعتماد على نشر الغازات السامة من هذه الطائرات والاستعداد العام فى المستشفيات داخل لندن؛ وذلك من أجل علاج الجرحى خلال الأزمة التشيكية فى سبتمبر ١٩٣٨ وأن هذه الاستعدادات من أجل الحرب العامة أدت إلى تشتيت الأزمات القومية وشيوع الرهبة العامة لدى أفراد الشعب عند عودة تشامبرلين من ميونيخ حيث كان يسعى إلى إحلال السلام العام.

كانت الأولوية الثانية والثالثة لدى بريطانيا تتمثل فى حماية المسارات البحرية والدفاع عن الإمبراطورية، وهى السياسة التى أوصى بها العديد من الدول، ولكن نظرًا إلى العديد من الأسباب السياسية والنفسية فإن تشامبرلين كان عليه أن يواجه القوة الضاربة على الحدود بين فرنسا وبلجيكا، والسعى

نحو تكوين الجيش القومى أدى إلى إحباط الفرنسيين من مد خط ماجينو من الحدود الشمالية فى بلجيكا، وحتى قناة المانش التـــى تمثـــل الـــلازم علـــي بريطانيا، والدخول فى الحرب الدموية مع هولندا، ويفيد ذلك؛ فإن هذا الجيش كان يتطلب الميزانية الضخمة ولم يكن على استعداد لهذه الحرب الأوربيـــة بينما فى فبراير ١٩٣٩ فإن تشامبرلين وافق بعد التردد على إرسال الحملـــة الخاصة إلى هذه الأراضى، التى قد فشلت فى الفترة بين ١٩١٤-١٩١٨.

منذ أكتوبر ١٩٣٥ فإن المخابرات العسكرية البريطانية بعد تطـــورات الموقف وبعد تقوية الجيش الألمـــانى والاعتمـــاد علـــى ســـلاح الـــدبابات والنظريات الجديدة التى تحض على التعاون الكبير بين الدبابات والطـــائرات فيما يسمى "بالبليتسكريك" بحيث إن الجيش الألمانى كان عليه أن يتعامل مع المركبات المدرعة والمسلحة، بينما الجيش البريطانى لم يكـــن علـــى نفـــس المستوى[٨]، حيث إن بريطانيا لم تكن قوية فى مجال الدبابات نظـــرًا إلـــى نقص الموارد المالية والتقسيم بين المركبات والمدرعات، والتى لم تكن على استعداد من أجل الانتشار فى الحرب مع فرنسا فى مايو ١٩٤٠، بينما اشتد الطلب على الأسلحة المضادة للطائرات والصواريخ خـــلال هـــذه الفتـــرة، ويشمل ذلك أيضًا الأسلحة المضادة للدبابات قبـــل عـــام ١٩٤٢ أو الحـــرب العالمية الأولى.

نفوذ بريطانيا على مائدة الحوار مع المسئولين فى الـــدول الأوربيـــة الأخرى وكذلك الدول المسلحة جيدًا يعتمد على الدعم من الإمبراطورية وهو الذى يمثل الأولوية الخاصة عام ١٩٣١، نظرًا إلى أغلبية التعداد الأبيض فى بريطانيا، بينما دول الكومنولث نجحت فى تخصيص سبعة وســـتين مليـــون جنيه إسترلينى، حيث كان تسعة عشر منها من أجل هذه القوات والفترة فـــى عام ١٩١٤، حيث كانت بريطانيا تحتاج إلى تأييد الحكومات المختلفة التـــى انتظمت إلى بعضها، والتى كانت تقدم إليها الأســـلحة والطـــائرات والـــسفن

وبحيث كان لزامًا على هذه الحكومات أن توضح الهدف من السياسة الأجنبية ومن الخطة المتبعة في الحرب كما يتضح من المؤتمر الدولي في بداية ١٩٣٧ الذى كان يسعى إلى تقدير وضع بريطانيا والحقيقية التى تشير إلى احتمالات هزيمة بريطانيا فى هذه الحرب نظرًا إلى القوة العسكرية والسياسية والمالية التى قد تدهورت فى المملكة المتحدة(٩). ومنذ إعلان إدوارد جراى منذ عشرين سنة انعزال العديد من المقاطعات البريطانية وعجزها عن الدفاع عن نفسها، بينما كانت ألمانيا تمثل العدو المفترض وبريطانيا كانت مسئولة عن حماية الدول الصغيرة، بينما كانت فرنسا تتوقع المساعدة منها.

انتشرت القوات الهندية خارج أوربا والتى فى مصر والشرق الأوسط إلى جانب إيطاليا التى انسحبت من الأراضى التى حصلت عليها لصالح ألمانيا بينما سنغافورة كانت تمثل محور الدفاع عن الشرق الأقصى واليابان التى كانت تسعى إلى الحصول على المواد الخام من غرب المحيط الهادى من شرق الأنديز، وذلك من أجل تحقيق المصالح البريطانية، وإن بريطانيا قد عمدت إلى نقل العديد من القوات الإضافية إلى الملايو فى الشرق الأوسط مع الاعتماد على القوات الجوية فى جنوب أفريقيا، وبحيث إن هذا الإجراء لم يكن ملائمًا فى الشرق الأوسط، وفى عام ١٩٣٩ كانت تواجه الضغوط من خلال نقل الطائرات من أجل سنغافورة، والتساؤلات العديدة حول كيفية الدفاع عن سنغافورة كانت تمثل مسئولية المفوضين فى إطار المفاوضات المختلفة(١٠). والاعتماد كذلك على الأساطيل البحرية والعسكرية فى البحر الأبيض المتوسط فى السويس(١١).

بينما لم يكن نائب رئيس الوزراء الأسترالى راضيًا عن هذه الأوضاع وكان يدين اليابان فى اتخاذ هذا الإجراء، وفى الحصول على الوسائل

المختلفة من أجل التصدى إلى الزحف اليابانى، وبحيث إن أنتونى إيدن الأمين العام أعلن عن قبول ذلك، وأشار أن بريطانيا لم تتمكن من الدفاع عن الإمبراطورية[١٢]. والشكوك العامة حول سنغافورة نظرًا إلى اشتراك بريطانيا فى الحرب الأوربية وعدم قدرتها على الاستمرار فيها، وأن هذه المخاوف تعود إلى تقديم بريطانيا الطائرات إلى أستراليا والحلفاء المختلفين فى البحر الأبيض المتخصصين فى صناعة الطائرات البريطانية، إلى جانب الأولويات والأوامر من رومانيا واليونان وتركيا التى كانت تأتى فى المقدمة على السلاح الجوى الأسترالى بين ١٩٣٧و١٩٣٩[١٣]. وبحيث كان عليه إلى أن يعود إى الاعتماد على الموردين الأمريكان فى العام الثانى مع تركيب المحركات الأمريكية مع الطائرات البريطانية المقاتلة[١٤].

أدى وجود العديد من المشكلات المحلية والمخاوف حول قدرة بريطانيا على حل هذه المشكلات إلى تحول أستراليا نحو الولايات المتحدة، إلى جانب السياسية الخارجية التى كانت تسعى إلى تحقيق المصالح البريطانية، بينما كانت السياسية الأجنبية من كندا تسعى إلى القضاء على هذه الأزمة عام ١٩٢٢ عندما أعلنت كندا إلى البرلمان عن اتخاذ القرار بالسعى إلى الاستقلال عن الدول الأخرى والتقرب إلى الدول المختلفة تبعًا إلى مذهب مونرو فى هذه المنطقة، وداخل كندا فإن الخريطة العنصرية كانت تعتمد على التمسك بالمصالح مع بريطانيا مع وجود أحد عشر مليون نسمة، والولاء الإمبريالى فى بعض المقاطعات التى تتحدث الإنجليزية، وذلك من أجل الإحساس العام بالهوية الكندية، وفى عام ١٩٢٥ فإن المهاجرين إلى هذه المنطقة "المولود فى بريطانيا مثل المولود فى كندا لن يحتاج إلى مناصرة[١٥]".

وفى خريف ١٩٣٨ أعلن هتلر عن حقه فى أرض السوديت وكذلك فى تشيكوسلوفاكيا، حيث إن غالبية السكان من الألمان، بينما تشامبرلين كان يؤيد الألمان فى الجنوب وفى الأراضى الأجنبية[١٦]. كما كان يؤيد هتلر من خلال الاجتماع مع المسئولين فى منتصف سبتمبر نظرًا إلى الاحتلال العسكرى لمنطقة التشيك. وفجأة وبسبب غضب تشامبرلين تحول الأمر إلى حرب أم سلام فإن بريطانيا وفرنسا تقاومان الغزو الألمانى لتشيكوسلوفاكيا، انقسم الرأى البريطانى العام، بينما تقلصت المقاطعات المختلفة بعضها عن بعض، ولم تجد الحكومة البريطانية البديل عن الدخول فى الحرب على ألمانيا مع التشيك وبالنسبة للحكومة الأسترالية كان أى بديل أفضل من التورط فى حرب مع ألمانيا فى حالة تدخل الأخيرة بشكل اضطرارى فى تشيكوسلوفاكيا[١٧]. وإن هذا الحس العام فى كندا كان يشير إلى الصراع العنصرى فى مناقشات البرلمان[١٨]. بينما رئيس الوزراء كان يؤيد بريطانيا ويعارض الحرب على التشيك[١٩]، ويعتمد على أفريقيا، كان يدرك أن الرأى العام الأفريقى ضد قيام الحرب يعود إلى عدم الاستعداد إلى قتال التشيك[٢٠]، بينما تشامبرلين كان يسعى إلى توحيد الإمبراطورية والتعاطف مع الدول الصغيرة التى تداول القوة العظمى والدول القوية.

الحقيقة الماثلة فى أن بريطانيا لم تتمكن من إقناع المسئولين فى هذه المقاطعات المختلفة فى التعاون على القتال ضد التشيك، بينما سفارة تشامبرلين إلى ميونخ فى نهاية سبتمبر من ذلك العام والمباحثات مع هتلر الذى أشار إلى عدم قدرته على الاعتماد على القوات الكندية، بينما كانت فرنسا تسعى إلى الاستعداد العام، والبرنامج البريطانى كان عليه أن يفعل الكثير، بحيث إن التشيك كانت متروكة إلى مصيرها، وعاد تشامبرلين إلى بلده بعدما حصل على الوعد من هتلر فى حل جميع الخلافات البريطانية الألمانية، عندما أعلن عن تصريح دزرائيلى عام ١٨٧٨ فى برلين بعد عودته من الكونجرس.

كان اختيار الكلمات ذا أهمية خاصة فـــى حـــديث تـــشامبرلين مثـــل دزرائيليكما يتضح من سياق هذا الخطاب الخاص الذى أعلـــن عنـــه إلـــى الرؤساء والملوك المختلفين، بينما كان الشعب الإنجليزى يسعى إلى إحـــلال السلام والتخلص من هذه الأزمة، وذلك من خلال كسب الوقت مـــن خـــلال هذه المفاوضات، ويتضح ذلك من الانتصار العام فى ميونيخ عامى ١٨٧٧ ، ١٨٧٨حيث إن دزرائيلى كان يقاوم هذا الضغط من جانب الصفوة، عنـــدما أصر على أن بريطانيا عليها الواجب الأدبى فى تقديم الدعم إلى البلقان الذين كانوا يناضلون من أجل الحرية، بدلاً من دعم تركيا، وبعد مرور ستين عامًا من ذلك ظهرت فى الموجة من الاحتلال نظرًا إلى التحـــالف بـــين اليمـــين واليسار، وهو نفس رأى تشرشل الذى أعلن عن هذه الأزمة إلى المـــسئولين فى التشيك الضحايا من الظلم الاجتماعى، كما أن هذه المجموعة قد أعلنـــت أن ميونيخ تتصف بالجبن والخيانة بينما أشـــار المؤيـــدون لتـــشامبرلين أن بريطانيا ليست قادرة على الدخول فى الحرب الأوربية فى هـــذه المنطقـــة، نظرًا إلى عدم وجود المصالح فيها، كما كانت معرضة إلى الخطر والتهديـــد وعلى ضوء هذا الرأى الذى أعلن عنه أحد المراسلين فى صـــحيفة ســـبكتاتور الشهيرة (Spectastor) والذى أشار أن هذا الجيل ليس مـــستعدًا مـــن أجـــل النضال على وحدة أراضى أوربا الوسطى والشرقية التى تضم أقليات ضخمة وغير متجانسة، وكما يدعى سوف نحارب مـــن أجـــل الهنـــد والـــدومنيون والمستعمرات وفرنسا(٢١).

السلام العام كان يمثل الشغل الشاغل لدى تشامبرلين عندما ذهب إلـــى ميونيخ، وإذا استطعنا أن نساير ألمانيـــا فـــإننى لـــن أخـــشى مـــن موســـو (Musso)(٢٢). ومنذ أن تولى منصب نائب رئيس الوزراء فإنه كان مسئولاً عن وضع السياسة الخارجية وتطبيقها، كما كان يسعى إلـــى التفـــاهم مـــع

موسولينى الذى كان يحافظ على الوضع الإستراتيجى لدى بريطانيا فى إقليم البحر الأبيض، إلى جانب تطلعات تشامبرلين فى إيطاليا، والخطأ فى تقدير نقاط القوة والقدرات فى الجيش والبحرية[٢٣]. والنتيجة المتوقعة من ذلك تتمثل فى اتفاقية ١٩٣٨ حيث إن بريطانيا وأستراليا وكندا قد أدركوا الخطورة من احتلال بريطانيا لدولة إثيوبيا، كما كانت إيطاليا تتوعد وتعلن عن الحفاظ على الوضع الراهن فى البحر الأبيض.

تعكس هذه الاتفاقيات لنا فشل تشامبرلين الكبير فى استيعاب الفاشية الإيطالية، وعدم قدرته على اتخاذ دور القائد؛ حيث إن الوضع الراهن كان يمثل الظروف المواتية من أجل استمرار الفاشية والحفاظ على الوضع العام، كما أن الأسباب الشخصية والسياسية كانت تشمل التوسع، بينما كان موسولينى يسعى إلى إحياء ذكرى الرومانية مرة أخرى، وفى عام ١٩٣٨ فإن العديد من النواب من الفاشية كانوا يرون الخطورة من حصول هتلر على بعض الأراضى فى كورسيكا.

كما تمكن أيضًا من الحصول على أجزاء كبيرة من تونس، بينما حصلت فرنسا على الجيبوتى التى تقع عند نهاية البحر الأحمر، وفى بداية هذا العام فإن موسولينى، قد قلب الصفحة على التعامل مع بريطانيا عندما تحدث عن ذلك إلى الوزراء الإنجليز، بينما كانت إيطاليا تمثل أهم دول البحر الأبيض؛ نظرًا إلى صلتها مع بقية العالم من خلال قناة السويس التى تمثل القناة الرسمية التى يمكن أن تخضع إلى الحظر الاقتصادى أو العسكرى، أو من خلال مضيق جبل طارق الذى كان يعتمد فى الحماية على المدافع البريطانية، ولذلك فإن بريطانيا لم تكن قادرة على السيطرة على المحيطات وكانت حبيسة فى البحر الأبيض، على الرغم من ارتفاع التعداد السكاني فإنها أصبحت أقدر عن ذى قبل[٢٤].

وخلال نفس هذه الفترة فى المستقبل فإن إيطاليا قــد اســتبعدت هــذا الهدف، وهو الذى يمثل التملص من الحرب مع بريطانيا القوية والاحــتلال الفرنسي، حيث إن قناة بارى الإيطالية قد أعلنت عن ذلك وعــن الإعــلان المعادى لبريطانيا والموجه إلى العرب والمصريين كما أن القنصل الايطالى فى كابول كان يقدم المساعدة إلى زعماء القبائــل فــى الحــدود الــشمالية والجنوبية والغربية[٢٥]، بينما موسولينى قد أعلن عن موقف بريطانيا حيــال الطابع الفاشى للتعامل مع الأمور.

تمسكت الأنحاء المختلفة من الإمبراطورية بنفس هذا الرأي؛ حيث إن الهيبة البريطانية كانت تعانى من الاتفاقات الإيطالية وبعد استقالية إيدن فــى بداية ١٩٣٨ نظرًا إلى الاحتجاج إلى سياسة تشامبرلين، فإن إيدن عاد إلى نفس منصبه فى بريطانيا العظمى، وكان يمثل الركيزة ضد الهجمات، وفى نوفمبر ١٩٣٨ أعلن الوطنيون فى سيراليون عن السيادة الإيطالية على الحبشة[٢٦]، وإن ميونيخ كانت تمثل الدرس المستفاد الذى يشير إلى القوة البريطانية؛ وفى أكتوبر من نفس العام ظهر الاحتقار العام ضد هذه السلطة البريطانيــة مــن فلسطين، يقال إن الجرأة والقسوة الشديدة للعرب ترجع إلى اعتقادهم التفاوض مع الإمبراطورية البريطانية على قدم المساواة، وفى الشرق الأقــصى فــإن نزول اليابان على جنوب الصين، والذى إذا لم يغز هونج كونج حقــا فإنــه مخطط لتدمير تجارتها، وهذا يرجع إلى ثقة اليابان فى أن القوى العربيــة لا يمكن وضعها فى الاعتبار[٢٧].

السير ألكسندر كادوجان أعلن عن نفس هذا الرأي؛ حيث إنه كان يخــشى من هجوم اليابان على الصين، وعدم المبالاة بالمصالح التجارية البريطانيــة والتى كانت تمثل العلامة إلى بقية أنحاء آسيا بأن بريطانيا سوف تكتفىَ بهذا القدر من التوسع، بينما تشامبرلين قد تملص من الحرب مع بريطانيا، وأعلن إلى الكومنولث أنها ليست على استعداد إلى هذا النضال.

استمر هتلر يمثل محور الأحداث التالية، والظروف التى كانت تشير إلى قيام الحرب، حيث لم يكن هناك شك فى نية هذا الرجل الذى يؤيد الحـــرب، وأنه ليس هناك بداية أو نهاية لأى للجهود الأخـــرى إلـــى الـــسلام، وكـــان يمثل نابليون الجديد والذى لم يكن محل ثقة، والذى كان على اســتعداد لأى شيء كى يحقق مصالحه، كما أن طبيعة هذه الشخصية كانت معروفة إلـــى للمسئولين فى الحكومة والشعب البريطانى، ويتضح ذلك من وجود مجموعة من الحلفاء الذين كانوا يعتقدون فى إمكانية شراء هتلر، وفى بدايـــة ١٩٣٩ كان لا بد من تحرير المستعمرات الأفريقية القديمة التى كانت تخضع للسيادة الإيطالية(٢٨).

ثقة تشامبرلين فى هذه السياسة كانت لا بد أن تواجه الواقع؛ نظرًا أن وزارة الخارجية كانت على استعداد إلى التخلى عن تفكيـــر الـــديكتاتوريين، بينما فى يناير ١٩٣٨ فإن الحكومة الأسترالية أعلنت عن المصادر المسئولة والتى أشارت أن هتلر سوف يدخل فى المغامرات الجديدة للتوسع فى أوربا، وكان يسعى إلى احتلال أوكرانيا، بينما الشعب الأسترالى كان يرتبط بمصير مع بريطانيا، كما أنه تمكن من الاستيلاء على هولندا وسلم بعد ذلـــك الهنـــد الشرقية الهولندية إلى اليابان(٢٩).

استمرت هذه المخاوف العامة عندما أعلن هتلر عن القيام بالهجمـــات الجوية على بريطانيا، بينما كانت تشيكولوفاكيا تمثل الهدف الثانى لدى هتلر. وفى ١٥ مارس من نفس العام أستولى جيش هتلر على هذه الدولة، وجاء بعد ذلك أبن آوى الذى يحصل على الفريسة بعد الأسد، وفـــى ٧ أبريـــل فـــإن موسولينى استولى على ألبانيا، وهو ما أثار دهـــشة تـــشامبرلين، حيـــث إن موسولينى كان يتطلـــع طـــويلاً إلـــى هـــذا الهـــدف (٣٠)، بينمـــا الـــضغط العام والبرلمان أديا إلى تعديل السياسة الخارجية البريطانيـــة، وفـــى اليـــوم

الأخير من شهر مارس أعلن عن الوفاء بالوعد إلى هولندا، بأن تقدم الدعم؛ حيث إن ألمانيا كانت تسعى إلى مزيد من التوسعات، بينما بريطانيا دخلت فى الحرب وهى التى تمثل استجابة إلى الاعتـداء مـن جانـب هتلـر، بينمـا تشامبرلين لم يكن راضيًا عن تغيير هذه السياسة، وأعلن أن هتلر قادر على الحرب كما كانت لديه عقيدة ثابتة فى ضرورة التوصل إلى حل الوسط مـع المسئولين المختلفين، الذى يعتمد على الصراع الأوربى، بحيث إن بريطانيا تصبح قوية على التصدى إلى هتلر، كما أن تشامبرلين كان مـسئولاً عـن تغيير مسار الأحداث خاصة فى نهاية ربيع ١٩٣٩ وصيفه، عنـدما كانـت بريطانيا تسعى إلى البحث عن الحلفاء خاصة الاتحاد السوفيتى.

اكتسب الكومنولث مزيدًا من الأهمية نظرًا إلى هذه الظـروف، ومـع ذلك فإن المقاطعات المختلفة كانت تعتمد على الحكام الذين يخشون من دخول بريطانيا فى الحرب الأوربية نظرًا إلى عدم وجود الحماس لدى بولندا فـى جنوب أفريقيا حتى نهاية أغسطس[٣١]. بينما كندا أعلنت عن الرفض فى أن تمثل أحد الضامنين الاتفاقية الإنجليزية الفرنسية حول الحفاظ على بولنـدا، بينما ماكنزى كينج أعلن الوعد إلى البرلمان وعن إعلان الحرب عند الهجوم على بريطانيا؛ حيث إن كينج كان يسعى إلى الحصول على الدعم من القـوة العظمى الأخرى؛ وذلك فى إطار الجهود المبذولة من أجل التأثير على هتلر ولكن دون أن يتمكنوا من النجاح فى ذلك، ولكنه كان محظوظًا أثناء زيارته إلى لندن عام ١٩٤٢ عندما تحدث إلى فلورانس نايتنجيل الذى قُـدمت إليـه النصيحة من أجل الاهتمام بصحته، وإلى بولين والملكة فيكتوريا أثناء جلسة تحضير الأرواح[٣٢].

كان على الحكومة الأسترالية الاختيار بين تسليم الشيك المصرفى إلى بريطانيا من أجل تمويل الحرب الأوربية أو دعم الموارد من أجل التـصدى

إلى المخاطر الداخلية، بينما الحزب المحافظ فى اليابان كان يؤيد الوضع السابق وعدم تغيير الأوضاع؛ حيث إن السير أيرل باج الذى يمثل الزعيم العام للحزب الجمهورى أعلن عن قدرات هذه الإمبراطورية وأنها مع ذلك لا تخلو من التهديد العام من الدول الطموحة أو المعتدية[٣٣].

لم يكن جون كورتين زعيم الحزب العمالى على إقناع بهذه الاتفاقية، وأعلن عن أن أستراليا تأتى فى المقدمة، وهو الذى يمثل شعار هذا الحزب والذى يعمل على تخصيص جميع الموارد البشرية والمثالية من أجل الدفاع عنها[٣٤].

من وراء هذا النقاش العام الذى يخفى القلق من الخطة البريطانية فى الشرق الأقصى وبداية الحرب اليابانية الصينية عام ١٩٣٧، والنجاحات المبكرة لليابان والتى أدت إلى تسلح أستراليا، بينما أصبح المسئولون يبالغون فى المقاطعات، وتشامبرلين كان يؤيد ذلك فى حالة حدوث الحرب مع ألمانيا وإيطاليا، فإن اليابان عليها أن تعتمد أن تنضم إليهم، بينما كان على الحكومة البريطانية أن ترسل الأسطول إلى سنغافورة[٣٥]، وإن هذه الرسالة أدت إلى إزعاج الشعب الأسترالى نظرًا إلى عدم الإجابة عن السؤال الأهم إليهم حول كيفية استخدام العدد الكافى من السفن بينما كان تشامبرلين برفض استقبال هذا الأسطول الحربى إلى الشرق الأقصى من أجل استعراض العضلات والقوة، بينما كان على موسولينى أن يتخذ المبادرة فى البحر الأبيض والتأكيد على هذه المخاوف فى حالة حدوث الحرب حيث إن الجبهات الأوربية[٣٦]. لا بد أن تعتمد على الموارد الإيجابية، ومع اعتبار ذلك فإن نائب رئيس الوزراء الأسترالى روبرت مينزى قد أعلن إلى الشعب الإنجليزى فى نهاية أبريل بأن عليهم التحالف مع بريطانيا عند حدوث الحرب من أجل الدفاع عن السواحل.

كانت أستراليا لا تزال فى حاجة إلى البوارج الملكية والعسكرية وناقلات البحار، وفى شهر يوليو فإن المفوض الأسترالى فى لندن قد التقى مع الأدميرال شات فلد، الوزير الجديد والمسئول عن الدفاع فى هذه المنطقة والمسئول أيضًا عن توفير العدد الكافى من هذه الموارد، وعلى الرغم من هذا الصدام على مصالح بريطانيا فى الصين فإن بريطانيا كانت تتوقع من اليابان أن لا تشترك فى هذه الحرب؛ حيث إن القضاء على البحرية الإيطالية كان يمثل الأولوية(٣٧).

كانت الخطة المتبعة من سنغافورة والتى لم يتم تنفيذها نظرًا إلى الفوضى العامة، وفى نهاية العام فإن اليابانيين قد استولوا على جزيرة هيرمان التى تقع على مسافة ٢٥٠ ميلاً جنوب هونج كونج، وبعد شهر من ذلك فإنها استولت على جزر إسبرتلى التى تقع على مسافة ٦٥٠ ميلاً من شمال شرق سنغافورة ومع تطورات الأحداث فإن المخططين الإنجليز والفرنسيين قد أعلنوا عن أن سنغافورة لم تعد تمثل جبل طارق الشرق الأقصى، كما أن الأمن والأمان كانا يعتمدان على الشبكة من المطارات الجوية فى الملايو والاعتماد على سلاح المشاة والمدافع المضادة للطائرات (٣٨).

للمرة الأولى منذ الحرب الأمريكية فإن بريطانيا فقدت قدرتها على الدفاع عن هذه الإمبراطورية، وأن الحفاظ على الأملاك البريطانية فى المحيطين الهندى والهادى اعتمد على الأسطول فى الإسكندرية، والذى لابد أن يبقى هناك حتى رجيل البحرية الإيطالية، بينما ماكنزى كان يرى هذه الكارثة الوشيكة فى سبتمبر، عندما كان يطلب من تشامبرلين أن يقنع الفرنسيين من أجل الإفراج عن تونس وجيبوتى(٣٩). ويبدو أنه لم يتعلم شيئًا من دروس الماضى التى أشارت دون شك إلى أن الامتيازات المحدودة يمكن أن تؤدى بعد ذلك إلى الحصول على الجوائز الضخمة.

أدت المطالبة العاجلة نحو تحقيق الأمن الأسترالى إلى أن المفوض العام بروس فى الولايات المتحدة تحدث مع روزفلت حول كيفية استجابة أمريكا عند زحف الأسطول اليابانى إلى الجنوب من خط الاستواء[٤٠]، بينما أشار تشرشل إلى ضرورة الحفاظ على المصالح البريطانية فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى الذى يعتمد كثيرًا على أمريكا، وعند اندلاع الحرب عبر سمطى عن أمله فى أن أمريكا التى تمتلك الموارد الأخيرة للقضايا البشرية بأنها سوف تدخل[٤١].

أصبحت بريطانيا وأمريكا من الحلفاء الطبيعيين نظرًا إلى اللغة المشتركة واتباع نفس المبادئ الديمقراطية، وإن علاقات هذه الدول بعد عام ١٩ كانت تشير إلى الدول والنزاهة والأمانة، بينما تشامبرلين كان مصابًا بالإحباط من رفض أمريكا أن تؤيد بريطانيا فى الصين، وأشار إلى أن الأمريكان لا يُعتمد عليهم، بينما المسئولون عن وضع السياسةَ فى مجلس الوزراء كان يترددون ويخشون من السلطات والنفوذ، ولذلك كانوا يتطلعون إلى عدم تغيير الأوضاع[٤٢]، وهو الذى كان يعكس لنا الاهتمام الإنجليزى والأمريكى من أجل الحفاظ على الاستقرار فى الأوضاع الدولية والدعم المشترك بين الدولتين، بينما العقبة أمام التعاون بينهما كانت تتمثل فى التجارة، وفى عام ١٩٣٢ من خلال مؤتمر كندا فإن بريطانيا قد اعتمدت على سياسة الحماية التى حصلت على الأولوية الأولى، والتى قد أعلن عنها كورديل هول الذى كان يؤيد بشدة التجارة الدولية الحرة وتوجيه الطاقات المختلفة وكذلك التعاون على المفاوضات المختلفة[٤٣] من أجل حل المشكلات الدولية بين بريطانيا والدول الأخرى مثل اليابان وألمانيا وإيطاليا؛ حيث إن السياسات الإيطالية كانت تعتمد كثيرًا على التعاون فى الوصول إلى حل الوسط.

تتمثل العقبة الأخرى أمام التعاون الأمريكى الإنجليزى فـــى الـــسياسة الانعزالية؛ نظرًا إلى الذكريات العديدة حول اشتراك الولايات العالمية المتحدة فى الحرب العالمية الأولى.

وإن أى التساؤلات حول تدخل أوربا الذى كان يتلازم مـــع الخـــسائر الفادحة والاستياء من الرأى العام الأمريكى، وهو الذى أعلن عن روس بعد زيارته عام ١٩٣٩، والذى حصل على التقدير مـــن روزفلـــت؛ حيـــث إن الأمريكان كانوا يتطلعون إلى تحقيق بعض المصالح فى أوربا بالنظر إلـــى الأسطورة الجديدة عن السياسات الخارجية من جانب الدول العظمى والتـــى تمثل المهمة الصعبة نظرًا لاعتراف بريطانيا بالسيادة البريطانية على إثيوبيا وأجزاء من التشيك.

ومع عدم ثقة الولايات المتحدة فى القوة الاستعمارية والتى أعلنت عنها إلى بريطانيا فإن روزفلت لم يكن يمنع من هذا الهجوم المعادى للإمبرياليـــة وفى عام ١٩٤١ فإن اليابان كانت تتطلع إلى الهند الصينية بدلاً من الخضوع إلى الحكم الاستعمارى الفرنسى[٤٤]. حيث إن القوات البحريـــة والعـــسكرية كانت ترى أن الإمبراطورية البريطانية هى السبب فى الاستقرار الدولى.

تتمثل الأسباب التى أدت إلى انعدام التفاهم فى عدم اســـتعداد الـــشعب الأمريكى إلى المشاركة فى هذه الأحداث الفوضوية بين الـــدولتين، والـــذى أشار إلى استحالة التفاهم قبل عام ١٩٣٩ حيث إن العداء وكذلك الدبلوماسية المترددة أدت إلى استبعاد روسيا من الجبهة الإنجليزية الفرنسية، بينما كـــان هتلر يحتاج إلى روسيا لأنه لم يكن يخشى من قدراتها فـــى صـــيف ١٩٣٩ وبعد مرور عامين من ذلك عندما اعتدى على هذه الدولة؛ حيث إنـــه كـــان يحتاج إلى التعاون مع روسيا المحايدة التى تركت لـــه الحريـــة مـــن أجـــل التحايل مع بريطانيا وفرنسا والحصول على المواد الخام من روسيا، كما أنه

اشترك فى المعاهدة الروسية فى نهاية أغسطس؛ حيث إن المجـال أصـبح مفتوحًا فى بولندا، والجيش الألمانى الذى أعلن عن الغزو فى أول سبتمبر.

أعلنت بريطانيا الحرب فى ٣ سبتمبر من خلال الإذاعة البريطانيـة، وأشارت إلى معاناة تشامبرلين، وأعلنت كذلك فى البرقية التى جـاءت إلـى لندن من غرب الأنديز، فإنه ليس عليه أن يقلق؛ حيث باربادوس يؤيده فـى الموقف عن بقية المستعمرات الأخرى، إلى جانب إعـلان فيـسروى عـن الحرب التى أدت إلى إزعاج حزب الكونجرس، بينما كانت أسـتراليا تتـابع أخبار أوربا؛ نظرًا إلى بعض الصعوبات فى الحـصول علـى المـستندات السرية من الحكومة الإنجليزية.

وفى ٢٥ أغسطس فإن ماكنزى أعلن إلى الـشعب البريطـانى عـن اشتراك إنجلترا؛ حيث إن هزيمة بريطانيا العظمـى يمثـل القـضاء علـى الإمبراطورية البريطانية، و هذا الرأى كان يسود عام ١٩١٤ بينما فى جنوب أفريقيا فإن الحزب الحاكم الذى تأسس عام ١٩٣٤ كان يؤيد هـذا الموقـف المحايد فى البرلمان الذى يضم ثمانين من الأعضاء، والذين أرغموا نائـب رئيس الوزراء هيرزوج على الاستقالة فى الخامس من سبتمبر، رغـم أنـه النائب الذى حصل على هذه المناصب؛ حيـث إن الحـاكم العـام رفـض الاشتراك فى الانتخابات الجديدة بينما دخلت جنوب أفريقيا الحرب، والاتحاد فى جنوب أفريقيا قد أشار إلى المخاوف من المـسئولين فـى كنـدا الـذين يرفضون الحرب بشدة، بينما ماكنزى أشار إلى الدعم المعنوى لبريطانيا من خلال الإذاعة فى ٣ سبتمبر، وبعد أيام قليلة من اعتماد البرلمان على الحرب التى حصلت على القبول دون المعارضة، بينما عمل موريس دبوليسى زعيم الحزب الوطنى فى كويبك على أن يحل المجلس المحلى للمقاطعة، وأعلـن عن الانتخابات العامة فى أكتوبر والإمبراطورية الإنجليزية التى دخلت فـى

الحرب من الأسبوع الأول من سبتمبر، مع وجود قدر من التأييد المعنوى من الشعب الإنجليزى فى الدخول فى الحرب،

وتقديم الدعم إلى الأسطول فى البحر الأبيض على الرغم من العقوبات التى أدت إلى تحويل إيطاليا إلى الدولة الصديقة على مدى ٧٥ عامًا والتى تحولت إلى أحد الأعداء، وأعلنت إلى اليابان بأن الوقت قد أصبح مناسبًا من أجل دخول بريطانيا فى هذا الصراع الأوربى وإمكانية تحرير المقاطعات البريطانية فى الشرق الأقصى.

لقد ذهبت الكومنولث والإمبراطورية إلى الحرب فى الأسبوع الأول من سبتمبر، ولكن وحدتها لم تكن دون تساؤل، ولم يكن هناك أى خداع وطنى وعاطفى، وهناك مهمة صعبة قادمة، وإن الذين يصلون إليها لم يلفوا أكمامهم أكثر من التلويح بالأعلام، وكانوا على وشك محاربة "حرب الشعب" وعندما تنتهى فإن الشعب ليس فى بريطانيا فقط ولكن فى كل أنحاء الإمبراطورية والتى تتوقع مكافأة على جهدهم.

(١٠)

الإمبراطورية فى حالة حرب

(١٩٣٩ ـ ١٩٤١)

فى حديث أذيع فى أكتوبر ١٩٤٠ تحت عنوان "ماذا تعنى الإمبراطورية بالنسبة لنا "حذر فيه اللورد إليود وزير المستعمرات مستمعيه من أن جماعة المحور تريد أن تضع أيديها على الجوائز البراقة لمستعمرات بريطانيا، لكن لن يستطيعوا أخذها بسهولة، وقد كتب شيخ قبيلة فى غرب أفريقيا إلى وزارة مستعمرات يصف كيف استخرج بندقيته ذات طراز قديم من القبر ليتخذها ضد أعداء الملك، وأضاف المحارب القديم: "فى أيام مثل تتويج الملك فإن وطنى يظهر فى لندن؛ ولهذا لم تكن أوربا الآن فى حزن، وعلى وطنى أن يشارك فى هذه الاحتفالات أيضًا؛ وحيث إننى رجل فقير أستطيع فقط أن أقدم خدمتى[١]".

إنها عبارة مؤثرة عن الولاء الذى لا بد أنه أثر على أوتار معظم المستمعين فى دولة تحارب بيأس من أجل البقاء، وحيث تــدَّربَ متطوعو الحرس الوطنى على طلقات بنادق قديمة، شهد العام الماضى حربًا تليفونية تتداخل مع القصور والجمود بين انهيار بولنداة وهجوم هتلر السريع فى الغرب، وخلال شهرى مايو ويونيه من عام ١٩٤٠، انساق الهورماخت

(Wehrmacht) عبر بلجيكا وهولندا والدانمرك والنرويج وأعلن موسوليني عندما شاهد اتجاه هبوب رياح الحرب في ١١ يونيه، وبعد أربعة أيام فتحت الحكومة الفرنسية مفاوضات انتهت باستسلامها غير المشروط في اليوم الثامن عشر، وصار موقف بريطانيا في منتهى الخطر، ولأول مرة منذ عام ١٨٠٦ كانت في حاجة إلى حلفاء، وواجهت أوربا التي كانت صناعتها وقواها البشرية تحت تصرف رجل طاغية ينوى تدمير إنجلترا، وتوزيع مستعمراتها في النهاية.

وخلال الأزمة الأولى كانت القاعدة الإمبريالية في أمان نسبي، ويرجع الفضل في ذلك إلى أسطول حربي لا يُهزم، وعلى مستوى رفيع، ولكن في صيف عام ١٩٤٠ كانت بريطانيا معرضة إلى غزو لاسلكي عبر القنال الإنجليزي، وكان الموقف ميئوسًا منه، وفي واشنطن تنبأ الجنرال جورج س. مارشال رئيس هيئة الولايات المتحدة وآخرون كثيرون بأن بريطانيا سوف تخرج من الحرب في خلال ستة أسابيع(٢).

إن ما جاء بعد ذلك كان ألطف ساعة عند الشعب البريطاني، وكانت هذه العبارة من كلام تشرشل وجزءًا من نداء حماسي للدعوة إلى السلاح ألقاه في الثامن عشر من يونيه بعد شهر من تعيينه رئيسًا للوزراء "دعنا نتمسك بواجباتنا وعلى هذا نحمل أنفسنا، إنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث لألف سنة فسوف يقول الرجال:

"إن هذه ألطف ساعة".

وكان من بين المستمعين أحد عمال جيوردى (Geordie) الذى وصف تشرشل بأنه أحد الخنازير اللوطيين من الهند، والذى وجد في النهاية أن القتال يجب البحث عنه طوال كل أعماله، ومع ذلك كان المتحدث مستعدًا للالتقاء معه.

كما أن التاينسيدر (Tynesider) وكل شخص آخر يعرف أن حياة تشرشل وأعماله العسكرية الطويلة ومهامه السياسية كانت مرتبطة بالإمبراطورية، ففي عام ١٨٩٧ حارب الباثان على الحدود الشمالية الغربية، وبعد عام كان مسؤلاً عن الفرقة الحادية والعشرين في أم درمان، وعندما شن حربًا ضد البوير الذين أخذوه أسيرًا، وصار بعد ذلك أحد رجال الدولة الإمبريالي، وشغل منصب وزير المستعمرات مرتين، الأولى مع حزب الأحرار تحت رئاسة أسكويت والثانية تحت قيادة إليود جورج.

لقد كانت فترة استعمار تشرشل معقدة وفي أحيان متناقضة، وعلى المستوى العام لم يتغير اعتقاده بأن الإمبراطورية أعطت بريطانيا سيادتها وسلطتها الدولية، وأن الحكومة الاستعمارية أعطت السلام والرخاء لشعوب لن تستطيع تحقيق إحداهما دون مساعدة، وفي هذا كما لاحظ اللورد موران (Moran) طبيبه الخاص ومؤرخ طيشه وحماقاته أنه طفل عصره " أنه عندما يتحدث عن الهند أو الصين نتذكر إنه من رجال العصر الفيكتوري " كما لاحظ موران في عام ١٩٤٣.

يعتقد تشرشل حسب التطور الطبقي التدريجي عندما نتعلم كيف نفكر في جنس على أنه كائن أدنى، فإنه من الصعب أن نتخلص من هذه الطريقة في التفكير، وعندما كنت ملازمًا أول يبدو لي أن الهنود ليسوا على قدم المساواة مع الرجل الأبيض(٣).

وفي الحقيقة لم تكن هذه الآراء العنصرية بسيطة بهذا الشكل؛ لأنه كان يتأرجح بين نقيض من القسوة والإنسانية، عندما يصل الأمر إلى التعامل مع رعايا الإمبراطورية، وفي عام ١٩٠٣ امتدح سكان التبت لأنهم دافعوا عن ترابهم الوطني ضد غزو جيش كيرزون، وبعد ستة عشر عامًا وافق على استخدام الغازات السامة ضد الأكراد والباثان الذين كانوا يقومون بنفس المهمة،

وفى عام ١٩٢١ اتهم داير (Dyer) بأنه قاسى القلب فى أرمستار (Armistar) وكان تشرشل الليبرالى من عصر فيكتوريا من أبطال الدفاع عن الصهيونية، وكان يرغب فى تحسين نصيب الفلاحين المصريين لكن ليس فى صالح شعب الكيكويو، لأنه أيد المستقرين البيض فى كينيا، لقد كانت آراؤه ثابتة ومخيفة بالنسبة للهند، ففى عام ١٩٢١ حاول وفد هندى من كينيا شرح كيفية مساعدتهم فى تطوير المستعمرة واجهوا القول بملاحظة " أنكم لم تخترعوا طريق السكة الحديد بل فقط تركيبه"(٤). كانت صيحاته المستمرة للحكم الذاتى الهندى مفرطة جدًا لدرجة أن إيدن تعّجب عما إذا كانوا لا يؤهلون لأن يكون رئيس وزراء.

وفى عام ١٩٤٠ كانت الإمبراطوية التى يشرف عليها تشرشل تحارب بقوة من أجل البقاء على قيد الحياه ضد ما يبدو أنه المتناقضات المتزايدة، وقد أنكر كل هذا، وأعلن أنه سيشن حربًا بكل حماس وإصرار، وإذا تطلب الأمر بلا هوادة وقسوة، وكان استعداده للبقاء جعله يقارن اثنين مثل بت (Pitt) وإليود جورج على أقصى تقدير، وكانت فصاحة تشرشل مثل هنرى الخامس فى هارفلير (Harfleur) وإجينكورت (Egincourt) والتى حددت نغمة حرب بريطانيا. لقد جمعت كلماته الدماء وجمدت أعصاب الرجال والنساء فى المصانع والمناجم وفى المزارع وأرض المعارك، وكان أيضًا يرى أن لمسة صغيرة من هارى (Harry) بالليل سوف تجمع الأمل والشجاعة، ويسترجع الجنرال اللورد إيسماى (Ismay) كيف أن تشرشل عندما قام بجولة فى بريستول عام ١٩٤١ بعد غارة جوية دخل مركز استراحة حيث وجد امرأة مسنة تدمرت كل ممتلكاتها، وجلست تبكى دون مساواة، وعندما ظهر رئيس الوزراء "أخذت منديلها من عينيها ولوحت بشكل جنونى (هوراى هوراى)".

لقد ولد ما قاله تشرشل إحساسًا بالوحدة الوطنية والهدف لم يسبق له مثيل، ولا يمكن أن يعاد إحياؤه من جديد، وهناك لكل هؤلاء المستفيدين شيء ما يُثير مشاعر تلك الروح عام ١٩٤٠، وسوف تستمر شهرتها وبريقها لتزيل ما لطخه الكتاب حديثًا، الذين إما يكرهون النغمة الجماعية أو المجبرون بحماسة لإزالة كل مصدر للكبرياء القومى(٥).

لقد قاد تشرشل الدولة خلال اثنى عشر شهرًا ما بين استسلام فرنسا وغزو هتلر للاتحاد السوفيتى فى الثانى والعشرين من يونيه ١٩٤١ والذى تحدى قوى المحور فى هذه الفترة، وطوال هذا العام والأشهر الأربعة التالية كان تشرشل يقول ويفعل وكأن الإمبراطورية سوف تستمر بعد الحرب وتواصل المسيرة دون تغير، وعلى هذا كان هناك نقاش غير عادى فى أن ضربته القوية من العبقرية هى الاعتراف بأن بقاء بريطانيا يعتمد كليًا على أمريكا، وهى دولة كان حكامها ومواطنوها يعادون بشكل كبير الإمبراطورية البريطانية.

ولم يكن هذا ما يهم بشكل كبير فى صيف عام ١٩٤٠ عندما كانت الأسلحة والمعدات الأمريكيية مطلوبة بشكل كبير جدًا، وكما احتاج تشرشل لمنتجات الصناعة الأمريكية كان يريد النية الحسنة للولايات المتحدة، وحتى لو لم تحارب أمريكا فإن تشرشل كان يريد فى النهاية دعمها وتأييدها المعنوى الذى يهم كثيرًا هؤلاء الذين كانوا مشغولين فى الصراع، وكان الدعم المعنوى الأمريكى، بل الأسلحة الأمريكية ضمانا بأن بريطانيا حتى لو لم تكسب الحرب بمفردها فإنها لن تُهزَم، وفى خلال شهرى يونيه ويوليو عام ١٩٤٠، أيَّد كبار المسئولين والقادة الحفاظ على الموارد الأمريكية بدلاً من تسليمها إلى دولة يبدو أنها على حافة الهزيمة.

وانقضى شهران من المراوغة بعد طلب تشرشل لخمسين مدمرة زيادة على الحاجة مقابل إعطاء قاعدة فى جزر الهند الغربية، وتمت الموافقة على الصفقة فى النهاية مع بداية شهر أغسطس، وبعد أن واجه الرأى العام الأمريكى النتائج الممكنة لسيطرة هتلر وموسولينى على أوربا، وكانت هناك مخاوف قوية من انضمام قوات المحور إلى النظم ذات الجناح اليمينى فى الأرجنتين وأورجواى، وأن تشكل حركة معارضة ضد أمريكا من بين الخمسة الملايين أو الأكثر فى جنوب أمريكا ووسطها من أصول الألمان والإيطاليين واليابانيين(٦).

لقد ضايق هذا الاحتمال الحكومة البريطانية التى ابتداءً من عام ١٩٤٢ حتى ١٩٤٤ احتفظت بكتيبة مشاة فى جزر فوكلاند تصد أى نزول للقوات الألمانية واليابانية أو الأرجنتينية(٧).

وفى أواخر خريف عام ١٩٤٠ عندما انتهت فرص غزو ألمانى ناجح تأكد لروزفلت ومستشاريه أن بريطانيا صارت أول خط أمريكى دفاعى، وكانت النتيجة أن صارت أمريكا مثل ما كانت عليه بريطانيا خلال الحروب الثورية والنابليونية كجزء ممول وكجزء يقدم السلاح ويزود الآخرين من أجل شن الحرب، وكانت هناك مشكلات خصوصًا عندما كان على الرئيس أن يقنع مجلس الشيوخ ومجلس النواب لدفع دولارات دافعى الضرائب فى المجهود الحربى البريطانى.

ومع بداية عام ١٩٤١ كان من الواضح تمامًا أن الحكومة البريطانية لم تعد تستطيع تمويل مطالبها، وعلى هذا فقد سوت بريطانيا فواتير ديونها الأمريكية بالاقتراض من ودائع دول الإسترلينى (بما فيها الهند والمستعمرات) كما قامت بتسوية ممتلكاتها فيما وراء البحار وبيع الذهب واحتياطى الدولار، وتم استنفاد كل هذه الأصول واستهلاكها. ومع حلول

شهر يونيه عام ١٩٤١ انخفضت احتياطات الذهب والموارد النقدية إلى مائة وخمسين مليون دولار، وصار من الواضح حدوث إفلاس.

لقد تم منحه منع الانهيار المالى البريطانى نتيجة قانون الإعارة والتأجير الذى وافق عليه الكونجرس فى فبراير، بعد أن شاهد المشرعون أن بريطانيا قد فعلت كل شئ تستطيع القيام به لزيادة الأموال النقدية اللازمة للمجهود الحربى، ولقد أعطى قانون الإعارة والتأجير لبريطانيا قروضًا كافية لشراء كل ما تطلبه، مقابل وعد بإعادة سداد الدين عندما تنتهى الحرب، وفى أغسطس ١٩٤٥ كان الحساب النهائى كالآتي:

الذخيرة	بملايين الدولارات	السلع الأخرى
١- المملكة المتحدة	٨,٦٤٨	٧,٤٤٢
٢- الهند	١,٤٢٢	٧٦٨
٣- نيوزيلاند	١٤٤	٦٧
٤- جنوب أفريقيا	١٩٤	٦٧
٥- المستعمرات	٣٢٥	١٤٩

وكان إجمالى ديون بريطانيا والكومنولث ٣٠,٠٧٣ مليون دولار، وليس من الغريب أنه عندما تمت مناقشة قانون الإعارة والتأجير كانت النفوس العصبية بمن فيها ليو أميرى وبعض الرسميين فى وزارة الخارجية منزعجين من الإجراءات الطارئة التى سوف تحول بريطانيا من دولة دائنة كبرى إلى أكبر دولة مدينة(٨).

ومع ذلك فإنه بدون أعصاب الحرب التى قدمها قانون الإعارة والتأجير فإن بريطانيا ما كانت لها قدرة على أن تواصل النضال والحرب،

ومنذ سقوط فرنسا انتهج تشرشل إستراتيجية ذات أهداف ثلاثيـــة عريـــضة كانت أساسا تلك التى اتبعت خلال الحروب النابليونية؛ أى الدفاع عن القاعدة داخل الدولة وفتح خطوط المواصلات البحرية خصوصًا عبـــر الأطلنطـــى الشمالى التى تزود الدولة وتقويها، وأخيرًا الاحتفاظ بالـــسيادة فـــى البحـــر المتوسط والشرق الأوسط، ولقد تحقق الهدف الأول فى الثانى عـــشر مـــن أكتوبر عام ١٩٤٠ عندما أجل هتلر عملية ســـيليون (Dpertation Sealion) وغزو بريطانيا، وخلال الأسابيع العشرة السابقة احتفظ جيش الجمهورية (R A F) - بالسيطرة على أجواء بريطانيا والقناة الإنجليزية ودمر ســـتمائة غـــارة جوية ألمانية، وكانت معركة بريطانيا شيئا منتهيًا خصوصا خلال الأسبوعين الأولين من سبتمبر عندما انخفض عدد الطيارين المـــدربين إلـــى مـــستوى منخفض بشكل خطير، ومع هذا فقد كان هناك أكثر من الطيران المطلـــوب، وخلال عام ١٩٤٠ أنتجت المصانع البريطانية ١٥,٠٤٩ طائرة إذا ما قورنت بألمانيا التى أنتجت ١,٨٢٦، وإيطاليا التى أنتجت ٣,٢٥٧، وظلت بريطانيـــا فى مقدمة هذا المجال الحيوى، وأنتجت أكثر من عشرين ألف طائرة خـــلال عام ١٩٤١، بينما كان الإنتاج الإجمالى لكل من ألمانيـــا وإيطاليـــا ١٥,٠٠ طائرة؛ وأخيرًا أجل هتلر ورجال إستراتيجيته اهتمامهم وطاقاتهم على الهجوم القادم على روسيا التى ستكون المرحلة الأولى فى إنجاز أغلى أمنية لقلب هتلر، ألا وهى قيام إمبراطورية نازية فى الشرق، وكانت هزيمـــة بريطانيـــا ذات أهمية ثانية، وكما اعتقد بأنها تأتى حتمًا بعد روسيا، وفى نفس الوقت شـــنت القوات الألمانية حرب إنهاك وإرهاق ضد المدن البريطانية التى كانـــت تقـــذف بشكل منتظم، وعلى نفس القدر أسرع أسطول قوارب على شـــكل حـــرف W، وتعقب خط الإمداد البحرى البريطانى، ولقد عانى هذا الهجوم الأخيـــر مـــن نكسة معقولة فى يونيه ١٩٤١، عندما حرقت خطوط اللاسلكى البريطانيـــة الشفرة (Enigma) التى تستخدم لإرسال إشارات بين الغواصات والإميـــرال

فون دونتز (Donits) ومقره الرئيسى فى باريس، وعلى هذا كانت المرحلة الأولى من معركة الأطلسى لصالح بريطانيا حتى فبراير ١٩٤٢، عندما راجع الألمان الشفرة (الكود) واكتشفوا كيف يقرأون تلك التى يستخدمها الأسطول الملكى فى العمليات الأطلسية.

وخلال شتاء ١٩٤٠ ، ١٩٤١ حذرت إشارات المخابرات البريطانية الحكومة إلى احتمال هجوم ألمانى فى الربيع، والذى سوف يندفع فى البلقان، وبعدها يدور نحو سوريا (التى تحكمها حكومة فيشى أتباع الفاشية الجديدة والتى أقامتها فرنسا فى يونيه ١٩٤٠) وفلسطين وحقول بترول العراق، وإذا استمر هذا الاندفاع فإنه يتوافق مع تقدم إيطالى نحو مصر، وكان من الضرورى أن تحتفظ بريطانيا بالقيادة فى البحر المتوسط حتى لا يعزل الشرق الأوسط، ولقد أمكن الاحتفاظ بالسيادة البحرية من خلال سلسلة من ضربات نيلسون، حيث تمت الضربة الأولى ضد الأسطول الفرنسى القوى الذى لجأ إلى المرسى الكبير بالقرب من وهران (الجزائر) وكان قائده الأدميرال فرانسكوا دارلون الذى اقتنع بأن بريطانيا ستواجه هزيمة، وهناك أسباب وجيهة للتفكير أنه سوف يقدم سفينة إلى حكومة فيشى أو إيطاليا، وتجاهل تشرشل نصائح الوزارة وكبار ضباط الجيش، وأمر بضرب السفن الحربية الفرنسية فى الثالث من يوليو(٩).

واستطاع بضربة أن ينقذ توازن القوى البحرية فى البحر المتوسط حتى لو أدت الخسارة الكبرى فى الحياة إلى ضربة قاسية معقولة، لقد تم نسف الاختراقات البحرية الإيطالية بسرعة، فى نوفمبر عام ١٩٤٠ وأغرقت ثلاث مقاتلات إيطالية فى ميناء تارنتو (Taranto) من خلال توربيدات محمولة على طائرات، وهى عملية أثارت اهتمامًا معقولاً فى اليابان، وقد مكنت عملية فك الإشارات اللاسلكية قوة أعلى من اعتراض سفينة إيطالية

بعيدًا عن شاطئ (كيب ماتابان) وإغراق ثلاث سفن فى مارس عام ١٩٤١، وفى المعارك البرية خسرت إيطاليا بشكل سيئ تقريبًا، ولم يكن جيشها ولا قواتها الجوية مدربة بشكل كاف، وفشل كلام موسولينى المنمق أن يغزو قلوب رجاله المحاربين، وبعد عمليتين هجوميتين ضعيفتين ضد كينيا والصومال أمكن السيطرة على القوات الإيطالية فى شرق أفريقيا والحبشة التى تحررت فى أوائل عام ١٩٤١، والتى حررتها وحدات بريطانية وهندية وأفريقية وجنوب أفريقية.

لقد كان الأسرى كثيرين وكانوا مزينين بشكل مفرط، وهو ما أربك وحير قوات غرب أفريقيا التى وجدت من الصعب فهم عدو تحمل قتالاً قليلاً يستطيع أن يزين بهذه الهدايا والميداليات[١٠].

وكانت الانتصارات فى شرق أفريقيا قد لقيت قبولاً كبيرًا فى ساحل العاج، حيث لا تزال ذكريات الهزائم الحديثة فى الحبشة عالقة فى الأذهان وتغنى شاعر أسود بهذه الأمور:

اجر: أيها الإيطالى

اترك غزواتك المريضة

حلق على أجنحة الهزيمة

حيث تقف بريطانيا

وتتفرق جيوشك الجبانة.

وكانت الجيوش الإيطالية فى تقهقر كامل فى شمال أفريقيا؛ حيث إنه مع حلول فبراير عام ١٩٤١ كانت ليبيا تحت قبضة بريطانيا، واتباع إستراتيجية لإرهاق بريطانيا، أجبر هتلر القوات الألمانية على الهجوم بهذه

الجبهة المنحلة، وفى أبريل شن هجومًا على اليونان التى كان من المقصود أن تغطى الجناح الجنوبى من غزو روسيا وجزئيًا كوسيلة للإبقاء على الضغط على بريطانيا فى الشرق الأوسط، وأمر تشرشل جناحًا بريطانيًا وآخر من الأتراك للقيام على اليونان وقد ظهر أنها حركة وهمية، برغم أنه كان يحلم بثرموفولى أخرى (Thermophylae) حيث يلتقى الأستراليون والنيوزيلانديون "الباندارس: Panzers[١٢]".

لكن البريطانيين هم الذين طُردوا أولاً من اليونان وبعدها من كريت، وعلاوة على ذلك فى الجهة الجنوبية طَرد الجنرال إيروين جماعة روميل من البانزار البريطانية من ليبيا وحاصروا طبرق ووصل إلى الحدود المصرية فى شهر مايو، وكان هناك اثنان من التعويضات حيث تم إحباط التدخل الألمانى فى العراق (انظر ص ٤١١ الفصل الرابع) وقوة مشتركة من البريطانيين والدمنيون ووحدات فرنسا الحرة التى هزمت الحكومة المتحالفة فى سوريا.

إن الأحداث فى الشرق الأقصى وروسيا خلال النصف الثانى من عام ١٩٤١، جعلت الأمر حيويًا جدا لدرجة أنه مع الدعم الأمريكى تمسكت بريطانيا بكل بوصة أرض فى الشرق الأوسط، ومنذ سبتمبر ١٩٣٩ كان صانعو السياسة البريطانية مشغولين ومهمومين بسؤال واحد ما المدة التى يتخلى فيها اليابانيون عن أقاليم جنوب شرق آسيا التى استولوا عليها علانية؟ وفى البداية تقدموا خلسة، وفرضوا ضغوطًا على إدارة فيشى فى سايجون (Saigon) التى أثبتت أنها طبيعية، وحكومة هولندا فى جزر الشرق الهولندية التى لن تقبل التسليم، وكانت النتيجة أنه فى يوليو ١٩٤١ كانت الهند الصينية تحت الاحتلال اليابانى الفعلى، وكان هناك مبنى تحت الإنشاء للمطار بالقرب من تونكن (Tonkin) والذى سيضع كل الملايو داخل إطار القوات الجوية الإمبريالية اليابانية.

وسايرت بريطانيا وأستراليا التيار السائد، ففى يوليو عام ١٩٤٠ أغلق البريطانيون طريق بورما، وهو أكبر طريق إمداد للجيش الوطنى الصينى للجنرال شيانج كياشيك، وواصلت أستراليا تصدير الحبوب إلى اليابان وسمحت لها بقرض سخى[١٣].

أما عن الدفاع عن المنطقة فقد وضع تشرشل كل آماله على روزفلت الذى يستطيع أن يتعامل مع ما أسماه الكلب اليابانى فى المحيط الهادى، أما أسطول الولايات المتحدة فى الباسفيكى وقاعدته فى هاواى منذ عام ١٩٤٠ فقد استطاع تقديم حماية بسيطة للملايو والمحيط الهندى، وهى نقطة تم التركيز عليها أثناء مؤتمر كبار القادة البريطانيين والأمريكيين والهولنديين والأستراليين الذى انعقد فى سنغافورة فى أبريل عام ١٩٤١ وعلاوة على ذلك وفى ظل غياب تحالف رسمى لم يكن هناك تأكيد لدى الكونجرس يقبل الهجوم على المستعمرات البريطانية والهولندية، كسبب لإعلان حرب على اليابان التى كانت موافقة على إرسال الصبية الأمريكيين لتأييد الإمبراطوريات الاستعمارية المتداعية، وأخيرًا خطط روزفلت لإعلان التزام أمريكا لسلامة هولندا وبريطانيا فى العاشر من ديسمبر.

وسارت تغيرات وتحولات العلاقات بين اليابان والولايات المتحدة وبريطانيا على نفس النهج فى أستراليا ونيوزيلاند مع مزيج من القلق والغضب، وكلما تقدمت العمليات الحربية فى أوربا أصبحت حكومة مانتزينى مذعورة بشكل متزايد على دفاعات أستراليا، وعما إذا كانت الادعاءات البريطانية الأولى تلقى ترحيبًا، ولقد زار بريطانيا فى فبراير ١٩٤١ للضغط على وزارة الحرب لإبراز السيطرة عند اتخاذ القرار، وعاد مقتنعًا أن تشرشل كان متهورًا جدًا وصاحب يد عليا لدرجة أنه لا يثق فيه مع هذه الإستراتيجية الكبرى.

وكان مانزيني رجـــلاً مخادعًا ومستقبلاً للكثير من طائرات الفـــانتوم، وتخيل نفسه كرجل كومنولث يساوى فى المكانة سمطس، ويتمتـــع بـــأحلام يقظة سخيفة ليحل محل تشرشل[١٤].

ولا يهم فضول مانزيني كثيرًا، إن لم يكن لإرســـال قـــوات الأنـــزال (Anzac) إلى اليونان وكريت، وكما وصف أحد أعـــضاء حـــزب العمـــال الاسترالى عملية القتل الباردة لأكثر من ستة آلاف من الأنـــزال، لقـــد تـــم استرجاع ذكريات سيئة من غاليبولى، وقد تم تقديم اللوم إلى تـــشرشل فـــى أستراليا وبريطانيا وأكد القائد العمالى كيرتن (Curtin) اتهام بريطانيا أنهـــا كانت مختلفة حول قضية تأمين أستراليا وسلامتها؛ ففى يونيه طالب بريطانيا بأن تتخلى عن الإمبراطورية الأفريقية، وأن تغلق قناة السويس وهو إجـــراء لا يمكن أن يساعد أستراليا[١٥].

وأيضا قام الجنرال سير توماس بلامى القائد الأسترالى فـــى الـــشرق الأوسط بدراسة الموقف مع نداء لكل رجاله بالانسحاب مما اعتبـــره دفاعًـــا عديم الجدوى عن طبرق[١٦].

ووضع بلامى أيضا إصبعه على عادة عقلية رسمية عرضها تشرشل، التى تعمل فى صدور بنى وطنه وقال "هناك عامل غريـــب فـــى التفكيـــر البريطانى الذى دفعهم إلى النظر إلى الدومنيون على أنـــه ملحـــق أو ذيـــل لبريطانيا[١٧].

وفى خلال الشهور القليلة التالية أصبح الصف غير واضح، وصـــار المعروف فى اليابان "أنها تبنت القول بأن الإمبراطورية البريطانية قد تدمرت إلى أجزاء كثيرة"[١٨].

وبرغم أن هذا مبالغ فيه، فإن هذا الرأى كان مؤشرًا عن كيفية بؤس الأستراليين، وقد عبر عن حالتهم من خلال قسم الدولة (State Department) الذى أمر فى أبريل ١٩٤١ بقيام مجموعة من المقاتلات الحربية بحملة على فيجى ونيوزيلند وأستراليا وعلى أمل – بحسب كلام المسئول البحرى الرسمى فى الولايات المتحدة – أن يدعم أصدقاءنا الذين شعروا بأنهم مهملون ومنسيون من جانب إنجلترا الدولة الأم[١٩].

وكان تشرشل قلقًا جدا لدرجة أنه لا يستطيع إزالة هذه الحالة من العزلة الرهيبة، وفى أكتوبر وعد ماترينى خليفة كيرتن أنه سوف يرسل السفينة الحربية (ميرويلز) برنس أف ويلز (Indomitable) إلى مياه الشرق الأقصى، وكانت أستراليا ونيوزيلاند تأمل كل منها الكثير، لكن لا توجد سوى سفينتين أساسيتين يمكن الاستغناء عنهما، وكانت هذه إشارة لإعادة التأكيد، ولكن تحطمت حاملة الطائرات تاركة السفينتين الأساسيتين تعملان فى منطقة يتمتع فيها العدو بالسيادة الجوية.

ولن تستطيع مقاتلتان إخفاء هشاشة الدفاعات الإمبريالية فى الشرق الأقصى، وتم تعيين دوف كوبر (Duff Cooper) الذى زار الملايو فى أغسطس وزيرًا لشئون الشرق الأقصى، وقد كتب تقريرًا إلى تشرشل بعد شهرين من تعيينه بأن دفاعات المستعمرة كانت متداعية وآيلة للسقوط، وكان العديد من كبار الرسميين والعسكريين والمدنيين غير مبالين بالأخطاء التى تواجههم، وكان السير سنتون توماس البالغ من العمر اثنين وسبعين عامًا حاكم ممرات ستلمنت (Straits Settlement) يواجه خطرًا لا بد من القضاء عليه[٢٠].

رفض توماس عندما اندلعت الحرب إجلاء النساء البيض والأطفال من منطقة الحرب خوفًا من إزعاج اللاى الصينى والملاوى، وربما الوقت الوحيد فى تاريخ الإمبراطورية الذى تكون النساء والأطفال موجودين فيه،

وكان تأثير كوبر للرسميين الضعفاء والكسل العام فى القمة، وقد تأكد هذا من خلال الطيارين فى نيوزيلاند الذين وصلوا إلى الملايو خلال عـــام ١٩٤١، وكانوا مذهولين من هذا الموقف الضعيف، وكانت هناك إجازة نصف يـــوم كل أربعاء، وكانت أيام الأحد إجازة، وكان تدريب الطيارين قاصــرًا علـــى سبع ساعات فى اليوم، أما بالنسبة لأهالى نيوزيلاند فقــد كـــانوا بالحاجـــة للسرعة فى الوصول إلى كفاءة عملية[٢١].

ولم تنزعج القيادة لأنها تعتقد أن ملاحى الطيران اليابـــانيين وآليـــاتهم كانت من نوعية ضعيفة[٢٢].

ولقد وصف صحفى أمريكى سنغافورة علـــى أنهـــا مدينـــة المنطـــاد (City Blimps) ولقد أثر هذا التمييزالعنـــصرى علـــى أصـــحاب المنطـــاد وزوجاتهم، وقد ولد غضبهم نحو الهنود قدرًا كبيرًا من المرارة بين رجـــال جاءوا للدفاع عن وجودهم المدلل[٢٣].

إن ما يظل مدهشًا فى ضوء الكارثة التى حلت بالملايو هو نظرة تشبه النعامة لهؤلاء المسئولين عن أمنها، وفى أكتوبر ١٩٤٠ تم تجميـــع وتقيـــيم مشترك انتهى إلى أن قدرتنا على السيطرة على الملايو فيما وراء المنطقـــة المجاورة لسنغافورة فى مواجهة هجوم أكيد مسألة جدل كبير، وعلاوة علـــى ذلك فإنه فى حالة أى غزو ناجح فإن الباقى فى الحياة من أهـــل ســـنغافورة لأكثر من فترة قصيرة أمر غير محتمل[٢٤].

وبرغم ذلك ساد شعور قوى من السيادة العنصرية عند كل شخص بما فى ذلك تشرشل نفسه الذى وصف اليابانيين ذات مرة بأنهم ووبس (Wops) باللغة الإيطالية الدارجة للإيطاليين فى الشرق، وكان هنـــاك شـــعور بأنـــه تنقصهم الأعصاب والمهارات التنظيمية لشن غزو ناجح علـــى الممتلكـــات البريطانية والهولندية[٢٥].

وحتى لو هاجموا فإن القوة المحلية للأساطيل المشتركة للولايات المتحدة والبريطانية والهولندية والأسترالية تفوق كثيرًا الأسطول اليابانى حتى لو كان أكثر قوة فى حاملات الطائرات.

وفى نهاية نوفمبر تأكد تشرشل من خلال تقرير المخابرات عن الوضع فى الشرق الأقصى أن اليابان سوف تخرج من الحرب مع الربيع وبعدها سوف يصبح هدفهم الأول فريسة سهلة[٢٦].

ولم تتصرف الحكومة اليابانية كما تنبأ، ومع أوائل الخريف قرر رئيس الوزراء الجديد الجنرال هيكيكى توجو ووزارته مهاجمة بريطانيا وهولندا والمستعمرات الأمريكية فى الشرق الأقصى، إذا، كما هو المحتمل، رفضت ثلاث دول رفع حمولة بترول ورفضت الهجوم على اليابان بعد احتلال الهند الصينية، لقد آذى حصار الهند الصينية، لقد أذى الحصار البترولى اليابانى لكن الذى سيطر على الوزراء اليابانيين إمكانية أن ألمانيا تهزم روسيا وبريطانيا، وأثر ذلك بشكل مؤقت على ميزان القوى فى المحيط الهادى لصالح اليابان، وفى الفترة من الثامن إلى السابع عشر من ديسمبر نزلت قوات محمولة بحرًا على شواطئ سيام (التى استسلمت فورًا والملايو وبورنيو وساراكوا والفلبين وجوم (Guam) ويك إيلند (Wake Island) وتحكمت فى إمكانية قيام اليابان بالعديد من العمليات التلقائية، وكانت المفاجأة كلية وكاملة[٢٧].

بعد الحرب تمت ادعاءات تسعى للأذى بأن تشرشل قد حصل على إشارات من المخابرات بتحرك واتجاه قوة بيرل هاربر– لكنه رفض أن ينبه روزفلت لكى يتأكد من دخول الولايات المتحدة الحرب. وكانت هذه إشارات كانارد (canard) التقطتها مراكز استماع هونج كونج، وأمكن تصديقها بشكل صحيح بأنها من الأسطول اليابانى المتجه جنوب بحر الصين إلى الملايو وليس من أرمادا أسطول بيرل هاربور[٢٨].

لقد سقطت الإمبراطوية البريطانية فى الشرق الأقصى بسرعة أذهلت وأدهشت كل واحد. ولقد تم استعراض قيمة سنغافورة كقاعـدة مـن خـلال القنابل والغارات الجوية الموجودة فى الهند الصينية فى الثامن من ديـسمبر. وبعد يومين أنزلت قنابل ومقاتلات تطير مـن سـيام الريبـالس (Repulse) وأمير ويلز (Prince of Wales) بينمـا كانـت طـائرات (RAF) و(RAAF) (RNZAF) مشغولة فى محاولة لإيقاف التقدم اليابانى مـن رءوس معـابر (كبار) ثلاثة أقامتها اليابان على الشواطئ الشرقية للملايو، أما عن المعارك الأرضية فقد تقدم اليابانيون عبر الغابات بكفاءة، وحطـم طيرانهـا بـشكل منهجى المطارات البريطانية، وكانت كلها موجودة فى شـمال المـستعمرة، وبعد ثلاثة أيام من الصراع الجوى غير المتكافئ حذر قائد قوات (RAF) بأن قواته سوف تواصل القتال فقط لمدة أسبوعين[٢٩].

وفى نهاية الشهر كانت القوات البريطانية وقوات الدومنيون والقـوات الهندية البرية فى تقهقرٍ كامل إلى سنغافورة، وبعد أن حاربوا ببـسالة ضـد عدو أكبر من قوتهم بشكل كبير. واستسلمت هونج كونج يوم عيـد المـيلاد وكان وضعها حرجًا منذ اندلاع الحرب اليابانية الصينية قبـل ذلـك بـأربع سنوات، وفى أواخر عام ١٩٤٠، كانت هناك سلسلة من تمرد رجال مدفعية السيخ فى الحصن، الذين كما ظهر دمرتهم الدعاية اليابانية[٣٠].

ولقد كان المطلوب قوات بيضاء للدفاع عـن إمبراطوريـة الرجـل الأبيض، ولذا فإنه خلال عام ١٩٤١ تم إرسال قـوات مـشاة كنديـة إلـى المستعمرة بناء على طلب بريطانيا، وكانوا جميعًا ولكل الأغراض والأهداف فاقدى الأمل، وبعد الحرب اتهم القائد المحلى كريستوفر مالتباى بعدم النظام والجبن خلال المراحل الأخيرة للحصار[٣١].

لقد كانت هناك اتهامات مضادة بعد سقوط دفاعات الملايو، وقد وجه الجنرال السير أرشيبالد وافيل القائد الأعلى في جنوب شرق آسيا اللوم إلى الجنود الأستراليين مدعيًا أنهم قد هربوا من الجبهة بشكل مضطرب وعدم انتظام، والقيام بالنهب وقتل من يقابلهم أثناء هروبهم، أما الجنرال والقائد الأسترالي المحلي الميجور جنرال غوردون بنيت فقد انتقد بشدة القيادة الضعيفة للضباط البريطانيين الذين تم اختيارهم بحسب نظام المدرسة القديمة للاختيار[٣٢].

وليس اختيار هذا القائد المؤهل بشكل خاص ليتولى القيادة كان سيئًا مزعجًا وفشل في التعامل مع كل شخص بمن فيهم رجاله الخصوصيون[٣٣].

وما إن صار واضحًا أن سنغافورة على وشك السقوط بدأ يبحث لنفسه عن سفينة للهرب، مدعيًا أنه يريد أن يحكي للأستراليين ما حدث، وبشكل واضح، ولم يستمع قط عن الأغنية الشعبية ليعقوب (Jacobile) جوني كوب (Johnny Cope) والذى هرب الجنرال كوب بالأخبار عن هزيمته بعد معركة برستونبانز (Prestonpans) وقد أنكر ادعاءات بنيت ومالبت باى ووفيل وكل الذين بقوا على قيد الحياة من رجال الحملة، ومهما كانت الحقيقة الصحيحة فلا يزال هناك شيء غير مستساغ عن القواد المهزومين، عندما تتفرق الجيوش بشكل ما من القمة إلى القاعدة.

إن سجل القادة المدنيين والعسكريين فى المالايو يؤيد هذا القول فقد استسلمت بينانج (Penang) وميناؤها العظيمة ومخازنها فى الخامس عشر من ديسمبر، واشتكى الجنود الهنود الذين شاركوا فى التقهقر بعد ذلك من نقص الأسلحة والذخيرة، والأوامر التى أنكرت عليهم فرصة القيام بموقف معين وغياب الغطاء الجوى، وتسليم المؤن بشكل غريب ومجموعة من التغيرات السيئة أثناء العمليات التى كان من الممكن تجنبها[٣٤].

ولم يقلق أى شيء من هذا اليابانيين الذين حطموا الأسطورة التى روجها البريطانيون والتى تهم الأمريكيين والقادة بالكشف عن أنهم شجعان وعندهم رجال محاربون مدربون، وبعد صراع مع غواصة يابانية فى يناير عام ١٩٤٢ لاحظ ضابط على ظهر المدمرة جوبتير (Jupitar) عن أعدائه أنهم أظهروا شجاعة وروحًا قتالية عالية لنقول على الأقل إنهم هاجمونا فجأة[٣٥].

هناك الكثير من المفاجآت لرجال الخدمة فى التحالف فى الشرق الأقصى خلال ديسمبر ١٩٤١، وهناك المزيد من المفاجآت القادمة، وبينما كانت قوات الإمبراطورية مجبرة على التقهقر عبر الغابات فى الملايو وسنغافورة، وهى مفاتيح الدفاع عن الإمبراطورية فى الشرق الأقصى فى وجه خطر متزايد، كانت نفسية تشرشل ما بين اليأس والابتهاج، وكانت البهجة أكثر سيطرة، وفى الحادى عشر من ديسمبر ١٩٤١ أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على أمريكا وسمحت لروزفلت بالبحث عن موافقة الكونجرس للدخول فى الصراع الأوربى، والآن أصبحت الولايات المتحدة مستعدة للقتال، وشعر تشرشل أنه متأكد من أن الحلفاء (حالاً سيعرفون بالأمم المتحدة) سوف يكسبون الحرب فى النهاية فى جميع الجبهات برغم أنه من غير المعروف طول المدة التى تستغرقها هذه العملية.

لم يكن رئيس الوزراء ومرءوسوه مترددين فى اعتقادهم هذا برغم النكسات الحديثة فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى، وكان الهدف الأساسى لبريطانيا هو هزيمة ألمانيا، أما اليابان فستظل فترة، يجب التضحية لكرامة البريطانيين ومناطقهم فى أسيا، برغم أنه لفترة قصيرة كان الأمل معقودًا على الحلفاء القادرين على تشكيل خط دفاعى يمتد من بورما جنوبًا عبر سنغافورة وجزر الهند الهولندية إلى الساحل الشمالى لأستراليا.

وتتطلب هزيمة ألمانيا وإبقاء جبهة دفاعية في الشرق الأقصى احتفاظ بريطانيا بالسيطرة على الشرق الأوسط والبحر المتوسط، وكانا كلاهما تحت الضغط الألماني المتزايد.

وفي بداية الشتاء اخترقت مجموعة الجيش الألماني الجنوبي روسيا الجنوبية حتى روستوف (Rostov)، واعتقدت المخابرات البريطانية أنها ستندفع في القوقاز مع بداية الربيع، وإذا نجح هذا التقدم فإن ألمانيا ستكون في وضع يسمح بالتدخل مباشرة في العراق وإيران (حيث انكشفت بالفعل قوة المحور الخامسة)، وفي نفس الوقت جددت قوات روميل الهجوم على مصر، كما توقفت محاولات المحور لقطع خطوط الإمداد عبر البحر المتوسط وهناك مخاوف إسبانية للهجوم على جبل طارق.

وكانت قناة السويس آنذاك في مرحلة خطر، لأنه خلال عام ١٩٤١ صار الشرق الأوسط بؤرة خطوط لا سلكية حية، وكانت الطائرات حسب قانون الإعارة والتأجير قد وزعت عبر الكاريبي إلى ترابنراد، ومن هناك جنوبًا إلى ناتال وإلى الساحل الشرقي للبرازيل ثم الطيران عبر الأطلسي إلى مطار جديد في تاكورادي (Takoradi) في ساحل الذهب، وحلقت الطائرات إلى الخرطوم في الجزء الأخير من رحلتها إلى المطارات في مصر.

وفي البداية استطاعت قاذفات طويلة المدى أن تواصل الرحلة، ولكن في بداية شهر ديسمبر اقتربت الولايات المتحدة من بريطانيا لبناء مطار ترانسيت للطائرات متوسطة المدى في جزيرة أسنسيون (Ascension)[٣٦].

وأضاف هذا الصراع في الشرق الأقصى إلى أهمية هذا الطريق؛ لأن الطائرات تستطيع الطيران من مصر إلى الهند، وفي ربيع عام ١٩٤٢ وردًا على نقص الطيارين تم نقل بعضهم بالناقلة (Uss Ranger) إلى نقطة

مائة وخمسة وعشرين ميلاً بعيدًا عن ساحل غرب أفريقيا، وبعدها أقلعت إلى أكرا فى المرحلة الأولى من سباق طيران ينقلهم إلى الهند(٣٧).

وكانت عملية الطيران التى استخدمت هذا الطريق تحت إشراف رجال (USAAF) و(RAF) والخطوط الجوية الأمريكية، وحولوا طوارئ زمن الحرب إلى فائدة واستخدموا خدمات السكك الحديدية لاختراق داخل السوق الإمبريالى الجوى للنقل، وأسسوا طريقًا مدنيًا بين أكرا والخرطوم وكسبوا السماح بالحديث عن قاعدة أسكنسون (Ascension) فى الطيران المدنى بعد الحرب(٣٨).

وإذا انكسر هذا الطريق فسوف يتعرض الدفاع عن الهند والشرق الأقصى فضلاً عن الشرق الأوسط والبحر المتوسط إلى خطر كبير، ولمواجهة ما أصبح هجومًا ألمانيا مزدوجا على الشرق الأوسط خلال ١٩٤٢، أبحر تشرشل إلى أكريكا فى الخامس عشر من ديسمبر، وهو مستعد لإقناع روزفيلت أن الإستراتيجية المتاحة فقط للحلفاء هى التى تهزم ألمانيا أولا، ولكى نصل إلى هذه النهاية كان عليه هو ومستشاريه مواجهة الحقيقة المرة وهى تأجيل المصالح الإمبراطورية فى آسيا برغم أن تشرشل كان يأمل أن هؤلاء الذين يدافعون عنهم، فإن جهودهم سوف تكون عديمة الجدوى إذا سمحت ألمانيا لنفسها بقيام كيان لها فى الشرق الأوسط، ومن ثَمَّ تضمن الوسيلة للتعاون مباشرة مع القوات اليابانية التى بدأت مع بداية العام فى التقدم غربًا عبر بورما إلى حدود الهند، وكان تشرشل يأمل أن يحتفظ فى النهاية بكل الإمبراطورية إذا ضحى بجزء منها.

ولقد تعرقلت إستراتيجية الحلفاء الكبرى لعام ١٩٤٢ بسبب تشرشل وروزفلت ومستشاريهما خلال الأسبوعين الأخيرين من شهر ديسمبر والذين

وافقوا على مبدأ ألمانيا أولا وبعدها اليابان؛ ففى البداية يأتى طـرد القـوات الإيطالية والألمانية من شمال أفريقيا. وبعدها تبدأ المقاتلات مـن (USAAF) (RAF) فى قصف وضرب عنيف متواصل لألمانيـا باسـتخدام المطـارات البريطانية، ونظرًا لأن الإمبراطورية البريطانية فى الـشرق الأقـصى لـم تستطع الاندفاع نحو أستراليا، وإذا سقطت الفلبين فإن بقايا حاميتهـا سـوف تنقل بالسفن إلى سنغافورة، إذا كان الاحتفاظ بها والدفاع عنهـا لا يـزالان ممكنين.

(١١)

رفاق مخلصون

ضغوط الحرب

لقد كان عام ١٩٤٢ عامًا كئيبًا وقاسيًا على الإمبراطورية البريطانية، ففى الخامس عشر من فبراير استسلمت الحصون القوية فى سنغافورة وعددها ١٣٠٠٠ حصن أمام جيش يابانى صغير، وبعد أربعة أيام وصلت الحرب إلى أستراليا وعانت داروين من غارة جوية مدمرة، بينما استعدت حكومة مستعدة فى كانبرا للغزو، وتم سحق بورما مع سقوط رانجون فى الأول من مارس، وسقطت ماندلانى فى الأول من مايو، كما تم الاستيلاء على جزر أندامان (Andaman Islands) فى الثالث والعشرين من مارس، وخلال أول أسبوعين من أبريل رست أرمادا يابانية برغبتها فى خليج البنغال: وعانت كلكتا وكولومبو من هجمات جوية، وتم إغراق سفن بريطانيين، وأمكن السيطرة على أسطول ضعيف للحلفاء فى معركة بحر جاواه فى نهاية فبراير، وفى خلال شهرين غزت القوات اليابانية جزر الهند الهولندية والفلبين وجزءًا كبيرًا من غينيا الجديدة وسلسلة من مستعمرات الجزر البريطانية فى جنوب غرب المحيط الهادى، وفى نفس الوقت كانت الإستراتيجيات اليابانية تخطط للاستيلاء على فيجى، وسلسلة طويلة من العمليات فى المحيط الهندى برغم الأصوات المرتفعة التى توقعت الكوارث بهذا الحجم فإن هذه النكسات أذهلت بريطانيا وبقية الإمبراطورية.

إن ما حدث فى الشرق الأقصى والمحيط الهادى ولّد النشاط لدى المرء ولأفكاره بوفائه القومى، صحبة إقحام اليد بشكل كبير بحثا عن أسئلة حول طبيعة الإمبراطورية ومستقبلها، وكان هناك أيضا الكثير من ذكر غاضب للأسماء المسئولة بشكل مباشر أو غير مباشر عن النكسات التى تعفى نفسها وتدين الآخرين.

لقد رأت أستراليا نفسها أنها الضحية الرئيسة، وبعد سقوط سنغافورة (خط ماجينو الاسترالي) أعلنت صحيفة هيرالد مورننج سيدني (Sydney Morning Herald) أن الإمبراطورية تعانى من سلسلة من الكوارث التى تهزها من أعماقها وقالت "يبدو أننا نفكر بطريقة مشوشة من خلال الكثير من التشويش الذهنى، وكما اعتاد فى كل أحاديثه وجه كيرتن (Curten) اللوم إلى بريطانيا ومأزق بلاده، وتوسل إلى الولايات المتحدة لإنقاذ وطنه، وقد تملقت اتهاماته عن الخيانة تشرشل الذى اتهمه هـ. ف إيفت وزير الشئون الخارجية باستسلامه للتحيز الموالى عند معالجة قضية أستراليا، وادعى أن رئيس الوزراء "يبدو أن عنده كره دفين لحكومة العمال وكراهية للحكم المستقل الذى يجعل من المستحيل علينا أن نعمل معه"[١].

لقد أقلعت الحالة القريبة من الهستيريا التى يبدو أنها تتملك الحكومة الاسترالية الميجور جنرال لويس بريريتون (Prereton) قائد القوات الأمريكية (USAAF) فى الشرق الأقصى وأنه اقترح فرض رقابة مركزية وقوية على السياسات الإستراتيجية تحت النفوذ الأمريكي[٢].

كان أهالى نيوزيلند الجديدة مستعدين لتلقى ضرباتهم، وكان رد الفعل لإجبار سنغافورة على الاستسلام؛ حيث أعلن بيتر فرسار رئيس الوزراء لنيوزيلندا "لن نغفل ولن نندمج فى النقد غير المساعد لهؤلاء الذين لديهم توجيه أعلى من مجهود الحرب" وفى بريطانيا قارن الكثيرون بمن فيهم تشرشل نوبات غضب أستراليا مع الرواقية للشعب البريطانى عندما واجهوا الخطر.

ولاحظ أوليفر هارفى فى يومياته أن حكومة كيرتن صرخت طالبة المساعدة من الأمريكيين وقال "إنه من الواضح أنهم يعتقدون أننا ضعفاء ولا يعتمد علينا، إننى أخشى إنهاء الحياة الخسنة فى أستراليا التى جعلتهم مرفهين ومع هذا فليس هذا هو الوضع بالنسبة لسكان نيوزيلاندا الجديدة الذين كانوا نماذج من الوقار والصرامة والمساعدة[٣].

وكان رد كيرتن على هذا النقد فى حديث إذاعى أذيع للشعب البريطانى فى مايو عام ١٩٤٤ وذكر فيه لمستمعيه أن الأستراليين كانوا يعانون كثيرًا وكأنهم ليسوا أكثر مما كانوا فيه حسب حالات العجز والتقصير[٤].

وكانت نداءات أستراليا المستمرة خلال الشهور الثلاثة الأولى من عام ١٩٤٢ صرخات من اليأس أكثر منها إعلانًا عن الاستقلال، ومع هذا كان واضحًا لكل شخص أن أمريكا غير قادرة على الدفاع عن أطراف إمبراطوريتها دون مساعدة، ولا توجد أى مساعدة من أى دول الدومنيون ولقد تم زجر محاولة بريطانية للتوسل مباشرة إلى كندا للحصول على الأسلحة، وأخبر الوزير الكندى للتموين الحكومة الأسترالية بصراحة إنه "إذا طلبت منا بريطانيا أن نرسل إمداداتنا إلى الشرق الأوسط فسوف نرسلها إلى الشرق الأوسط، وإذا طلبت منا أن نرسلها إلى أستراليا فسنرسلها إلى أستراليا"[٥].

لقد تقدمت أمريكا لتصبح ترسانة لأستراليا ونيوزيلندا، ما بين يناير ويونيه عام ١٩٤٢، وتلقى (RAAF) و(RNZAF) أربعًا وخمسين طائرة من بريطانيا و ٢٣٠ طائرة من الولايات المتحدة، وتم دفع الجزء الأكبر من الاحتياطى من الآلات إلى الهند[٦].

وفى نفس الوقت تم نقل ٥٠,٠٠٠ CIS للدفاع عن أستراليا بناءً على طلب تشرشل برغم أنه اعتقد، بحق، كما تبين بعد ذلك، أن الغزو اليابانى لن يكون أبدًا حقيقة واقعة(٧).

وفى بداية عام ١٩٤٢ شهدت العلاقات بين بريطانيا وأستراليا ضربات عنيفة، برغم أنها تحسنت مرة ثانية، وتراجع التهديد للإنزال إلى اليابانى وتأجلت الذكريات المرة ووصلت إلى السطح فى عامى (١٩٩١، ١٩٩٢) عندما كرر رئيس الوزراء الأسترالى الجمهورى بول كينج الادعاءات بأن تشرشل قد ترك أستراليا فى حالة هزيمة منكرة لكى يركز على الحرب فى الشرق الأوسط، وهذه التهمة مثل تلك التى حدثت فى عامى ١٩٤١، ١٩٤٢ عبارة عن تبسيط فشل فى أن يأخذ فى الاعتبار موقف بريطانيا الحرج فى مصر وفى الحد الشمالى الشرقى للهند، ولقد كان ولا يزال صعبًا على الأستراليين أن يهضموا حقيقة أنها فى لحظتها الحرجة كانت دولة فى الدرك الأسفل فى قائمة الألويات الإستراتيجية البريطانية.

لقد أمكن فى النهاية استرداد مستعمرات بريطانيا المفقودة، إن لم تكن كرامتها، من خلال جهود الولايات المتحدة التى كانت قد أخذت على عاتقها العبء الأكبر للدفاع عن الإمبراطورية فى بداية عام ١٩٤٢، ولقد كانت المقاتلات الحربية الأمريكية التى هزمت الأسطول اليابانى فى اشتباكات فى بحر كوشل وميدواى (Miduay) فى مايو ويونيه وكان النصر الأخير قد رجح كفة الميزان للقوة البحرية فى المحيط الهادى لصالح الحلفاء وأوقف التوسع اليابانى، ومع حلول شهر أغسطس واجهت القوات الأمريكية والأسترالية بهجوم مضاد، وبدأت العملية الطويلة فى طرد اليابانيين من جنوب غرب المحيط الهادى وقامت القوات الإمبراطورية بالدفاع عن الهند وإعادة غزو بورما فى أعوام (١٩٤٢ – ١٩٤٥)، ولكن هنا كما فى كل

الجبهات كانت الأسلحة الأمريكية والطائرات حيوية جدًا، ولقد سببت الأحداث المؤذية في الشرق الأقصى رعبًا في بريطانيا، وكانت الدولة بالفعل وسط فترة من النقد الذاتي المكثف؛ حيث إن خططًا قد خططت لإعادة بناء ما بعد الحرب.

لقد كان هناك إحساس جارف أن ما حدث بعد ذلك لا يمكن أن يعود إلى عالم ما قبل الحرب من عدم الكفاءة وعدم المساواة الاجتماعية والانحراف الاقتصادى، وسوف تكون بريطانيا الجديدة دولة زرعت الانسجام الاجتماعى وكرست جزءًا ملموسًا من ثروتها وطاقاتها فى إعادة تجديد الصناعة، وتشغيل العمال وتقديم نظام عادل وكريم من التعليم والرفاهية للجميع.

وكيف يستمر ذلك، ربما يتحقق من خلال تقرير بيفردج (Beveridge) المشهور الذى صدر فى ديسمبر ١٩٤٢، وكان الترحيب به على نطاق واسع كهدف يستحق الحرب من أجله.

إن الدولة سوف يتحسن وضعها إلى الأفضل، ولكن ماذا عن إمبراطوريتها؟ لقد وقع ماضى الإمبراطورية وحاضرها ومستقبلها فجأة تحت فحص وتدقيق عام خلال الأسابيع التى تلت سقوط سنغافورة، وإن صدمة الامتيازات الأجنبية التى هزت بفاعلية ادعاءات بريطانيا الهشة كقوة إمبراطورية قد جاء، بعد سلسلة من الإلهام المربك عن شخصية الإمبراطورية، إن التحليل المدمر والصريح عن الخلفية وعن الاستسلام الذى كتبه مراسل جريدة التايمز للشرق الأقصى، والذى صدر فى ١٨ فبراير، وناقش الروتين السهل عن الإدارة الاستعمارية، قد قوض إدارة الرسميين الذى أظهروا أنفسهم بعيدين عن الديناميكية والعدوان الذى صار واضحًا فى مناطق أخرى من الحياة العامة، ولا يوجد لدى الحكومة أى دور فى حياة الشعب، بهذا أنهى الكاتب كلامه، وقد اتسعت وجهة نظره فى افتتاحية أدانت

أداءه فى الملايو لعجزه عن الاتصال بــين الحكومــة المحليــة والــسكان الآسيويين بشكل موسع، الذين كان رأيهم باستثناء رأى الصين المحترم سلبيًا وجبانًا وفاتر الشعور.

لقد منعت الرقابة الرسمية نشر تفاصيل الخلل عن أهل الملايو بــسبب اليابانيين وأيضًا القوات الهندية والبورمية التى هبطت همتها، وبــرغم هــذا قارن النقاد البرلمانيون للحكومة اختلاف أهالى الملايو مع الــشراسة التــى يحارب بها أهل فيجى من أجل أسيادهم الأمريكيين الــذين وعــدوا الفلبــين بالحكم الذاتى بعد الحرب[٨].

وبحسب مجلة الإيكونومست (Economist) فقد الرعايا البريطانيون فى الشرق الأقصى الثقة فى الإمبراطورية وقضية الحلفاء[٩]. وكــشف الكــابتن ليونارد جامانز عضو برلمان الاتحاد وأحد ضابط أحد الحياء فى المالايو عن انهيار فى الثقة القومية بالنفس وقال "إننا لا نتوقع من الآسيويين والأفارقة أن يؤمنوا بنا كقوة استعمارية، إلا إن آمنا بأنفسنا، إن المطلوب هو حياة جديدة لا بد أن تفتح فى المثل الإمبريالية القديمــة للمواطنــة العامــة والوصــاية والرؤية[١٠].

وطبقا للشروط العريضة فإن الهزيمة الكاملة فى الملايو كانت مثالاً آخر لفشل النظام القديم والعاملين به، وفى الحال دخلت شخصية الكولونيل بلمــبس (Blimp) فى الجدال حيث صار يرمز إلى الفكر المتحجــر والرضــا الــذاتى والغموض المتعمد؛ والتى نراها الآن مظاهر بارزة للنظام القديم (Old Gang) وهذه المجموعة من الرجال، التى بحسب أساطير الجناح اليسارى وجهــت الدولة بشكل يقل براعة بين الحروب، إن التحليل (الروتيني) لبريــد رجــال الخدمة الذين يتصدون لقياس الأخلاق كشف أنه فى بداية الكوارث فى الشرق

الأقصى كانت هناك زيادة فى الشكوى عن بلمبس (Blimps) فى الأماكن العليا[١١].

واستخدم أ. ل. روس (Rowse) وهو مؤرخ متميز فى إكسفورد مجلة التايمز ليتأمل إلى أى حد نبعت المساوئ الحديثة للإمبراطورية من مجموعة القوانين التى تبنتها المدارس العامة التى رفعت قيمة الشخصية على الذكاء.

إنها السمة الأخيرة التى سجلت الرجال الذين بنوا الإمبراطورية فى أيام الملكة إليزابث الأولى والملكة آن واثنين من عائلة بث[١٢].

وفى نفس اليوم أعلنت الحكومة عن إجراء امتحان قاس لكل الكولونيل من رجال الجيش الذين بلغوا سن الخامسة والأربعين على أساس التحرر من اتباع بلمبس (Blimps) وكان هناك أيضًا جديد لأتباع بلمبس فى حزب العموم، وكانت الحكومة قاسية على اللصوص الذين سمحوا لبينانج (Penang) بالتسريح دون حرب وقدموا هدية لليابانيين من مخزونهم من المطاط[١٣].

وهنا كان ولا بد من التخلص من بلمبس مع عدد آخر، والذين كانوا يتمتعون بمزايا الحياة فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية، ويعيش غالبية البريطانيين فى عالم مهجور، كما قال الميجور جيمس ملنر أحد أعضاء حزب العمال، وفى هذه اللحظة كانوا يتناولون طعام الغداء وهم يرتدون معاطف قصيرة، وكان كل بقية الحوار فى كلكتا فقط على بعد أميال قليلة من خط الجبهة[١٤]، وكان قريبا من الهدف.

وفى بورما كان الجنرال الأمريكى القط فاينجر (Vinegar) جوستلول الذى كان ينزعج من اجتماعاته مع الرجال الضعفاء والسطحيين الذين كانوا يديرون الإمبراطورية ويشرفون على قيادة قواتها.

وجرب أحد الرجال المعترف بهم صبره وذكر في يومياته "إن مونوكلاد حيوان في أثناء الغداء، ولا يستطيع أحد أن يستمع بوصيته إن رجلا مثلي ليس لديه وقت لكوب من البيرة[١٥].

إن طريقة ملاحظة هذا النوع من الرجال، وهناك الكثيرون منهم من الأمريكيين الحاقدين، والذين بدأوا يقابلونهم في أماكن أخرى من الإمبراطورية في أعلى مناصب القوات المسلحة، والحكومة وكان الجنرال ريتوت أيزنهاور المسئول عن التخطيط الإستراتيجي في الشرق الأقصى متضايقًا من رد الفعل العنيف لوافيل (Wavell) بعد أن تسلم قوات صينية للمساعدة في إنقاذ الجبهة المنهارة في بورما[١٦].

وأيضا أيقن كل الأمريكيين أيضا أن الطبقة الحاكمة في بريطانيا ينقصها الدافع الداخلي والطاقة لشن حرب حديثة.

وكان هناك البعض في أمريكا وبريطانيا الذين يتعجبون عما إذا كانت تلك الطبقة الحاكمة في الإمبراطورية تستحق البقاء في سلطتها، ولم يكن هناك مكان في العالم بعد الحرب لأي امتيازات خاصة سواء للأفراد أو الأمم، كما أعلن روزفلت في نوفمبر عام ١٩٤١، وكان بنو وطنه يميلون للاعتقاد– كما فعل عدد معقول من أهل الرأي في بريطانيا، معظمهم في أحزاب الشمال والوسط– ولكن مع درجة أقل بذلت الحكومة التي حاولت باستمرار العمل معًا والمشاركة في أعباء الحرب بشكل متساو، وكانت روح المساواة والروح الديمقراطية في الخارج وعملية التعبير عنها بشكل إجباري في رسائل رجال الخدمة التي احتوت على الكثير من الضباط المتذمرين الذين لا شكل لهم لكنهم معترف بهم، والذين يمارسون السلطة.

لم تغير الحرب النظام الطبقى داخل الإمبراطورية، ويـرتبط رجـال الخدمة إلى وحدات احتلت الملايو مرة ثانية فى صيف ١٩٤٥، وقد تعرضت للأذى نتيجة هؤلاء الذين حرروهم أى المزارعين وزوجاتهم الذين ظهـروا مثل جماعات البوربون التى تذكرت كل شيء ولم تتعلم شيئاً[١٧].

ولم يكن هذا مدهشاً فى معظم وجـود طبقـة الـصفوة التـى أدارت المستعمرات والتى جاءت تقريبًا من الطبقات العليا والوسطى فى المجتمـع، وقد تم تجنيد الرجال فى الوظائف العليا أثناء الحرب من خريجى المـدارس العامة الذين تخرجوا فى أكسفورد أو كمبردج وأظهروا أنفسهم علـى أنهـم أكفاء فى المجال العملى أكثر من صالات الامتحان.

إن الشخصية تهم الكثيرين عنـد اللقـاء واختيـار ضـباط الأحيـاء الأساسيين، وأعطى السير رالف فيرس نقطة البحث عن مثل هذه العلامـات لسرد القصص عن النقص الداخلى مثل هز اليد بشكل فاتر الهمـة[١٨].

وقبل عام ١٩١٤ تم تطبيق الاختبار الاجتماعى، الذى قدم لمن يجرى لقاء معه سيجارة من فرجينيا بدلاً من التركية، والتى يتم تمزيقها بشكل آلى لما كان يسمى بالخطأ الاجتماعي[١٩].

وعلى هذا كانت نغمة الإمبراطورية أرستقراطية ومحافظة، ويمكن أن تحكم على هذا من خلال ردود فعل مجموعة الرسميين الهنـود وزوجـاتهم لاختيار أجواء للانتخابات العامة لحزب العمال فى أواخـر يوليـو ١٩٤٥، والتى سمعوا عنها أثناء ركوب سفينة تمر عبر البحـر المتوسـط، وهنـاك ملاحظات قلقة حول عما إذا كانت المنح الحكومية والمدارس العامة ورسوم الفحم فى خطر، وبعدها دار نقاش حول مـن سـيحل محـل ليـو أميـرى (Amery) كرئيس وزراء للهند.

لقد صار أميرى خارج السلطة ومن سيحل محله؟ وهذه نقطة مفصلة من التأمل، واعتقد الكولونيل أنه قد سمع شائعة أنه بلم ديت (Palme Dutt) وهو عضو الحزب الشيوعى من أصل هندى وسويدى، يا إلهى، ربما يختارون على الأقل بريطانيين لإدارة الدولة المدمرة وليسوا من الزنوج[٢٠].

إن التكبر والغطرسة الاجتماعية سارتا جنبا إلى جنب، وكانا كلاهما قادرًا على إيذاء الإمبراطورية، هكذا فكرت ماجرى ببرهام (Perham) وهى من المعلقين الذين على علم جيد بالشئون الاستعمارية، والتى ظلت حتى أحداث فبراير عام ١٩٤٢ تعتنق بدون استحقاق الأفكار الإمبريالية الأبوية، وفى مقالين ظهرا فى جريدة التايمز فى شهر مارس سألت وأجابت على السؤال غير المريح: كيف يتصرف الكينيون إذا وجهت قوة عمل يابانية سفينة إلى شواطئ مومباسا (Mombasa)، وكانت تخشى أنهم ربما يتصرفون مثل سكان الملايو لأن الحكم البريطانى فى كينيا قد فشل فى إثارة أى إحساس عميق من الولاء أو الهدف العام بين شعوبها المختلفة، وكانت جذور المتاعب والمشاكل هى إن الرسميين البريطانيين الجادين فى عملهم والذين حكموا المستعمرة ما إن ينتهى عملهم اليومى ويذهبون إلى منازلهم أو أنديتهم وصحبة كل واحد منهم هذا التباعد الاختيارى ويتركون الحكام تحت سخرية وإهانة الأقلية المتزايدة من المثقفين السود الذين سوف يحلون محلهم فى وقت ما[٢١].

لقد ضربت السيدة برهام على وتر مهم، وأبرزت الحرب فى الشرق الأقصى فى ربيع ١٩٤٢ كل إشارة على أنها ستمتد بسرعة إلى المحيط الهندى على أنها صراع عنصرى، ورحبت الدعاية اليابانية بسقوط سنغافورة وهونج كونج ومانيلا، واعتبرتها انتصارات لشعوب آسيا وعلامات أساسية فى طريق تحررهم من الحكم الأبيض، واضطر الأستراليون إلى اجتياح

شوارع سنغافورة، كذريعة بأن النظام العنصرى القديم قد انتهى، وأن البيض والسجناء العسكريين قد انحدر دورهم بشكل منهجى، وساءت معاملتهم فيما يفسر لدى الضحايا على أنه شكل من الانتقام العنصرى، كما تم قتل البعض مثل الاثنين والعشرين إداريًا ورجال تنصير وعمال اللاسلكى فى جزر جلبرت فى أكتوبر عام ١٩٤٢[٢٢].

لقد وصلت دعوة اليابان إلى حرب عنصرية إلى الكثيرين وكتب سمطس يقول "إن البيض اضطهدونا ولن نعانى أسوأ تحت حكم اليابانيين" ولكنه واسى نفسه قائلا "إننى متأكد أن الغالبية العظمى لا تزال مخلصة بطريقتها المحافظة"[٢٣].

أما الكثيرون من الهنود والملايو والبورنيو فليسوا كذلك، وفيما يبقى من حقبة بسيطة من الحرب (بفضل قسوة التنظيمات السرية الرسمية البريطانية) قد ارتدت جماعات كبيرة من الهنود والجوركا وقوات التاميل وتحولت إلى جانب اليابانيين وشكلوا الجيش الوطنى الهندى (INA) وهو قوة وطنية تسعى إلى قلب نظام الراج (Raj).

ولم تُعرف الأعداد الكاملة، وفى عام ١٩٤٤ اعتقدت المخابرات العسكرية أن الجيش الوطنى الهندى يضم ٣٥,٠٠٠ جندى، وبعد عام قدرت أن عشرين ألف جندى قد انضموا إلى اليابانيين، وهم اثنان من كل سبعة يقبض عليهم[٢٤].

وفى صيف عام ١٩٤٥ تولى الجيش الهندى المهمة المتبقية للبحث بين من بقى على قيد الحياة من الجيش الوطنى الهندى، وتعرف رجال المخابرات إلى ٧٦٠٠ شخص كانوا يساعدون اليابانيين، وفى بعض الحالات ارتكبوا جرائم وحشية فى الحرب تستحق العقاب[٢٥].

أما البقية فكانت غالبيتهم من الجنود المهذبين انحرفوا عــن الطريــق السوى نتيجة الفوضى والتراجع فى الملايو وبورمـــا أثنـــاء شـــتاء وربيـــع عام (١٩٢١ – ١٩٤٢) أو من السجناء الذين تعاونوا أملاً فى الحصول على نسب أفضل ومعاملة أحسن، وكان ضمن هذه الفئة عدد كبير من الذين صـــدموا بسبب الهزائم التى حلت على بريطانيا وفقدوا الثقة فى حكامهم القدامى.

وكان الكابتن جريكشا سنج ديلون من بين الوطنيين الـــذين رأوا فـــى أنفسهم أحد المحررين لمستقبل الهند، والذى اعتقدت المخابرات البريطانيـــة أنه قام بتعذيب السجناء الهنود والـــصينيين وقـــتلهم فـــى ســـجن شـــنغهاى وسنغافورة، وهناك آخرون من المتعصبين مثل تلك الأعداد فى فوج النـــساء فى جانس (Jhansi) والذين كانوا يحتجون أثناء الاستجواب، وكانوا مـــوالين لساندرا سوبهاس بوس السياسى السابق فى الكونجرس والذى هـــرب إلـــى ألمانيا عام ١٩٤١[٢٧].

وبعد إذاعة الدعاية من برلين، التى أنكر فيهـــا الديمقراطيـــة وشـــهَّر ببريطانيا على أنها العدو الرئيسى للتقدم والتطـــور– ســـافر بـــوس (Bose) بغواصة إلى طوكيو حيث وصل فى يونيه عام ١٩٤٣[٢٨].

وبعد أن حمل لقب نياتجى (القائد) للجيش الوطنى الهندى أقحم بـــوس نفسه فى إعادة تنظيمه، وكان محدثًا ساحرًا واعترفت به الحكومـــة الهنديـــة كعدو أساسي[٢٩].

وكان الجيش الوطنى الهندى جزءًا من منظمة أوسع تحت الإشـــراف اليابانى من أجل التدمير الوطنى فى الهند وضد الدعاية الأوربية فـــى كـــل أنحاء قارة آسيا، وضم مدرسة تدريب الـــشباب الـــسواراج (Swaraj) فـــى رانجون التى تخصصت فى حرب العصابات والتخريب وأكاديميـــة بينـــانج (Penang) التى تُدرب رجال الدعاية الصينية والملايو وسيام[٣٠].

ولقد تم إخطار جنود الجيش الوطنى الهندى بأنه بمجرد أن تخترقوا البنغال مع اليابانيين سوف تقوم ثورة شعبية ضد البريطانيين(٣١).

وفى نفس الوقت فإنه فور نزول المخربين من الغواصات تمت محاصرة الجميع تقريبا.

وفى نهاية شهر أكتوبر قام رجال المخابرات بمحاصرة اثنين وأربعين من أصحاب الصحف اليابانيين(٣٢)، وأما فى أرض المعركة فقد أثبت الجيش الوطنى الهندى فشلاً ذريعًا أمام أسياده، وكان اللجوء إلى بريطانيا أمرًا شائعًا.

ولقد اتخذت الحكومة فى الهند موقف الجيش الوطنى الهندى بشيء من الجد والصرامة خشية أن تغرى دعايتها جنود خط الجبهة بالاستسلام، وربما يحدث وكلاؤه تحريضًا على الفتنة فى مناطق هزها بعنف غضب الكونجرس.

وعلى هذا قامت وحدات المخابرات الهندية بتفتيش بريد القوات لكشف علامات عدم الرضا(٣٣).

ولقد تم إعداد برامج مضادة برغم تحذير مؤلفيها بالتقدم، عندما تحدث مثل هذه القضايا والمسائل الجدلية كتطور اجتماعى بعد الحرب فى بريطانيا، التى ربما تثير الجنود الهنود للسؤال عن أسباب عدم إدخال مثل هذه الإجراءات فى وطنهم(٣٤).

وكانت السياسات الآسيوية بعد الحرب دليلا على أن رجال الدعاية البريطانية بذلوا كل ما فى وسعهم لتجنب ما يشير أن التغير اليابانى سوف يحطم كل آمال الحكم الذاتى الهندى، ولم تكن الدعاية الأمريكية مثبطة للآمال، وفى عام ١٩٤٤ كانت رسالتها إلى شعب بورما أن نصر الحلفاء سوف يحقق السلام والحرية لبورما.

وقد احتجت وزارة الخارجية على هذا الوعد بالاستقلال، لكن الوزارة فرضت سلطاتها وهى تريد الإبقاء على أفضل الشروط مع الولايات المتحدة[٣٥].

ولقد كان رجال الدعاية البريطانية على أرض آمنة مع برنامج الحماس للجيش الهندى الذى صُمم لتشجيع الروح المرحة الإيجابية بين القوات، وأوحت جرعة من الحماس (Josh) جنديًا من البنجاب يخدم فى الجبهة مع بورما، وهو الذى، شاع بيانا يابانيًا عبر اللاسلكى بأن القائد بوس والجيش الوطنى الهندى سيكونون فى الهادى خلال عشرة أيام، ولاحظ أنه إذا لم يذهبوا بالقطار فلن يستطيعوا، وفى النهاية لم يحدث بوس ولا الجيش الوطنى الهندى أى أثر على حصيلة حرب الشرق الأقصى برغم النظرة لكليهما بإنهما كانا يمتلكان إمكانيات لا حدود لها لإثارة المشكلات داخل الهند، ومات بوس فى تحطم طائرة فى نهاية الحرب، وكان هذا عاملاً مريحا للحكومة الهندية التى كانت تخشى أن يكون أتباعه السابقون مصدر ثورة عنيفة عندما يعودون إلى أوطانهم[٣٦].

وكان من بين القوات التى كانت تحارب فى بورما خلال عام ١٩٤٤ ثلاثون ألف عسكرى من شرق أفريقيا وغربها ومثلهم مثل رفاقهم من الهنود، كانت مراسلاتهم ومحادثاتهم تتم مراقبتها ورصدها كإشارات تنم عن القلق السياسي[٣٧].

وبرغم أن وزارة الحرب سمحت بإصدار سلطات وتكليفات لرجال من الأجناس المختلفة فى أكتوبر عام ١٩٣٩ فإن القوات السوداء واصلت تلقى الأوامر من الضباط البيض[٣٨].

وفى حالة جنود ساحل الذهب كان يتم استيرادهم من المستوطنين فى روديسيا الجنوبية[٣٩].

وفى الوقت الذى كانت الحرب فيه تخفف قيود النظام الطبقى الاجتماعى فى بريطانيا ظلت الأوضاع العنصرية المماثلة فى أفريقيا وجزر الهند الغربية صارمة وقاسية كالعادة، وذهبت وزارة المستعمرات إلى حد أبعد لتؤكد أن رعاياها محميون من أى تأثيرات خارجية ربما تقلقهم أو تجعلهم تعساء ويندبون حظهم.

لقد ظهر أن المقارنة بين السود الأمريكيين ورجال الخدمة من الزنوج الأمريكيين بشكل رسمى كمصدر أساسى لعدم الرضا والفساد، ولفت السود الأمريكيون الذين يرتدون ملابس نظيفة ويحصلون على أجور جيدة أنظار السود الفقراء من بورما، وهكذا فى ظل ضغوط وزارة المستعمرات انسحب الأفريقيون وتمركز رجال الخدمة السود فى ليبيريا وتم منعهم من الحصول على إجازات فى المستعمرات الأفريقية البريطانية، ومرة ثانية خوفا من أن تؤدى ثقتهم بالنفس والرخاء إلى القلق والاضطراب(٤٠).

لقد أحدث ألفان من الجنود السود وكلهم منفيون اضطرابًا كبيرًا، وكان معهم مال للإنفاق على الشراب والنساء جاعلاً كاتبًا مجهولاً يندم ويقول "كنت أعيش مع زوجة لطيفة وراضية حتى جاء الجنود ودمروا حياتي"(٤١).

وكان حاكم مستعمرة ترنداد منزعجًا بسبب هذا القلق فى مستعمرته، ولكن لأسباب مختلفة حيث وجد الزنوج الأمريكيون كمبعوثين للحركات العسكرية السوداء وحركات العودة إلى أفريقيا، والتى كانت تكسب أرضا فى أوطانهم، ولم يكن أحد مرغوبًا فيه فى ترينداد وتاريخها الطويل من مظاهرات العمال السود، وفى عام ١٩٤٣ أحلت الحكومة الأمريكية مجبرة الزنوج بالبرتوريكيين (Puerto Rican) وتكشف هذه المقطوعة الغموض الخاص فى التفكير الأنجلو أمريكى عن الجنس، وبينما كانت سلطات الولايات المتحدة أكثر استعدادًا للتعاون مع وزارة المستعمرات لتقديم حجر

صحى للسود فى الإمبراطورية، كان الكثيرون من السياسيين الأمريكيين ورجال الصحافة يعلنون باستمرار عن هؤلاء الشعوب التى تتعرض للاضطهاد من جانب حكامهم، لكن القوة الأخلاقية لهذه الهجمات جعلتها عديمة الحس نتيجة صدمة السجل العنصرى الأمريكى.

ولقد كانت عملية عدم المساواة العنصرية طريقة الحياة فى الولايات المتحدة، وأثناء الحرب كان هناك الكثير من الاضطرابات الدموية العنصرية تشمل جماعات المعارضة من رجال الخدمة السود والبيض على أحد رجال قاعدة (USAAF) فى بريطانيا[٤٢].

وإذا استعرضنا صدى العواطف التى أثارت أفراد الجيش الوطنى الهندى جنديًا زنجيًا أمريكيًا متجها إلى جبهة المحيط الهادى، وكان مضطرا لطلب النقش التالى على الضريح "هنا يرقد رجل أسود، "وقد قتل وهو يحارب رجلاً أصفر من أجل الدفاع عن الرجل الأبيض"[٤٣].

ولم تجد الدعاية البريطانية أثناء الحرب صعوبة فى مجاراة مثل هذا التعبير الساخر، على الأقل عندما وصل إلى شرح أسباب هزيمة ألمانيا، ولقد وزعت مقطوعة حاقدة خاصة من جريدة مين كامف (Mein Kampf) بشكل واسع بين المستعمرات الأفريقية تذكر الرجال السود ما كان يفكر فيه هتلر عن جنسهم.

"إنه تعرف على الجنون الإجرامى لتدريب كائن حى يشبه القرد حتى تدعى أنه قد تحول إلى محام".

ومنذ عام ١٩٣٩ كانت المستعمرات للاستعلامات مشغولة فى تحديد أهداف الحرب البريطانية فى كل أنحاء الإمبراطورية من خلال الأفلام والمحاضرات والمعارض والكتيبات ومسارح الشارع.

إن نصرًا نازيًا سيدمر الإمبراطورية التى كانت آمال رعاياها العدالة والتقدم، وكما هى الحال فى الهند كان على الدعاية الرسمية أن تكون حريصة على أن لا يرتد أذاها إلى نحره، وقد تم تجنب تشويه السمعة الزائدة للألمان خوفًا من حركة ارتجاعية ضد الجيش الأبيض بشكل عام، وإشارات إلى حروب تشن من أجل الحرية والديمقراطية بشكل حذر[٤٤].

ومن جهة أخرى تمت إحاطة رعايا الإمبراطورية الاستعمارية علمًا بأنه بعد الحرب سيعاملون باعتبارهم شركاء أكثر من أن يكونوا تابعين، ولقد جسد هتلر (بعبعًا) ممتازًا، وبهذا الشكل ظهر فى أغنية هوسوية عظيمة:

- لقد وجد الإنجليز علاجًا للإزعاج اليائس.
- ولقد جلب هتلر الخيانة والأذى للجميع.
- إن للإنجليز علاجًا لهتلر الألمانى.
- إن هتلر ليس له أب ويعد كلبا مشكوكًا فى أصله.
- إنه لا يمتلك مالا ولا وطنا ويعتبر لعنًا.
- إن للإنجليز علاجًا لهتلر الألماني[٤٥].

وقد أثار شاعر غنائى من ساحل العاج فكرة الوحدة الإمبراطورية فى أغنية معركة نمطية كتبها للنساء ومصاحبة لطبول الحرب يقول فيها:

- دع نساء الإمبراطورية البريطانية.
- تغنى أغانى المديح وتلهم وتحث المحاربين.
- أيها الرفاق المخلصون الذين يستعدون للموت من أجل الحرية.
- أبناء الدومنيون والهند.

- والجزر البعيدة المتفرقة فى البحار السبعة.

- أبناء الدولة الأم.

- إنجلترا الدولة الأم.

- فلتقف نساء الإمبراطورية[٤٦].

لقد تم استخدام وسائل تكنولوجية مغرية فى شمال بورنيو خلال عام ١٩٤١، وأظهر معرض متنقل كبر التهديد اليابانى وقدمه مؤكدًا من جديد صور السفن الحربية البريطانية وحاملات الطائرات وتم نشر تقارير عن التقدم الحربى فى إنجلترا والملايو مع إشارة لربات البيوت "من فضلكم أعطوا شعب الملايو عناوين الأخبار للأولاد" وكانت هناك محاضرات عامة على مثل هذه الموضوعات مثل "الطيران فى بورنيو "الذى قدم مثل سلفة من أجل النصر" وشاشة للقلم العظيم نيرس كانفل (Nurse Canvell) والذى فيه تتحدى البطلة الألمان فى عام ١٩١٤ وتم إعدامها بسبب شجاعتها[٤٧].

وبالمقارنة باليابانيين لم يقدم الألمان والإيطاليون أى محاولة لتقديم الدعم لرعايا الإمبراطورية، وبشكل واضح لأن النازية والفاشية عقائد عنصرية، ومع هذا كانت هناك جهود مضنية لكسب الرأى العربى وذلك باستغلال الثورات الحديثة فى فلسطين، وتم تصوير بريطانيا وأمريكا كشركاء لليهود وحقًا أعداء العرب فى كل مكان، وبعد انتصار الحلفاء فى مصر وشمال أفريقيا، ادعى راديو تونس فى ديسمبر عام ١٩٤٢ أن الأبطال البريطانيين والأمريكيين قد جعلوا من مراكش والجزائر فلسطين ثانية[٤٨].

ولم يمجد برنامج الدعاية البريطانية عدالة قضية الحلفاء فحسب، بل نصح الرجال والنساء فى كل المستويات، وفى كل جزء من الإمبراطورية، أن يبذلوا كل ما فى وسعهم من أجل المجهود الحربى ومثل الذى حدث فى

الحرب العالمية الأولى تمت تعبئة كل موارد الدومنيون والمستعمرات من أجل الحرب، وكان من المهم جدا رفع القدرة القتالية والتدريب للرجال والنساء وكانت الحصيلة الكلية كلها للحرب:

- بريطانيا العظمى ٤,٦٥٠,٠٠٠ رجل.
- أستراليا ٥٧٠,٠٠٠ رجل.
- كندا ٧٧٠,٠٠٠ رجل.
- الهند ١,٧٨٩,٠٠٠ رجل.
- نيوزيلاند ٩٧,٠٠٠ رجل.
- مستعمرات شرق أفريقيا ٢٢٥,٠٠٠ رجل.

فضلا عن ٣٠,٠٠٠ من الرواد.

- مستعمرات غرب أفريقيا ١٥٠,٠٠٠ رجل.

فضلا عن ١٦,٠٠٠ من الرواد[٤٩].

وتمثل هذه الأرقام مجموع كل الرجال والنساء فى الخدمة، وتتجاهل حقيقة أنه فى مختلف مراحل الحرب كان هناك عدم تعبئة جزئية؛ حيث عاد القسم الأول من جنوب أفريقيا إلى بلاده بعد تحرير (إثيوبيا) وبعد أن طرد اليابانيون من غينيا الجديدة ورجال الخدمة فى نيوزيلاند وأستراليا، وقد تم إطلاق سراحهم من أجل الصناعة خلال عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤، وبرغم هذا كان فى أستراليا ٣٦٥,٠٠٠ رجلاً وامرأة تحت السلاح فى عام ١٩٤٥، وكان أربعة أخماسهم من المتطوعين، وواجهت كندا نفس مشكلات القوة البشرية التى كانت موجودة فى الحرب العالمية الأولى، ومع حلول عام ١٩٤٣ كان عدد المتطوعين فى الخدمة فيما وراء البحار يتضاءل، وتم

إدخال التجنيد الإجبارى فى العام التالى برغم أن الرجال المجبـرين علـى الخدمة يرسَلون للعمل فى الحصون فى جزر الهند الغربية بدلاً من إرسالهم إلى الجبهات فى فرنسا وإيطاليا.

وكان السجل الأفريقى فعلاً بشكل خاص، وفى بداية ١٩٤٣ شـاركت فياسالاند بعشرين ألف رجل فى فرقة (King's African Piffes) وأكثر مـن ١٠٣,٠٠٠ تعهدوا بالقيام بأعمال حربية معظمهم فى منـاجم النحـاس فـى روديسيا الشمالية، ويمثل هذا أكثر من ثلث السكان من الذكور البالغين[٥٠].

وفى ذلك التاريخ كانت السلطات الاستعمارية تمر بمـشكلات البحـث عن الرجال خصوصًا العمال، للعمل فى المطارات والقواعـد فـى مـصر وشمال أفريقيا، ومثل الذى كان موجودًا فى الحرب الماضية كانـت هنـاك ضغوط من القيادة العليا للرجال السود لإطلاق سراح البيض من خط القتال، وزادت خلال عام ١٩٤٣ وأوائل عام ١٩٤٤ أعداد القوات من أجـل يـوم الهبوط فى فرنسا[٥١].

وفى يوليو عام ١٩٤٣ أفادت الحكومة الكينية أنها قد وصلت إلى الحد الأقصى ومعها ٦٧,٠٠٠ رجل يعملون فعلاً فى الجيش وليس لديها أى أعداد أخري[٥٢].

وعلى العموم كانت عملية الحمالين غير شعبية فى شرق أفريقيا برغم الدعاية الحريصة للحكومة والتى أثبتت عدم الفاعلية فى وجه ذاكرة الـشعب (folk) وتم استرجاع المصاعب فى الخسائر عن الحملة الأخيرة بشكل واضح والشعور أننا نفقد الثقة ولا تزال متأخرة كما أخبر حاكم أوغندة[٥٣].

وكان هو وزميله فى تنجانيقا مذعورين بسبب نقص المتطوعين مـن أصحاب البنية المناسبة والصحة القوية، وخشى حاكم تنجانيقا أنه ربما يجبر على دفع الرجال للتقدم إلى الأمام.

وإلى حد ما كانت الحكومة الاستعمارية تتحمل المصاريف، ولكن كما أشار على حساب أخذ الرجال بعيدا عن إنتاج مواد الحرب(٥٥).

ولقد كان التوازن بين الرجال والنساء فى الزى الرسمى وهؤلاء الذين يعملون فى إنتاج كل الأطعمة والمؤن أمرًا حيويًا، ولقد أخبر تشرشل الملك ماكنزى فى أغسطس عام ١٩٤١، "إن هذه ليست حرب رجال لكن حربا لآلات على أعلى مستوي(٥٦).

وفى خارج كندا كانت إمكانيات الإمبراطورية لتصنيع الأسلحة الراقية صغيرة تاركة الدومنيون والمستعمرات فى نصف الكرة الجنوبى تعتمد كليا على بريطانيا والولايات المتحدة، ومع ذلك فقد كانت هناك محاولة فى يوليو عام ١٩٤٠ لترشيد الإنتاج وتوزيع مواد الحرب فى هذه المنطقة بعد عقد مؤتمر للحكومات يتركز فى دلهى.

ونتيجة لهذا كانت درجة من التخصص والتعاون، وبدأت أستراليا التى تمتلك أدوات صناعة آلات متقدمة إنتاج البنادق الآلية الخفيفة وبنادق أربعة وعشرين عيارًا، وبنادق ضد الطائرات فى أغسطس عام ١٩٤١، وتم شحن معظمها إلى بريطانيا حتى أوائل عام ١٩٤٢، وكانت صناعات جنوب أفريقيا من المعادن مسئولة عن حظائر الطائرات والجسور المعلقة، لكن تعرقلت هذه الصناعات بسبب نقص الفنيين فى الأعمال الأكثر تعقيدًا(٥٧).

أما نيوزيلاند فقد صنعت أجهزة اللاسلكى، وأسهمت المستعمرات الاستوائية بالمواد الخام مع سيلان التى رفعت إنتاجها من المطاط بعد فقدان الملايو.

ولقد ملأ هذا البرنامج السريع بعض الفجوات، ولكـــن الإحـــصائيات النهائية للمجهود الصناعى الإمبراطورى تعكس تركيز الإمكانيات الصناعية داخل الإمبراطورية.

الدول	طائرات	دبابات	بنادق مضادات الطائرات	وسائل النقل	بنادق آلية
كندا	١٥,٩٥٧	٥,٦٧٨	٤,٢٨٦	٣٣,٩٨٧	٢٥١,٩٢٥
أستراليا	٣,١٨١	٥٧	٧٨٦	٥٥٠١	٣٠,٩٩٢
نيوزيلاند	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	١٢١٠	لا يوجد
الهند	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	٦,٩٩١

ولا تشمل هذه الأرقام الضربات المدرعة التى صنعت فى جنوب أفريقيا والمسدسات والمعدات المصنعة فى الهند، أما الجزء الأساسى من الفـــاتورة الأساسية للمعدات والسلع والخدمات والذى تقدمه الإمبراطورية- فى كان يتم بدعم من بريطانيا، وفى بداية الحرب كانت كل الاحتياطات الاستعمارية لكل الهند من الإسترلينى موجودة فى لندن، وقد جمدت بشكل فاعلى على أنها لا يمكن أن تتغير أو تتحول، وكانت توجه إلى المجهود الحربـــى البريطـــانى، وبعد ذلك يتم دفع الواردات الاستعمارية من خلال القروض وأذونات الخزنة، والنتيجة أن الديون البريطانية لمستعمراتها ارتفعت من ١٥٠ مليـــون جنيـــه عام ١٩٣٩ إلى ٤٥٤ مليون جنيه فى عام ١٩٤٥، واستفادت الهند من هـــذا الترتيب لأنه طبقا لاتفاقية مصاريف الدفاع عام ١٩٤٠ وعـــدت بريطانيـــا بتغطية كل هذه المصاريف من القوات الهندية التى تنتشر خارج شبه القـــارة التى كانت تدين لبريطانيا بمبلغ ٣٥٠ مليون جنيه فى عـــام ١٩٣٩، والتـــى كانت مدينة بمبلغ ١,٢٠٠ مليون جنيه عندما انتهت الحرب.

وفى عام ١٩٤٥ واجهت بريطانيا تصفية حسابات أخرى أقل قيمة ملموسة، وفى أثناء الحرب منع تشرشل (بوستر) يظهر طفلاً عنده كساح الأطفال وهو يلعب فى حوش معتم وشديد الرطوبة وتحيط به أسوار مكتوب عليها المرض والإهمال وتعليق يقول "هذه بريطانيا التى كانت"(٥٨).

وهناك لوحات أخرى أقل خطورة فى الدعاية وتحمل نفس الرسالة "إن شعوب الحرب ستكون مقدمة لعهد من إعادة البعث القومى وفيه سوف ينتهى الجهل والفقر والمنازل المصنوعة من قماش رخيص وخفيف، والمرض والبطالة من خلال دولة كريمة وغنية، وكيف يمكن تحقيق هذا سيكون موضوع محاضرات ومناقشات وجدال منتظم من قبل رجال التعليم المثقفين والذين يستطيعون خلال خمس سنوات تأسيس رجال محاربين أقل عنصرية وأكثر وعيًا سياسيًا بالعالم أكثر من سابقيهم فى عام ١٩١٨، وهم يشاركون برغم عدم الوعد بشكل عام فى نصر حزب العمال فى يوليو عام ١٩٤٥، وسوف يكونون أكثر إثارة بالآمال التى يجلبونها.

ومن بين القوات المتمركزة فى الهند والشرق الأقصى اكتشف المسئولون عن إحصاء الجيش شعورًا واسعًا بأنهم يعملون من أجل انتاج بعض الوسائل الجديدة والسخرية لحل المشكلات عند إعادة البناء(٥٩).

وأيضا توقع الجنود الملونون مستقبلاً زاهرًا، وبحسب آرثر كريش جونز الخبير العمالى فى الأمور الاستعمارية، فإن رجال الخدمة السود سيشاركون آمال زملائهم من البريطانيين(٦٠).

وفى أكتوبر عام ١٩٤٥ كشف استفتاء للجنود الهنود أنهم بعد الحرب يريدون نظامًا للأفضلية ومنازل مريحة ومعاشات وزوجة محبوبه لكل منهم وأطفالاً، وفهم لكيفية اتخاذ احتياطات ضد الملاريا، وبقرة أو بقرتين، ومدارس ومستشفى عام، وبندقية للصيد فضلاً عن حصان(٦١).

وتجربة الخدمة فى الجبهة الايطالية فى عامى ١٩٤٤، ١٩٤٥ كانت الفترة كشفًا لمدى تخلف وطنهم، وتأثرهم بحافز قوى للعودة إلى بلادهم وتصحيح الأوضاع، ويبدو أن المعرفة هى مفتاح الخلاص الوطنى، كما طلب بعض الإسباهية (جنود هنود يعملون فى الجيش البريطاني) النظام التعليمى الوطنى الذى يطور وسائل التدريس والموضوعات الفنية، ولاحظ أحدهم أن الشعوب فى الغرب متفرقة فى الآداب والثقافة والإصلاح الإجتماعى، وفى كل مجال تقف الهند فى المؤخرة، والسبب الرئيسى هو وجود الكثير من الطبقات، وطالبوا بأن يتحد شعبنا سويا لعمل أى شيء[٦٢].

ولقد شجعت الحرب أيضًا الجنود الأفارقة لدراسة أحوالهم والعالم خارج قراهم لا يشعر الأفريقى بأن ينظر حوله بعيون مختلفة، كتب هذا الروائى جيرالد هانلى الذى قاد قوات العساكر من شرق أفريقيا فى بورما، وبعد أن شاهد فقر الهند، وانتهى احترام الجنود للهنود، والأهم من ذلك أن الأفريقى يتطلع إلى أذواق جديدة "وإذا تعلم رجل كيف يدفن، ويأكل طعاما معلبًا ويقرأ الصحف، فإنه عمومًا يرغب فى استمرار إشباع هذه الشهوات وسوف يحتاج إلى كسب المال للقيام بكل هذا".

إن إحدى مصائب هذه الثورة الثقافية الإفريقية القديمة، وتساءل عن أسباب عدم غناء الرجال أغانى تقليدية وأجاب أحد العساكر من روديسيا عن أسباب غناء مثل هذه المادة بعد ذلك، بأن لدينا صحفًا وأفكارًا مثل الأوربيين، وإن هذه الموسيقى تخص الرجال المسنين والأزمنة التى ولت وانتهت[٦٣]، لكن ظل الولاء القديم قويًا، ولم تتأثر جنود هانكى (Hanky) بهذه الراديكالية السياسية للنخبة الأفريقية الصغيرة المتعلمة "إن الشعور بالولاء للملك جورج بين الجنود العساكر كما أكد هانلى ليس مجرد قصة حفنة من الرجال لكنه شيء حقيقى. إنهم يعتبرونه ملكًا لكل البريطانيين ويعاملونه حسب هذا[٦٤].

(١٢)

الدفاع عن امتياز قديم

استرداد الإمبراطورية

(١٩٤٢ – ١٩٤٥)

بعد أكثر من عام منذ انتهاء الحرب أعلن ويلى جالشار عضو البرلمان عن الحزب الشيوعى عن ولاية وست فايف (West Fife) فى مجلس العموم أن الإمبراطورية البريطانية قد سلمت إلى مقرضى المـال مقابـل الـرهن للأمريكيين وهو أملنا الوحيد. ولكى يثبت وجهة نظره ويوجه التوبيخ بشكل ساخر للمحافظين اقتبس ملاحظة كان تشرشل قد وجهها إلى روزفلـت فـى أغسطس عام ١٩٤١ قال فيها " بدون أمريكا لـن تـستطيع الإمبراطوريـة الصمود والوقوف"(١).

ومثل كل الخارجين المعارضين من أعـضاء البرلمـان كـان لـدى جارلشار موهبة عدم الإحساس بالتعبير عن حقائق الـداخل والتـى فـضل السياسيون الآخرون تجاهلها أو التخلص منها.

ومنذ عام ١٩٤١ كانت بريطانيا مرهونة للولايات المتحـدة، وكلمـا تطورت الحرب وتقدمت مراحلها أصبح من الواضح أن فقـدان الاسـتغلال المالى من حرية الاختيار عند الحكومة عند اتخاذ القرارات حـول مـستقبل الإمبراطورية، ولا يمكن إنكار وجهة النظر الأمريكية، لأن رجال الحـرب الأمريكيين يتحملون وطأة هجوم الحرب ضد اليابان.

ولقد جعلت الانتصارات فى الباسفيكى ما بين عـــامى (١٩٤٢ - ١٩٤٥) من السهل على بريطانيا أن تستفيد مستعمراتها فى الشرق الأقصى، ولم تكن هذه قضية ذات قيمة بالنسبة لعدد كبير من الأمريكيين حيث طالب الكثيرون بتضحية الشباب الأمريكى من أجل أن تستمر بريطانيا فى فـــرض ســـيادتها على الماليين والبورميين.

ولقد توطنت العواطف ضد الاستعمار فى أمريكا، وكان الاتجاه العام أن كل الإمبراطوريات بما فيها البريطانية ما هى إلا طغيان متطفل سوف يصبح بسرعة مهجورًا أو طرازًا قديمًا.

"لقد مات عصر الإمبراطوريات " هكذا أعلــن ســـومنرويلس وكيـــل الوزارة وكانت الحرب بالنسبة له ولملايين الأمريكيين حربًا صليبية من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان فى كل أنحاء العالم.

إن القوى التاريخية الديناميكية تتجمع لتكون قوة دافعة وزخمًا ســـوف ينشئ نظامًا عالميًا جديدًا لن تتوقع فيه دولـــة واحـــدة أن تحكـــم الآخـــرين دون موافقتهم، ويوحى رجل الشارع أن التصويت فـــى الـــرأى الـــذى تـــم فى عام ١٩٤٢، أثبت أن ٥٦% من الأمريكيين يعتقدون أن الإمبراطوريـــة البريطانية إمبراطورية ظالمة وجائرة[٢].

ولقد كان رد الفعل متوقعا وأعطى للصحافة الأمريكية حـــق التعامـــل مع الإمبراطورية البريطانية وأشارت جريدة شيكاغو تريبيون فـــى أبريـــل عام ١٩٤٥ فى هجوم نموذجي:

"إن ما يمتلكه البريطانيون سوف يسيطرون عليه، وأن ما تحصل عليه دول أخرى سوف تشارك فيه بريطانيا".

إن الدليل على هذا الجشع وهذه المغالطة التى صاحبت هذا هو السرعة التى أمسك المسئولون البريطانيون فيها بزمام السلطة بعد أن حررت القوات الأمريكية جزر سليمان.

لقد كانت أمريكا فى نضال عنيف من أجل بناء عالم جديد أكثر عدلاً حيث لا يوجد أى مكان لضباط الأحياء الذين يطبقون القانون، وطالبت مجلة تريبيون (Tribune) نقاشاً عالميًا حول مستقبل كل المناطق حيث كانت الشعوب الوطنية قد عانت من الاضطهاد الطويل(٣).

وبشكل ساخر وغير معروف للمحرر الذكى لمجلة تريبيون فإن المديرين البريطانيين العائدين من جديد كانوا يحتجون على الاستخدام الحديث للطيران الأمريكى (USAAF) فى غارات إلقاء القنابل على القرى التى تناصر اليابانيين فى جزر سليمان(٤).

ويكمن خلف هذه الروح العميقة ضد الإستعمار أن تلك الرؤيا من حرب الاستقلال الأمريكية التى ثار فيها المستعمرون المحبون للحرية ضد جورج الثالث الطاغية ورجاله المتوحشين من أصحاب المعاطف الحمراء، ولم يكن من قبيل الصدفة أن المدافعين البريطانيين عن الإمبراطورية هم الذين كانوا غالبا يصفون باسم التورى (Tories).

وهو مصطلح يرجح سوء الاستخدام الذى يطبق على المدافعين والموالين فى عام ١٧٧٦، وعلى المستوى السياسى الراقى كان هناك شعور قوى بأن المدافعين عن الإمبراطورية وكتلة الإسترلينى كانوا حواجز ضخمة لبناء أسواق حرة مفتوحة فى كل أنحاء العالم، والتى تلتزم بها حكومة الولايات المتحدة.

ولقد كان البريطانيون مخاد ومنحرفين ومهما قيل إمام العامة فإن هذه الحرب الرئيسية كان دائما هو الحفاظ على إمبراطوريتهم والقوة العالمية.

وكان الميجور جنرال باتريل هيرلى بطل أوكلاهوما السابق فخورًا بسرعته فى هذا الموقف، وكانت مهمته ازدراء الخيانة البريطانية وتحذيره قسم الدولة، وفى عام ١٩٤٢ كان فارسًا، حيث ادعى أن البريطانيين كانوا يوسعون مواد قانون الإعارة والتأجير لزيادة طموحاتهم والتى شملت مشاورات سرية مع الروس.

وبعد عامين عندما كان يخدم فى الشرق الأقصى واتهم بريطانيا وفرنسا وهولنده بالقيام باستعدادات سرية لاستعادة امتلاك المستعمرات القديمة ورغم الوعود التى قدمها الحلفاء فى ميثاق الأطلنطى كان هيرلى حالة خاصة من جنون العظمة(٥) ضد بريطانيا لكن أحاسيسه لم تكن استثنائية، حيث كانت هناك مناسبات عندما هاجم روزفلت بعنف جشع وازدواجية السياسة البريطانية.

ولقد وضع هيرلى وغيره من الأمريكيين المعارضين للاستعمار المخزون الأعظم من ميثاق الأطلسى. لقد كان تعبيرًا مثاليًا عن أهداف الحرب الأمريكية البريطانية والتى تم الاتفاق عليها بين تشرشل وروزفلت فى أغسطس عام ١٩٤١، وبالنسبة للكثيرين وربما هؤلاء الذين اطلعوا عليه فلقد كان ميثاق الأطلسى برنامج عمل من أجل نظام عالمى عادل وجديد، وإذا نظرنا إليه من الناحية الحرفية فإنه ظهر على أنه يقلل من القاعدة الحلقية لكل الإمبراطوريات، ولقد تعهد الرئيس ورئيس الوزراء على تبنى حقوق كل الشعوب لاختيار شكل الحكومة التى يعيشون فى ظلها، ويرغبون فى استعادة حقوق السيادة والحكم الذاتى لأولئك الذين حرموا منها قسرًا.

وكان تشرشل يكره هذا التعبير باعتباره قيمة مكشوفة، وتحدى حق بريطانيا فى حكم مستعمراتها. وعند الاستعراض والتفكير أقنع نفسه أنه فى حالة أن هذه المستعمرات ستكون فى أيدى اليابانيين فإن الحقوق السيادية كانت بريطانية وليست فى يد السكان المحليين الوطنيين.

وادعى تشرشل بشكل مؤكد أن بقية مستعمرات الإمبراطورية معفية من ميثاق الأطلسى، أما نائبه زعيم العمال كليمنت آتلى (Attlee) فقد كان له رأى أن بريطانيا والإمبراطوية شيء واحد فقد أمن بأن الميثاق له تطبيق عام، وتبنت وزارة المستعمرات رأيًا وسط الطريق يدل على أنه فى المستقبل البعيد فإن بعض المستعمرات ستحقق وضع الدومنيون ولن تحقق دول أخرى هذا الوضع وتطلب الاعتبارات الإستيراتيجية أن بريطانيا تتمسك بشكل مستمر بجبل طارق ومالطه وقبرص وعدن، وبالنسبة لأسباب أخرى عديدة لن تستطيع بريطانيا السيطرة على جامبيا وبورنيو والملايو وهونج كونج وبرمودا وفيجى وجزر فوكلاند وهندُراس البريطانية[٦].

وصدرت التعليمات إلى المسئولين عن حرب الدعاية فى المسبتعمرات أن يظلوا صامتين بقدر المستطاع عن الميثاق ودلالته[٧].

إن إحدى الطرق لمنع المحنة الاخلاقية لميثاق الأطلسي هى إقناع الأمريكيين أن رعايا الإمبراطورية لم يكونوا مستغلين ويعاملون معاملة قاسية.

ومنذ عام ١٩٤١ وما بعدها قامت الحكومة بجهود معقولة لتعليم السياسين الأمريكيين وصناع الرأى العملية التى استمرت للعشرين عامًا القادمة، وكانت الرسالة هى نفسها أن الحكومة الاستعمارية البريطانية لم تكن أنانية، وكانت خيرة وعادلة ودائمًا تتصرف بشكل أفضل من أجل مصلحة الشعوب التى يمكن أن تضيع بدونها.

وكان اللورد هيلى هو نجم المدافعين عن فترة الحرب وكـان حاكمًـا سابقًا فى الهند وعلى فهم عميق للشئون الأفريقية وجسد كل شـىء حسن ومشرف فى الأناقة اللغوية الاستعمارية، وبعد أن سمع هذا الـشخص مـن رجال الأولمبياد، وهو يُعيد فضائل الحكم البريطانى لمجموعة من المفكرين الأمريكيين، وعلق مسئول من وزارة المستعمرات بمرارة على الوضع قائلاً: "إنها مأساه سخيفة أن تأخذ إدارة الشئون الكبرى مـن رجـال مثـل هيلـى وتعطيهم إلى الأولاد ذوى النظارة السميكة والشعر الطويل والكلمات الأطول بأنغام سيئة كريهة(٨).

ويكمن وراء هذه الملاحظات إخفاء حقبة ضد الأمـريكيين، وكـان افنجليز فى ذلك الوقت وبعده فخورين بالدور الذى قاموا به وكانوا حساسين للنقد الأخلاقى.

وقد اقتصر العداء ما قبل الحرب نحو أمريكا وشعبها على الطبقـات العليا والوسطى حسب رأى جورج أورديل، واعتقد أن هذه المشاعر قائمـة على عدم الثقة فى القوة التجارية المتوسعة للولايات المتحدة ونظرة المساواة بين شعوبها.

وبالمقارنة فإن الطبقة العاملة قد سـرت كثيـرًا بـالأفلام المريكيـة والموسيقى الشعبية وتأثرت بمستويات المعيشة الأمريكية(٩).

ومع تطور الحرب تأثرت آراء البريطانيين بظهور أعداد كبيرة مـن رجال الخدمة الأمريكيين، والتى صارت ملموسة بنفسها. وكانت كما كـان شعائعًا أكثر مدفوعات وأكثر المسائل جنسيًا وأكثر من هنا " رغم أن أورويل (Orwell) وجه نقدًا ولومًا ضد النظام الأمريكى على أساس أن كـل أفـراد الولايات من الطبقة الوسطى، وعلى هذا لم يكونوا علـى اسـتعداد للـسير مع الطبقة العاملة البريطانية.

إن الطبقة العليا البريطانية هى التى تعاملت مع الأمريكيين على أعلى المستويات وهى تجربة يمكن محاولتها ،

وجد جون مينارد طينث، الذى تولى المعاملات المالية فى زمن الحرب أن اللهجة الأمريكية غير متواصلة وسماها (شيروكى إنجليزي[١٠]).

إن أحاسيس هارولد ماكميلان البطريركية قد انكشفت بسبب الأخلاق الأمريكية والحديث والإطناب، ويمكن أن نخمن كيف يشعر الأمريكيون نحوه وجنسه من ملاحظته التى كشفت أن الكبرياء البريطانى التقليدى قد اختفى فيما وراء البحار وحل محله الاحتقار والعداء للجانب[١١].

إن أحد مصادر الاستياء هو الزعم الأمريكى حول سوء معاملة الأجناس الاستعمارية. وكان البريطانيون مستعدين على وجه السرعة للهجوم المفاجئ وشن هجومهم فى المنطقة حيث كانت أمريكا معرضة لعنصرية داخلية. وكانت المعلقة الاجتماعية نانسى كونارد تطالب فى عام ١٩٤٢ بوضع تشريع لإلغاء الحاجز اللونى وادعت أنه فى الوقت الذى أظهر فيه البريطانيون حقدهم دون تفكير نحو السود، أوضح الأمريكيون كراهية سريعة[١٢].

وأثار توم دريبرج عضو البرلمان من حزب العمال وحزب اليسار فى زيارة إلى مونرو وجورجيا فسأله عن إعدام أربعة زنوج من دون محاكمة فى عام ١٩٤٦، فتفاخر بأن مثل هذه البربرية لم ولن تحدث داخل المستعمرات أو فى بريطانيا حيث لا توجد أى تفرقة عنصرية عمليا[١٣].

ولم يكن هذا صحيحًا بشكل كلى، لكن التفرقة العنصرية فى الجنوب والإضطرابات العنصرية فى كل مكان جعلت المواعظ الأمريكية عن الاضطهاد تبدو وكأنها خدعة. وقد أوضح غاندى هذه النقطة بوضوح فى رسالة شخصية إلى روزفلت فى عام ١٩٤٢ لكن لم يحسن روزفلت استقبالها بشكل جيد[١٤].

ولقد تمت دراسة جذور وتاريخ التشاحن الأنجلو أمريكي بشكل شامل، وفي بعض الحيان أعطت النتائج الإحساس بأن العلاقات بين الحلفاء لا تنتهي بحرب قوية. ولم يكن هذا بنفس الشكل ويرجع الفضل في جانب كثير منه إلى شخصيات تشرشل وروزفلت، ولم يكن الأمر سهلاً وقام تضامنهم على صداقة شخصية دافئة وإعجاب ودى ودرجة ملحوظة من الصراحة والإخلاص من الجانبين، وهناك رباط قوى هو الإصرار العام لهزيمة هتلر حتى ولو خلال عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣، وشك القواد الأمريكيون في بريطانيا في أن تكون لها أقدام باردة عندما تصل إلى القضاء على الجيش الألماني في أوربا الغربية.

وعندما تصل إلى نهاية الحرب اكتشف كثيرون من الأمريكيين المتميزين اثنين من البريطانيين في خلاف مع بعضهما بعضًا. وفي إبريل عام ١٩٤٢ أخبروا لترليبمان – صاحب العمود في جريدة السيد كنيز (Keynes) – أنه يوجد في أمريكا شعور قوى بأن بريطانيا في شرق السويس تختلف تماما عنها في الداخل، وأن الحرب في أوربا هي حرب تحرير، وأن الحرب في آسيا هي حرب دفاع عن المزايا القديمة[١٥]. ولقد كان ليبمان على حق رغم أنه عندما كان يكتب المزايا القديمة للنظام الاستعماري القديم الذى كاد ينزوى. وكان قد انقلب بشكل طبيعي في ظروف مشينة عندما سقطت سنغافورة، وتآكلت مؤسساتها الأخلاقية بسبب النقد العام في بريطانيا والولايات المتحدة.

إن الرأى العام البريطاني مثل الرأى ضد الاستعمار الأمريكي جعل من المستحيل على الحكومة البريطانية أن تضع عقارب الساعة إلى الوراء، وعلى هذا فإن حكام الإمبراطورية عرفوا أنه بالنسبة للمستعمرات لكى تحيا في عالم ما بعد الحرب، فإنهم سوف يتخلفون عن المبدأ الأساسي " تأتى تعرف أفضل " وبدلاً من ذلك تتجاوب مع آمال رعاياها.

وقد أدلى اللورد هيلى بنقطة فى مجلة سبكتيتور(Spectator) فى ١٧ مارس عام ١٩٤٢، وناقش فيها مصاعب ومشاكل استعادة الحكومة الاستعمارية فى الشرق الأقصى. وفى أوائل عام ١٩٤٥ أشار اللورد لوجارد وهو فى سن الثامنة والثمانين حينذاك إلى الروح الجديدة فى الخارج وفى العالم وقال: " إن روحًا جديدة على وشك الحدوث، وإنه من واجب بريطانيا أن توسع مستعمراتها وهذه الحريات الأساسية التى من أجلها تم شن الحرب، إنها الآن اللحظة التى تبدأ المستعمرات فيها وضع أسس الحكم المحلي[١٦].

إنها تقول الكثير عن التغير فى الآراء خلال الحرب فإن جنديا محنكا من حملات الملكة فيكتوريا الإمبريالية ومهندس الحكم غير المباشر قد تبنى الأفكار التى يتعرض تطبيقها العملى على حل الإمبراطورية الاستعمارية، ومع ذلك فإن تحول لوجارد لم يكن مدهشًا بشكل كلى بسبب طبيعة الإمبراطورية.

لقد مرت بعدة تغيرات خلال حياته، وإذا وجدت فلسفة إمبريالية فهى أن الإمبراطورية كائن حى متطور، ومع عام ١٩٤٥ كان هناك اتفاق فى الرأى عن الاتجاه الذى يجب أن تسير فيه الإمبراطورية، وإن المستعمرات ستتحول ببطء إلى دومنيون يُحكم ذاتيًا حينما يكون هذا التغيير قابلاً للتطبيق ولقد تعهد حزب العمال بنفسه للحكم المحلى الهندى، ووعد بنفس الشىء للمستعمرات مع توضيح أنها تحتاج إلى البقاء تحت الرقابة البريطانية لفترة طويلة قادمة[١٧]. وقد وضح هيربرت موريسون الوزير العمالى هذا بشكل واضح وقال " إن الاستقلال غير الناضج للمستعمرات يُعد حماقة تساوى تسليم مفتاح بمزلاج أو حساب بنك وبندقية صيد لطفل يبلغ من العمر عشر سنوات[١٨].

لقد عدلت الدعاية الإمبريالية حسب الحالة الجديدة فى بريطانيا مع استمرار الإمبريالية حسب الحالة الجديدة فى بريطانيا مع استمرار الجانب الدفاعى، وبالنسبة لكثير من الناس فى هذه الأيام فإن كلمة (إمبراطورية) أصبحت ذات مردود كريه، فهى تذكرهم بأفكار النازى عن الجنس السيد لحكم الآخرين والتى وزعت مذكرة استشارية بذلك صدرت من إدارة تعليم الجيش فى أبريل عام ١٩٤٤[١٩].

إن تعليم الجنود حول الإمبراطورية والدور الحيوى الذى يجب أن يقوموا به فى عالم ما بعد الحرب، كان من أهم واجبات معلمى الجيش منذ نهاية عام ١٩٤١[٢٠].

ويجب أن نذكر الطلاب أنه لكى تكون جزءًا من الإمبراطورية هو أن تكون عضوًا فى أسرة قوية عظيمة على نطاق واسع فى العالم بدلا من أن تكون مواطنا فى دولة صغيرة ضعيفة، وفى نفس الوقت تم تشجيع الذين يلقون محاضرات عن إلغاء الأسطورة للإمبراطورية بأن معظم الوطنيين غير متعلمين، وأن نعظم ونمجد مواهبهم مثل رجل الحرف، وحساسا بالتناغم والاتزان.

وقد صارت شعوب المستعمرات الآن شركاء مع بريطانيا التى حمتهم وحافظت عليهم ضد الاستغلال فى المشروعات الخاصة وساعدتهم على التقدم نحو الرخاء والاستقلال.

ولقد تم شرح الطريق إلى الأمام فى صورة بسيطة أظهرت أحد الوطنيين معه حزمة ضخمة من عيدان الكبريت على رأسه وهو يسير نحو كوخ من القش يحتوى على امرأتين ولا يوجد به أى أثاث، وفى المقابل يوجد بيت من طابق واحد يحتوى على سرير ومجموعة من الأدراج وفى الخارج نفس الشخص يحمل حمولته على ظهر دراجة[٢١].

لقد انتهى عصر الاستعمار الحسن وعصر الإحسان، ومثل بريطانيا فإن الإمبراطورية تتحرك إلى عهد جديد وأفضل والتى تكون فيها رفاهية رعاياها ذات أهمية كبرى، إن الإمبراطورية قد أصبحت جديدة وتخلصت من سحرها القديم، ورغم هذا كان من الضرورى أن تقدم بريطانيا إمبراطوريتها بطريقة تظهر أن هناك مكانًا للاستعمار الإنسانى فى عالم الألفية الذى من المأمول أن يبرز بعد الحرب.

ليس على بريطانيا أن تقنع الولايات المتحدة أن الإمبراطورية كانت قوة الصالح العام، حيث إنها لابد أن تحافظ على المساعدة الأمريكية لأجل الدفاع عن الهند لإستعادة مستعمراتها فى الشرق الأقصى، وكان كلاهما هدفًا عسكريًا ثانويًا، وفوق كل قدرات بريطانيا.

وقد كانت موارد الحلفاء وإستراتيجيتهم فى المنطقة فى أيدى قيادة جنوب شرق أسيا (SEAC) التى تأسست فى صيف عام ١٩٤٣، وبسرعة حملت الاسم المستعار " أنقذوا المستعمرات البريطانية الآسيوية من خلال السخرية الأمريكية "، وكان على قيادة جنوب شرق آسيا مهمة إحياء كرامة بريطانيا فى المنطقة، وكان تشرشل شاذًا أو يدعى إلى النقاش والجدل، وكان نائب وزير البحرية لويس مونت باتن فى سن الثالثة والأربعين عام ١٩٤٣ وكان سجله الحربى جيدًا وقضى فترة رفعت قدره فى القرن الثامن عشر، وكان الابن الأصغر لأمير ألمانى ومثل أقرانه كان عضوًا فى أسرة تنتمى إلى عصر الملكة فيكتوريا.

وحدد لنفسه عملا مهمًا فى الأسطول الملكى، وكان الابن طموحًا ومغرورًا وجادًا فى العمل، رغم أن اهتمامه بواجباته لم يمح تماما شهرته كلاعب، أما بالنسبة لتشرشل فقد كان مونت هو الشخصية المثالية كما كان أساس حملة إمبراطورية، وقبل سنوات تبنى الشخصية المالية ولما كان

تشرشل يعجب إعجابًا عميقًا بـــ ل. ث. ى. لورانس الـــذى اعتبـــره هـــو والكثيرون البطل الحقيقى للإمبراطورية وربما الأخير.

وقد أثر رحيله فى عام ١٩٣٥ بشكل حزين على تشرشل الذى تأسف بعمق على فقدان موهبة لا تقدر بمال فى حرب أخرى، وظل تشرشل يبحث دائما عن لورانس آخر، وقد أعجبه أودى ونجت، ولكن ليس لفتـــرة طويلـــة وكان ونجيت يقود وحدات ما وراء الخطوط (شين ديت)[٢٢].

وأخيرا وقع اختياره على مونت باتن الذى لم يمتلـــك خيـــال وذكـــاء لورانس بل كانت لديه نظرات جيدة جريئة واجتهاد ونزعة لإبراز رجولته، وقد وافقت الولايات المتحدة على تعيين موات باتن لأنه كان أقل عنفًا وأكثر ديمقراطية من الجنرال أو الأدميرال البريطاني[٢٣].

ولقد واجه كفاحًا كبيرًا ضد اليابانيين والأمريكيين، وقد تطلبـــت كـــل العمليات الهجومية فى (SEAC) موافقة وتصديقا أمريكيين.

ولقد واجه الجنرال السير هنرى بونال الموقف بصراحة وهو رئـــيس فرقة مونت باتن فى أبريل عام ١٩٤٤.

" لقد أخذنا الأمريكيون بالشعر القصير، ولن نستطع أن نفعل أى شيء فى هذا المسرح سواء فى البر أو البحر أو أى شيء آخر بـــدون المـــساعدة المادية منهم... ولهذا فإنهم إذا لم يوافقوا فإنهم لن يقدموا شيئًا"[٢٤]

لقد كان نفس الشيء فى البحر المتوسط فـــى عـــامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ عندما كانت القيادة الأمريكية العليا مترددة جدًا فى إرسال طـــائرات هبـــوط وطائرات حربية إلى الجبهة الإيطالية التى كانت تعـــد ذات أهميـــة ثانويـــة فى المحيط الأطلسى.

وفى منطقة (SEAC) وضعت الولايات المتحدة آمالها الكبـرى علـى جيش شيانج كياشيك الوطنى، واتباع القضية الأفضل بـدلاً مـن اسـتعادة المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية، وعلاوة على ذلـك صـورت الخطط الأمريكية فيما بعد الحرب الصين على أنها كانت القـوة الإقليميـة الكبرى فى الشرق الأقصى، وافترضت أنها سوف تتولى القيام بمـسئوليات كبرى للحفاظ على السلام، وكان شيانج رئيس الوحدة حتـى اسـتبداله فـى أكتوبر عام ١٩٤٤م يكره الإنجليـز وضـد سـتيل ويـل (STIL WELL) المعارض للاستعمار والذى كان يكره الإنجليز أيضا وبشكل علنى كان مونت باتن فى أوقات متعددة متهمًا بأنه ولد مفتون، وهاو وحمار أحمق، ومجنـون بشكل عام، وكان رجال وطنه منافقين ومستعدين لبذل ما فى وسعهم لقطـع رقابنا يصرحون بذلك فى كل المناسبات[٢٥].

ولقد كانت عمليات ستيل ويل (Stilwell) لسد الفراغ عملاً واضحًا يدل على الشك الأمريكى حول أهداف فترة الحرب فى بريطانيا، وفـى الـشرق الأقصى، وكانت هذه متناقضة مع مثاليات الحلفاء دون مزيد مـن الخيـال، ورغم وحشية الحكم اليابانى كان استرداد بورما والملايو يصور علـى أنـه تحرير، وقد أتيحت لبريطانيا الفرصة لامتلاكهما من جديد.

وأعلن روزفلت فى ديسمبر عام ١٩٤٣ أنه ينوى استكمال حكم الهنـد الصينية من خلال لجنة دولية أفضل من أن تصمم مثل هذه الترتيبات إلـى مستعمرات بريطانيا السابقة، وكان تشرشل عنيدا وصلبا عندما يثار موضوع الإمبراطورية بعد الحرب، ويدعم قوى كل الحزب مع خليفته أتلى (Attlee) حجر الزاوية فى مؤتمرات يالتا وبوتسدام عندما تحركت المنافـسات نحـو شكل ما من الرقابة الدولية على المستعمرات الأوربية.

ولقد انزعج الأمريكيون أيضا من سياسة بريطانيا فى اليونان، حيث إنه خلال عامى ١٩٤٤، ١٩٤٥ دعمت القوات البريطانية الفصائل ضد الشيوعية فيما يشبه طلب بالمرستون للحفاظ على رقابة كاملة على شرقى البحر المتوسط، وعندما تحولت الحرب خلال عام ١٩٤٤، يبدو أن بريطانيا التى صارت أخيرًا بطل الديمقراطية والحرية قد تحولت إلى أسد جائع من العصر القديم يريد النصيب الأكبر مما هو متاح.

وكان النقص والعجز فى رأس المال الكافى لشن الحرب أبطأ من قدرات الأسد فى الشرق الأقصى، وكانت الهند قد صارت آمنة بسبب المعارك فى كوهيما وإمفال فى مارس ويونيه من عام ١٩٤٤، وقبل ذلك بثمانية شهور ضغط تشرشل من أجل عملية كولفرن (Culverin) وهى النزول على سومطرة التى ستكون قاعدة للهجوم على سنغافورة، لكن تأخرت العملية، لأن نظر تشرشل قد اتجه نحو مشروع خيالى وهمى هو طرد الألمان من جزر الدوديكانيز، والتى تصور أنها ستدفع تركيا إلى الحرب كحليف، لكن هذا الأمر صار تحت رحمة الأمريكيين الذين أرادوا بشكل صحيح الحفاظ على القوات المتمركزة للغزو الوشيك على فرنسا، وقد واصلت الجبهات الأوربية التمتع بالأسبقية والسيادة على الشرق الأقصى، وفى أكتوبر عام ١٩٤٤ علم مونت باتن أنه لا يمكن التخلى عن أى قوات للهجوم البحرى على رانجون.

وفى شهر فبراير عام ١٩٤٥ تم السماح للتقدم نحو أرجون، وتبع ذلك نزول بحرى واسع النطاق على سواحل سيام والملايو ما بين يونيه عام ١٩٤٥ ومارس عام ١٩٤٦، تحت اسم روجر وزيفر وميلفست (وهناك شعر خاص حول الألقاب التى أعطيت للعمليات فى الحرب العالمية الثانية وأصولها ومنظميها، وهو يستحق دراسة وثيقة قوية) وكما هى الحال تحولت

كل من زيفر وميلفست إلى مشروع غير دموى وفى كل مكان منذ أواسط عام ١٩٤٢ كانت اليابان تحارب معركة دفاعية خاسرة، حيث فقد الأسطول اليابانى الإمبراطورى استعداداته ومبادراته فى ميدوى (Midway)، ورغم الجهود المعقولة فشلوا فى استعادة أى شيء فى العامين التاليين، ومع حلول شتاء ١٩٤٤، ١٩٤٥ حافظت القوات الأمريكية على جزر روقيا (Ryukyu) وإيوجيما وأوكيناوا، واستمرت الغارات الجوية المكثفة فى مارس من جانب القوات الأمريكية بطائرات ضد المدن اليابانية، وفى يونيه عام ١٩٤٥ وفى أقل من شهر بعد هزيمة ألمانيا تم إعداد خطة مفصلة لغزو اليابان، وكانت وحدات من ثلاث عشرة أو أربع عشرة فرقة تهاجم كويوشو (Kyusgu)، وفى نوفمبر من عام ١٩٤٥، وأيضًا كانت خمس وعشرون فرقة من قوات الكومنولث ستنزل فى هونشو فى مارس عام ١٩٤٦، وهى تتزامن مع الاندفاع النهائى نحو الملايو.

وبالفعل لم تلعب بريطانيا دورًا حقيقيًا فى حرب الباسفيكى، ولكن ما إن أصبحت هزيمة الألمان وشيكة حتى أوفى تشرشل بوعده لأستراليا، وبدأ يحرك السفن للانضمام إلى أسطول الولايات المتحدة، ومع حلول صيف عام ١٩٤٥ كان يعمل نحو مائة رجل من رجال الكومنولث والبريطانيين فى المياه اليابانية.

ولم تكن السياحة للسفن ولا الخطط الموسعة للهبوط والنزول على أرض اليابان الأساسية ولا الملايو، وفى السادس من أغسطس تم إسقاط قنبلة ذرية على هيروشيما وبعد ثلاثة أيام تم إسقاط قنبلة أخرى على نجازاكى، وقد تمت هذه الضربات مع إعلان روسيا الحرب وأعلنت الحكومة اليابانية الاستسلام دون شروط فى الخامس عشر من أغسطس، وصار الطريق الآن مفتوحًا لبريطانيا لكى تسترد مستعمراتها وأن تساعد الفرنسيين والهولنديين فى استعادة مستعمراتهم.

وسقطت رانجون فى الربيع وفى التاسع من سبتمبر نزلت القوات الهندية والبريطانية فى الملايو، وبعد ثلاثة أيام تم الاستيلاء على سنغافورة دون قتال.

وبينما كان القواد اليابانيون يلقون أسلحتهم وصفوا مونت باتن بأنه يشبه مجموعة من الـ(gorillas)، وفكر لى كون يوى (yew) رئيس وزراء سنغافورة مستقبلا فى اللحظات الحاسمة والعظيمة فى تاريخ جنوب شرق آسيا[٢٦].

وهل كانت هذه واحدة من أعظم اللحظات فى تاريخ الإمبراطورية؟ ربما لا لأن البريطانيين قد عادوا إلى الملايو على ذيول معطف الأمريكيين، ورغم هذا فإن الحكم البريطانى كان مفضلا بشكل ما لليابانيين، وقد لقى الجيش ترحيبا حارًا رغم أن أحد الصحفيين كان خجولا عندما لاحظ الإدارة (blundering) قد شجعت (Recrundescence).

ولم يكن هناك شيء (Stuffy) عن الجنود فى جيش التحرير، حيث إنهم كانوا يرتدون بشكل غير منظم وكانوا (Slock) فى تحية أسيادهم، وهذا ما يزيد من مضايقة مونت باتن[٢٧].

وربما كانت طريقتهم للقول وداعًا للكل، لأن الحرب قد انتهت، فقد عاشت الإمبراطورية البريطانية بعد الحرب دون أن تخسر المنطقة رغم إهانة ودمار لكرامتها التى بقيت منذ ميونخ، وكان من المستحيل حصر الخسائر، إن التكلفة البشرية للنصر كانت أقل كثيرًا من عام ١٩١٨ وكانت الخسائر كالآتي:

مسل	الدولة	القتلي	المفقودين	الجرحى
١	بريطانيا العظمي	٢٣٣,٠٤٢	٥٧,٤٧٢	٢٧٥,٩٧٥
٢	كندا	٢٦,٠١٨	٢,٨٦٦	٥٣,٠٧٣
٣	أستراليا	٢١,٤١٥	٦,٥١٩	٣٧,٤٧٧
٤	نيوزيلاند	٩,٨٤٤	٢,٢٠١	١٩,٢٥٣
٥	جنوب أفريقيا	٦,٤١٧	١,٩٨٠	١٣,٧٧٣
٦	الهند	٢٣,٢٩٥	١٢,٢٦٤	٦٢,٠٦٤
٧	المستعمرات	٦,٧١٤	١٤,٨١١	٦,٧٧٣

وكانت الخسائر الاقتصادية أثقل كثيرًا عما كانت عليه عام ١٩١٨، لأنه كما تنبأ تشامبرلين بأن المجهود الحربى أكل احتياطات بريطانيا حيث جردت من ثلثى تجارة صادراتها قبل الحرب وربع ثروتها المخزونة، وفى ديسمبر عام ١٩٤٥ كان عليها أن تحصل من الولايات المتحدة على قرض قيمته ٣٧٥,٠٠٠ مليون دولار بفائدة ٢% مقابل وعد بأن تحول بعد عام المبالغ إلى الجنيه الذى يصبح قابلا للتحويل.

إن هذا سوف يعوق التعافى الاقتصادى القائم على الصادرات، ولكن ألغت الحكومة الأمريكية عشرين ألف مليون جنيه من التزامات الإعارة والتأجير.

وهكذا فى عام ١٩٤٥ خرجت بريطانيا من الحرب كدولة مدنية ولديها إمبراطورية (لا تزال الأكبر فى العالم) ولا تزال تتعلق بالادعاءات القديمة كقوة كونية، ولكن عندما قابل تشرشل ستالين وروزفلت فى يالتا (Yalta) شبه أحد الملاحظين الثلاثة بالمنتصرين الرومان الذين تولوا السلطة بعد

موت يوليوس قيصر، وكان ستالين وتشرشل، وأكتافيوس ومارك أنطونيو بينما تشرشل بفضل بلاغته وفصاحته الكل وليس المنسى ليبدوس، وصارت كل من روسيا وأمريكا من خلال قواتهما الحربية والصناعية قوى عظمى تاركين بريطانيا لتحتل مراكزا أقل تواضعا.

وكانت الولايات المتحدة فى هذه اللحظة أقوى القوتين العظميين، حيث إنها تمتلك ثلثى احتياطى العالم من الذهب والسيادة فى الأسطول البحرى والجوى، والأهم من كل هذا التكنولوجيا لإنتاج قنابل نووية، ولم تتدمر أنظمتها الصناعية والبنكية نتيجة الحرب، وفى كل الأحوال والأغراض تتمتع بنفس السيادة والعظمة مثلما كانت عليه بريطانيا عام ١٨١٥.

إن الإمبراطورية وحدها هى التى أهلت بريطانيا لاستعراض نفسها كقوة كونية ومستقبلها فى عالم تتحكم فيه وتسيطر عليه دولتان واللتان لأسباب اقتصادية وسياسية غير ملائمة (inimical) والمعارضين للإمبراطوريات الاقتصادية والأيديولوجية، وهذا بعيد عن الإثبات وعلاوة على ذلك فقد وعدت حكومة العمال الجديدة منذ عام ١٩٣٨ بأن تمنح الهند حكما ذاتيا، وكانت مصممة على الوفاء وتنفيذ هذا الوعد، وكان الاستقلال أيضا هو مصير مستعمرات أكبر رغم أنه لا يوجد من يقول طول الرحلة التى يستغرقها ذلك، وحسب شروط المنطق السياسى إذا وجد مثل هذا الموقف النظرى التجريدى فإن بريطانيا قد ألزمت نفسها بالحل النهائى لإمبراطوريتها فيما وراء البحار وبالتالى قوتها الدولية.

وبالطبع فإن النظام الجديد للتفكير حول الإمبراطورية لم يكن ينظر إليه على أنه تذكرة انتحار، فمن المفروض أن المستعمرات القديمة ستصبح دومنيون جديدة وارتباطها مع بريطانيا سوف يحفظها إلى حد ما كقوة يحسب لها حساب فى العالم.

الجزء الخامس

الشمس الغاربة (١٩٤٥ — ١٩٩٣)

(١)

الاستعماريون يثورون

الإمبراطورية فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية

تحدد إلى حدد كبير تاريخ ما اتضح أنه العقود الأخيــرة مــن حيــاة الإمبراطورية البريطانية من خلال مسار الحرب الباردة. وقــد كــان ذلــك فى شتاء عام ١٩٤٤،١٩٤٥م، عنــدما بــدء الإســتراتيجيون الأمريكيــون والبريطانيون يدخلون فى حالة هياج بسبب القوة العسكرية المتنامية للاتحاد السوفيتى فى كل من وسط وشرق أوربا. وقد انتهى هذا الشعور فى ديسمبر من عام ١٩٨٨م عندما أعلن ميخائيل جورباتشوف (Mikhail Gorbachev) عن التفكيك الوشيك لآلة الحرب الروسية فى أوربا. والحرب الباردة كانــت فى بعض وجوهها شبيهة بسابقتها، فقد كانت تفصح عن وجود لعبة كبيــرة، وهذه اللعبة قد تمت فيما بين كل من بريطانيا وروسيا فى وسط أوربا طوال فترة القرن التاسع عشر. وقد كان هناك تحد للقــوة ومنــاورات دبلوماســية وجمع للمعلومات الاستخباراتية ودمار جعل كلا الطرفين عصبيًا تجاه نيات الطرف الآخر وقدرته على إحداث الضرر. وهنا نجد أوجه الشبه مع السباق الخاص بالحرب الباردة. والأعداء فى كلا المعسكرين كانوا يتوقعون بــشكل مستمر أن هدفهم هو الهيمنة على العــالم ســواء مــن جانــب الــشيوعية أو الرأسمالية. بالإضافة إلى أنه بعد عــام ١٩٤٩م، عنــدما قــام الاتحــاد السوفيتى باختبار لأول قنبلة نووية جعل ذلك هناك دائما فرصة لحدوث أزمة قد تقود إلى حرب نووية.

لم تبدأ الحرب الباردة فجأة، ولم يكن واضحا في مراحلها الأولى، بالنسبة لأي شخص إلى متى قد تستمر أو ما المسار الذي سوف تتخذه. وما كان واضحا لمن هم في لندن وواشنطن أن هناك مسئولية ملقاة على عاتقهم بأن يقوموا بالتخطيط المستقبلي نتيجة قيام روسيا بعد نهاية الحرب بامتلاك إمبراطورية واسعة بشكل غير رسمي.

وقد كانت هناك مخاوف من أن تقوم روسيا بتوسيعها بالوكالة، باستخدام الأحزاب الشيوعية الآخذة في التوسع، قد تأكدت مع اندلاع الحرب الأهلية اليونانية في ديسمبر من عام ١٩٤٤م. وبعدها بأربعة أشهر وصف ماكمليان (Macmillan) ستالين بأنه "نابليون آخر"، وهو نفس الاستنتاج الذي وصل إليه الإستراتيجيون الأمريكيون سلفا الذين، منذ مايو عام ١٩٤٤م، شعروا أن البريطانيين لن يستطيعوا مقاومة الاختراقات الروسية في غرب أوربا بدون مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية (١).

كانت الإدراكات البريطانية حول السلوك الروسي المستقبلي تنصب على التهديدات الموجهة إلى الإمبراطورية، وقد رأوا أن هناك شيئا مزعجا أثناء النصف الأول من عام ١٩٤٦م، عندما طلبت روسيا إقامة قواعد في ليبيا والدردنيل، ورفضت الانسحاب من شمال فارس (إيران). والهجمات الروسية على السياسية البريطانية في كل من البحر المتوسط والهند وفارس والهند الشرقية الهولندية (Dutch East Indies) في أثناء أول اجتماع للأمم المتحدة في فبراير من عام ١٩٤٦م قد أقنع وزير الخارجية، إيرنست بيفن (Ernest Bevin)، أن روسيا "تنوى تدمير الإمبراطورية البريطانية". وقد تبنى المخططون العسكريون الأمريكيون نفس النظرة، الذين كانوا ينظرون إلى الإمبراطورية في ذلك الوقت على أنها مصدر قوة مهم فيما قد يستجد من تطورات في المواجهة العالمية الطويلة (٢).

كان التضامن الإنجليزي- الأمريكى في ذلك الوقت أكثر أهمية ممـــا كان عليه فى فترة الحرب. وهذه النقطة قد أكد عليها تشرشل بشكل قوى فى خطابه المشهور باسم "الستار الحديدي" والذى ألقاه أمام الــرئيس الأمريكـــى هارى ترومان (Harry Truman) فى فولتون بولاية ميسورى، فى فبراير عام ١٩٤٦م. وحاجة أمريكا لبريطانيا كحليف فى مواجهة روسيا الحاقدة قد ساعد على تحسين توجهات واشنطن نحو الإمبراطورية. وقد كانت هناك علامات التغيير فى هذه التوجهات فى شتاء عـــام ١٩٤٤-١٩٤٥م، بعــد أن خفــف روزفلت (Roosevelt) من اعتراضاته على إعادة استحواذ فرنسا على الهند الصينية. وقد كانت هناك حركات مقاومة شيوعية معادية لليابانيين فى هـــذه المنطقة (حركة هو تشي-منه المسماه فيــت منـــه (Ho -Chi-Minh's Viet Minh) وكذلك فى الملايو (Malaya). وكل منهما كان يتعـــرض لاحتمـــال كبيـــر للتدمير، ولذلك فقد كان هناك قصد سياسى من السماح بإعادة احـــتلال كـــل المستعمرتين بواسطة الدولة الاستعمارية السابقة لهما. وقد يعقب ذلك تفكيك الاستعمار، ولكن تركت هذه العملية لاختيار كل من بريطانيا وفرنسا، الذين سوف يقومون بالتعامل مع الشيوعيين المحليين قبل نقل السلطة إلى جماعات أكثر انقيادا. وأول مناوشة من مناوشات الحرب الباردة كانت فـــى الحـــرب خول سايجون (Saigon) أثناء شتاء وربيع عام ١٩٤٥،١٩٤٦م، عندما قامت القوات الإنجليزية- الهندية المشتركة بتأمين المدينة استعدادا لعمليـــة إنـــزال للجيش الفرنسى. وقد تم تسليح قوات POWs اليابانيـــة والتـــى لعبـــت دورا حماسيا فى العمليات الموجهة ضد الموالين لفيت مينه[٣]. وقد غضب الجنرال دوجلاس ماك آرثر (Douglas MacArthur) من الاستعانة المعيبة بالأعـــداء القدامى ضد الأصدقاء القدامى، فمن الواضح أنه كان ما زال مدركًا للـــنمط الجديد من الولاءات والتحالفات التى ظهرت على طول العالم.

وقد كانت الحرب الباردة مثارًا لارتباك الحكومة العمالية، ليس فقط لأنها عملت ككابح لإعادة البناء الوطنى حيث تم توجيه الموارد الضئيلة لعملية إعادة التسليح. وقد فاز حزب العمال بانتخابات عام ١٩٤٥م ببرنامج طموح وقد كان شعاره، دعونا نواجه المستقبل، وهذا يمثل خطة كبيرة نحو تنفيذ ثورة اجتماعية واقتصادية قد أريد منها خلق قدس جديدة فدولة الرفاهية تأخذ على عاتقها تحقيق الرفاهية الاقتصادية والاهتمام بالتعليم، على أن يتم إحياء الاقتصاد من خلال نظام مختلط بين الملكية العامة والإدارة من خلال الحكومة البريطانية والمشروعات الخاصة. والفلسفة التى تأسست عليها هذه السياسة، والتى هيمنت على السياسة فى بريطانيا حتى بداية الثمانينيات، عندما بدأت مارجريت تاتشر (Margaet Thatcher) ثورة جديدة لم تنته بعد ارتكزت على القيم المرتبطة بالسوق الحر بدون أى عوائق. وهنا فإن المؤيدين، مثل مؤيدى حزب العمال فى عام ١٩٤٥م، ذوى ميول يوتوبية يعتقدون أنهم قد اكشفوا نظامًا مثاليًا يؤدى إلى تحقيق الرضاء والرفاهية العامة.

وقد كانت الإمبراطورية قضية هامشية فى انتخابات عام ١٩٤٥م. وقد أكد البريطانيون على أنهم سوف يمنحون الحكم الذاتى للهند، ولكن عندما قام جورج أورويل (George Orwell) بإثارة هذه القضية فإنه تعرض هو والقضية للتجاهل السياسى [٤]. وقد قام طلبة غرب أفريقيا الذين يدرسون فى بريطانيا، والذين طالما سمعوا خطابا حماسيا من سياسيى حزب العمال، خاصة الجناح اليسارى من الحزب، بإلقاء انفسهم فى معمعة الحملة آملين أن فوز حزب العمال سوف يقرب من استقلال بلادهم. ولكنهم أصيبوا بالإحباط، وفى غضون سنوات قليلة اكتشفوا أنه من المستحيل إيجاد فروق فيما بين حزب العمال وحزب المحافظين فيما يتعلق بالسياسات الاستعمارية [٥].

وقد كان هذا غير عادل ولكنه مفهوم. فبسبب وضع حزب العمال جل تركيزهم على بناء قدس جديدة فى بريطانيا فإنهم كانوا مشغولين عن إنـــشاء قدس أصغر فى كل مستعمرة من المستعمرات. ولذلك فإن الهدف الأساســـى من السياسة الاستعمارية لحزب العمال لم يختلف كثيرا عن النمط القديم من الإحسان الذى كانت تقدمه الاستعمارية (Imperialism). والعدالة الاجتماعية برزت وكأنها القضية الأهم والتى تعلوا على مسألة الحكم الذاتى. وقد أعلـــن كريش جونز (Creech Jones)"فقد كان فى كينيا حضارة للجـــنس المهـــيمن، مدعومة بالعمالة الرخيصة، وهذا النوع من المجتمعات لا يطاق" على الرغم من أنه قد حظى على منصب وزير المستعمرات منذ عام ١٩٤٦م وما بعده فإنه لم يقم سوى بتغييرات طفيفة[٦]. لكنه أخاف المستعمرين البـــيض فـــى أفريقيا الذين قد تنفسوا الصعداء عندما فاز حزب المحـــافظين بالانتخابـــات العامة فى أكتوبر من عام ١٩٥١م [٧].

لقد تم وضع الخطوط العامة للسياسات الاستعمارية لحزب العمال أثناء وقبيل الحرب. وأخذت عملية إعادة البناء الاقتصادى والاجتماعى الأولويـــة على مشروعات الحكم الذاتى، على الرغم من أن الاثنين متكاملين.

والمشكلة هى أن المستعمرات البريطانيـــة الاســـتوائية كانـــت فقيـــرة ومتخلفة. وكشفت لجنة التحقيق التى تجولت فى الهند الغربية فى فترة قصيرة قبل الحرب عن وجود مثل هذا التخلف، فمعدلات الأمية كانت تتروح ما بين ٦٠-٧٠ فى المائة، والأمراض التناسلية كانت منتشرة والملاريا كانت بمثابـــة الوباء. فواحد من كل أربعة عشر من سكان الدومنيكان (Dominican) (ويرجع ذلك بوضوح إلى زراعتها للحمضيات وصناعة طوابع البريد الملونـــة) كـــان مصابا بالأمراض المعدية، ومتوسط الدخل السنوى للفرد خمسة عـــشر جنيـــه إسترلينيًا. وقد كان إصلاح مثل هذا الـــضعف الاقتـــصادى والـــصحى هـــو

موضوع قوانين التطوير الاستعمارى فى الفترة من (١٩٤٠-١٩٤٥م)، هذه القوانين أتاحت تقديم المنح والقروض لبناء الطرق والكبارى والمستشفيات والمدارس والعيادات الطبية ومحطات مياه الشرب. وقد رأى البعض أن وجود بنية تحتية- قوية قد يمهد الطريق أمام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية. وقد كان من البدهى أن المستعمرات يمكن فقط أن تقوم بحكم نفسها إذا كان لديها من الوسائل التى تستطيع أن تدعم به نفسها. وقد تم توزيع مبلغ ٤٠.٥ مليون جنيه إسترلينى فى الفترة ما بين عامى (١٩٤٦-١٩٥١م) على هذه التحسينات، ولكن أثناء نفس الفترة أصرت وزارة المالية على إيداع مبلغ ٢٥٠ مليون جنيه إسترلينى الذى حازته المستعمرات من تجارتها الخارجية فى لندن وذلك لدعم الاحتياطى البريطانى. وقد كان هذا وضعا لا عقلانيا، فالمستعمرات كانت تمنح مبلغا صغيرا من نفقات الحكومة فى حين أن ثروتها الحقيقية ظلت معطلة فى لندن.

وقد اجتمع غباء وزارة المستعمرات مع عناد وزارة المالية على ذلك. وأدت الخطط الممولة من الدولة من أجل الإنتاج الضخم للبيض فى جامبيا (Gambia) والفول السودانى فى تنجانيقا (Tanganyika) إلى مآس بسبب الإعداد السيئ والإدارة السيئة. والمشروع الأخير قد استهلك حوالى أربعين مليون جنيه إسترلينى، وقد تم منح سكان تجانيقا ١١٠٠٠ فدان من الأراضى الزراعية، وثلاث مزارع للماشية ومزرعة للطباق. وهناك مغامرة أخرى ممولة من قبل الحكومة، لجنة التنمية الاستعمارية، التى أغرقت المستعمرات بالمصائب وأدت إلى خسائر كبيرة لدافع الضرائب. وقد كان هناك سببان يكمنان فى تفكير حزب العمال أديا إلى هذه الكوارث. السبب الأول هو الاعتقاد الدوجماتيقى أن الاستثمار الخاص فى المستعمرات كان معادلا للاستغلال، فى حين أن المشروعات التى تقام تحت إشراف الدولة لا تشهد مثل هذا الاستغلال. السبب الثانى، أنه كان هناك إحساس بأن التنمية

المخططة بعناية لإنتاج المستعمرات، خاصة فى المواد الغذائية، سوف يؤدى إلى توفير الكثير من الدولارات. وأن ذلك يجعل بريطانيا قادرة على استيراد الأطعمة بدون استنفاد احتياطيها المهم من الدولار، وصادرات المستعمرات هى التى سوف تحل هذه المعضلة. وفى النهاية لم يستفد أحد، وفى المستعمرات ساد شعور بأن اقتصاداتهم يتم التلاعب بها ببطء من أجل إثراء بريطانيا. وقد كانت هذه مسألة حقيقية، ولكن المدافعين عن المشروعات الاستعمارية للحكومة ذكروا أنها كفيلة في نفس الوقت بإثراء المستعمرات المشاركة فيها.

وقد ترافق إخفاق المشروعات فى إفريقيا مع سلسلة من الأزمات الداخلية والدولية. ففى عام ١٩٤٨م دخلت الحرب الباردة إلى مرحلة جديدة وخطيرة مع ضم روسيا لتشيكوسلوفاكيا، وإقامة جدار برلين وبداية حملة حرب العصابات الشيوعية فى الملايو.

وقد كانت بريطانيا والإمبراطورية قد تعهدت مسبقا بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية، والتى، وفقا لمبدأ ترومان الذى أطلقه فى عام ١٩٤٧م، تقاوم المزيد من التوسع السوفيتى، سواء كان ذلك فى شكل اعتداء مباشر أم من خلال التآمر. وبعد عام فإن مساعدات مارشال بدأت فى التدفق إلى غرب أوربا لمساعدة الاقتصاديات والسكان الذين إن لم يتلقوا المساعدة فسوف يسقطون بسهولة فى يد الشيوعية.

لقد جعلت الحقائق الاقتصادية والعسكرية القاسية لعالم ما بعد عام ١٩٤٥م بريطانيا تهبط إلى منزلة الشريك الأصغر لأمريكا. فبعد لقاء مع الرئيس ترومان فى يناير من عام ١٩٥٢م، لاحظ إيفيلين شوكبرج (Evelyn Shucburgh) أن "لقد كان من المستحيل أن نلاحظ أننا نقوم بدور اللاعب الثانوي"[٩]. وأخذ دور الداعم لم يكن سهلاً قبوله على السياسيين فى أمة

اعتادت دائما على أن تكون فى مركز الأحداث. فقد استمروا فى العمل كأنهم صانعو السياسة وأنهم وكلاء لإحدى القوى العظمى. وقد كان أكثر دليل على تقلص توجهاتهم هو قرارهم بالبدء فى تصنيع القنبلة النووية.

وبعد انتهاء التعاون الوثيق بين كل من بريطانيا وأمريكا فى مجال البحوث النووية فى نهاية عام ١٩٤٥م، فإن الحكومة بدأت فى إنشاء مصنع لاستخراج البلوتونيوم فى ويندسكال (Windscale) عند ساحل كامبرلاند (Cumberland)، والتى تمت إعادة تسميتها سيلفيلد (Sellafield) بعد وقوع حادث مأساوى فى عام ١٩٥٧م. وفى نفس الوقت فإن وزارة الطيران كانت تخطط لإقامة مجموعة من الطرق الجوية الإستراتيجية تتخلل كل أنحاء الإمبراطورية وتربط بين سبعة وعشرين مطارا تم بناؤها لكى تلائم عمل قاذفات القنابل الثقيلة جدا [١٠]. وعلى الورق، فإن ذلك بدا مؤثرا للغاية كمثيله فى العصر الفيكتورى، حيث تم بناء سلسلة كبيرة من القواعد البحرية ومحطات التزود بالفحم فى جميع أنحاء العالم. وأحد المطارات التى كان ينتوى بناءها فى كراتشى، كان واحدًا من تلك المطارات التى خصصت من لجنة التكنولوجيا الحربية المشتركة لشن غارات بقنابل نووية على سبع وستين مدينة روسية فى خطة ضرورية تم تقديمها فى أبريل من عام ١٩٤٦م [١١]. وقد كان ذلك بمثابة وضع العربة أمام الحصان بالنسبة لحكومة كانت قد وافقت للتو على برنامج لصناعة القنابل النووية. وقد تم منحها الإذن فى أكتوبر التالى بواسطة آتلى (Attlee)، وهى لجنة صغيرة مكونة من الوزراء الرئيسيين ومستشاريهم من التكنوقراط. وقد كان رئيس الوزراء قلقا من أن تقوم الولايات المتحدة فى أى وقت فى المستقبل بالعودة مرة أخرى لسياسة العزلة المعتادة لها، وتترك بريطانيا وحدها فى مواجهة الجيش الأحمر. وقد كان إيرنست بيفن، وزير الخارجية آنذاك، غاضبا للغاية من التوجه المتبسط الذى أبداه نظيره الأمريكى معه، وقد كان مصرا على أن

يمتلك السلاح الذى يؤهله هو ومن يخلفه فى منصبه لكى يتحدثوا كممثلين لقوة عالمية عظمى [١٢]. وقد أصبحت القنبلة النووية هى معادل منتصف القرن العشرين لأسطول المدرعات، وأصبحت الرمز الذى يميز اكتساب القوة الدولية لمثل هذا الوضع.

فمن خلال تشبهه ببلونت (Blunt) فى خطابه وجون بوليش (John - Bullish) فى سلوكه، لم يكن لدى بيفن أى شك فى أنه وزير خارجية لقوة عالمية وقد تصرف بناء على ذلك.

وقد كان الفهم العام لقائد نقابات العمال السابق المتسم بالعنف والمشاكسة متأثرا بواسطة القادة العسكريين والدبلوماسيين [١٣]. وقد كانت هناك لوحة لجورج الثالث معلقة على مكتبه، وكان هناك أوقات ظهر فيها وكأنه مدفوع بروح بالميرستون (Palmerston)، الذى كان يكن له الإعجاب [١٤]. وقد كانت المهمة الرئيسية لبيفن هو أن يتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية فى وضع حاجز على الدول التابعة لهما فى كل من أوربا والشرق الأوسط وآسيا، حاجز يكون من القوة بحيث يستطيع صد روسيا. وأول ارتباط، وهو معاهدة حلف شمال الأطلسى (الناتو) كانت قد أنجزت بحلول عام ١٩٤٩م لكى تضمن أمن غرب أوربا.

ورأى رجال الإستراتيجية فى كل من أمريكا وبريطانيا أن الشرق الأوسط هو المنطقة الملائمة للغزو والتغلغل السوفيتى. وقد كان له أهمية مزدوجة فى الحرب الباردة. فمنذ نهاية عام ١٩٤٧م، فإن خطط الحرب الأمريكية اعتمدت على قواعد الشرق الأوسط فى ضربة نووية ضد القلب الصناعى لحوض الدون (Don Basin) [١٥]. ثانيًا فإن حقول البترول فى الشرق الأوسط كانت بمثابة المصدر المتدفق لتلبية الطلب على البترول، خلال عامى ١٩٥٠،١٩٥١، وبعد فترة من النمو السريع، فإن حقول البترول هذه

كانت تنتج ٧٠ فى المائة من الاحتياجات الغربية. وقد كانت بريطانيا تقليديا هى القوة المهيمنة فى هذه المنطقة، وخلال الأربعينيات فإن أمريكا كانت تجهز لتعزيز هذا الوضع لفترة من الزمن وذلك بسبب الضرورة ليس إلا. وفى الفترة من عام ١٩٤٩،١٩٥٠م، فإن قواد البنتاجون قدروا أنه، فى حالة حدوث حرب كونية، فلن يكون هناك بديل عن وجود قوات أمريكية هناك لمدة لا تقل عن عامين، ونفس الوضع بالنسبة للقوات البريطانية وقوات الكومنولث وعلى السفن والطائرات أن تكون قريبة من هذه المنطقة.

وكانت إمكانية تحملهم مثل هذه المسئولية موضع تساؤل. ففى عام ١٩٤٦م انزعج أتليه (Attlee) من تكاليف الوجود البريطانى فى البحر المتوسط والشرق الأوسط، وكان يفكر فى الانسحاب منهما على نطاق واسع، إلا أن بيفن قد أثناه عن هذه الرغبة، لأنه كان يرى أن الروس سوف يدخلون إليها بمجرد أن يغادر البريطانيون. وكبار القواد الذين ألقوا بثقلهم خلف وزير الخارجية، وهددوا بالاستقالة فى حالة القيام بأى انسحاب. وفى بداية يناير من عام ١٩٤٧م تم إسقاط أتيليه [١٦]. ففى خلال عام واحد فإن حكومته قد أجبرت على قطع المساعدات التى تقدمها إلى كل من اليونان وتركيا، وأخرجت قواتها خارج فلسطين. وتكمن المشكلة فى أن بريطانيا لم تعد قادرة على انتهاج سياسة خارجية طموح بناء على الموارد المالية الضئيلة، وعلى ذلك فإن الدولة قد اضطرت إلى تخفيض سقف سياستها الخارجية بحلول عام ١٩٤٧م. وبعد عامين، فى ظل اندلاع أزمة العملة وتخفيض قيمتها، فإن ميزانية الدفاع انخفضت إلى ٧٠٠ جنية إسترلينى فى السنة.

وقد كان النقص فى الرجال كبيرًا أيضًا مثله مثل النقص فى المال. فمع نهاية الحرب، كان هناك ٢٠٠٠٠٠ من القوات البريطانية والهندية منتشرة فى مناطق الشرق الأوسط.

كان نحو نصف هذا العدد شبه أعزل (حامية قاعدة قناة السويس كانت تبلغ ٨٠٠٠٠ فى عام ١٩٤٨م) والصديق القديم، الجيش الهندى، كان قد اختفى بحلول أغسطس من عام ١٩٤٩م، عندما استقلت كل من الهند وباكستان. وفى محاولة لشحذ القوة العاملة فإن الحكومة حاولة عبثا تشغيل القوات الباكستانية [١٧]. وقد كانت محاولة أخرى مجدية أكثر فى تعويض خسارة الجيش الهندى ألا وهو التجنيد الإلزامى الداخلى، وهو الشيء الذى كان يعتبر فى الماضى لا يمكن التفكير به أثناء فترة السلم. وقانون الخدمة الوطنية لعام ١٩٤٧م قد ألزم كل من بلغ الثمانية عشر من العمر بتمضية فترة ثمانية عشر شهرا فى الخدمة العسكرية، وقد تم مد هذه الفترة إلى عامين فى عام ١٩٤٩م عند اندلاع الحرب الكورية.

كان من الممكن إحلال الثكنات الهندية كان يمكن إحلالها بأخرى أفريقية. وفى ديسمبر من عام ١٩٤٩م، قام أتيلى بالطلب من وزارة المستعمرات والعاملين فيها باستغلال الإمكانات المتاحة فى رفع عدد القوات المسلحة فى المستعمرات الأفريقية. وقد احتاج التقرير الخاص بها إلى عام كامل من أجل صياغته، وقد كان يحتوى على لهجة متشائمة. وهو ما عكس الأحكام المسبقة لمن قاموا بصياغته وكذلك حقائق الواقع. وقد قدر أن أفريقيا يمكن أن تمنح ما يصل إلى ٤٠٠٠٠٠ جندى، ولكن كان هناك شك من ناحية كفاءتهم. فجندى المشاة الأسود كان ذا قيمة محدودة من الناحية المالية لأنه يحتاج إلى وقت أطول فى التدريب، ولن يستطيع أبدا تحقيق نفس الكفاءة العملياتية مثل نظيره الأبيض. وقد فهم أيضا أن السود غير قادرين على الاضطلاع بالواجبات التقنية سواء فى البحرية أو فى RAF (القوات الجوية الملكية). وأخيرا فإن استغلال السود فى منطقة البحر المتوسط والشرق الأوسط قد يؤدى إلى إثارة البغض السياسى والعرقى، وعليهم أن يكونوا

معزولين عن الوحدات المجندة من جنوب أفريقيا [١٨]. واستبدال السود محل الجيش الهندى ظل جزءًا كان محتمل الحدوث من التاريخ الإمبريالى.

كان لدى دول الكومنولث نفور من أن تتحمل جزءا من عبء الحرب الباردة البريطانية. واستئناف التخطيط الدفاعى المشترك قد لاقى استقبالا فاترا فى مؤتمر دول الكومنولث فى عام ١٩٤٦م. ومن ذلك الوقت فصاعدا كانت هناك محاولات متكررة لوضع سياسة دعم دفاعى مشتركة ومتبادلة والتى تعرضت للإعاقة نتيجة وجود كل من الهند وسيلان (Ceylon)، حيث كانتا قد أعلنتا حيادهما فى الصراع الجارى بين روسيا والغرب. ومندوب كلا الدولتين قد تم استبعادهما من المناقشات الجارية حول الإستراتيجية الكونية فى مؤتمر عام ١٩٤٨م، ومن الإعلانات الخاصة بالخطط البريطانية فى الشرق الأوسط التى تم إعلانها فى عام ١٩٥١م.

وكانت استجابة دول الكومنولث البيضاء على مطالب تقديم مساعدة معينة مختلطة ومثبطة للهمم. ففى أثناء مؤتمر عام ١٩٤٨م، أوضحت الحكومة العمالية لأستراليا أنه فى حين أنها ضد الشيوعية، فإنه ليس لديها الرغبة فى أن تكون شريكا فى قمع الحركات الشعبية الوطنية، ونفس هذا الاتجاه قد تبنته الهند أيضا. وكان عبء رفع مستويات المعيشة الداخلية هو العذر الذى تم تقديمه فى أكتوبر من عام ١٩٤٨م لعدم إرسال تشكيلات عسكرية إسترالية للمساعدة فى حرب الشيوعية فى الملايو.

أدى النصر الشيوعى الذى حدث فى الصين عام ١٩٤٩م وبداية الحرب الكورية إلى تغير جذرى فى النظرة الأسترالية. وقد عرض مينيز (Menzies)، الذى قد تم انتخابه فى ديسمبر من عام ١٩٤٩م، تقديم قوات برية تعمل فى الملايو. ولكن تم رفضها على الرغم من قبول سرب من قاذفات القنابل لينكون. وكما لاحظ أحد المسئولين فى وزارة الخارجية أن

"القوات الأسترالية تمثل مقاتلين رائعين" ولكنهم "يميلون إلى خلق المشكلات فى الاوقات التى لا يكون فيها قتال"[١٩]. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن حملة الملايو كانت بالأساس تعتمد على الاستحواذ على قلب وعقل الصينيين والملاويين، فقد يكون من غير الحكمة إرسال جنود هناك مشهورين بمعاملة السكان المحليين بطريقة فظة.

وبروز التهديد الشيوعى فى الشرق الأقصى فى الفترة من عام (١٩٤٨م-١٩٥٠م) من الطبيعى أن يؤدى إلى إزعاج كل من أستراليا ونيوزيلاندا، على الرغم من أن كلتا الدولتين قد تم تهدئتهما فى وقت قريب من خلال عقد معاهدة أنزوس (ANZUS)، هذه المعاهدة التى أدت إلى وضع أمن المحيط الهادى تحت المظلة الأمريكية. وكانت هذه الضمانة للأمن المحلى، كما تأمل الحكومة البريطانية، تقنع كلتا الدولتين بأن يتعهدا بتقديم قوات إلى منطقة الشرق الأوسط. وقد كانت الحاجة إليهما أكثر من أى وقت آخر فى عام ١٩٥١م، مع اندلاع أزمة البترول الفارسى (الإيراني) والتدهور السريع فى العلاقات الإنجليزية المصرية. وقد كانت استجاباتهما فاترة. وقد كانت كل من نيوزيلاندا وروديسيا الجنوبية مستعدتين لتقديم الرجال، مع إعادة العرض السابق بتقديم أسراب من الطائرات المقاتلة من نوع فامبير (Vampire)[٢٠]. وفى حالة حدوث حرب فإن كلاً من أستراليا ونيوزيلاندا قد وعدتا فى ديسمبر من عام ١٩٥١م، أنهما سوف تقدمان عدد ٢٧٠٠٠ من القوات لحماية كل من مالطة وقبرص ولكن كان إرسالهما لهذه القوات مشروطا بطبيعة الظروف فى الشرق الأقصى[٢١]. فالذكريات حول تركهم يلاقون هزيمة منكرة فى عام ١٩٤٢م كانت ما زالت قوية فى الأذهان. ولم يكن لدى كندا شيء لتقدمه، فقد كانت كامل القوات العسكرية لها ملتزمة بمعاهدة الناتو.

أما وضع جنوب أفريقيا فقد كان ملتبسًا. حيث كانت هناك دلائل على عداء الشيوعيين من جانب الجناح اليمينى المتطرف للحزب الوطنى للأفارقة

البيض، وقد فاز في الانتخابات عام ١٩٤٨م، وقد طالبوا بالمساعدة العسكرية من جانب أمريكا. وقد كانت جنوب أفريقيا مستعدة لمساعدة بريطانيا بالطائرات للدفاع عن الشرق الأوسط في حالة حدوث طارئ. ولم يكن أي من ذلك وشيك الحدوث على الرغم من طرح البريطانيين أن طريق روسيا نحو أفريقيا سوف يكون عبر مصر. وقد كانت وزارة الحرب تأمل في الحصول على لواء مدرع على الأقل، على أساس أن الجنوب أفريقيين كانوا متحمسين لفكرة الحرب. وقد علق أحد الجنرالات البريطانيين على ذلك " إنهم متقلبون بطبيعتهم ومن السهل أن يتراجعوا في حالة ما إن طلب منهم أن يقوموا بدور دائم في عمل المشاة" [٢٢]. وفي حكومة تشرشل لعام ١٩٥٣م حاولت أن تجرب أحفاد رجال الكوماندوز في عام ١٨٩٩م في أن يأتوا إلى الشمال مع عرض للتبادل مع قاعدة سيمونستون (Simonstown) البحرية لمساعدة الشرق الأوسط ولكن هذه المحاولة لم تكن ناجحة [٢٣].

وقد ترك لبريطانيا أن تقوم وحدها بتقديم الجند اللازمين لخطوط المعارك الممتدة للحرب الباردة في الشرق الأوسط، مدعومة بوعود كثيرة بالمساعدة من دول الكومنولث البيضاء بمجرد أن تبدأ الحرب. ولم يتم إشراك وحدات دول الكومنولث في خطط الطوارئ التي تم وضعها للحفاظ على الوضع القائم في مصر في عام ١٩٥١م، أو في مشروع آخر مشابه ضد فارس في نفس العام [٢٤]. وحتى عندما سمع السير أنتوني إيدن لأول مرة أخبار قيام عبد الناصر بتأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦م، فإنه أخذ في اعتباره الحصول على موافقة الانتفاع بخدمات الزوارق الملكية الخاصة بنيوزيلاندا، لاستخدامها في البحر المتوسط [٢٥].

وفي الفترة ما بين (١٩٤٥م -١٩٥١م)، انخرطت حكومة حزب العمال في الحرب الباردة بكل السبل، وفي ذلك الوقت، تظاهرت بكل ما هو

متوقع من قوة عالمية نشيطة. حيث تصرفت على عكس السياسة الخارجية بخلاف سياسة الارتداد وبطريقة لا تتشابه إطلاقا مع سلوك المحافظين في العام السابق تماما للحرب. ووزراء أتيليه قد تصرفوا على هذا النحو لأنهم اعتقدوا أنه من الصواب تجنب التوسعية الروسية، وقد كانوا مستعدين للتجاوز عن التكاليف الباهظة التى يمكن أن يجلبها هذا السلوك. وقد زاد ذلك اندلاع الحرب الكورية ويمكن القول إنه أعاق بشكل خطير تعافى الاقتصاد الذى كان يتم على نحو سريع منذ عام ١٩٤٩م.

وطوال هذه الفترة، فإن بريطانيا تصرفت كما لو أنها قوة استعمارية لها مصالح كونية، على الرغم من أن قدراتها قد تأثرت بغياب الجيش الهندى. وبين (١٩٤٩-١٩٥٣)، فإن حكومة حزب العمال وحكومة المحافظين اللاحقة لها تخيلوا أن الإمبراطورية الأفريقية يمكن أن تثبت أنها بديل عن الهند كمصدر للرجال والمواد الخام لتحقيق المطالب البريطانية.

وفوق ذلك فقد كان هناك كومنولث جديد متعدد الأعراق، قام كل من حزب العمال وحزب المحافظين باستثمار سياسى واقتصادى كبير فيه. وكانت الاختلافات فى ذلك الوقت وما بعده ضئيلة. فقد رفضت دولتان من دول الكومنولث غير البيضاء، وهى الهند وسيلان، أن تكونا حليفتين لبريطانيا فى الحرب الباردة، وتركت بورما الكومنولث فى عام ١٩٤٨م، بعد أن أصبحت جمهورية، وتبعتها أيرلندا، وقد أصبحت هى الأخرى جمهورية، فى عام ١٩٤٩م. وقد تبنت الهند أيضا دستوريًا جمهوريًا فى نفس السنة ولكنها بعد عدد من المناورات القانونية، ظلت عضوا فى الكومنولث الذى كان الرئيس الرمزى له هو الملك جورج السادس. والسبب فى السماح بهذا الوضع الشاذ هو الخوف من أن الهند، بمجرد أن تصبح خارج الكومنولث، قد تنضم بسهولة إلى الكتلة الشيوعية. وقد انضمت باكستان إلى حلف بغداد

المعادى للاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٥٥م، وذلك ليس من أجل بريطانيا ولكن بعد تعرضها للإغراءات الأمريكية، والتى كانت تتضمن وعدا بتقديم منحة عسكرية بمقدار ٢٥ مليون دولار. ودول الكومنولث البيضاء كانت غير مبالية بالدعوات الخاصة بالدفاع عن الطرق الحيوية الإمبراطورية على طول البحر المتوسط وعبر الشرق الأوسط.

فهى الآن أقل مما كانت عليه من الأهمية فى أى وقت سابق، كما أن سلامة كل من أستراليا ونيوزيلاندا أصبحت فى الأيدى الأمريكية، لأنها أصبحت هى الفاعلة منذ عام ١٩٤٢م، وكانت كندا تهتم فقط بمنطقة المحيط الأطلسى وغرب أوربا.

بمعنى ما فإن الكومنولث قد أصبح بديلا عن الإمبراطورية. وبالفعل فعندما أصبحت الخطط المتعلقة بالحكم الذاتى فى المستعمرات جاهزة أخيرا، فقد تم الافتراض فى لندن أن المستعمرات السابقة سوف تقوم تلقائيا بالانضمام إلى الكومنولث. وسواء كان هذا الجهاز يهب بريطانيا نفس السلطة أم لا، فإن القوة العسكرية والمكانة التى كانت تتمتع بها عندما كانت تقوم بحكم أقاليم الإمبراطورية ودول الكومنولث ظلت مسألة موضع شك. وحتى منتصف القرن العشرين لم تختر بريطانيا أن تقوم باختبار عمل وطبيعة الكومنولث بشكل قوى للغاية. وفى أحد الحوارات التى أجرتها إذاعة البى بى سى، وهو الحوار الذى تم بعد انتهاء مؤتمر وزراء خارجية دول الكومنولث فى كولومبو فى يناير من عام ١٩٥٠م، أشار أن الكومنولث قد يرفض أن يكون "ناديًا عاطفيًا مفككًا لمجموعة من السذج". ثم بعد ذلك ذكر أن الكومنولث يفتقر إلى كل من الصوت الموحد فى الشئون الخارجية ويفتقر أيضا إلى القوة المادية، ثم أشار المتحدث إلى بعض الحوداث، وأشار إلى

أنها "قد جعلتنا قريبين من فكرة حرب عالمية"[٢٦]. وإذا كانت الحال كـذلك، فإن المستمع المتشكك قد يتساءل لماذا هناك اثنان مـن الأعـضاء، وهمـا باكستان والهند، في حالة صراع قاتل حول كشمير، وهناك عضو آخر، وهي جنوب أفريقيا، في منتصف الطريق نحو إنشاء نظام الأبارتهيد، وهو نظـام اجتماعي يقوم على سيادة العرق الأبيض.

ومجرد أن دخلت بريطانيا في النصف الثاني من القرن العشرين بدأت تظهر كضحية لسياسات الوهم. ففي عام ١٩٥٠م فإن كلا من حزب العمـال وحزب المحافظين قد أقنعا نفسيهما بأن الكومنولث هو شيء يجب أن يظـل في الذهن وأنه بعيد عن النقد. وبناء على ذلك فإنه كان يقدم إلى العالم علـى أنه مثال مشرق على التعاون الدولي ودليل على استمرار وضـع بريطانيـا كقوة دولية. وقد كان هذا بمثابة الاعتقاد بالنسبة للسياسيين الذين فشلوا فـي إدراك مظاهر الانحدار النسبي لوضع بريطانيا، وظلوا على أمل أن الـبلاد بطريقة ما سوف تكون قادرة على الوقوف بمعزل عن حلفائها الكبار، ومـع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، في بداية الخمسينيات، بدأوا فـي اتخاذ الخطوات الأولى لهم نحو الوحدة الاقتصادية. وقد كان وهم القوة أفضل من لا شيء على الإطلاق، وقد كان قادة الكومنولث راغبين في إضافة بعض من الكماليات على التمثيلية التي كانوا يلعبونها. فهو قد اتـاح لهـم فرصـة حضور مؤتمرات على أعلى مستوى، وأن يتم التعامل معهم بتقدير يناسـب مكانتهم وأنه لا يتم التحكم بهم.

والاستخدام المتزايد لكلمة "كومنولث" لكي تشمل المستعمرات بجانـب دول الكومنولث المستقلة قد ترافق مع وجود حملة دعاية شيوعية مستمرة تم فيها التسوية بين "الاستعمار" و"العبودية" و"الاستغلال" للأعراق الملونة مـن جانب القوى الرأسمالية. وأيا كان المظهـر الـسياسي لهـا فـإن حركـات

المعارضة في المستعمرات قد تجمعت مع بعضها بعضًا كجزء من كفاح عالمي ضد الإمبريالية الجشعة. وفي نهاية عام ١٩٤٨م، ذكرت جريدة البرافدا (Pravda) كيف أنه في غرب أفريقيا الفرنسية والبريطانية فإن أسماء كل من لينين وستالين كانت معروفة جيدا حتى في الغابات وفي القرى الصغيرة، حيث كان الناس يتعاونون مع بعضهم بعضًا أجهزة راديو لاسلكية حتى يتمكنوا من سماع إذاعة راديو موسكو[٢٧]. وكان المضربون في ساحل الذهب في عام ١٩٤٨م يستلهمون نموذج الشيوعيين في كل من الهند الصينية وإندونيسيا (التي كانت في السابق تعرف بالهند الشرقية الهولندية)، حيث كانت هولندا هي وكيل الاحتكاريين الموجودين في وول ستريت والذين كانوا على استعداد لاستلاب ثروة البلاد لأنفسهم. ووفقا لما ذكر في عدد مجلة ترود (Trud) الصادر في ١٩ أغسطس من عام ١٩٤٨م، فإن مصاصي الدماء هؤلاء كانوا موجودين أيضا في مدينة لندن، حيث كانوا يشجعون على تدمير الحركة القومية في الملايو (مثل الحزب الشيوعي) وذلك من أجل وضع أيديهم على المواد الخام الموجودة في البلاد [٢٨].

ونفس الإحساس بوجود مؤامرة كونية من جانب الرأسمالية قد وصلت أيضا إلى أفريقيا. وفقا لما ذكره جورج بادمور (George Padmore) الصحفي المحنك في الهند الغربية، محرر جريدة نجرو وركر (Negro worker) الصادرة في لندن، قد ذكر أن كلا من بريطانيا وأمريكا على أنها ترغب في ابتلاع موارد البلاد. وقد كان بادمور يقوم بنشر مقالات ماركسية في جريدة جولد كوست أوبزيرفر (Gold Coast observer). في أثناء الفترة من عام ١٩٤٨،١٩٤٩م، فإنه اتهم رئيس نقابات العمال بيفن بأنه ينفذ سياسات حصان طروادة في فلسطين، وقد توقع أن يتم استخدام القوات الأفريقية كمقاتلين مأجورين وكلاب صيد في الحرب المناهضة للشيوعية في الملايو [٢٩].

وكانت الحملات الاستعمارية بمثابة الفرصة المواتية للكتاب الشيوعيين. ففى نوفمبر من عام ١٩٥٢م قامت جريدة (Zycic warzawy) بنشر صورة لمشتبه بانتمائهم لمنظمة الماو ماو (Mau Mau) مع تعليق "هؤلاء أعضاء في منظمة الماو ماو مقيدين مثل العبيد... فقد حاربوا لتحرير كينيا من العبودية الاستعمارية ولذلك فإنهم يعتبرون لصوصا". وذلك تحت عنوان رئيسى "الاستعماريون فى حالة هياج"، كوموسول برافدا (Komosol Pravda) عدد ٣٠ يونيه عام ١٩٥٣م قد أعطى تفاصيل للعمليات التى تتم ضد الماو ماو. "فالجنود والشرطة يقومون باضطهاد وحشى للسكان الزنوج فى هذا البلد. وهناك أخبار عن عمليات قتل جماعى للزنوج الذين يصلون كل أسبوع من كينيا". ومن بين التقارير التى تذكر فى هذا الشأن فإن أحدها جاء من صحيفة الحزب الشيوعى البريطانى، صحيفة الدايلى وركر (Daily Worker)، التى أعلنت أن، "الأقاليم الإرهابية فى كينيا التى لا يمكن مقارنة وحشيتها إلا بوحشية نظام الاحتلال الذى وضعته وحدات الأس إس SS النازية"(٣٠).

وهناك شيئان ظهرا من هذا الهجوم الشديد. الأول هو القدر الكبير من حرية الصحافة التى كانت موجودة فى المستعمرات البريطانية. وقد كان ذلك يرجع فى جزء منه إلى تطبيق المبادئ الليبرالية فى الداخل، ويرجع أيضا فى جزء منه إلى الاعتراف بحقيقة أن الصحافة الصريحة لم تكن لتعوق مسيرة تقدم عربة التفاح الاستعمارية. فقدرة الصحافة المعارضة على أن تسبب ضررًا كانت محدودة بسبب غياب الأحزاب السياسية الجماهيرية وغياب نقابات العمال. وفى غرب أفريقيا، حيث كان هناك الكثير من الصحف والقراء بشكل أكبر من أى مكان آخر فى الإمبراطورية الاستوائية، تغيرت هذه الظروف، بشكل بطىء قبل الحرب وبشكل سريع بعدها. وبرغم

ذلك فإن وزارة المستعمرات والمسئولين المحليين فيها قد شعروا بأنهم أقوياء بقدر كاف يجلعهم قادرين على ترك الوضع على ما هو عليه. وإذا كانوا يرغبون في عمل شيء مخالف فإن ذلك سوف يجد صدى له في بريطانيا حيث إنه من التقليدى اعتبار أن رقابة الدولة للصحف هو عمل غير مقبول في فترة السلم.

كانت الدعاية الشيوعية الخارجية التى تقوم بها روسيا، وأقمارها الصناعية، وفيما بعد الصين، قد مثلت مصدرًا للقلق الاستعمارى في كل مكان كجزء من الصراع الفردى والكونى بين من يملكون ومن لا يملكون، وأدت إلى شجب دعم الشيوعيين لهم. والخوف من حدوث ثورة جماهيرية مدعومة من كل من روسيا والصين فيما يطلق عليه اليوم العالم الثالث قد أدت إلى حدوث رعب في كل من واشنطن ولندن. وسواء كان الإنذار بناء على تهديد فعلى أم لا فإن ذلك أمر غير مهم. فالأمر المهم أنه منذ عام ١٩٤٨م وما بعده فإن كلاً من الحكومة البريطانية والأمريكية كانتا عصبيين ومتوقعتين حدوث دمار، على الأقل لأنهما كانتا على وعى بأنه في العديد من المستعمرات فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت ظروفا مثالية لحدوث ثورات شيوعية. وأيا كان السبب الحقيقى الكامن وراء ذلك فإن الإضرابات والمظاهرات السياسية كانت بمثابة أعراض دائمة لوجود نشاط شيوعى تحت الأرض.

وفى نهاية عام ١٩٤٧م طلبت وزارة المستعمرات من كل حكومات المستعمرات إخبارها عن أى أدلة على وجود دعاية سوفيتية في الصحافة المحلية بها[٣١]. ولم يتم اكتشاف أى منها في روديسيا الشمالية وجامبيا وسيشيل وبيرمودا أو فى جزر البهاما. وقد كانت هناك أدلة فى نيجيريا على وجود بعض الاهتمام الأكاديمى بالماركسية، ولكن لم يكن هناك حزب منظم لها. والصحافة القبرصية (Cypriot) قد احتوت على مقالات شيوعية،

وإحداها كان يتنبأ بحدوث موجة من التوسع الاستعماري الأمريكي، وقد كانت هناك كثرة من المواد الشيوعية في صحف ساحل الذهب. وقد كان هذا مزعجا للغاية، إذا أخذنا في الاعتبار المستوى العالي من النشاط السياسي ونشاط النقابات العمالية في هذه المستعمرة، وقد كان من غير المتوقع حدوث تمرد في أكرا في فبراير من عام ١٩٤٨م. أضافت التحقيقات حول هذه الأحداث، وغيرها في كل من سنغافورة وكينيا، قد المزيد من التحفز الرسمي مع بروز النقص في الدعم الشعبي للسلطات الاستعمارية (٣٢).

وقد كانت هناك شبكة تجسس دلت على وجود تآمر سوفيتي في المناطق غير المتأثرة وفيما بين القوميين الأفارقة. وقد تم إعطاء اهتمام خاص بالطلبة الأفارقة في بريطانيا وكذلك السياسيين الذين زاروا البلاد.

ولمدة تزيد على خمسين عاما، فإن كلتا المجموعتين قد انجذبت نحو دوائر الأجنحة اليسارية، بما فيهما الحزبِ الشيوعي البريطاني. وقد ذكر MI في عام ١٩٥٣م أن هناك اثنين من الشخصيات الكينية البارزة اتصلت بالشيوعيين البريطانيين، الذين كانوا بشكل واضح خائفين أن يذهبوا بعيدا في الثقة فيهم (٣٣). وتم استقبال الزوار الأفارقة قد بترحيب أكبر من جانب الجناح اليساري لأعضاء البرلمان عن حزب العمال، مثل فينير بروكواي (Fenner Brockway)، الذي أجرى مجموعة من المحادثات في قلعة باربرا (Barbra Castle)، وقد كان له اهتمام يستغرق الانتباه بكل حركات التحرر في المستعمرات (٣٤). وروابط من هذا النوع قد أقلقت وزارة المستعمرات التي، في مذكرة مقدمة في عام ١٩٥١م حول رفاهية طلاب المستعمرات، اقترحت أن تقديم الاهتمامات الاجتماعية السليمة وتوفير ظروف الحياة الجيدة قد يعملان كمضادين للتأثيرات الشيوعية. وقد لوحظ أن المحافظين بدأوا في الاجتماع مع الطلبة الأفارقة، الذين كان يشار لهم منذ الآن على أنهم قادة المستقبل لبلادهم (٣٥).

وفى أفريقيا فإن الأدلة على وجود اختراق سوفيتى منظم كانت أدلـــة مبعثرة. وفى عام ١٩٥٢م فإن الطوارئ التى فرضت فى كينيــا أدت إلـــى زيادة الشائعات الاستخباراتية حول التغلغل الــسوفيتى، وأن هنـــاك عمــيلاً سوفيتيًا مشتبهًا به، السيدة م. أ. رحمـــان (M. A. Rahman)، زوجـــة أحـــد الدبلوماسيين الهنود الذى كان للتو قد انضم إلى اللجنة العليا للهند فى نيروبى [٣٦]. وقد تمت مراقبتها هى وزوجها بعناية، ولكن لم يتم رصد أى رابط لهما أو للمخابرات الروسية لأحـــداث الشغب فى كينيا ووسط أفريقيا [٣٧].

السلوك العدوانى للمخابرات ضد من ثبت عليه بشكل مبالغ فيه إلى حد ما أنه متأثر بالشيويعة من الحركات المضادة للاستعمار قد تمـــت مقـــابلتهم بدعاية رسمية مضادة. وهنا فإن الولايات المتحدة كانت متحمسة لتقديم يـــد المساعدة، وفى عام ١٩٥٠ اقترحت وزارة الخارجيـــة الأمريكيـــة برنـــامج مشترك للدعاية المناسبة فى المستعمرات، وذلك باستخدام الإذاعات اللاسلكية باللغات الأصلية. وقد كانت وزارة المستغمرات غير متحمسة. لأنها توقعت حدوث مشكلات سياسية جراء توظيف الأفارقة فى إذاعة صـــوت أمريكـــا الصادرة من نيويورك، وكانت غير سعيدة من إنفاق الـــدولارات الــشحيحة لديها على استيراد أجهزة الراديو للمستعمرات. والأكثر أهمية، فإنه كانـــت هناك مخاوف فيما يتعلق بالسيطرة الأمريكية على محتـــوى الإذاعـــات [٣٨]. ووضعت وزارة المستعمرات ثقتها فى محطات الإذاعة الموجهة للمستعمرات الموجودة فى ذلك الوقت وأن بيع مجموعة من أجهزة الراديو الخاصة سوف يؤدى إلى جذب وزيادة عدد المستمعين الأفارقة. وكانت تكلفة الجهاز الواحد خمسة جنيهات إسترلينى ولذلك فإنها كانت سهلة الــشراء. وفـــى روديـــسيا الشمالية، حيث كان متوسط الأجر الأسبوعى جنيهًا واحدًا، فإن أجهزة الراديو حققت نجاحًا سريعًا، حيث كـــان يـــتم بيـــع ألـــف جهـــاز شـــهريا خـــلال

عام ١٩٥١م [٣٩]. وقد قدر أن كل جهاز يجذب عددا من المستعمين يبلغ عشرة، وقد كانت هناك كثرة من خطابات الثناء حول محطة الراديو الموجودة فى لوساكا (Lusaka). وقد كان أحد هذه الخطابات تنص على الآتى، "هذه الأجهزة اللاسلكية هى ملكنا. فضلا حاولوا أن تستخدموا إن كنا نريد أن نصبح أمة متمدنة" [٤٠].

وقد أصبحت المستعمرات هى ساحة للمعارك الأيديولوجية للحرب الباردة والتى كان لها تأثير قوى على سياسة الحكم الذاتى. وفى أثناء عام ١٩٤٧م، فإن كبار المسئولين فى وزارة المستعمرات قد قاموا بوضع مجموعة من الخطط من أجل النقل البطىء والمنظم والسلمى للسلطة داخل المستعمرات. وقد كانت عملية ثورية، بدأت بإقامة مجالس انتخابية، والتعامل معها على أنها وسيلة نحو إنشاء حكومة برلمانية وطنية تمتلك جميع السلطات التى تخص الشئون الداخلية للمستعمرات. ومع التطبيق الكامل للديمقراطية البرلمانية فإن المستعمرة تصبح جاهزة للحصول على الاستقلال. ولم يكن هناك داعٍ للاندفاع، فقد تم تقدير أن هذه العملية سوف تأخذ على الأقل عشرين وربما ثلاثين سنة من السكان الأصليين حتى يتعلموا أساليب الديمقراطية، والأكثر أهمية تكوين طبقة من السياسيين الجديرين والقادرين على تحمل المسئولين من السكان المحليين.

لقد تم التخلى عن هذا البرنامج المرتب والبراجماتى وقبل كل شىء الواقعى قد تم التخلى عنه فجأة فى عام ١٩٤٨م. فالسبب المباشر كان حالة الذعر التى اكتنفت وزارة المستعمرات بعد أحداث العصيان فى أكرا التى تمت فى فبراير، وقد كان منشأ هذه الأحداث اقتصاديا وليس عدم الصبر على فترة التغير السياسى. ورغم ذلك فإن التحقيق الرسمى قد انتهى بتوصية إسراع التغيير الدستورى ودعم الأفارقة فى المجلس التنفيذى لساحل الذهب.

وفتح الحكم على جميع المستويات قد تم اقتراحه بواسطة تقرير آخر تمت صياغته فى عام ١٩٤٩م بواسطة لجنة من الأفارقة تحت إشراف قاضى إفريقى [٤١]. وقد قبلت الحكومة البريطانية كلا التقريرين، وعملية التطوير قد تم ضغطها فى سنوات قليلة بفاعلية، على أن يتم عقد الانتخابات فى عام ١٩٥٠م. وفى فبراير من عام ١٩٥٢م أصبح كوامى نكروما (Kwame Nkrumah)، قائد حزب المؤتمر الشعبى، قائد الشئون الحكومية وبعد عام آخر أصبح رئيس الوزراء.

ولكن لماذا ارتعدت الحكومة فى عام ١٩٤٨م؟ فإدارة ساحل الذهب قد أخذت على غرة بواسطة أحداث الاضطرابات، ورد فعلها كان غير بارع. ولم تكن هناك أى إرشادات من أعلى حول كيفية التعامل مع أعمال التمرد، وفقط فى عام ١٩٥٥م حاولت وزارة المستعمرات وضع سياسة عامة فى السيطرة على أعمال التمرد. وكانت المحاولات الأولية تتضمن عددًا مختلفًا من الأساليب، فوفقا لقوانين عام ١٩٤٨م الخاصة بشرطة سانت فينسنت (st Vincent)، وقد تم تحريم استخدام الخراطيش، لأنها كانت تستخدم فى إطلاق النار على رؤوس المتمردين حيث "إن هذا يؤدى إلى إسباغ الثقة على المتمردين والمشاغبين"[٤٢]. وأيا كانت الظروف، فإن إطلاق النار على المشاغبين، كما حدث فى أكرا، بدا شيئا سيئا فى الصحافة، وبدأ من عام ١٩٤٥م فإن الحكومة وجدت أنه من المستحيل منع أخبار القلاقل التى تحدث فى المستعمرات عن الصحف [٤٣].

كانت الحكومة البريطانية دائما حساسة فيما يتعلق باستخدام القوة، خاصة الأسلحة النارية، لقمع أعمال الشغب فى المستعمرات لأنها كانت تمثل تخليًا عما قامت عليه الإمبراطورية.

ومن الناحية النظرية وفى المخيلة الشعبية، كان الحكم البريطانى يستند عادة على الرضا والتعاون مع المحكومين وليس على القمع. وقد كان هناك اضطرار لاستخدام القمع فى بعض الحالات ولكن كحل أخير وبشكل محدود. وكل من المسئولين والجنود الذين كانت مهمتهم حفظ النظام كانوا أيضا على وعى بوجود عداء غير محدد ولكنه قوى لاستخدام القوة المفرطة فى البداية. وقد تم وصف ذلك فى (NCO) فى جريدة سايمون رافين (Simon Raven) المسماة صوت الانسحاب (Sound the Retreat) (١٩٧٤م) حول ما حدث فى الهند عام ١٩٤٦م:

"قال كروكستابل مع مسحة من الحزن "ليس مهما"، فإنها مثلها مثل الأشياء الموجودة فى هذه الأيام أن هذه الوسيلة الدموية تفتح فمها وتقطر لعابها وتجعل كل الأطراف الأخرى فى العالم ضدنا. ولا يرغب أحد فى معرفة حقيقتها. لقد كانت المسألة فقط بسبب هذه الوسيلة فإنهم ضدنا، وأيضا فإن ما يقرب من نصف شعبنا يتبنون نفس الموقف".

وعلى نحو واسع فإن نفس الشكوى قد سمعت مرارا خلال السنوات الأخيرة من حياة الإمبراطورية. وبدلا من القمع القاضى للمعارضة، فإن الحكومة البريطانية اختارت أن تحتوى، وأيضا أن تتحدث، بشكل أكثر سلاسة. ومن خلال تسريع انتقال ساحل الذهب نحو الحكم الذاتى فإن البريطانيين تصوروا أن ذلك سوف ينقذ هذه المستعمرة من الدمار الشيوعى المحتمل، وبذلك يتم كسب الصداقة والعرفان بالجميل من القادة السياسيين المحليين. وأدت الظروف التى أحاطت بالحرب الباردة إلى إنهاء فرص التقدم البطىء المحسوب من الوصاية الاستعمارية نحو الحكم المسئول. ومنذ ذلك الحين ركزت السياسة البريطانية على دعم السياسيين المحليين الأكثر نفوذا، الذين يمكن الوثوق بهم فى قدرتهم على كبح جماح الحكومة فى الدول

التى سوف تخلف الإمبراطورية. وقد كان ذلك حلا لمشكلات تفكيك المستعمرات، وهذا الحل قد أرعب الكثير، الذين ذكروا أنه قد يؤدى إلى خلق العديد من المشكلات أكثر من المشكلات التى سوف يحلها.

وترددت شكوك الحكام الذين لم يكن من السهل عليهم تقدم الهنود نحو حكم بلادهم، قد جعل وزير المستعمرات الخبير، السير رالف فورس (Ralph Furse)، يتساءل ما إذا كانت الحكومة تصغى بالفعل إلى الأصوات الصحيحة:

"إنه من الصعب، كما كان دائما، على الأوربيين أن يكتشفوا أن الأفارقة يفكرون بالفعل. فبشكل عام فإن البدائيين لا يمكنهم الآن مساعدتنا بقدر كبير، حيث إن الرجل العجوز والفقير للغاية فى غابات باروتسلاند (Barotseland) فإن أقصى ما يمكنه عمله وفق ما ذكرت لجنة اللورد مونكتون (Monckton) أنه "يرغب فى أن يظل تحت الحماية الكريمة لغطاء الملك جورج الخامس" والأنتلجنسيا (النخبة) السياسية الأفريقية ليست بمثابة الحراسة الأمن للغاية. ومثلهم مثل السياسيين فإن لديهم محاور للسعى من أجل الوصول لها، والتى لم يتعلموا عنها الكثير، وهم بذلك يشكلون نوعا ما من استمرار (deracine). لأن الجماهير الأفريقية يقومون بالصراخ بمجموعة من الشعارات التى يرددونها خلف قادتهم بدون أن يفهموا ماذا تعنى هذه الشعارات التى لا يفهمون معناها".

ما زال هناك فى أواخر الأربعينيات مساحات واسعة من الإمبراطورية ليس لديها أى وعى سياسى ولم يتم مسها إلى حد كبير من جانب العالم الخارجى. واستمرت الأنماط القديمة للحياة وكذلك النظام الطبقى القديم، وقام أحد الرياضيين الذين زاروا دارفور فى جنوب السودان فى عام ١٩٤٩م بمقابلة أحد الرؤساء المحليين الذى كان يمثل أحد الرفاق القدماء بشكل مروع

حيث كان ذا لحية بارزة وأثواب حمراء وزخارف ذهبية وسوط طوله خمسة أقدام يتدلى من رسغيه ولديه أحد عشر ابنًا وعدد غير معروف من البنات. وخلفه يركب مرافقون من ستين رجلا يشبهون سعاة البريد. وكان الرجل العجوز يستطيع تذكر الأيام السابقة على الحكم البريطانى عندما كان على دينار هو السلطان، على الرغم من أنه لا يستطيع أحد تذكر ما الذى يعنيه بقوله "إنه لم يسمح لنا أبدا بأن ننظر إلى ما هو فوق الركبة" (٤٥). وقد قام البريطانيون بحكم دارفور لما يقارب على ثلاثين عاما. وإلى الجنوب من ذلك، فى شمالى أوغندا، فإن الحكومة الاستعمارية كانت تبلغ أيضا نفس العمر تقريبا، وما زالت غير ثابتة فى مكان، لأن اعتماد أقليم كارونجا على الماشية يحتاج إلى عملية انتقال مستمر خلال فترة الأربعينيات (٤٦).

ومع أواخر نوفمبر من عام ١٩٥٧م، فإن دوريات الأفارقة حاملى البنادق التابعين للملك يسافرون سيرا على الأقدام خلال أقاليم كينيا لتذكير قبائل السوك (Suk) والتوركانا (Turkana) بأن هناك مكافأة لمن يقبض على الخارجين عن القانون. وكانت مظاهرات استخدام البنادق والأسلحة النارية بارزة فى احتفالات القبائل وبعد أحد هذه الاحتفالات، التى تضمن تفجير قنابل يدوية فسفورية، فإن حاكم الإقليم قد علق قائلا "أنا أعتقد أن الدرس لم يتم استيعابه"(٤٧). ولا يبدو أن شيئا قد تغير خلال خمسين عاما. فالشرطة الجوية ظلت مستمرة فى المناطق الخلفية من عدن حيث كانت هناك حاجة لستة وستين طنًا من المتفجرات و٢٤٧ من الصواريخ لمعاقبة المغيرين على القوافل وإيقاف الحرب الدائرة فيما بين القبائل فى عام ١٩٤٧ (٤٨). وفى نفس السنة أدى تجدد الصراع القبلى إلى قتل المئات وجرح الكثير فى صومالى لاند (Somaliland)، حيث إن الحكم البريطانى لم يكن كاملا هناك إلا فى عام ١٩٢٠م (٤٩).

وكانت السلطة الاستعمارية أيضا مفتتة أيضا في إحدى القواعد الأخرى التي تتصف بوجود قلاقل ألا وهي جزر سليمان. فبعد انتهاء الاحتلال الياباني، فإن جزءًا كبيرًا من السكان الأصليين قد أعلن الاستقلال، وربطوا أنفسهم مع بعضهم بعضًا في ظل ما أطلقوا عليه "الحكم السائر". وقد كان هذا في جزء منه شكلاً من أشكال العبادة، حيث كان أتباعها يتوقعون وصول سفن ضخمة تحضر هدايا كثيرة من القوة العالمية. وفي ظل الحكم السائر، فإن الرجال والنساء قد عاشوا في جماعات منظمة وكانوا يشتركون في المهام اليومية.

أدت الحركة الشيوعية التي كانت تحت السطح إلى إثارة قلق المسئولين الذين، بعد محاولات التصالح، كانوا مضطرين لاستخدام القوة في أغسطس من عام ١٩٤٧م. وزيارة إحدى الغواصات في يونيه لم تؤد إلى خوف المتمردين، ولذلك تم إرسال حاملة الطائرات جلوري (Glory) والمدمرة كونتست (Contest) لتحقيق نفس الغرض. وطوفهم خلال الجزر وظهور خمسين من أفراد الشرطة من السكان الأصليين حاملين للبنادق والحراب الثابتة (والتي تمت استعارتها من قوات غينيا الجديدة) قد أدت إلى السقوط المفاجئ للحكم السائر. وقد كان الأمر يبدو كأحد الأفلام الكوميدية القديمة. ورجال الشرطة، الذين كان بعض منهم جزءا من هذا الحكم، قاموا بلعب مباراة لكرة القدم مع السكان الأصليين، وفازو ٤-٣، وبعدها كان هناك احتفال في فيجي (Fijian) وحفلة كوكتيل للمسئولين وضباط البحرية [٥٠].

وقد احتاج الأمر إلى عامين آخرين حتى تشعر الحكومة بالأمن الكافي الذي يمكنها من إعادة فرض ضريبة الرأس، والتي كانت هي المصدر الرئيسي للعوائد في الجزر.

ومن المهم تذكر أن اللحظة التى قام فيها البريطانيون بعمل ترتيبات سوف تؤدى إلى تفكيك الإمبراطورية، فقد كانت هناك ما زالت مناطق تحت الحكم الاستعمارى الفاعل لفترة أقل من عمر إنسان كامل، وقد كانت هناك حالات أخرى، حيث إن السلطة الاستعمارية أكثر تعرضا للقلاقل وقليلة الثبات. وحتى فى ظل حكم العمال، فإن الترتيبات القديمة ظلت كما هى. وقد هناك كان فى عام ١٩٤٩م عشر من دورات المياه فى محطة السكة الحديد فى مدينة القنطرة على قناة السويس مخصصة كالآتي:

الضباط الأوربيون.

الضباط الآسيويون.

الضباط الملونون.

ضباط الصف والرقباء الأوربيون.

ضباط الصف والرقباء الآسيويون.

ضباط الصف والرقباء الملونون.

الرتب الأخرى من الأوربيين.

الرتب الأخرى من الآسيويين.

الرتب الأخرى من الملونين.

ATS (الخدمة الإقليمية المساعدة- مثل النساء)[٥١].

(٢)

العلاقات الودية

الهند وتصفية الإمبراطورية

الفترة (١٩٤٥ـ١٩٤٧)

فى عام ١٩٤٥م، بدأ حفارو قبر الإمبراطورية عملهم. ولم تقم أى من الحكومات التى جاءت قبل عام ١٩٤٥م أو بعده باتخاذ قرار واحد بحل الإمبراطورية، ولكن بالمثل فإن أيًا من هذه الحكومات كان مستعدا لأن يسير فى طريق مغاير، فالاحتفاظ بها كان يأتى وفق ما اتفق. فكل من الوزراء والدبلوماسيين والجنود ورجال الخدمة المدنية الذين وجدوا أنفسهم مسئولين عن تقديم المشورة وتنفيذ السياسات الخاصة بتفكيك الإمبراطورية لم يتخيلوا أبدا أنهم بذلك أصبحوا جزءا من الجنازة. وبدلا من ذلك فإنهم نظروا إلى أنفسهم على أنهم بمثابة القابلة، التى تقوم بتسهيل ميلاد دول جديدة تخرج من رحم الإمبراطورية. والحكمة التقليدية من كلا الحزبين التى سيطرت طوال السنوات الخمس والعشرين التالية ، كانت مصرة على جعل الدول المولودة حديثا تتربى فى إطار عائلة ممتدة داخل الكومنولث الجديد متعدد الأعراق، حيث يشترك أعضاء هذا الكومنولث فى الشعور بأن بريطانيا تمثل الأم بالنسبة لهم، وكذلك يشتركون فى الحفاظ على نظامها الديمقراطى واحترام تقاليدها المتعلقة بحرية الفرد فى المستقبل.

وقد كانت هناك بعض الظروف التى جعلت بريطانيا راغبة فى إضاعة فرصة الانسحاب المنظم من الإمبراطورية، وأن تقوم بتثبيت أقدامها، ولكن مثل هذه الحالات كانت استثنائية. فقد دخلت بريطانيا فى الحرب الباردة، وبذلك لم يكن مسموحا لأى من المستعمرات أن تنضم تحت لواء السيطرة الشيوعية بعد الاستقلال. ولذلك ففى حين كانت بريطانيا ملتزمة بحق تقرير المصير فى الملايو فى المستقبل، فإنها كانت تجهز فى عام ١٩٤٨م لأن تقوم بالحرب فى معركة طويلة (وقد أطلق عليها تعبير ألطف وهو "طوارئ" لتجنب المسئولية المتعلقة بقمع المستعمرات) ضد حروب العصابات الشيوعية المحلية.

ولم تسمح أيضا أى من الحكومات لأى مستعمرة بأن يؤدى انفصالها إلى حالة من الفوضى، ولهذا السبب بالتحديد تم القيام بمجموعة من العمليات ضد جماعات الماو ماو فى كينيا فى الفترة ما بين عام (١٩٥٢-١٩٥٤) على أنها أيضا حالة طوارئ أخرى.

ولم تتماثل أى من الأعمال التى يمكن اعتبارها حروبًا استعمارية بريطانية لوجستية وطول لتلك الحروب التى شنتها فرنسا فى كل من الهند الصينية والجزائر، أو تلك التى قامت بها البرتغال فى أنجولا أو موزمبيق. فالساسة البريطانيون لم يكونوا فى حاجة إلى إعادة النظر فى الأحداث التى تمت فى أمريكا الشمالية خلال سبعينيات القرن الثامن عشر أو تلك التى حدثت فى إيرلندا، وهى أكثر ارتباطا بالموضوع، بعد عام ١٩١٨م لمعرفة الأخطار التى تكمن فى انتظار أولئك الذين يرغبون فى التمسك بالإمبراطورية مهما كانت التكاليف. وقد بينت الحملة الإيرلندية أيضا أن هناك نقطة بعدها فإن الجماهير لن تتسامح مع القمع المسلح. وقد كان هذا مفهوما لأن هناك أطروحات مستمرة للدعاية بأن الإمبريالية الحديثة مبنية على الرضا القائم بين حكام الإمبراطورية والمحكومين فيها.

إضافة إلى أنه، ولأول مرة فى التاريخ، فإن كامل الشعب البريطـــانى كان مشتركا بشكل مباشر فى الدفاع عن الإمبراطورية. ففى الفترة ما بـــين عام (١٩٤٧ - ١٩٦٠) فإن القوات الخارجية والأماكن التى شهدت مشكلات كان يتم مدها بالرجال والحفاظ على الأمن فيها من خلال المجندين فى وقت السلم، ومن خلال الجنود المواطنين. وقد قام الجنود المحترفــون بـــدورهم، ولكن تدفق المصائب الناتجة عن الصراعات الاستعمارية كان يشمل فى ذلك الوقت الأبناء والأحباب الذين لم يدخلوا الجيش باختيارهم.

وقد كان الشعب أيضا أكثر وعيا للحملات الاســتعمارية فـــى حينهـــا وكذلك بالقضايا التى تكمن خلفها من خلال أجهزة التليفزيون الجديدة، التـــى بدأت تنتشر فى المنازل بسرعة بداية من عام ١٩٥٠م وما بعده. وقد أدركت الحكومة بسرعة أنه، عن طريق المعالجة الحريصة، فإن هذه الأداة الإعلامية يمكن التلاعب بها من أجل تصوير الصراعات الاستعمارية بشكل إيجـــابى. وفى نهاية عام ١٩٥٧م، فإن احتفالية يوم عيـــد المـــيلاد فـــى التيلفزيـــون عرضت "احتفالات الكريسماس فى قبرص وركزت فيهـــا علـــى احتفـــالات الجنود، بمن فيهم الجنود المواطنون، الذين كانوا يتعاملون هناك مـــع حالـــة "طوارئ" أخرى. وقد كان يتم تفقد المجندين مـــن خـــلال الجـــيش ووزارة المستعمرات، وقد تم إظهار بعض اللقطات لهم وهم "يقومون بشكل طبيعـــى بمساعدة المدنيين من سكان قبرص... إلخ" خاصة النساء والأطفال منهم فى الشوارع. وقد بدأ البرنامج بملاحظة إيجابية مع إعلان أن، "قبرص هى جزء من الكومنولث البريطاني"، واستمر فى التأكيد على أن القـــوات البريطانيـــة كانت هى الوحيدة التى تقوم بمساعدة شعبها [١]. وتساءل المشاهدون الذين لم ينخدعوا بهذا التدليل فى الاحتفالات، إذا كان الأمر كذلك، لماذا يقوم ســـكان قبرص بإطلاق النار على الجنود؟ ولكن آخرين منهم لـــم يـــشكوا واقتنعـــوا وشاهدوا الجنود وهم يقدمون الاحتفال لأطفال قبرص.

كانت حالات الطوارئ من النوع الذى كان فى قبرص نادرة نـــسبيا. والإمبراطورية البريطانية لم تنحل مثل الإمبراطوريات الفرنسية والبرتغالية وكذلك الروسية بالدم والدموع.

وفى الهند والمستعمرات الأخرى تم اقتراح بديل آخر، هذا البديل كان يتضمن الانسحاب المنظم وبشكل ودى، وترك السلطة لحكومة منتخبة. وفى أحسن الأحوال، من وجهة النظر البريطانية، فإن مثل هذا الترتيب سوف يتم تحقيقه فى أقل حد ممكن من المشكلات، وحيث كان ذلك ممكنا فإن الاحتفاظ بقواعد إستراتيجية سوف يظل خلف مشهد التأثير السياسى والمزايا التجارية. والذى كان يجب تجنبه بشكل مطلق التكاليف عن الانسحاب غير المنظم الذى يترك وراءه فراغًا سياسيًا أو، وهو أسوأ، فوضى.

وقد احتاج احتراف أسرار الدبلوماسـية الـسرية المتعلقـة بتفكيـك المستعمرات إلى وقت، وبدأ من خلال المحترفين الذين يقومون بالتحرك فى الظلام وتعليم الآخرين أى خطوة يقومون بها. ومع قليل من الإرشادات فإنهم قد رجعوا، وفق النمط البريطانى، إلى الماضى، وقاموا بتبنى قاعـدة البنـاء القديم للإمبراطورية، وهى إيجاد شخص ما لديه السلطة القانونية، مثل رئيس الراجا، والعمل معه. والآن فإن الرجـال الـذين يقومـون علـى تفكيـك الإمبراطورية عليهم أن يعملوا بجد والتزام مع سماسرة السلطة الجدد، وهـم السياسيون المحليون. فقادة الأحزاب والحركات الوطنية المختلفة كـان مـن المفروض أنهم يتحدثون باسم الغالبية من الشعب. وسواء كانوا كذلك بالفعل أم لا، فإن هؤلاء المدافعين عن الشعب وجدوا أنه يتم التعامل معهم على أنهم المتحدثون باسم الأمة والوارثون المحتملون للإدارة الاستعمارية. وقد كـان هناك بعض الشعائر، ففى بعض المراحل وجد القادة الـسياسيون المحليـون أنفسهم فى حالة صدام مع السلطات الاستعمارية، وبناء على ذلك تم إلقاؤهم

فى السجون. وفى ذلك الوقت، فمع تحسن مكانتهم الوطنية بسبب احتجازهم، فإنهم قد مُنعوا من أن يأخذوا مكانهم علـــى طاولـــة المفاوضـــات الخاصـــة بشعوبهم. وتم اتباع هذا النمط خلال الثلاثينيات والأربعينيات، عندما تم سجن قادة المؤتمر الهندى، بمن فيهم غاندى، وكـــذلك نكرومـــا وجومـــو كينياتـــا والدكتور هاستنج باندا، فى ساحل الذهب وكينيا ونيسا لاند على الترتيب.

فمن ناحية فإن أولئك الذين كانوا مسئولين عن تسليم الـــسلطة كـــانوا يرغبون قبل أى شيء فى تسليم هذه السلطة إلى شخص يستطيع ممارســـتها بفاعلية وأن يحافظ على النظام. ومن ناحية أخرى، فإن بريطانيا قد تعهـــدت علانية بأن تتشاور مع الحكومات البرلمانية فى مـــستعمراتها ومـــع الـــنظم القانونية التى وضعت لتحافظ على حريات الأفراد. وكان هذا التحـــول فـــى المؤسسات من السهل القيام به فى دول الكومنولث البيـــضاء، حيـــث كـــان سكانها قد تشبعوا بالفعل بالتقاليد البريطانية. ولكن فى الهند والمـــستعمرات الأخرى كانت هناك ثقافة سياسية مغايرة تماما. فالنشاط الـــسياسى المـــنظم بالأسلوب الغربى قد بدأ فى فترة حديثة للغاية (فى الهند تم تأسيس المـــؤتمر الهندى فى عام ١٨٨٥، والمؤتمر الأفريقى فى عام ١٩١٢م) ومنذ بدايتهما، كانتا تتمحوران حول قضية واحدة وهى إنهاء الحكم الأجنبى.

قد حدد هذا الهدف المهيمن مسار تطور الحياة السياسية التى أصـــبح يهيمن عليها أحزاب منظمة تنظيمًا شديدًا، وقد أصبحت كبيرة بشكل كـــاف لكى تحصل على السلطة المنفردة للحكومة. ولذلك فإن الظروف المحيطة قد أعاقت وجود تعددية حزبية أو نمو اثنين أو ثلاثـــة أحـــزاب أو أكثـــر مـــن الحركات الشعبية الأقل فى الحجم، كما حدث فى بريطانيا ودول الكومنولـــث البيضاء. ولذلك فإن نشأة دولة الحزب الواحد من تاريخ الصراع الاستعمارى فى الهند كانت من أجل الاستقلال.

وقد أعاقت الديموغرافيا الاستعمارية عملية تفكيك المستعمرات. فلم يتخيل أبدا أى ممن كانوا مهتمين بترسيم حدود الإمبراطورية أنهم بذلك يضعون حدودا لدول مستقلة سوف تحكم نفسها فى المستقبل. فالجماعات العرقية والقبلية والدينية التى تحمل كرها فطريا بعضها بعضًا قد تم جمعها عادة بعضها بعضًا سواء بإرادتها أو بغير إرادتها. وعندما أصبح مدى عمق التنافر الإثنى والقبلى والطائفى واضحا، فقد ظن البعض أنه يمكن احتواؤه من خلال إدارة استعمارية قوية ومتسلطة مدعومة بالشرطة والجنود. ولذلك ففى كل من الهند وسيلان وبورما وفى كل مكان آخر أصبحت بريطانيا هى الحامى لعدد كبير من الأقليات الذين كانوا يحتمون بها من النيات السيئة لجيرانهم. إلا أن الأحكام المسبقة القديمة لم تتقلص لمجرد الخوف من العقاب الاستعمارى، ولكنها ظلت ولكن وكأنها كانت مجمدة. وكان على صناع الحكومات الجديدة أن يجدوا طرقا للاستمرار فى توفير الأمان للأقليات حتى لو أن ذلك كان يعنى التخفف من المثال الديمقراطى.

ولم تكن أى من هذه العقبات التى واجهت عملية الانتقال نحو الحكم الذاتى من نوع العقبات التى لا يمكن تذليلها، أخذا فى الاعتبار وجود وقت وصبر لكل من يشارك فى هذه العملية. ولكن لم يبد أن كلا العنصرين متاحان. فبمجرد البدء فى عملية تفكيك المستعمرات، فإنها اكتسبت زخما ذاتيا، وهو ما جعل من المستحيل على كل من الحكام ورجال الخدمة المدنية والمحامين الدستوريين الذين أشاروا بتكوين حكومات جديدة أن يتوقفوا. فالسياسيون المحليون غير الصبورين وكذلك مؤيدوهم قد فهموا أى تأخير على أنه دليل على تراخ، وأن هناك مماطلة، أيًا كان السبب فى هذا التأخير، وهو ما كان يؤدى بسهولة لاندلاع الاضطرابات الشعبية من النوع الذى كانت بريطانيا فى حاجة ماسة لتجنبه. فترتيب الإمبراطورية كان عملية

صعبة ومثبطة للهمم، فقد وصف أتيلية علنا عمال مونتباتن (Mountbatten) فى الهند على أنهم أبطال بالفعل. وهو ما لم يتفق عليه الجميع، حيث كتب هارولد نيلسون (Harold Nicolson) هذه الملاحظة فى يومياته " إنه من الغريب أن نصف الرجل الذى قام بتفكيك الإمبراطورية بأنه بطل مثل كليف (Clive) ووارين هاستينجز (Warren Hastings) ونابير (Napier) الذين نالوا منا. إنها فكرة حمقاء بالطبع"(٢).

وفى ذلك الوقت (يونيه عام ١٩٤٧م) كان استقلال الهند على مرمى أسابيع قليلة، وتحقيق هذا الاستقلال كان يُرحَّب به على أنه انتصار. وقد كانت هناك محاولة تلقائية ولكنها معروفة بدرجة أقل لتفكيك الاستعمار كانت قد بدأت فى بورما، وأصبحت مثالا كاملا على التنفيذ الخاطئ. وخدمة أورويل كشرطى فى بورما قد أقنعته بشرور الاستعمار، وقد كان ذلك مفهوما لأن الحكم البريطانى كان مكروها من قطاعات عدة فى المجتمع البورمى.

لقد ظهرت الانقسامات السياسية والعرقية بجانب الولاءات الإمبريالية الهشة، عندما قامت اليابان بغزو بورما فى عام ١٩٤٢م. فقد كان البورميون ميالين للغزاة، فى حين كانت القبائل الموجودة فى عمق البلاد مثل قبائل الكارينز (Karens) والكاشينز (Kachins)، تؤيد بريطانيا، التى كانت تحميهم من جيرانهم فى جنوب البلاد.

وأكثر الوطنيين البورميين شهرة، ثاكين أونج سان (Thakin Aung San)، السكرتير العام لعصبة بورما بلادنا، كان قد هرب إلى اليابان في عام ١٩٤٠، عاد وقد تم تعيينه من قبل مناصريه كقائد للجيش الوطنى البورمى. وفى أغسطس من عام ١٩٤٣م، أعلنت اليابان استقلال بورما، ولكن أونج سان، الذى كان انتهازيا بشكل كامل، تخلى عن أصدقائه القدامى

وألقى بنفسه وبأتباعه خلف بريطانيا فى مارس من عام ١٩٤٥م، عندما كان من الواضح أن بريطانيا سوف تقوم بطرد اليابانيين.

ولم يكن هناك مخطط واضح لوضع بورما بعد الحرب خلاف الوعد بأن بورما سوف تحصل على الاستقلال فى إطار الكومنولث. والحاكم العائد، السير رينالد دورمان سميث (Sir Reginald Dorman-Smith) اقترح أن تكون هناك فترة ست سنوات أو سبع لإعادة البناء، وقد خصصت الحكومة البريطانية مبلغ أربعة وثمانين مليون جنيه إسترلينى لهذا الغرض. قد أصبحت السلطة المطلقة فى يد مونتباتن باعتباره رئيس (SEAC)، حيث اشتبه فى أن دورمان سميث وفريقه كانوا مجرد سذج فى الاستمرار فى عملية الاستقلال [٣]. وقد كان يفضل الوصول إلى اتفاق مع الرجل الذى بدا أنه هو من يحظى بالتأييد الشعبى، وهو أونج سان. وقد كانت هذه حيلة لا مفر منها، لأن مونتباتن لم يكن يستطيع توفير الجنود البيض لشرطة بورما، وقد كان حذرًا فى اختبار طاعة جنوده الهنود فى مواجهة البورميين الوطنيين.

بدت غريزة مونتباتن وكأنها على حق فى البداية. حيث حصلت عصبة أونج سانج المعادية للفاشية المطالبة بحرية الشعب على أغلبية مسيطرة فى انتخابات أبريل عام ١٩٤٦م، ولكن النتيجة كانت مضللة. وقد قاطع الانتخابات ثلاثة أحزاب أخرى، ورفضت قبائل الكارين الحصول على الأربعة والعشرين مقعدًا التى تم منحهما إياها باعتبارهم أقلية، واختاروا بدلا من ذلك الضغط من أجل الحصول على دولة منفصلة. وعلى الرغم من أن البلاد كانت على حافة التفتت، فإن مونتباتن ضغط على اعتقاد أن البورميين سوف يقومون بحل المشكلات الخاصة بهم. ومن خلال استخدام الأساليب الملتوية فإنه عمل على صرف دورمان سميث فى أغسطس [٤]. وهو ما تبعت بالضبط الفوضى التى كان الرجال الحذرون يخافون من وقوعها: ففى

يوليو من عام ١٩٤٧م تم إطلاق النار على أونج سانج وستة من الوزراء الآخرين وقتلهم من جماعة من المنافسين السياسيين، على طريقة آل كابونى، حيث اقتحموا غرفة اجتماع الحكومة بأسلحة نصف آلية، وقد كان هناك انتشار للمظاهرات والاحتجاجات. وبصرف النظر عن هذه المؤشرات التى تدل على انهيار النظام، فقد تم الحصول على الاستقلال الكامل فى يناير من عام ١٩٤٨م.

وفى غضون اثنى عشر شهرا أعلنت بورما نفسها كجمهورية وتركت الكومنولث، وقد كان هناك متمردون من الشيوعيين وانفصاليون من قبائل كارين.

وسواء كانت هذه الأحداث بسبب الحكم البريطانى فى بورما أم لا، فإنها كانت مقدمات مشئومة لعملية تفكيك الإمبراطورية.

وكان تقدم الهند نحو الحصول على الحكم الذاتى بمثابة دراما حافلة بمؤامرات معقدة أصبحت واضحة على مستويين. فعلى السطح، فإن كلاً من رجال الدولة والسياسيين والمحامين والمديرين البريطانيين والهنود كانوا يجلسون فى قاعات فى دلهى، وعندما تصبح الأوضاع خانقة بشكل كبير، يحاولون بناء جهاز حكومى يمكن أن يرضى جميع الأطراف فى الهند. حيث كانوا مشاركين فى سباق ضد الزمن على المستوى الأعمق، وفى المدن الكبيرة والمدن الصغيرة والريف بدأ آلاف الهنود ينقلبون بعضهم ضد بعض ويقتلون بعضهم بعضًا. ولأن العنف كان قد انتشر وتعددت المصائب، فإن المراقبين للأحداث كانوا يخشون من حدوث حرب أهلية؛ حيث إن الفاعلين الأساسيين فيها لن يكونوا قادرين على وقفها.

كان أتيلية الفاعل البريطانى الأساسى، الذى كان يؤمن وهو يقترب من نهاية حياته أنه سوف يُذكَر بسبب ما قام به فى تسهيل عملية نقل السلطة فى الهند. فقد نظر إلى هذه العملية على أنها واجب أخلاقى، حيث قام هو بالواجب الملقى عليه والذى كان يتعهد به لفترة طويلة، ولأنه كان براجماتى الطابع، يحتفظ لبريطانيا ببعض الميزات. ووزارة الخزانة أصبحت غير مستعدة للمزيد من إنفاق المزيد من الأموال للإبقاء على الحامية البريطانية فى شبه القارة، وإذا حصلت بريطانيا على الشروط التى ترغب فيها، فالتجارة سوف تزدهر مع الهند. وقد كان أتيليه يعتقد أيضا أن التبادل السلمى للسلطة والحفاظ على استقرار الهند سوف يضيفان إلى مكانة بريطانيا وتعمل كحصن ضد الشيوعية فى آسيا. وقد أراد هو والعاملون معه أن تظل الهند عضوا فى الكومنولث، وبقدر الإمكان أن تصبح الهند حليفا تستمر به القواعد البريطانية. وقد أصدر أتيليه أمرا رسميا لمونتباتن، فى فبراير من عام ١٩٤٧م، يأمر فيه نائب الملك بأن يعمل على الحفاظ على العلاقات الودية بين كل من الهند والمملكة المتحدة. وإحدى خصائص هذه العلاقة يجب أن تتجسد فى معاهدة عسكرية (٥). وبحلول هذا الوقت، فإن أتيليه كان قد سلم بأن شبه القارة سوف يتم تقسيمها بين كل من الهند وباكستان، وهو ما لم يكن راغبا فيه، لأنه كان يرى أن ذلك ليس فى مصلحة بريطانيا. فالهند المقسمة هى هند ضعيفة والجزء الغربى من أكثر أجزائها أهمية، باكستان، يواجه أفغانستان ومن خلفها روسيا. ووفقا لمصطلحات الحرب الباردة، فإن ذلك الجزء من الهند هو عبارة عن حائط صد.

ومونتباتن، الذى اختاره أتيليه لكى يقوم بعملية تسريع التسليم النهائى للسلطة والإشراف عليه، كان هو الأخير من سلسلة مسئولين ووزراء تم إرسالهم للتفاوض مع القيادة الهندية. والذى سبقه فى منصب نائب الملك كان

اللورد مارشال وافيل (Wavell)، كان يواجه عملية عصيان متصاعدة طوال عام ١٩٤٦م، وقد يئس، وتم عزله من جانب أتيلى بسبب تشاؤمه.

وقد كان هذا يرجع بشكل أساسى إلى فشل بعثة حكومة أتيليه المكونة من ثلاثة وزراء، التى كانت قد وصلت إلى الهند فى نهاية عام ١٩٤٦م، حيث حملت تعليمات بوضع دستور يحافظ على وحدة الهند مع الحد الأدنى من الغضب الشعبى بقدر الإمكان. وقد كان كريبس (Cripps)، رئيس هذه البعثة، وهو من الجناح اليسارى المثالى متوافقا مع الطموحات الهندية، حيث كان يعرف ما هو المتوقع من آخر سلسلة من المفاوضات الأخيرة التى قام بها فى عام ١٩٤٢م، ووفقا لما ذكره بيفن، كان مؤيدا للغاية للمؤتمر. واللورد بيثيك (Pethick) لورانس كان أحد الإيتونيين القدامى المؤيدين لحزب العمال والبالغ من العمر أربعة وسبعين عاما، قد تم اختياره أيضا بسبب خبرته فى الشئون الهندية. والعضو الثالث فى هذه البعثة، أ. ف. ألكسندر (A. V. Alexander)، كان عضوًا برلمانيًا يحظى بالتأييد ولديه سجل جيد فى الوزارة، ومثله مثل الكثير من وزراء الطبقة العاملة، فإنه كان أحد الاستعماريين العاطفيين. وهذا لم يكن مفاجئا، فبالنسبة له ولغيره من جيله، مثل بيفن، فإنه قد تربى على الشجاعة عندما ينحرف الشعور الوطنى.

وفى مقابل بعثة الحكومة كان هناك عدد من الأشخاص الذين أطلق عليهم وافيل (Wavell)، "المدافعين العظماء عن الشعب الهندي"، وهم نهرو وقيادات حزب المؤتمر الهندى. وقد كان هدفهم هو إحلال المؤتمر محل الراج، وقد كانوا يتحدثون ويتصرفون على أنهم مرآة لكامل الأمة الهندية التى، كما ذكر غاندى، لا يمكن تقسيمها. وقد كان هناك أيضا الدكتور جناح (Jinnah)، الذى كان يعتقد أن ذلك غير صحيح، وأنه يتحدث باسم اثنين وتسعين مليونًا من مسلمى شبه القارة الهندية. ولم يكن وافيل يحب جناح،

الذى اعتقد أنه مصاب بجنون العظمة، وكان يشك أن غاندى يحمل حقدا نحو بريطانيا، ولكنه كان يحترم نهرو ويرى أنه بالفعل رجل عظيم [٦].

وفى الوقت الذى كان فيه مهندسو مستقبل الهند يتداولون فيما بينهم، كان الشعب يتحول نحو الاضطراب بشكل متزايد. وأثناء شتاء عام ١٩٤٥،١٩٤٦م، فإن قرار الحكومة بأن تقوم بمحاكمة مجموعة من الرجال المبرزين فى تنظيم المؤتمر الوطنى الهندى INA السابق، بتهمة الخيانة، وفى بعض الأحيان بتهمة القيام بجرائم حرب، فإن ذلك لاقى معارضة شديدة من المؤتمر. ففى سبتمبر من عام ١٩٤٥م قرر المؤتمر أن الآلاف من جنود (INA) يمكن أن يقدموا أكبر خدمة فى الواجب الكبير المتعلق ببناء الهند الجديدة والحرة" [٧]. وفى الأشهر القليلة التالية تم تكريمهم كأبطال من جانب المؤتمر ومن منهم كان فى السجن أو ينتظر المحاكمة قد منحوا مرتبة الاستشهاد. وفى نياير من عام ١٩٤٦م فإن صحيفة هندوستان تايمز (Hindustan Times) الغاضبة قد زعمت أن هناك خمسة وعشرين من سجناء INA قد تم طعنهم بسبب غنائهم ترنمة "جاه هند" (الهند ذات العمر المديد)، ولكن التحقيق الرسمى قد أظهر أنهم تعرضوا فقط للنخس فى الأرداف [٨]. وقد تعرض غاندى لقضية هؤلاء الرجال، الذى كانت توجهاته نحو تنظيم INA السابق تتسم بكثير من الغموض. فقد كتب "على الرغم من أننى ليس لدى أى شيء بشكل عام يمكن قوله للدفاع عن استخدام القوة المسلحة، فإننى لست أعمى عن مشاهدة البسالة الوطنية التى عادة ما يظهرها الأشخاص المسلحون، كما يبدو فى هذه القضية" [٩]. وهو لم يقل إن تعريفه للوطنية يشمل المليونين من الهنود الذين حاربوا لا لشيء إلا للعمل ضد بريطانيا.

وفى حين أن القضايا قد توقفت عند عام ١٩٤٦م، فإن الأمن الهندى كان يعتمد على الجيش الهندى والحامية البريطانية. ومن بين الأخيرين كان هناك الكثير من الرجال غير المتحمسين للدفاع عن الراج ويرغبون

فى العودة إلى الوطن. وأثناء صيف عام ١٩٤٥م فإن مراقبى الجيش قد كشفوا النقاب عن الكثير من الشكاوى حول "غياب الهدف" فى الخطابات الخاصة بالجنود الذين يخدمون فى آسيا، واعتقد أولئك الذين كانوا فى الهند أن البعثات لها الحق فى تقضية فترات أقصر فى تأدية الخدمة فيما وراء البحار والنقل السريع؛ كانت بمثابة "حقوق لا يمكن التنازل عنها" (١٠). وفقط خلال عام انخفضت المعنويات الخاصة بالجنود فى الهند وبدأت الشكوى حول النقل البطيء تزداد (١١). والسخط كان بلغ أقصاه فيما بين أفراد RAF العاملين فى الهند، فخلال عام ١٩٤٦م كانت هناك مظاهرات متمردة بالعشرات (١٢). وقد كان هذا مزعجا، لأن أوشينليك (Auchinleck)، قائد القوات فى الهند، كان يخشى من انبعاث المظاهرات التى اندلعت فى عام ١٩١٩م وعام ١٩٤٢م وأن يتم استخدام الطائرات إذا خرجت أعمال الشغب الشعبية عن السيطرة (١٣).

والذى كان أكثر أهمية هو تآكل معنويات الجنود الهنود. وقد ظهر ذلك فى حدوث تمرد لمدة أربعة أيام من قبل ٧٠٠٠ جندى من قوات البحرية الملكية الهندية (ربع عدد القوات) فى نهاية فبراير عام ١٩٤٦م. والمشكلة بدأت على سطح السفينة الحربية "تالور" (Talwar)، التى كان قائدها، القائد ف. و. كينج (F. W King)، يكرر وصف رجاله بأنهم "التافهون السود" و"الأوغاد الفاشلون" و"الهنود المتوحشون". وإذا أخذنا فى الاعتبار التوتر السائد فى الهند، فإن مثل هذه العبارات المستفزة كانت ترتبط باندلاع ردود فعل عنيفة، وهى الحادثة التى أدت إلى قيام كينج فى تفجر التمرد الذى انتشر بسرعة ليشمل سفنا أخرى للبحرية الملكية فى بومباى. وعن طريق استخدام أجهزة الاتصال اللاسلكية فإن المتمردين فى بومباى قاموا بتنبيه طواقم السفن التى كانت موجودة فى كل من كلكتا ومدراس الذين انضموا إلى الثورة (١٤). وقد تم رفع أعلام كل من المؤتمر الهندى والرابطة الإسلامية الهندية على

الأسطول الموجود في بومباى، وكانت هناك محاولات لقمع التمرد أدت إلى عمليات شغب خطيرة على السواحل. واستعادة النظام من قبل القوات البريطانية وقوات المهراتا (Mahratha) قد تركت ٢٢٣ قتيلاً وما يزيد على ١٠٠٠ جريح [١٥].

لقد فشلت المحاولات التى قام بها البحارة لتجنيد قوات الماهراتا، وبعد ظهور الفرقاطة جلاسجو (Glasgow) والتى كانت ترمى السفن المتمردة بقاذفات الموسكيتو، أنهار التمرد. وكل من المؤتمر والحكومة فى دلهى صُدم من التمرد الذى أظهر أن سلطة كليهما قد تكون على حافة الضياع. وقد قام الكثير من الضباط البريطانيين بالكتابة عن التمرد وآثاره التى كانت كبيرة على نحو غير متوقع، ولكن مصادر المخابرات المحلية كانت تشك فى أن بعض الثائرين الشيوعيين كانوا يعملون فى أحواض السفن فى بومباى [١٦]. ومنذ ديسمبر من عام ١٩٤٥م كانت المخابرات العسكرية قلقة فيما يخص العملاء الروس الذين يستغلون الأوضاع فى الهند، وأخذت فى عمليات مراقبة دقيقة للبحث عن أى دليل لوجود اختراق شيوعى [١٧].

لقد تبع تمرد البحرية الملكية الهندية RIN الكثير من أعمال القلاقل، بما فى ذلك ما أطلق عليه عمليات إضراب من جانب القوات الجوية الملكية الهندية، وهو التمرد الذى قام به خمسة وسبعون من جنود الإشارة فى مدينة جلال آباد، وكذلك الإضراب الذى قام به ٣٠٠ من رجال الشرطة فى دلهي.[١٨] وقد كان هناك أيضا تيار مستمر من الهروب إلى الإندونيسيين الوطنيين من قبل الجنود الهنود العاملين فى سومطرة. وقد أدان المؤتمر مثل هذه العمليات وطالب بأن تقوم الحكومة بالتوقف عن استخدام الجنود الهنود كمرتزقة للاستعمار [١٩]. وبحلول نهاية شهر مارس، فإن المخابرات العسكرية قد اعتبرت أن جميع وحدات الجيش الإضافية وقوات البحرية الملكية الهندية والقوات الجوية الملكية الهندية، أنها لا تزال وحدات مشتبهًا بها، وكانت قلقة حول مستقبل ولاء الجيش الهندى، وكل ما يمكن عمله هو

"السعى فى كل يوم للحفاظ على هدوئه" (٢٠). ومع مثل هذه القــراءة الكئيبــة التى يجدها وافيل على مكتبة، فإنه ليس من المدهش أن نجده يكتب إلى الملك جورج السادس أن الهند يكتنفها فى الوقت الحالى "إحساس عــام بعــدم الأمن وعدم الاستقرار" (٢١). وفى يونيه فإن لجنة الدفاع الخاصة بالحكومة قد قررت أنه لا يمكن السماح بأى عملية انسحاب من الهند إذا استمر الجيش الهندى موضع شك. وفى هذه الحالة فإنه سوف تكون هناك حاجــة لخمــسة أقسام من القوات البريطانية للحفاظ على النظام فى الهند، على الرغم من أن استخدام هذا العدد من القوات سوف يؤدى إلى ضغوط قوية على الالتزامات الأخرى فى الأماكن الأخرى (٢٢).

وما كان مفاجئا فيما يتعلق بالقلاقل الموجودة فيما بين الجنود الهنــود هو غياب العدائية نحو بريطانيا. ففى الأيام الأخيرة من عمر الــراج، فــإن العلاقات بين بريطانيا والهنود كانت أفضل مما كانت عليه طوال الــسنوات الثلاثين الماضية، أو كذلك اعتقد أوشينليك (٢٣). وترجع هــذه المــودة فــى غالبيتها، إن لم يكن فيها كلها، إلى حقيقة أن كل هنــدى كــان يعــرف أن البريطانيين كانوا على وشك الرحيل. ولكن لم يكن هنــاك جــدول زمنــى لرحيلهم ولم يكن هناك أيضا، وهذا هو الأهم، شكل محدد لحكومــة الهنــد المستقلة. وفى منتصف الصيف فإن بعثة الحكومة فــى عــام ١٩٤٦م قــد أوصت بوضع دستور لحكومة فيدرالية لكل الهند، وتحت هذه الحكومة يكون هناك مستويان من المجالس الإقليمية والمحلية، والتى تمت صياغتها من أجل حماية الأقليات وإرضائها. وفى البداية فإن كلاً من حزب المــؤتمر الهنــدى والرابطة الإسلامية قد قبلا بهذه الصيغة، ولكن الشكوك المتبادلة فيما بينهما أظهرت أنها أعمق من ذلك بكثير، وأخذ الجانبان فى الشجار حول التفاصيل والتوازن فى التمثيل المشترك. وقد وصلت هذه الخلافات إلى أقصاها عندما قرر جناح أن يمضى وحده، وأن يطالب بدولة باكستان المستقلة.

وقد دعا جناح لمسيرة للمسلمين فى كلكتا فى ١٦ أغسطس. وقد تبعها أربعة أيام من أعمال الشغب الدينى التى أدت لمقتل ٤٠٠٠ وجرح ١٠٠٠٠ شخص. واعتقد الجنرال البريطانى الذى قامت قواته المكونة من جنود بريطانيين وهنود باستعادة النظام، أن المذبحة كانت أسوأ بكثير من معركة السوم (Somme). والأخبار التى تبودلت حول ما يحدث فى كلكتا قد أدت إلى مذابح فى بومباى، حيث قتل ١٠٠٠ شخص وجرح ما يزيد على ١٣٠٠٠ شخص. وفى بيهار (Bihar) حيث كان ولاء الشرطة المحلية متذبذبًا، قام الهندوس بقتل ١٥٠ من اللاجئين المسلمين فى نوفمبر.

وفى هذا المكان، وفى كل مكان أيضا فإن ضحايا الهوس الدينى كانوا من الفقراء والضعفاء، وبعدها ببضعة شهور فإن أحد الصحفيين البريطانيين قد لاحظ أن هناك عددًا قليلاً من جثثهم لم يطالب أحد باستردادها من الشرطة [٢٤].

ولأن المذابح الدينية قد أخذت فى الازدياد فإن الهند بدت وكأنها تسير نحو حرب أهلية لا ترحم. فبعد أن زار وافيل كلكتا أدرك أن اللعبة قد انتهت وقام بوضع عدد من الخطط الطارئة من أجل سحب جميع المدنيين والجنود البريطانيين. وقد كان ضمان أمنهم أسمى وأهم من أى شيء، وفى حالة الضرورة كان يتم سحبهم قبل القيام بأى تسوية سياسية، وفى بعض الأحيان قبل اندلاع حمامات الدماء التى توقعها وافيل.

وقد كان مشروع وافيل بمثابة الكارثة السياسية بالنسبة للهند وبريطانيا وكذلك حزب العمال. وقد قرر أتيليه أن يقوم بمنعها، وتم عزل وافيل فى ديسمبر. وقد خلفه مونتباتن فى منصب نائب الملك، حيث اختاره أتيليه باعتباره شخصا بارعا فى السياسة الواقعية. وقد كان أتيليه يتعرض لضغوط بسبب سلوكه فى بورما (فقد كان هذا البلد الذى انزلق فى حالة فوضى لم

يتعاف بعــد)، وقــد كــان واحــدًا مــن العائلــة المالكــة وابــن أخيــه (أو أخته) فيليب، كان على وشك الزواج من الأميرة إليزابيث. وفــى ذلــك الوقت؛ حيث كانت الأسرة المالكة تتمتع بمظاهر الطاعة، فإن مونتباتن كان بذلك محصنًا أكثر ضد النقد الجماهيرى من رفقائه فــى الحيــاة الــسياسية البريطانية. والأهم من ذلك، أنه كان يتفق مع أتيليه على ما يجب عمله فــى الهند وبأى سرعة يجب إنجازه. والمذكرة التى قام بتقديمها قد أعطته مهلــة فى التفاوض، ولكن ظل أتيليه هو السيد، ونائب الملك هو خادمه. فقد كــان هناك ارتباط حميم بين شارع داون ستريت ودلهى، فقد اقترح هو نفــسه أن يقوم أتيلى بالذهاب شخصيا إلى الهند لكى يتعامل بنفسه مع الأمور المتعلقــة بعملية التقسيم.

وقد وصل مونتباتن إلى الهند فى نهاية شهر مارس عام ١٩٤٧م. وقد بذل كل ما يستطيع من جهد فى أداء مهامه بحماسة وطاقــة واســتغل كــل قدراته فى إقناع وتملق القادة الهنود، على الرغم من أنه كان فظًا مع جنــاح لدرجة الوقاحة. وقد كانت زوجته، إدوينا (Edwina)، تقوم بمساعدته، حيــث كانت تقوم بعمل حفلات كوكتيل مرحة أسرت نهرو، الذى كان فــى ذلــك الوقت رئيس الحكومة الانتقالية والمتحدث باسم حزب المؤتمر. وقــد كــان وجود عائلة مونتباتن فى مقر نائب الملك يمثل تغيرا عما كان عليه الوضــع فى ظل وافيل، فذلك الفيلد مارشال كان عالما مثقفا وذا طابع تأملى وشخصية خجولة، حتى إن السيدة مونتباتن قد علقت مرة أن الكونتيسة (viscountess) وافيل كانت ترتدى مثل خادمتها [٢٥]. وأيا كان ما كانت تقــوم بــه عائلــة مونتباتن فإنها قد أكــدت أنــه، علــى الأقــل علــى المــستوى الأعلــى، أن الفصل الأخير فى دراما استقلال الهند قد بدأ.

وقد كان الواجب الأهم لنائب الملك الجديد هو أن يضع جدولاً زمنيًا أقصر بقدر الإمكان لتحقيق الحكم الذاتى، وقد وضع أتيليه هذا الجدول الزمنى.

ففى السابق كان يجب أن يتم تسليم السلطة فى يونيه من عام ١٩٤٨م، ولكن فى ظل التفكيك التدريجى للنظام العام فإن هذا الموعد تم تقديمه إلى ١٥ أغسطس من عام ١٩٤٧م. وقد أعلن مونتباتن الجدول الزمنى الجديد فى مؤتمر صحفى فى الرابع من يونيه، وتم استقباله بمزيج من السرور والذهول، وفى بعض الأوساط، بالتشاؤم. وبعد ذلك بوقت قصير للغاية فإنه أصدر لائحة للمسئولين التابعين له تشير إلى الأيام الباقية من أجل القيام بعملية التقسيم، على أن تبدأ عملية التقسيم من آخر يوم فى العام الدراسى للمدارس العامة[٢٦]. فقد أصبح انفصال الهند الهندوسية عن الهند المسلمة حقيقة منذ الانتخابات المحلية التى تمت فى ديسمبر عام ١٩٤٥م، وفى مارس من عام ١٩٤٦م، وفيها فإن المرشحين الهندوس قد حصلوا على تسعين فى المائة من الأصوات فى الأقاليم غير المسلمة، وحصل المرشحون المسلمون على أعلى الأصوات فى المناطق الخاصة بهم. ولم يكن هناك العدد الكافى من المؤشرات والتوازنات السياسية الذى يمكن أن يمنع عملية الاستقطاب فى الهند ويحفظ استمرارها فى دولة واحدة. وقد اعترف بذلك حزب المؤتمر ولكن بعد تردد، وخلال شهر مايو تمت الموافقة على خطة للتقسيم من جانب كل من مونتباتن والقادة الهنود وصدقت عليها الحكومة فى لندن لاحقا.

وإزالة الراج كانت عملية سهلة نسبيا، وهى التى استمرت بهدوء خلال العشرين سنة السابقة. فبحلول عام ١٩٤٦م، كان هناك أكثر من نصف كبار المسئولين فى الخدمة المدنية فى الهند البالغ عددهم ١٠٢٦ من الهنود، وإجمالى عدد الضباط الهنود الأصليين فى الجيش ارتفع من ١٠٠٠ ضابط

فى عام ١٩٣٩م إلى ١٥٧٥٠ فى عام ١٩٤٦م. والتقاليد القديمـــة الخاصـــة بالانضباط والطاعة، جعلت من الممكن تفكيك الوحدات متعـــددة الأعـــراق والأديان فى الجيش الهندى، والفصل بينهم وتوزيع الضباط والجنـــود علـــى القوى الجديدة لكل من الهند وباكستان. وهذا الانتصار الضئيل قد تم تحقيقـــه بأقل قدر ممكن من الجلبة، وبقدر معقول من الاتفاق، والفضل فى ذلك يرجع إلى الصبر والحكمة التى تحلى بها أوشنليك، الذى تنبـــأ أن رجالـــه ســـوف يجدون أنه من السهل أن يقوموا بتغيير ولاءاتهم من الإمبراطور الملك إلـــى دولهم الجديدة. وكما ذكر أحد (Subadar-Major) فإن الأمر كله كان تعبيـــرًا عن العبقرية البريطانية. وأثناء الاستعراض العسكرى الذى تـــم مـــن أجـــل التأكيد على استقلال باكستان فإنه أسر إلى أحد الضباط البريطانيين وقال له "آه يا صاحبى، البريطانيون بارعون للغاية. فنحن المسلمين أصـــبح لـــدينا باكستان، والهندوس أصبح لديهم هندوستان، والجنود البريطانيون أصبح فى إمكانهم العودة للوطن". وللأسف فإن الأمور لم تكن بهذه البـــساطة. فلـــيس بعيدا كانت القوات الهندوسية والسيخية غاضبة ورفـــضت الانـــضمام إلـــى العرض الذى كان يمر أمام جناح [٢٧].

وكان تمردهم مفهوما إذا أخذنا فى الاعتبار الأحداث التى تمت خـــلال الشهور الثلاثة السابقة على الاستقلال. فلا يتخيل أحد أنـــه كـــان بالإمكـــان ترسيم حدود من شأنها أن ترضى الجميع، فقد اكتشفوا أنهم جماعات كـــانوا موجودين على الجانب الخطأ وشعروا بالعزلة والخوف وأنهم أقلية.

والخوف وصل إلى أقصاه فى البنجاب، ففى هذا الجزء من الهند كان هناك خمسة ملايين ونصف مليون من السيخ (واحد من كل ستة من ســـكان الإقليم)، الذين تم تقسيمهم بين كل من الهند وباكستان. وقد رفـــض الـــسيخ سيطرة المسلمين عليهم، وردوا على الشعار الجديد الذى صاغه جناح وهـــو

"باكستان زينباد" (أى باكستان ذات العمر المديد) بشعار آخر وهو "باكستان مردباد" (أى الموت لباكستان). ومع أواخر الربيع فقد تدمر البنجاب نتيجة المذابح والمذابح المضادة وأعمال السلب والنهب وكذلك إحراق المنازل والمبانى. فميراث الاضطهاد الذى شهدوه من المسلمين وردود أفعالهم عليه قد منح السيخ مرونة خاصة ودافعًا قويًا من أجل السعى للانتقام. ويمكن إيجاد مؤشر على معاناتهم وحالتهم النفسية فى أحد المنشورات التى كان يتم توزيعها مع بداية أبريل من عام ١٩٤٧م:

"قد تعرض آلاف من النساء السيخيات والهندوسيات للقتل. وقد تم قص الضفائر واللحى الطويلة للمئات من رجالهم، وقد كانت هناك ضغوط كبيرة من أجل تحويلهم إلى الإسلام، وقد تم خطف المئات من النساء.... فالقليل هو ما تم، وهذا مجرد عينة صغيرة لباكستان، وهناك أحداث مروعة سوف تأتى. ولكن نحن المحاربين السيخ مثل جورو (Guru) الذى تعرض أربعة أبناء له للذبح نقول، "إن كان هناك أربعة قد سقطوا فإن هناك الآلاف سوف يبقون أحياء". فعلينا أن نقاتل دولة باكستان الطاغية"[٢٨].

وقد قام السير سيريل رادكليف (Sir Cyril Radcliffe)، أحد الموظفين المدنيين البريطانيين برسم الخط الذى قسم البنجاب. وقد كان عملاً سيئا ظلت تبعاته تطارده حتى وفاته. وما كان قد قرره هو وآخرون قد ظل محفوظًا فى خزانة مونتباتن لكى يتم نشره بعد يوم الاستقلال، عندما تصبح الأمور كلها ليست من مسئولية بريطانيا. وقد كانت هناك تسريبات حول مستقبل منطقة شيتاجونج (Chittagong) وهو ما أدى إلى اندلاع صدام خفيف، وكان هذا كافيًا لإقناع مونتباتن أن السرية هى الشيء الأفضل.

وقد كان واجبه الأول هو بالأساس نحو الحكومة البريطانية، وقد ذكر سابقا أن القوات البريطانية سوف يتم إخلاؤها فى أسرع وقت ممكن، وهو ما

جعل هذه القوات بعيدة كل البعد عن القيام بدور الشرطة الاستعمارية في أثناء عملية تنفيذ التقسيم، وقد كانت لديه رغبة طاغية بأن يتم تسليم السلطة بشكل لائق. والاستعراضات جاءت أولا (كان هناك واحد في دلهي وآخر في كراتشي) [٢٩]. وقد مرت المراسم الرسمية بسهولة وقد تم إعلان التقسيم وهو ما جعل اليوم التالي مختلفا.

والمذابح الضخمة التي حدثت في شمال الهند بعد التقسيم معروفة جيدا. ربما كان عدد القتلى يصل إلى نصف مليون، وعلى الرغم من أنه لم يقم أي طرف بحساب عدد القتلى بالضبط.

وقد تم نقل التفاصيل عن طريق الصحفيين، خاصة الصحفي لويس هيرين (Louis Heren) في جريدة التايمز. فقد سمع هو وآخرون البيانات الرهيبة عن الانتهاكات التي كانت في الماضي والتي كانت تبرر بها عصابات القتل جرائمها. ففي أغسطس قام السيخ والهندوس بقتل المسلمين في البنجاب انتقاما من المذابح التي تمت في حق نظرائهم في الدين في روالبندي (Rawalpindi) في شهر مارس السابق. وهذا الهولوكوست كان انتقاما لذبح المسلمين بواسطة الهندوس في بيهار قبل خمسة شهور، وهذه بدورها كانت انتقاما للمذبحة التي تمت في كلكتا في أغسطس من عام ١٩٤٦م [٣٠]. حاول الضباط البريطانيون والهنود الذين كانوا يشاهدون - وقف المذابح، عندما كانوا يستطيعون القيام بذلك، إن ما شهدوه كان أشد رعبًا آلاف المرات مما شهدوه خلال الحرب. وقد كان هناك وصف لأحد شهود العيان، وهو جندي، لما حدث في لاهور (باكستان) قد يكون أفضل من وصف الآخرين:

"كانت الجثث ملقاة في إحدى القنوات. وكان في الجوار حشد من الشرطة المسلمين يتحادثون بشكل غير مركز. وقد وصل أيضا رائد

بريطانى. وقد كان هو وسائقه يقومان بجمع الجثث. البعض كان ميتا والبعض الآخر كان يحتضر ولكن الجميع قد تعرضوا لعملية تشويه مرعبة. لقد كانوا من السيخ. وقد كانت شعورهم وأذقانهم الطويلة مختلطة بالدماء. وكان هناك رجل عجوز، ليست حالته سيئة مثل الآخرين، سألنى أين نقوم بأخذهم. وأجبته "إلى المستشفى" ثم أضفت كى أطمئنه "لا تخف لن تموت"، لكنه قال "إننى سوف أموت، إن كان هناك طبيب مسلم"(٣١).

وليست هناك إجابة بسيطة يمكن إجابتها عن سؤال هل كل هذا كان يمكن تجنبه أم لا. ورد فعل مونتباتن أظهره على أنه سطحى للغاية، فعندما رجع إلى إنجلترا حاول أن يقلل من حجم الكارثة، وادعى أن ما حدث قد فاجأه (٣٢). ولكن كان هناك تصاعد مستمر فى العنف منذ أغسطس من عام ١٩٤٦م، وقد كانت المخابرات العسكرية تعرف أن هذا العنف يتجه إلى الأسوأ. وإدراكا منه لذلك، فإن أوشينليك كان يرغب فى الاحتفاظ بقوات بريطانية خلفه بعد الاستقلال، ولكن تم تجاهله من مونتبان (٣٣). وحتى لو تم اتباع هذه الوسيلة، فإن الجنود البريطانيين سوف يصبحون متورطين فى صراع قد يكون من الصعب تخليصهم منه. وقد نوه الميجور جنرال ت. و. ريز (T. W Rees) إلى أن قوات الحدود فى البنجاب قليلة العدد، ومدة بقائها قصيرة بشكل يدعو للعجب، ولكن هذا لا يعنى أن إضافة المزيد من الكتائب سوف تحقق النجاح.

وكبار العسكريين فى الهند، بمن فيهم أوشينليك، كانوا واضحين مع مونتباتن، فنزعة التظاهر التى كانت لديه أدت إلى إغضاب إحدى الفرق التى كانت تقليديا تثمن قلة الكلام والسرية.

وقد اتهم نائب اللواء السير رينالد سافورى (Reginald Savory)، أحد المعاونين فى الجيش الهندى، بأنه "يحاول أن يجعل الأمر سواء بالنسبة للهند

أو بالنسبة للعالم ولأنفسنا أننا كنا ملتزمين بأداء مهمة نبيلة" [٣٤]. وأدى هـذا الاتهام إلى تشويه صورة مونتباتن أمام الناس، وكذلك سياسة الحكومة، فقـد كان دائما وكيلا لأتيلى، ويقوم بتنفيذ رغبة الحكومة والبرلمان. وكان يعتقـد أنه أدى المهمة التى عليه بأكثر مما هو مطلوب منه، وأنه يعرف أن هذا ما كان سيقال لأنه من السهل نسيان هذه الحقيقة.

وما كان قد حققه بالفعل هو سلوك براجماتى، والذى كان، وفق تقدير أتيليه، رد فعل واعيًا للقوى التاريخية التى اكتسبت الكثير من الزخم خـلال ثلاثين عاما. فلم تكن هناك إمكانية للحفاظ على الراج بالقوة، حيث إن الغالبية العظمى من الهنود كانوا يتمنون زواله، ولم يكن هناك أى سبب للاعتقاد بأن بريطانيا سوف تكون راغبة فى إطالة عمره على حساب الدخول فى حـرب قمعية لا نهاية لها. حتى لو كان هناك تفكير فى ذلك فإن مثل هذه السياسة كانت تجلب الدمار على الالتزامات البريطانية فى كل مكان. فقد كان سـيتم إطالة هذه الأحداث حتى تصل إلى نقطة انكسار، عـام ١٩٤٦م، فالحكومـة كانت قلقة من تداعيات ذلك على الصناعة، حيث إن ٦,١٨ فى المائـة مـن حجم القوى العاملة فى البلاد كان فى مجال الخدمات. والاختيار الذى كـان يواجهه أتيلى قد تم تجسيده فى أحد رسوم الكاريكاتير التى تم نشرها فى جريدة الديلى هيرالد (Daily Herald) فى ٢٤ مايو عام ١٩٤٦م. فقد تم رسم سـيارتين على إحداهما شعار "حكومة حزب العمال" وعلى الأخرى "دول الكومنولـث" تنطلقان إلى الأمام على طول طريق، فى حين أن هناك سيارة قديمة مكتوبًا عليها "الوطنى يسقط من على الجرف، وكل من سائقها وراكبها الـساذجين يهتفان "تعالوا من هذا الطريق"، هناك البعض فى الجانب الأيمن أعـصابهم قلقة على الفشل فى الهند وفى كل مكان فى الإمبراطورية، ولكن الأعصاب بدون العضلات لن تحافظ لا على الراج ولا على المستعمرات.

وأكثر من شعر بمرارة خسارة الهند هم الرجال والنساء الذين خدموا هناك وكرسوا حياتهم من أجل رفاهية شعبها. فالكثير من الذين خدموا طويلا في الراج قد أحسوا بالمرارة والرعب من السرعة غير المسبوقة لنقل السلطة وتبعاتها المشئومة. ولكن كان هؤلاء الذين كانت لهم صلات مع الراج لا يمثلون إلا قطاعا محدودا من المجتمع البريطاني. ففي يونيه من عام ١٩٤٦م كان هناك ٤٤٥٣٧ من الموظفين و١٠٨٣٧ من ربات البيوت والأطفال في الهند، بجانب الحامية البريطانية والضباط البريطانيين في الجيش الهندي. وقد كانوا آخر ممثلين للشعب البريطاني، منذ أيام كليف (Clive)، الذين اضطروا إلى الرحيل. فالرجال والنساء أتوا إلى الهند وقاموا بأداء الواجبات التي أرسلوا من أجل القيام بها، ثم بعد ذلك رجعوا إلى الوطن. ولذلك فكما قيل في عام ١٩٤٧م، فإن المرحلين السابقين قد وجدوا أنه من الصعب قبول الانفصال العاطفي مع البلد والشعب الذين اعتادوا على حبهم والذين منحوهم أغلب أيام حياتهم. وبعد خمسة وأربعين عامًا لاحقة، كانت هناك إعلانات في الصحف حول إقامة العديد من حفلات العشاء لإعادة توحيد العائلات الهندية، وقد كانت تتم في الغالب بالملابس العسكرية، في نوادي لندن وهي شهادة على إحساسهم بالحنين والارتباط مع الراج.

وكانت التبعات الإستراتيجية والنفسية لخسارة الهند هائلة، ولكن كان تأثيرها، في البداية محدودا. ولم يحسم مونتباتن مسألة التحالف العسكري سواء مع الهند أو مع باكستان، على الرغم من أن كلتيهما قد تم اختيارا لدخول الكومنولث. ولكن سيلان كانت أكثر جاهزية ووافقت على السماح لبريطانيا باستخدام قواعدها، وبذلك فإن بريطانيا يمكنها الحفاظ على مكانتها القديمة المهيمنة في المحيط الهندي. وقد كان هذا بمثابة عزاء صغير عوضا عن السيطرة على كامل الهند. فقد كان قادة الدولة من دزرائيلي (Disraeli)

وحتى بيفن مقتنعين بأن امتلاك الهند هو المفتاح لعظمة بريطانيا. وقد حظر كورزون (Curzon) أنه بذهاب الهند فإن بريطانيا سوف تتراجع إلى قوة من الدرجة الثانية.

وقد اتفق الإستراتيجيون من ويلينجتون (Wellington) وحتى كبار العاملين مع أتيليه على ذلك، وخشى الأخير من أن مستقبل بريطانيا كقوة عالمية سوف يكون فى خطر بدون احتياطى الهند من الطاقة البشرية، التى برهنت على أنها عنصر أساسى فى حربين عالميتين، وفى العديد من المعارك الاستعمارية الأصغر فى كل من الشرق الأوسط وشرق أفريقيا والشرق الأقصى. ففى غضون عام من استقلال الهند، فإن أحد كبار المسئولين كان يدعو لإقامة جيش بريطانى أفريقى على مثال الجيش الهندي:

"إذا تم دمج الوحدات البريطانية مع وحدات شرق أفريقيا على منوال مشابه، ولكن أصغر من الجيش الحديث للهند، فإن مستوى كفاءتهم ورغبتهم فى الانضمام للحياة العسكرية يمكن أن يتحسن إلى مستويات غير مسبوقة. ويمكن ملء الرتب البريطانية الخاصة بالوحدات الأفريقية، خلاصة من يتم جذبه من خلال فرص الرزق والحياة"(٣٥).

وكما ذكرنا سابقا فقد انحاز أتيليه فى آخر الأمر إلى هذه الفكرة، ولكن الحفاظ على أعداد ضخمة من القوات العاملة كان مكلفا للغاية؛ الحفاظ عليها فى وقت السلم. ومنذ منتصف عام ١٩٤٦م، فإن المخططين الإستراتيجيين البريطانيين كانوا قد بدأوا التركيز على المصادر الرخيصة، للقوة، التى كانت أكثر ارتباطا بمتطلبات الحرب الباردة، وهى قاذفات القنابل طويلة المدى والقنابل النووية. وباعتباره مصدرا للقوة والمكانة فإن الجيش الهندى قد أصبح غير متوافق مع الاحتياجات العصرية، على الرغم من أن خسارته سوف تحس فيما يطلق عليه معارك "القتال فى الأدغال": (bush-fire) فى الشرق الأقصى والأوسط أثناء الخمسينيات ومع بداية الستينيات.

وفى هذه السنوات وجد الشعب البريطانى نفسه وحيدا فــى مواجهــة تداعيات الصدمة المتأخرة لاندثار الإمبراطورية. وبطء رد الفعــل يرجــع فى أغلبه إلى حقيقة أن الكومنولث كان عاملاً مهمًا على امتصاص الصدمات فى السنوات التى تلت عام ١٩٤٧م.

فقد ساعد فى تهدئة جرح الكبرياء الناتج عن خسارة الأرض والمكانة، وبدا كأنه يقدم تعويضا عنهما كليهما. فقد منح البريطانيين وضــعًا معنويًــا خاصًا فى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تقاتــل فـــى حــربين اســتعماريتين دمويتين. وبالنسبة لأولئك الذين كانت آراؤهم السياسية تحدد بالأساس مــن خلال الاعتبارات الأخلاقية، فإنه كان يجسد كل المثاليات القديمــة الخاصــة بالاستعمار الخير، بدون أى إحساس بالذنب بسبب ارتباط ذلك بالحكم الأجنبــى. وفى تقرير عن الموافقة على عقد مؤتمر الكومنولث الوليد فى عام ١٩٥٦م، فإن جريدة الأوبزيرفر (Observer) أشارت إلى "المنافع المعنوية" التى شعر بها المندوبون من خلال مناقشة قضايا مثل حملات مكافحة الأمية [٣٦]. وقــد كان الأمر كله جديًا ويتسم بالود بالنسبة لأولئك الذين ينتمون للوسط واليسار؛ الذين لم يفقدوا اعتقادهم فى فترة ما قبل الحرب فى جدوى التعاون الدولى.

بعد عام ١٩٥٠م، فإن فضائل الكومنولث وقيمه قد أصبحت جزءا من الإجماع السياسى لتيار الوسط البريطانى الذى قبل بــدون أى شــك مزايــا الاقتصاد المختلط ودولة الرفاهة. وكان كل من قادة حزب العمال والسياسيين فى حزب المحافظين ملتزمين بالحفاظ على الكومنولث، وأعلنوا أنــه يمثــل إعلانًا على استمرار النفوذ البريطانى فى العالم. حيث كان الكومنولث، وفقا لرأى أحد المدافعين عنه، "نتاج منطقيًا لتطورنا"، وأنه وريث الإمبراطورية، وبالمعنى الأخلاقى يمثل الخيار الأفضل على الإطلاق [٣٧]. وقد تم التعبيــر

عن الحكمة التقليدية لكلا الحزبين من خلال الملكة إليزابيث الثانية (Elizabeth II) أثناء زيارتها لواحدة من الدول الأحدث في عضوية الكومنولث، وهي غانا، في نوفمبر من عام ١٩٦١م. وقد أشارت إلى تكوين الكومنولث على أنه بالأساس: "مجموعة من المتساوين، وعائلة من الشعوب المتشابهة في طريق التفكير أيا كانت الاختلافات الدينية والاختلافات في النظم السياسية أو الظروف أو الأعراق، فالكل تواق إلى تحقيق السلام والحرية والرفاهية للجنس البشري" (٣٨). والشيء الذي كان يحتاجه الكومنولث لكي يزدهر هو "الإيمان" به من قبل جميع الدول الأعضاء فيه. ولكن هذا الحديث كان من الصعب للغاية التسليم به، والأكثر صعوبة هو "الإيمان به، من جانب مضيفيها، حيث إن الدكتور نكروما كان لا يزال رهن الاعتقال، وما زالت هناك قيود موضوعة على المعارضين السياسيين".

وقد شوهت الدروس القاسية التي مرت خلال الأربعة عشر عاما المنصرمة هذه النظرة الوردية والمتفائلة للكومنولث. وقد كان هناك عدد من المعارضين غير مستعدين للقيام بالخطوة الضرورية للإيمان بالكومنولث. ففي عام ١٩٥٦م، وهو العام الذي تعرض فيه الوضع العالمي لبريطانيا لاختبار يشكل علامة فارقة،، فإن هناك عددًا قليلاً من الأصوات المعزولة كانوا مستعدين لأن يقوموا بطرح أسئلة استفهامية حول القيمة العملية للكومنولث في عالم تزداد العداوات فيه. وفي أحد التحليلات اللاذعة، والتي كتبت بعد فترة قصيرة من انعقاد مؤتمر رؤساء وزراء دول الكومنولث في يونيو من عام ١٩٥٦م، فإن الدبلوماسي المخضرم اللورد فانزيتارت (Vansittart) كان يرى أنه بعيدا عن دول الكومنولث البيضاء القديمة، فإن الكومنولث لا يمنح بريطانيا أي ميزات (٣٩).

فنظام الأبارتهيد (الفصل العنصري) فى جنوب أفريقيا قد جعل أنه من السخرية القول بأن الكومنولث يدعم المساواة العرقيـــة، وباكـــستان كانـــت جمهورية، ولكنها على الأقل كانت تصطف مع الغرب ضد الشيوعية، فـــى حين أن كلاً من الهند وسيلان، اللتين كانتا قد طردتا بريطانيا أخيـــرًا مـــن قواعدها، كان موقفهما من الحرب الباردة يتسم بالتشويش. فإعلان المـــؤتمر كان مليئًا "بالتفاهات حول الحياد العرقي" وقد كـــان الكومنولـــث، فـــى رأي مينز (Menzies)، "هو مجموعة مشتتة من الأمم، التى لا يربطها رابط سوى الصداقة".

وعلى الطرف الآخر من الطيف السياسى، فإن السياسيين قـــد نبـــذوه كليا. فالكومنولث كان بالكامل "لا شكل له" حيث كـــان يفتقـــر "لأى أســـاس للوحدة" وإنه يفتقر إلى الآليـــات لإحـــداث تعـــاون سياســـى أو اقتـــصادي أو عسكرى [٤٠]. وقد تكون بريطانيا قد هنأت نفسها حول التحول الـــسلمى، إلى حد كبير، من الإمبراطورية إلى الكومنولث، وأحست بـــبعض الرضـــا الأخلاقى عن الذات؛ باعتبارها أصبحت مثالا متألقًا للتعاون فيما بين الأمم، ولكن ذلك لا يعادل القوة والمكانة التى كانت تمنحها لها الإمبراطورية. ومع ذلك فإنه قد حمى الشعب البريطانى من أن يصبح فجأة وجها لوجه مع حقيقة أنه بعد عام ١٩٤٧م قد تضاءلت قوة بلادهم. فمع الإدراك المتأخر فإنه مـــن الممكن أن نرى أن الكومنولث قد مكّن بريطانيا من أن تقبل بخسارة الهنـــد بدون الكثير من الحزن. ومن الغريب القول، أن الحكومة العمالية التى كانت هى المهندس لعملية تفكيك الإمبراطورية الهندية، استمرت فى التصرف كما لو أن بريطانيا ما زالت قوة كونية هائلة. وقد تركت للمحافظين، ورثة هـــذه العجرفة، لأن يدركوا الواقع الحقيقى.

(٣)

العالم كما هو

المصائب الآتية من الشرق الأوسط

(١٩٤٥– ١٩٥٦)

ذكر اللورد ريتشارد كرومان (Richard Crossman) عضو البرلمـــان "إننا يجب أن نبنى سياستنا على افتراض أنه لا يوجد جيش هندى ليتم إرساله إلى البصرة". وقد كان بقوله هذا يدافع عن حزبه ضد الاتهامات له بالارتباك أثناء مناقشة أحوال الشرق الأوسط فى يوليـــو عـــام ١٩٥١م. فقـــد كـــان المحافظون يرون أن السنوات الست الماضية قد شهدت التضحية بالمـــصالح البريطانية فى منطقة كانت فى السابق تمثل مجالا نشطا للمصالح البريطانية. وأنه أيضا، أثناء نفس الفترة، فإن حكومة أتيليه قد تحدت الكثير فى مـــسألة تطوير القنبلة النووية البريطانية، بأن امتلاكها سوف يدعم الادعاء البريطانى بأنها ما زالت قوة عالمية.

وقد كان أسهل بالنسبة لحزب العمال أن يكتسبوا مصادر القوة بدلا من ممارستها. ففى عام ١٩٤٥م ورث أتيليه جميع المشاكل السابقة على الحرب والخاصة بالشرق الأوسط مثل: تدهور الصراع بين العرب واليهود، وازدياد غليان المصريين ضد الحكم الأجنبى، وانتشار الشعور بأن بريطانيا هى أكبر عائق للطموحات القومية والوحدة للعرب. وقد كان حزب العمـــال غريزيـــا

متعاطفا مع حركات التحرر، فقد كان حزبا تقدميا ذا توجه دولى، وكان يعتقد أنه بذلك متوافق مع الاتجاهات السائدة فى العالم الحديث. وقد كان المحافظون أسرى الماضى ويتبنون مفاهيم الأسلاف الخاصة بالتفوق العرقى وكان مصبوغا بصبغة رقيقة من العداء للأجانب. وفى أثناء النقاش الذى تم فيه إثارة موضوع شعب بورما فإن جورج ويج (George Wigg) سريع الاستثارة قد صرخ من مقاعد المحافظين:

يعتقد "الرجل الشريف المحترم هو وأصدقاؤه أن كل الناس مثلهم (Wogs)". وبالفعل فإن العضو اليمينى المحترم عن وودفورد (تشرشل) كان يعتقد أن المتحضرين يوجدون فى كاليس (Calais)".

لم تكن المبادئ والمثاليات العليا للأخوة الدولية دائما متوافقة مع السعى لتحقيق المصالح البريطانية، خاصة فى الشرق الأوسط وفى ظل الظروف التى فرضتها الحرب الباردة. فالحكومة كانت دائما منتبهة للمطالب التى تقدمها الدولة الشريكة لها، الولايات المتحدة الأمريكية، خلال عام ١٩٤٦م، فالإستراتيجيون فى كل من البنتاجون والحكومة البريطانية بدأوا يرسمون مسار حرب مفترضة ضد روسيا، وقد خلص كل منهما إلى أن السيطرة على الشرق الأوسط هى أمر حيوى من أجل تحقيق النصر. وإن كان لا بد وأن يهزم الاتحاد السوفيتى، فإنه لا بد أن يتم تدمير جزء كبير من آلته العسكرية بواسطة استخدام القنابل النووية. والهجوم النووى على مناطق القلب الصناعى لروسيا يتطلب وجود قواعد قريبة نسبيا لحدوده. لذلك ففى صيف عام ١٩٤٦م وافقت بريطانيا سرًا على السماح لمقاتلات بي-٢٩ بالطيران من أجل شن غارات، انطلاقا من المطارات الموجودة فى شرق إنجلترا (Anglia) وفى مصر [١]. وقد كانت الأخيرة مهمة للغاية، لأنها تجعل من الممكن القيام بهجوم نووى مركز على حقول البترول ومعامل تكرير البترول

والمراكز الصناعية فى منطقة القوقاز وفى حوض الدون. وبوجود هذه الإمكانية فإن قدرة روسيا على شن حرب فى غرب أوربا تكون قد تقلصت بشكل كبير. وقد كانت الأسلحة النووية وحدها القادرة على تعويض عدم التوازن فى عدد القوات المسلحة الضخمة فى روسيا مقارنة بما يملكه الغرب.

وانطلاقا من هذه المقدمة المنطقية، قام الخبراء فى البنتاجون بمراجعة خططهم وتعديلها خلال السنوات القليلة التالية. ونسخ عامى ١٩٤٧ و١٩٤٨م، والتى حملت أسماء كودية "المشواة" و"الطريق السريع"، قد منحت القوات الجوية الأمريكية (USAAF) خمسة عشر يوما تقوم فيها باستخدام قاذفات القنابل لديها وشحنات القنابل النووية على مدارج مطارات منطقة القناة[٢]. والدفاع المحلى، وينطبق ذلك على الشرق الأوسط بكامله، قد عهد به إلى القوات البريطانية وقوات الكومنولث[٣]. ونطاق الهجوم ضد "البطن الرخو" الروسى قد ازداد؛ لأن المخزون الأمريكى من القنابل النووية قد ازداد من خمسين قنبلة فى عام ١٩٤٨م إلى ثلاثمائة فى عام ١٩٥٠م. وفى عام ١٩٤٩م فإن الخطة "دروب شوت" (dropshot)، والتى تحدد سيناريو الحرب فى عام ١٩٥٧م، قد افترضت وجود هجوم على جنوب روسيا بواسطة تسع وخمسين من قاذفات القنابل التى تنطلق من مصر[٤]. ومثلها مثل سابقتها، فإن خطة الحرب هذه قد أخذت فى حسبانها أن بريطانيا سوف تظل مسيطرة على منطقة القناة.

وقد كانت المطارات المصرية جزءا مهما أيضا من البرنامج النووى للقوات الجوية الملكية. وترجع بداية ذلك إلى عام ١٩٤٦م، عندما كان رؤساء الأركان، خاصة قائد القوات الجوية اللورد تيدر (Tedder) والفيلد مارشال مونتجمرى (Montgomery)، مقتنعين مثل أتيليه أنه من الضرورى

بالنسبة لبريطانيا أن تحافظ على هيمنتها القديمة على البحر المتوسط والشرق الأوسط [٥]. وقد كان دليلهم على ذلك بسيطاً، أن بريطانيا سوف تظل في الصف الأول وقوة كونية، وتتمتع بقدر من الاستقلال عن الولايات المتحدة إذا حازت القنابل النووية ووسائل إيصالها ضد الاتحاد السوفيتى.

فى حالة حدوث حرب، فإن جزءا مهما من قوة الهجوم النووى البريطانية سوف يطير من منطقة القناة فى اتجاه جنوب روسيا. وأثناء السنوات الست التالية، فإن بريطانيا قامت بتنفيذ برنامج نووى طموح. فلقد استمر العمل من أجل تطوير طائرات V قاذفة القنابل النفاثة، وقد دخل أولاها إلى العمل فى عام ١٩٥٥م. وقبل ذلك بثلاث سنوات أجرت بريطانيا أول تجربة لقنبلة نووية فوق جزيرة مونت بيلو (Monte Bello) على الساحل الشمالى الغربى لأستراليا.

ووفقا لخطة الحرب البريطانية المسماة "حصان طروادة:" (Trojan) والتى تم وضعها فى عام ١٩٥٢م (الأسماء الكودية أصبحت أكثر تعبيرا عن الحرب كلما اشتدت الحرب الباردة)، والقنابل التى تم إنتاجها بعد قنبلة مونت بيلو، وسوف يتم إلقاؤها على روسيا، وإذا كانت الأعداد التى أضافتها صحيحة فإن ذلك كان سوف يؤدى إلى تقليص القدرة الصناعية لروسيا بمقدار ٣٠-٤٠ بالمائة [٦]. ومع بداية عام ١٩٥٦م، تم إحداث تغييرات كبيرة للسياسة المستهدفة. فقد كان متوقعا أن تقوم روسيا بهجوم برى وجوى على نطاق واسع فى الشرق الأوسط ضد شرق تركيا وآبار البترول فى كل من إيران والعراق. وإذا أخذنا فى الاعتبار أن التحذيرات سوف تكون قبل اندلاع الأعمال العدائية بثلاثة أسابيع، فإن بريطانيا سوف تكون فى المكان المناسب الذى يمكنها من القيام بهجوم مضاد، وهو ما قد يتضمن القيام بهجمات نووية ضد حشود القوات السوفيتية وضد مطاراتها وخطوط اتصالاتها [٧].

ولم تفترض أى من هذه التكهنات أن تبادل الضربات النووية سوف تؤدى إلى نصر تام لأى من الجانبين. وعلى الرغم من أن الأسلحة التقليدية أصبحت معطلة، فإن الأطراف المتعادية سوف، كما كان يعتقد، تظل لديها الإرادة وبعض المال الكافى لكى تقوم بالحرب باستخدام الأسلحة التقليدية. وفى مثل هذا الوضع، فإن بريطانيا سوف تضطر لأن تقوم بالدفاع عن الخطوط البحرية، فى العالم، التى تتيح لها الحصول على الطعام والبترول. والبيانات التى تم جمعها من اختبار مونت بيلو تم استخدامها لاكتشاف التأثيرات المحتملة لهجوم نووى على إحدى الموانئ الكبرى، ميناء ليفربول، وقد تم توسيع نطاق هذه الدراسة حتى تشمل قناة السويس. والنتائج كانت حاسمة فى تأكيدها أن كلاً من ميناءى ليفربول وبورسعيد يمكن أن يتم استعادة العمل فيه بعد أربعة أشهر. ومشكلات التلوث يمكن التغلب عليها وإذا انفجرت قنبلة نووية روسية على قناة السويس، فقد كان من المقدر أن معدات جرف التربة التى يتم تشغيلها بواسطة "نوبات من الرجال" يمكن أن تقوم بفتح ممر ملاحى فى غضون عُدد من الشهر [٨]. وهذه المعلومات المدهشة، والتى تم تقديمها فى تقرير فى يوليو ١٩٥٦م، افترضت أنه سوف يكون هناك عدد كاف من العمال والآلات لما ثبت أنه مشروع شديد الخطورة بالنسبة لأولئك الذين سوف تكون مهمتهم جرف الرمال.

أصبحت منطقة القناة رقمًا مهمًا فى حسابات الحرب النووية. وإذا كانت هناك إمكانية لكسب صراع من هذا النوع، وقد اعتقد الإستراتيجيون الذين قاموا بوضع عدد كبير من خطط الحرب وكانوا يؤمنون بأن ذلك ممكن، فالسيطرة الإنجليزية الأمريكية على الشرق الأوسط فى هذه الحالة يجب أن تستمر. حتى بدون أى مخططات للبدء فى هجمات الحرب التى يمكن كسبها ضد جنوب روسيا، فإن المنطقة يجب أن يتم الاحتفاظ بها ضمن المعسكر الغربى، ويجب الدفاع عنها من أجل الحصول على البترول الموجود بها.

فقد شهدت الحرب العالمية الثانية تحول نمط استهلاك العالم للبترول. فبحلول عام ١٩٥١م، كان الشرق الأوسط يقوم بتقديم ٧٠ فى المائـــة مـــن احتياجات الغرب البترولية، جميع الاحتياطيات المستقبلية للبترول كان يعتقد أنها سوف تتركز فى المملكة العربية السعودية والخليج الفارسى.

وقد حل البترول والمطارات محل الدفاع عـــن الهنـــد كـــسبب لقيـــام بريطانيا بالسيطرة على الشرق الأوسط. بمعنى أن المقولات الإســـتراتيجية والجغرافية لكل من دزرائيلي وكورزون لا تـــزال حقيقيـــة. وكانـــت هـــذه المقولات، كانت تتكرر كثيرا خلال الأربعينيات وبداية الخمسينيات، خاصـــة من أعضاء البرلمان عن حزب المحافظين وفى غرف لجان وزارة الحربية، سواء الخاصة بالقوات البحرية أو الجوية. ولكن هل حافظت بريطانيا علـــى قوتها القديمة، وكانت مستعدة لأن تتصرف بجرأة، عندما تواجه بصعوبات؟ على الأقل على الورق، فإن بريطانيا كانت قوة مرعبة فـــى المنطقـــة فـــي عام ١٩٤٥م لأنها ظلت كذلك لفترة عشرين عاما أو ما يقارب ذلك قبـــل أن يقوم الشاب ناصر بلعن طائرات القوات الجوية الملكية التى كانت تطير فوق منزله. ففى عام ١٩٤٥م كانت كل من الأردن والعراق وإيران والمـــشيخات العربية حول الخليج الفارسى لا تزال تحت السيطرة البريطانية. وكذلك أيضا بالنسبة لمصر، المضيف الغاضب لقاعدة قناة السويس الكبيـــرة، والمخـــازن والمطارات التى كانت منتشرة حول القناة. وهذه القاعدة، التى كانـــت تبلـــغ ١٢٠ ميلاً طولا و٣٠ ميلاً عرضا، كانت هى أكبر قاعدة عسكرية فى العالم وهى محور القوة البريطانية فى الشرق الأوسط وأفريقيا. ويتشعب من منطقة القناة شبكة من المواقع العسكرية والقواعد البحرية فى مالطا وقبرص وحيفا وليبيا التى كانت مستعمرة إيطالية سابقا (والتى كانت روسيا تتمناها) وفـــى الأردن والعراق وعدن وفى الخليج الفارسى.

وقد كانت هذه النقاط القرمزية اللون على خريطة وزارة الحربية تزعج بيفن. فقد كان على وعى بالمزاج الجديد المتشدد والمعادى لبريطانيا فى الشرق الأوسط، وقد شجع عليه الرأى الذى كان سائدا على نطاق واسع من أن بريطانيا تمثل عائقا أمام القومية الهندية. فبريطانيا يمكن أن تتفكك، وفى أول يوم من عام ١٩٤٧م، قام بتحذير أتيليه من أن المشكلات قادمة. "أنت لا تستطيع قراءة التلغرافات القادمة من مصر والشرق الأوسط فى هذه الأيام، بدون أن تدرك أنها ليست الهند وحدها هى التى سوف تضيع، ولكن أيضا مالطا وسيلان والشرق الأقصى يسير فى نفس الاتجاه، مع وجود صدى لذلك فى الأقاليم الأفريقية" (٩). وبعد أربعة أشهر، فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تواجه أزمة مالية أخرى، فإن بيفن اعترف بشكل صريح لبعض من العاملين معه أنه سوف يضطر "لأن يتدخل بنفسه فى طريقة التعامل مع شئون الشرق الأوسط (١٠).

وقد كانت هناك فوضى على وشك الحدوث. فمنذ نهاية عام ١٩٤٤م، فإن القوات البريطانية كانت تحاول عبثا احتواء ثورة اليهود فى فلسطين. فقد كانت هناك حملة اغتيالات من قبل العصابات وأعمال تخريب يقوم بها المؤيدون لهم، وقد كانت ذات طبيعة جريئة وقاسية مثل الجيش الملكى الهندى IRA.

ومثلها مثل الحملة الأيرلندية فإن الحملة الفلسطينية قد جلبت العار على بريطانيا فى الخارج، خاصة فى أمريكا، وأدت إلى استهلاك الثروات النادرة. فالنقص فى التمويل أصبح الآن يفرض نفسه على السياسة. فالفقراء لا يقنعون المنافقين، وعند بداية العام فإن بيفن اضطر إلى سحب المعونات من الحكومات المعادية للشيوعية فى كل من تركيا واليونان، والتى تم إنقاذها نتيجة ذلك عن طريق المساعدات الأمريكية. وفى نهاية سبتمبر من عام ١٩٤٧م، فإن الحكومة قامت بغسل يديها من الأوضاع الفلسطينية

المحرجة والمكلفة. فمائة ألف جندى لم يستطيعوا كسر دائرة الإرهاب والإرهاب المضاد، وأصبح الإقليم بشكل واضح فى حالة فوضى. وقامت بريطانيا بالتنازل عن حق الانتداب للأمم المتحدة مع وعد بالانسحاب بحلول مايو من عام ١٩٤٨م.

وقد كان هذا الإعلان مساويًا للانتصار بالنسبة للعصابات اليهودية، التى دخلت بسرعة فى حرب أهلية مع الفلسطينيين. وخلال الثمانية الأشهر التالية، فإن الأمم المتحدة حاولت بدون نجاح أن تقوم بترتيب عملية التقسيم بين العرقين اللذين حاول كل منهما إبادة الآخر. وقد كان الأمر سيئًا للغاية أن تضطر بريطانيا للفرار من المحمية التى قامت بحكمها لما يقارب ثلاثين عاما، ولكن الأسوأ كان هو ما أعقب ذلك. فالأيام الأخيرة للانتداب البريطانى شهدت مذبحة لـ ٢٤٠ من العرب، وكان فيهم نساء وأطفال، بواسطة إحدى الوحدات اليهودية فى دير ياسين. وساعدت هذه الحادثة على دفع الفلسطينيين للهجرة الجماعية، وبحلول عام ١٩٤٩م، كان هناك ٧٢٠٠٠٠ من اللاجئين قد فروا إما إلى غزة أو إلى الأردن. وقد تم لوم بريطانيا فى جعلهم بلا وطن وإلقائهم فى معسكرات منعزلة، وكان بمثابة رسالة تذكير للعالم العربى بعجزها وخيانتها. وبعد عام ١٩٤٨م، فإن بريطانيا ودولة إسرائيل الوليدة أصبحتا رمزا للاحتلال الأجنبى والضعف العربى. وقد تُركت للأمم المتحدة مهمة تقديم مساعدات مالية للاجئين وإعادة توطينهم متى كان ذلك ممكنا.

وأيا كان ما ذكره المتحدثون الرسميون فى فترة ما بعد الحرب، والذى يتناقض مع النيات الحسنة لبريطانيا فيما يتعلق بمستقبل الشرق الأوسط، فإن ذلك لم يكن صادما بالنسبة لسمعتها فيما قبل الحرب باعتبارها قوة طاغية ومتآمرة. وقد يكون لورانس العرب بطلا فى بلاده، ولكن بالنسبة للعرب فإنه كان الأول فى صف طويل من المحتالين الاستعماريين الذين كانوا يشتهون

الحصول على مواردهم وأرضهم. "مكانة بريطانيا فى كامل المنطقة كانت غير قابلة للإصلاح. فقد كانوا مكروهين ومشكوكًا فيهم فى كل مكان تقريبا" هذا ما خلص إليه استطلاع رأى قامت به جريدة التايم ونشر فى بداية عام ١٩٥٢م. وبعد أسبوعين من قيام المجلة بنشر التعليق التالى "اللعبة القديمة الخاصة بمهاجمة البريطانيين بدأت فى كل من مصر وفارس"، ويمكن أن نضيف لها أن اللاعبين كانوا يشعرون بثقة أكبر من أى وقت مضى بالنصر النهائي(١١).

وفى أبريل من عام ١٩٥١م، فاز الحزب الوطنى الذى يتزعمه الدكتور محمد مصدق بالانتخابات العامة فى فارس، أو إيران كما تسمى نفسها الآن، والتى مزقت الاسم المستمد من المجد القديم فى كتب التاريخ. وقد أتى مصدق الضعيف الكبير فى السن إلى السلطة ببرنامج يقوم على الأنجلوفوبيا (الخوف من إنجلترا) والتجديد القومى. فقد فتن الجماهير بقوة بلاغته، وقد كان يصاب بالدوار فى وسط الجماهير، ولكنه كان يتجاوز الضعف البدنى من خلال العواطف المتضمنة فى خطابه البليغ. وقد كان ينظر لنفسه على أنه منقذ بلاده، وفى إحدى المرات قام بإخبار الحضور فى نيويورك أن إيران فى عام ١٩٥١م كانت تفعل ما قامت به أمريكا فى عام ١٧٧٦م، أى أنها كانت تحرر نفسها من حاكم جشع ومتسلط. وفى يناير من عام ١٩٥٢م فإن الجمعية العامة للأمم المتحدة استمعت لقصة مطولة حول الآثام التى ارتكبتها بريطانيا فى إيران، كما كان يفضل مصدق أن يسميها. والمندوب البريطانى المصاب بالإحراج، السير جلادوين جيب (Gladwyn) (Jebb)، قد وصف هذه الروايات بالظالمة وأنها "عديمة الجدوى وتقدم تفسيرا عقيما للأحداث الماضية"، وطلب من مصدق النظر إلى المستقبل.

ومهما كان حجم المطالب المهذبة لنسيان أو حتى غفــران الماضــى يمكن أن تكفر عن ذنوب بريطانيا فى عيون الإيرانيين، أو كذلك فى عيــون القوميين المصريين والعرب. فالذكريات كانت كثيرة ومريــرة، فقــد كــان مصدق كبيرا فى السن للدرجة التى تمكنه من تذكر القوات الهنديــة وهــى تسير فى بلاده أثناء الحرب العالمية الأولى، وكذلك الاتفاقيات غير العادلــة والحكومات التى كانت تنصب وتسقط وفقا لنزوات البيروقراطيين فى لنــدن أو فى دلهى، وعودة القوات البريطانية فى عام ١٩٤٢م. فالإيرانيون مــثلهم مثل الشعوب الأخرى فى الشرق الأوسط، كانت أقدارهم تقرر لهــم، والآن فإن مصدق يعتقد أنهم قادرون الآن على صناعة تاريخهم بأنفسهم. وقد كان من غير المجدى أن يتم التوضيح له ولمن يستمعون إلى حديثه أن بريطانيــا قد تغيرت، وأنها كانت فى ذلك الوقت مستعدة لأن تقوم بمساعدتهم فى تنمية بلادهم باعتبارها شريكًا صادقًا، أو أن الشركات البريطانية كانــت بمثابــة أرباب أعمال تقدميين وإنسانيين. وقد كان بالفعل هناك ظلم، ولكن كان هناك فوائد أيضا من عدم العدالة الذى تم فى السابق، أو كما كــان يبــدو الأمــر بالنسبة لمصدق والملايين من الإيرانيين الآخرين.

وفى مايو من عام ١٩٥١م، فإن مصدقًا أخلص لأولئك الذين صــوتوا لصالحه عن طريق تأميم أصول شركة البترول الإنجليزية- الإيرانية. وقــد كانت هذه الشركة رمزا لاستعباد إيران ولقوة بريطانيا، وقد كانــت بمثابــة الطفيل الذى يمتص دم إيران، ويترك شعبها فقيرا وجائعا. فــالثروات التــى كان يتم جنيها بواسطة شركة البترول لم يكن يتم توزيعها بالتــساوى، ففــى السنة السابقة على عملية التأميم، فإن إيران قد حصلت على ٩ ملايين جنيــه إسترلينى مقابل حقوق الملكية، وهو ما يزيد بمقدار مليون جنيه على العوائد الداخلية لأرباح الشركة. ووفقا للمصطلحات التجارية الخالصة، فإن شــركة

البترول الإنجليزية- الإيرانية كانت تحتفظ ببعض من أرباحها عن طريق تطبيق نظام النصف بالنصف، وهو النظام الذى كانت تطبقه الشركات الأمريكية المماثلة فى كل من العراق والمملكة العربية السعودية، وعلى الرغم من أن هذا قد يكون شاقًا، وهو ما لم يكن يعجب رئيس الشركة وبالطبع أيضا حملة الأسهم. ولأن الأزمة لم تحل وتفاصيل التاريخ الإنجليزى الإيرانى أصبحت معروفة، فقد كان هناك الكثير من النقد الخافت حول ماضيها الأنانى فى أروقة الحكومة البريطانية (١٢).

ولكن فى العلن كان الوزراء والصحافة يظهرون الشركة على أنها نموذج للكرم التجاري.

فبالإضافة إلى أن الحقوق التعاقدية الإنجليزية- الإيرانية كانت ثابتة. فإن البترول الإيرانى كان يمثل إحدى وثلاثين فى المائة من واردات أوربا البترولية و٨٥ فى المائة من الوقود الذى تستخدمه البحرية الملكية. بالإضافة إلى أن مصدّقًا قد تحدى بريطانيا، وهو ما شجع كل الأطراف اليمينية وعددًا محدودًا من اليساريين، وإذا أخذنا المزاج العام الذى كان سائدا فى المنطقة بأكملها، يمكن أن يشكل مثالا يحتذى به فى كل مكان. "فمرة واحدة يمكن أن تروعنا الدول الآسيوية عن طريق عرض للقوة" هذا ما أعلنته مجلة الإيكونوميست (Economist)، وهى بذلك تردد آراء المحافظين الذين اعتقدوا أن هذا يجب أن يكون الوضع. والمشكلة كانت فى أن إيران الآن يمكن أن تقدم احتجاجًا إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة حول العدوان البريطانى، وسوف تحظى بالدعم من دول الشرق الأوسط، والدول الآسيوية ودول أمريكا اللاتينية، وبالطبع، الكتلة الشيوعية (١٣).

ومع ذلك فإن خليفة بيفن، هيربرت موريسون (Herbert Morrison)، وهو أحد المعجبين المتحمسين ببالمرستون، قد أمر البارجة موريشيوس

(Mauritius) بأن تتجه بعيدا عن جزيرة عبدان (Abadan). وفـــي غــضون ذلك، قام قادة الأركان بالاجتماع ووضع مجموع من خطط الطوارئ التى تم إطلاق أسماء فى منتهى الذكاء عليها، وهى القرصان والقزم، واحدة كانــت بهدف التدخل العسكرى، والأخرى كانت من أجل إجلاء ٤٥٠٠ من الفنيــين البريطانيين الذين كانوا يقومون بتشغيل معمل التكرير. وإذا رحــل هــؤلاء الفنيون فإن الأجهزة سوف تنقل بسرعة إلى الإيــرانيين الــذين لا يملكــون الخبرة اللازمة لتشغيلها. وعلى شاكلة الأطفال المشاكسين الذين يتطفلون على ما لا يستطيعون فهمه، فإن الإيرانيين كانوا يريدون تعلــم الــدرس. وكمــا أوضحت مجلة الإكونوميست بشيء من الازدراء: "التأميم هو موضة نصف القرن. على الرغم من أنها تبدو غير مفيدة على الإطلاق فإن الوطنيين سوف يرغبون فى تجريبها"[١٤].

وقد كان هناك الكثير يعتقدون بأن "القيام بضربة سريعة على مفاصــل الأصابع سوف تكون هى الطريقة الأفضل لإرجاع الإيرانيين إلى عقلهم، وأن يركعوا لبريطانيا". وقد أثبت هذا الأسلوب أنه أقصى مما أن يتصور فــى أول الأمر، من جانب البحرية الذين وجدوا أن هناك مشكلة فــى تــوفير الــسفن اللازمة لتنفيذ خطة "القرصان" لأن البحرية كانت لديها التزامات شديدة تجــاه الحرب الكورية[١٥]. وفى مجلس العموم، فإن المحافظين كانوا غير راضــين عن هذا الإجراء وكانوا يريدون الحرب. وفي ٢٠ من يوليو قام تــشرشل بفــتح النقاش حول إيران عن طريق توبيخ موريسون على نطقه غير السليم للفظــة "الفرات". ثم بعد ذلك تحسر على خسارة الهند، ثم عنــف الحكومــة بــسبب سياستها الضعيفة فى الشرق الأوسط. فبريطانيا لــيس أمامهــا إلا أن "تقــوم بالضغط الكافى بطريقة أو بأخرى" لمواجهة مصادرة حقوقها ومصالحها[١٦].

وقد قام العميد أنتونى هيد (Anthony Head) باستكمال الهجوم بتوجيه اتهام أن السياسة الخارجية البريطانية يتم حقنها بقدر أكبر من اللازم من "الاشتراكية"، والنتيجة هى أن الجماهير فى الشرق الأوسط أصبحت تتصرف بوقاحة فى حين أن مكانة بريطانيا آخذة فى التدهور. وقد شبه جوليان إمرى (Julian Amery)، الذى كان قد ورث عن أبيه بشكل كبير الوطنية الاستعمارية، الوضع بأنه يشبه حانة فندق شبرد.

ووفقا لما ذكره إمرى الابن، فإن بريطانيا لم تفهم مشاعر الرجل القادم من البازار، فأحد المصريين قد أخبره ذات مرة: "الاستقلال هو شيء جيد بالنسبة للباشا، سئ بالنسبة للفلاح. والحكم البريطانى هو شيء جيد بالنسبة للفلاح ولكنه سيئ بالنسبة للباشا"[١٧]. وعلى عكس أفكار إمرى، فإن هناك القليل للغاية من الفلاحين ورفاقهم الذين يعتقدون أن بريطانيا تقدم لهم يد العون. وقد أنهى أتيليه النقاش بالإشارة إلى أحد الدروس التاريخية مذكرا بالحرب السابقة التى تم شنها من أجل حقوق حملة الأسهم البريطانيين: "فى مصر رايتهم لازالون يتذكرون قذف الإسكندرية بالقنابل. وهذا الشيء يمكن أن يتم فى القرن التاسع عشر، ولكن لا يمكن القيام به الآن، فنحن نعمل فى ظل ظروف مختلفة تماما"[١٨].

وقد كان تشرشل يبلغ الثامنة من العمر، عندما ضربت المدافع الإسكندرية فى عام ١٨٨٢م، وهو يريد أن يسمع دويها مجددا فى الخليج الفارسى. وكما ذكر فى وقت لاحق أنه حينما كان رئيسا للوزراء "يضرب بالبنادق" لكن لم يسمع أو يحس به أحد من الإيرانيين [١٩]. وقد اختار أتيلى خطة "القزم" بدلا من خطة "القرصان". فالأخيرة سوف تؤدى إلى زيادة عدد الجيش بشكل خطر، والقيام بغزو إيران سوف يجعل مصدقا يقوم بسهولة بالتوسل إلى الاتحاد السوفيتى من أجل تقديم يد العون. وقد كانت هذه أيضا

وجهة نظر وزير الخارجية الأمريكية، دين أشيسون (Dean Acheson)، الذى كان يعتقد أنه سواء تم دعوة الروس أم لا، فإنهم سوف ينتهزون الفرصة، لكى يعودوا مرة أخرى إلى شمال فارس، الأرض التى كانوا قد استولوا عليها وتم طردهم منها بصعوبة منذ خمس سنوات مضت.

ولم يكن أتيليه يرغب فى أن يحول إيران إلى ساحة للحرب الباردة. بالإضافة إلى أنه، فى ديسمبر من عام ١٩٥٠م، طار إلى واشنطن لإقناع ترومان بأن يتخلى عن اقتراح الجنرال ماك آرثر (MacArthur) باستخدام قنبلة نووية ضد القوات الصينية فى كوريا. وباتباع أسلوب مرن مع إيران من خلال استخدام دبلوماسية الخطوة خطوة. وفى ٢٧ سبتمبر، سيطر مصدق على مصف بترول عبدان ورحّل فريق العاملين به. وقد اشتكت مجلة الإسبكتاتور (Spectator) "إننا فقدنا المكانة على نطاق غير مسبوق"، وأضافت على نحو محزن أن هناك انقلابًا فى الأوضاع يتم الإعداد له، فالعالم الشيوعى والعالم العربى سوف ينظران إلى المعارضة الناتجة عن ذلك على أنها "معركة بسيطة بين كلاب الطبقة العليا وكلاب الطبقة الدنيا"[٢٠]. إلا أنه كان هناك بعض العزاء لأولئك الذين يلعبون بالنار، الذين سوف يتذوقون أصوات مدافع موريشيوس التى سوف تنطلق غاضبة عليهم، ففى ٢٥ أكتوبر فاز المحافظون بالانتخابات العامة بأغلبية بسيطة.

وبعد شهور قليلة من إخلاء جزيرة عبدان، فإن أشيسون صدم إفيلين شوكبرف بقوله: "عليك أن تعيش فى العالم على ما هو عليه"[٢١]. والأحداث التى كانت تجرى فى إيران خلال الشهور القليلة الماضية قد ألمحت إلى ما سيكون عليه المستقبل.

فلم تعد بريطانيا تتوقع العمل لا مع الشيوخ المراعين لرغباتها، الممتنين لمنحهم السيادة، أو المحافظين والسياسيين المذعنين الذين يرتدون

عباءات أو طرابيش، الذين يمكن تخويفهم بالتهديد بأن تقوم السفن الحربية بتجاوز الخطوط معهم. فالآن أصبحت بريطانيا تواجه مجموعة من المتمتعين بشعبية الساخطين على الاستعمار. وقد كان مصدق من هذا النوع الجديد من الرجال، فقد كان يرتدى بيجامة خضراء عندما استقبل السير فرانسيس شيبرد (Francis Shepherd)، السفير البريطانى فى طهران. وهذه الإهانة، بجانب عادته بأن يقوم بالانتشاء أمام الجماهير، أقنعت شبرد بأن هذا الإيرانى مجنون، وهو الوصف الذى قبلته كل من الحكومة والصحافة البريطانية.

وقد كان هناك معنى مؤلم آخر كامن فى الملاحظة التى أبداها أشيسون. فخلال الأزمة الإيرانية، فإن الحكومة البريطانية اضطرت إلى السعى للحصول على المشورة الأمريكية، وفى بعض الأحيان كانت هذه المشورة تعطَى لها حتى بدون أن تطلبها. وأغلب هذه النصائح كانت تأتى من جورج ماكجى (George Mcghee)، وهو اختصاصى سابق فى جيولوجيا البترول، كان قد خدم لمدة ثلاث سنوات كجاسوس متجول لوزارة الخارجية فى الشرق الأوسط. وباعتباره أكاديميا سابقًا مناصرًا لرودس (Rhodes) فإن ماكجى كان يسهم باعتقاده الراسخ فى "رسالة الرجل الأبيض"، ولذلك فإنه كان أكثر تحمسًا تجاه المأزق الحالى لبريطانيا أكثر من الدبلوماسيين الأمريكيين الآخرين. ومع ذلك فإنه كان مشتبها به خطأ أن له يدا فى المصالح البترولية الأمريكية، وقد حذر وزير الخزانة موريسون بأن شباب ماكجى، الذى ترعرع فى تكساس وينتمى لأسلاف أيرلنديين، تجعل منه شخصا لا يجب الإنصات لأقواله عندما تتعلق بالمصالح البريطانية [٢٢].

وكانت التوترات فيما بين إنجلترا وأمريكا قوية بنفس القدر الذى كانت عليه أثناء الحرب، واتجهت إلى ما هو أسوأ عندما تم تعيين جون فوستر دالاس (John Foster Dulles) كوزير للخارجية الأمريكية فى عام ١٩٥٣م.

فدالاس مثله مثل الرئيس كوليدج (Coolidge)، وهو بيورتانى آخر وصل إلى المنصب الرئاسى، كان له سلوك مثل "من فطم على المخلل"، وحماسته ضد الشيوعية كانت لا يساويها فى القوة إلا كراهيته للاستعمار. والسفير البريطانى فى واشنطن، السير روجر ماكينز (Sir Roger Makins)، وصف الأخير بأن "لديه مشاعر كامنة حول الاستعمار، وهو ما كان شائعا لدى الكثير من الأمريكيين، تخرج أحيانا منه وكأنها حمم خارجة من بركان هائج".

والشيء الكامن خلف هذه الانفجارات كان هو الخوف من أن تتعرض الولايات المتحدة لتشويه صورتها بسبب رذائل شريكتها فى الشرق الأوسط. وإذا كانت أمريكا قادرة على أن تسير وفق ما ترى فى الحرب الباردة، فإنها لا تستطيع تحمل الارتباط الشديد مع القوة الآخذة فى الأفول والتى، كما أثبت رد فعل الجماهير على الأزمة الإيرانية، تميل أن ترى العالم من على سطح بارجة حربية أو من على منصة إطلاق فى مركبة عسكرية. وقد أدرك نائب الرئيس ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) هذا الخطر عندما قام بجولة فى آسيا خلال ربيع عام ١٩٥٣م. فقد عاد إلى واشنطن وهو مقتنع أن "البلدان الاستعمارية الأوربية الثلاثة ترقد على سرير الموت". وعلى أمريكا أن تبعد نفسها عن هذه القوى التى لاتزال متمسكة بأسلوبها الإقطاعى.

وبشكل موح، آخذا فى اعتباره المسار اللاحق لتورط أمريكا فى جنوب شرق آسيا، وفى عبارة ساخرة، كتب نيكسون عن محاولته التودد إلى القوميين:

"الكثير من الناس فى هذه البلدان لا يعرفون عن أمريكا إلا أنها أمة ذات قوة هائلة، صورتها كل من الدعاية الشيوعية والتكبر الأوربى على أنها قاسية وجشعة. وقد قمت بطمأنتهم بأننا لسنا قوة استعمارية ولا نوافق على استمرار الاستعمار من جانب حلفائنا الأوربيين" (٢٣).

وقد كانت السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط وأسيا في سبيلها قبلا لأن تغير اتجاهها. فمنذ عام ١٩٤٧م، فإن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت في رعاية تركيا، التي التحقت بالناتو في عام ١٩٥١م وقدمت للقوات الجوية الأمريكية مطارات تضعها تحت تصرفها من أجل القيام بضربات نووية ضد روسيا [٢٤]. وقد رفض الأمريكيون اقتراحا بريطانيا بوضع الجيش التركي تحت القيادة البريطانية للشرق الأوسط أثناء مؤتمر التخطيط في إستانبول في عام ١٩٥١م [٢٥]. ومنذ ذلك الحين كان هدف السياسة الأمريكية هو تملق الدول المستقلة في الشرق الأوسط، بدلا من إجبارها على الانضمام للمعسكر الغربي. وأي تصرف قد يتم تفسيره على أنه محاولة لدعم السيادة البريطانية أوزيادتها فإنه سوف يكون معاديًا للولايات المتحدة. فالتعاون مع بريطانيا كان نفعيا، ولكن بصراحة فإن التعايش سوف يؤدي إلى تشكك أمريكا وخسارة الأصدقاء.

أدى الغزو الأمريكي لمنطقة كانت بريطانيا حتى ذلك الوقت تتمتع فيها باحتكار القوة إلى حالة استياء وإلى مقاومته، في البداية. وقرابة انتهاء الحرب العالمية فإن ابن سعود ملك المملكة العربية السعودية (واحتياطيات البترول التي لديه) قد تم إغراؤه للدخول في الفلك الأمريكي عن طريق تقديم قرض له يبلغ خمسة وعشرين مليون دولار، ودفع عشرة ملايين دولار مقابل تأجير مطار في الظهران. وقد كان هذا بمثابة انتهاك لحمى بريطانيا، وفي عام ١٩٤٣م فإن وزارة الهند قد لعنت إقامة قنصلية أمريكية في البحرين [٢٦]. وفي غضون عشر سنوات كان من الصعب إيقاف المتطفلين، لأنه وقت الضرورة، فإنهم قادرون على تحرير شيكات كبيرة، وهي إحدى المزايا التي كانت تفتقر إليها بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. فبحلول عام ١٩٦٠م كانت الولايات المتحدة قد قامت بتوزيع ٢٧٠٢ مليون دولار على دول شرق أوسطية.

ففى نفس الوقت الذى كانت فيه أمريكا تقوم باغتصاب مكانة بريطانيا فى المنطقة، فإنها كانت تشعر أن عليها واجب كبح جماح حليفتها. فبعد أزمة إيران، عمل دبلوماسيو وزارة الخارجية كوسطاء فيما بين بريطانيا ومصدق وأثناء عملية تبادل الأدوار، وجدوا أنه كان متقلبا بقدر ما كان أعداؤه عنيدين. فعناد الحكومة البريطانية ربما كان يعتمد على اعتقادها أنها بصدد شكل جديد من دبلوماسية سفن المدفعية.

وفى أثناء عام ١٩٥٢م كان جهاز MI6 مشغولا بوضع مؤامرة للإطاحة بمصدق بمساعدة المعارضين الإيرانيين. وهذا الأسلوب فى الهجوم كان معروفا باسم "عملية الحذاء" (operation Boot)، وكان من بين أولئك الذين قاموا برسم هذه المؤامرة كيرمت روزفلت:.(Kermit Roosevelt)، حفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) وأحد موظفى وكالة المخابرات المركزية مع مسئولى الشرق الأوسط.

وفى بداية عام ١٩٥٣م، فإن الإدارة الجديدة لأيزنهاور (Eisenhower) قامت بتولى عملية الحذاء وإعادة تسميتها أيجاكس Ajax. وقد تعرض محاربو الحرب الباردة الأمريكيون لضربة قوية بسبب خسارة تشيكوسلوفاكيا نتيجة انقلاب عسكرى روسى تم فى مارس من عام ١٩٤٨م وهو ما حدث فى الصين أيضا بعد عام. وقد كان ينظر لإيران على أنها مهمة فى الدعاية السوفيتية، وقد أظهر مصدق نفسه على أنه متقلب بدرجة لا تمكنه من القيام بتحالف ثابت. والنتيجة كانت هى تطبيق خطة أجياكس تحت الإشراف القوى من كيرمت روزفلت. وفى أغسطس من عام ١٩٥٣م، فإن الانتفاضة التى تمت فى طهران تم تمويلها وتوجيهها بواسطة عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وبمساعدة بريطانية. وتمت الإطاحة بمصدق واستبداله بالشاه محمد رضا بهلوى الذى كان قد تم إقصاؤه، وهو ابن أحد الضباط السابقين فى

قوات القوزاق الذى ساعدته بريطانيا فى الوصول إلى عرش الطاووس قبل ثلاثين عاما. وبذلك تم انتزاع إيران لصالح الغرب، وقام الشاه محمد رضا بهلوى بخدمة مسانديه من الأمريكيين بإخلاص حتى عام ١٩٧٩م. وقد تمت الإطاحة به، أيضا، بواسطة آية الله الخومينى، الذى كان قد كتب فيما يتعلق بأحداث عام ١٩٥٣م أن إيران كانت "عبدًا لبريطانيا فى يوم ما، ثم أصبحت عبدًا لأمريكا فى اليوم التالي" [٢٧]. وقد كانت هذه مقارنة مثيرة للاستياء، وهو ما كان صانعو السياسة الأمريكية يجاهدون من أجل تجنبه. وفى حين كان السير أنتونى إيدن، وزير الخارجية الجديد، سعيدًا للنتائج التى حققتها الخطة "أجاكس"، لكنه كان يشعر بالغيرة لما قد حصلت عليه أمريكا نتيجة انتصارها [٢٨].

ففى حين أنه كان فى سبيله للقيام بطرح المسألة الإيرانية أمام الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٥١م، فإن مصدقًا توقف قليلا فى القاهرة. وقد وجد فى انتظاره ترحيبا حارًا، كانت هناك أعمال تمرد ضد بريطانيا، وقام بالاجتماع برئيس الوزراء المصرى، مصطفى النحاس، وأعلن "أن إيران ومصر المتحدتين معا سوف تدمران الاستعمار البريطاني".

وقد كان النحاس مدركا بتضعضع أسس القوة البريطانية منذ يناير من عام ١٩٥٠، عندما وصل حزب الوفد إلى السلطة بما يزيد على نصف الأصوات الشعبية. وقد كانت خطته هى نفس الخطة التى كانت لديه خلال العشرينيات والثلاثينيات، وهى إنهاء الوجود العسكرى البريطانى فى مصر واستعادة السيادة المصرية على السودان. والحرب المدمرة التى تمت خلال عامى ١٩٤٨،١٩٤٩ ضد إسرائيل قد أدت إلى زيادة سخط مصر على بريطانيا، والتى كانت تتهمها بأنها قد حالت دون حصول الجيش المصرى على الأسلحة الحديثة. فبقدر ما كانت بريطانيا مهتمة، فقد منحت مصر شيئًا تافهًا وتم تجهيزها للحرب بما أطلق عليه بيفن "قمامة" [٢٩].

وقد كانت قاعدة منطقة القناة هى مصدر الصراع الرئيسى. فأسلاكها الشائكة ومبانيها الخراسانية وطرقها المعبدة بالأسلفت كانت ترمز لخضوع مصر لقوة أجنبية.

تلك القوة التى كانت تعتقد بأن لها الحق فى التدخل فى الشئون المصرية متى رأت ذلك، وقد قامت بذلك فعلاً فى عام ١٩٤٢م. بالإضافة إلى أنه بالنسبة لمن يتحكمون فى مصيره فإن المصرى كان بالنسبة لهم يعيش فى حياة منحطة. وأثناء المحادثات التى جرت مع كبار الدبلوماسيين والقادة البريطانيين فى عام ١٩٥٠م، فإن جورج ماكجى قد لمس وجود "التنازلات التقليدية" للمصريين، الذين كانوا يتحدثون بشكل عام مثل "الغجر" [٣٠]. وقد كان الاحتقار يقابله الحقد، وقد ذكر سفير أمريكى آخر فى نهاية عام ١٩٥١م أن، "البغض ضدهم، أى البريطانيين، كان عامًا وشديدًا. فكل من كان فى البلاد يشعر به" [٣١].

وقد قدم ماكجى وزملاؤه إلى مصر ورحلوا كجزء من جهود دبلوماسية مكثفة كانت تهدف منعها من أن تنزلق تجاه روسيا. ولكن الجهود التى كانت تهدف لإقناع النحاس وباقى أفراد الحكومة المصرية قد أخفقت لأنهم أصروا على أن الإمبريالية البريطانية، وليست الشيوعية، هى العدو الحقيقى لمصر. وقد كانت أمريكا متعاطفة مع ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع تجاهل الأهمية الإستراتيجية لمنطقة القناة والمطارات الموجودة بها، والتى كانت لا تزال مخصصة من أجل القيام بهجوم نووى على روسيا. وقد كانت معاهدة ١٩٣٦م الإنجليزية المصرية تسمح لبريطانيا بترك حامية تبلغ ١٠٠٠٠ فرد، ولكن بحلول عام ١٩٥٠م، فإن القاعدة كانت تضم ٣٨٠٠٠ من الجنود البريطانيين، بمن فيهم ٨٠٠٠ جندى من المشاة مجلوبين من موريشيوس ويعملون كحراس، وكانت بها مخازن تبلغ قيمتها ٢٧٠ مليون

جنيه إسترليني. ومن وجهة النظر الأمريكية، فإنه كان على البريطانيين الانسحاب، وأن يتركوا التجهيزات الموجودة في القاعدة سليمة وجاهزة للدخول في الحرب في أول لحظة لظهور بادرة أزمة دولية، وهو الاقتراح الذي يتوجب على رؤساء الأركان أن يقبلوه. وبذلك يمكن إزالة الخلاف الإنجليزي المصري، ويمكن دعوة مصر لتنضم مع أمريكا في حلف دفاعي إقليمي مناهض للسوفييت (٣١). وقد استمرت المفاوضات على هذه النقاط من منتصف عام ١٩٥٠م وحتى خريف عام ١٩٥١م في أجواء مليئة بالإحباط والحدة.

وفي أكتوبر من عام ١٩٥١م، قام النحاس بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦م من طرف واحد، وهو ما أنهى من الناحية النظرية الاحتلال البريطاني لمنطقة قناة السويس. وقد كان هذا التوقيت خطيرًا ومستفزًا، فقد كان آخر الفنيين البريطانيين قد ترك عبدان منذ أربعة أيام مضت، وكانت حملة الانتخابات العامة البريطانية قد بدأت منذ ثلاثة أيام. وفي غضون أسابيع قليلة، ترك ٧٠٠٠٠ من العمال المصريين المهمين منطقة القناة، وبدأت حملة من الإرهاب صاحبها دعم حكومي خفي. ورئيس الوزراء الجديد، تشرشل، استشاط غضبا لذلك. وفي منتصف المناقشات التي دارت حول مصر في ١٥ ديسمبر، فإنه قام عن كرسيه وتقدم إلى إيدن وهو موجه قبضته. وتمتم قائلاً "أخبرهم، أي المصريين، أننا لن نصبر على وقاحتهم، وأننا سوف ندفع باليهود عليهم ونقودهم إلى أماكن لم يتخيلوا أن يصلوا إليها" (٣٢).

ثم بعد ذلك جلس واستدعى بانفعال زيارته السابقة للقاهرة في الأيام التي كان فيها المصريون يفهمون مكانهم الحقيقي في الخطط الموضوعة.

وقد تمت ترجمة غضب تشرشل إلى خطة تهدف إلى استعادة النظام القديم في مصر. ومع نهاية شهر ديسمبر، فإن الإستراتيجيين في الحكومة

البريطانية كانوا قد أعدوا العملية روديو (Rodeo)، وهى نسخة متكررة من خطة احتلال مصر فى عام ١٨٨٢م. فالقوات الموجودة فى منطقة القناة، معززة بوحدات من مالطة وليبيا وقبرص، سوف تقوم باحتلال القاهرة، ودلتا نهر النيل والإسكندرية، والأخيرة سوف يتم الهجوم عليها من البحر. والقوات البرية مع الطائرات يمكن أن يتم حشدها فى غضون ست وثلاثين ساعة، والسفن الحربية فى غضون اثنتين وسبعين ساعة وأهداف الغزو العسكرى يمكن أن تتحقق فى خلال يوم واحد [٣٣].

وفى نفس الوقت تم وضع منقطة القناة تحت الحكم العسكرى، وهو ما يعنى نزع سلاح كل أفراد الشرطة المصرية الموجودة فى نطاق المنطقة. وفى ٢٥ يناير من عام ١٩٥٢م، رفضت إحدى الكتائب فى الإسماعيلية أن تتخلى عن أسلحتها، وتمترسوا فى المبنى الخاص بهم، وتم طردهم فقط بعد أن تم ضرب حصار عليهم تم، قتل خمسين فردًا منهم فيه وجرح المئات. وقد انتشى المحافظون بغرور قائلين على الأقل فإن "غمغمة البنادق" قد سُمعت، وقد "حان الوقت ليتعلموا فيه الدرس". فقد كان ردهم، طبقا لجريدة الإكسبرس، أنهم أعلنوا أن بريطانيا الآن "أكدت قدرها الاستعمارى بقوة" [٣٤]. وقد رد المصريون بتأكيد متساوى فى الدموية على قدرهم، ففى غضون ثلاثة أيام، قامت العصابات فى القاهرة باقتحام قلاع سادتهم البريطانيين فيها وقاموا بحرق نادى تورف (Turf)، وفندق شبرد وهدمها، ومختلف المبانى التجارية البريطانية الأخرى، وقاموا بقتل من فيهما.

وبهذا فإن منطقة القناة أصبحت ساحة للمعارك، ولم يعد فى الإمكان الاعتماد عليها فى حالة الطوارئ. ومثلها مثل الحامية البريطانية، فإن الطبقة الحاكمة القديمة فى مصر قد أصبح ظهرهما إلى الحائط. حيث قام الملك فاروق بإقالة النحاس وحكومته فورا بعد أعمال الشغب، وقد تمت الإطاحة به

هو شخصيًا فى يوليو عام ١٩٥٢م بواسطة مجموعة من ضباط القوات المسلحة يقودهم اللواء محمد نجيب. فقد كانت الملكية المترهلة تحاول المراوغة من أجل استمرار وجودها المترف فى مختلف أنحاء البحر المتوسط. والحكام الجدد لمصر كانوا جنودا اعتبروا أنفسهم، وتابعوا فى ذلك ما سبق وقام به عرابى باشا، أنهم منقذو الأمة، وأن قدرهم أن يقوموا بقيادتها، والحفاظ على شرفها والدفاع عن سلامتها. فقد كانوا مثاليين يرغبون فى القيام بثورة اجتماعية، وقد كانت أفكارهم مزيجًا من الأخلاقيات الإسلامية ومبادئ الوحدة العربية والاشتراكية.

وقد كان رد فعل بريطانيا على ثورة يوليو مرتبكًا. فالسفارة لم يكن لديها أى انذارات حول حدوث مشكلة، وكان السفير فى اجازة. وبعد خمسة أيام من الانقلاب العسكرى، فإن القائم بأعمال السفير اقترح أن بريطانيا يمكن لها أن تتحكم فى مسار الأحداث من خلال "إظهار موقف حاسم وأن تقوم على الفور بإظهار قوتها فى اللحظة المناسبة" [٣٥]. وقد بدا فى الصورة أشباح كل من كرومر واللنبى وملنر.

وقد كانت المخابرات الأمريكية المركزية لديها معلومات أفضل. فقد كانت تدبر مؤامرة ضد فاروق، ولكنها كانت غير قلقة، فقد كانت تعلم منذ فترة طويلة أن هناك حاجة لإجراء تغيير اجتماعى جذرى داخل مصر. بالإضافة أن الأمريكان كان لديهم سبب وجيه للاعتداد بأن الثوار، وقد كان الكولونيل عبد الناصر هو الأكثر تأثيرا بينهم، قد ينحازون إلى الغرب إذا تم التعامل معهم بعناية. وقد ظلت بريطانيا هى العقبة الرئيسة فى سبيل تحقيق مثل هذا الإدراك. وفى وقت لاحق بعد أن تم تعيين دالاس فى منصب وزير الخارجية، وصف الوجود البريطانى على التراب المصرى بأنه "حاجز نفسي" يمنع مصر من الانضمام لحلف معاد للسوفييت [٣٦]. بالإضافة أن

منطقة القناة لم تعد هى الفيل الأبيض الإستراتيجى. فالحوادث التـى تمـت خلال العامين السابقين قد أظهرت إلى أى مدى هى عرضة لأعمال التخريب من قبل المصريين الساخطين، والتقدم الحديث فى الأسلحة النووية الحرارية (قامت أمريكا بتفجير أول قنبلة هيدروجينية فى مارس عـام ١٩٥٤م) قـد جعلت أن القواعد العسكرية فى المستقبل يجب أن تكون صغيرة ومتفرقـة. ولأن المطارات الخاضعة للقوات الجوية الأمريكية فى تركيـا كانـت الآن جاهزة للعمل، جعل المطارات البريطانية، ومثيلتها المصرية غير مهمة.

ولذلك لم تكن هناك حاجة لاستمرار الوجود البريطانى فى مصر. فقد كانت معاهدة ١٩٣٦م الإنجليزية البريطانية تنتهى مدتها فى عـام ١٩٥٦م، وفى يوليو من عام ١٩٥٤م تم الاتفاق على الترتيبات الخاصة بالانـسحاب السلمى من القاعدة خلال العامين التاليين. وقد كانت هناك أيضا تسوية للنزاع القديم حول السودان، حيث قامت بريطانيا بعقد تحالف ماكر مـع القـوميين المحليين الذين كانوا يعارضون أى استعادة للسيادة المصرية على الـسودان. وفى الأول من يناير عام ١٩٥٦م، أصبح السودان دولة مستقلة.

ومنذ سنوات قليلة مضت، علمت من أحد الذين كانوا من بـين آخـر الجنود البريطانيين الذين رحلوا من منطقة القناة أنه بمجرد أن ابتعد قاربـه عن رصيف الميناء فى بورسعيد، فإن أحد الشباب المصريين قـام بخـرق ردائه وقام بنثر المياه على الجنود الموجودين أسفله. وقد انتبه لـه أحـدهم وأطلق رصاصة عليه. وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لا، فإنها تلخـص على نحو رمزى الثلاثين عامًا الأخيرة من الوجود البريطانى فى مصر.

(٤)

اضرب مؤخراتهم

حرب السويس وما بعدها

إن عملية إعادة ترتيب العلاقات البريطانية مع مصر كانت أحد الإنجازات التى تعود إلى السير أنتونى إيدن، وزير الخارجية، بالإضافة إلى سمعته كدبلوماسى بارع. وقد كان لديه اعتقاد جازم بقدراته وكان طموحا بشكل كبير، ولكن يبدو أنه كان مقدرًا له أن يخدم فى الصف الثانى خلف الشخصيات الأقوى منه. وقد كان شبيها بتشامبرلين، الذى كان يصر على أن يقوم بإجراء المفاوضات المهمة بنفسه، وهى العادة التى كانت لدى تشرشل أيضا، وهو ما زاد من ضيق إيدن. وقد كان هو الوريث الظاهر لمنصب رئيس الوزراء، ولكن قلة صبره كانت تزداد كلما تماسك الرجل العجوز، متجاهلاً الضربتين اللتين تلقاهما. ولم يخف إيدن تململه، وفى إحدى المرات وصف رئيسه بأنه "مخبول". وأخيرا خلفه فى المنصب فى أبريل من عام ١٩٥٥ عندما استقال تشرشل، ومعه بدأت فرصة الدخول فى مرحلة متألقة لبريطانيا فى الشرق الأوسط.

وربما كان كل من الأذكياء والأغبياء فى وزارة الخارجية يكتبون أن بريطانيا هى أحد الخاسرين فى المنطقة، ولكن إيدن كان متأكدا من أن هناك إمكانية لاستعادة مكانة بريطانيا وتحسينها. فبعد كل شيء ما زالت بريطانيا تسيطر على قواعد لها فى مالطا وليبيا وقبرص وعدن والخليج الفارسى

والعراق، الذى كان ملكها الهاشمى، فيصل الثانى، مثله مثل ابن عمه الملـك حسين ملك الأردن، كانوا أصدقاء لبريطانيا. وبالبناء على هذا الأساس، فإن إيدن اعتقد أنه يستطيع، مع التعاون الأمريكى، بناء تحالف معاد للـسوفييت متماسك بنفس تماسك حلف الناتو، وهو ما سوف يؤدى إلى تقويـة المكانـة الإستراتيجية لبريطانيا فى الشرق الأوسط ويعمل كحاجز يحمى آبار البترول فيه.

وفى الفترة ما بين مارس وأكتوبر من عام ١٩٥٥م، فإن كلاً من تركيا والعراق وإيران وباكستان قد تم حثهم للانضمام إلى حلف بغداد.

وقد احتفظت بريطانيا بالمطارات العراقية، وقدم لها وعدا بتزويـدها بالرجال اللازمين لصد أى عدوان روسى. وقد كان ذلك يتضمن لواءً مدرعا موزعًا على مناطق مختلفة فى الشرق الأوسط، بجانب التعزيزات القادمة من دول الكومنولث، واحتياطى الأسلحة النووية التى يمكن أن تعوض أى عـدم توازن فى عدد الجنود [١].

وقد كان حلف بغداد يصيب عبد الناصر بالمرارة، الذى شغل منصب رئيس الوزراء المصرى ورئيس مصر بدءا من عام ١٩٥٦م. وقـد لعـن اتفاقية الحلف باعتبارها قناعًا تخفى وراءه بريطانيـا محاولتهـا لاسـتعادة سيادتها القديمة وتقسيم العالم العربى. وقد رد عليها بحملة دعاية شرسة من خلال الراديو الذى يبث لجميع أنحاء الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، وخاطب من خلاله الجماهير وأوضح خطط بريطانيا الكاذبة وجواسيسها. وقد كانـت رسالة عبد الناصر بسيطة وشاملة، فمصر هى رأس الحربة فـى القوميـة الثورية، وهو، باعتباره صلاح الدين العصر الحديث، مقدرًا لـه أن يقـوم بتوحيد كل الشعوب العربية، وأن يقوم بتدمير أعدائهم. وبالنسبة للملايين من العرب الذين كانوا يسمعون أو يقرأون كلماته فإنه أصـبح بمثابـة المـسيح

المنقذ، وهو المحرر الذى سوف يحررهم من الماضى الذى كانوا فيه منقسمين ومستعبدين.

وقد كانت إذاعة القاهرة تتحدث بصخب، والشخصية التى كانت تقف وراءها أيقظت ذكريات مريرة. ومن وجهة نظر إيدن فإن عبد الناصر كان نسخة من موسوليني. وهو مثل نظيره الإيطالى فإنه كان وغدًا وضيعًا ومصابًا بجنون العظمة، فقد كان يطمح لأن يكون "قيصر على المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط"[٢]. وقد كان ماكمليان، مثله مثل إيدن، معارضًا للتهدئة، وقد اعتبر ناصر بمثابة "موسوليني أفريقيا"[٣].

وكانت هذه المقارنات الحدسية بمثابة مؤشر على سلوك إيدن اللاحق. فهو ومعه غيره ممن شاركوه قلقه كانوا يقنعون أنفسهم أنهم دخلوا فى اختبار للقوة مع رجل مستبد ومتفجر وقاس مثل موسوليني. وإذا كان عبد الناصر هو ذلك الرجل الذى ظنه إيدن، وأحداث الثلاثينيات كانت على وشك أن تكرر نفسها، ففى هذه الحالة فإن الانتظار سوف يكون بمثابة انتحار. وعرض تنازلات على عبد الناصر سوف يشجعه على طلب المزيد، وسيعلى من مكانته فى عيون العالم العربى وسوف يزيد من الضعف البريطاني.

وفى نهاية عام ١٩٥٥م، كان إيدن ومستشاروه يؤمنون بأنهم بصدد شخص حامل لفيرس يمكن أن يصيب الشرق الأوسط كاملا، ولكنهم كانوا لا يملكون علاجًا له. وأيًا كان ما تتطلبه مواجهة هذا الوضع فإنه لم تكن هناك فرصة للقيام بأى شيء بدون الموافقة الأمريكية وربما المساعدة الأمريكية أيضا. وهذا سوف يتحقق إذا انحاز عبد الناصر بمصر جهة روسيا، ولكن سوف يكون قد فات الأوان لفعل شيء. وقد اكتشف عملاء جهاز MI6 فى القاهرة أنه بدأ يميل شيئا فشيئًا تجاه الاتحاد السوفيتى، وقد تأكد ذلك من خلال القرار الذى اتخذه فى سبتمبر بأن يقوم باستيراد أسلحة من

تشيكوسلوفاكيا [٤]. والإشارات إلى أن مصر وشريكتها سوريا قد بدأت في الاندفاع نحو الاتحاد السوفيتي قد رفعت من احتمالات أن يخسرهما الغرب، وربما أيضا الدول الأخرى الصديقة في الشرق الأوسط.

وفي أثناء شتاء ١٩٥٥،١٩٥٦م، فإن الحكومة كان أمامها كم هائل من التقارير التي تُجمع على أن بريطانيا قد فقدت زمام المبادرة في الشرق الأوسط، وأنها في طريقها لتفقد الجزء المتبقي لها من نفوذها هناك. فالأردن ما زالت حتى الآن حليفا مخلصًا، وبدأت وكأنها هدف للدعاية والهجوم الناصري. وفي الأول من مارس، قام الملك حسين بعزل اللواء جلوب (Glubb)، قائد الفيلق العربي، الذي طالما وصفته إذاعة القاهرة بأنه القوة الكامنة خلف العرش الهاشمي، وأنه عميل ماكر للإمبريالية البريطانية. وقد هبت عاصفة أخرى بعد ذلك بأيام قليلة، عندما تعرض وزير الخارجية سيلوين للويد (Selwyn Lloyd) للسب والضرب من الجماهير أثناء زيارته لما يفترض أنها دولة صديقة أخرى ألا وهي البحرين.

وقد اعترف إيدن في الثالث من مارس قائلاً "نحن نتعرض لحالة فوضى"، وأضاف "نحن في أحسن الأحوال نتعرض لحالة فوضى". وقد ازداد الذعر والغضب أيضا خلال الأيام القليلة التالية. فقد تصور رؤساء الأركان أن الأردن أصبح وشيكًا، وهو ما من شأنه أن يحرم بريطانيا من طريق جوي مفتوح تجاه قواعدها في العراق. والمصائب التي حدثت لسيلوين للويد في البحرين أغضبت إيدن ورفاقه، الذين أرادوا وضع بعض القوات على الشاطئ "لإظهار أننا ما زلنا أحياء وقادرين على الرفس"[٥]. والمشكلة كانت أنه لم يكن هناك من يقوم بالرفس. ومع نهاية الشهر، كان الغضب على وشك الانفلات من عقاله، أو أن الوضع بدا كذلك في أحد التعليقات التي قالها أحد عملاء المخابرات المركزية الأمريكية وهو كنيدي يونج (Kennedy Young)، مدير

جهاز MI6. فبريطانيا، كما يزعم يونج، "إن بريطانيا الآن جاهزة لأن تقـوم بآخر معركة لها... وبدون شك وأيًا كانت التكاليف، فإننا سوف ننتصر"(٦).

وقد كان هذا التنبؤ ولم يزل غامضًا. وقد يكون يونج يشير إلى عملية الكفاح، وهى خطة تم وضعها من أجل تجريد ناصر من أى حليف من خلال الإطاحة بالرئيس السورى شكرى القوتلى، حيث سوف يتم وضع بلاده تحت حماية العراق الصديقة (٧). لم يتم كشف هذه المؤامرة التى كانـت تتـضمن بعض المعارضين المحليين فى دمشق إلا فى نهاية أكتـوبر، ولكـن سـواء بريطانيا هى المحرض عليها أم لا فإن ذلك يظل غير واضح لأن الملفـات المرتبطة بها لا تزال مغلقة. وفى ذلك الوقت فـإن المخـابرات المـصرية اعتقدت أن المخابرات المركزية الأمريكية لديها شيء ما تقوم به فى سوريا، وأن هناك لواء بريطانيًا، كان فى ذلك الوقت فى قبرص، قد بدأ يتم إعـداده للهجوم ضد سوريا (٨).

وتشير كلمات يونج أن الحكومة البريطانية لديها شيء ما مخيف تخفيه أكثر من مجرد تكرار نفس طريقة الانقلاب التى استخدمت للإطاحة بمصدق قبل عامين. وقد كان يونج يضع فى ذهنه عملية كورداج (Cordage)، وهى استجابة على تقارير جهاز MI6 بأن هناك هجوما إسـرائيليا وشـيكا علـى الأردن حليفة بريطانيا. وقد تضمنت عملية كورداج تـدمير القـوة الجويـة الإسرائيلية وشن غارات بقوات الصاعقة وإقامة حصار بحرى، وهـو مـا سوف يكون بمثابة إظهار واضح وشديد لتصميم بريطانيـا علـى رعايـة أصدقائها فى الشرق الأوسط (٩).

وقد كان هناك احتمال ثالث قائم وهو أن الحكومة البريطانيـة كانـت بصدد الإعداد لاستخدام القوة القهرية ضد مصر فى المستقبل القريب. فقـد كان مزاج الوزراء فى بداية شهر مارس غاضبًا، مثلما كان الوضع بالنسبة

لأعضاء البرلمان عن الحزب الليبرالى أثناء المرحلة الأولى من الأزمة المصرية فى عام ١٨٨٢ عندما كانوا، فى حمية غضبهم، لا يريدون إلا قتل شخص معين (١٠). وقد كان عبد الناصر هو الهدف الواضح، ووفقا لما ذكره العميل السابق فى جهاز MI6 بيتر ريت (Peter Wright)، كانت هناك مخططات موضوعة لقتله (١١). وقد علمت المخابرات المركزية الأمريكية بذلك فى نهاية شهر فبراير، وكانت السلطات المصرية تعتقد أن هناك على الأقل ثلاثة قتلة مستأجرين بريطانيين وواحدًا ألمانيًا قد تم إرسالهم إلى القاهرة، ولكنهم جميعًا أخطأوا هدفهم (١٢). وقد اكتشفت تفاصيل خطة بريطانية سرية أخرى فى بداية شهر سبتمبر، بعد اعتقال عدد من المصريين الذين صدرت لهم أوامر بإثارة الاضطرابات فى المدن الكبرى (١٣). وقد افترضت الحكومة المصرية أن إثارة أعمال الشغب كانت قد تم استخدامها من البريطانيين كذريعة للقيام بتدخل عسكرى كما حدث فى عام ١٨٨٢م.

وهذه المعلومات المتناثرة أشارت أنه بداية من مارس عام ١٩٥٦م، فإن الحكومة كانت مصرة على تدبير خطة لحسم الخلاف مع عبد الناصر. ولكن كيف يمكن تحقيق ذلك، هذا ما سيظل مبهما حتى يتم الكشف عن الوثائق الرسمية كافة. والمعروف حتى الآن يشير بقوة أن المخابرات البريطانية قد تلقت أوامر بخلق أوضاع مماثلة لتلك التى كانت موجودة عام ١٨٨٢م، عندما فقدت الحكومة المصرية القدرة على السيطرة وخرجت الاضطرابات الداخلية عن سيطرتها. ومثل هذه الظروف، بالطبع، تمثل ذريعة ممتازة للتدخل العسكرى وتنصيب إدارة تكون بمثابة الدمية، وهذا ما كان يريده إيدن بالفعل.

إلا أن هناك اقتراحًا قدم بأن الإطاحة بعبد الناصر هى عملية شديدة الخطورة. ولكن إيدن كان مستعدا لقبول المخاطرة، وقد كان هناك اطمئنان من نفس الشيء، وإن كان على نطاق أصغر، كان قد نجح فى إيران. ومسألة وجوب إزاحة عبد الناصر ستكون قضية لا جدال فيها إن كانت بريطانيا لا تزال تحتفظ بمكانتها وأصدقائها فى الشرق الأوسط. ومن وجهة نظر إيدن، وبدرجة ما ماكميلان أيضا، فإن القضية أصبحت ثأرًا شخصيًا وقد اتخذ قرارًا بالسعى لوضع خطط لاغتيال عبد الناصر أيضا.

ومن الناحية السياسية، فإن إيدن قد أصبح يقف على أرض غير صلبة منذ بداية العام، عندما قام أجزاء من حزبه وجريدة التليجراف بالمطالبة بما أسموه "حكومة حازمة". والشكاوى التى نتجت عن هذه الخطابات قد تفسر جزئيا الغضب الذى انفجر أثناء شهر مارس، والإلحاح الذى تلاها من ضرورة عمل شيء مع عبد الناصر. فقد كان أيضا إيدن بمثابة كبش فداء للإذلال الذى عانت منه إيران ومصر خلال الأعوام الستة الماضية.

لقد كان خسارة الإمبراطورية البريطانية غير الرسمية فى الشرق الأوسط له وقع على النفس أشد من الرحيل من الهند. على الأقل فإن بريطانيا قد غادرت الهند بكرامة، وبإحساس أنها قامت بإنجاز، فى حين أن التخلى عن المجالات القديمة للنفوذ فى إيران ومصر كان بمثابة ارتداد فى مواجهة الإهانات والنقد اللاذع. فقد جرح الكبرياء الوطنى، فقد كانت قدرة بريطانيا على الهيمنة على الشرق الأوسط بمثابة مقياس لمكانتها فى العالم. والآن فقد تم طردها وذلها وإجبارها على أن تذعن لرغبات الولايات المتحدة التى بدت كأنها قد اغتصبت مكانتها القديمة.

ومن المستحيل لنا أن نطالع الصحف خلال النصف الأول من عام ١٩٥٦م، بدون أن نشعر أن بريطانيا كانت تشعر بنفسها تغرق، وأنها

أصبحت تحت رحمة الجميع فى كل مكان مع ازدياد المظالم الموجهة ضدها. فقد كانت العناوين الرئيسية لها تعلن عن عمليات القتل العشوائى للجنود، وفى بعض الأحيان زوجاتهم بواسطة (EOKA) (المنظمة الوطنية للمقاتلين القبارصة) التى كانت تطالب بالاستقلال والوحدة مع اليونان. وقد كانت هناك أيضا تقارير عن أعمال شغب فى عدن فى مايو، عندما قوبل نائب الوزير بالحشود المطالبة بالاستقلال. وقد كان هناك دائما عبد الناصر يتهم بريطانيا ويحيك المؤامرات ضدها. وقد بدت بريطانيا وكأنها بلا حول ولا طول وفى طريقها نحو الانحدار، وهو ما كان مزعجا وغير مفهوم بالنسبة للأجيال التى ترعرعت فى عالم لم يكن يجرؤ أى شخص فيه على تحدى بريطانيا بدون أن يعاقب، وعلى وجه الخصوص مصر. وأولئك الذين عاشوا فى هذه الفترة يكونوا قد أدانوا أنفسهم ولكن الكم الهائل لما قيل وكتب أثناء أزمة السويس وبعدها يعطى انطباعا قويا بأن بريطانيا كانت تعانى من صدمة متأخرة لتفكيك الاستعمار وما صاحب ذلك، من العجز عن التعامل مع الشئون الدولية.

ففى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى، عندما كان هناك خوف مماثل فيما يتعلق بمستقبل البلاد كقوة من الصف الأول، فإن السلطة البريطانية على العالم: كان يُظَن أنها جزء من الاتجاه العام للأخلاق الوطنية. وقد بدأ ذلك يأخذ منحنى نحو الأسوأ منذ بداية الخمسينيات. فأفلام الرعب وأجهزة التسجيل وموسيقى الجاز والروك آند رول وشباب الهيبز (Teddy boys)، كلها كانت بمثابة معالم على طريق الانحدار الذى أدى إلى فساد كامل لدى الشباب، وهذا كان بمثابة المرحلة الأخيرة من الانحدار الوطنى [١٤]. وكل هذه الاختراعات المغرية أتت من الولايات المتحدة، القوة التى حلت محل بريطانيا فى العالم، وهذا من دون شك قد زاد من حدة تذمر الكثير من الكتاب،

وأعضاء البرلمان من المحافظين، ورجال الكنيسة والقضاة والحكام الذين رأوا فى أنفسهم أنهم الحراس على القيم البريطانية القديمة. ومناقشة هذا الموضوع مع الأصدقاء، بمن فيهم السيدة روبرت ماكينز Robert Makins، زوجة أحد الدبلوماسيين وصاحبة رواية: منزل إيفلين: "العمة المحتضرة" (Evelyn Home agony aunt)، فإن إيفلين شاكبرج (Evelyn Shuckburgh) استنتجت أن بريطانيا قد أصبحت "عاجزة وبلا حياة"[٥٠].

وقد اعتقد ناصر نفس الشيء، وأثناء النصف الأول من عام ١٩٥٦م فإنه وضع مصر فى موقع الصدام مع بريطانيا. وكان الأمر سوف ينتهى باختبار للقوة فيما بين البلدين، والذى، كما كان يعتقد عبد الناصر، سوف يؤدى إلى توازن جديد للقوة فى الشرق الأوسط لصالح مصر. فأولاً، قام بجولة موسعة لدول عدم الانحياز فى آسيا، وذلك لكى يحصل على شهادة اعتماد باعتباره قائدًا لكتلة عدم الانحياز ومعاديًا للاستعمار. وقد أظهر أنه رجل حر الإرادة من خلال اعترافه بالصين الشيوعية واستقباله للبعثات الروسية فى القاهرة.

وفى داخل مصر فإن جل اهتمامه انصب على القيام بمشروع السد العالى ومستقبل شركة قناة السويس، التى كان لازال المستثمرون الأجانب يملكون ٤٩% من أسهمها. وعلى السطح فإن مسألة أى من القوتين سوف يتعهد بتقديم المساعدة فى بناء السد العالى وتأميم قناة السويس كانت من الموضوعات المهمة دائما. وفى ١٩ يوليو أبلغ دلاس مصر بشكل فظ أن أمريكا لن تقوم بتقديم قرض للمساعدة فى بناء السد، وكرد فعل على ذلك قام عبد الناصر بتأميم قناة السويس بعد سبعة أيام. وفى الواقع فإنه كان يعتزم مصادرة قناة السويس وأصولها منذ مدة. ومن البداية فإنه كان يعلم أن هذا التصرف يعد مقامرة، ولكنه اعتقد أن الظروف سوف تكون فى صالحه.

فأمريكا سوف تكون مشغولة فى حملة الانتخابات الرئاسية مع بداية شهر نوفمبر، وفرنسا يداها مقيدتان فى الحرب الجزائرية، وبريطانيا وحدها هى التى قد تقوم بالتحرك.

ولذلك فقد صدرت الأوامر للمخابرات المصرية بتقييم مدى جاهزية بريطانيا. وباستخدام مصادر فى داخل (EOKA) وقادة النقابات العمالية فى مالطا، اكتشف ناصر أن بريطانيا لم يكن فى مقدورها القيام برد فعل فورى، وأنه على الأقل أمام بريطانيا ثمانية أسابيع لكى تستطيع التحرك للقيام بغزو مصر[١٦]. ويعتمد كل شيء على عزيمة إيدن، وناصر، استنادا للقاء منفرد تم بينهما قبل عامين، قد أدرك أنه من ذلك النوع من الرجال الذى يخفى الضعف الداخلى بالتظاهر بالشجاعة أمام الجماهير. ففى البداية سوف يؤيد بقوة شن حرب، ولكن فرص القيام بحرب سوف تقل مع مرور الوقت، وقد قدر عبد الناصر أن احتمالات الحرب سوف تكون ٩٠ بالمائة قبل العاشر من أغسطس، ثم بعد ذلك تهبط إلى ٢٠ فى المائة فى النصف الثانى من شهر أكتوبر[١٧]. ولم تكن إسرائيل ضمن حساباته.

وقد كان إيدن يجلس لتناول العشاء فى داوونينج ستريت مع الملك فيصل الثانى ملك العراق ورئيس وزرائه، نورى السعيد، الصديق المخلص لبريطانيا، عندما علم لأول مرة بأخبار تأميم قناة السويس. وقد ألح نورى على استخدام القوة مع عبد الناصر، وقال لإيدن. "يجب أن تضربه بقوة ويجب أن تضربه الآن". وقد فارقهم إيدن لكى يقضى باقى الأمسية فى حساب توقيت الحرب، الذى كان يعتقد أنه سوف يكون فى خلال أسبوعين أو ثلاثة[١٨].

وأشار رئيس الوزراء والمجموعة الداخلية المكونة من ستة وزراء عليه بأن مصر لها هدفان طموحان. ويجب أن تتم إزاحة عبد الناصر عن

السلطة فى مصر، ويجب وضع حكومة فى مصر تقر بسيادة بريطانيا على بقية أنحاء الشرق الأوسط.

يجب أن توضع القناة تحت الإشراف الدولى لإحباط أى تهديد مستقبلى لإمدادات البترول لبريطانيا وأوربا. وبضربة واحدة سوف يتم استعادة مكانة بريطانيا ويتم الحفاظ على حلف بغداد. وكانت المسألة الملحة، هى نوع الضربة التى نحتاجها؟

وقد تم تبنى خطتين للتحرك. فمن جهة تقوم بريطانيا بحشد الدعم الدولى للقيام بهجوم دبلوماسى قد يجبر عبد الناصر على التخلى عن القناة. ومن الجهة الأخرى، تقوم بريطانيا بالاستعداد لشن حرب، وأن تقوم بتعبئة قوات الاحتياط فى الثانى من أغسطس. وقد كانوا فى حاجة لتطبيق عملية الجندى المسلح (Musketeer)، والتى كانت قد أخذت الشكل النهائى لها بحلول منتصف سبتمبر. والقوات الإنجليزية الفرنسية سوف تقوم بتنفيذ قصف جوى للأهداف الإستراتيجية المصرية (بما فى ذلك إذاعة القاهرة)، وأن تقوم بعملية إنزال فى بورسعيد، وتحتل قناة السويس. وبعد أن تتم هزيمة مصر، ومن ثم الإطاحة بعبد الناصر، سوف تقوم ثلاث وحدات أو أربع باحتلال البلاد حتى يتم تنصيب حكومة مناسبة. وقد كانت الحكومة تتوقع أن تكون هناك فترة انتقالية يقوم فيها حكام بريطانيون بالمساعدة فى حكم مصر.

وقد كان هذا مبالغا فيه، فإذا نظرنا للظروف المحيطة ببريطانيا وطبيعة الرأى العام العالمى فى عام ١٩٥٦م، فإن التجرؤ لمحاولة استعادة الإمبراطورية غير الرسمية يحتاج إلى دعم قوى فى الداخل والخارج. ومنذ البداية فإن بريطانيا كانت تحظى بالدعم المطلق من فرنسا، التى كان عداؤها لعبد الناصر يرجع إلى مساعدته للقوميين الجزائريين. وقد كان موقف الكومنولث مائعًا، فكل من الهند وباكستان وكندا وقف بشدة ضد أى استخدام

للقوة، ووقفت جنوب أفريقيا موقفا محايدا، فى حين كانت كل من أستراليا ونيوزيلاندا ولاءهما متذبذبًا، وفقط اتحاد وسط أفريقيا (الذى كان مكونًا من نياسلاند وروديسيا الشمالية والجنوبية) هى التى قالت إنها سوف تدعم بريطانيا فى أى تصرف تقوم به. وكل من أستراليا ونيوزيلاند قد طالبتا بالحيطة وحذرا بريطانيا من أن تقوم بالتصرف بتهور أو بدون الموافقة الأمريكية. فقد كان الأمر يبدو كأن أزمة تشاناك (Chanak) وميونخ (Munich) تتكرر مرة أخرى.

وداخل بريطانيا، كان هناك انقسام فى الرأى. فقد كان كل من إيدن وماكمليان وأليك دوجلاس هم الوزراء الأكثر عدوانية، وكان خلفهم هناك دائرة خارجية من المترددين تشمل "ر. أ بوتلر: (R. A Butler) (وهو يملك غريزة تميل إلى التهدئة وكان يريد ألا يتم التعامل مع هتلر إلا فى صيف عام ١٩٤٠م)، وإدوارد هيث (Edward Heath) وإيان ماكلويد (Iain Macleod). وما كان يقلق هؤلاء الرجال، وهو نفس الشعور الذى كان لدى هيوج جايتسكيل (Hugh Gaitskell) زعيم حزب العمال والعديد من أعضاء حزبه، هو المماطلة الحكومية. وإذا نظرنا إلى فحوى المناقشات التى دارت فى مجلس العموم أثناء الأيام الأولى من الأزمة فإننا سوف نجد أن إيدن قد اشتط فى الانتقام بالاستعادة السريعة للقناة.

ولكن إمكايات الجيش والبحرية والقوات الجوية لم تكن تفى بمتطلبات إجراء هذه العملية الجراحية. والنتيجة هى سياسة اندفعت فى اتجاهين متضادين، فقد كانت كل من بريطانيا وفرنسا تستعدان بتؤدة للحرب، وفى نفس الوقت يقومان بتشجيع تسوية دولية من خلال المفاوضات. واللورد كيليرن (Killearn)، الذى كان مثل السير مايلز لامبسون (Miles Lampson) لديه خبرة فائقة فى تنفيذ هجوم مكثف ضد المصريين، كان يرى أن التأخير

هو أمر مشئوم. فقد كتب "لكى نسمح لأنفسنا بأن ننشغل بصخب اللجان والمؤتمرات يعنى أننا نسمح للمعتدى بأن ينجو بجريمته" (١٩).

وقد كان هناك، بالطبع، الكثير من فرسان الحرب الذين تذوقوا طعم الدم وكانوا يعتقدون أنه حان الوقت على الأقل من أجل توجيه بعض الضربات القاسية على الطريقة القديمة. والعميد م. ف فاركوهارسون روبرت – الذى كان قد عين رئيسًا لجمعية قدماء المحاربين فى ديربى (Derby) كان ضجرا من خطوات الحكومة المتثاقلة. وقد أرعد قائلاً "السياسيون لا يعرفون الشرقيين كما نعرفهم نحن" وأضاف "فهم لا يعرفون أن الطريقة الوحيدة للتعامل معهم هى أن نقوم برفس مؤخراتهم" (٢٠). وعضو البرلمان العمالى صائد الذئاب العظيم رينالد باجيت (Reginald Paget) تساءل فى غضب، "كم سوف نظل نعطى لمصر ولا نأخذ فى المقابل إلا لكمات فى الوجه وإلى متى؟"(٢١). وعدم فعل شيء كان بمثابة دعاية لقلة الحيلة البريطانية. وقد زعم ماكميلان أنه "إذا نجا عبد الناصر بفعلته هذه، فسوف نندم على ذلك" (٢٢). فالديكتاتور المصرى لم يكن أكثر من "شخص أجوف ضعيف صانع للمشكلات"، وقد ذكر الكابتن تشارلز واترهاوس، وهو أحد المتحدثين البارزين فى عصبة المراقبة من حزب المحافظين، أنه يمكن ويجب سحقه (٢٣). وقد سخر منه دينيس هيلى (Denis Healey) باعتبار أنه "من الديناصورات" و"شخص تافه"، ولكن رجال الدولة الجدد قد وصفوهم على نحو ألمعى فى إطار الحكومة البريطانية بأنهم "يعيشون فى فترة صدور الديلى ميل فى عام ١٩٢٠م، الوقت الذى كانت فيه بريطانيا الاستعمارية قادرة على أن تقوم بإصدار أوامر موجزة وحاسمة للأجانب فى الخارج والطبقة العاملة فى الداخل" (٢٤).

وقد كان صخب طبول الحرب يدوى صداها فى قصر ويستمنيستر هو ما نبه إيزنهاور، الذى كان يسعى للحصول على فترة رئاسية ثانية، ودالاس. وقد أخبر الأخير ماكمليان أن بريطانيا تقوم بضجة مبالغ فيها فيما يتعلق بعبد الناصر، وهو ما يظهره "كشخصية أكثر أهمية مما هو عليه بالفعل". وقد أصر كل من وزير الخارجية والرئيس الأمريكى أن على بريطانيا أن تتراجع عن فكرة الحرب وأن تسعى، بالتعاون مع الولايات المتحدة، لإيجاد حل من خلال المفاوضات [٢٥].

وعلى الرغم من القيام بسلسلة من المؤتمرات واللقاءات فيما بين القادة، فإنه حتى ١٥ سبتمبر لم تكن هناك أى إشارة على وجود أى اتفاق، وهو التاريخ الذى كان قد حُدد فى الأصل للقيام بهجوم على مصر، والغريب فى الأمر، أنه خلال ثمانية أسابيع كان عبد الناصر قد استعد للتحرك البريطانى.

وأصبحت الحكومة الآن فى قبضة آلتها الحربية وجدولها الزمنى الثابت. وقد أدت ظروف الطقس إلى تأخير العمليات لما بعد ٢١ من نوفمبر. وأصر رؤساء الأركان على أن يكون ٣١ أكتوبر هو الموعد الأخير للبدء فى العمليات لتوفير فرصة مناسبة للنجاح. وفى بداية شهر أكتوبر، كانت هناك همسات خافتة من السخط متداولة بين نحو ٢٠٠٠٠ من جنود الاحتياطى الذين كانوا على أهبة الاستعداد لما يزيد على شهرين، وقد كانوا يريدون العودة مرة أخرى لعائلاتهم ووظائفهم. وقد كان عنصر الأفراد يسبب مشكلة منذ ٣١ يوليو، عندما وافقت الحكومة على تعديل الحد الأدنى من السن للجنود المشاركين فى خطوط القتال بتقليل مستواه من تسعة عشر كما كان فى الحرب الكورية إلى ثمانية عشر عامًا ونصف عام. وعلى الرغم من ذلك فإن البحرية كانت تشكو من النقص فى عدد جنود الإشارة المدربين، ومن برامج التدريب المعطلة وقلة أعداد الجنود فى الأسطول المجاور للأرضى

الوطنية وأسطول البحر المتوسط. والنقص في جنود الأسطول يعني أن مدافع الفرقاطات البحرية من عيار ست بوصات يمكن أن تصوب من اثنين فقط من أبراجها الأربعة، وتشغيل برجين فقط يعني أنها سوف تكون قادرة على الدفاع عن نفسها ضد هجمات الطائرات الحديثة [٢٦].

وقد بدا الأمر وكأن الوقت يسير في صالح عبد الناصر وضد إيدن. وبسبب عدم قدرته على تحقيق حل من خلال الدبلوماسية، فإنه لم يكن أمامه إلا أن يأخذ قرارًا إما ببدء الهجوم أو بالتهدئة. وفي استطلاع رأى سريع أجرى في أغسطس كان ٥٩% من البلاد يؤيدون استخدام مزيج من الحزم والمرونة الدبلوماسية ولكن، بحلول منتصف سبتمبر، فإن هذه النسبة انخفضت إلى ٤٩ في المائة. وقد كانت هناك صعوبات ظاهرة في بداية أكتوبر، عندما كان هناك مؤشرات تدل على أنه بعد الارتفاع المفاجئ لشن الغارات عبر الحدود، فإن إسرائيل الساخطة يمكن أن تقوم بمهاجمة الأردن، وهو ما كان من شأنه أن يجبر بريطانيا على التدخل لإنقاذ حليفتها. وفي الحادي عشر من أكتوبر تم تقديم إنذار رسمي بأن بريطانيا سوف تدافع عن الأردن [٢٧]. وبعد ثلاثة أيام، فإن المناقشات التي جرت في الأمم المتحدة فيما يتعلق بقضية القناة وصلت إلى طريق مسدود، عندما قامت روسيا باستخدام حق الفيتو في مجلس الأمن.

ولعدد من الأسابيع قام الفرنسيون بإغراء الإسرائيليين، الذين اعتقدوا أنهم يمكن أن يساعدوا في الوصول إلى حل للإخفاق الدبلوماسي. فقد كانت خدعة حربية بسيطة، ولذلك لم يقتنع بها أحد في حينها، على الرغم من أن التفاصيل الكاملة لصفقة السفاح المشنوق (hugger-mugger) لم تعرف جيدا إلا بعد عشرين عامًا. فقد قامت إسرائيل بمهاجمة مصر وتقدمت قواتها في أراضي سيناء، وذلك قدم ذريعة لكل من فرنسا وبريطانيا لاحتلال قناة

السويس بحجة الدفاع عنها والفصل بين المتقاتلين. وقد اقتنص إيدن الفرصة التي بدت كأنها جاءت في اللحظة الأخيرة حتى يتجنب ذل التهدئة، وفي السابع عشر من أكتوبر فإن قاذفات القنابل الثقيلة كانبرا (Canberra) كانت في طريقها إلى المطارات في قبرص. وبعد ستة أيام، سافر سيلوين للويد إلى باريس، حيث اجتمع مع جوى موليبه (Guy Mollet)، رئيس الوزراء الفرنسي، ونظيره الإسرائيلي، دافيد بن جوريون، واللواء موشى ديان في مخبأ سري في ضاحية سيفير (Sevres).

وقد كانت نتيجة هذا الاجتماع هو عقد معاهدة سيفير السرية، التي يبدو أنه لم يبق منها أي نسخة، ولكن الخطوط العريضة لها كانت واضحة للغاية من خلال الأحداث التي تمت في يومي ٢٩، ٣٠ أكتوبر [٢٨].

وقد كانت هناك حرب سويس في نوفمبر عام ١٩٥٦م. الأولى كانت تقاتل فيها القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية والقوات المصرية في شبه جزيرة سيناء وفي بورسعيد وعلى طول شاطئ قناة السويس. والثانية كانت تجري في مجلس العموم البريطاني، وفي أعمدة الصحف وفي أي مكان يتجمع فيه الناس في بريطانيا، وكانوا يتناقشون ما إذا كانت الحكومة البريطانية قد تصرفت بحكمة وأمانة أم لا.

وجرت الحرب الأولى وفقا للجدول الزمني لاتفاقية سيفير، وقد أخذت عبد الناصر على غرة؛ لأنه لم يكن يتوقع أن تقحم إسرائيل نفسها في الصراع حول القناة. وبالفعل بعد أن مر شهر سبتمبر فإنه قام بجمع معلومات من مصادر أمريكية جعلته يظن أن مصر لن تتعرض لهجوم. وقد ادعى كل من أيزنهاور ودالاس أنهم فوجئوا أيضا، وهو شيء عسير على الفهم إذا عرفنا أن طائرة التجسس الأمريكية يو ٢ U-2 (والتي كان يقودها جاري بورز: (Gary Powers) الذي أسقط فيما بعد في روسيا) كانت قد قامت بمسح

لمنطقة شرق البحر المتوسط والشرق الأوسط فى ٢٧ سبتمبر، وكاميراتها لا يمكن أن تخطئ استعدادات القوات الإنجليزية والفرنسية والبوارج الحربية فى قبرص [٢٩]. وبالطبع فإن هذا يمكن أن يؤخذ كدليل على التواطؤ، ولكن الوزراء البريطانيين اعتقدوا أنهم لم يجدوا شيئا فى كلام دالاس يشير أن أمريكا سوف تعارض بشكل قوى أى تدخل عسكرى فى مصر. وقد كان يعتقد، خطأ كما اتضح فيما بعد، بأن الهم الأساسى لدالاس هو ألا يندلع القتال قبل يوم الانتخابات الأمريكية، فى ٦ نوفمبر. والعادة والكياسة جعلتا حكومات دول الكومنولث تميل جزئيا للسياسة البريطانية، ولكن بعد توقيع اتفاقية سيفير فإن تدفق المعلومات انقطع.

وقد بدأت حرب السويس فى الوقت المحدد، مع قيام إسرائيل باقتحام سيناء فى ٢٩ أكتوبر. وفى اليوم التالى، فى الوقت الذى كانت فيه القوات الإسرائيلية والقوات المدرعة تهاجم الجيش المصرى المتفاجئ، فإن كلاً من فرنسا وبريطانيا قامتا بإصدار إنذار مشترك، أعطى هذا الإنذار كلا الجانبين مهلة اثنتى عشرة ساعة لكى توقف كل منهما القتال. ولكن تم تجاهل هذا الإنذار، وفى الأول من نوفمبر بدأت قاذفات القنابل كانبرا فى الهجوم المكثف على المواقع الإستراتيجية المصرية وعلى المدن، فى حين كانت الوحدات المحمولة جوًا والبرمائية تستعد لعمليات الإنزال فى بورسعيد. وفى اليوم التالى، فإن الولايات المتحدة (مدعومة من جانب أستراليا وآخرين) دعمت اقتراح الأمم المتحدة بالتوقف الفورى عن إطلاق النار من جميع القوات المتحاربة. وقد تَملّك كلاً من بريطانيا وفرنسا الذعر.

وبدأتا فى المناورة من أجل كسب الوقت وأصرتا على أنهما لن تقوما بالموافقة، على الهدنة إلا إذا قامت قوات الأمم المتحدة بالسيطرة على القناة، وفى نفس الوقت سرعتا من الموعد النهائى للغزو.

ومن خلال اتباع جدول زمنى جديد، فإن أول دفعة من قوات المظليين قد هبطت فى الخامس من نوفمبر وكانت القوات البرمائية قبالة السواحل فى السادس من نوفمبر. وفى نفس الوقت كان هناك نداءان آخران من الأمم المتحدة بعقد هدنة، ولأن القوات البريطانية والفرنسية كانت قد احتلت بورسعيد وقطاعًا طوله ثلاثة وعشرون ميلاً من القناة، فإن كلتا الحكومتين استجابت لعقد الهدنة فى مساء السادس من نوفمبر. وباستخدام المصطلحات العسكرية الخالصة، فإن العملية كللت بنجاح باهر، فالخسائر المصرية زادت على الألف فى حين أن الخسائر البريطانية والفرنسية كانت أقل من مائة. وقد أخبر أحد الكولونيلات أحد الصحفيين "إن الأمر كان مثل تدريب دموى جيد، وكان يحوى كثيرًا من المرح والمتعة" (٣٠).

وحرب السويس الأخرى أيضا كانت لها مراحلها. فالتحركات التى قام بها إيدن فى الفترة ما بين ٣٠ أكتوبر والسادس من نوفمبر كانت حافزًا للصدام فيما بين السياسيين، وهو ما زلزل الأمة بكاملها. فداخل مجلس العموم، كان بيان الحكومة حول مصر إشارة للاضطراب، فقد تم تبادل الضرب باللكمات والسب. فالمحافظون كانوا "فاشيين" و"قتلة" (هذا من وجهة نظر السيدة بسى برادوك: (Bessie Braddock) والأعضاء عن حزب العمال كانوا "جبناء"، حيث طعنوا بلادهم فى ظهرها. وقد بدأت الصحافة فى الضرب بالهراوات، كان أغلبها من نصيب الحكومة، وواحدة خارج مجلس العموم، والأخرى فى ميدان (الطرف الأغر): (Trafalgar)، حيث أدان أنيورين بيفان (Aneurin Bevan) ما فعله إيدن. وقام الميثوديون (Methodists) الشرقيون بمسيرة خلال الشوارع، وقد اتهموا بأنهم "ناصريون أقذار" من قبل مَن شاهدوهم، الذين كانوا يرون، وهو رأى كان سائدا بشكل كبير فى هذا الوقت، أن أولئك الذين أدانوا إيدن هم حلفاء ناصر، وهم فى الحقيقة لا شيء سوى مجموعة من الخونة.

وقد كانَ هناك أيضا العديد من التراشقات الحادة فى كل مكان اجتمع فيه الناس وتحدثوا. وأنا أتذكر ذلك فى مدرستى، التى كانت فى منطقة تخص الطبقة الوسطى ويهيمن عليها المحافظون، فأولئك الذين لم يأخذوا خط الداعمين للحرب كان يتم سبهم، وفى بعض الأحيان يتعرضون للركل فى أثناء سيرهم. وقد اعتقد أعضاء البرلمان عن حزب المحافظين أن الطبقة العاملة تساند الحكومة وغاضبة على حزب العمال بسبب قلة وطنيتهم. وأحدهم، الذى كان نائبا عن دائرة جنوبية، علق بشكل صريح قائلاً: "لقد فقدت المؤيدين من الطبقة الوسطى، ولكن هذه الخسارة على الأقل تم تعويضها من خلال الدعم الذى حظيت به من الناخبين المنتمين للطبقة العاملة الذين كانوا طبيعيا يصوتون للاشتراكيين، والذين فضلوا القيام بعمل قوى فى قضية السويس" (٣١).

وحتى جل قراء صحيفة الأوبزرفر من المنتمين للطبقة الوسطى أصيبوا بالاضطراب من المقالة الافتتاحية لها فى الرابع من نوفمبر، التى زعمت فيها "أن بريطانيا العظمى لم تجعل نفسها مكروهة عالميًا بهذا القدر منذ عام ١٧٨٣م". فالبلاد الآن "تقف معزولة فى مأزق أخلاقي"، وعادة التأكيد على ولعها القديم بالاستعمار العسكرى ونبذت التوجه الدولى (internationalism) الذى قاد سياستها الخارجية منذ عام ١٩٤٥م.

وخلال الأسبوع التالى، استلم رئيس التحرير ٨٦٦ رسالة تدافع عن الحكومة (من ضمنها ٥٠٠ يلغى فيها أصحابها اشتراكاتهم) و٣٠٢ رسالة تدعم موقف الحكومة (٣٢).

والجدال حول السويس الذى تم فى نوفمبر عام ١٩٥٦م كان مثله مثل الجدالات الأخرى التى ثارت طوال مائة عام المنصرمة، والتى كانت فى جوهرها تهتم لطبيعة علاقة بريطانيا بباقى العالم. وفى أحد الأطراف هناك

الصقور الذين يرون أن العالم هو مجال لصراع لا ينتهى، وفيه فإن الأقوى والأكثر تصميما هو الذى يبقى من خلال استخدام مزيج من المكر والقسوة والقوة. فقد اعتقدوا أن الإمبريالية ما هى إلا انعكاس للنظام الطبيعى، واعتبروا أن النفعية وسعى الدولة لتحقيق مصالحها هى المبادئ الوحيدة التى يجب أن تتأسس عليها السياسة الخارجية. فى الماضى كان هؤلاء الصقور يهتفون للجنرالات والأدميرالات المنتصرين والعائدين إلى أرض الوطن بعد الحروب، وبالمثل لكل من بالمرستون ودزرائيلى وجوزيف تشامبرلين وتشرشل، والآن أصبح إيدن هو بطلهم. وفى الطرف الآخر هناك فريق الحمائم. لقد كانوا يحلمون بعالم متجانس فيه يتم التخلى عن الصراع من خلال التعاون فيما بين الدول، وكانوا يكرهون الإمبريالية لأنها تمثل قهر القوى للضعيف، ولكنهم كانوا يتسامحون مع الأشكال الحديثة للاستعمار الخير. ومن خلال نبذ العنف من خلال الاعتماد المتزايد على الأساليب السياسية، اعتقد فريق الحمائم أن المكانة الخاصة لبريطانيا فى العالم سوف تنبع فقط من القيم الأخلاقية لها. وفى الماضى كان فريق الحمائم هم الذين يدعمون كوبدين: (Cobden)، وبرايت: (Bright)، وجلادستون: (Gladstone) وعصبة الأمم.

ومنذ الحرب، فإن فريق الحمائم أصبح متفائلاً فيما يتعلق بمستقبل العالم الذى بدا كأنه يتجه إلى الاتجاه الصحيح. فقد تراجعت الإمبريالية، وازدهرت الأمم المتحدة، على الرغم من الحرب الباردة، وبدت بريطانيا كأنها قد ابتعدت عن أساليبها الاستبدادية القديمة. والآن كل ذلك تغير بواسطة إيدن. والأسوأ هو أن غزو مصر قد ترافق مع المراحل النهائية من قمع الانتفاضة المجرية بواسطة الجيش السوفيتى. فكيف يمكن للغضب الأخلاقى أن يعبر عن نفسه فى وسط كل هذه البربرية، عندما توجه القائد الروسى السفاح،

نيكيتا خروشوف (Nikita Kruschev)، إلى بريطانيا باللوم فكيف له أن يتهم كلاً من بريطانيا وفرنسا بأنهما تفترسان مصر؟

وهذا الافتقار إلى الأساس الأخلاقى قد ظهر بشدة فى الولايات المتحدة الأمريكية التى خفت حدة معارضة الجماهير بها للوحشية السوفيتية بسبب سلوك حلفائها فى مصر. وعندما كان يتوجب على العالم أن يركز غضبه تجاه روسيا، فإن عليه أن يوجه بعضا من هذا الغضب تجاه بريطانيا وفرنسا. وحتى الأصدقاء القدامى شاركوا فى ذلك، فالثالث من نوفمبر كان يوم "كراهية بريطانيا" فى باكستان وقام زعيم حزب العمال الأسترالى بإدانة "العدوان المكشوف" الذى قام به إيدن.

وفى بريطانيا فإن فريق الحمائم، الذين كانوا ينظرون إلى أنفسهم قبل كل شيء على أنهم واقعيون، قد تلقوا صدمات خطيرة.

وبعد أن وافقت الحكومة على عقد الهدنة فإنها أصرت على أن الوحدات الإنجليزية- الفرنسية فى مصر لا بد أن تظل، وأن تشكل جزءا من قوة الأمم المتحدة التى من المحتمل أن تسيطر على القناة. وقد أصرت أمريكا على الانسحاب غير المشروط، تبعها لفترة وجيزة اختبار للإرادة من جانب واحد، وهو ما عرّض بريطانيا لضعف مالى شديد.

وفى الأيام الأولى للأزمة، فإن المالكين الأجانب ومن دول الكومنولث للإسترلينى كانوا مصابين بعصاب شديد، خاصة حكومات دول الشرق الأوسط التى خافت من أن يتم تجميد ودائعها كما حدث لمصر إذا سارت فى الطريق الخطأ. فخلال شهر أغسطس تم سحب نحو ١٢٩ مليون جنيه إسترلينى من الحسابات الموضوعة بالجنية الإسترلينى. وتوقف هذا النزيف فى سبتمبر، ولكنه بدأ مرة أخرى فى أكتوبر، عندما تمت إزالة ٨٥ مليون

جنيه إسترليني بسبب اشتداد الأزمة. والصدمة الكبيرة جاءت بعد أن تم غزو مصر، وتم فقد ٢٧٩ مليون جنيه إسترليني (بما فى ذلك ودائع هندية تبلغ ١٥٠ مليون جنيه إسترليني) بواسطة تحويلها إما إلى ذهب أو إلى الدولار. وبحلول نهاية ديسمبر فإن احتياطيات بريطانيا قد انخفضت إلى ١٩٦٥ مليون جنيه إسترليني، وبدا كأن أيام الجنية الإسترليني كأكبر عملة دولية أصبحت معدودة. وفى يأس قام ماكميلان بمناشدة صندوق النقد الدولي أن يمنح بريطانيا قرضًا قيمته ٥٦٠ مليون دولار. وقد رفضت الحكومة الأمريكية طلبه، واشترطت أن تقوم بريطانيا بسحب كامل قواتها من مصر كى توافق عليه. وفى العاشر من ديسمبر، ذكر ماكميلان أن هناك حاجة لمبلغ ١٣٠٠ مليون دولار تكون تحت تصرف بريطانيا من أجل المساعدة فى دعم الجنية الإسترليني. وبحلول شهر يناير من عام ١٩٥٧م، فإن قيمة الجنيه الاسترليني مقارنة بالدولار عادت إلى مستوياتها السابقة على الأزمة.

ولم يكن أمام بريطانيا شيء تفعله بسبب ما سماه ماكميلان "الضعف الموروث من اقتصاد ما بعد الحرب". وقد كان هذا حقيقيا إلى حد كبير. فعمليات السحب الكارثية التى تمت على الجنيه فى عام ١٩٣١م وعام ١٩٤٧م وعام ١٩٤٩م كانت هي السبب المباشر للعجز الحاد الذى أصيب به الاقتصاد. وما حدث فى عام ١٩٥٦م أدى إلى إطلاق خوف السياسيين من أن بريطانيا قد تضخم من قدراتها الذاتية، وتتورط فى حرب فى الشرق الأوسط، وهو ما لم تكن بريطانيا تستطيع تحمله.

وحتى قبل أن يبدأ ماكميلان فى زيارة واشنطن، فإن الواقعيين داخل حزبه، قد بدأوا فى التعامل مع العالم كما هو. ووفقا لما ذكره عضو البرلمان أنجوس مود (Angus Maude)، فإن نتائج حرب السويس جعلت بريطانيا لا تملك إلا خيارًا واحدا وهو "أن نعترف للعالم بأننا الآن تابعون لأمريكا". وقد

كان الخضوع للولايات المتحدة، في بعض جوانبه، أصعب في تقبله من الاعتراف بأن أيام حكم بريطانيا للشرق الأوسط قد انتهت أخيرًا.

فالإمبراطورية غير الرسمية، كما كان يُنظر لها عندما قام ولسلى (Wolseley) بالإطاحة بعرابى باشا، لم تؤد إلى الاختفاء الفورى للجنود البريطانيين العاملين فى بورسعيد. ففى فبراير عام ١٩٥٧، فإن قاذفات القنابل التابعة للقوات الجوية الملكية قامت بقصف مواقع المدفعية اليمنية على حدود عدن انتقاما من القذائف التى قامت بإطلاقها أخيرًا.

وإذا أخذنا فى الاعتبار المناخ الحالى للرأى العام الدولى، فإن القذف الانتقامى للأهداف اليمنية كان محظورًا (٣٣). وبعدها بوقت قصير فإن الطائرات البريطانية قامت بهجوم آخر فى عمان، لكى تساعد على حماية سلطانها ضد رعاياه الأكثر تقدمًا. وفى وقت قصير بعد ثورة القصر التى حدثت فى عام ١٩٥٨م التى أدت للإطاحة بالعميل البريطانى، الملك فيصل الثانى ملك العراق، فإن القوات البريطانية اندفعت إلى الأردن من أجل إنقاذ ابن عمه، الملك حسين من أن يلاقى نفس المصير. وقد تم إحباط محاولة العراق ضم الكويت لها فى عام ١٩٦١م، نتيجة وصول الوحدات البريطانية. وبالمقارنة مع حرب السويس فإن كل ذلك كان بمثابة عمليات محدودة النطاق، ومبررة من خلال الالتزامات التعاقدية وتم تنفيذها بمباركة أمريكية.

فالبترول والحرب الباردة كانتا تعنيان أن هناك عملاً دائمًا للوحدات الصغيرة ذات التخصص العالى فى جنوب الجزيرة العربية. ولأنها قد فقدت مركز مجال نفوذها القديم فى الشرق الأوسط، اضطرت بريطانيا إلى الانسحاب للأطراف حيث كان هناك حكام مستبعدون من العرب الغاضبين الذين يحتاجون إلى حماية من القرن العشرين والأفكار التى أتى بها. وقد كان

هناك عدد كبير من الفرص لحدوث مناوشات على نمط ج. أ هينتى (G. A Henty) على جوانب المرتفعات العارية، والتى كانت تعسكر تحت النجوم مثل ما كان يفعل لورانس العرب، وكذلك القيام بقيادة فرق من رجال القبائل غير المنظمين الذين قبلوا التراتبية القديمة ولم يكونوا قد سمعوا أبدا عن عبد الناصر. والممارسون للنمط القديم من الإمبريالية فى العصر الحديث، وكذلك آخرهم، القائمة على القوة المسلحة ذات مرة عرض لهم مظهر حرب السكان الأصليين فى فيلم زولو (Zulu). وكما كان متوقعًا، فإن ذلك أدى إلى إثارة الروح القتالية لهم، وقام العديد منهم بإطلاق النار على المتهمين من الزولو الظاهرين على شاشة العرض.

والعمليات التى تمت فى جنوب الجزيرة العربية كانت تتم لصالح السلطان تيمور بن سعيد سلطان عمان، وهو أحد الحكام المطلقين المنتمين للعصور الوسطى، الذى أطيح به لحسن الحظ فى عام ١٩٧٠م بسبب إعاقته للشركات البريطانية، وتم نفيه وحبسه فى فندق دورشيستر (Dorchester). وقد قام ابنه، قابوس، بالبدء فى برنامج إصلاح، باستخدام العائدات البترولية الضخمة، وعملية تحديث مقيدة. وعلى خلاف أفريقيا والهند فإن الجزيرة العربية ومنطقة الخليج لم تشعر أبدا بثقل رسالة التحضر البريطانية، وكذلك الحكام المحليون الذين سُمح لهم بالاحتفاظ بالتقاليد القديمة، والتى كان قد تم التخلى عنها فى أماكن أخرى بسبب إصرار المقيمين البريطانيين فيها. ولم يتم إلغاء الرق رسميا حتى عام ١٩٤٩م فى الكويت وعام ١٩٥٢م فى قطر. وقد كان الرق شائعا فى المشيخات القريبة من عدن حتى بداية الخمسينيات، وفى عمان حتى عام ١٩٧٠م. وسواء كان الحكام فى هذه الدول وفى المملكة العربية السعودية يعنون بالفعل ما قالوه أم لا، عندما أعلنوا إنهاء الرق وظلت تجارة الرقيق قضية تلقى معارضة كبيرة. وقد تم جلب أعداد كبيرة من

العمال الآسيويين، خاصة الفلبينيين، إلى هذه المنطقة كعمال وخدم في المنازل تحت شروط قد يعتبرها محبو الإنسانية والقناصلة في العصر الفيكتوري أنها تمثل عبودية.

وفي سنوات الحرب الباردة التي تلت حرب السويس، فإن بريطانيا كانت تحتاج إلى اكتساب الكثير من الأصدقاء في الشرق الأوسط، ولذلك فإنها لم تكن قادرة على تحمل الصدام مع الطابع الأخلاقي الذي يهيمن على المنطقة.

وفي الفترة ما بين عامي ١٩٦٥،١٩٧٥، قامت القوات البريطانية بالمساعدة في الحفاظ على العرش العماني ضد المعارضين الماركسيين، وحتى عام ١٩٦٧، حاولت الاحتفاظ بعدن والمنطقة المجاورة لها. فبعد تنفيذ العديد من الحيل السياسية التي صُممت من أجل الاحتفاظ بالحكم الملكي للشيوخ المحليين، وقيام حرب عصابات في الميناء وحولها، فإن الحكومة قامت بالتخلي عن القاعدة التي كانت في ذلك الوقت قليلة الأهمية من الناحية الإستراتيجية. وبمجرد أن غادرت آخر الفصائل، قامت فرقة موسيقية بالعزف. وبعد حرب داخلية قصيرة بين الفصائل المختلفة للمعارضة تم الإعلان عن قيام جمهورية جنوب اليمن. ولم تنضم إلى الكومنولث.

(٥)

العلَم القديم

ردود فعل إمبراطورية تحتضر

إن الاحتجاجات التى نجمت عن إصابات العدوان الثلاثى وأخطائه على مدينة السويس توقفت عند انسحاب الجيش البريطانى من مدينة بورسعيد. وقد دخل هذا الحدث التاريخ حيث كان مدلوله واضحًا: فقد كان علامة واضحة أشارت فى وقت واحد وجود منعطف، وحذرت من التصرفات المتهورة، وقدمت نصائح لإيجاد حلول أسرع، وأشارت أن هذا المنعطف صار فى سبيله للهبوط. وبعبارة أخرى، تحتم على بريطانيا: (Britain) أن تودع الأيام التى كانت فيها سيدة العالم. لقد فشلت وآن الأوان لتحل أمريكا محلها. وهبوط قوة بريطانيا ومنزلتها أصبح أمرًا واقعًا مفروضًا عليها.

وبالإضافة إلى تواريخ تقلص قوة الشعب البريطانى وسطوته، فقد فرض عليه مواجهة تفكك إمبراطورية مستعمراتها. وعقب الأعوام الثلاثة عشر التى تلت عملية السويس، نالت تقريبًا جميع المستعمرات الأفريقية والموجودة بالشرق الأقصى وغرب الهند استقلالها وأصبحت جزءًا من كومونولث (Commonwealth) (أى حلفاء) موسع. لم تكن الصدمة فى كل من بريطانيا ومستعمراتها شديدة. فقد إندهش كل الأجانب، وعلى نحو أقوى بعد انهيار الجمهورية الرابعة عام ١٩٥٨، وعملية تمرد واسعة النطاق فى الجيش الفرنسى عام ١٩٦١، والمظاهرات العنيفة فى العاصمة باريس(Paris)

والأعداد الكبيرة من الاستنكارات الناجمة عن العمليات الإرهابية التى قامت بها المقاومة الجزائرية وOAS (Organisation de l' Armée Secrète) (تنظيم الجيش السري) أثناء عامي١٩٦١ و١٩٦٢. لقد كان انفصال البرتغال من الإمبراطورية بنفس القدر من العنف والدموية: فقد تم نشر ١٣٥٠٠٠ فرقة برتغالية بين عامى ١٩٦٠ و١٩٧٦ضد الأنصار القوميين فى كل من موزمبيق (Mozambique) وأنجولا (Angola) وقد تسببت أيضًا الثورة التى أطاحت بالجناح اليمينى للرئيس كايتانو (Caetano) فى شهر أبريل عام ١٩٧٤ فى نفس بلده. وأثناء الشهر الذى منحت فيه بلجيكا (Belgium) الكونغو(Congo) استقلالها (أى زائير) Zaire فى شهر يونيه عام ١٩٦٠ فقد تفشت الفوضى فى الدولة الجديدة والحرب الأهلية والمجازر ضد السكان البيض.

لم تسلم بريطانيا من تلك التغيرات العنيفة، فقد تجنبت بحذر خوض حروب لا فائدة منها، فلم يحتج جنودها على طلب المستعمرات للاستقلال، كما لم يفجر البيض فى كينيا وروديسيا الجنوبية قنابل فى شوارع لندن (London).

وفى شهر فبراير عام ١٩٦٣، نسب عالم اجتماع أمريكى موال للإنجليز النظام النسبى الذى تفككت به الإمبراطورية نظرًا لتطور الحس القومى الواضح المفهوم:

"إن التغير الخلقى المتوالى الذى تم التعبير عنه فى الرغبة فى رفض التبعية للإمبراطورية تم التعبير عنه فى عدم الرغبة فى الاستمرار مع النظام القديم. فإن احترام حقوق الهنود والأفارقة جزء من الطموحات فى تحسين مستوى المعيشة ومستوى الذوق وتنمية كل القدرات لكل شعب وتأصيل العدالة فى المجتمع والاستقلالية والإنسانية[١]".

كانت تلك الأفكار تسعد كل من يسمعها، كما أنها كانت تتسبب في دهشته أيضا. ولمدة ثلاثين عامًا على الأقل، فقد وعد سياسيو الطرفين أكثر من مرة أن المستعمرات في سبيلها للاستقلال، على الرغم من أنهم لم يكونوا واضحين فيما يتعلق بكيفية الحصول عليه وتوقيته. لقد آمن الرأى العام الرسمى للإمبراطورية بأنه من المستحيل لأى حكومة تبرير حروب طويلة للقمع، من أجل الحفاظ على السيادة البريطانية إلى الأبد.

وعندما تم إثبات حتمية ذلك، كما حدث فى ماليزيا، تم بذل جهود مضنية من أجل إثبات أن الهدف من النزاع هو إثبات مدى اهتمام بريطانيا برعاياها. وفى منتصف الحملة التى شُنت ضد مؤيدى الشيوعيين الماليزيين، وصف المشير "جيرالد تمبلر" (Gerald Templer) أهدافه لنائب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نيكسون (Nixon):

"إن ما أحاول عمله هو إقناع كل الزعماء الوطنيين أن تلك الحرب حربهم، وأنهم يقاتلون من أجل استقلالها، وعندما ينهزم من يشنون حروب العصابات فستعود بلادهم لحكمهم، وسوف يكون قرار دوام العلاقة مع بريطانيا ودول الحلفاء فى الكومنولث قرارهم(٢)".

ربما كان لحسن الحظ أن اختراع جهاز التليفزيون نقل آخر حملات بريطانيا الاستعمارية من موقع الحدث مباشرة. لم تشارك الجماهير البريطانية التجربة المزعجة التى قامت بها أمريكا فى منتصف الستينيات فى عمليات فيتنام أثناء حدوثها. وما تم عرضه صدم الشعب الأمريكى مما ضاعف من حدة الاحتجاجات ضد الحرب. وقبل عشر سنوات، شعرت الحكومة البريطانية بأهمية تأثير التليفزيون على الرأى العام واهتم الكثير بمعرفة ما نقلته فرق الكاميرات التى كانت فى ساحات الحروب. وتم حذف المشاهد المؤثرة مثل المشاهد التى بها أعمال عنف. وبعد تصوير الـ بى بى

سي لفيلم تسجيلي عن قبـرص (Cyprus) عـام ١٩٥٨، حـذر المحـافظ، السيد هيوفوت وزارة المستعمرات من يقومون بالرقابة بحـذف أى مـشاهد لقرى تحاصرها فرق من الجنود قاموا بصلب سكانها على الحـوائط، وتـم أيضًا فرض الرقابة على النصوص المكتوبة أيضًا مثـل عبـارة "هرولـت قبرص نحو استقلالها عندما كانت مستعمرة منذ عدة سنوات"، فتحولت إلى" اتجهت قبرص بهدوء نحو استقلالها عندما كانت مستعمرة منذ عدة سنوات". ربما كلمة "هرولت" رسمت صورة لإدارة غير مـسئولة وغيـر متريثـة. عند اطلاعنا على باقي النصوص نرى كلمـة "الإرهـابيين" حلـت محـل كلمة "العدو"[٣].

ولم تستثن الحرب الباردة إضفاء بعض القوة للـشيوعيين بـرغم أن الوزراء المحافظين قد سعدوا للتحالف مع تنظيمات متضامنة من الحركـات القومية. لقد كانت السياسات المناهضة للاستعمار، بمعناها الواسـع، ثنائيـة الولاء مع الميل لحزب العمال للتعجيل بهذه العملية. تحتم على المحافظين أن يكونوا أكثر حذرًا لأن العناصر اليمينية فى الحزب لم تثـق فـى القـوميين أو كانوا مؤيدين تجاه جاليات البيض فى شرق أفريقيا ووسطها. وجدت هذه المجموعة الأخيرة حلفاء طبيعيين فى صفوف المجندين الذين لـم يرضـوا بسياسات أعطت اهتمامًا مفرطًا للقوميين، ولم تكترث لزعماء القبائل مطلقًا. ووفقا لما صرح به السيد مرفين ويتلي (Mervyn Wheatley)، وهـو كـان حاكمًا سابق لمقاطعة سودانية ولاحظ أن "الإداريين ذوى الخبرات" يمكـنهم فهم عقلية "الرجال القبليين المتحضرين" ومعرفة ما الأشياء التى يريدونها فعلاً[٤].

إن سلوك السياسيين الاستعماريين تسبب فى عدم الثقة والمهازل بشكل متساو فى صفوف من كانوا خارج الحزب اليميني. وبحلـول عـام ١٩٥٠، غضب المحارب القديم المنتمى لحزب التـورى (أى المحـافظين) الكـابتن

"جامانز" (Gammans) عندما تم إبدال لفظ الجلالة باسم "إن كروماه" أثناء القداس وأناشيد السيد المسيح القديمة والمعاصرة فى ساحل الذهب(٥).

وقد سخر "بيتر سمبل" (Peter Simple) كاتب الأعمدة المنتمى للحزب اليمينى بجريدة "ديلى تلغراف: Daily Telegraph" باستمرار الديمقراطية الأفريقية الوليدة الفجة. وقد أضحكتنى كثيرًا تعويذات المعالجين بالسحر والأصنام التى تم عرضها فى الإنتخابات التى أجريت عام ١٩٥٦. وقد حدث موقف هزلى آخر عند انعقاد جامعة مؤيدى الحكم الإمبراطورى عام ١٩٥٤ من أجل الدفاع عن مصالح الإمبراطورية. وقد ضم كبار رجالها مجموعة من كبار الضابط ذوى أفق ضيق الذين لم يتقبلوا انهيارالأشياء التى اعتزوا بها؛ فالأحلام التى تبعث إلى الحنين التى تحدث عنها رجال ونساء ينتمون إلى طبقات المجتمع العليا والوسطى، كما شرد بهم التفكير عن إنجلترا أثناء شربهم مشروب الجين فى شرفات منازلهم التى شيدوها فى المستعمرات التى طردوا منها عند عودتهم إلى أرض الوطن، ولم يكن ضغط الدم العالى والمشاعر الحزينة شيئًا مدهشًا، وقد عانت الجمعية منهما كليهما، فقد تذكر من يخططون مستقبل بريطانيا السياسى عصرها الذهبى الذى حكمت فيه البحار والعالم بينما كانت مخطئة(٦).

فقد كانت مناهضة للقوميات الآسيوية والأفريقية والهجرة الوافدة من البلاد الأفريقية والأمم المتحدة والحزب المحافظ الحالى و"هارولد ماكميلان (Harold Macmillan) واليهود والولايات المتحدة مع تأييدها للتفرقة العنصرية والرغبة فى استعادة أمجاد الإمبراطورية.

لقد نظرت الجمعية إلى مهماتها كما لو أرادت تخليص البلاد من نشوتها الليبرالية، وبذلت معظم طاقاتها على سلسلة من الدعايات غرضها نشر أسبابها ووضع خصومها فى مأزق، وفى عام ١٩٥٨، قام ناشطو الجمعية بحل مؤتمر للمحافظين.

وترتب على ذلك طردهم منه، وفى شهر يوليو عام ١٩٦٢، اقتحموا حفل عشاء أقامه ماكميلان (Macmillan) إكراما لأمين الأمم المتحدة آنذاك "يوثانت" (Uthant) وعلى نمط الجماعات المتطرفة اليمينية واليسارية، كانت الجمعية فى غاية الهشاشة، وقبل أن يهجرها أعضاؤها البالغ عددهم بضع مئات من أجل اعتناق مبادئ غريبة تحقيقها ميئوس. ولم تشكل معجزاتهم التافهة سوى القليل من عناوين الجرائد.

وقد كان "هارولد ماكميلان: Harold Macmillan" هدفًا معتادًا من عصبة الأمم هو وأتباعه الشباب لدى صحف التسعينيات. وقد آمن رئيس الوزراء منذ شهر يناير عام١٩٥٧ حتى شهر أكتوبر عام ١٩٦٣، أن التيار المحافظ الأبوى أولى ليكون فى أمة واحدة، وفيما يتعلق بالأمور الخاصة بالإمبراطورية ومكانتها فى العالم، لأنه كان رجلاً نفعيًا واقعيًا فلقد حصلت المستعمرات والبلاد التى كانت تحت الحماية البريطانية على استقلالها تحت حكمه، وكانت: ساحل الذهب (أى غانا) ومالايا (المضمومة مع بورنيو Borneo) الشمالية (ساباح) من أجل إنشاء دولة ماليزيا (Malaysia) عام ١٩٦٣ وقبرص ونيجريا وصومالى لاند مع صوما ليلاند الإيطالية على أنها الصومال (Somalia) وسييراليون (Sierra Leone) وجامايكا وتنجانيقا وأوغندا وكينيا وجامبيا. وكانت أيضًا شمال روديسيا (أى زامبيا) فى طريقها للحصول على الاستقلال ونيازالاند (أى ملاوى) وإنشاء اتحاد دول غرب الهند. وبشكل آخر، لم يكن أى رئيس وزراء آخر مسئولاً عن برنامج كاسح مثل ذلك لتفكيك المستعمرات.

لقد تسبب ذلك فى ذهول مَن ينتمون للأحزاب اليمينية. وذات مرة لم يتمكن موظف لدى مكتب المستعمرات من فهْم قبول حزب المحافظين لهذا الأمر؛ كان من الممكن الصمود أمام الأمريكيين. كما كان من الممكن

الصمود أمام الروس، كما كان بإمكاننا الصمود أمام حزب العمل. إذن لماذا لم نتمكن من الصمود أمام ما كان حزب العمل والجناح اليساري لحزب المحافظين؟[٢].

ولأجل جذب الانتباه، فشل في ذكر مواجهته أناسًا قوميين محليين. ما فشل هو وغيره، في فهمه خاصة سكان أفريقيا البيض أنه منذ عصر دزرائيلي ظل حزب المحافظين مجموعة من المنصاعين ومن أتباع الأقوياء، بعيدًا عن كل الشكوك التي أعاقت خصومه. لم يعد حزب التوري يلعب على وتر الإمبريالية؛ لأنها لم تعد تجذب الأصوات، حتى لو جذبت القليل منها. وعند إتباعهم لمنهج وضعه بالدوين، جذب حزب المحافظين أصوات الناخبين باللجوء إلى الوعود بالرخاء والشعور بالانتماء. ظهرت مشاعر الحنين إلى العصر الإمبريالي في البرامج الانتخابية لكن مع الافتقار إلى عنصر التشويق. والبرنامج الانتخابي الذي ظهر في الخمسينيات وعنوانه "هذه هي السبيل الصحيحة" الذي تناول تدعيم كل رابطة مع أمم إمبراطوريتنا والكومنولث (Commonwealth) (أي الحلفاء) وذلك الذي ظهر في شهر أكتوبر عام ١٩٥٢ وعنوانه "سوف نفوز بفضله" صرح بفخر أن الإمبراطورية البريطانية ودول الكومنولث تعد النجاح الأعظم للشعب البريطاني فإن التماسك الوطني، ولكن على نحو جاد وصريح، دعا المستعمرات إلى العودة للماضي.

كان هناك رابطة من أعضاء البرلمان المنتمين للحزب اليميني الذين تسببوا في عدة ضجات بتحالفهم مع جريدة "ديلي إكسبريس" (Daily express) وبشكل أقل وضوحًا مع جريدة "ديلي تلغراف:" (Daily Telegraph) وقللوا من سرعة تدهور الإمبراطورية. لكن ماكميلان منح تعويضات لكل من قاموا بإحباط الجماهير عن اللجوء إلى سياسة خارجية طموح وعسكرية وضعت للرفع من شأن بريطانيا بالمقارنة بغيرها من الأمم.

وعند مطلع شهر أغسطس عام ١٩٥٥ أدركت بريطانيا بمرارة أنه ليس بإمكانها تكريس سوى ١٠ بالمائة من إجمالى ناتجها الخام للجيش. لذا تم اقتراح تقليص عدد المجندين من ٨٣٥٠٠٠ مجند إلى ٧٠٠٠٠٠ خلال السنوات الثلاث التالية. وتسببت حرب السويس فى زيادة مدى الخلل الموجود فى خزانة الدولة.

لكن بحلول شهر يناير عام ١٩٥٧، بدأ وزير الدفاع الجديد، "دونكان سانديز:، (Duncan Sandys) بوضع خطط لفحص إستراتيجية الدولة ومضاعفة عوائدها على المدى البعيد شملت ثلاث نقاط. لقد استهلكت وزراة الدفاع أموالاً لم تكن بريطانيا قادرة على سدادها، وقد عرضت حرب السويس عدم قدرة قوات بريطانيا التقليدية على احتواء أزمة، وعلى أى حال فإن هذه النوعية من المغامرات صارت جزءًا من الماضى، وقد أصبح امتلاك ترسانة نووية قادرة على تسديد ضربات - كما هى الحال مع روسيا- أمرًا حيويًا.

وكما حدث مع حزب العمال عام ١٩٤٦، لم يثق حزب المحافظين فى الولايات المتحدة الأمريكية لمساندة بريطانيا عند الضرورة القصوى، وقد برر هذه المخاوف سلوكها أثناء حرب السويس.

وعند تحويل هذه الأفكار النظرية إلى واقع إستريتجى تسبب ذلك فى صدور مرسوم بحلول شهر مايو عام ١٩٥٧ أدى إلى استياء المؤسسات الحكومية. وقد تم تقليص جنود الجيش والبحرية والقوات الجوية ليصل إلى ٣٧٥٠٠٠ فرد عند حلول عام ١٩٦٢، وثم بعد قد يعتمد الأمن القومى على مخزون من الأسلحة النووية الاندماجية وأنظمة صواريخ من أجل حماية البلاد.

كما سيتم إلغاء الموانئ القديمة فى جنوب المحيط الأطلسى وأمريكا الشمالية وغرب الهند، كما سيتم تقليص أعداد القوات القابعة شرق قناة

السويس على نحو مفاجئ وعنيف. ومنذ ذلك التاريخ، لم يكن بوسع بريطانيا إعداد القوات اللازمة لخوض حملات استعمارية بعيدة المدى. وبحلول عام ١٩٥٩، تم تقليل عدد المجندين من أجل إدخال اليأس فى قلوب الحراس القدامى المحتجين الذين ظنوا أن الانحطاط والفوضى بين الشباب قد يزدادان على نحو أسرع من المعتاد.

إن القوات المسلحة التى قام سانديز (Sandys) بتغيير ملامحها تم قبولها بمزيج من الغضب والضجر من قبل كبار ضباط الجيش. وعند أول مناظرة مع الوزراء، لجأوا للأفكار القديمة التى كانت تنادى بتجنيد أعداد زائدة من جنود المستعمرات الأفريقية التى آمنت بفكرة رجوع تلك البلاد تحت الحماية البريطانية مرة أخرى فى السنوات القادمة. وفى النهاية، انصاع قادة الجيش للأوامر وقاموا باستدعاء جميع الكتائب ومعها قاموا بطى الخرائط التى كانت تحتوى على كل البلدان التى كانت تشكل الإمبراطورية غير الرسمية ولكن بحبر بال وباهت. وقد كانت القوات التى تم سحبها من عدن والشرق الأقصى حتى نهاية الستينيات عندما امتنعت حكومة جديدة عن إنفاق الأموال على ذلك: فرحةً عارمة لحزب العمال، وقد تكرر هذا الموقف كثيرًا أثناء تفكك المستعمرات البريطانية فى ختام القرن العشرين، على الرغم من أن سيناريوهات حصول المستعمرات على الاستقلال لم يكن لها تأثير يذكر على الميزانية العامة، وبحلول عام١٩٦٣، بلغت تكلفة الجيش١٧٢١ مليون جنيه إسترلينى مما شكل نحو عشر الناتج القومى الخام.

وفى شهر مايو عام ١٩٥٧، عند اجتماع الوزراء واللواءات ولواءات البحرية والقوات الجوية لمناقشة ما ينبغى أن تكون الحال عليها، نجحت بريطانيا فى تفجير أول قنبلة هيدروجينية فى جزيرة كريسماس التى تقع فى غرب المحيط الهادى وتم تفجير ثلاث قنابل أخرى قبل شهر نوفمبر، ثم

قامت الحكومة بفرض عقوبات على من يمتلك صاروخًا بعيد المدى أطلـق عليه أسم "بلوسترايك" وفى نفس الوقت، أنشغل "ماكميلان" بتحسين علاقـات بلاده مع الولايات المتحدة الأمريكية متخيلاً مثلما فعل من سبقوه ومن خلفوه أن العلاقات الخاصة قد تضيف من بريق مكانة بريطانيا فى العالم وفى عام ١٩٥٧، قبلت بريطانيا بالإحتفاظ على صواريخ أمريكية أطلق عليهـا أسـم "ثور" كما سمحت فى عام١٩٦٠ بصناعة الغواصات "بولاريس" النووية فى قاعدة "كلايد" وبعد مرور عامين، أقنع "ماكميلان" الرئيس "جـون كينيـدى" بتزويد بريطانيا بصواريخ من طراز "بولاريس"، مع أن مشروع الصواريخ "بلوسترايك" تم الاعتراض عليه نظرًا لارتفاع ثمنه وامتلاك ترسانة مـستقلة من القنابل الهيدروجينة وضعت بريطانيا ومن بعدها فرنسا فى صف الـدول العظمى. كما منحت امتيازات انتخابية مفيدة لصالح حزب المحافظين كمـا حدث إنشقاق فى صفوف حزب العمل فيما يتعلق بالأسـلحة النوويـة عنـد حدوث حملة مناهضة لنزع السلاح النووى، مع وجود أغلبية فيهـا تطلـب بفرضها، ولفترة عند مطلع الستينيات وجد حزب العمل نفسه فى مأزق لنزع الأسلحة النووية من بريطانيا؛ اللجوء لمفردات قديمة لهذا الغرض والوعـد باستخدام أسلحة تقليدية. لذا، تحت قيادة ماكميلان الحكيمة، تخلصت بريطانيا من أعبائها الإمبريالية، ولكنها ما زالت قوة عظمى ولو حتى بشكل نظـرى على مقاومة الحرب النفسية التى يشنها الاتحاد الـسوفيتى بزيـادة إنتاجهـا للأسلحة النووية، بشرط أن الولايات المتحـدة الأمريكيـة انتهجـت نفـس الأسلوب. وبشكل ظاهرى على الأقل لم يكن الفشل الإمبريالى ملازمًا لفقدان هيبة بريطانيا أمام كل العالم، ومن الممكن أن يكون الجناح اليمينى لحـزب المحافظين أن يشعر ببعض الطمأنينة، ولم يهـتم أغلـب النـاخبين سـوى للموضوعات اليومية التافهة وعندئذ تسبب "مـاكميلان": (Macmillan) فـى إثراء حزب المحافظين، ويمكن خصومه ادعاء التضخم لاحقًا.

شهدت نهاية الخمسينيات ارتفاع مستوى المعيشة فى البلاد كلها، فإن ما يعتبر رفاهية للأغنياء أصبح من الضروريات للفقراء، وهذا ما صرح به "ماكميلان": (Macmillan) الذى أوضح أن هذا الرخاء من صنع سياسات حزبه الاقتصادية، إن كلمة "ماكميلان" الرائدة والسارية (وإنكم لتحيونا فى هذا الرخاء) حازت على مصداقية كبيرة، كما جذبت الكثير من الأصوات، وما حدث بمدينة السويس، واقتراب فناء الإمبراطورية لم يتسبب فى إرباك الناخبين على نحو واسع حتى لم يشعروا بلوم إزاء القمع الذى جرى فى "نياسالاند" والمعاملة الوحشية التى عانى منها معتقلو الماو ماو فى معتقل "هولا". وفى عام ١٩٥٥ حازت الانتخابات العامة على ٩,٤٧ بالمائة من الأصوات، وهى أعلى نسبة منذ بداية الحرب فى أكتوبر عام ١٩٥٩ نال الحزب على ٣,٤٩ بالمائة من الأصوات مما تسبب فى فوز "ماكميلان" بجدارة.

برغم أنه من الصعب قياس الأمر بدقة، فيبدو أن جماهير الناخبين البريطانيين لم يكترثوا إطلاقًا لتفكك المستعمرات التى حملت طوابع البريد أسماءها. لم يكن هناك أى حزب دمج الإمبريالية مع أيديولوجيته. ولم يقل احترام أى بلد لنفسه بسبب تفكك مستعمراته، ولكن بالعكس زاد هذا الاحترام منذ تبنيها لأخلاقيات أسمى وكان يتم تنفيذها بدون مجازر أو عمليات قمع.

والنظر مليًا إلى كيف كانت كل من فرنسا والبرتغال بمثابة درس مفيد لعدم خوض سياسات عنترية، كان هناك جماعات صغيرة ندمت على نهاية الإمبراطورية، ولكن برغم ارتفاع احتجاجاتهم فهم أثروا إلى حد ما الحياة السياسية.

والقليل من الناس خارج أندية لندن والمطاعم العسكرية كانت تؤرقهم فكرة انسحاب بريطانيا من منطقة الشرق الأوسط، أو أن السكان البيض فى

شرق أفريقيا ووسطها كانوا على مقربة من مواجهة مستقبل يحكمه رجـال سود، ولكن كانت لجماعة المستوطنين نفوذ فى دوائـر حـزب المحـافظين اليميني؛ ولذا تحتم على "ماكميلان" التعامل مع السياسة الأفريقية بحرص، إن أراد تأمين موقفه داخل الحزب، وقد قبلت على مضض إحـدى المـدافعات باستماتة عن المستوطنين وهى ماركيزة "سالزبوري" عودة الأسقف القبرصى القومى ويدعى "ماكاريوس". لكن لم تخطئ الماركيزة، كما لم تنتشر الفوضى فى الحزب، وصار الأسقف أول رئيس عام لقبرص، وسمح لبريطانيا بإنشاء قاعدة على الجزيرة وفيما بعد شارك بفاعليته فى مؤتمرات الكومونولث.

ولم يخسر أى شخص وظيفته، كما لم يتم إغلاق مصانع أو تتم عرقلة أى فرص للاستثمار كنتيجة لفقدان المستعمرات. وزادت صادرات بريطانيا لدول الكومونولث بشكل ملحوظ، ففى عام ١٩٥٨، صار الإجمـالى ١٢٤٠ مليون جنيه إسترلينى، وفى عام ١٩٦٢، ١١٦٣ مليون جنيـه وفـى عـام ١٩٦٩، ١٤١٩ مليون جنيه، وبالمقارنة، ازدادت الـصادرات تجـاه بـلاد المجموعة الأوربية للاقتصاد محققة ٢٦٣٤ مليون جنيه إسترليني عام ١٩٦٩ برغم أنه كان من اللازم أن تنتظر بريطانيا مرور أربـع سـنوات للتمتـع بعضوية كاملة وداخل أعضاء الكونولث، تضاعفت التجارة على نحو سريع مع أعضاء يبحثون عن أسواق جديـدة ومـصادر للمـواد الخـام خـارج المجموعة. وقد قفزت قيمة الصادرات الكندية إلى الولايات المتحدة الأمريكية من ٣٢٩ مليون جنيه إسترلينى عام ١٩٥٨ إلى ٥٣٤ مليونًا عام١٩٦٢[٨].

ولم تعط الدول الجديدة التى حلت محل المستعمرات القديمة امتيـازات تجارية معينة بشكل تلقائى، أما فى أفريقيا كانت تقدم كل من جامبيا وملاوى (نياسلاند سابقًا) مستوردين بريطانيين مميزين عام ١٩٦٧ معًـا مـع دول جنوب أفريقيا التى غادرت دول الكومونولث قبل ست سنوات مضت.

ليس هذا المكان المناسب من أجل رسم الطريق الطويل والشاق كثيرًا مضجرًا، وشقت به بريطانيا سبيلها إلى المجموعة الأوربية للاقتصاد. وتم اتخاذ الخطوات الأولى عام ١٩٥٧ وبشكل ما، كان هناك من يقول إن بريطانيا تبحث عن دور جديد فى العالم وقد يتم استبدال القوة الإمبريالية والعالمية لأفضل البدائل أو الزعامات لغرب أوربا، وقد أدرك الزعيم "شارل دى جول" الذى أصبح رئيسًا لفرنسا، عندما بدأت بريطانيا تفقد سلطاتها الدولية ومستعمراتها.

كما أراد أيضًا تعويض "مجده السابق" ولم يرغب فى السماح بوجود شريك فى سيادة أوربا، وترتب على ذلك أن تقدم بريطانيا فى أوربا كان أمرًا أكثر إيلامًا أمام شعبها عند انسحابها من الإمبراطورية.

وفى بعض الأحوال بدت طريقة تعامل بريطانيا مع دول أوربا تتسم بالحرص وعدم التحمس. وسبب ذلك الأمر هو عدم رغبتها فى نسيان الماضى تمامًا، والاعتراف بأن الكومونولث أصبح رهانًا خاسرًا وحاولت مقالة مكتوبة من حزب المحافظين فى جريدة التايمز فى شهر أبريل عام ١٩٦٤ محو الذكريات القديمة عن أجندة حزبه والبلد لإسقاط ضحايا إلى(الإحباط الذاتى على مدى بعيد).

فى تقديرهم كان وجود القوة الحقيقية فى العالم المعاصر، فقد كانت دول الكومونولث غير معروفة وغير قابلة للتعريف، وتم وصف ثلاثة من زعمائها وهم "نهرو"، و"نكروماه": (Nkrumah)، و"ماكاريوس":(Makarios) على أنهم متطفلون: إنهم لم يقدموا شيئًا يذكر فهم يحصلون على أى امتياز قريب منهم، كما هى الحال فى القواعد المنسية وعديمة الفائدة الموجودة فى عدن وعبر المحيط الهندي؛ كانت بمثابة أماكن تساعدنا على الوصول إلى أماكن لسنا فى حاجة للذهاب إليها[٩]، فقد نمت ألمانيا الغربية واليابان بدون

قواعد ولا حتى كومونولث، ولهذا السبب قد يعول تخلف الاقتصاد البريطاني، وقد أزعجت هذه الواقعية المفرطة أحد أعضاء حزب المحافظين الذى عاد إلى اتحاد الكومونولث عن طريق أعمدة المراسلة فى إحدى الجرائد، وفى نفس الوقت الذى كانت تخسر فيه بريطانيا، فهى كانت تخسر أيضا الكثير من قدراتها على التعبير عن نفسها، وبحلول عام ١٩٦٠، صار الميسور معترفا به قانونا، كما خسر التاج القضية التى رفعها ضد الكاتب د. هـ "لورانس" وكتابه عشيق السيدة تشاترلى، فى عام ١٩٦٥ ألغيت الرقابة على الأعمال المسرحية ثم فى عام ١٩٦٧ أبيح الشذوذ الجنسى كما أبيح الإجهاض، وفى عام١٩٦٩ صارت إجراءات الطلاق أسهل مما كانت عليه، وبدت بريطانيا كما لو كانت قللت من تأثير مدنية لندن التى كانت عاصمة للإمبريالية، والتى ضرب بها المثال فى المستجدات والموضة، وكما أباحت الجنس الذى أصبح أمرًا مألوفًا فى الستينيات ولم يعد هناك شيء أوضح من إضمحلال النظام الجديد وقوانينه. ومن النجوم الذين نادرًا ما يحلقون رؤوسهم ومقاليدهم الذين يرتدون سراويل من الجينز ويغنون ويرقصون بشكل صاخب، وهذا ما أحيا الإمبراطورية المتمثلة فى معطف رجال الجيش الأحمر القانى وأسوأ ما حدث هو انتهاك الإمبراطورية، وهى التى شقت طريقها إلى كل شيء بدءًا من سراويل النساء حتى أكياس التسوق.

لقد كان انتهاك الماضى ومقدساته أحد مظاهر التغيير الجذرى الذى يمر به المجتمع البريطانى، فقد كان سلوك البريطانيين أقرب إلى ثورة، ويمكننا ذكر نفس الشيء عند فحص فكر الشعب نفسه وأفكار وعقليته ورأيه عن نفسه فى مطلع الخمسينيات فى بادئ الأمر، كان هذا التغير بطيئًا وغير متنوع، ولم يكن بوسع أحد التنبؤ بإيقاع هذا التغيير أو حتى مصيره، لقد تزامن هذا التغيير مع تفكك الإمبراطورية لسببين؛ أولهما شمولى على هجوم

جذرى على القيم والاتجاهات التقليدية وغالبيتها معروفة من الإمبرطوريـــة، ومن صنعوها، وزعموها ولو كانت أفكارهم المثالية مغلوطة فربما أدى هذا إلى تآكل المؤسسة من الداخل، وثانيهما عندما بدأ إيقاع هذا التغييـــر يـــزداد بسرعة فإن الجماهير وخاصة الشباب وجدوا أنه ينبغى عليهم إنفاق المزيـــد من المال على لهوهم ولم يعد ضعف بريطانيا أمرا مهما لديهم، على أى حال كان هناك كثير ممن لا يكترثون بأمجاد بريطانيا وعلى اســتعداد للــضرب عرض الحائط بها.

وأول شعار تم رصده فى عادات البريطانيين وإخلاقيات يتمثل فـــى كلمة غضب، وأول رابطة مشتركة بين الكتاب الشباب فى الخمسينيات كانت تحتوى على مجتمع يفتقر إلى التغيير، كانت كل الأشكال النشاط الإنـــسانى والمشاعر الإنسانية يعرقلها تيار محافظ لا يكترث لثقافة، كما أن هذا التيـــار راضٍ عن نفسه ومحيط بكل شيء، وقد كان احترام الماضى شـــيئًا يعكـــر صفو الحاضر وكان سببا لعرقلة التقدم، وقد كان الغضب شيئًا يـــشعر بـــه معظم الشباب، وقد ردوا بالاشتراك مع من هم أكبر منهم فى العمر بالإجابة بحفاوة للكتاب الذين ترجموا الإحباط الذى يعانون منه. وكل ضربة كان يتم تسديدها للنظام القديم ورموزه تستقطب متمردين آخرين، والكثير منهم كانوا يعتنقون المستجدات المدمرة لكل ما هو قديم فى الحال مثل الروك أنـــد رول الأمريكى وموسيقى الجاز والتغييرات التى كانت تتسبب فيها خـــصوصيات المجتمع. ولكن فى أحد النصوص المتعلقة بهذه الفترة فإن الكتاب الناظر إلى الغضب وكاتبه جون أوسبورن والمؤيد الرئيس جيما بورتر (Jimmy Porter) نعى قلة الأسباب من أجل الاستمرار على هذه الحال، فقد اشتهر بوصفه أنه لا يزال فى منتصف فترة الثورة الفرنسية، فإنه لا يعرف أين موقعه ولا حتى مصيره، وبدون قصور يمكن مهاجمتها، فقد قضى بورتر وأتباعه على قـــيم النظام القديم ومحرماته فلم يكن سوى إمبراطورية واحدة.

فقد كانت في نفس الوقت تعبيرًا وفرعًا جديدًا للاهتمام الاجتماعي والتيار المحافظ الذى احتقره، وفضلاً عن ذلك، تم إنشاؤه وكان يتم قيادته من ممثلى هذه الطبقة التى كانت تحتكر السلطة التى كانت السبب الرئيسى للشلل الذى تعانى منه البلاد حينذاك، وقد اصطدمت نظرة سريعة بهذا الركن من الإيديولوجية الإمبريالية، وهى المصدر الفطرى لعنفوان العرف البريطانى ومصدر قوته بواسطة كتاب وليام جولدينج وعنوانه ملك الذباب (عام ١٩٥٤).

إن حزب "جولدنج" يشبه تلاميذ يستغيثون على جزيرة مدارية مثلما فعل "روبنسون كروزو": (Robinson Crusoe) لم يعتمدوا على سواعدهم وقاموا بترويض البيئة المحيطة بهم، ولكن حدث ما كان متوقعًا فتحولوا إلى "وحوش بدائيين" وكانوا أشبه بالوحوش التى تعامل معها المغامرون الذين خاضوا البحار الجنوبية، والتى كانت تسرد قصصهم فى المدارس الفكتورية. أصبحت هذه الأقصوصة الأخلاقية التى تنتقد هشاشة قيم الحضارة نصًا مهمًا فى المدارس، وهى إجابة متشائمة لقصة "بالانتين" وعنوانها "جزيرة المرجان" وصدرت فى منتصف خمسينيات القرن العشرين.

وقد هوجم أحد أبطال الإمبريالية، وكان لورانس (Lawrence) العرب، وقد كان خصمه رجلاً غاضبًا ومسنًا ويدعى ريتشارد ألدينجتون (Richard Aldington) عام ١٩٥٥. وقد عرضت قصة حياة لورانس على أنه رجل خدع العرب ثم أصدقاءه ثم نفسه. فتسبب سلوكه الأقرب بسلوك المتسولين فى وصفه على أنه "رجل مناسب لطبقته اجتماعية وزمنه". وإن المدافعين عن لورانس وطبقته الاجتماعية وإنجازات زمنه فضحوا الدينجتون على أنه فظ، وفى أحيان أخرى على أنه فى منتهى الفظاظة. لقد تسببت شدتها فى إيضاح أن سمعة الكثير من الرجال كانت فى خطر. وبتلطيخ سمعة لورانس، أعاد الدينجتون النظر فى قيم الدولة التى خلدت ذكراه.

وليس من الوارد أن حوار "الدينجتون" قد يكون قد تسبب فـــى نفـــس ردود الأفعال التى ظهرت بعد حرب السويس.

إن حرب السويس وبزوغ روح الوطنية التى أوجـــدتها موضـــوعات لكتاب "لجون أوزبورن" (John Osborne) وعنوانه "المحاور" ظهر لأول مرة فى شهر أبريل عام ١٩٥٧. فقد مزجت هذه الرواية نعيا لموسيقى الملاهـــى الليلية وسخرية من أدب الطبقات الكادحة وكل من الطبقات الوسطى والدنيا. ومحاور عنوان الكتاب وهو "أرشى رايس" (وقام بدوره لورانس أوليفييـــه: Lawrence Olivier) مجرد ممثل فاشل، ولكنـــه مـــرح ويقـــرن حواراتـــه المضحكة مع الأغانى العاطفية.

وانتمت وجهات نظره وأفعاله على حد سواء للزمن الذى تغنـــى فيـــه مجموعات المغنين أغنية "جنود الملكة". كما أن لـــ "رايس" أيـــضا ديوانـــا لأناشيد متشابهة:

إن الجيش والبحرية والقوات الجوية يمثل كل ما نحن فى حاجة إليه، من أجل الإثبات لكل من يريدون تلويث سمعتنا أن كل شيء لا يزال تحـــت سيطرتك، ويتمثل ذلك فى اللون الأحمر والأبيض والأزرق لا تزال قطع من اللون الأحمر على الخريطة ولن نستسلم بدون قتال.

وفى معركة السويس، لقى نجل أرشى حتفه، وكـــان يـــدعى "ميـــك" Mike مما تسبب فى حزن بالغ لأبيه. وتنتهى المسرحية مع رايس مـــستأنفا حياته الروتينية مبتدئا بموسيقى الـــ "روك أند رول" الصاخبة أمـــام شاشـــة بيضاء تظهر خلفها بريطانيا (Britain) الناجية من أجل قبعة مصنوعة مـــن سبيكة من الزنك والنحاس.

فإن إمبراطورية "أوزبورن" مثل إمبراطورية "رايس": (Rice) صارت متداعية ومشرفة على الانهيار.

وقد اقتبس كاتب مسرحي غاضب ويدعى "جون أردن" من حلقة من حلقات الحروب التي خاضتها بريطانيا وعنوانها "رقصة الشاويش ما سجريف" التي ظهرت في شهر أكتوبر عام ١٩٥٩. تدور أحداث هذه الرواية في السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكن الإشارة إلى الإرهابيين وإلى "حالة الطوارئ" توحي بأن السيناريو أشبه بالزمن الحالي باستثناء الملابس. وفي هذه القصة، يعود أربعة جنود إلى مسقط رأس أحد زملائهم وهم يحملون رفاته، وجدير بالذكر أن هؤلاء الأربعة هربوا من الجيش، ومسقط رأس هذا الزميل يعاني من التلوث الذي تسببه الصناعة والخلافات التي تنجم منها. لقد لقي هذا الجندي حتفه إثر إصابته بعيار ناري في ظهره من جندي لا ينتمي لجيش نظامي، وقد تسببت وفاته إلى مظاهرة جمعت مشبوهين مما تسبب في مقتل ثمانية وثلاثين من المدنيين. وعندما تسلح "ماسجريف" برشاش جاتلينج سرقه قرر الانتقام بشكل غريب من أهل البلدة التي تسببت في مقتل هذا الشاب باسم الإمبراطورية.

تنتمي فكرة هذه الرواية إلى منتصف القرن العشرين. لقد وصف "ماسجريف": (Masgreave) الحرب التي خاضها بأنها حرب ظالمة وجائرة وتسببت في خسائر في الأرواح هباءً وأطلق على أعداء الإمبراطورية اسم وطنيين. وقد صرح قاضي ديني بتحمل بريطانيا لمسئوليات خاصة ، وجدير بالذكر بأنها على مستوى عالمي. وهي أيضًا على مستوى من النبل. وهي مسئوليات لسلطة من أعظم السلطات. ومن الجائز أن تكون قد أوحت هذه الكلمات بالجنة. وإن إمبراطورية "أردن" مصدر للفساد، وخاصة فيما يتعلق بالطبقة الكادحة التي تحيا وتموت ولا تتوقف عن أداء الأعمال الوضيعة.

وقد ذكر مؤلف رواية "رقصة الشاويش ماسجراف" الكثير من التقاليد اليسارية المتطرفة المناهضة للإمبريالية فى روايته. وعلى الرغم من "أردن" (Arden) وكتاب المسرحيات الرواد الذين ينتمون لأواخر خمسينيات القــرن العشرين ومطلع ستينيات نفس القرن رغبوا فى قيادة عناصر الطبقة الكادحة، كما أن السواد الأعظم من الذين واظبوا على مــشاهدة مــسرحياتهم كــانوا ينتمون إلى الطبقة الوسطى. وبرغم ذلك، فقد دخلت أعمالهم وأفكارهم فـــى العقدين التاليين فى فصول المدارس الثانوية مرورًا بمقررات الاختبـــارات. وقد شكل التلفاز معظم ما عبرت به الطبقة الكادحة عما بداخلها، وهذا مـــع ابتعادها شيئًا فشيئًا عن دور العرض.

وقد تم تعريف مشكلات الإمبريالية عن طريق بعض البرامج الحوارية مثل برنامج "هذا المساء" و"بانوراما" التى كثيرًا ما قدمت حوارات وتقـــارير فى مكان حدوثها. لقد وضعت هذه النوعية من البرامج الحكومة فى وضـــع حرج، وعلى الأقل التى حاولت وضع الرقابة على تغطيـــة الموضـــوعات الحساسة المتعلقة بالاستعمار. وبحلول شهر مـــارس ١٩٥٩، أعلـــن حـــاكم نيازالاند حالة الطوارئ فى مستعمرته، دعمًا لقمع ثـــورة وهجمـــات ضـــد الأوربيين. ومن أجل استبعاد فكرة– على نحو يائس– أن بريطانيـــا كانـــت تقاوم القوميات الأفريقية، كما طلبت وزارة المستعمرات من رئيس محطـــة الـــ بى بى سى، وكان وقتذاك اللورد "هيل" من قدم يد العون.

وقد علق البيروقراطيون على هذا الأمر قائلين: "من الأفضل اختيـــار مصيرنا من الاشتراك فى برنامج معرض للإطاحة أعده مستجوبون ثقيلـــو الظل أو من متحدث باسم حزب معارض. وبعبـــارة أخـــرى رحـــب "آلان لينوكس: (Alan Linox) بتحرير نص للتعبير عن نفسه أو بـــإجراء حـــوار صحفى. لقد رفض اللورد "هيل": (Hull) تلك المحاولة السخيفة مـــن أجـــل

رفض أى حوار مفتوح، كما لاقى لينوكس بويد (Linox Boyd) نفس المعاملة التى يلاقيها وزير آخر سياساته قائمة على الجدال(١١). فقد عـرض حالتـه بشكل يتسم بالبساطة فى جريدة "بانوراما" وفى المساء التالى، عبّر "جـيمس كالاجان" (James Callagan) عن وجهات نظر العمال ومشكلاتهم فى جريدة "هذا المساء": (Tonight).

ومن ضمن أكثر ما تسبب فى الضجيج فى قضية نياسـلاند اغتيـال عشرين متظاهرا رميًا بالرصاص فى مدينة "إن كاتا بي". وقد كان مقتبـسًا من مجزرة "أمريستار" عام ١٩١٩ ولكن فى الوقت الحالى فكرة المـسرحية التليفزيونية "نزاع فى كالاندي" التى عرضتها محطة الـ بى بى سـى BBC عام ١٩٦١. وقصتها هى ثورة إحدى المستعمرات البريطانية فـى الـشرق الأوسط، وسبب ثورة هذه المستعمرة افتقار حاكمها للكفاءة. وقد بدأ تـدخل قائد الجيش المحلى الذى أعلن حالة الطوارئ، كما بدأت فرقة فـى إطـلاق النار على جماعات المتظاهرين مما تسبب فى المقتل والإصـابة لـسبعمائة شخص. بالإضافة إلى ذلك فقد زاد من حالة التوتر هذه قدوم ابنـة الحـاكم البريطانى من مدينة أوكسفورد (Oxford) متشبعة بالأفكار اليسارية المناهضة للاستعمار. وفى نهاية المطاف، تم عزل هذا الحـاكم بعـد عمليـة تفتـيش رسمية. فإن عملية خدمة الإمبراطورية فى ستينيات القرن العشرين كانـت عملية شاقة وتحتم على الجنود طاعة الأوامر بلا أى رحمة.

لقد كانت هذه التخيلات لتلك النزاعات الإمبريالية، والتى تلت وجودها، أمرًا غير مألوف. وأينما ذكرت الإمبراطورية، فضلت محطة الـ بـى بـى سى والهيئات المستقلة الاستناد إلى وثائق ملموسة. وإثر إعدام ستة وسبعين من السود رميًا بالرصاص فى مدينة "شارب فيل" التى تقع على مقربة مـن مدينة "جوهانسبورج" فى شهر مارس عـام ١٩٦٠، قامـت ITV (محطـة

التليفزيون المستقلة) باتخاذ خطوة جريئة متمثلة فى إلغاء أحد البرامج الشهيرة وعنوانه "ضاعف من رصيدك" واستبدال برنامجًا آخر به وعنوانه "الاتحاد المقسوم" الذى قدم تقريرًا دام لمدة ساعة عن دولة جنوب أفريقيا. وبعد فترة وجيزة، دافع برنامج "هذا الأسبوع" الذى بثته ITV عن الزعيم السياسى لـ "نياسلاند" ويدعى "هاستينج باندا" لسفره إلى العاصمة "لندن" من أجل إجراء حوار مباشر فى أحد البرامج، مما تسبب فى غضب جريدة (Daily Express) التى لم ترغب فى بث هذه الآراء. وفى نهاية العام، عرضت جرانادا فيلمًا تسجيليًا عن حرب الـ "بوير": (Boer) على أنه تفسير جزئى للنزاع الراهن فى دولة جنوب أفريقيا. وأطلق عليها، على نحو غريب الشكل فى ضوء بعض أحداثها، "الحرب المؤدبة".

ولأول مرة فى تاريخ الإمبراطورية، واجهت الجماهير البريطانية حقائقها، وبالإضافة إلى ذلك، وفى إحدى المراحل الحرجة لاستقلال مستعمرات أفريقيا، كان الجميع مكلفًا بالتوجه إلى البلد مباشرة. إنها تحاول المراهنة على سير تاريخ الإمبريالية التى حصلت علي هذا الامتياز منذ ثمانين عامًا أو مائة عام.

ولم يتوقف منتجو الأفلام التى عرضت بعد الحرب عن استخدام خلفيات وموضوعات متصلة بالإمبرنيالية. وبرغم ذلك، طرأت تغييرات واضحة فى النبرة والنهج اللذين أثبتا تغييرات شكل المقابلات الرسمية خلال السنوات العشرين الماضية. لقد كان حكام المديريات يفرطون فى مدح الحكومة البريطانية الاستعمارية، ومع ذلك توقف السكان الوطنيون عن تقديس إمبراطور بريطانيا. وفى بعض الأحيان، كان من الجائز أن ترتعد شفاه بعض الناس من فرط الرعب. وبرغم ذلك، فلم يتغير تأثير كل من الفعل والجاذبية.

إن رواية "الحدود الشمالية الغربية" التى صدرت عام ١٩٥٩ عبارة عن وصف دقيق عن حال الهند التى كانت عليها فى عهد الإمبراطور إدوارد (Edward). ولكنها تحتوى على تيارات تحتية خاصة بالعصور الحديثة: مثل المجازر التى قامت بين معتنقى الديانات المختلفة وغياب التسامح القائم على العنصر وبشائر القوميات الوليدة. ينجى أحد الضباط البريطانيين (ألا وهو كينيث مور: Kenneth Moor) غلامًا، وكان هذا الغلام أحد أبناء حاكم هندى، وبعد مغامرة مثيرة فى أحد القطارات، يصل به إلى بر الأمان. وعلى نقيض ذلك، فإن روايته المختلفة شكلاً وموضوعًا عن التى سبقتها وعنوانها "الطبلة" (The drum)، يقر فيها الأمير أن الاعتراف بالجميل لن يكون سببا فى حبه لبريطانيا. وعندما صار رجلاً، شب على عدم الثقة فى البريطانيين، لذا فإن قوى التاريخ لم تعد فى صف الحاكم الهندى.

هناك الكثير من الأعمال الدرامية فى الفيلم وعنوانه "لورانس العرب" (إنتاج عام ١٩٦٢) ولكن يعانى البطل من التأنيب، كما أن هناك من يلمح شذوذه الجنسى، والقصة تبدى بوضوح أن بريطانيا تنافق العرب. ومن أفضل الأفلام التى تناولت موضوع الإمبريالية عنوانه "زولو"، فهى يسرد قصة "مجيدة" عن تاريخ الإمبريالية، ألا وهى دفاع "روك دريفت": (Rook Drift) أثناء حرب الزولو ولكن موضوع هذا الفيلم هو الإصرار الذى يبديه رجال عاديون فى ظروف غير عادية. وأهم ما يميز المعركة الرومانسية التى كانت تتسم بها كما يرى المشاهدون الاشتباكات بين الرجال البيض والسود وكلهم أبطال ويتقاتلون دون معرفة لأسباب هذا القتال. إن الحالة المزاجية الطاغية فى ذلك السياق هى السوداوية والتشاؤم، وكما يقول أحد جنود السود: "نحن مواجدون لأنه لا يوجد أشخاص سوانا". فإنه يقاتل مثل غيره من أجل حماية أرواح زملائه. وليس هناك من يذكر الملكة أو حب الوطن.

إن القضاء على الإمبراطورية كان موضوع الفيلم الذى يحتوى على الكثير من القلق والتنبؤات وعنوانه "مسدسات فى مدينة باتاسي" (إنتاج عام ١٩٦٤) الذى قام فيه "ريتشارد أتنبوروج" بدور ضابط قاسى يقوم بتدريب الفرق الأفريقية حتى يحصل وطنهم على الاستقلال. وقامت إحدى الفتيات بنشر أخبار فى جامعتها بإنجلترا أن NCO عنصرى وإمبريالى للنخاع. وهو فى الواقع، شخص واقعى مجرد من أى مشاعر. ويبوح لها: "إن صفاتنا مثل صفاتهم وعيوبنا مثل عيوبهم".

إن الجو المحيط ملبَّد بالغيوم مع احتمالات ظهور الفساد وتدخل الجيش فى شئون السياسة. وما برر هذا التشاؤم، حدوث انقلاب عسكرى عام ١٩٦٦ أطاح برئيس غانا "نكروما"، وكانت غانا أولى المستعمرات البريطانية التى حصلت على استقلالها.

لقد شهدت نهاية الإمبريالية هجمات على مبرراتها الأخلاقية كما روجت بعض الأكاذيب. لقد كان "شارلتون هستون" الذى قام بدور "جوردون" فى آخر ملحمة إمبريالية كتبها عام ١٩٦٦، وعنوانها "الخرطوم" ممن تيقنوا أن لن يكون هناك إعجاب لهذه النوعية من الأفلام. كما صرح لصحفى من الـ بى بى سى عام ١٩٦٩، أن "الخمسينيات من القرن العشرين لم تعد وقتًا مناسبًا للأبطال"(١٢).

كما يبدو أن اهتمام المجتمع منصب على الضحايا أكثر من اهتمامه على الأبطال. "فقد آن الأوان ليتحدث فيه حثالة المجتمع".

إن التاريخ الإمبريالى بدأ عام ١٩٦٤ مع أول إنتاج لـ "بيتر شافز" (Peter Shavez) لفيلمه الرائع "الصيد الملكى للشمس". تدور أحداث هذا الفيلم حول قصة غزو بيسارو لمملكة "الإنكا: Inca)" فى بيرو فى القرن السادس عشر، وعزل ملكها ثم قتله، واستعباد شعبها إرضاءً لطمع الإسبان

ورياء الكاثوليك. فقد محيت ثقافة بأسرها بشكل منهجي كما تم استئصالها من جذورها بلا رحمة باسم حضارة تدعى أنها أرقى. وهذا ما حدث فى أمريكا الجنوبية لم يمت بأى صلة لما حدث فى العالم على مدار الأعوام المائتين وخمسين التالية.

لم تضف الإمبريالية شيئا جديدا سوى استغلال القوى للضعيف. لكن الشيء الجديد هو افتراض أن هناك ناسًا بلا أى عون لم يلحقوا بقطار التقدم يتم استغلالهم. وعند تفكك الإمبراطورية البريطانية، أصبح أقوى شيء الرغبة فى الانتقام. إن الحضارة السامية المزعومة التى قدمت رعاياها أسيادًا علينا لم تكن مصادفة، وبالطبع هذا ليس مبررا لتدمير باقى الأنظمة تدميرًا تامًا. ينبغى أن تشعر بريطانيا بالخجل بدلاً من الشعور بالفخر إزاء ماضيها الإمبريالى. وفى شهر نوفمبر ١٩٦٧، أصدر "دينيس بوتر" المنتمى للحزب اليسارى المستهزئ بالشئون الدينية الأرثوذكسية الوليدة كالآتى: "ربما أسمى شيء يشعر به مؤرخ شهير يتمثل فى شعوره بالخجل إزاء أجدادنا.. فالآن، أصبح الناتج المثير للسخرية فيما يتعلق بتراث الرجال البيض هو شيئا اختفى من كتب تاريخ تلاميذنا".

كان دخول الإحساس بالذنب الذى تلا مرحلة ما بعد الإمبريالية لدى قلوب الجماهير فى نهاية ستينيات القرن العشرين أمرًا سهلاً نسبيًا. وكانت صورة الإمبراطورية كما تعرضها الأخبار اليومية التى يبثها التلفاز كانت صورة للقمع الذى تتم ممارسته فى كل من فييتنام وموزمبيق وأنجولا ودولة جنوب أفريقيا وفيما بعد روديسيا الجنوبية. فأخبار تلك البلاد التى تخلصت من الاحتلال نقلت اللا مبالاة والدموية التى تمت بها هذه العملية. وبحلول عام ١٩٦٦، أثناء مؤتمر الكومونولث فى مدينة لاجوس، حدث انقلاب عسكرى فى نيجيريا وآخر فى غانا.

وقد شهد عام ١٩٦٧ بداية حرب أهلية فى نيجيريا دامت ثلاث سنوات وموجة من الانقلابات العسكرية فى كل من غانا وسيراليون. كما حدثت انقلابات عسكرية فى السودان عام ١٩٦٩، وبعد مرور عامين، أخذ الجنرال الطاغية "عيدى أمين" زمام الحكم فى أوغندا وبدأ معه عصر من الرعب. ولرعاياه السابقين، بدا ميراث الإمبراطورية على أنه صورة من صور الفساد السياسى وتتابع من الحكومات الكاذبة والحروب الأهلية. والأمر الذى لم يكن غريبًا، طواف فرق ممثلى البريطانيين فى دول أفريقيا، الذين حازوا على إعجاب الجماهير لمسرحيات "ماكبث" و"يوليوس قيصر: Julius Caesar" و "ريتشارد الثالث"، وقد عكست كل من هذه المسرحيات الحياة السياسية فى تلك البلاد، وكان من الطبيعى فى كل الدول الوليدة اللاحقة، وحتى فى بعض ربوع بريطانيا استنكار هذا اللوم الموجه لتلك الإمبراطورية.

وعند مواجهتها لفشل مهمتها الإمبريالية، كانت بريطانيا تحاول إعادة تقييم مبادئها للمرة الأخرى التى حذا حذوها حكامها السابقون والإمبراطورية برمتها.

وفى منتصف خمسينيات القرن العشرين، انهمك علماء الأنثروبولوجيا فى تحليل ما أطلق عليه اسم "التأسيس". قام هؤلاء العلماء بدراسة وتحليل العالم وقيم شبكة فريدة من نوعها امتدت إلى نوادى لندن والسياسة والخدمة العسكرية العليا وكليات جامعة "أوكسفورد": Oxford، و"كامبريدج: Cambridge" ومجالس إدارة المصارف وكبرى الشركات ومنصات الأساقفة والقضاة وقادة الخدمات العسكرية. لقد وضع التعليم الحكومى وتعليم "أوكسبريدج" رابطًا مشتركًا وساعدا على تشكيل مظهر خارجى مشترك وإنسانى ومحافظ ومهتم بما حوله. فقد كانت قوانين بريطانيا هى نفس قوانين الإمبراطورية. رأت هذه المؤسسة أن ممارسة سلطتها حق من حقوقها، كما

أن أعضاءها سعدوا بحكم الهند والإمبراطورية منذ ما كانوا قادرين على القيام بذلك دون الاكتراث كثيرا بمطالب الشعب(١٤).

إن كل من أيدوا وجود الإمبراطورية كانوا أيضًا من انتقدوها. وكانت الحجة العامة السائدة هي أن كل من أمسكوا بزمام الأمور سرًا، ولكن بإحكام لمدة بهذا الطول: كانوا مسئولين على المدى البعيد عن الانحطاط القومي والركود. كما كانوا قادرين أيضًا على ارتكاب أخطاء جسيمة. وكان من رأى أحد محللي شئون الإمبراطورية، كان أحد أعضاء البرلمان السابقين المنتمي لحزب التوري: "بعد ما رأيناه في عملية السويس فلا يمكننا أن نثق بعد ذلك في مصداقية تلك الحكومة"(١٥). لقد كان من الجائز أن يقال نفس الكلام، وهذا ما حدث، إلى حد ما بلهجة أقل حدة، بعد الانهيار الذى حل، على سنغافورة. كان الفرق يكمن في أن كل الأمور استفحلت خارج بريطانيا في منتصف خمسينيات القرن العشرين. والشيء الوحيد الذى كان بوسع الإمبراطورية فعله هو اللجوء للحلول التقليدية مثلما فعل " إيدن" أو البقاء في الصفوف الخلفية، وهي في حالة ارتباك. لقد نعى "جلوب" باشا حاله من الجناح العسكرى للإمبراطورية قائلاً: "بينما يتناقش المواطنون البريطانيون خططًا نبيلة من أجل تحسين السلالات البشرية، فإن جزءًا كبيرًا من العالم على يقين من أن بريطانيا طماعة لأبعد الحدود ولأغراض ليس منها سوى استغلال الأمم الأخرى(١٦).

وبما أن سكان الدول الأجنبية أساءوا فهم بريطانيا، فإن بريطانيا كانت تحترق في عقر دارها، كما بدت عاجزة عن إيجاد الثقة الكافية للدفاع عن نفسها.

إن البرنامج التليفزيوني "كان هذا الأسبوع الذى كان (That was the week) والمجلة الهزلية (Private eye) "عين خاصة" وقد

ظهرا عام ١٩٦١ التى سخرت من الشخصيات العامة بوقاحة غير مسبوقة منذ القرن الثامن عشر.

وفى عام ١٩٦٣، فجرت فضيحة "بروفومو:Profumo" ضجة أطاحت فيما بعد بالإمبراطورية عن طريق تصريح بأن بعض أعضائها كانوا مغرمين ومقلدين للحياة الجنسية التى عاشها الناس فى القرن الثامن عشر. فالاستهزاء من الإمبراطورية وفضح فسادها الأخلاقى أسهمتا فى فوز انتخابات "هارولد ويلسون: Harold Wilson" العامة فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٤. وعند إجراء الانتخابات، قام حزب العمل بانتقاد الحرس القديم الرجعى ووعد بعصر جديد من الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى من شأنه محو كل ما مضى.

فمهاجمة الإمبراطورية وقيمها رافقت هذا التغير، كما تمت مهاجمة بعض الأرستقراطيين التافهين فى المسرحية الاستعراضية وعنوانها "يا لها من حرب لطيفة" (إنتاج عام ١٩٦٤) والفيلم وعنوانه "مسئولية السرية التافهة" (إنتاج عام ١٩٦٧). وهذا الفيلم المذكور فى المقام الثانى مثقف للغاية، بالنسبة لفيلم يحمل نفس الاسم وبطله "إيرول فلين" قد تم عرضه منذ ثلاثين عامًا، وموضوعه قصص خيالية لا تمت بأى صلة للتاريخ ومليء بالأعمال البطولية التى ربطت بطولات الخيالة البريطانية فى الهند مع السرية الشهيرة. اتجهت الطبعة الجديدة على نحو أفضل نحو التشابه التاريخى، وإدانة التعطش للدماء بكراهية، كما تمت إدانة الطبقات الاجتماعية لأن من رأيها أنها تنتمى لجنس أسمى.

وقد هاجم "أندرسون" نفس الطبقة الاجتماعية وقيمها المتوارثة بضراوة فى كتابه وعنوانه "لو... " "If" عام ١٩٦٩، وقام فى نفس الكتاب بوصف مثاليات الإمبراطورية التى كانت فى طريقها للفناء. ووضع هذا الفيلم

فى مدرسة حكومية عصرية، فقد كان عنوانه مقتبسًا من أفضل قصيدة كتبها "كيبلينج: Kipling" الذى كان بمثابة نجم قاد أجيالاً من معلمى المدارس الحكومية وهم فى طريقهم لتغيير مصائر غيرهم. وعلى الرغم من إيمان ناظر المدرسة بالزعامة فى العالم الحديث، فمدرسته أشبه بحكم الطغاة ويقوم بإدارتها نظار أشخاص ساديون أشبه بأعضاء البرلمان الذين يتحدثون فى بعض المناسبات عن مفهوم القدرة وأسلوب خدمة البلاد على طريقة أبطال "هنتي: Henty". وكان خصومهم، وثلاثة طلاب مدرسيون متمردون، ينتمون لحركة ستالكى وشركائهم، ولكن على خلاف أقرانهم فهم لم يلجأوا لنشاطهم وإبداعاتهم لأجل بناء الإمبراطورية. فهم أشبه بمن دمروا الإمبراطورية، ومن ضمنهم مقاتل أسود لا ينتمى لجيش نظامى ظهر على لوحة فى دراستهم[١٧].

ضمت ذروة أحداث الفيلم هؤلاء الثلاثة، بالإضافة إلى خليلة أحدهم وخليل آخر فى أثناء إحيائهم لذكرى ما. وقام بإلقاء الخطبة الرئيسية رجل ذو شارب كث ومغطى بالشارات العسكرية الذى كان من الممكن أن يمثل فى فيلم موضوعه الإمبريالية تم إنتاجه فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وكان يحرك شفتيه بنفس الطريقة المعهودة آنذاك: إن هذا أمر مؤسف. ولكنه من الوارد حاليا فى بريطانيا الاستخفاف بالتقاليد. فالنظام القديم الذى جعل من أمتنا قوة حية هو أمر يبغضه الأطباء النفسيون والقساوسة والمثقفون من كل نوع... ولا نبالى باعتراضات قساة القلوب. فلنكن صادقين مع الاحتفاظ بشرفنا... وقدرتنا ووطنيتنا.

لقد هاجم المتمردون المسلحون بالرشاشات والقنابل اليدوية، وقام زعيمهم بتنظيم حركة المقاومة. وزعيم هؤلاء المتمردين امرأة فى منتصف عمرها تتحدث بلكنة سكان جنوب أفريقيا أو روديسيا.

وفى الكتاب وعنوانه "لو... " تحتل قيم الإمبراطورية ومن قاموا بتأسيسها مساحة واسعة، كما أنها هدف إصابته مرغوبة، واحتلت الإمبراطورية العقول بشكل صامت. وفى الوقت الذى ظهر فيه الفيلم لأول مرة على شاشات دور العرض، كانت الإمبراطورية قد اضمحلت بشكل مادى وملموس، فاستمر "هارولد ويلسون: Harold Wilson" فى سياسة الاستسلام التى سلكها من سبقوه. ونوعًا ما، فإن فكرة هذا الفيلم أشبه بمن يقاتلون طواحين الهواء، فمن المستحيل أن يكون مصير غلمان هذه المدرسة مشابهًا لمصير رؤساء المديريات فى "صومالى لاند: Somaliland" أو يكونوا مشرفين لدى حرس الحدود، حتى لو كان تشديد المدارس على نوعية الألعاب الجماعية وتدريب ضباط الشرطة يستلزم تمارين أخرى. أما فيما يتعلق بواقع هؤلاء الرجال، فإن الإمبراطورية التى عليهم الالتحاق بها ثم البلدة التى سوف تكون تحت سيادتها، كلها مجرد احتمالات، فكل تلك الأفكار خاضعة لأنماط قديمة من العقليات التى يمكن للعنف الإطاحة بها.

فإن ظاهرة الاختلافات فى الآراء الاجتماعية والسياسية والفكرية التى جسدتها الرواية لو " كانت مثلا لخلفية آخر أيام الإمبراطورية. لقد شهدت نفس الحقبة وصول جيل من الصعاليك أصبحوا أثرياء، وهم من أفادوا من مرسوم التربية والتعليم الصادر عام ١٩٤٤، والذى لم يعط أولوية مباشرة فى الحفاظ على النظام القديم. كما أنهم لم يرفضوا هذه الصورة لبريطانيا والعالم، وقد تحدث التلميذ المنهمك فى دراسة قواعد اللغة ويدعى "هارولد ويلسون" وعن تاريخ بريطانيا لكونها قوة عظمى كما قاله "إستونيان كورزون: Estonian Curzon" إلى درجة قوله إن بلده يمتلك ترسانة نووية تفوق الخيال.

وقد وضعت القنابل الهيدروجينيـــة وصـــواريخ بـــولاريس (Polaris) والغواصات النووية (وأولها أطلق عليها اسم دريدنوت: Dreadnought) فـــى صف القوى العظمى، وكانت تعويضًا عن إمبراطورية تتفكك شـــيئًا فـــشيئًا. وعند اختفاء هذه الإمبراطورية، امتثلت للماركسية الإمبريالية المضادة التـــى كانت قائمة فى نهاية القرن التاسع عشر، وكانت الماركسية صـــيحة جديـــدة وقتئذ ثم تآلفت معها. لقد كانت كل المستعمرات الموجودة خلف البحار امتدادًا للرأسمالية التى قمعت رعاياها واستغلتهم بلا أى رحمة. وأصـــبح الأبنـــاء والأحفاد الذين اعتادوا أن يفخروا بالإمبراطورية البريطانية خجولين من هذا الأمر. لقد قللت بريطانيا من شأن الإمبراطورية كما أفسدته، وسواء كان ذلك خطأ أم لا، فمعرفة ذلك الأمر جعلت خسائره أمرًا محتملاً.

(٦)

الحريــة

تضييق الخناق

(١٩٥٩–١٩٨٠)

لن تتمكن بريطانيا من وضعنا تحت رحمة قطيع من القرود السوداء. فانظروا إلى جنوب أفريقيا، هكذا يمكننا التعامل معهم. إن الاستماع إلى هذه العبارة بشكل غير مقصود فى خمارة بمدينة "سالسزبوري" جنوبى "روديسيا" فى فصل الربيع لعام ١٩٦٣، وكان من نطق بها مهاجر سكوتلندى ينتمى إلى الجيل الأول من هؤلاء المهاجرين[١]، وقد بدأت أفريقيا فى التغير حينــذاك، لكن ظل هذا العقل الروديسى ثابتا فى هذا الماضى غير المعقد عند انتــشار أعمدة جرائد "رودس" وأصبحت الإجابة للمشكلة الوطنية، ألا وهـــى مـــدفع الماكسم من أهم الموضوعات، كما أخبرت صحيفة أخرى فى نفس الحقبــة وكان الماركيز سالزسبورى، مجلس اللوردات فى شهر مارس عـــام ١٩٦١ سوف أتحدث مثلما يتحدث شخص يئن ويتألم، ولن أتحدث مثل من يتمعنون فى القسوة، ولن يقوم أى شخص فى أفريقيا بمهمتى بنفس الحماسة، وشـــرع يشرح أن إعطاء حق تقرير المصير للشعوب السوداء لا يشكل جــزءًا مـــن مهمته. لقد كان مفرطا فى البخل عندما كان رئيسا للشركة البريطانيـــة فـــى جنوب أفريقيا، ولكنه كان شديد العداء عندما تناول أحدهم هذا الموضوع مع التأكيد أن ليس لذلك الأمر أى أثر على حكمه[٢].

أما فيما يتعلق بالشاب المخمور المذكور آنفا والماركيز، فقد بدأ الوضع فى أفريقيا يستفحل، وكان التغيير القائم وقتذاك يشكل خطـرًا علـى ذرية البيض من الرجال والنساء الذين ترعرعوا على هذه الأرض لمدة لا تقل عن سبعين عامًا. وفى نفس الوقت، كان هناك رأى قوى سائد فى بريطانيا فـى حزب العمال والجناح الليبرالى لدى المحافظين، الذين كان من رأيهم أن هذه المدة بمثابة ميلاد جديد لقارة أفريقيا. ومن الصعب فى الوقت الحاضر فهم أن التفاؤل ساد الدول الأفريقية أثناء حصولها على الاستقلال عنـد مطلـع الستينيات، وقد صاحب يوم الاستقلال درجة عالية من التفاؤل فى جو أشـبه بجو الحفلات الصاخبة.

ولم يكن لبريطانيا أى رد فعل يذكر أثناء رفع الأعلام، كما أعربـت عن نيَّاتها الحسنة إزاء الدولة الوليدة. ولقد كانت ظروف الفترة التـى تلـت الاستعمار مبشرة: فقد كانت هناك اقتراحات سرية وجماعات انتخابية، مـع متحدثين يرتدون الشَّعر المستعار وعباءة المحامين. إن القضاة الأفارقة الذين تلقوا تعليمهم فى محاكم النقض الإنجليزية "ارتدوا الثياب الحمراء والفـراء". قاموا برئاسة جلسات مشابهة للجلسات الإنجليزية، كما بدأ وجود الديمقراطية وسيادة القانون فسعدت بريطانيا لدى معرفتها بقيادة الأمور على نحو حكـيم واتخاذها الطريق الصحيح.

لقد كانت هذه الفرحة سابقة، لأوانها كما كانت غالبا سـاذجة. ففيمـا يتعلق بالسودان وغانا وسييراليون ونيجيريا وأوغندا، كانت سبيل الفترة التى تلت الاستقلال بعيدة تمامًا عن الديمقراطية وسلسلة من الانقلابات العسكرية والديكتاتورية العسكرية والفساد وعدم الاستقرار السياسى المزمن أمرًا جديرًا بالذكر؛ لأن الأيام أثبتت صحة ذلك وعدم قدرة الأفارقة على إدارة شـئونهم السياسية، كما قيل فى سالزسبورى مما عجل بقول البعض "هذا ما توقعناه".

كما كان آخرون أصابهم الإحباط لفشل تجربة من أنبل التجارب، وبرروا ذلك بأن واقع أفريقيا اليوم نتيجة مباشرة للعصر الإمبريالى. وقد تم رسم حدود للدول إرضاءً للبيروقراطيين أو لنزوات الدول العظمى وتمثيلها، كما أدى ذلك إلى خلط قبائل مختلفة الأطوار مما أدى إلى تنافرها. وعلاوة على ذلك، لقد شهد الاستعمار تفكك أنظمة اجتماعية واقتصادية عتيقة وعملية، وكان من الحماقة تخيل أن الحكومات الاستعمارية التى لم يُكتب لها الدوام لفترة طويلة قد تتسبب فى خلق حس قوى للهوية والتماسك وعلى أى حال، لم يكن هذا غرضها الأساسى مطلقًا.

وكان من الحقيقى بالطبع أنه على الأقل حتى عام ١٩٤٨ لم تر الحكومة البريطانية أن الوقت قد حان للحصول على الاستقلال سوى قبل الربع الأخير للقرن العشرين وعلى أى حال، فإن تأجيل جدول الأعمال وفقًا للتغيرات السياسية لأهالى البلاد الأصليين والتجربة التى يتمتع بها هؤلاء الذين سوف يمسكون بزمام الحكم فى البلاد.

ولكن الأيام أثبتت أن التعسف قد يؤدى حتمًا إلى ظهور أعمال العنف، وبرغم ذلك، فإن لهذه المستعمرة باعًا أطول عن غيرها من المستعمرات فيما يتعلق بالديمقراطية. ومنذ عام ١٨٩٤، تمكن دافعو الضرائب من التصويت بالنيابة عن نصف سكان الريف ومجالس المدن، ولكن هذا حق لم يطبقه سوى القليل من الناس. وفى عام ١٩٢٢، لم يتقدم سوى ٤٦ فردًا بمدينة أكبر لصناديق الاقتراع، بينما كان تعدادها ١١١٧ نسمة، ولم يتقدم أى فرد من مدينة "سيكوندي" التى وصل تعدادها إلى ٧١٧ نسمة.

لقد ازداد النشاط السياسى فى غرب أفريقيا بين فترات الحروب، كما كان فى غاية الوضوح لدى صفوة المثقفين المنتمين للتعليم الغربى، كما حاول الطامعون فى السلطة الإفادة من العلوم السياسية أثناء فترات النفى

الطويلة فى كل من بريطانيا أو الولايات المتحدة الأمريكية. وقـد أمـضى نكروما عشر سنوات فى الجامعات الأمريكية، بالإضافة إلى عامين آخـرين فى لندن قبل العودة إلى مسقط رأسه عام ١٩٤٧. وقد كان "كنياتـا" خـارج كينيا بين عامى ١٩٣١ و١٩٤٦ وانهمك فى الدراسة وشغل عدة أعمال فـى انجلترا من ضمنها مساعد فى جريدة (Sanders of the River) كمـا قـرأ "باندا" الكثير عن الطب فى العديد من الكليات الأمريكية بين عـامى ١٩٢٧ - ١٩٣٧ وكان طبيبا ممارسا بين (١٩٣٩ -١٩٥٣) فى إنجلترا. ثـم قـضى أربع سنوات فى غانا؛ حيث تعلم آليات تشكيل الأحزاب وكيفية تعبئة الـرأى العام. وكان أكثر الأشياء وضوحا فى تلك الخبرات السياسية التى اكتـسبها هى تلك الخبرة الإدارية المتمثلة فى إدارة شئون الحزب. وقد عمل سياسيون محترفون مع موظفين بريطانيين عن قرب فى المجالس البلدية التى كانـت بمثابة مدارس للسياسيين فى المستقبل. وقد سجل الزعيم النيجيرى "بينجامين أزيكو" (الذى كان محاضرا لعشر سنوات فى الجامعات الأمريكيـة) رقمـا قياسيا فى الخدمة فى الإدارة المحلية من بعد عام ١٩٤٤ و"توم إمبويا" (كلية راسكين، جامعة أكسفورد) الذى خدم فـى الاتحـادات الكينيـة التجاريـة والحكومة المحلية فى العقد الذى سبق استقلال كينيا.

لقد كان هؤلاء من أبرز الرجال ضمن طبقة من السياسيين الذين كـان بإمكانهم التعاون مع الإدارة البريطانية. وتم وضـع الحلفـاء القـدامى مـن الطبقات الحاكمة المسنة بهدوء على جانب واحد مما أثار غضب البعض. وقد أبدى أحد زعماء الـ"يوروبا" غضبه قائلا: "إن الناس الذين يفكرون بـصدق عن الأشياء بدأت تشعر أن عجرفة الإدارة البريطانية أفضل مـن اسـتغلال زعمائنا القوميين". لقد كانت مخاوفه سهلة الفهـم مـن الـسياسيين الأفارقـة المتكالبين على السلطة لاقتراب الأيام الفاصـلة للاسـتقلال، وكـان هـؤلاء السياسيون يسلكون مسلك الموظفين الاستعماريين والوزراء البريطانيين.

تشابهت السياسات الأفريقية شكلا وموضوعا مع السياسات التي سبقت استقلال الهند ومصر أثناء مكافحتهما الاحتلال البريطاني. وقد مالت الحركات السياسية الأفريقية إلى الاتفاق على نموذج مؤثر كان زعيما لحزب أحادي أعضاؤه متفاهمون، كما أن هذا الحزب يتكلم باسم الأمة برمتها. تم تلحين أناشيد الكنائس التبشيرية وردود لوضع مذهب قومي يمكن ترديده على أنه كلمة السر للجماهير. وقد لحن الشعب الكيني هذا النشيد:

"أوهورو" (أى الحرية).

"أوهورو"

"أوهورونا أوموجا" (الحرية والوحدة)

"أوهورونا كانو" (الحرية واتحاد الوحدة القومية الكينية)

"أوهورونا كانو"

أوهورونا كينياتا" (الحرية وكنياتا)

"أوهورونا كينياتا".

لقد كانت هذه النوعية من الكلمات ضرورية لإقناع الجماهير من أجل زيادة حماسة الأفارقة وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، فقد تذكر "توم إم بويا" في عام ١٩٥٢، كيف نصحه والده ومن هم أكبر منه عمرا وينتمون لنفس قبيلته بعدم الانخراط في أمور السياسة: "لا يمكننا منافسة الأوربيين إطلاقا لأنهم يستقلون الطائرات، بينما نحن نسير على أقدامنا كما يستقلون السيارات ويقتنون المسدسات". والآن فقد حصلت غانا على استقلالها بعد خمس سنوات، وأصبحت لفترة وجيزة من أبطال القوميات الأفريقية. وفي عام

١٩٥٨ عقد فى مدينة "أكرا" أول ملتقى لمؤتمر كل الشعوب الأفريقية التى نادت باستقلال جميع دول القارة من سطوة الإمبريالية.

أما فيما يتعلق بالحكومة البريطانية، فهى لم تحفل بتفكك الإمبراطورية الأفريقية من عدمه، ولكن كان شغلها الشاغل عن توقيت حدوثه وكيفيته. فتمت هذه العملية على نحو سهل نسبيا فى "غانا" ومن ثم مع مستعمرات غرب أفريقيا التى كان كل سكانها من ذوى البشرة السوداء. ولكن لم تكن هذه العملية سهلة فى شرق أفريقيا ووسطها؛ لوجود سكان بيض ينتمون لأصول بريطانية، الذين من رأيهم أنهم السند الاقتصادى لمستعمراتهم، كما أنهم ترعرعوا وهم يحتقرون السود. وفى جنوبى "روديسيا" تمتع البيض بالحكم الذاتى منذ عام ١٩٢٣، لكن أغلقت وزارة المستعمرات بكل ما فى وسعها من أجل عرقلة أى محاولة من المستعمرين للحصول على الاستقلال السياسى.

وقد يتذكر سكان كينيا البيض إلى حد ما عنف ثورة "الماو ماو" التى بدأت عام ١٩٥٢. وكانت الثورة قاصرة على قبيلة الكيكويو، وهى موجهة بشكل كامل ضد كل ما هو أوربى، إنها اتحاد ارتبط أعضاؤه بقسم أقسموا على إنجاز أعمال وطقوس جنسية مرعبة، وكانت غالبية الضحايا بسبب الماو ماو مخلة لتعاونهم مع السلطات الاستعمارية. وكان رد فعل هؤلاء إعلان حالة الطوارئ. وبحلول شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ زج بأكثر من المشتبهين المنتمين لقبيلة الماو ماو فى السجون، كما تم عزل ١٢٠٠٠ شخص من مناصبهم وشنق ١٥٠ فردًا. لقد كانت حربًا ضروسًا وجائرة وبدأت من نوفمبر ١٩٥٢ حتى أبريل ١٩٥٣، كما أعدم ٤٣٠ سجينًا رميا بالرصاص لمحاولتهم الهروب، كما تم رصد حالات تعذيب أخرى[٥].

لقد تسببت حركة الماو ماو فى نشوب حرب أهلية بين صفوف قبيلة "الكيكويو" وهم أغلبية متواطئة مع البريطانيين الذين كانوا ممسكين بزمام الأمر حتى آخر لحظة. لقد كان أعداؤهم مسلحين بالقليل من الأسلحة النارية ولم يكونوا على استعداد لمواجهة قوات المستعمرين. لقد لقى القليل من المستعمرين حتفهم على يد الماو ماو، رغم أن المردود النفسى لتلك العمليات كان هائلا، كما هزمت الماو ماو هؤلاء البيض برغم قلة عددهم وعزلتهم. لقد كانت حركة الماو ماو بمثابة كابوس للبيض مكوناته سحر أفريقيا المخيف والخوف من هجمات رجال قبليين غاضبين مسلحين بالرماح والدروع. لكن الكينيين تمكنوا من البيض بعد شعورهم ببعض الخوف بالخلود للنوم فى هدوء بفضل العساكر البريطانيين المدربين (الذين قاموا بعمل ضباط الشرطة) والجنود النظاميين وأفراد الجيش والقوات الجوية.

وبحلول عام ١٩٥٦ تم القبض على حفنة من المقاومين، بينما لقى غيرهم حتفهم فى المعتقلات، وتم الزج بغيرهم فى السجون كما تعرضوا لغسيل مخ غرضه محو معتقداتهم.

تعلمت حركة الماو ماو أساليب التدمير من خيال غيرهم من الأفارقة وقد صاح أحد الأفارقة فى مؤتمر"لوساكا: روديسيا الشمالية" فى عام ١٩٥٣[٦]: " نرغب فى وجود الماو ماو هناك لأننا ضقنا ذرعا من وجود الأوربيين بيننا كما نرغب فى قتلهم. إن ضابط المخابرات الذى دون تلك الكلمات لاحظ أن "هارى إن كومبولا"، (وكان طالبا فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بلندن، منذ عام ١٩٤٦ حتى عام ١٩٥٠) وكان رئيسا للمؤتمر الأفريقى القومى لروديسيا الشمالية، حث مستمعيه على شن حرب كلمات.

لقد كان النزاع فى روديسيا الشمالية ضد اتحاد وسط أفريقيا، لقد كانت هذه الدولة الهجين عبئا على حكومة العمال فى عام ١٩٥١، بسبب موظفين استعماريين يفتقرون إلى الأفق الواسع، وآمنوا أنها قد تقدم حلولا للمشكلات الاقتصادية والسياسية المستقبلية لكل من جنوب وروديسيا الشمالية و"نيسالاند". لقد كان هذا الاتحاد مؤقتا؛ حيث فرضت المعاشرة بين مستعمرتين مع قلة من البيض وغيرهم الذين حكموا "روديسيا" الجنوبية. وعند ميلادها عام ١٩٥٣، كانت نسبة البيض إلى نسبة السكان السود تفوق ١ إلى ٦٦ فى الاتحاد الأفريقى الأوسط. وغالبية من عاشوا فى " روديسيا" الجنوبية يتراوح عددهم ما بين ٢٢٠٠٠٠ إلى ٥,٣ ملايين أفريقى. لم يثق السود إطلاقا فى هذه الدولة الجديدة التى رأوا فيها أنها سوف تحرمهم من حقوقهم السياسية وتضعهم تحت رحمة "روديسيا" الجنوبية. وتطلب هذا فى الخمسينيات نسخة من دليل "روديسيا" الجنوبية للمهاجرين الوافدين البريطانيين. إن الرجال ذوى الخبرات كان مرغوبا فيهم، لأن السكان الأفارقة لا يقومون سوى بالأعمال التى لا تتطلب أى خبرة أو خبرة قليلة جدا. ومن ضمن الوعود المطروحة، الحياة الكريمة خاصة للنساء: "للأغلبية فإن ربات البيوت الروديسية يعشن حياة أكرم من قريناتهن فى انجلترا".

لقد كان عدد الخادمات السوداوات كبير جدا، ولكن كان ينبغى للمستجدات أن يدركن أن معدل الخادمات الأصليات شيء واضح جدا، وأن لديهن استعدادًا لارتكاب السرقات الصغيرة مما يتطلب بعض الحزم[٧].

كان التمييز العنصرى مطبقًا بصرامة فى كل مكان. وعندما كان السيد هيو جرين يقوم بزيارة للبلاد فى عام ١٩٥٥ من أجل إبداء الرأى عن أنظمة الإذاعة، فالتقى السيد هيو جرين مع السيد جودفرى هاجينز، ثم مع رئيس وزراء الاتحاد الذى صرح له بأنه كان من الممنوع أن يتناول أعضاء البرلمان

البيض والسود طعام العشاء على نفس المائدة. ولم يتغير الوضع منذ زمن "رودس" و "جيمسون". كما صرح مدير أحد المصانع لـ"جرين" بالتالي:

لقد كان أحد أصدقائى من "روديسيا الشمالية" معى منذ عدة أيام وصرح لى أنه من بواعث السرور رؤية أحد الرجال أثناء ضربه بعصا أو كرباج. كما أضاف لو حركت ذراعك أمام أحد هؤلاء الشباب، فسوف ينتهى بك الأمر فى قسم الشرطة(٨).

ذات مرة، ضرب رجل أبيض أحد خدامه حتى الموت، فحكم عليه بالحبس لمدة عام وبدفع غرامة مالية قيمتها مائة جنيه إسترلينى. كما تم القبض على أحد الأفارقة متهمًا بسرقة ستة عشر قميصا، فحكم عليه بالحبس لمدة عام(٩). ولهذا السبب، لم يكن إشعال الحماس فى صالح الاتحاد بين صفوف السود فى "روديسيا الشمالية" و"نياسا لاند" أمرا غريبا لدى وزارة المستعمرات (Colonial Office)

كان العداء جليا للاتحاد فى "نياسالاند" حيث تولى دباندا عند رجوعه منصب رئاسة المؤتمر الأفريقى الوطنى. وقام الحاكم "روبيرت أرميتاج" بتقديم الولاء والطاعة للاتحاد كما كان حزم "باندا" وأتباعه أمرا تسبب فى إزعاج "روبيرت إرميتاج" ولأجل إسكات تلك الحركة وعدم البقاء مكتوفى الأيدى قام "إرميتاج" بإعلان حالة الطوارئ فى " نياسالاند" فى يوم الثامن عشر من فبراير عام ١٩٥٩ كما استند إلى مخطط حكم به الماو ماو لقتل ٨٠٠٠ من البيض حتى يكون ذريعة لأفعاله(١٠). وسواء كان هناك مخطط أم لا، فحقيقة ذلك المخطط بعيدة تماما عن الصدق، فقد حصل "إرميتاج" على فرصة لإسكات الحركة المناهضة للإتحاد وكشف قوتها الحقيقية. إن إبطال الحقوق القانونية الطبيعية والإجراءات القضائية أتاح الفرصة للقبض على الناس، والزج بهم فى السجون وشن حملات اعتقالات واسعة فى الفجر.

لقد تم اعتقال "باندا" ونقله إلى "روديسيا" الشمالية و"تنجانيقا" من أجل احتواء الاحتجاجات التى لم يكن مفر منها هناك.

وخلال أربعة أسابيع وصل عدد من لقوا حتفهم فى المظاهرات إلى اثنين وخمسين فردا(١١).

لقد تسببت أفعال"إرميتاج" فى إرباك الحكومة فى وقت كان يتم اتهامها بقتل الماو ماو فى معتقل "هول" فى كينيا. وكما رأينا، فقد كان وزير المستعمرات "لينوكس بويد"قلقا إزاء الانتقادات حول حالة الطوارئ فى التليفزيون، كما انتقد مجلس العموم رقابة سلطات "نياسالاند"على الصحفيين الموجودين هناك(١٢). إن الضغط المقاوم القادم من "روديسيا الجنوبية" حيث تم الترحيب برفض ما حدث فى "نيسا لاند" أمر "ماك ميلان" بتنصيب قاض متمكن وعضو فى مجلس الشيوخ ويدعى "لورد ديفلين" للتحقيق فى أسباب إعلان حالة الطوارئ.

ظهر تقرير "ديفلين" فى منتصف فصل الصيف وتسبب فى إثارة المتاعب. فتم تجريد "إرميتاج" وعتق "باندا" ووصفت "نياسا لاند" بخضوعها لحكم بوليسى فاستشاط "ماكميلان" غضبا، ووصف أن القاضى خرق جميع الأعراف السابقة والشخصية، فقد كانت إيرلاندا مسقط رأسه (لا مجال للشك فى أن الدم الإيرلندى فى الأصل لا يقبل الخضوع لأى حكومة) ورجل كاثوليكى لا يمارس طقوسه الدينية فى وجود أخ يسوعى (الذى كان فى الأصل مبشرًا فى "روديسيا الشمالية" وآثر العودة لوطنه لعدم تنصيبه وزيرا للعدل(١٣). لقد رفضت الوزارة "دفلين "وحرر مذكرة، كتبها "إرميتاج" دون الاستناد لأى دليل مادى وتم نشرها فى نفس يوم صدور حكم المحكمة.

ومع الأخذ فى الاعتبار كل الجرائم المرتكبة فى معتقل "هولا" والأخطاء الجسيمة فى "نياسالاند" أدلة قاطعة لوجود سياسة استعمارية فقدت إدارتها والقيم الأخلاقية. اجتمع "أينوك باول" وهو رئيس وزراء سابق مع زملائه من أجل المداولة حول مدى جدوى الحجة التقليدية التى تنص على أن السلطة الإمبريالية لا يمكنها البقاء فى فراغ أخلاقى أو بدون الاكتراث بمطالب رعاياها. لقد كانت المقولة التالية ممنوعة منعا باتا:"لدينا مستويات فى أفريقيا وفى آسيا وربما أيضا فى بريطانيا" ثم استطرد:

إن أية حكومة وأى تأثير يجريه رجل على آخر يرتكزان على الرأى العام. وكل ما نقوم به فى أفريقيا وأينما لا يزال لنا حكم قائم، ولن يستمر طويلا يتوقف على أفعال الرجال الإنجليز. ولن نستطيع، كما لن نجرؤ، فى أفريقيا وفى غيرها التنازل عن قيمنا ثم إنكار مسئوليتنا تجاه هذه الممارسات(١٤).

لقد تم إضافة تحذير لهذا الوعظ الصادر من أوجه الإمبريالية الخيرة من قبل صفوف المعارضة وزعيمها "أنورين بيفان" كما أن بريطانيا ليست على استعداد لتكبد ما تكبدته فرنسا فى نزاعها مع الأفارقة. وقد أثبتت دولة "أفريقيا الوسطى" صحة الجزائر البريطانية(١٥).

لقد كان" ماكميلان" مصرا على منع حدوث ذلك. وعند بداية تمرد "نياسالاند" قرر إرسال لجنة تحت رئاسة "وولترمونكتون" الذى كان محاميا فصيح اللسان ومحكمًا، خبيرًا، من أجل معرفة الرأى العام فى دولة "أفريقيا الوسطى". كانت هذه بعثة استطلاعية لرئيس وزراء الاتحاد الجديد ويدعى "روى ولنسكي" الذى كان رئيسًا سابقا للسكك الحديد، ورجلاً محبا للمنافسة ولم يسبق له التراجع أبدا فى أى قضية.

وفى عام ١٩٥٧، تنبأ ولاحظ أنه لم يؤمن أبدا بـ "لم يكن للشعب الروديسى شهية أقل إلحاحا من المستعمرين الأمريكيين". وقد أصدر الرجل الذى سبقه فى منصبه ويدعى "هاجينز" (وهو الآن لورد مالفرن) نفس التهديد. وعند حديثه عن جيش "روديسيا" لاحظ الآتي: "أتمنى ألا نستعبدهم كما فعل مستعمرو أمريكا الشمالية، وهذا لأننا نتعامل مع حكومة حمقاء فى المملكة المتحدة[١٦]. وقد تعامل "ماكميلان" مع هذا الحديث بشكل جاد للغاية وتخيل أنه لو تزعم حزب العمال للإشراف على الانتخابات العامة المقبلة، فقد يتسبب ذلك فى تمرد "روديسيا الشمالية".

وبحلول شهر أغسطس، كلف "ماكميلان" "مونكتون" ببذل كل ما فى وسعه لإنشاء دولة متعددة الأعراق فى وسط أفريقيا. وقد يؤدى الفشل إلى تحويل كينيا وكل المنطقة إلى أتون من القلاقل سوف يحترق الجميع بلهيبه. كما أضاف أن سيادة البيض بدأت فى الاضمحلال ولكنه تمنى تحقيق شيء ما لتكييف المستوطنين البيض الذين كان وجودهم أمرا حيويا بالنسبة للقارة برمتها[١٧]. أما الخيار الآخر، فكان يتمثل فى النزاع الذى لن ينقطع وسوف يبوء بالفشل مثلما حدث بالجزائر. فمن المستحيل أن تجازف بريطانيا بمالها وأرواح أبنائها من أجل الدفاع عن سيادتها فى شرق أفريقيا ووسطها. وقد عزز دفاعه عن حزب المحافظين فوزه الكاسح فى شهر أكتوبر، مما أهله على لخوض سياسة أفريقية راديكالية. وكانت أداته المختارة رجلاً فى السادسة والأربعين من عمره يدعى "يين ماكلو" وكان رجلا محافظا موهوبا وذكيا لاذع الآراء وكانت طباعه تؤهله للتعامل مع السياسات الاستعمارية. وتوعده رئيس الوزراء، آنذاك بأسوأ العواقب عند فشله. وبعد مرور عام من توليه منصبه برر "ماكليود" أفعاله فى مؤتمر حزبه على أساس أنهم امتداد فى أفريقيا وفقا لمبادئ "دزرائيلي" التى تنص على "أمة واحدة". ينبغي

معاملة السود والبيض على قدم المساواة كما هى الحال مع فقــراء الــشعب وأغنيائه فى عصر الملكة فيكتوريا.

لم تكن عملية توفير حلول وسط وخلق التعاون أمرا ميسورا، ولكــن "ماكليود" كان يجيد إدارة المفاوضات، كما كان يتمتع بقدر وافر من الــصبر وقادرا على الخروج من أجل تفقد الظروف: ومن أول الأشياء التى قام بهــا وضع حد لحالــة الطــوارئ القائمــة فــى كينيــا: وفــى شــهر أبريــل عام ١٩٦٠، أعاد الحكومة لحالتها العادية فى "تيسالاند" وبعد مرور شهرين، أفرج عن "باندا" برغم غضب "إرميتاج" و"ولنسكي".

وقد أعلن "ماكليود" أمام الجميع أنه كان حليف القومية الأفريقية رغــم مطلب الجميع لوضع حد لحالة الطوارئ فى "نياسالاند" التى كانــت بمثابــة عبء ثقيل على كاهل موارد المستعمرة المحدودة، وفى عام ١٩٣٩ كانــت الفاتورة الإجمالية للبوليس ٢٢,٠٠٠ جنيه. وبحلول عام ١٩٦٠ قفزت إلــى مليون جنيه إسترلينى، وهذا ما يمثل سدس الميزانية الاستعمارية.

إن أعظم إنجازات "ماكليود" تكمن فى مراجعة تواريخ حصول الــدول على استقلالها والإشراف على التفكك السلمى لاتحاد دول وسط أفريقيا. ولم تكن عملية انتقال السلطة أمرا هينا؛ لأنه ترتب عليها إعادة صياغة الدساتير ومناقشتها عند انعقاد المؤتمرات التى لم تحظ بإعجاب الجماهير. لقد اشتهرت أعمال "ماكليود" على الأقل من قبل الأفارقة باسم "يين" الذى أصــبح علمــا يطلق على المسيحيين فى "أوغندا" و"نياسالاند" وتــم إطــلاق اســم شــارع "ماكليود"على إحدى الطرق الرئيسية فى "بلانتير". وكان ذلــك نوعــا مــن الاعتراف بالجميل للعمال الذين شاركوا فى استقلال "تنجانيقــا" عــام١٩٦١ و"أوغندا" فى عام ١٩٦٣ وتفكك اتحاد دول أفريقيا الوسطى فى نفس العــام.

وفى العام التالى حصلت كل من "نياسالاند" و"ملاوى "و"روديسيا الشمالية "و"زامبيا"على استقلالها.

لقد كان "ماكميلان" القوة الموجهة وراء كل هذه التغيرات. لقد وصف الإمبراطورية بمفردات عقلانية بدلا من الانصياع لعواطفه، مع السؤال عن القيمة الاقتصادية أو الإستراتيجية التى كانت تمثلها المستعمرات لبريطانيا. وقد طاف الدول الأفريقية الموجودة جنوب الصحراء الكبرى فى مطلع الستينيات على أنه رجل نفعى. لقد أبحر على سواحل مدينة "أكرا" كما فعله المستكشف "ساندرز" فى الأنهار الأفريقية، كما وجد فى "نيجيريا" خليفة لمركز افتراضى يذكر البعض بـ"جيمس روبرتسون" الذى كان الحاكم العام للمستعمرة. وقد أخبر "روبرتسون" "ماكميلان" أن الشعب النيجيرى فى حاجة إلى خمسة وعشرين عامًا حتى يتمكنوا من تقرير مصيرهم، فمن الأفضل منحهم هذا الحق فى الحال. فقد يُحول أى تأجيل هؤلاء الرجال الأذكياء الذين تم إعدادهم لتولى زمام الحكم إلى متمردين، مما يترتب عليه ظهور العنف والحدة والكراهية. وكان الخيار محصورا بين نوال الأوهورو للاستقلال بعد عشرين عامًا من القمع[٢١].

أما فيما يتعلق بجنوب أفريقيا، فأصبح دور"ماكميلان" خطبة موجهة للسكان البيض الموجودين فى أفريقيا. كما كانت موجهة إلى برلمان جنوب أفريقيا فى مدينة رأس الرجاء الصالح، وتم افتتاح تلك الخطبة بدرس من التاريخ. "حتى بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية، أصبحت إحدى المسلمات الثابتة فى الحياة السياسية "أورو" سببا لظهور أمم مستقلة". لقد بدأت تلك العملية تنتشر فى دول أفريقيا، لكن اصطدم "ماكميلان" بجمودها خلال طوافه بها.

لقد بدأت رياح التغيير تهب فى القارة، وسواء أحببناها أم لا فإن نمو الحس الوطنى مسلّمة سياسية. ينبغى أن نتقبل هذه المسلّمة، كما أن سياساتنا الوطنية عليها أن تأخذها بعين الاعتبار.

لقد أعجب أعضاء برلمان دولة جنوب أفريقيا وصفقوا باحترام ولكن استلزم الأمر ثلاثين عاما حتى يتحقق ما قاله "ماكميلان".

أما فيما يتعلق بالسكان البيض في المستعمرات البريطانية، كان"ماكميلان" و"ماكليود" بالنسبة لهم زوجا من الخونة أدت كلماتهم وأفعالهم إلى نشوب شكل من أشكال الخيانة. "لقد كنا دوما مخدوعين من حكومة بريطانية شريرة"، وهذا ما أقره مزارع كينى عام١٩٦٢. "لن نقدم أى ولاء لشخص لا يرغب فى سحب راية بلده اللعينة من أرضنا". لقد جاء لأول مرة إلى البلاد عام ١٩٣٨، ووقع على عقد مدته ٩٩٩ عامًا على أرضه ومزرعته، وتم تشجيعه بشكل رسمى ليكون معلما فى مدرسة للسود وقال: "لست مبشرا لأننى أكره رؤية الأطفال غير الشرعيين. لكننى جئت هنا لزراعة الأرض وللعناية بهؤلاء الأطفال. إنهم ينظرون إليكم كما لو كنتم آباءهم، كما أنهم يأتون إليكم وهم يصطحبون أحكامهم على الأشياء ومغامراتهم. والآن قال رئيس وزراء كينيا، وكينياتا رئيس البلاد، إن أى شخص كينى أبيض يرغب فى حمل لقب "بوانا" عليه إعداد حقائبه وترك البلاد". إن هذا الأسلوب والاحترام الذى يحمله فى طياته كان يعنى الكثير لبعض الناس: فقد هبط عدد سكان كينيا البيض من٦٠٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٩ إلى ٤١٠٠٠ نسمة عام ١٩٦٥.

قام السيد "مايكل بلندل" الذى كان زعيم البيض المعتدلين بشرح هذه الهجرة الضخمة مستخدما مفردات علم النفس. إن الهجرة الوافدة بعد عام ١٩٤٥ كما رأى:

"النوع الذى لا يمكنه التعامل مع حكومة عمالية. وإذا لم يكن بوسعهم التكيف مع حكومة عمالية، إذن كيف يمكنهم التكيف مع قارة أفريقيا برمتها؟[٢٣]. لو أصبح نظام المساواة البريطانى غير محتمل، يمكن للطبقات

الوسطى، والتى تقع بين الوسطى والعليا أن تلجأ إلى أفريقيا حيث القيم القديمة ما زالت محفوظة والخدم موجودون بوفرة. وكان من رأى دوق "مونروز" أن روديسيا الجنوبية بمثابة ملجأ لبريطانيا من بإصابتها بسرطان أخلاقى فى آخر أطواره وتم تحديد أعراضه فى خطبة فى تاريخية ألقيت فى مجلس اللوردات فى شهر مارس عام ١٩٦١. وقد صرح بالتالى: "لقد تفشى مرض فظيع فى إنجلترا. فالأخلاقيات تبدو كما لو كانت بريئة: فالأدب الذى رفضه آباؤنا (وعلى سبيل المثال رواية "عشيق السيدة تشارترلي") طرحناه للجميع... فالإشكال ليس فقط فى أفريقيا فحسب: فهو موجود فى بلادنا أيضا... فمن أجل الهروب من هذا الوباء، كان الدوق معدا على تركه فى أحضان الطبيعة: "لم يكن فى خاطرى، عندما كنت غلاما أن أبى سوف يقوم بغسل الأوانى، مع أننى قمت بهذا العمل قبيل وفاته. ولكنه لم يعترض ولا حتى لو تم تكليفى بعمل نفس الشيء فى أفريقيا".

لقد كانت هذه المهاترات هجوما شرسا على سياسة "ماكميلان" الأفريقية الجديدة التى كان يقودها عملاق إقطاعى آخر كان يشن حربا ضد التطور اسمه "ماركيزه سالسزبورى". فقد لام "ماكليود" لوما شديدا: "إنه كان مفرطًا فى ذكائه. وأنه نهج، خاصة عن طرق علاقاته مع جاليات البيض فى أفريقيا، نهجا خاطئا".

وترتب على ذلك أن البيض، عن طريق تدخل جماعات تفتقر إلى الذكاء، آمنوا بتبديل سياسيين سود موالين لبريطانيا فى أفريقيا(٢٤). وقد أيد تسعون عضوًا محافظًا من أعضاء البرلمان مخاوف الماركيزه وقاموا بتوقيع مذكرة معارضة لممارسات "ماكليود". لقد كانت أغلبية المعارضين ضمن اليمينيين فى الحزب أمثال الكابتن "ووترهاوس" (الذى كان رئيسا لامتيازات تنجانيقا) وجذب اهتمام الاتحاديين. وقد كان من الجائز أن خليفته لم يعان كثيرا مع البيض المقيمين جنوبى نهر الزامبيزى.

لقد كانت الثورة ضد السياسة الأفريقية عبارة عن مستنقع ابتلع الكثير دون إيذائهم. ولم تتسبب قضية الأقليات البيضاء فى إثارة نفس الحماسة كما كانت الحال فى فرنسا، ولم يتسبب فى تفكك حزب المحافظين بسبب موضوع هامشى كهذا إلا وكان أمرا انتحاريا تافها. ورغم ذلك، فقد كان من الممكن أن تكون ليبرالية "ماكليود" مجدية لتولى رئاسة الحزب بعد انسحاب"ماكميلان" فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٣. وقد كان "هارولد ويلسون" مستفيدا غير مباشر لم ينكر الجميل كما قيّم "ماكليود" على أنه أكثر شخص يستحق الهيبة من بين صفوف المحافظين.

إن الأدلة التى استمعت إليها لجنة "مونكتون" أذنت بنهاية اتحاد دول وسط أفريقيا. لقد كرهها جميع السود فى نيسا لاند "وشمال روديسيا" وكانت بسبب ذلك غير قابلة للخضوع عن طريق التهديد.

وقد قاد جنازتها خليفة "ماكليود" وكان يدعى "بايكر" أثناء انعقاد مؤتمر عند شلالات "فيكتوريا "أثناء صيف عام ١٩٦٣. لقد استأنفت كل من "روديسيا الشمالية" و"نياسا لاند" مفاوضات استقلالها، كل بما يرغب، بينما استعدت جنوب "روديسيا " لنفس الشيء بضجر وهدوء. وشارك حزب جديد يدعى "جبهة روديسيا" فى الحياة السياسية من أوسع الأبواب.

وبين أعوام (١٩٦٣و ١٩٨٠) عانت الحكومات البريطانية المتتالية من المشكلات فى "رودسيا" التى لا علاج لها. فكان ذلك بمثابة سبب لمتاعب على المستوى الدولى، كما كان سببا لمناقشات لا نهاية لها بين صفوف الحلفاء ووسيلة للهروب من المشكلات الأوربية القائمة. فقد كانت هذه القضية بمثابة آخر تركة تم الترحيب بها، ومن الممكن أن تتدخل بريطانيا فى هذا الشأن، وهذا ما قاله الحلفاء والأمم المتحدة مرارا وتكرارا أثناء تفكك الاتحاد الأفريقى الأوسط، لقد شعر سكان "روديسيا" البيض بأنهم هم من رسموا

الخطوط العريضة لمصيرهم. وقد تم وضع دستور عام ١٩٦١ عند حصولها على الاستقلال، مع أنه قد داوم على إعطاء بعـض الامتيـازات للسكان البيـض. وكثيرا ما قال "يان سـميث" الذى كان قائد جبهة "روديـسيا" لـن تكون هناك أى سيادة لأغلبية سوداء طوال حياته أو حيـاة أبنائـه. وتـولى منصب رئيس الوزراء عام ١٩٦٤ وعمره خمسة وأربعون عامًا. لم يكن من المحتمل أن يكون لـ"سميث" دور يذكر فى أرجاء الإمبراطورية، لأنه رأى نفسه وأقرانه أنهم أنسب تعبير للفضائل الإمبريالية العتيقة التى تليق بالرجال، وكان من الممكن أن يشيد بها "هنرى". لم يكن "سميث" رجلا مثقفا (ولكنه فيمـا بعد كان عاجزًا عن التمييز بين كلمتى (حالي) و(واقعي)، ولكنه كان مولعًـا بالرياضة وبارعًا فى لعبة التنس والكريكيت والرجبى. لقد كـان "سـميث" طيارًا عسكريًا اثناء الحرب، وكان "تشرشل" قدوته السياسية، كما أنه آمـن دائما بأنه كان من المستحيل ترك زمـام الأمـور فـى"روديـسيا" للـسود. وكمفاوض، كان "سميث" مولعًا وماهرًا بالتفوق على غيره. أما كسياسى، فهو كان بليغًا للغاية ومحبًا لوطنه لأبعد الحدود وفقا لوجهات نظره. وكان عـدد معجبيه فى الجالية البيضاء ضخما للغاية، وفى الانتخابات التى أجريت فـى شهر مايو عام ١٩٦٥، فازت جبهة "روديسيا" بكـل المقاعـد المخصـصة للبيض وبلغ عددها خمسين مقعدًا.

وقد أعطت هذه الانتخابات إشارة البدء للإعلان الأحادى للاسـتقلال، الذى بدأ يوم الحادى عشر من نوفمبر. وقد سبقتها مفاوضـات يائـسة فـى اللحظة الأخيرة بين كل من "سميث" و"هارولد ويلسون" وسرعان ما وصلت أنباؤها إلى "سالزبورى".

وقد أصر رئيس الوزراء البريطانى، وقد حـذا حلفـاؤه حـذوه، أن للبرلمان البريطانى الحق وحده فى منح "روديـسيا" الحـق القـانونى فـى

الاستقلال، وفى حين أن البيض والسود يتمتعون بحق التـصويت. فـشلت المحادثات وعاد ويلسون ومعه فشل ذريع. وأثناء إحدى المـآدب، تعـرض لسخرية دوق "هونث روسي" وإمعانا فى السخرية، أخذ يرقص وبشيء مـن الحزن[٢٥]، وهذا الرجل الأرستقراطى لم يتحمل الانحطاط المتفـشي الـذى أفصح عنه لمجلس اللوردات منذ أربع سنوات.

وعند عودة "ويلسون" لأرض الوطن، صرح علنا أن بريطانيا لن تلجأ للعنف إزاء إعلان الاستقلال الأحادى من أجـل وضـع "روديـسيا" تحـت سيادتها. لقد كان هذا الموقف مليئًا بالمتناقضات، مما شجع "سميث" الذى كان يعانى من القلق نوعا ما لأن جيشه وقواته الجوية لن تتمكنا مـن محاربـة البريطانيين. لم يكترث "ويلسون" بهذه المخاوف، ولكنه كان على يقين بـأن القوات الروديسية كانت جيدة التسليح، وعلى قدر عال مـن التـدريب، وأن الزعماء البريطانيين كانوا قلقين إزاء توريطهم فـى عمليـة مـد خطـوط الاتصالات. وفضلاً عن ذلك، فإن تأسيس قاعدة حصينة فى "زامبيـا" أمـر يستلزم وقتا طويلا. وحتى لو تم التغلب على مشكلات التموين، فلم يعد هناك أى حماسة للقتال لدى الجماهير، على الرغم من أن أسـقف "كـانتربوري" و"جوجريموند" الزعيم الليبرالى، كانا على خلافات مدوية. وقـد اقترحـت الاستفتاءات العامة أن هذه الخلافات كانت بعيدة تماما عن الرأى العام الـذى لم يؤيد الحرب مع"روديسيا".

وكان هذا الأمر ينال إعجاب "ويلسون" الذى لم يكن عـدوانيا بطبعـه وخشى أن يترتب على أى قرار عنترى معضلة، مثل ما حدث عند تأميم قناة السويس أو حتى أسوأ كما حدث فى "فيتنام". والوسيلة الوحيدة للنيـل مـن "روديسيا" هى فرض عقوبات اقتصادية عليها.

لقد خسرت بريطانيا حرب إخضاع "روديسيا" إليها. لقد تضاعفت حالة التمرد وازدادت الثقة بها. وبين أعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٣ هاجر إليها ٣٩٠٠٠ نسمة من أجل الحياة في ظل رخائها. ووفقا لمراسل محطة "بى بى سى المحلي" أغلبهم جاءوا إلى "روديسيا" من أجل العيش في حياة كريمة[٢٦]. ومما لا شك فيه أنهم قد حصلوا عليها. واستمرت المفاوضات في نجاح. التقى "ويلسون" و"سميث" مرتين الأولى كانت على متن الباخرة "تايجر" عام ١٩٦٦ والثانية كانت على متن الباخرة "فيرلي" في شهر أكتوبر عام ١٩٦٨. وانتهى كلا اللقاءين بعدم الاتفاق على غالبية العناصر. وأثناء اللقاء الأول على الباخرة تايجر ومرة ثانية في أكتوبر ١٩٦٨ على ظهر السفينة فيرلس (Fear less) إن "سميث" كان طيبا ومسنا و"ويلسون" كان دمويًا ومسنا أيضا. ولكنهما غيرا وجهة نظرهما بعد معاشرة سكان "روديسيا" بشكل لصيق ولاحظوا أنهم كانوا عدوانيين وعنصريين وفي غاية الحدة أثناء محادثاتهم في "ميس" الضباط.

إن هذه الصفات التي اتسم بها سكان "روديسيا" قال البعض عنها إنها منفرة، ولكنها جذبت غيرهم خاصة خارج الجناح اليميني لحزب المحافظين. وقال أحدهم وهو عضو في البرلمان ويدعى "هارولد سوريف" إن: "روديسيا" تمثل بريطانيا عندما كانت تعيش في سلام: فأهلها وطنيون ومعتمدون على أنفسهم ومتضافرون محترمون للقوانين والنظام كان مجتمعهم صحًا من كل الجوانب[٢٨]. فقد كانت "روديسيا" بريطانيا في أحلى صورها. لقد كانت هذه الجنة الأخرى معروفة باسم "شجيرة في مستنقع"، وإرهاصات لفترة سبقت حرب الطبقة الوسطى تم نقلها عبر خط الاستواء، مع العناية بنوادى التنس والجولف، واستعمرها رجال عدوانيون أصحاء يرتدون السراويل القصيرة والمعاطف وأربطة العنق، ويتحدثون كثيرا عن الرياضة، ونساء يعرفن

مكانهن. وهكذا كان سلوك الرجل الأسود. وسرعان بعد الإعلان الأحادى بعد الاستقلال، أخبر مجند سابق في الشرطة أحد الصحفيين أنه "ينبغي سحق الأفارقة والقائهم هناك"[٢٩].

وكان لا مفر من دفاع الأفارقة عن أنفسهم. فقد تم حظر الحركات القومية للسود كما اعتقل زعماؤهم أو تم نفيهم. وقد بدا الكفاح المسلح ببطء عقب الإعلان الأحادى للاستقلال، ولكن ازدادت سرعته بحدة في عام ١٩٧٢. لقد كان شكل الحرب مألوفا، فاشتملت عمليات الاغتيال على يد العصابات المسلحة التى أطلق عليها اسم "غلمان العصابة" الذين تم اختيارهم لتحطيم مخططات العدو. لقد كان هناك جيشان من المؤيدين وهما: الجيش القروى الشعبى التابع لـ "جوشوانكومو" من زيمبابوى (zipra) والجيش القومى الأفريقى التابع لـ "روبرت موجابي" من "زيمبابوي" أيضًا (zanu). لقد عرفت تلك العصابات ما أرادته، كما كانت مسلحة بالأسلحة السوفيتية الحديثة، ولا سيما الصواريخ، كما تلقت تدريبات فى معسكرات فسيحة في "زامبيا" ومنذ عام١٩٧٥ فى "موزمبيق".

كما كانت حرب العصابات المضادة حربا مجردة من أى هدف، كما ابتلعت الكثير من رجالها وأموالها. وبحلول عام ١٩٧٩، استهلكت ٤٧ في المائة من عوائد "روديسيا" من أجل الحرب، وتم إرغام الحكومة على تعبئة أعداد متزايدة من الرجال لسد احتياجات الجيش، وفي نفس الوقت، بدا أعداؤهم أقوى مما كانوا عليه، وبحلول شهر سبتمبر عام ١٩٧٨، استخدم المقاتلون صاروخ سام ٧، تجذبه الحرارة من أجل إسقاط طائرة في خط فسكونت فى رحلة داخلية، كما دمرت طائرة أخرى في شهر فبراير عام ١٩٧٩ بنفس الطريقة. بدأ سكان روديسيا يشعرون بأنهم على مقربة من النصر واطمأنوا لذلك، وبين ١٩٧٧ -١٩٨٠، هاجر ٤٨٠٠٠ من السكان البيض من البلاد مما يشكل خمس الجالية الأوروبية.

كانت الحقيقة فى كينيا، كما كان الوضع عليه فى المستعمرات البرتغالية، أن المستعمرين لم يكن بوسعهم الحفاظ على وضعهم بدون القوة العسكرية للدولة المضيفة.

وعلاوة على ذلك فى نهاية السبعينيات أخذت الفجوة الفنية بين عتاد قوات روديسيا وأعدائها فى الانكماش، فإن تدمير الطائرتين كان دليلاً مؤسفاً لذلك. ويمكن تلقى درس مشابه أكثر إيلامًا مثل ما عاناه الاتحاد السوفيتى فى مطلع الثمانينيات عند شنه حربًا إمبريالية جبرية فى أفغانستان انتهت كما انتهى الجيش البريطانى أى بمأساة.

عند حلول عام ١٩٧٨ كان أمام سميث وجبهة روديسيا اختياران أولهما القتال ثم الانهزام بعد حرب استنزاف، أو حماية أنفسهم مما قد يمنح تنازلات ضخمة لصالح السود. انتهى الأمر باختيار العنصر الثانى، ثم تحالفوا مع أحزاب أفريقية مسالمة أولها حزب الأسقف "أبيل موزوريوا" وهو رئيس المجلس الوطنى الأفريقى و"شيف شيرو" وهو زعيم منظمة شعب زيمبابوى المتحدة، وكانت النتيجة، إنشاء معسكر داخلى ووضع دستورى ضاعف تمثيل السود، وفى شهر أبريل ١٩٧٩، أصبح الأسقف "موزوريوا" رئيس وزراء لدولة جديدة تضم كلاً من زيمبابوى وروديسيا، وبعد انقضاء شهر فاز المحافظون تحت رئاسة السيدة مارجريت تاتشر بالانتخابات العامة مما زاد من احتمالات عودة بريطانيا فى روديسيا. إن قضية روديسيا كانت من ضمن المشكلات العويصة التى ورثتها السيدة تاتشر ممن سبقوها، فقد كانت مصرة على العمل بحزم وبسرعة، كما عملت على إثبات مهارة الحكومات السابقة. وفى مؤتمر لوساكا للكومنولث الذى تم انعقاده فى فصل الصيف، أصرت أنه بوسع بريطانيا إيجاد حل لمعضلة روديسيا. فكان الحل فى وضع البلاد تحت حكم حكومة بريطانية تقوم بالإشراف على الانتخابات

تشترك فيها كل الأحزاب بما فيها حزبا "موجابي" و" نكومو" (الـذى قـاطع اقتراع شهر أبريل) قد يتنافسان. وقد وافق وزراء الكومنولث الذين لم يكـن لديهم اقتراح آخر على ذلك، كما وافقت كل من دولتى زيمبابوى وروديـسيا على هذا الاقتراح، عقب خروجهما من حرب ضروس، وحتى برغم عـدم حصولهما على اعتراف دولى على ضمهما. لقد اجتمع كل ممثلى الفصائل بمن فيهم "يان سميث" (الذى أتيحت له حصانة من الإدانة تهمة الخيانة) فـى العاصمة لندن فى فصل الخريف. وقد عالج مشكلة روديسيا مؤتمر لانكاستر جيت تحت رئاسة وزير الخارجية نورد كارينجتون، وعادت الـبلاد مـرة أخرى للحكم البريطانى وحاكمها الجديد اللورد سومز، وبصحبته مجموعـة من العسكريين قاموا بالإشراف على حسن سير عملية الاستسلام ونزع سلاح الجنود المتطوعين وإقامة انتخابات عامة وقد فاز بها موجابى الذى أصـبح رئيسا لوزراء لحكومة ائتلافية تتكون من الاتحاد الوطنى الأفريقى لزيمبابوى واتحاد الشعب الأفريقى بزيمبابوى تحت قيادة نكومو. وقـد حـصل الـسيد سميث على مقعد واحد من ضمن العشرين الآخرين المخصصة للبيض فـى برلمان جديد فى زيمبابوى، وأول عمل قام به كان هدم تمثال لـ "سيـسيل رودس ".

(٧)

مهمة لم تنته

بينما كان شعب زيمبابوى يُسقَط تمثال رودس، حـــاول البريطـــانيون نسيانه ونسيان ماضيهم الإمبريالى. وقد تذكر الجميع وجود بقاع شهيرة على كوكب الأرض، ألا وهى جبل طارق وأسانسيون وسانت هيلين وتريستان دا كُونها وجزر فوكلاند. وغيرهما من الجزر التابعة والأراضى الجليدية التابعة وجزيرة بيتكارن، وهذا هو مسقط رأس متمردى سفينة باونتى وزوجاتهم من تاهيتى وهونج كونج وبارامودا وجزر كايمان ومونسيرا. لم يعرف الكثيـــر موقعهم على الخريطة، وتم تركهم بمفردهم حتى يعرفوا كيفية الحصول على هذه البقاع وسبب ذلك. لقد كانت موروثات إمبريالية، كما كانت سلامة سكان هذه الأماكن على مسئولية بريطانيا.

إن امتلاك هذه المستعمرات لم يكن أمرًا ملائمًـــا لأمـــة دخلـــت فـــى الثمانينيات من القرن العشرين بحثًا عن هوية جديدة تالية لعصرها الإمبريالى وكان ذلك أمرًا صعبًا. لقد كانت بريطاينا على مر الأعوام الأربع عـــشرة الماضية قوة أوربية مترددة وفاترة ومعادية لأغراض خصومها، وفى نفـــس الوقت زبونًا مخلصًا لأمريكا. لم تتغير حال الكومنولث، ويضم اليوم تـــسعة وأربعين عضوًا، ما يمثل ربـــع ســـكان الأرض، ويعكـــس حجمهـــا حـــال الإمبراطورية فى أوج مجدها، وخير دليل على تأثير بريطانيا على العـــالم. لقد صنعت بريطانيا تاريخ أمريكا الشمالية، وأغلـــب دول أفريقيـــا والهنـــد

والشرق الأوسط والأقصى، وفى العديد من هذه المناطق اللغة الإنجليزية هى لغة القانون والتجارة والحكومة والتربية. وحتى الآن وبدون أسـباب بـدأت تتراجع أهمية ذكر دور بريطانيا فى العالم فى مقررات التاريخ بمدارسـها. سوف ينمو جيل بالكامل ونعرفه عن الإمبراطورية، وكيف نشأت وماذا قـدمت لرعاياها مأخوذة من القصص والأفلام، وبما أن الكومنولث قوة سياسية فـى العالم فقد تم تحديد إنجازاتها بشكل صارم. وخلال السبعينيات والثمانينيـات من القرن العشرين، كانت اجتماعات رؤساء وزراء تلـك الـدول مـسرحا لخلافات حادة مع رؤساء وزراء بريطانيا؛ لأنه فُرض عليهم الاستماع إلـى خطب بكسنيفيان عن احتوائه لأزمة روديسيا ومنذ فتـرة أقـرب، وزعمـه الصورى لدعم العقوبات الاقتصادية ضد جنوب أفريقيـا. وكـان مـن رأى "تاتشر" أن تلك مثيرة، مثيرة للضجر، وأفصحت فى بعض الأحـوال عمـا بداخلها. وذات مرة، أثناء مؤتمر ناسو (Nassau) عام ١٩٨٥، تحدثت مـع أحد أعضاء الوفد الأوغندى الذى أعطاها محاضرة عن التفرقة العنصرية، ثم ذكرته عن طرد بلده المخجل لشعبها الآسيوى. إن الدول الأفريقية والآسيوية فى غاية الحساسية عندما يلفت أحدهم انتباهه إلى العنصرية. وفضلا عن ذلـك، فإن الخطب عن حقوق الإنسان، التى يقولها زعماء دول الحلفـاء، يقومـون باعتقال من يعارضونهم أو إسكات المناظرات السياسية، أشياء لا معنى لها.

ومن ناحية أخرى، أصبحت وظائف دول الكومنولث أكثر فاعلية فى المستويات الوسطى والدنيا. فإن تبادل الأفكار والتعاون فى مجـالات مثـل التربية والطب والزراعة والتكنولوجيا، تضع همزات وصل لا تقدر بثمن بين الأعضاء الأغنياء والفقراء. إن الأعمال الخيرة المتنوعـة التـى ترعاهـا وكالاتها، توفر مساعدة حيوية للأمم النامية، وبـشكل مـا، تعتبـر تحقيقـا للمثاليات القديمة للإمبريالية الجوادة. يشعر البعض أن "جوزيف تـشامبرلين"

قد نال رضا الأطباء البيطريين الذين كانوا يعملون على تحسين سلالات العجول الكينية، أو الشباب والفتيات البريطانيين الذين كانوا يدرسون اللغة الإنجليزية في المدارس الهندية. وهو، وكل من يؤيدون نفس الآراء كانوا سعداء لرؤية أسماء أفريقية واسيوية وصينية على توؤم خريجي الجامعات البريطانية في مجالي الحقوق والمحاسبة. وما أطلق عليه "إدموند بورك" اسم الكتائب الصغيرة" على الأفراد الذين تجمعهم مصالح مشتركة ويعملون معا ويتمتعون بالقوة والفاعلية في دول الكومنولث. وما يتمتعون بتطبيقه يفسر التحاق مستعمرين برتغاليين سابقين لهما وهما أنجولا وموزمبيق.

إن جولات بريطانيا في دول الكومنولث لا تزال مستمرة. إن هذه التطورات تولد الكثير من النيات الحسنة وتعطي الكثير من الإثارة والمرح لكل من يشاركونهم ذلك. وهذه هي الحال عند جذب انتباه الناس للبروتوكول. إن الملكة "إليزابيث" الثانية مشهورة بولعها بدول الكومنولث وتقوم بالتزاماتها تجاهها برقة وكما ينبغي. إن لزياراتها وتلك التي قامت بها عائلتها معنى أعمق مما نتصوره؛ فهي توفر حسا للدوام التاريخي للرعايا السابقين للإمبراطورية ومن ينسبون إليها. وفي بعض الأحيان، قد يشعرون بالحنين لماضيهم الإمبريالي ولكنهم يشعرون بالعجز على الرجوع للخلف ولقادتهم السابقين. تمثل الملكة ذلك الماضي، وأنه من الممكن الرجوع لمستعمرات حدودها مع الترحيب، ويمكن لأحد ضيوفها أن يقول خطبة قصيرة عن قوانين الإمبريالية وكيف انتهت.

إن حكومات المحافظين التي حكمت بريطانيا منذ عام ١٩٧٩ لم تعط حسا قويا للتاريخ. وبالطبع، لم يرق للسيدة تاتشر وكل من شاركوا أيديولوجيتها الحجج التي تنادي بالتقاليد العتيقة وخاصة من ينتمون لحزبها. لا توجد ولو حتى غرفة واحدة في السوق الحرة للمشاعر عن الأيام السالفة

أو مؤسسات عامة يعيش من نجا منها على أيام انقضت. وضمن النقاط الثلاث الأخيرة، فإن وزارة الكومنولث والمجلس البريطانى وخدمات البى بى سى العالمية قد عانت من العجز فى ميزانياتها. وقد تم اختلاق هذا العجز باسم الاقتصاد، وعلى الرغم من الحجج التى لجأت إليها تلك المؤسسات لاستمالة القلوب والعقول والحلفاء من جميع أنحاء المعمورة. إن سمعة بريطانيا الدولية تتمتع بقوة أخلاقية وثقافية لا يمكن قياسها عن طريق المكاسب والخسائر.

إن الفلسفة السائدة بين مؤيدى تاتشر وجون ميجور تمثلت فى الإمبراطورية ودول الكومنولث، وكل ما صاحبهما على هيئة التزامات صارت جزءًا من الماضى. والأحداث التى لم تكن فى الحسبان التى وقعت فى جزر فوكلاند عام ١٩٨٢، أنذرت عن اقتراب نهاية الحماية البريطانية فى هونج كونج دامت تسعة وتسعين عامًا حتمت على رئيس الوزراء آنذاك بعدم الهروب من مفرزة التاريخ. وقد كان الاجتياح الأرجنتين لجزر فوكلاند فى يومى ١و٢ أبريل عام ١٩٨٢ بمثابة مفاجأة غير سارة. وقد صرح من نقدوا الحرب أن انسحاب قطعة بحرية فى جنوب المحيط الأطلنطى قد شجعت الحكومة الأرجنتينية التى قادت هذا الانقلاب، كما ارتكب رجال مخابراتها أخطاء جسيمة. لنفترض أنه لم يكن الوضع كذلك، يمكننا افتراض أن حفنة الضباط القدامى لم يتريثوا، وأن الاستيلاء على الجزر تم التخطيط له فى أقل من أربع وعشرين ساعة.

لقد كان رد فعل بريطانيا مزيجا من الدهشة والغضب. أما للسيدة تاتشر فكان الموضوع جليًا، ومن ضمن محتوياته:

"لا بد أن تعود جزر فوكلاند والجزر المحيطة بها للسيادة البريطانية. ولا يمكن لأى اعتداء أو اجتياح التأثير على الواقع. وهدف الحكومة هو

التأكد من تحرير الجزر من الاحتلال ووضعها تحت السيادة البريطانية في أسرع ما يكون... فإن شعب جزر فوكلاند شأنه شأن الشعب البريطاني شعب جزري... فإن عددهم قليل، ولكن من حقه العيش في سلام، وتحديد مصيره واختيار أسلوب حياتهم وتحديد من يدينون له بالولاء. إن هذا الأسلوب في الحياة هو الأسلوب البريطاني ألا وهو ولاؤهم للتاج.

برغم أن فوكلاند كانت مستعمرة في الماضي، فقد كانت امتدادًا لبريطانيا. وصرح مايكل فوت الذي كان زعيم حزب العمال في مجلس العموم أن حكومة الانقلاب لم تكن سوى مجموعة من البلطجية أيديهم ملطخة بدماء أقرانهم. ولا بد من تحرير سكان فوكلاند من هؤلاء الطغاة؛ لأن من حقهم الحياة مع بريطانيا، كما أن لدينا "قدرات أخلاقية وسياسية وغيرها من القدرات التي ينبغي التأكد من حمايتها".

لقد كانت حالة مجلس العموم المزاجية سيئة للغاية ومؤيدة للحرب؛ لقد تحدث جوليان أمري أمام الكثير عن الشقين عند إشارته إلى "وصمة عار في حق بريطانيا".

عندئذ، أعدت بريطانيا عدتها لخوض آخر حرب إمبريالية لها من أجل الثأر لشرفها واستعادة آخر مستعمراتها. وكان من الهزل أن العديد من السفن الحربية التي أبحرت في جنوب المحيط الأطلنطي تم الإنفاق عليها من وزير الدفاع جون نوت. وقد كان نوت تارة سفيها وتارة أخرى كئيبا وظهر بانتظام في التلفاز وبصحبته شاب يؤدي خدمته العسكرية، وكان يقوم بشرح سير عمليات الحرب بصوته الجنائزي. وفي نفس الوقت، أهدى فريقًا من الخبراء العسكريين خدماته، كما لو كانت نصيحة لم يرغب فيها أي شخص. إن هؤلاء العسكريين المفترضين كانوا بديلا للحرب، فور حدوثها، التي لم يكن من الممكن إرسال أخبارها مباشرة.

اعتمدت نتائج الحرب على تعاون الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تخوض حربا باردة كبرى وصغرى. لقد كان الرئيس ريجان في صف بريطانيا برغم أن اعتذاراته كادت تتسبب في قطع علاقاتها مع غيرها من دول أمريكا الجنوبية. وأثناء هذه الحملة، كانت كل أسلحة الولايات المتحدة وجهاز مخابراتها في خدمة بريطانيا.

عندما كان الإنجليز في طريقهم للعودة لوطنهم، أطلق مذيعو الأخبار الأمريكيون على الحرب "الإمبراطورية تعيد هجماتها". وكان هناك داخل بريطانيا شعور حاد وكريه بأن البلد كثيرًا ما عاني من تلقي الصفعات الآن. وظهر اتجاه غريب في الصحف الشعبية، وظهرت في مانشيت جريدة "صن" فيها صورة للسفينة الأرجنتينية واسمها "جنرال بلجرانو" أثناء غرقها. إن غرق هذه السفينة الحربية كان من أهم أحداث الحرب. فقد صدرت أوامر اعتراضها وتدميرها إثر صدور إشارات من المخابرات أن تلك السفينة كانت على استعداد لمهاجمة الجيش البريطاني.

ومن كانوا، مبدئيا، معارضين لفكرة الحرب صرحوا بأن الطوربيدات التي تسببت في غرق السفينة الحربية بلجرانو استنفدت كل فرص المفاوضات من أجل السلام الذي يتم التفاوض عليه على الرغم من افتراض أن حكومة الانقلاب الأرجنتينية كانت في سبيلها للتراجع. وما تسبب في غضب اليساريين أكبر من مصير سفينة بلجرانو هو الطريقة التي أفصحت الحرب بها عن عمق الوطنية العدائية وشذتها على طريقة "جون – بول". وقد بدت بشكل قوي وسط قطاعات الطبقة الكادحة، وبعد مرور أيام قليلة لاجتياح جزر فوكلاند واجتماع بعض البلطجية حليقي رؤوسهم أمام مكتب متطوعين في "ميدلاندز" طالبين بنادق، وأعربوا عن غضبهم عند علمهم بأن هذا الأمر يستلزم بعض التدريبات. ولم يتذكر أحد المشاعر العتيقة

والجياشة عند تفكك الإمبراطورية، وظهورها مرة أخرى أثناء الحرب مع العراق عام ١٩٩١. ويقال أيضا إنه قلما تسبب فريق كرة قدم إنجليزى فى إثارة نفس الحماس أثناء مباراة له خارج البلاد. يحترم فريق من الرجال الكادحين مباراة تجرى خارج أوربا على أنها فرصة لتعبئة معنوياتهم، ومن المستحيل إيقافها. ويوجد المزيد من القتل اليدوى خاصة فيما وصفه د. جونسون بالوقاحة بين الجماهير فى وقت السلم عند تجاهلهم لقيمة الشجاعة. وأيا كان تأثير ذلك على الطابع القومى، فإن ضياع الإمبراطورية والقوة العالمية لم تعمل على التقليل من عدوانية البريطانيين.

وكانت إعادة غزو جزر فوكلاند فى أواخر شهر مايو، دليلاً قاطعًا لشجاعة المقاتلين البريطانيين وجلدهم ودليلا على حكمة القرارات التى تتخذها رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر كما أضفت بريقا للهدف القومى الذى نساه البعض لعدة سنوات بعد انسحاب الإمبراطورية والتخلف الاقتصادى الذى لحق بها، والخلافات الداخلية المتعلقة بالصناعة. وتحولت بريطانيا فى ظلام دامس من أمة سلبية إلى أمة يشيد بها العالم.

وما كان فى الواقع آخر حرب إمبريالية خاضتها بريطانيا، فهى قد قاتلت فى ظروف فريدة من نوعها، بل عجيبة الشكل وذكرت العالم بالمذلة التى لحقت بها فى السويس. كما كانت سببا فى تسمية تاتشر بلقب المرأة الحديدية وأتاحت لها فترة رئاسة ثانية عام ١٩٨٣.

إن الانسحاب من هونج كونج لم يكن مفخرة على الإطلاق. فتم الاستيلاء على هذه المستعمرة من الصين عام ١٨٩٨، وتم ضمها إليها كنتيجة لحرب الأفيون التى اندلعت عام ١٨٣٩، وانتهت عام ١٨٤٢. واعتمد وجود هذه المستعمرة منذ عام ١٩٤٩ على قبول جمهورية الصين الشعبية التى حصلت على حق إعادة الاستعمار، كما هى الحال مع الإقطاعيين المانشو،

للأراضى التى تركها من هم سبقوهم. ولتلك الأسباب، لم تتعامل الحكومات البريطانية مع هونج كونج مثلما تعاملت مع سائر أجزاء الإمبراطورية، ولم يكن شعبها قادرا على الحكم الذاتى فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. وكان المنطق السائد بين هونج كونج والصين هو "ازداد ثراء" فانتشر الرخاء فى المستعمرة، وأصبحت عند مطلع الثمانينيات مركزًا مصرفيًّا وتجارى رائدًا فى الشرق الأقصى. وبما أن باقى أراضى الصين بدأت المشاركة فى المحيط الهادى، وحاولت اعتناق مذهب الرأسمالية، فبدا الوضع مناسبا لوضع يدها على هونج كونج، فهى تعاملها كما لو كانت صيدًا ثمينا.

وكان من الممكن أن يكون هذا المنطق مبشرًا، وتم وضعه لطمأنة سكان هونج كونج وتسهيل مهمة الحكومة البريطانية. وبدءًا من عام ١٩٨٤، أصبح من المحبذ السماح بحكومة تمثيلية فى هونج كونج، ووعد بتحمل المؤسسات الديمقراطية لعملية انتقال السلطة. تم قبول شروط هذا بحلول عام ١٩٨٩، ولكن كانت احتجاجات مؤيدى الديمقراطية فى ميدان "تيانامان" بمثابة مؤشر عنيف على ديكتاتورية نظام الحكم الصينى. لقد واجهت الحكومة الصينية مأزقا، فقد عرفت من ناحية أنها تمتلك قوة قاهرة لا يمكنها المراهنة عليها، ومن ناحية أخرى، كانت تحت ضغوط من هونج كونج لتعجيل عملية الدمقرطة. ولكن من أجل متابعة هذا النظام، قد ترتب عليه استياء الصين وتحويل هونج كونج إلى ساحة معارضة بين المبادئ وتطبيقها.

إن الحاكم الجديد الذى كان وزيرا محافظا ويدعى "كريس باتين" وتم تعيينه عام ١٩٩٢ قد تبنى نهجا تقليديا أبويا مع التشديد على المقولة: " إن مسئوليتنا تجاه مواطنى هونج كونج تأتى فى المقام الأول. وقد ضغط على الصين من أجل الحصول على تعديلات للانتخابات التى أجريت عام ١٩٩٤ التى انسحبت من تلك القضية أساسا. إن ذلك الحل بعيد عن الحرب حاليا، ولكنه ليس من المؤكد أن الصين سوف تصمت طويلاً.

إن مشكلة مستقبل هونج كونج أمر يفوق عدم الاتفاق الإمبريـــالى. إن هيئة الحاكم ومؤيديه قد وضعوا حججا إمبريالية تضم رعايا بريطانيا. وكان من رأى خصومهم أن تلك المسئوليات الأخلاقية على درجة مـــن الفخامـــة تفوق قدرات بريطانيا. فالدبلوماسيون المحترفون الذين أفنوا حياتهم للتفاوض مع الصين آمنوا بأن التودد من أفضل الطرق لاستمالة بكين التى قد تـــضر بتجارة بريطانيا حال عدم رضاها.

وفى السنوات الأربع عشرة الماضية، اختلفت وجهات النظر فيما يتعلق بالتجارة والدوائر التابعة ل تاتشر فى حزب المحافظين. بينما كانت تحـــاول أن تكون رسولا للديمقراطية فهى حاولت استقطاب الأوتوقراطيين مثل الملك فهد بالمملكة العربية السعودية وشيوخ الخليج العربى الذين كانوا مـــستوردى الأسلحة البريطانية. وما يمكننا أن نطلق عليه اسم "سياسة الطبنجـــات" قبـــل وضع المبادئ أدى إلى استسلام حكومتها للسعوديين عام ١٩٨٢ بعد عرض فيلم تليفزيونى اسمه "وفاة أميرة". وعلى النقيض، تعاملت تاتشر بحـــدة مـــع حليف صادق وهو الملك حـــسين ملـــك الأردن المتمتـــع بـــالخلق الرفيـــع والإنسانية، وعندما حاول التعامل مع جاره القوى وهو العراق قام باجتيـــاح الكويت عام ١٩٩٠. والأمر الحتمى الأخلاقى الذى كان وراء حرب جـــزر فوكلاند لم يمتد إلى مجالات أخرى من السياسة الخارجية.

وقد ظهرت قضية أخلاقية أخرى أثناء المفاوضات المتعلقة بمـــستقبل هونج كونج. وكانت مسألة قبول أعداد كبيرة من سكان هونج كـــونج مـــن أصول صينية لدى بريطانيا، عام ١٩٤٨، تم مد المواطنة البريطانية لرعاياها فى جميع المستعمرات. وكما مرت السفينة البخارية وسط مجلس العموم فقـــد مرت نفس السفينة وتدعى إمباير وندرش بميناء تلبرى، ونزل معها أربعمائة مهاجر من غرب الهند. وكما فعل الإنجليز، فإن الأسكوتلنديين والأيرلنـــديين

الذين عبروا المحيط الأطلنطى فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، فقد هاجروا من بلادهم بسبب الفقر وجاءوا طلبا للحياة الكريمة.

إن السنوات التى شهدت تفكك الإمبراطورية جعلت الهجرات واسعة المجال أمرا ممكنا. وبدءا من عام ١٩٤٨، هاجرت أعداد ضخمة من سكان جزر الهند الغربية وباكستان وأعداد أصغر من سكان غرب أفريقيا ومالطا وقبرص. بدأ عدد المهاجرين يتناقص فى نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات ثم صدر مرسومان فى عامى ١٩٦٢و١٩٦٨ لوضع قيود على الهجرة. ليس لدينا مجال لمناقشة نتائج هذه التيارات من الهجرة على بريطانيا التى أصبحت فى السبعينيات مجتمعا متعدد الأعراق برغم إقامة أغلبية المهاجرين فى لندن وميلانو والمدن الصناعية التى تعانى من التلوث شمالى إنجلترا. تباينت ردود الأفعال إزاء هذا التغير الديموغرافى، وغالبا ما صاحبه بعض العنف من ناحية الأيرلنديين فى القرن التاسع عشر. وقد كانت الاتجاهات الإمبريالية الخاصة بالسمو العرقى أدت إلى الاستعلاء أو حتى الاستهزاء بالغير، ولكن، فى نفس الوقت، أملت الإمبريالية الموروثة أبا عن جد أنه ينبغى معاملة السود والآسيويين معاملة لائقة وعادلة. هذا، لأن أبناء المهاجرين سوف يعتمدون كلية على الحس الأخلاقى للشعب البريطانى ومرونته.

إن قصة الصعود والسقوط المتسارعين للإمبراطورية البريطانية كانت مبنية على افتراضات وجود الصفات بوفرة، وهكذا التجرد من الإنسانية والشراهة المفرطة. وإلقاء نظرة سريعة على ماضى بريطانيا الاستعمارى يؤدى إلى نتيجة؛ أن تأخر عنصرين كانا فى المقدمة، ولكن كانت هذه الفكرة مضللة. لقد تمتعت الإمبراطورية البريطانية بقوة أخلاقية ومحبة الحق. وقد قال نلسون مانديلا كلمة الختام عندما تذكر حياته المدرسية فى مدينة ناتال فى العشرينيات:

"لا تنسوا أنى ترعرعت فى مدرسة بريطانية، وفى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا موطنا لأسمى الأشياء فى العالم، فإننى لم أستبعد التأثير الـــذى لعبته بريطانيا والثقافة البريطانية علينا. لقد كنا ننظر إليها على أنها عاصمة العالم برمته، وزيارتها كانت أمرا مشوقا؛ حيث إننى كنت أزور أجمل بلد فى العالم. ينبغى أن تتذكروا أن بريطانيا موطن الديمقراطية البرلمانية، ونحـــن كشعب يقاتل أحد أشكال الطغيان متمثلة فى هذا الوطن، فنحن ننظـــر إلـــى بريطانيا على أنها عون لنا لمقاومة التفرقة العنصرية".

إن عدد الإمبراطوريات التى زوّدت رعاياها بكل اللازم للتخلص من حكامها. لم ينج أى شخص بفضل هذا الكم من المحبة واحترام الأخلاقيات.

الهوامش

Part Four: The Age of Imperialism is Ended: 1914–45

1: E is for Empire for which We Would Die: 1914–18

1 Drew, 13.
2 Killingray, 'Labour Exploitation &c.', *JCont.H.* 24, 485.
3 Page, 'The War of *Thangata* &c.', *JAH,* 19, 94–5.
4 Killingray, 'Repercussions of World War I &c.', *JAH,* 19, 49.
5 Willcocks, 300; G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH,* 14, 93.
6 Osuntokun, 97; PRO, CO 318/350.
7 Waite, 62.
8 PRO, WO 33/946, 9762.
9 PRO, WO 33/960, 9961; CO 123/296.
10 *Ibid.*
11 Fuller, 50–51, 161, 167.
12 *Ibid.*, 76.
13 PRO, FO 141/466/1429, I.
14 Greenhut, 'The Imperial Reserve &c.', *JICH,* 14, 106.
15 NLS, Haig, 5 May 1915.
16 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH,* 14, 106.
17 Marder, *Fear God and Dreadnought*, 389.
18 PRO, WO 30/57/69.
19 PRO, Cab 42/11.
20 Osuntokun, 152–3.
21 Busch, 80.
22 Beatty, 393.
23 Vansittart, 168.
24 Amery, *Diaries*, I, 229.
25 *Ibid.*, 134.
26 *Hansard*, 5th Series, 100, 2211.
27 Yate, 'Britain's Buffer States &c.', *JRCAS*, 5, 13.
28 W. Wilson, *Collected Papers*, 45, 552.

29 Amery, *Diaries*, I, 147.
30 Ronaldshay, III, 199.
31 *Statistics of the Military Effort of the British Empire &c.'*, 61–3, 237, 474–8.
32 Malone, 'The New Zealand School Journal &c.', *NZJH*, 7, 22.
33 *Oh Canada: a Medley of Verse*, 62.
34 Read, 98.
35 Fuller, 36.
36 Amery, *Diaries*, I, 229.
37 Page, 'The War of *Thangata* &c.', *JAH*, 19, 78–9.
38 Killingray, 'Labour Exploitation &c.', *JCont.H.* 24, 484.
39 Osuntokun, 45.
40 Willan, 'The South African Labour Contingent &c.', *JAH*, 19, 63–4.
41 L. James, *Mutiny &c.*, 253.
42 Willan, 'The South African Labour Contingent &c.', *JAH* 19, 78–9.
43 PRO, CO 318/350.
44 Gandhi, 14, 428–9.

2: *Clear Out or* Govern: *Troubles, mainly Irish, 1919–39*

1 PRO, FO 848/2, Balfour to Wingate, 26 March 1919.
2 *Times*, 16 June 1919.
3 *Hansard*, 5th Series, 131, 1718.
4 Jeffery, 161.
5 PRO, WO 33/699, 9.
6 Jeffery, 161.
7 Griffiths, 352–3.
8 Lockman, 'British Policy towards Egyptian &c.', *IJMES*, 20.276.
9 PRO, CO 537/1735, 9.
10 PRO, WO 33/5916.
11 PRO, Air 2/125, B11395; WO 33/5916.
12 PRO, Air 8/104, D.1.36.
13 PRO, WO 106/3793, 162A.
14 Murphy, 'Walter Long &c.', *IHR*, 25, 95.
15 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 49–50; *Crawford Papers*, 422.
16 *Saturday Review*, 28 May 1921.
17 Macready, II, 426, 434.
18 Ash, 257–8, 268.
19 Calwell, II, 241.
20 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 61.
21 *Ibid.*, 42.
22 Jeffery, 86.
23 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 77.
24 Townshend, *British Campaign &c.*, 186–93.
25 Lawrence, *Letters &c.*, 308, 322.
26 Ward, *Ireland in Anglo-Irish Relations &c.*, 252–4.
27 Jones, *Whitehall Diaries*, III, 74–5.
28 Lawler, 'Ireland from Truce to Treaty &c.', *IHS*, 12, 53–4, 57–8.
29 Gilbert, *Churchill*, IV, (Companion volume, Part 3), 1681, 1685.
30 *Spectator*, 8 October 1928.
31 Jeffery, 93

32 *Ibid.*, 76.
33 Gandhi, 21, 17.
34 Fisher, *Foreign Affairs*, 1, iii, 84.
35 *Hansard*, 5th Series, 150, 144.

3: Their Country's Dignity: Egypt, 1919–42

1 James, *Imperial Warrior*, 203.
2 Stephens, 29.
3 Sadat, 23.
4 PRO, FO 848/2.
5 Amery, *Diaries*, 1, 207.
6 Eg: PRO, FO 371/3714, 53, 98; WO 95/4372, June 1919, Appendix C1.
7 Bishku, 58; PRO, FO 848/5, 77.
8 James, *Imperial Warrior*, 208.
9 PRO, FO 141/825/1132, 14, 16, 52, 65; WO 33/981, 11045; WO 154/164.
10 PRO, FO 141/825/1132, *passim.*
11 PRO, WO 33/981, 11043.
12 *Daily Mail*, 24 August 1920.
13 PRO, FO 141/502/17490, 23A.
14 Brown, *Peasants Against the State &c.*, 239–40.
15 Lloyd, II, 23–4.
16 Charmley, 153.
17 Lloyd, II, 5.
18 Morsy, 'Wartime Policy in Egypt &c.', *MES*, 25, 68, 82.
19 *Ibid.*, 64.
20 Nasser, 13–14.

4: The Haughty Governess: The Middle East, 1919–42

1 Bell, 3–4, 5, 7.
2 *Hansard*, 5th Series, 150, 79–80.
3 *Ibid.*, 97.
4 Jeffery, 60.
5 *Ibid.*, 36.
6 Sykes, 'Persia and the Great War &c.', *JRCAS*, 9, 187.
7 Jeffery, 143; Ironside, 153.
8 A. Wilson, 'Revolt in the Desert', *JRCAS*, 14, 151.
9 PRO, WO 32/1584.
10 PRO, WO 32/9614.
11 Vinogradoff, 'The 1920 Revolt &c.', *IJMES*, 3, 134–6.
12 PRO, WO 95/5214 (15th Sikhs).
13 PRO, WO 32/5191.
14 Jeffery, 153.
15 PRO, Air 8/529.
16 PRO, Air 5/1292, Operational Summaries, 1932.
17 PRO, Air 8/46, Report 5.
18 Boyle, *Trenchard*, 389–90.
19 Salmon, 'The Air Force in Iraq', *RUSI*, 70,497.
20 PRO, Adm 116/3190.
21 Atiyah, 152.

22 *Ibid.*, 175.
23 *Ibid.*, 198–9.
24 James, *Golden Warrior*, 232.
25 PRO, WO 32/9614, 22.
26 Wasserstein, 8–12.
27 'Service Problems in Palestine', *RUSI*, 81, 804.
28 PRO, CO 733/315/6, 16; WO 32/9618.
29 PRO, CO 733/315/6, 8; Townshend, 'The Defence of Palestine &c.', *EHR*, 103, 919.
30 PRO, WO 106/1594C.
31 PRO, CO 537/1735, 10.
32 PRO, WO 106/1594C; *Hansard*, 5th Series, 349, 897.
33 Wasserstein, 28.
34 Al-Qazzaz, 'The Iraqi War &c.', *IJMES*, 7, 594.
35 PRO, Air 9/146.
36 Al-Qazzaz, *op. cit.*, 595.
37 Hinsley, 1, 409–10; 574.

5: A New Force and New Power: India, 1919–42

1 Draper, 90–91.
2 PRO, Air 8/46, Report 5, 9.
3 PRO, WO 208/774.
4 Griffiths, 302–3.
5 Norman, I, 118.
6 *The Indian Public School*, viii, 34.
7 Mangan, 179–91.
8 *University of Mysore: The Calendar for the Year 1925–1926*, 87–8.
9 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 106.
10 Jeffery, 3–4.
11 Tinker, 'India and the First World War &c.', *JCont.H*, 3, 89.
12 Gandhi, 15, 130–31, 136, 145, 157.
13 *Ibid.*, 221, 234.
14 *Ibid.*, 185.
15 *Ibid.*, 16, 375.
16 *Hansard.*, 5th Series, 131, 1710.
17 Ash, 268.
18 *Spectator*, 20 December 1919.
19 *Hansard*, 5th Series, 383, 302–5.
20 Gandhi, 76, 50.
21 *Ibid.*, 3.
22 Talbot, 'The Role of the Crowd &c.', *JICH*, 21, 313–14.
23 Rizvi, 25–26, 122.
24 *Ibid.*, 125.
25 *Ibid.*, 131; Prasad, 48.
26 PRO, WO 106/3723, 125.
27 *Constitutional Relations &c.*, 1, 49.
28 PRO, WO 208/819A.
29 Gandhi, 76, 49.
30 *Ibid.*, 49–50.

31 Prasad, 169–70.
32 *Ibid.*, 167.
33 *Congress Responsibility &c.*, 23, 27–28, 32; PRO, WO 106/3721; WO 208/761A.
34 *Hansard*, 5th Series, 383, 295–6.

6: For the Benefit of Everyone: Concepts of Empire, 1919–39

1 Pugh, 'Popular Conservatism &c.', *JBS*, 27, 274, 280.
2 *Hansard*, 5th Series, 342, 1226–7.
3 *Listener*, 2 June 1937.
4 *Hansard*, 5th Series, 342, 1243, 1247.
5 *Picture Post*, 29 April and 27 May 1939.
6 *Hansard*, 5th Series, 342, 1247.
7 Philips, 'The New Africa', *Nineteenth Century and After*, 22, 587.
8 Hooper, 41.
9 Hyams, *Empire and Sexuality*, 199.
10 Fraser, *Impressions: Nigeria 1925*, 114.
11 Marston, 'Lands Something New', *National Geographic Magazine*, 71, (January 1937), 125.
12 *Punch*, 3 January 1934.
13 Birley, 'Africa and the Blight of Commercialism', *Nineteenth Century and After*, 87, 1083–4.
14 Osuntokun, 76, 87.
15 *Listener*, 31 May 1933.
16 PRO, CO 537/1224, 6, 4.
17 *Ibid.*
18 *Times*, 14 June 1919.
19 Hyams, *Empire and Sexuality*, 205.
20 G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes &c.', *JICH*, 14, 103.
21 PRO, Air 8/46 Report 5, 9.
22 Birley, 'Africa and the Blight of Commercialism', *Nineteenth Century and After*, 87, 1085.
23 Quoted in *New Statesman*, 2 October 1943.
24 J.M. Winter, 'The Webbs &c.', *JCont.H*, 9, 183–4.
25 Hyams, 'The Political Consequences of Seretse Khama &c.', *HJ*, 29, 927.
26 Knatchbull-Hugessen, 82.

7: The Bond of One Spirit: The Public Face of Empire, 1919–39

1 Ross Smith, 136; *Listener*, 28 December 1932.
2 R. McCormack, 'Missed Opportunities &c.', *IHR*, 11, 210.
3 *Ibid.*, 223.
4 R. McCormack, 'Imperial Mission &c.', *JCH*, 9, 95.
5 PRO, CO 874/1097, 67.
6 *Listener*, 20 October 1930.
7 Richards, *The Age of the Dream Palace*, 134, 135.
8 Pronay, 'The Political Censorship of Films &c.', in ed. Pronay and Spring, *Propaganda, Politics and Film*, 106, 137–8.
9 *Ibid.*, 136.
10 *Picture Post*, 8 April 1939.
11 *Hansard*, 5th Series, 342, 1271, 1306–7.

12 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.' *JICH*, 15, 65.
13 *Spectator*, 26 April 1924.
14 Mackenzie, 111.
15 *Times*, 24 December 1934.
16 Ziegler, *Edward VIII*, 113–14.
17 *Ibid.*, 113.
18 *Ibid.*, 137, 139, 191.
19 Storrs, 488.
20 *Spectator*, 10 September 1932.
21 *Sphere*, 28 January 1933.
22 *Spectator*, 27 January 1933.

8: No Good Blustering: The Limits of Imperial Power, 1919–36

1 Hitler, *Mein Kampf*, 563.
2 *Morning Post*, 24 May 1919.
3 Grattan, 'The Future of the British Empire, *Harpers*, 179, 489.
4 PRO, WO 106/3793, 43A, 48A.
5 Hitler, *Table Talk*, 435–6.
6 Ferris, 'The Greatest Power on Earth &c.', *IHR*, 13, 743–4.
7 Gooch, 'Hidden in the Rock &c.', in ed. Freedman, Hayes and Gooch, *War Strategy &c.*, 162–3.
8 Marder, *Old Friends and New Enemies*, 55.
9 PRO, WO 106/106.
10 Barnett, *The Collapse of British Power*, *passim*.
11 McKercher, 'Our Most Dangerous Enemy &c.', *IHR*, 13, 755.
12 Gooch, 'Hidden in the Rock &c.', *op. cit.*, 155.
13 Thorne, 98–9.
14 Cooper, *Old Men Forget*, 229.
15 *Imperial Commerce and Affairs*, 2 February 1921.
16 Heap, 'The Development of Motor Transport &c.', *JTH*, 2, 31–2.
17 Hargreaves, 93–4.
18 Cadogan, 15.
19 Sales, 'W.H. Hughes and the Chanak Crisis &c.', *AJPH*, 17, 405.
20 Thorne, 4–7.
21 *Ibid.*, 4.
22 Murfett, 'Living in the Past &c.', WS, 11, 80–81.
23 *Ibid.*, 85.
24 Marder, *From Dardanelles to Oran*, 84n.

9: We Shall Come to No Good: The Empire Goes to War, 1937–9

1 Harvey, *Diplomatic Diaries*, 289.
2 Cadogan, 53.
3 *Ibid.*
4 *Morning Post*, 25 May 1936.
5 *The Road to War*, 15.
6 Hasluck, 88–9.
7 Cadogan, 15.
8 J.P. Harris, 'British Military Intelligence &c.', *Intelligence and National Security*, 6, 413–14.

9 *Documents in British Foreign Policy, 1919–1939,* 2nd Series, 18, 968.
10 PRO, Air 8/529.
11 *Documents in British Foreign Policy, 1919–1939,* 2nd Series, 18, 982.
12 McCarthy, 'Australia and Imperial Defence &c.', *AJPH,* 17,20.
13 *Ibid.,* 24, 29–30; Gillison, 51.
14 *Ibid.,* 71.
15 *Canada Today,* 65–6.
16 Fuchser, 203.
17 *Documents on Australian Foreign Policy,* 1, 430.
18 *Ibid.,* 464.
19 Pickersgill, 12.
20 Cadogan, 92; Roskill, II 442–3; Cooper, *Old Men Forget,* 239.
21 *Spectator,* 30 September 1938.
22 Feiling, 329.
23 *Ibid.,* 297; Cooper, *Old Men Forget,* 239.
24 Cassells, 'Deux empires &c.', *Guerres Mondiales et Conflits Contemporains,* 161, 83–4.
25 See, Hauner, 'One Man Against Empire &c.', *JCont.H,* 16, *passim.*
26 Asante, 129, 173.
27 *Economist,* 15 October 1938.
28 I.E. Hollis, 'Chamberlain's Policy', *Review of Politics,* I (1939); see also Fuchser, 202, 226–8.
29 *Documents on Australian Foreign Policy,* 2, 20–21.
30 Fuchser, 354.
31 Smuts, VI, 181.
32 G. Martin, 'Mackenzie King &c.', *British Journal of Canadian Studies,* 4, *passim.*
33 Hasluck, 85.
34 *Documents on Australian Foreign Policy,* 2, 432.
35 *Ibid.,* 75, 175.
36 *Ibid.,* 83–84, 94, 99, 143, 151.
37 *Ibid.,* 153; Murfett, 'Living in the Past &c.', *WS,* 11, 91.
38 Roskill, II, 437.
39 *Documents on Australian Foreign Policy,* 2, 257.
40 *Ibid.,* 143,
41 Smuts, VI, 190.
42 Rock, 17.
43 Acheson, 10.
44 W.R. Louis, *Imperialism at Bay,* 27.

10: Finest Hour: The Empire at War, 1939–41

1 *Listener,* 31 October 1940.
2 Haglund, 'George C. Marshall &c.', *JCont.H,* 15, 746–7.
3 Moran, 395.
4 Hyam, 'Churchill and the British Empire', in ed. Blake and Louis, *Churchill,* 175.
5 E.g. Barnett, *The Audit of War,* and Ponting, *1940: Myth and Reality.*
6 Haglund, 'George C. Marshall &c.', *JCont.H,* 14, 747–51.
7 PRO, CO 537/1879, 46.
8 Harvey, *Wartime Diaries,* 90.
9 Marder, *From Dardanelles to Oran,* 222–3.

10 *Journal of the Royal African Society*, 41, 21.
11 Ojan, 'Drums and Victory &c.', *Journal of the Royal African Society*, 41, 31.
12 D. Day, 'Anzacs on the Run &c.', *JICH*, 14, 188.
13 *Documents on Australian Foreign Policy*, 5, 10.
14 See D. Day, *Menzies and Churchill at War*.
15 D. Day, 'Anzacs on the Run &c.', *JICH*, 14, 189; Hasluck, 357–8.
16 Thorne, 63.
17 Hasluck, 347.
18 *Ibid.*, 346.
19 Morison, 1, 54–5.
20 *Independent*, 26 January 1993.
21 Ross, *Royal New Zealand Air Force*, 81–2.
22 *Ibid.*, 23.
23 PRO, WO 208/819A.
24 Gillison, I, 143.
25 Aldrich, 'Conspiracy and Confusion &c.', *IJNS*, 7, 340.
26 Hinsley, Thomas, Ransom and Knight, 2 76–7.
27 Morison, 1, 167.
28 Aldrich, 'Conspiracy and Confusion &c.', *IJNS*, 7, 340.
29 Gillison, 1, 220.
30 PRO, CO 968/13/3, 9, 42.
31 *Sunday Times*, 31 January 1993.
32 Thorne, 203.
33 I am indebted to David Elder for this observation.
34 PRO, WO 208/819A.
35 Marder, Jacobson, Horsfield, *Old Friends and New Enemies*, 2, 14.
36 PRO, Air 8/629.
37 Eisenhower, 1, 252.
38 PRO, Air 8/629; *Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946*, 113.

11: Steadfast Comrades: The Stresses of War

1 *Documents on Australian Foreign Policy*, 5,559.
2 Eisenhower, 1, 78.
3 Harvey, *Wartime Diaries*, 111.
4 *Listener*, 1 June 1944.
5 Haycock, 'The Myth &c.', *WS*, 2, i, 73.
6 PRO, Air 8/374, 3, 9: Air 8/675, 6, 57.
7 Quinault, 'Churchill, Australia &c.', *WS*, 6, ii, 57.
8 *Hansard*, 5th Series, 377, 98, 621; *Economist*, 7 March 1942.
9 *Economist*, 28 February 1942.
10 *Times*, 23 February 1942.
11 PRO WO 32/1577Z, 16A.
12 *Times*, 27 February 1942.
13 *Hansard*, 5th Series, 377, 198, 550.
14 *Ibid.*, 378, 171.
15 Thorne, 97.
16 Eisenhower, 1, 85, 115.
17 PRO, WO 32/15772, 74A.
18 Furse, 230–31.

19 Storrs, 199.
20 F. Watson, 'India Returned', *Life and Letters*, 49, 12–13.
21 *Times*, 13–14 March 1942.
22 PRO, CO 537/4005, 9.
23 Smuts, 6, 366–7.
24 PRO, WO 208/803; *Constitutional Relations &c.*, 6, 50–51.
25 *Ibid.*
26 PRO, WO 208/804A.
27 PRO, WO 208/761A (Intelligence Report, 31 August 1945).
28 PRO, WO 208/804A.
29 *Constitutional Relations &c.*, 5, 1284–5.
30 PRO, WO 208/803, 105A.
31 *Constitutional Relations &c.*, 5, 1128.
32 PRO, WO 208/803, 82A; WO 208/819A.
33 *Ibid.*
34 PRO, WO 208/804A (Guidance Notes on Psychological Warfare Directed to Indians in Japanese Occupied Territories).
35 PRO, CO 537/3735, 10.
36 *Constitutional Relations &c.*, 6, 50–51, 273, 319.
37 Killingray, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast &c.', *JMAS*, 21, 527–8.
38 PRO, CO 537/1224, 6.
39 *Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946*, 111.
40 Eisenhower, 1, 208–9; Killingray, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast &c.', *JMAS*, 21, 525.
41 A. Palmer, 'Black American Soldiers &c.', *JICH*, 14, 205.
42 Sandler, 'Home Front Battlefield &c.', *WS*, 11, 1,103–5, 110.
43 Thorne, 275.
44 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.', *JICH*, 14, 73–4.
45 *Ibid.*, 78, 81–2.
46 Djan, 'Drums and Victory &c.', *Journal of the Royal African Society*, 41, 31.
47 PRO, CO 874/1097, 67.
48 Ageron, 'Les Populations du Maghreb &c.', *Revue de l'Histoire de la Deuxième Guerre Mondiale*, 114, 31.
49 Perry, 227; PRO, CO 537/1879, 31, 35.
50 PRO, CO 968/3/15, 5.
51 *Ibid.*, 28.
52 *Ibid.*, 8.
53 *Ibid.*, 89, 99.
54 *Ibid.*, 89.
55 *Ibid.*, 5, 50.
56 Pickersgill, 238.
57 Hall, Wagley and Scott, 455.
58 Summerfield, 'Education and Politics &c.', *International Review of Social History*, 26, 144.
59 PRO, WO 32/15772, 74A.
60 *Hansard*, 5th Series, 395, 1903.
61 PRO, WO 208/761A (Fortnightly Security Review, 12 October 1945).
62 *Ibid.*
63 Hanley, 'Resettling the East African', *Army Quarterly*, 52, i, 125–8.
64 Hanley, 'Bantu in Burma', *Spectator*, 19 January 1945.

12: The Defence of Archaic Privilege: The Empire Restored, 1942–5

1 *Hansard*, 5th Series, 430, 337.
2 Thorne, 209, 592–3.
3 *Ibid.*, 593.
4 PRO, CO 968/10/3, 1, 5, 12.
5 Acheson, 133–4; Thorne, 593–4.
6 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 126.
7 R. Smith, 'Britain's African Colonies &c.', *JICH*, 14, 74, 76.
8 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 13.
9 Orwell, 58–9.
10 Thorne, 97.
11 Macmillan, 325.
12 Cunard, 'On Colour Bar', *Life and Letters*, 32, 172.
13 *Hansard*, 5th Series, 430, 430, 364.
14 Thorne, 238.
15 *Ibid.*, 149.
16 *Times*, 10 January 1945.
17 *The Old War and New Society*, 21.
18 W.R. Louis, *Imperialism at Bay*, 14.
19 *The British Way and Purpose*, 461.
20 Summerfield, 'Education and Politics &c.', *International Review of Social History*, 26, 137.
21 *The British Way and Purpose*, 495.
22 Moran, 124.
23 Ziegler, *Mountbatten*, 169–70, 221.
24 Thorne, 450.
25 *Ibid.*, 337.
26 Ziegler, *Mountbatten*, 303–4.
27 *World Affairs*, June 1946, 22–4.
28 PRO, WO 203/4460, 8 January 1946.

Part Five: The Setting Sun, 1945–98

1: The Colonialists are on the Rampage: The Empire in the Post-war World

1 Macmillan, 721; Cameron Watt, 'Britain, the United States &c.', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments &c.*, 50–53; Leffler, 47.
2 Leffler, 61, 92, 183, 236.
3 James, *Imperial Rearguard*, 135.
4 Orwell, 397.
5 Nkrumah, 57–8.
6 *Hansard*, 5th Series, 395, 1907.
7 PRO, CO 1015/463, Report, November 1951.
8 Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. Ovendale, *op. cit.*, 98.
9 Shuckburgh, 32.
10 PRO, CO 537/1288, 18.
11 Hennessey, 262–3.

12 *Ibid.*, 267–9.
13 E.g. Carton de Wiart, 173; Wavell, 130–31; Cadogan, 776.
14 Acheson, 270–71.
15 Leffler, 238.
16 Hennessey, 271–2.
17 Jayal, 'Towards the Baghdad Pact &c.', *Int.HR*, 9, 416.
18 PRO, CO 537/5324, 2, 25.
19 P. Edwards, 'The Australian Commitment &c.', *HS*, 22, 610.
20 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 340–41; PRO, Air 8/1459, 2–3, 7–8, 28–30.
21 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 338.
22 PRO, WO 216/724.
23 Devereaux, 'Britain and the Commonwealth &c.', *JICH*, 24, 341.
24 PRO, WO 216/799; Adm 1/27285.
25 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int. HR*, 11, 493.
26 *Listener*, 26 January 1950.
27 PRO, CO 537/5120.
28 PRO, CO 537/3333, 12.
29 PRO, CO 537/5120.
30 PRO, CO 822/461, 31, 68.
31 PRO, CO 537/5120.
32 Furedi, 'Creating a Breathing Space &c.', *JICH*, 21, 93, 98–9.
33 PRO, CO 822/461, 29.
34 Castle, 259.
35 PRO, CO 537/7618, 1, 2, 5.
36 PRO, CO 822/461, 29, 94.
37 *Ibid.*, 90; CO 1015/463, Report, February 1953.
38 PRO, CO 537/7542, 1, 7.
39 *Ibid.*, 4.
40 *Listener*, 6 July 1950.
41 Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments &c.*, 110–13.
42 PRO, CO 1037/80.
43 Furedi, 'Creating a Breathing Space &c.', *JICH*, 21, 98.
44 Furse, 306.
45 *Country Life*, 12 August 1949.
46 J.P. Barker, 'The Karamojo District &c.', *JAH*, 3, 123–4.
47 NAM, Stockwell Papers, 1, 6–26.
48 IWM, Lydford Papers, Box 6.
49 *Ibid.*, Box 7.
50 PRO, CO 587/7417, 45–6; CO 537/2449, 50; CO 537/2450, 24, 32, 42.
51 *Time*, 7 December 1949.

2: Friendly Relations: India and the Liquidation of Empire, 1945–7

1 PRO, CO 1027/317, 27.
2 Nicolson, 24.
3 Thorne, 611.
4 *Ibid.*, 684–5; Ziegler, *Mountbatten*, 323.
5 Moore, 223.

6 Wavell, 437, 439.
7 *Constitutional Relations*, 6, 273.
8 Gandhi, 72, 378.
9 *Ibid.*, 438–9.
10 PRO, WO 32/15772, 74A.
11 *Ibid.*, 104A.
12 *Hansard*, 5th Series, 430, 1581–2.
13 PRO, WO 208/761A.
14 I owe these details to John Hailwood.
15 PRO, 208/761A (Intelligence Summary 25 March 1946).
16 *Ibid.*, (Situation Report 8 March 1946).
17 *Ibid.*, (Intelligence Summary December 1945).
18 *Ibid.*, telegram GHQ to cabinet, 3 April 1946.
19 *Ibid.*, (Intelligence Summary December 1945).
20 *Ibid.*, (Intelligence Report 25 March 1946).
21 *Constitutional Relations*, 6, 1233.
22 *Ibid.*, 7, 926.
23 *Ibid.*, 8, 75.
24 *Times*, 11 July 1947.
25 Hamid, 172.
26 *Ibid.*, 179.
27 Henniker, 'Early Days of Pakistan', *RUSI*, 93, 117.
28 Hamid, 158–9.
29 Ziegler, *Mountbatten*, 418–19, 422.
30 *Times*, 25 August 1947.
31 Henniker, 'Early Days of Pakistan', *RUSI*, 93, 118.
32 Ziegler, *Mountbatten*, 432–3; Hamid, 297.
33 *Ibid.*, 435.
34 *Ibid.*, 297.
35 W. Platt, 'East African Forces &c.', *RUSI*, 93, 410.
36 *Observer*, 8 July 1956.
37 *Ibid.*, 24 June 1956.
38 *Daily Telegraph*, 11 November 1961.
39 *Daily Telegraph*, 10 July 1956.
40 *New Statesman*, 30 June 1956.

3: The World as It Is: Middle Eastern Misadventures, 1945–56

1 Clark and Wheeler, 116, 120; Leffler, 77, 113, 225.
2 Leffler, 238, 286.
3 Leffler, 238.
4 Clark and Wheeler, 124.
5 Hennessey, 262.
6 Clark and Wheeler, 153.
7 Navias, *Nuclear Weapons &c.*, 41–3.
8 PRO, Adm 1/26927.
9 *Constitutional Relations*, 9, 432.
10 W.R. Louis, *The British Empire and the Middle East*, 13.
11 *Time*, 7, and 21 January 1952.
12 McGhee, 342.

13 *Economist*, 30 June 1951.
14 *Ibid.*, 23 June 1951.
15 PRO, Adm 1/27285.
16 *Hansard*, 5th Series, 491, 978.
17 *Ibid.*, 1020.
18 *Ibid.*, 1178.
19 Brands, 'The Cairo-Teheran Connection &c.', *IHR*, 11, 440–1.
20 *Spectator*, 5 October 1951.
21 Shuckburgh, 27.
22 McGhee, 339.
23 Nixon, 134.
24 Leffler, 124–5, 239, 288–9.
25 McGhee, 270.
26 Lawson, 'The Iranian Crisis &c.', *IJMES*, 21, 309–10.
27 Khomeini, 214.
28 Shuckburgh, 105.
29 W.R. Louis, *The British Empire and the Middle East*, 586.
30 McGhee, 371.
31 Leffler, 477.
32 Shuckburgh, 29.
33 PRO, WO 216/799.
34 Mason, 'The Decisive Volley &c.', *JICH*, 19, 50.
35 Heikal, 29–30.
36 Leffler, 484–5; Brands, 'The Cairo-Teheran Connection &c.', *IJMES*, 21, 446.

4: Kick Their Backsides: The Suez War and Beyond

1 Navias, *Nuclear Weapons and British Strategic Planning*, 42–3, 46.
2 Shuckburgh, 318–19, 329.
3 Horne, *Macmillan 1894–1956*, 395.
4 Shuckburgh, 327, 341.
5 *Ibid.*, 344.
6 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 490–91.
7 *Ibid.*, 491; *Times*, 1 January 1987.
8 Heikal, 187, 191.
9 Cohen, 'A Still Stranger Aspect &c.', *Int.HR*, 10, *passim*.
10 See page 271.
11 Wright, *Spycatcher*, 84–5.
12 Heikal, 154n., 215n.
13 *Ibid.*, 153 note 3.
14 Pearson, 19–20.
15 Shuckburgh, 163.
16 Shaffy, 'Unconcerned at Dawn &c.', *Intelligence and National Security*, 5, 10–11, 49.
17 *Ibid.*, 30.
18 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 493.
19 *Daily Telegraph*, 6 November 1956.
20 *New Statesman*, 15 December 1956.
21 *Hansard*, 5th Series, 559, 1631.
22 Horne, *Macmillan, 1894–1956*, 393.

23 *Hansard*, 5th Series, 559, 1618.
24 *Ibid.*, 1626; *New Statesman*, 17 November 1956.
25 Dooley, 'Great Britain's Last Battle &c.', *Int.HR*, 11, 504–6.
26 PRO, Adm 1/26826.
27 Cohen, 'A Still Stranger Aspect &c.', *Int.HR*, 10, 261.
28 S. Lloyd, *Suez*, 170–94.
29 Shaffy, 'Unconcerned at Dawn &c.', *Intelligence and National Security*, 5, 41, 56.
30 *Time*, 17 November, 1956.
31 *Spectator*, 9 November 1956.
32 *Observer*, 4 and 11 November 1956.
33 PRO, CO 1015/202, 1.

5: The Old Red, White, and Blue: Reactions to a Dying Empire

1 *Sunday Times Magazine*, 24 February 1963.
2 Nixon, 134.
3 PRO, CO 1027/317, 40, 43.
4 *Daily Telegraph*, 24 August 1956.
5 *Hansard*, 5th Series, 478, 2766.
6 *Daily Telegraph*, 17 July 1956.
7 Oliver, 'The Two Miss Perhams &c.', *JICH*, 19, 26.
8 Navias, 'Terminating National Conscription &c.', *JCont.H*, 24, 202.
9 *Times*, 2 April 1964.
10 I am indebted to Professor Fred Crawford for these details of the Lawrence-Aldington affair.
11 PRO, CO 1027/177, 1–3, 14–16.
12 *Listener*, 30 October 1969.
13 *Daily Telegraph*, 23 November 1967.
14 H. Thomas, *The Establishment*, 10–11, 19.
15 *Ibid.*, 187.
16 *Daily Telegraph*, 5 July 1956.
17 Richards and Aldgate, 158.

6: Uhuru: Tying up Loose Ends, 1959–80

1 *New Statesman*, 10 May 1963.
2 *Hansard*, 5th Series (House of Lords), 229, 305, 431.
3 *New Statesman*, 10 May 1952.
4 Mboya, 64.
5 PRO, CO 822/474, 20.
6 PRO, CO 1015/463 (Report April 1953).
7 *Southern Rhodesia: Facts and Figures &c.*, 1, 13.
8 *Listener*, 31 July 1969.
9 *New Statesman*, 30 January 1956.
10 Darwin, 'The Central African Emergency &c.', *JICH*, 21, 223–4.
11 *Hansard*, 5th Series, 602, 1506.
12 *Ibid.*, 1509–10.
13 Horne, *Macmillan, 1957–1986*, 181.
14 *Hansard*, 5th Series, 610, 237.
15 *Ibid.*, 422–3.

16 *Ibid.*, 426.
17 Home, *Macmillan, 1957–1986*, 181–2.
18 McCracken, 'Coercion and Control &c.', *JAH*, 27,141.
19 Fisher, *Iain Macleod*, 160, 163.
20 Home, *Macmillan, 1957–1986*, 187–8.
21 *Ibid.*
22 *Sunday Times Magazine*, 3 June 1962.
23 Caute, 88.
24 *Hansard*, 5th Series, 229, (House of Lords), 401, 409–10.
25 Pimlott, 270.
26 *Listener*, 5 December 1968.
27 Pimlott, 451.
28 Caute, 90.
29 *Sun*, 15 November 1965.

7: *Unfinished Business, 1979–98*

1 *The Times*, 27 June 1997.
2 Clarke, 'Constraints &c', *Defense Analysis*, 14, 70.
3 Thatcher, 162, 164.
4 *Hansard*, 6th Series, 21, 638.
5 *Sunday Times*, 2 May 1982.
6 Private information.
7 Thatcher, 235.
8 *International Security*, 20 (4), 119.
9 Cable and Ferdinand, 'China &c', *Foreign Affairs*, 70, ii, 253.
10 I am indebted to Jonathan Fenby for this point.
11 I am indebted for this point and much else that follows to Lord Wilson of Tillyorn.
12 *The Times*, 8 June 1989.
13 *Hansard*, 6th Series, 154, 364–5.
14 *Ibid.*, 164, 368, 374.
15 *New Statesman*, 16 June 1989.
16 *The Economist*, 16 December 1989.
17 Dimbleby, 2; private information.
18 *Ibid.*, 14.
19 *The Times*, 7 June 1997.
20 I am indebted to Jonathan Fenby for this point.
21 *The Times*, 25 May 1998.
22 *Sunday Times*, 1 September 1996.

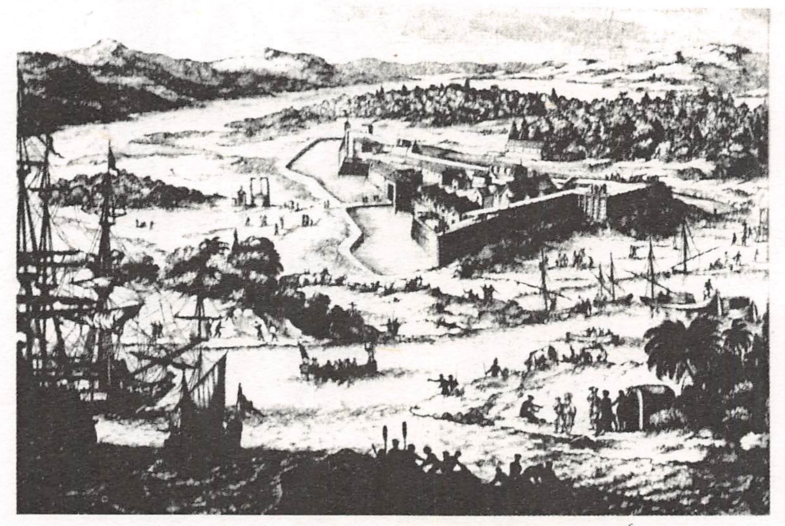
ملحق الصور



١- فيرجينيا جولد: هندى يستمتع بالغليون المملوء بالتبغ وهى سلعة سوف تغـزو بسرعة مستعمرة فيرجينيا وبريطانيا، ١٦٢٣، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



٢- منشأة ثروة الهند الغربية: صاحب مزرعة يناقش إنتاجيتها مع المشرف، بينمـا يجنى عبيده محصول قصب السكر، ١٨٣٠، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



٣- موطئ قدم فى أمريكا، قلعة فى تشارلستون، جنوب كارولينا تحجز الهنود فى أحد الخلجان، بينما تحمل سفن التجار شحنات من القطن المحلي، مارى إيفانز، صورة مكتبية.



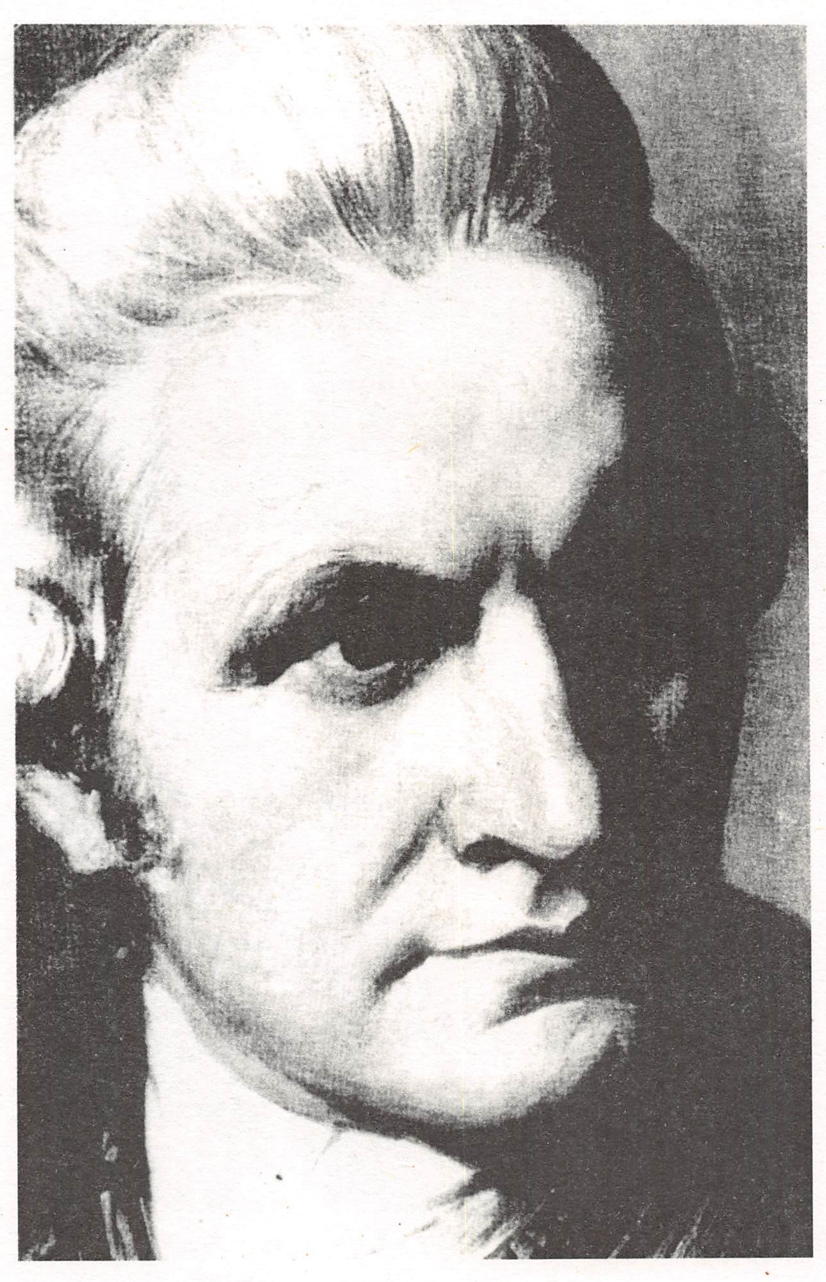
٤- أدميرال الملكة ان يستعد لمحاربة الفرنسيين مرة ثانية باعتباره أحد رجال الحرب، بيتر نيوارك، صورة تاريخية.



٥- ضياع إمبراطورية: الجنرال بروجون يستسلم بجيشه، وفرص البريطانيين لسحق المستعمرين الأمريكيين، ساراتوجا، ١٧٧٧، هولتن دويتش.



٦- انتصار إمبراطورية: روبرت كلايف يقبل استسلام ميرجافير بعد معركة بلاسى، البنغال، ١٧٥٧، صورة توفان.



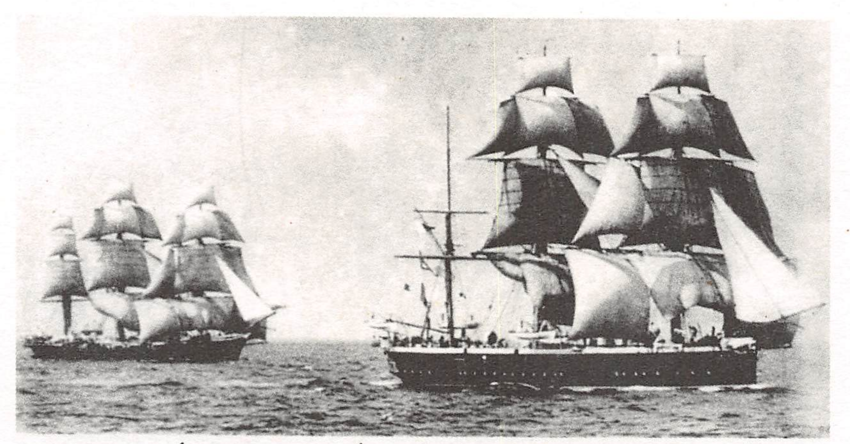
٧- الباحث عن إمبراطورية، جيمس كوك، هولتن دويتش.



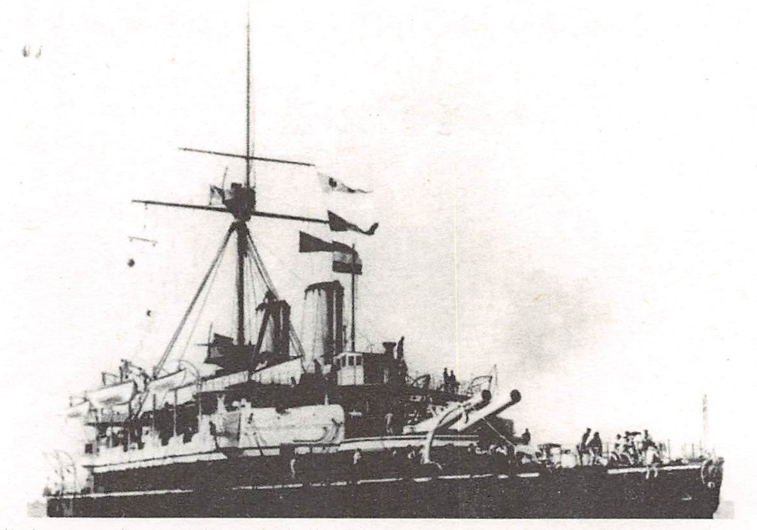
٨- فى عين القرصنة ر. ن، سفن التجديف البخارية، وهبوط مجموعـات للهجـوم على قرية القراصنة، نورث بونيو، ١٨٤٥، مجموعة المؤلف الخاصة.



٩- حياة مهاجر، أحد حفارى الذهب وعائلته تستعد للبحث عن حياة جديدة وربمـا الثروة، حقول ذهب ملبورن، ١٨٥٣، مجموعة المؤلف الخاصة.



١٠- قيادة أعالى البحار، سيادة كالبسو وسفينة أخـرى ترفـع أشـرعتها، ١٨٨٠، المقابض الحديدية تعتمد على الشراع والبخار المنتشر حول العالم، وتـشرف على المصالح البريطانية، وكانت المدينة دليلاً على أن بريطانيا تتحكم وتسيِّر البحار، متحف الحرب الإمبريالى.



١١- سفينة سيادة كامبردون، ١٩٠٠، عرض لمثل هذه القوة، والمعركـة الحربيـة تسيطر على ادعاءات بريطانيا كقوة عالمية، ولكن تبنى بـشكل كـاف لمنـع المنافسين، إلا أنه صار عبئاً، متحف الحرب الإمبريالى.



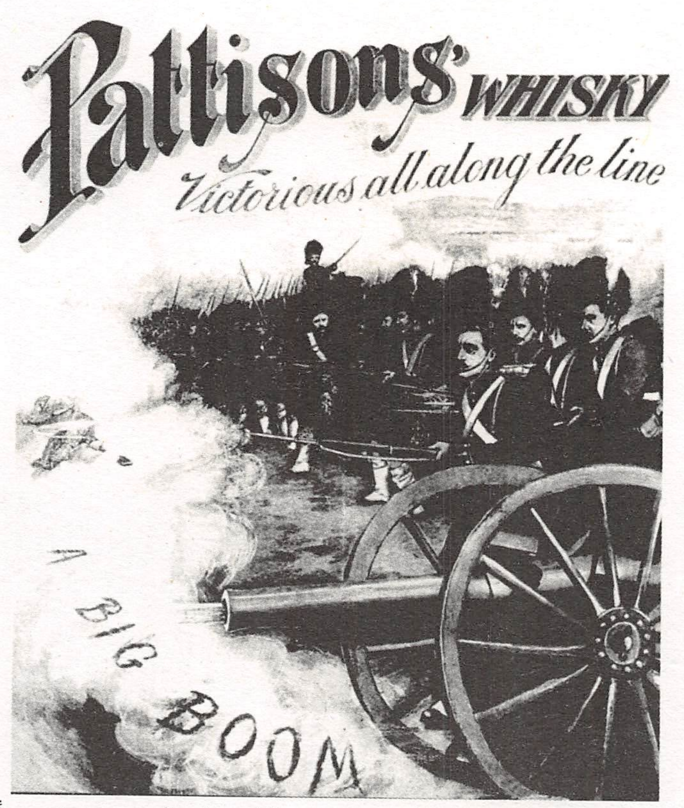
١٢- أبطال الإمبراطورية، تشارلز موردون الشهيد المحارب فى الخرطوم في زى رسمى لجنرال مصرى، هولتون ديوتش.



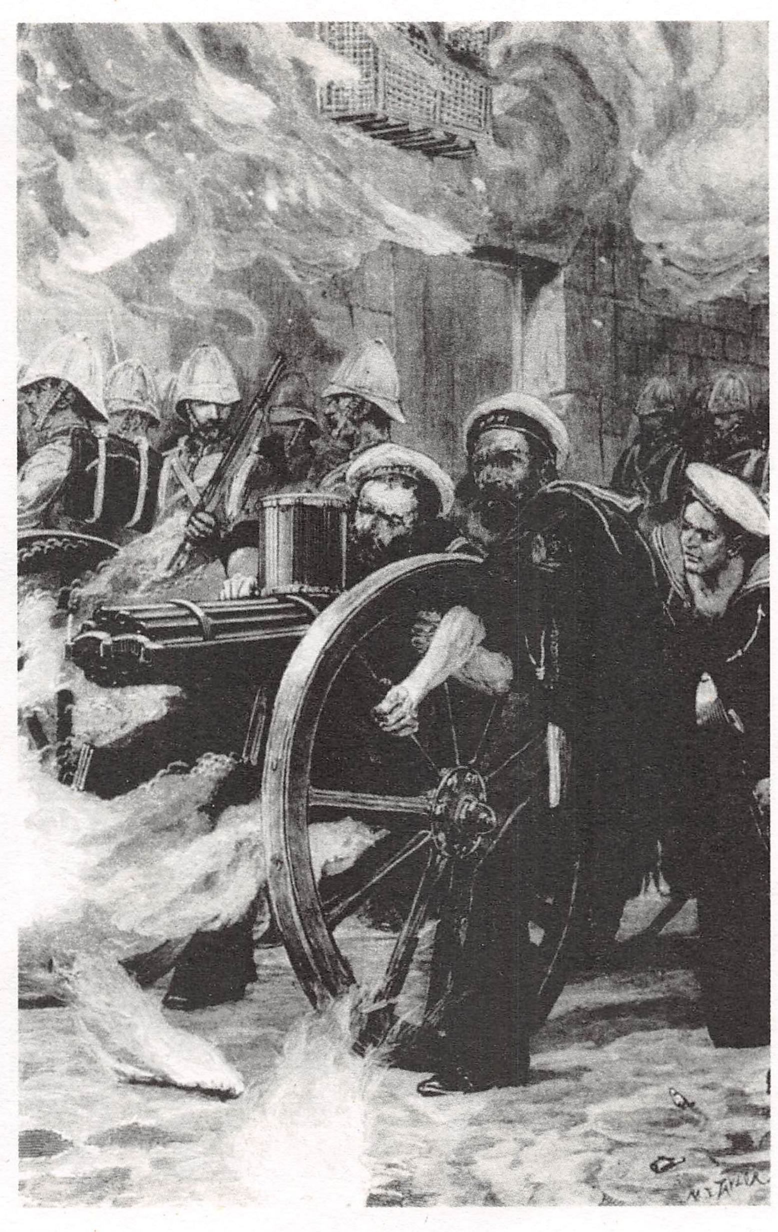
١٣- الباقون على قيد الحياة من ردفت بروك، يقفون بعد معركتهم الملحمية ضد قبائل الزولو، ١٨٧٩، مكتب وزارة الخارجية والكومنولث.



١٤- صور الغزو، انتكاسة حرب أفغانستان، ١٨٧٩، ميدالية توضح مدفعًا يحمله الفيلة ويحرسه الرماة مرتدين القبعات، حرب البوير ١٨٩٩، وميدالية أخرى توضح بريطانيا وهى تمسك بأكاليل لرجال الإمبراطورية المحاربين. مجموعة المؤلف الخاصة.



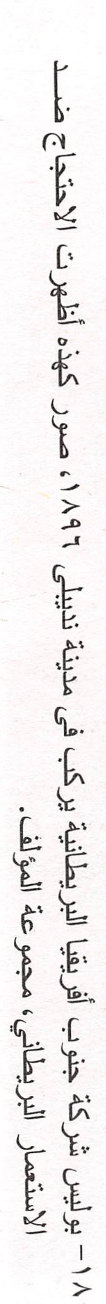
١٥- روح الإمبراطورية: صب الويسكى بعد الانتصار الحديث فى أم درمان عام ١٨٩٨، مجموعة المؤلف الخاصة.



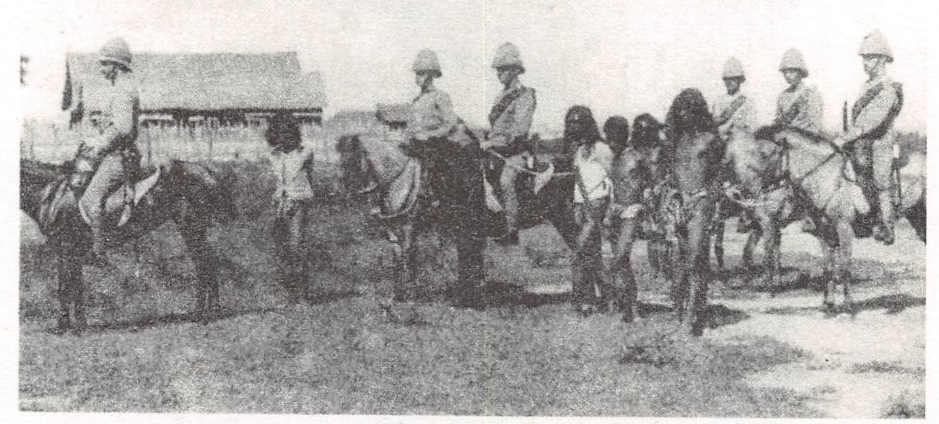
١٦- جاك تارت يحرك جهاز بندقية على الثوار المصريين فى شوارع الإسكندرية ١٨٨٢، مجموعة المؤلف الخاصة.



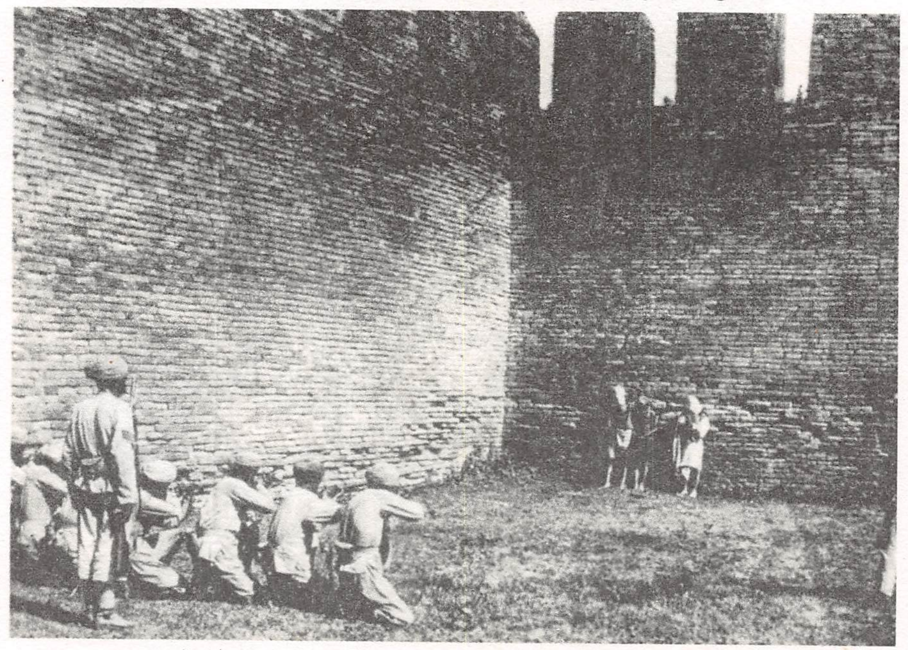
١٧- بعثة التمدين، نظرة سخرية فى المستقبل مع كوماس غانا تحولت إلى حى بريطانى معاصر بعد غزو لها عام ١٨٩٥، مجموعة المؤلف.



١٨- بوليس شركة جنوب أفريقيا البريطانية يركب فى مدينة نديبلى ١٨٩٦، صور كهذه أظهرت الاحتجاج ضد الإستعمار البريطاني، مجموعة المؤلف.



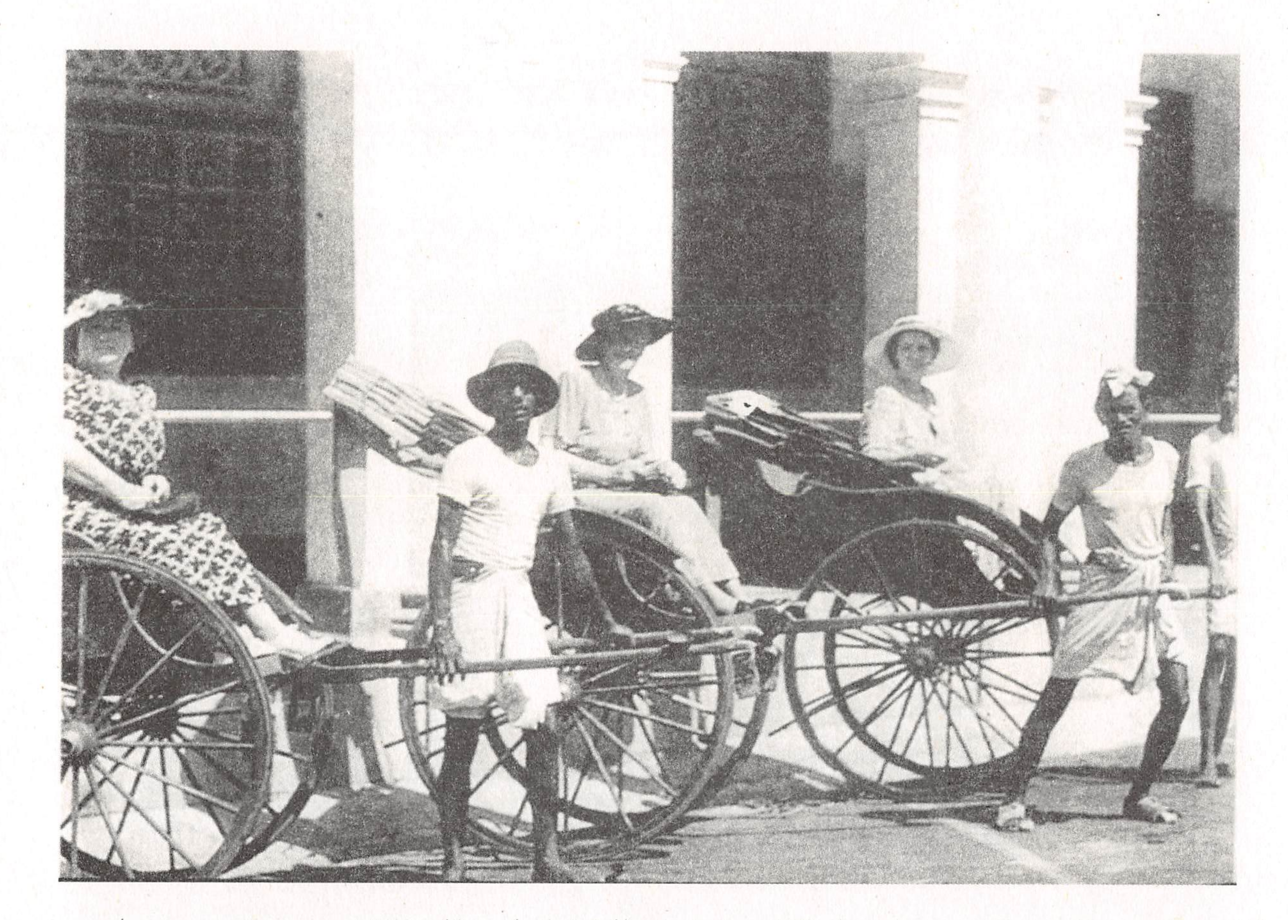
١٩- الداكوت يلفون برجال المشاة - بورما ١٨٨٥، المكتبة البريطانية.



٢٠- الجلاء من بورما ١٨٨٥، المكتبة البريطانية.



٢١- خدم الراجا، اثنان من الأسياد الهنود يستعدون لممارسة تدريب على ظهر الحصان، بينما تناول ثالث الشاى، ويحيط به خدم مستعدون لتلبية احتياجاتهم ١٩٨٨٠، صور مكتبة بارنياى.



٢٣- ممساهبس يقوم بزيارة - عربة تحمل ثلاث نساء فى جولة اجتماعية، سيلان ١٩٢٥، مصدر تصوير توبهام.



٢٣- الملك الإمبراطور جورج الخامس يستريح بعد تتويجه فـــى دربـــان بطريقـــة المغول السابقين عام ١٩١٢، صور تاريخية من بيتر نيوارك.



٢٤- أنجلوس أكســون، متطوعون للبحث عن البوير، جنوب أفريقيا ١٩٠٠، متحف الحرب الإمبريالى.



٢٥- عربة مدرعة رولزرايس تسير فى طريــق، مـصرى كعـضو مـن طبقـة الأفندية ١٩٣٦.



٢٦- إنجلترا فى الهند، صيد الميسور مع الهنود فى ١٩٦٣.



٢٧- السود والتانز والبوليس المساعد يمرون فى شارع إيرلنــدى، بينمــا النســاء تنظر بعصبية من النوافذ.



٢٨- عرب ينتظرون التفتيش من الجنود البريطانيين عام ١٩٣٨ فى القدس.



٢٩- النواب والنائبات الهنود فى زى رسمى عام ١٩٢٣.



٣٠- المهاتما غاندى فى زى المُزارع الرسمى، يحضر مؤتمر المائـدة المستديرة فى لندن ١٩٣١، وكان مظهره قد أثار غضب تشرشل.



٣١- أفريقيا تكرم أمير ويلز، وإدوارد الثامن يجلس محاطا بأبهة الرئيس الأعلـــى، جنوب أفريقيا، ١٩٢٥، هولتون دويتس.



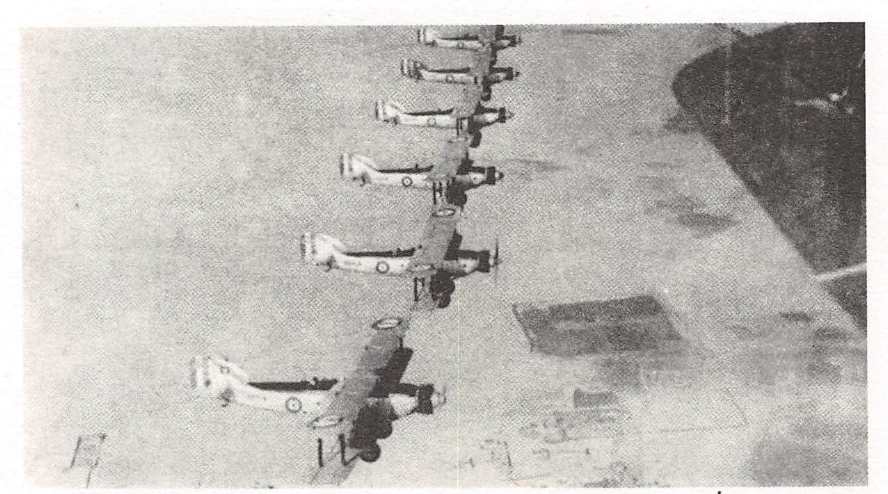
٣٢- صور إمبراطورية، طوابع بريد ملكية لثلاثينيات القرن العشرين، وأربعينياته تحتفل بالمناسبات الملكية وتعلن عن التاريخ الطبيعى للإمبراطورية، مجموعة المؤلف الخاصة.



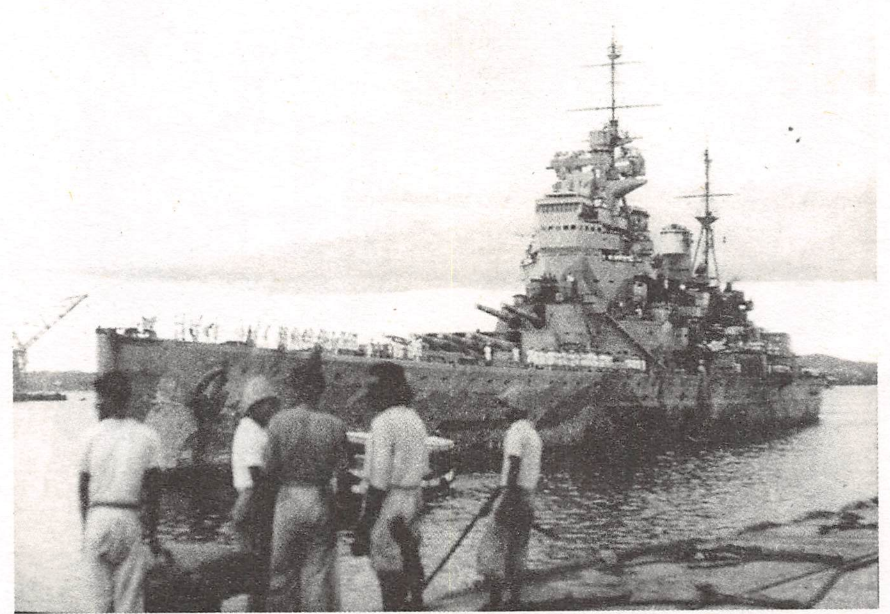
٣٣- آسيا للآسيويين، بورما تحيى رجال مشاة اليابان كمحررين ١٩٤٢، وتحول التهليل إلى دموع عندما اكتشف البورميون أن حكامهم الجدد أشد قسوة من البريطانيين.



٣٤- انهزم الغزاة: أسرى يابانيون من سجن شنغهاى يعرضون أنفسهم أمام الضابط البريطانى، سنغافورة ١٩٤٥.



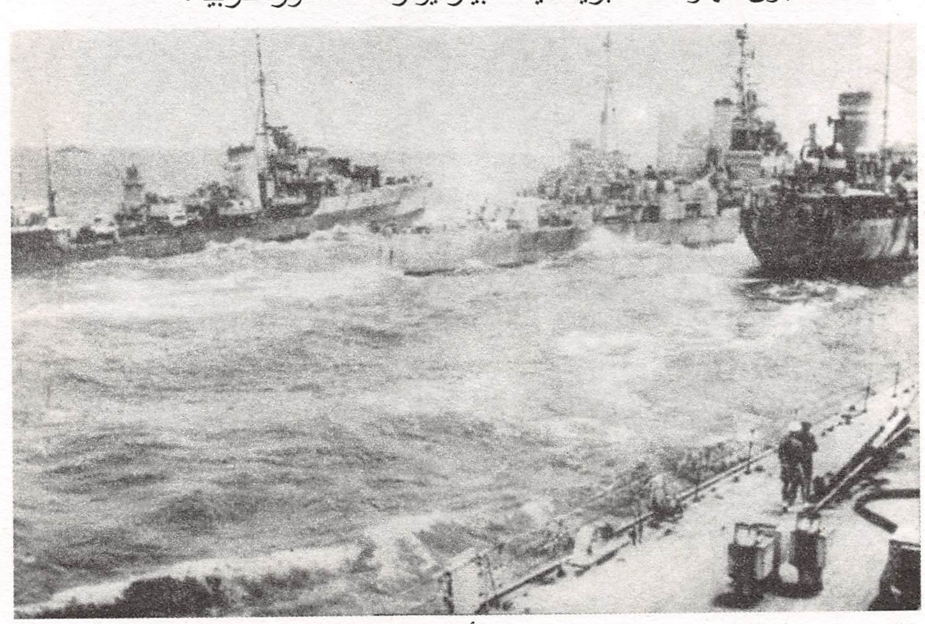
٣٥- ذراع الانتقام للإمبراطورية، قاذقات القنابل تطير فوق مصر فى عــام ١٩٣٦ وهو منتصر مرعب بين الآخرين، ناصر الصغير.



٣٦- الإمبراطورية تترنح: المــدمرة بــرنس أف ويلــز تــصل إلــى ســنغافورة عام ١٩٤١م.



٣٧- المحتجون الهنود ضد بريطانيا - بيترنيوارك - صور حربية.



٣٨- مؤسسة الكومنولث: الطراد الكندى أوغنده.



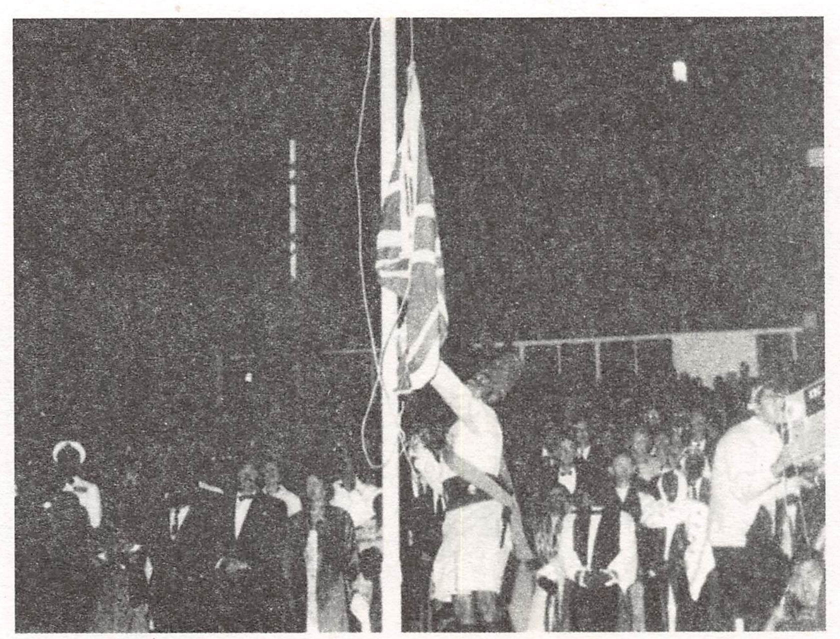
٣٩- المنافسون: الكولونيل ناصر والسير أنتونى إيدين فى عام ١٩٥٤، وكلاهمـا يعتقد أن وطنه سوف يسيطر على الشرق الأوسط.



٤٠- المستمعون يتجاوبون، مظاهرات حسب تقاليد راديكالية ضد الاستعمار، على مدى أكثر من مائة عام.



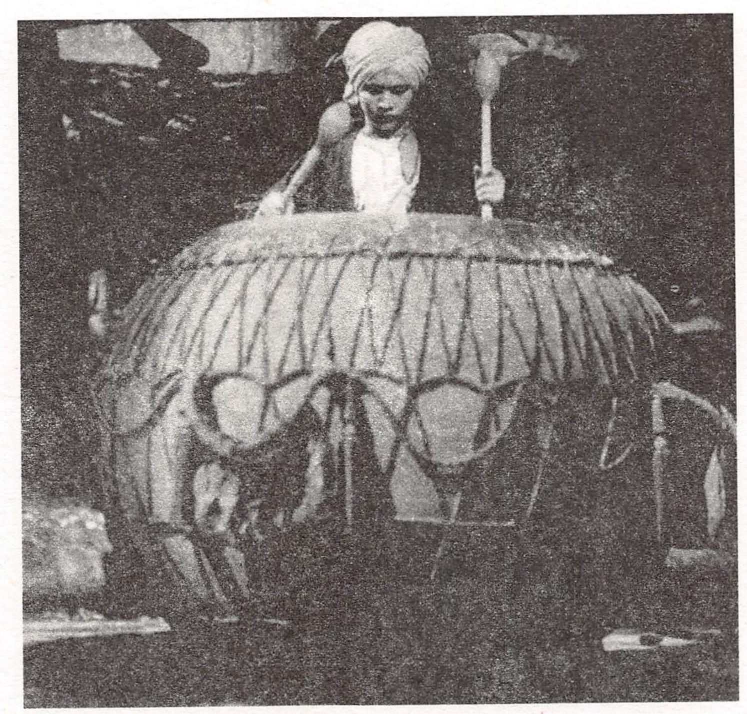
٤١- تونى بن ينتظر دوره للحديث فى ميدان الطرف الأغر، نوفمبر ١٩٥٦.



٤٢- العلم البريطانى ينزل من نيروبى- كينيا- الاستقلال ١٩٦٣.



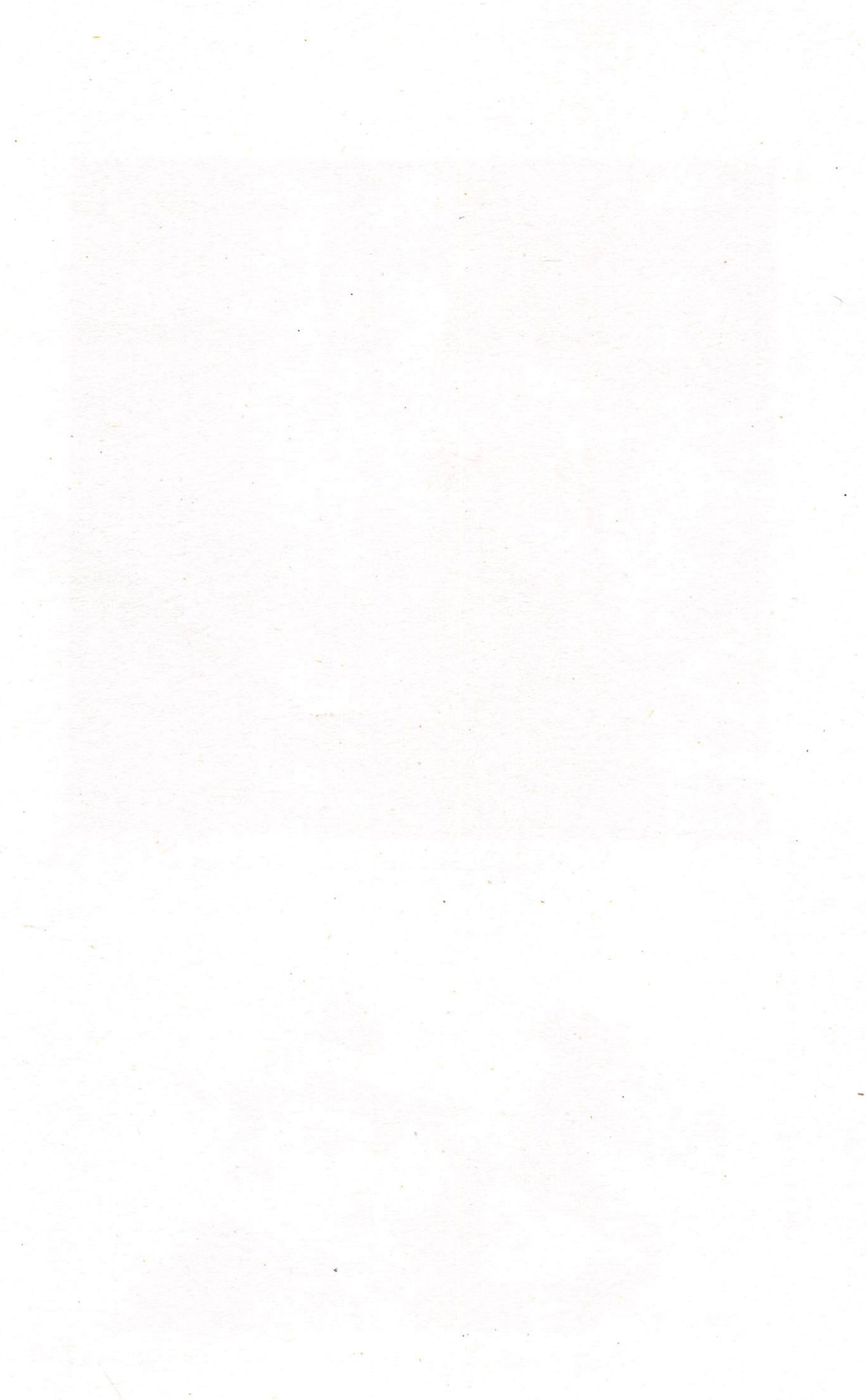
٤٣- الملكة والأمير فيليب يزوران فيجى.



٤٤- مشهد من فيلم The Drum، مجموعة خاصة بالمؤلف.

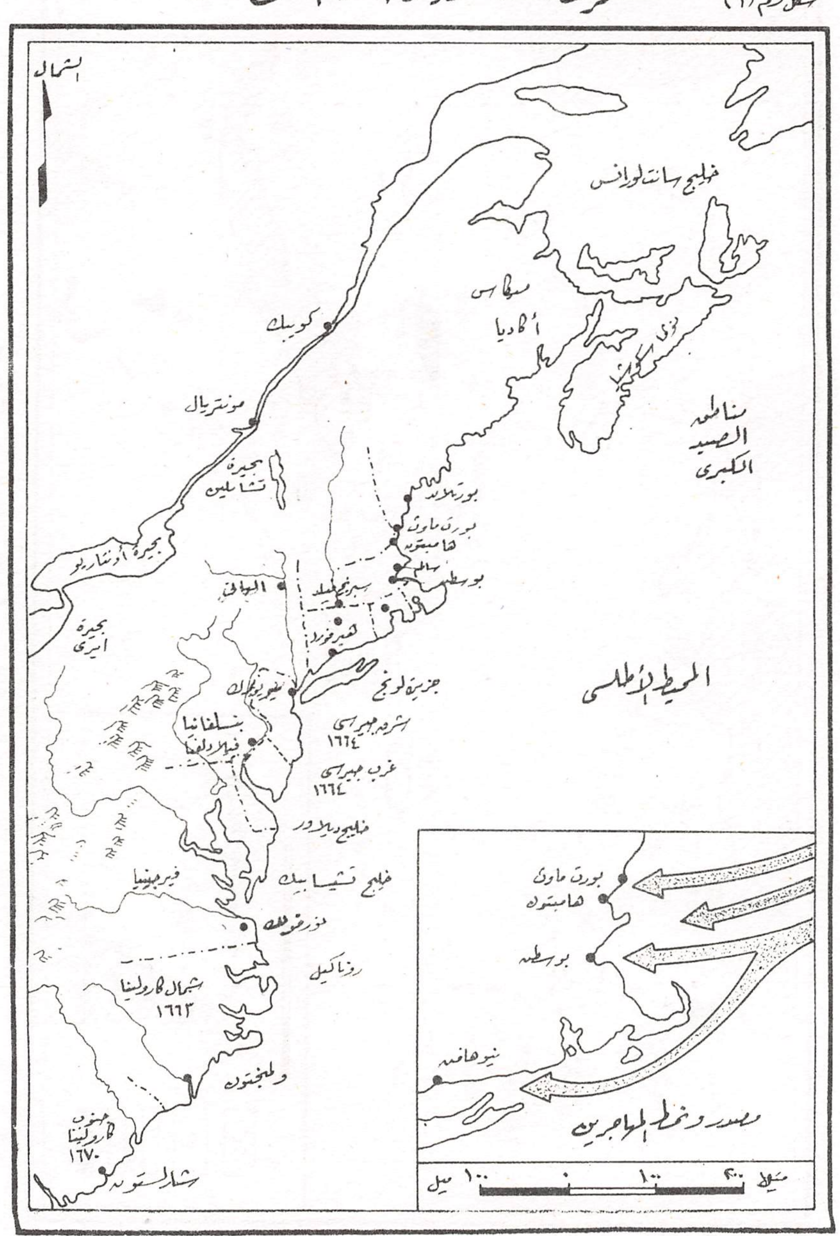


٤٥- مشهد من فيلم Novël Coward's - مجموعة خاصة بالمؤلف.

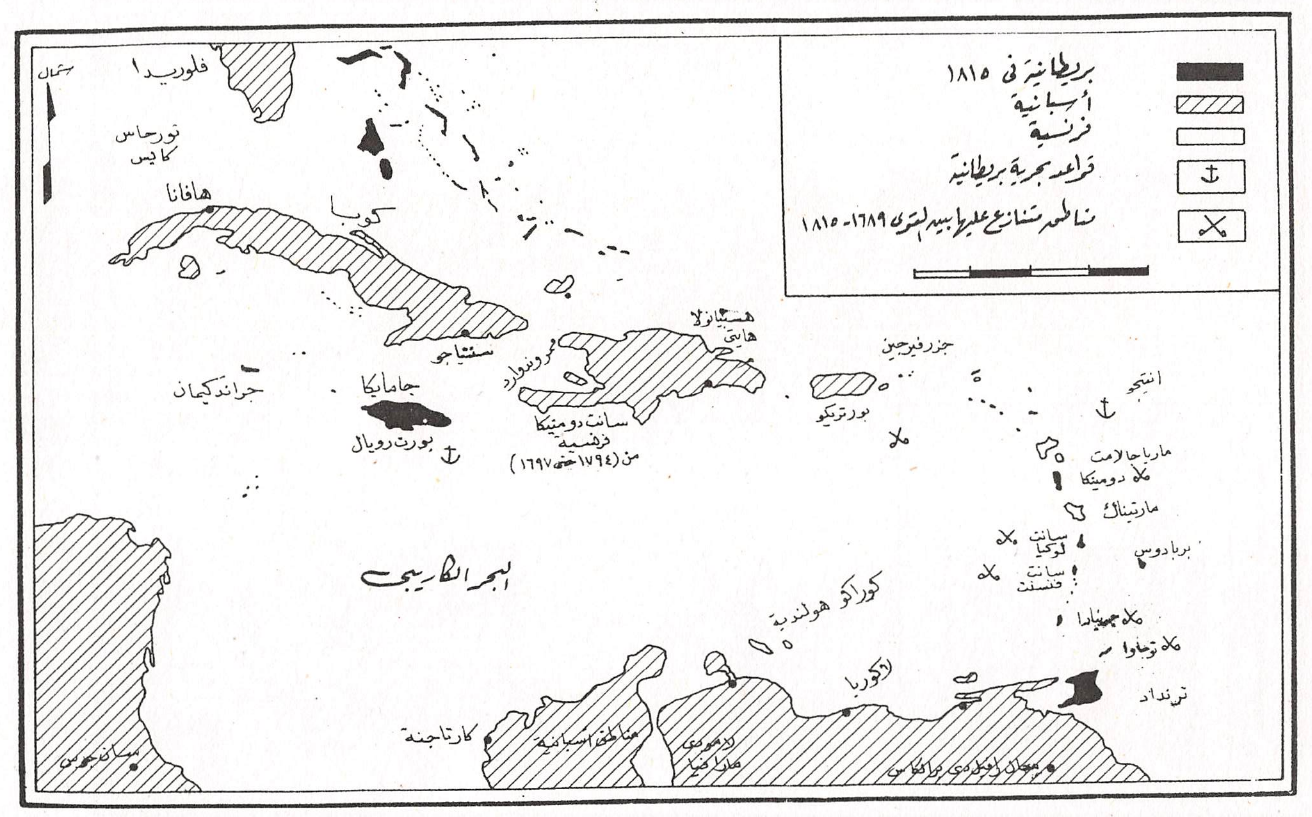


شكل رقم (١)

مستعمرات شمال أمريكا في القرن السابع عشر

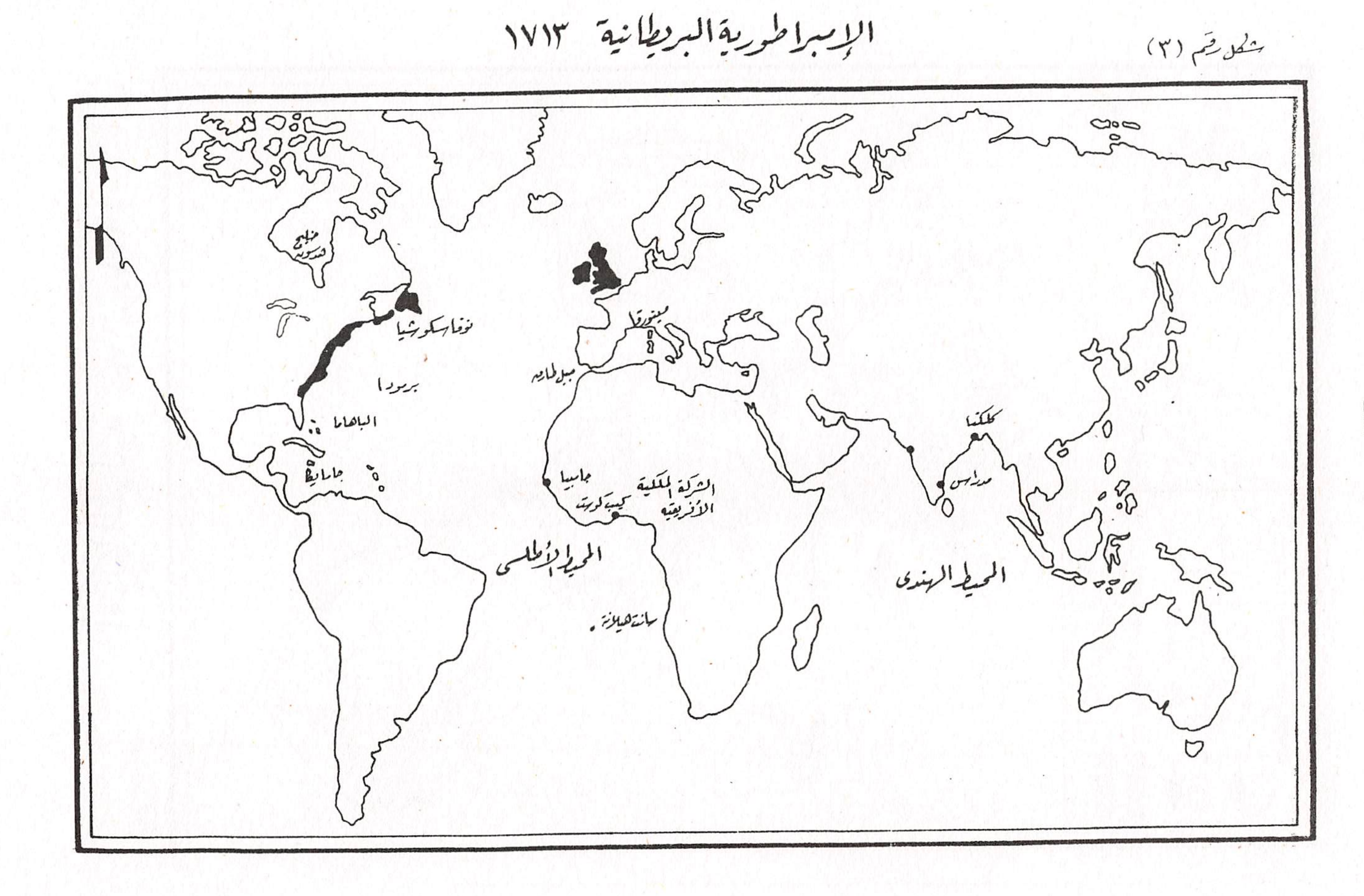


شكل رقم (٢) الكاريبي والهند الغربية في القرن الثامن عشر



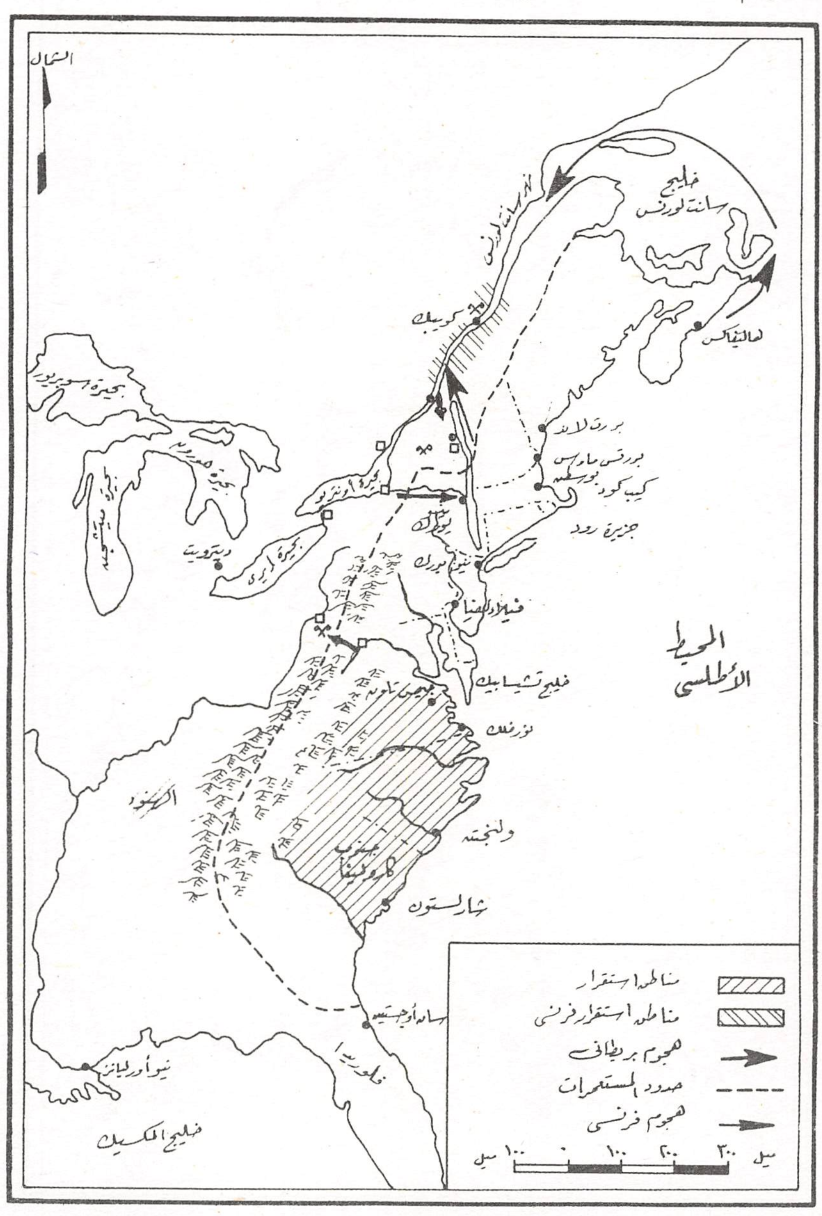
شكل رقم (٣)

الإمبراطورية البريطانية ١٧١٣

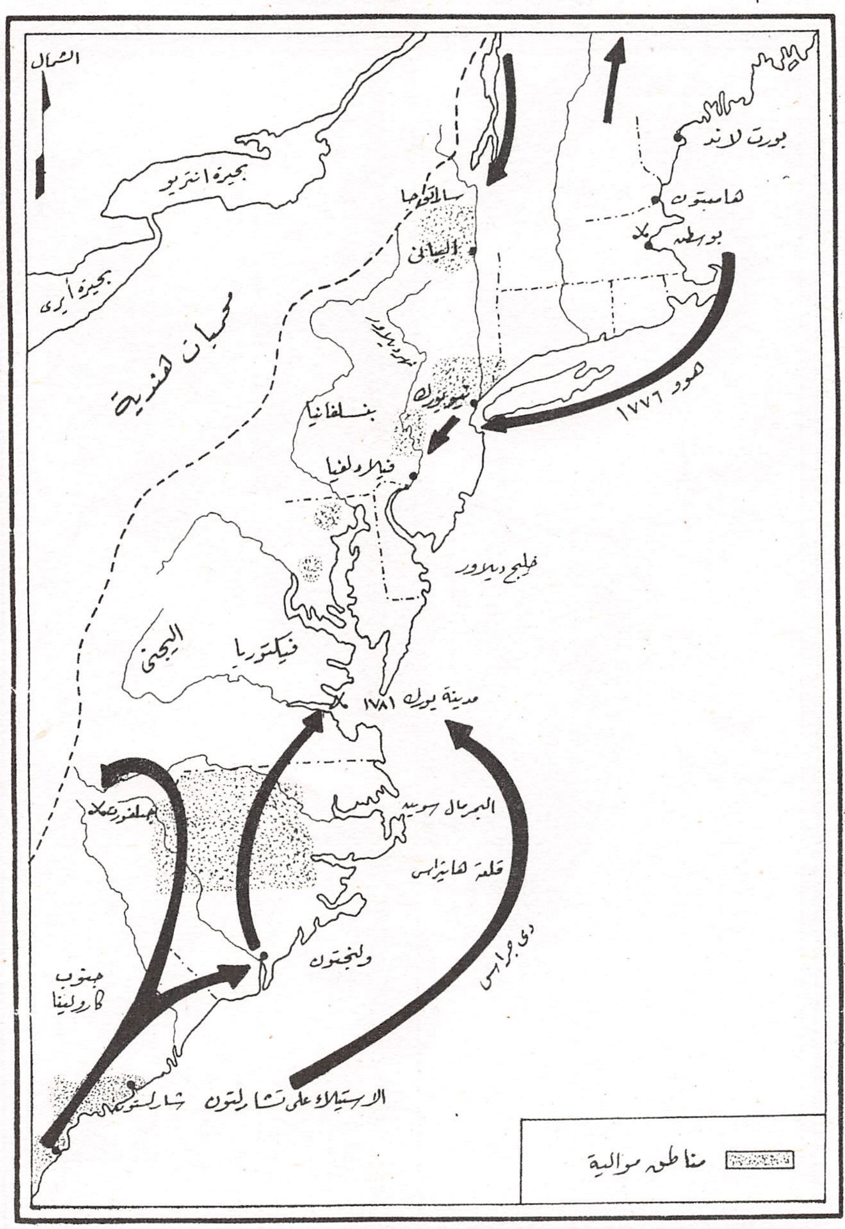


شكل رقم (٤)

أمريكا الشمالية ١٧٥٥ - ١٧٧٥

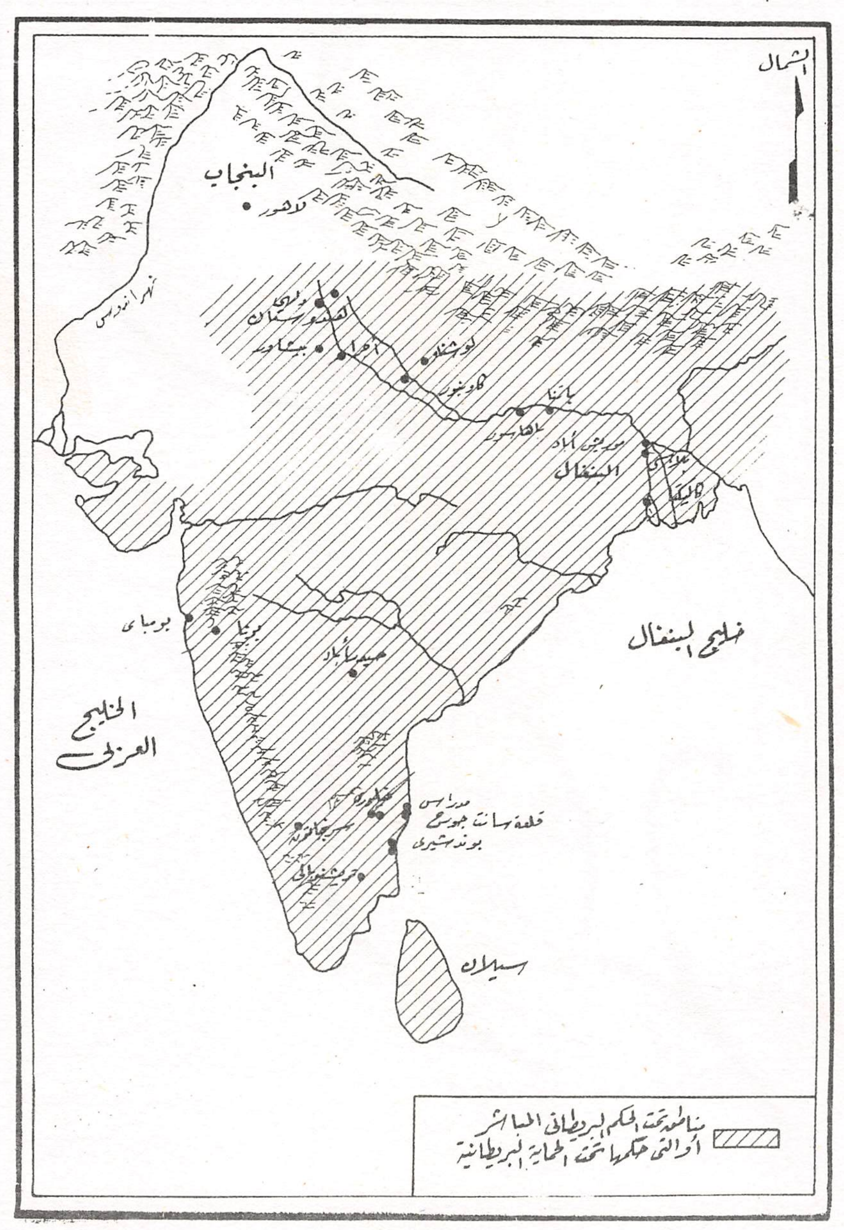


حرب الإستقلال الأمريكية ١٧٧٦ - ١٧٨٣

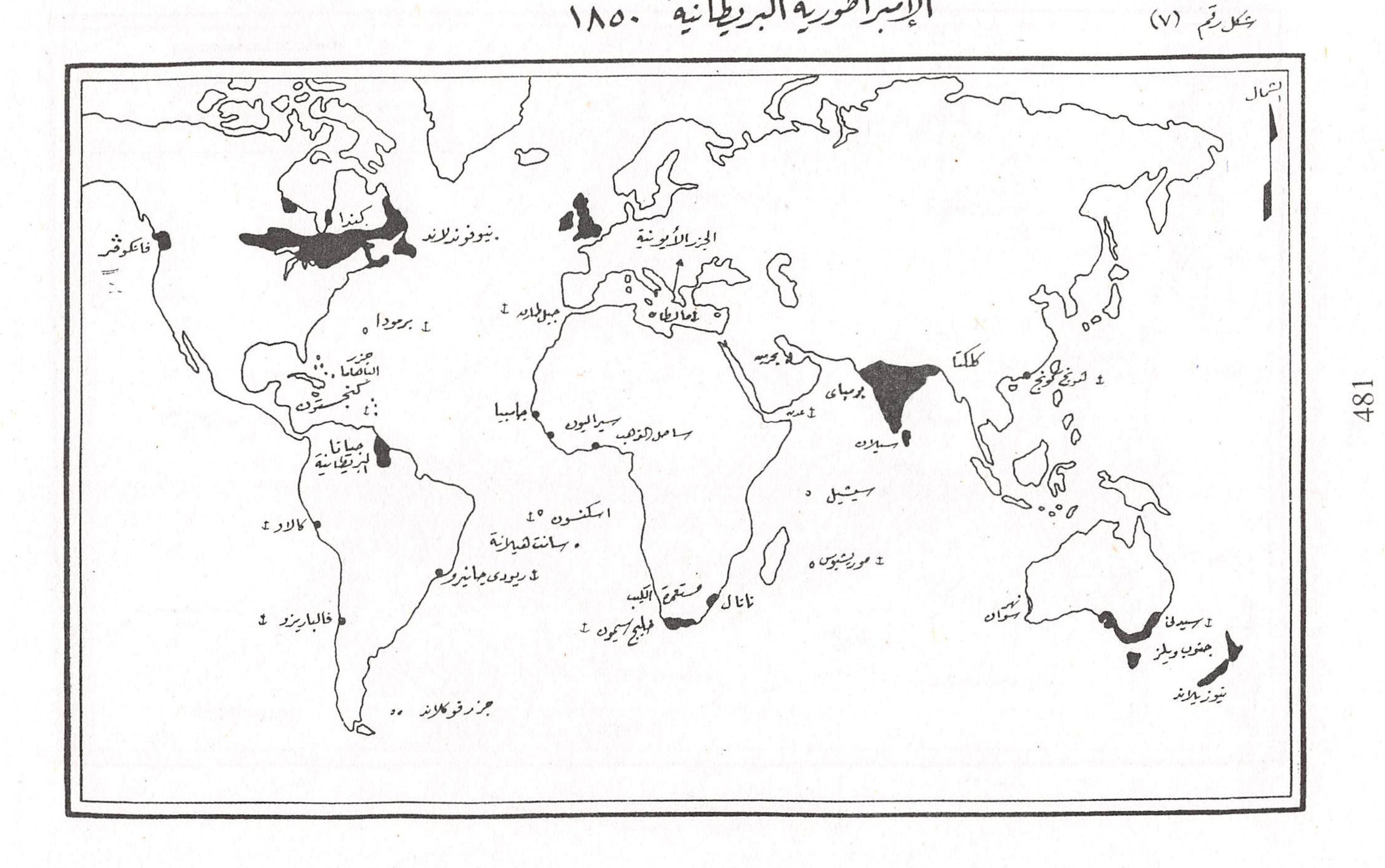


شكل رقم (٦)

الهند في القرن الثامن عشر

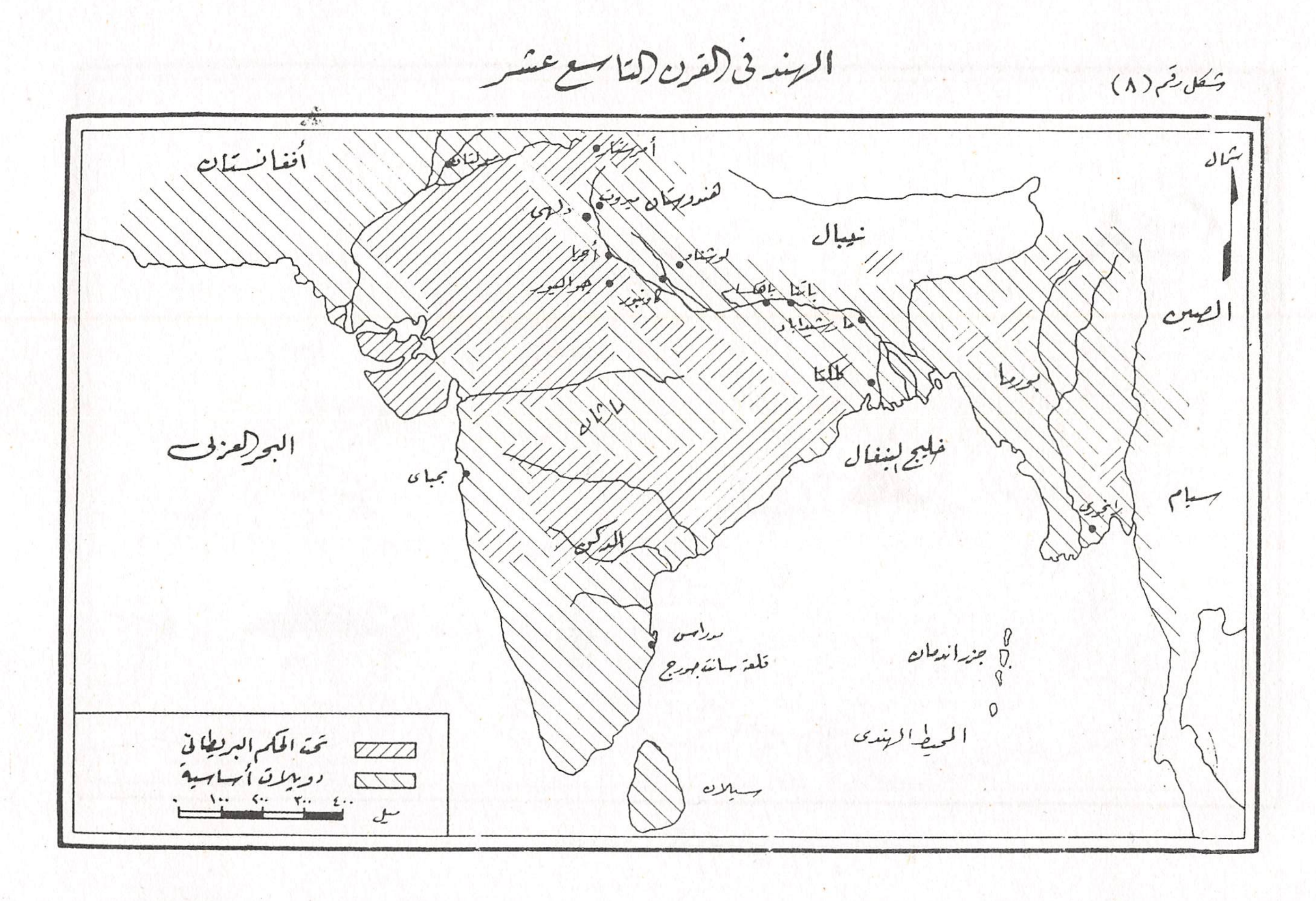


شكل رقم (٧) الإمبراطورية البريطانية ١٨٥٠



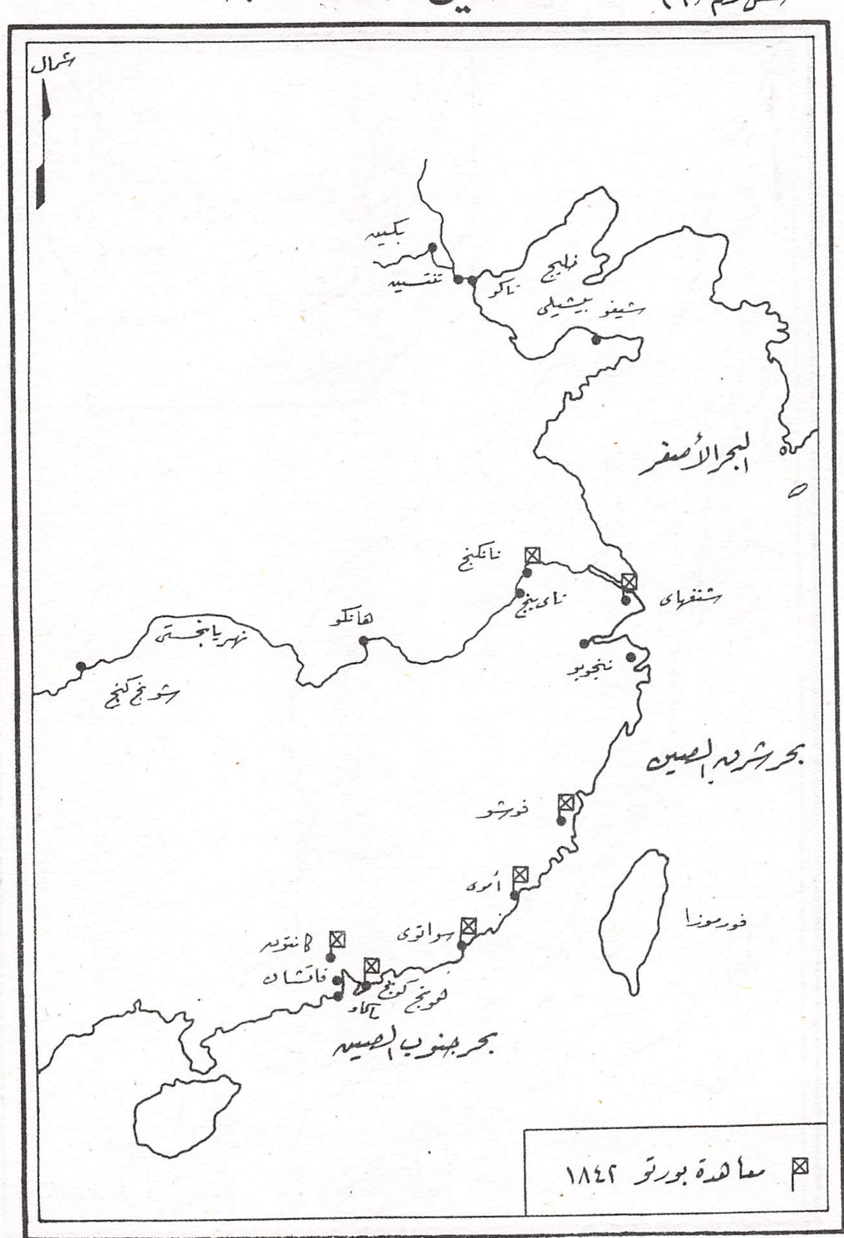
شكل رقم (٨)

الهند في القرن التاسع عشر



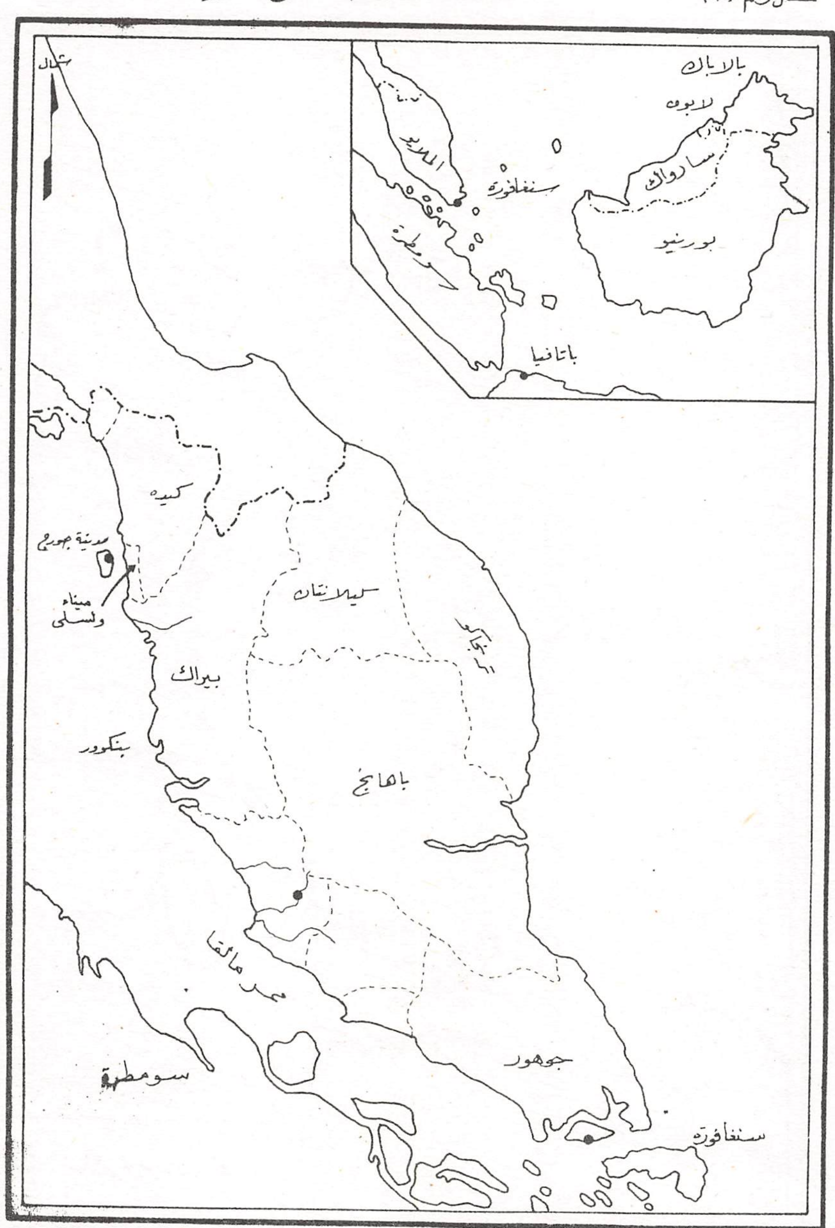
شكل رقم (٩)

الصين ١٨٣٩ - ١٩٠٠

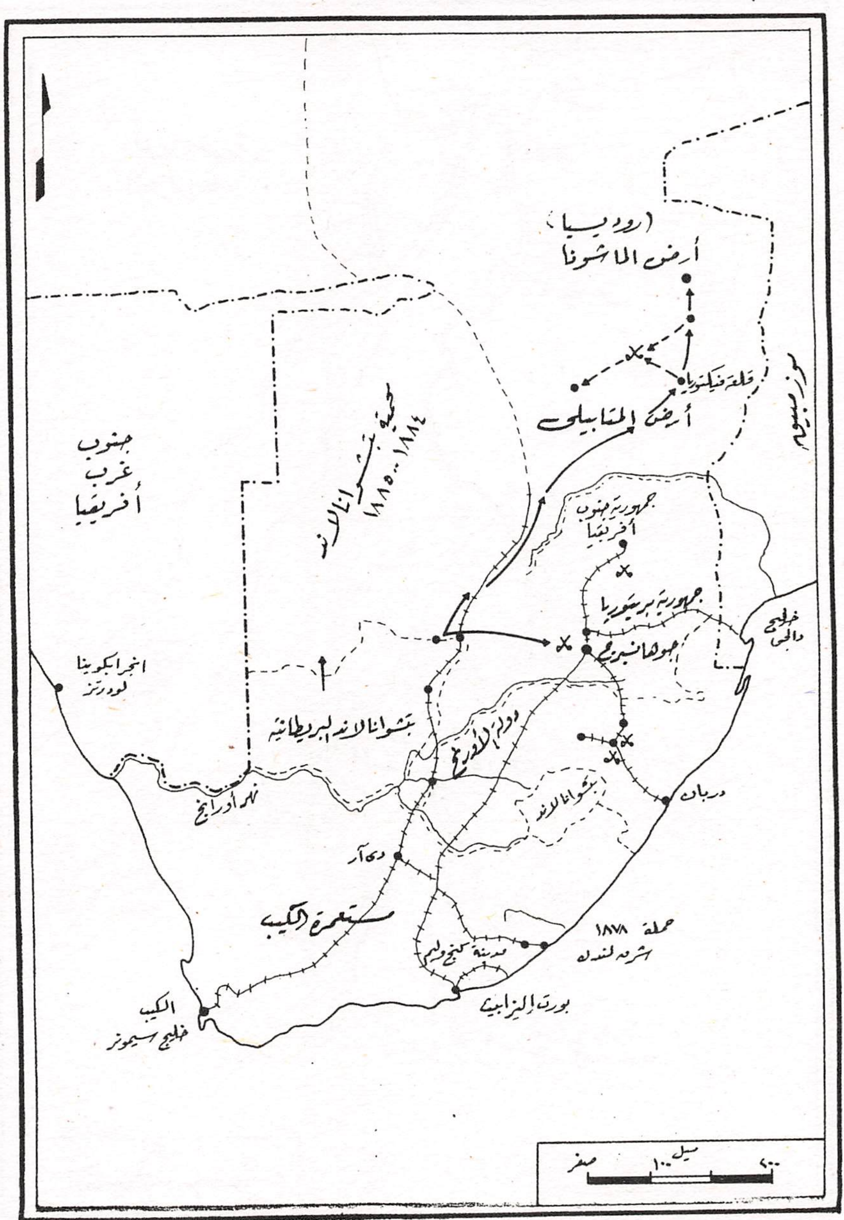


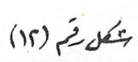
شكل رقم (١٠)

الملايو في القرن التاسع عشر



شكل رقم (١١) جنوب أفريقيا ١٨١٥ - ١٩٠٢

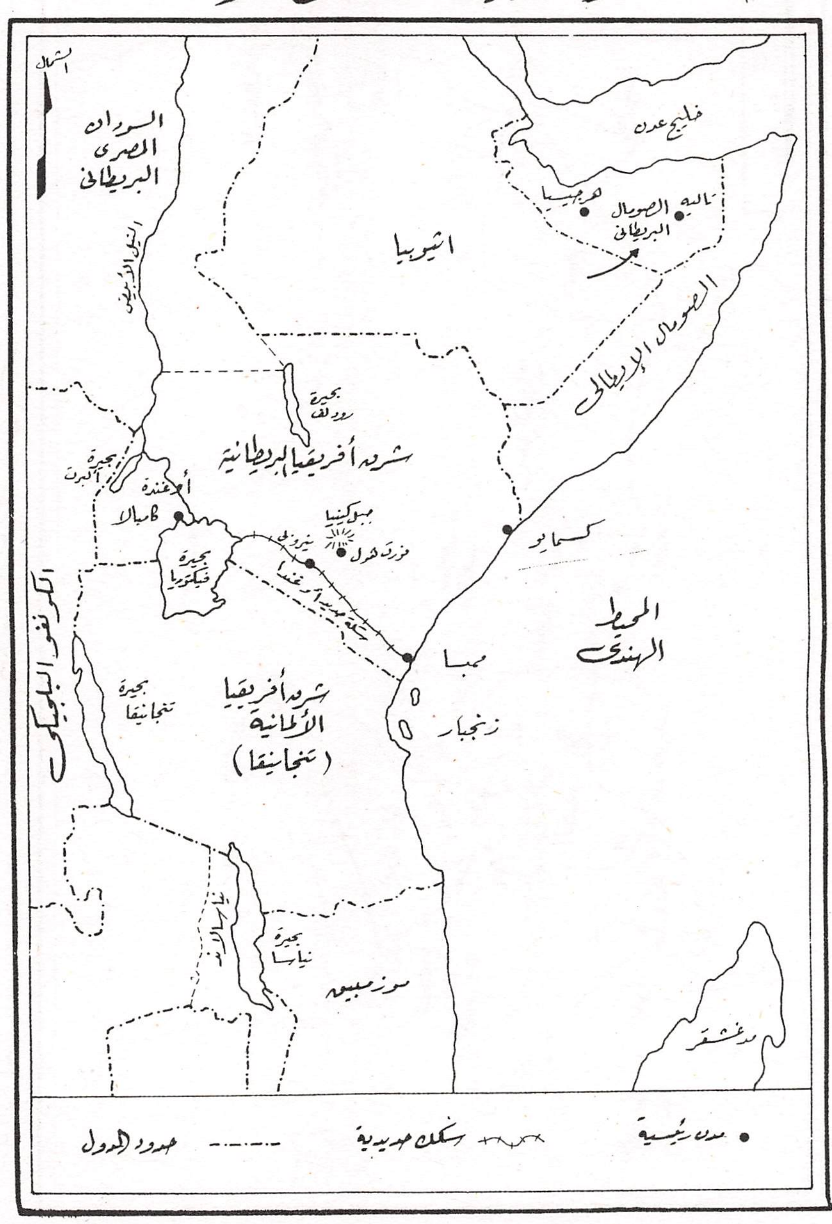




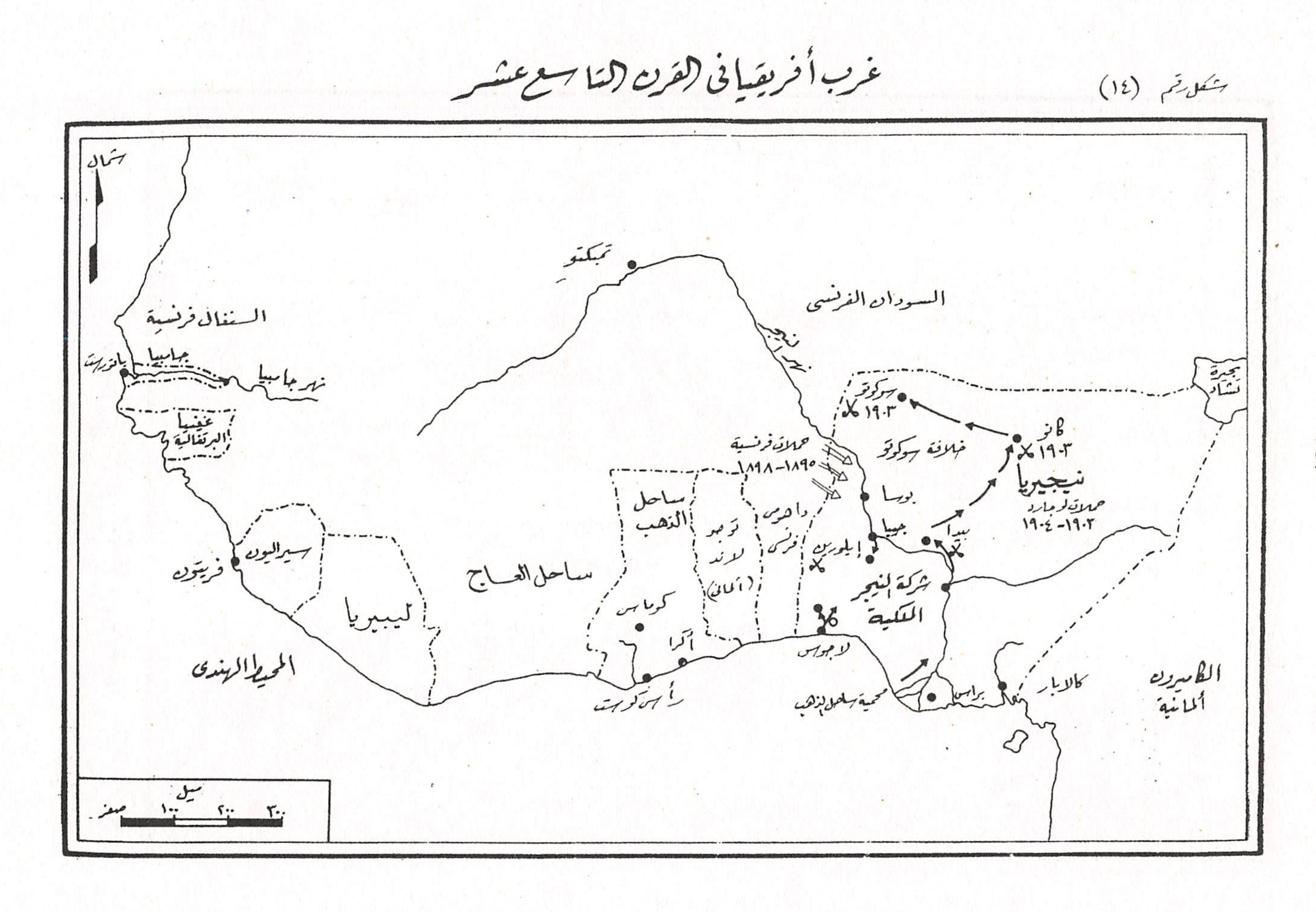
وادى النيل ١٨٨٢ - ١٨٩٨

البحر المتوسط
الإسكندرية
بور سعيد
الإسماعيلية
السويس
القاهرة
الإمبراطورية التركية
مصر
نهر النيل
وادى حلفا
خط سكة حديد ١٨٩٧-١٨٩٨
دنقلة
أبو حمد
حملة ولسلى ١٨٨٤ - ١٨٨٥
كورتى
أبو كليا ١٨٨٥
بربر
كتشنر ١٨٩٨
المتمة
السودان
البحر الأحمر
أريتريا الإيطالية
كسلا
عدوة ١٨٩٦
النيل الأزرق
شيكان
الأبيض
الزاهد
حملة هكس ١٨٨٣
أثيوبيا
فاشودة
حملة مارشان ١٨٩٦ - ١٨٩٨
ميل
صفر ١٠٠ ٢٠٠

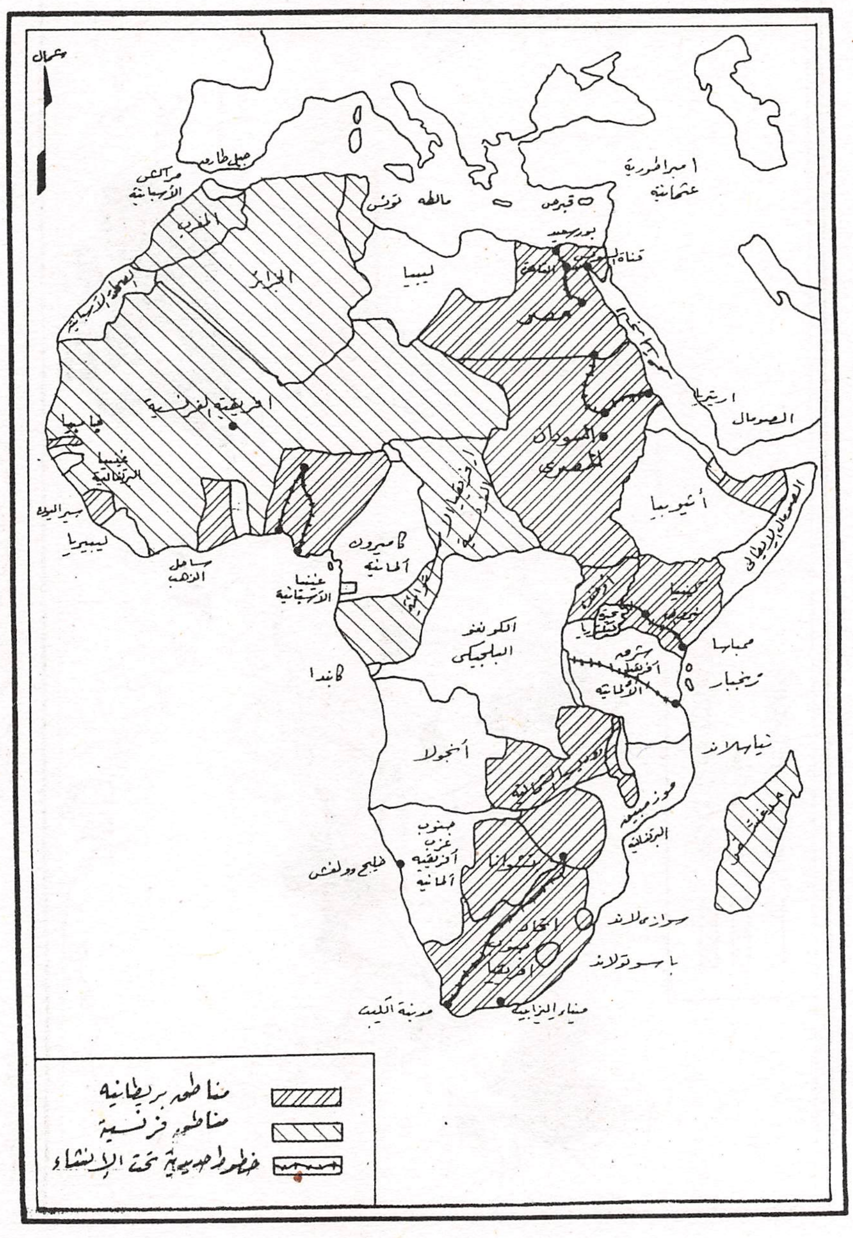
شكل رقم (١٣) شرق أفريقيا في القرن التاسع عشر



شكل رقم (١٤) غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر

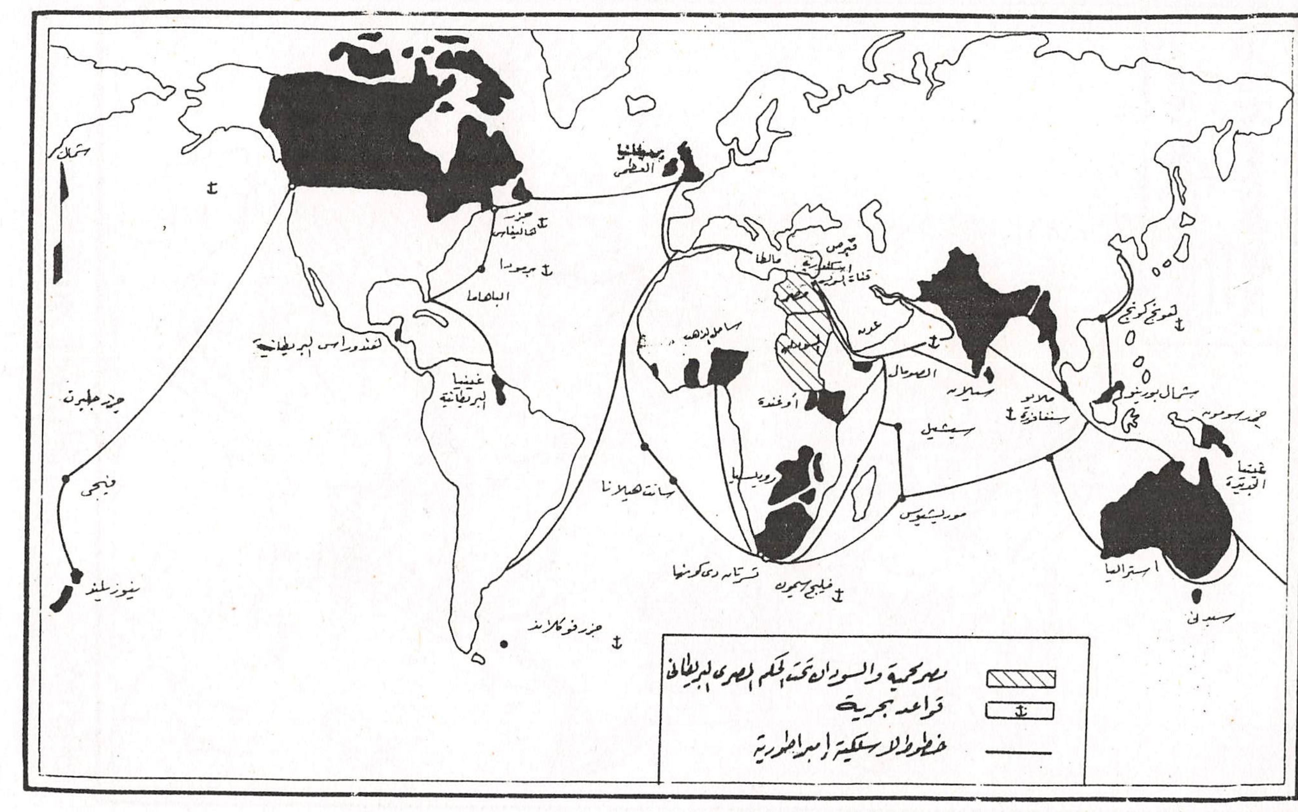


شكل رقم (١٥) تقسيم أفريقيا ١٩١٤



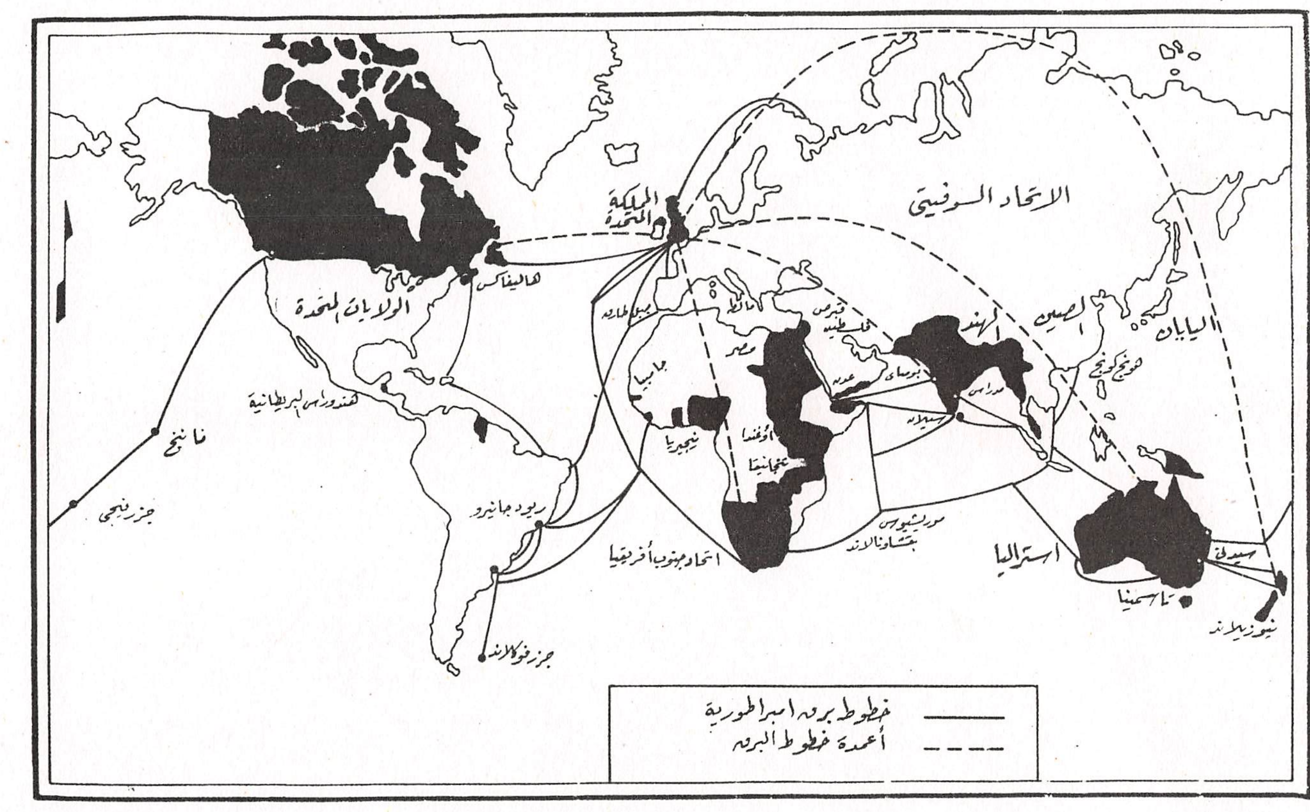
شكل رقم (١٦)

الإمبراطورية البريطانية ١٩١٤



شكل رقم (١٧)

الإمبراطورية البريطانية ومناطق الإنتداب ١٩٣٠



Bibliography

PRO	Public Record Office
RHL	Rhodes House Library
RUSI	*Royal United Services Institute Journal*
SRO	Scottish Record Office
WMQ	*William and Mary Quarterly*
WS	*War and Society*

Sources

Unpublished

India Office Library

Letters and Papers Military and Political

Imperial War Museum

Papers of Air-Marshal Sir Harold Lydford

Liddell Hart Centre for Military Archives

Papers of Brigadier-General Sir James Edmonds

National Army Museum.
Anon (Private of 5th Dragoon Guards and 11th Light Dragoons). Memoirs
Brigadier-General Sir Archibald Eden. Diary
Lieutenant William Fleming. 45th Regiment. Letters
Private John Mitchell. 58th Regiment. Memoirs
Surgeon Pine. Diary
Private J.C. Rose. 2nd Rifle Brigade. Papers and Diary
Major Stockwell. Diary and Papers

National Library of Scotland:
Papers of General Sir George Brown
Colin Campbell. 'Voyage of the Unicorn'
Papers of Admiral Sir Alexander Cochrane
Papers of Admiral Charles Graham
Papers and Diary of Field-Marshal Lord Haig
Papers of Major Alexander Murray
Papers of George Murray
Letters of Charles Cochrane. 4th Regiment (in Stuart-Stevenson Papers)
Papers of the Marquess of Tweeddale

Public Record Office:

Admiralty:	Adm 1. Adm 53; Adm 116; Adm 123; Adm 125
Air Ministry:	Air 5; Air 8; Air 9; Air 20; Air 24
Colonial Office	CO 23; CO 123; CO 201; CO 227; CO 318; CO 773; CO 856; CO 874; CO 968; CO 1015; CO 1027; CO 1037
Home Office	HO 51
Foreign Office:	FO 141; FO 195; FO 371; FO 406; FO 413; FO 848
War Office:	WO 1; WO 3; WO 32; WO 33; WO 86; WO 90; WO 92; WO 95; WO 208; WO 216

Rhodes House Library, Oxford

Papers of Captain Abadie

Scottish Record Office:
Clerk of Penycuik Papers
Dalrymple Papers
Dundonald Papers (Sudan Diary and Letters of Captain Lord Cochrane)
Logan Hume Papers
Lord Loch Papers
Lieutenant Colin MacKenzie, Letters
Lieutenant Stewart Mackenzie, Letters
Captain John Peebles, 42nd Regiment, Diary
General Robertson, Letters and Papers

Published

Magazines and Newspapers:

Africa; The Anti-Jacobin; Asiatic Journal; Blackwoods Magazine; British and Foreign Review; Coburn's United Service Magazine; Contemporary Review; Daily Express; Daily Graphic; Daily Herald; Daily Mail; Daily Telegraph; Edinburgh Review; Foreign Affairs; Fortnightly Review; The Graphic; Harpers; Illustrated London News; Imperial Commerce and Affairs; The Independent; Journal of the Royal Africa Society; The Listener; London Magazine; Manchester Guardian; Morning Post; National Geographic Magazine; National Review; New Statesman; Nineteenth Century; Nineteenth Century and After; The Observer; Picture Post; Private Eye; Quarterly Review; Review of Politics; Round Table; Saturday Review; Spectator; Sphere; Standard; Sun; Sunday Times; Time; The Times.

Articles and Books (all published in London unless stated otherwise):

D. Acheson, *Present at the Creation: My Years at the State Department* (1970).

C.A. Ageron, 'Les Populations du Mahgreb face à la Propagande Allemande', *Revue d'histoire de la Deuxième Guerre Mondiale*, 114 (1979).

R.G. Albion, 'The Timber Problem of the Royal Navy', *MM*, 38 (1952).

M. Alston (Mrs Conyers Alston), 'Women and the Overseas Empire', *National Review*, 79 (1917).

R.D. Altick, *The Shows of London* (Cambridge, Mass., 1978).

R. von Albertini and A. Wirz, *European Colonial Rule: the Impact of the West on India, South East Asia and Africa*, trans. O.G. Williamson (Oxford, 1982).

R.J. Aldrich, 'Conspiracy or Confusion? Churchill and Roosevelt and Pearl Harbour', *Intelligence and National Security*, 7 (1992).

L.S. Amery, *My Political Life, I: England before the Storm, 1896–1914* (1953).

——, *The Leo Amery Diaries, I: 1896–1929*, ed. J. Barnes and D. Nicholson (1980).

E. Ames, *An ABC for Baby Patriots* (1898).

K.R. Andrews, *Elizabethan Privateering: English Privateering during the Spanish War, 1585–1603* (Cambridge, 1964).

Anon, Review of R. Perceval, *An Account of the Island of Ceylon*, *Edinburgh Review*, 2 (1803).

Anon, *A Concise History of the English Colony in New South Wales from the Landing of Governor Philip in January 1788 to May 1803* (1804).

Anon, *Review of A. von Humbolt, Tableaux Physiques des Régions Equatoriales*, *Edinburgh Review*, 16 (1810).
Anon, 'Transactions of the Missionary Society in the South Sea Islands', *Quarterly Review*, 2 (1811).
Anon, *Slavery No Oppression, or Some New Arguments and Opinions Against The Idea of Africa Liberty*, (n.d. c. 1815–20).
Anon, 'Emigration to the Cape of Good Hope', *Blackwoods Magazine*, 15 (1819).
Anon, (A Field Officer of Cavalry) (Digby Macworth) *The Diary of a Tour through Southern India, Egypt and Palestine in the Years 1821 and 1822* (1823).
Anon, 'A Convict's Recollections', *London Magazine*, 2 (1825).
Anon, 'The Invasion of India', *Blackwoods Magazine*, 22 (1827).
Anon, (Madras Officer) *A Sketch and Review of Military Service in India* (Glasgow, 1833).
Anon, (Citizen of Edinburgh) *Journal of an Excursion to the United States and Canada in the Year 1834: With Hints to Emigrants &c.*, (Edinburgh, 1835).
Anon, 'The Battle of Chillianwalla', *Colburn's United Service Magazine* (1850 Pt.3).
Anon, (9176 IY) (P. Sturrock) *The Fifes in South Africa: Being the History of the Fife and Forfar Yeomanry in the South African War, 1900–1901* (Cupar, Fife, 1903).
Anon, 'The British and the German Fleets', *Fortnightly Review*, New Series, 77 (1905).
Anon, 'The Native and the Settler and the Administration in British East Africa', *Contemporary Review*, 118 (1920).
Anon, *The Road to War* (Left Book Club, 1937).
Annual Report for the Gold Coast for the Year 1946 (1947).
J.C. Appleby, 'An Association for the West Indies? English Plans for a West India Company', *JICH*, 15 (1987).
M. Archer, *India and British Portraiture* (1979).
S.K.B. Asante, *Pan-African Protest: West Africa and the Italo-Ethiopian Crisis, 1934–1941* (1977).
B. Ash, *The Lost Dictator: A Biography of Field-Marshal Sir Henry Wilson* (1961).
C. Atkinson, *The Emigrants Guide to New Brunswick, British North America* (Berwick-on-Tweed, 1842).
E. Atiyah, *An Arab Tells His Own Story: A Study in Loyalties* (1946).
R. Attwood, *The Hessians: Mercenaries from Hessen-Kassell in the American Revolution* (Cambridge, 1980).

B. Bailyn, *The Peopling of British North America: An Introduction* (1986).
B. Bailyn and B. de Wolfe, *Voyages to the West* (1986).
The Endeavour Journal of Joseph Banks, ed. J.C. Beaglehole (2 vols, 1962).
J.P. Barber, 'The Karamoja District of Uganda', *JAH*, 3 (1962).
J. Barker, 'The Diary of Lieutenant John Barker, November 1774 to May 1776', *JSAHR*, 7 (1928).
C. Barnett, *The Collapse of British Power* (Gloucester, 1984 ed.).
Real Old Tory Politics: The Political Diaries of Sir Robert Sanders, Lord Bayford, ed. J. Ramsden (1984).
C.E.W. Bean, *Official History of Australia in the War of 1914–1918*, 1 and 2 (Sydney, 1938 and 1940).
The Beatty Papers, I (1902–1918), ed. B.McL. Ranft (Navy Records Society, 1989).
H. McD. Beccles, 'A riotous unruly lot: Irish Indentured Servants and Freemen in the English West Indies, 1644–1714', *WMQ* 47 (1990).
H.R. Beddoes, *Report on the Military Operations in Ashanti, 1900* (1901).

G. Bell, *From Amurath to Amurath* (1910).
C. Beresford, *The Memoirs of Lord Charles Beresford* (2 vols, 1914).
C. Berger, *Broadsides and Bayonets: The Propaganda War of the American Revolution* (Philadelphia 1961).
H. Bindloss, *In Niger Country* (1897).
J. Binney, *The Legacy of Guilt: A Life of Thomas Kendall* (1968).
M.B. Bishku, *The British Empire and the Question of Egypt's Future, 1919–1922* (Ann Arbor, 1988).
J. Black, 'Anglo-Spanish Naval Relations in the Eighteenth Century and the Anglo-Spanish Naval Race', *MM*, 77 (1991).
J. Black and P. Woodfine ed., *The British Navy and the Use of Naval Power in the Eighteenth Century* (Leicester, 1988).
R. Blake and W.R. Louis, ed., *Churchill* (Oxford, 1988).
W. Bligh, *A Voyage to the South Seas Undertaken by the Command of His Majesty for the Purpose of Conveying the Bread-Fruit Tree to the West Indies in His Majesty's Ship the Bounty* (1792).
W.S. Blunt, *Secret History of the English Occupation of Egypt* (New York, 1967 ed.).
Boscawen's Letters to his Wife, 1755–1756, ed. P.K. Kemp, in *Naval Miscellany 4* (Navy Record Society, 1952).
G. Bourchier, *Eight Months Campaign against the Bengal Sepoy Army during the Mutiny of 1857* (1858).
F. Bourne, 'Rorke's Drift' ('I was there'), *Listener*, 30 December 1936.
John Bowle, *The Imperial Achievement: The Rise and Transformation of the British Empire* (1974).
T. Bowrey, *A Geographical Account of the Countries around the Bay of Bengal, 1669–1679* (Hakluyt Society, 1905).
A. Boyle, *Trenchard: Man of Vision* (1962).
H.J. Brands, 'The Cairo-Teheran Connection in Anglo-American Rivalry in the Middle East', *Int. HR*, 11 (1989).
Lord Brassey, 'The Diamond Jubilee in Victoria', *Nineteenth Century*, 42 (1897).
J.S. Bratton, R.A. Cave, B. Gregory, H.J. Holder and M. Pickering, *Acts of Supremacy: The British Empire and the Stage, 1790–1930* (Manchester, 1991).
H.H. Breen, *St Lucia: Historical and Statistical Description*, (1844).
British Parliamentary Papers: Industrial Revolution, I (Trade) (Shannon, 1968).
British Parliamentary Papers: Colonies I (Report of the Select Committee on Ceylon and British Guiana (Shannon, 1968).
The British Way (Directorate of Army Education, 1944).
C. Brooke, *Ten Years in Sarawak* (2 vols, 1856).
J. Brown, *An Estimate of the Manners and Principles of the Times* (1757).
N.J. Brown, *Peasants Against the State: The Political Activity of the Egyptian Peasantry, 1882–1952* (Ann Arbor, 1988).
W.H. Brown, *On the South African Frontier* (Bulawayo, 1970 ed.).
R. Buchanan, 'The Voice of the Hooligan', *Contemporary Review*, 76 (1899).
R.N. Buckley, 'The Destruction of the British Army in the West Indies, 1793–1815: A Medical History, *JSAHR*, 56 (1978).
J. Burchett, *Memoirs of Transactions at Sea during the War with France beginning 1688 and ending in 1700* (1703).
The Correspondence of Edmund Burke, V (Oxford, 1965).
W. L. Burn, *The Age of Equipoise* (1968 ed.).
B.C. Busch, *Britain, India and the Arabs* (Berkeley, Calif., 1971).

J. Butler, 'The German Factor in Anglo-Transvaal Relations', in ed. Gifford and Louis, *Britain and Germany in Africa*.

V. Cable and P. Ferdinand, 'China as an Economic Giant: Threat or Opportunity?', *Foreign Affairs*, 70, 2 (1994).
The Diaries of Sir Alexander Cadogan, 1938–1945, ed. D. Dilks (1971).
P.J. Cain and A.G. Hopkins, 'The Political Economy of British Expansion Overseas', 1750–1914 *Ec.HR*, 33 (1980).
Calendars of State Papers, America and the West Indies, 1574–1738 (44 volumes, 1860–1969).
R.M. Calhoun, *The Loyalists in Revolutionary America, 1760–1781* (New York, 1965).
C.E. Callwell, *Field-Marshal Sir Henry Wilson, his Life and Diaries* (2 vols, 1927).
Canada Today (1927).
L.G. Carr and L.S. Walsh, 'The Planter's Wife: The Experience of White Women in Seventeenth Century Maryland', *WMQ*, 24 (1977).
A. Cassells, 'Deux Empires face à face: La chimère d'un rapprochement anglo-italien (1936–1940)', *Guerres Mondiales et Conflits Contemporains 161* (January 1991).
B. Castle, *Fighting All the Way* (1993).
D. Caute, *Under the Sun: The Death of White Rhodesia* (1983).
J. Chamberlain, 'A Bill for the Weakening of Britain', *Nineteenth Century 33* (1893).
M. E. Chamberlain, 'The Alexandria Massacre of 11 June 1882 and the British Occupation of Egypt', *MES*, 13 (1977).
George Chapman, Ben Jonson and John Marston, *Eastward Ho*, ed. R.W. Fossen (Manchester, 1979).
J. Charmley, *Lord Lloyd and the Decline of Empire* (1987).
Chambers Information for the People (1842).
N. Chauduri, *Clive of India* (1975).
E. Childers, *In the Ranks of the CIV* (1901).
I. Clark and N.J. Wheeler, *The Origins of British Nuclear Strategy, 1945–1955* (Oxford 1989).
M. Clark, 'Constraints on United Kingdom Foreign and Defense Policy', *Defense Analysis*, 14, i (1998).
The American Revolution: Sir Henry Clinton's Narrative of his Campaigns, 1775–1782, ed. W.B. Willcox (Yale, 1954).
W.L. Clowes, *The Royal Navy from Ancient Times* (7 vols, 1897–1903).
A.J. Cobham, *My Flight to the Cape and Back* (1926).
S.A. Cohen, 'A Still Stranger Aspect of Suez: British Operational Plans to Attack Israel', *Int.HR*, 10 (1988).
S. Cohen, 'Mesopotamia and British Strategy, 1903–1914', *IJMES*, 9 (1978).
(Lt. Collins) *A Concise History of the English Colony of New South Wales* (1803).
R.O. Collins, *Shadows in the Grass: Britain and the Southern Sudan, 1918–1956* (1983).
Congress Responsibility for the Disturbances (New Delhi, 1943).
S. Constantine, ed. *Emigrants and Empire: British Settlement in the Dominions Between the Wars* (Manchester, 1990).
Constitutional Relations between Britain and India: The Transfer of Power, 1942–1947, ed. N. Mansergh and E.W.E. Lamby (12 vols, 1970–1987).
S. Conway, 'British Army Officers and the American War of Independence', *WMQ*, 41 (1984).
_____, 'The Recruitment of Criminals into the British Army', *BIHR*, 58 (1985).
D. Cooper, *Old Men Forget* (1953).

The Cornwallis Correspondence, ed. J. Ross (3 vols, 1859).
The Letters and Prose Writings of William Cowper, 1750–1781, ed. J. King and C. Ryskamp (Oxford, 1979).
N.F.R. Crafts, 'Industrial Revolution in England and France: Some thoughts on the Question, "Why was England First?"', *Ec.HR*, 30 (1977).
Lord Cranworth, *Profit and Sport in British East Africa* (1919).
The Crawford Papers: The Journal of David Lindsay, Twenty-Seventh Earl of Campbell and Tenth Earl of Balcarres, ed. J. Vincent (Manchester, 1984).
D. Cressy, 'A New Letter from America: Newfoundland in 1610', *MM*, 72 (1986).
——, *Coming Over: Migration and Communication between England and New England in the Seventeenth Century* (Cambridge, 1987).
Lord Cromer, *England in Egypt* (2 vols, 1908).
F. Crouzet, 'The Sources of England's Wealth: Some French Views on the Eighteenth Century', in ed. P.L. Cottrell and D.H. Aldcroft, *Shipping, Trade and Commerce* (Leicester, 1981).
N. Cunard, 'On Colour Bar', *Life and Letters*, 32 (1942).
H. Cunningham, 'The Language of Patriotism, 1750–1914, *History Workshop* 12 (1981).

H.G. Dalton, *The History of British Guiana* (2 vols, 1855).
M.W. Daly, *Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan, 1898–1934* (Cambridge, 1986).
J. Darwin, 'The Central African Emergency, 1959', *JICH*, 21 (1993).
A. Davin, 'Imperialism and Motherhood', *History Workshop*, 5 (1978).
K.G. Davis, *The North Atlantic World in the Seventeenth Century* (Oxford, 1974).
R. Davis, *The Rise of the English Shipping Industry in the Seventeenth and Eighteenth Centuries* (1962).
D. Day, 'Anzacs on the Run: The View from Whitehall, 1941–1942', *JICH*, 14 (1986).
De Latocnaye, *Promenade autour de la Grande Bretagne* (Edinburgh, 1795).
Lord Denman, *A Letter from Lord Denman to Lord Brougham on the Final Extinction of the Slave Trade* (1848).
A. Desmond and J. Moore, *Darwin* (1992 ed.).
Development and Welfare in the West Indies, 1940–1942 (1943).
D.R. Devereux, 'Britain, the Commonwealth and the Defence of the Middle East, 1948–1956', *JCont. H*, 24 (1989).
H.T. Dickinson, 'Popular Conservatism, Militant Loyalism, 1789–1815', in ed. H.T. Dickinson, *Britain and the French Revolution* (1989).
J. Dimbleby, *The Last Governor* (1997).
O.S. Djan, 'Drums and Victory: Africa's Roll Call to the Empire, *Journal of the Royal African Society*, 42 (1942).
F.D. Djang, *The Diplomatic Relations between China and Germany since 1899* (Shanghai, 1936).
Documents Concerning English Voyages to the Spanish Main, 1569–1580, ed. I.A. Wright (Hakluyt Society, 1932).
Documents of the American Revolution, 1770–1783 (21 vols, Shannon, 1972–81).
Documents of British Foreign Policy, 1919–1939, ed. W.N. Medlicott, D. Dakin and G. Bennett, 2nd Series, 18 (1980).
Documents of Australian Foreign Policy, 1937–1949, ed. R.G. Neale, P.G. Edwards and H. Kenoway (6 vols, Canberra, 1975–1983).

D. Dodds, M. Giles, I. Orr-Ewing, M. Ross, P. Wall, *A Presence East of Suez* (1969).
H.J. Dooley, 'Great Britain's "Last Battle" in the Middle East: Notes on Cabinet Planning during the Suez Crisis, 1956', *Int.HR*, 11 (1989).
Captain Doveton, 'The Company's Troops', *AJ* 3rd Series, I (1843).
_____. 'The Bangalore Conspiracy of 1832', *AJ* 3rd Series, II (1844).
A. Draper, *The Amritsar Massacre: Twilight of the Raj* (1985 ed.).
H.T.B. Drew, *The War Effort in New Zealand* (vol. 4 of the Official History, Auckland, 1923).

T. Eddy and D. Shreuder, *The Rise of Colonial Nationalism* (Sydney, 1988).
G. Edmondson, *A Narrative of Personal Adventures at Banda and elsewhere during the rebellion of 1857* (1858).
H. Edwardes, *A Year on the Punjab Frontier, 1848–49* (2 vols, 1851).
P. Edwards, 'The Australian Commitment to the Malayan Emergency, 1948–1950', *AHS*, 22 (1987).
C.C. Eldridge, ed. *British Imperialism in the Nineteenth Century* (1984).
The Papers of Dwight David Eisenhower: The War Years, I, ed. A.D. Chandler, S.E. Ambrose, J.P. Hobbs, E.A. Thompson and E.F. Smith (Baltimore, 1970).
Empire Day Book (1912).

K. Feiling, *The Life of Neville Chamberlain* (1946).
J.R. Ferris, 'The Greatest Power on Earth: Great Britain in the 1920s', *JInt. H*, 13 (1991).
J.M. Fewster, 'Prize-Money and the British Expeditionary Force to the West Indies of 1793', *JICH*, 12 (1983).
D.K. Fieldhouse, 'The Labour Government and the Empire Commonwealth', in ed. R. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Government*.
H. Finber, *Rival Empires of Trade in the Orient, 1600–1800* (Minneapolis, 1976).
First, Second and Third Reports for the Select Committee on Emigration from the United Kingdom (Shannon, 1977).
D.H. Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways in America* (Oxford, 1989).
H.A.L. Fisher, 'Mr Lloyd George's Foreign Policy, 1918–1922', *Foreign Affairs* I (September, 1922).
N. Fisher, *Iain Macleod* (1973).
R. Fisher and H. Johnston ed., *Captain Cook and his Times* (Seattle, 1979).
A.C. Flick, *Loyalism in New York during the American Revolution* (New York, 1901).
G.E. Fox, *British Admirals and Chinese Pirates, 1823–1869* (1940).
The Papers of Benjamin Franklin, 17 (Yale, 1978).
D. Fraser, *Impressions: Nigeria* 1925 (1926).
C.J. French, 'Productivity in Atlantic Shipping Industry', *JIDH*, 17 (1987).
A.L. Friedberg, *Change, Assessment and Adaptation: Britain and the Experience of Relative Decline, 1895–1905* (Ann Arbor, 1987).
A. Frost, 'New Geographic Perspectives and the Emergence of the Romantic Imagination', in ed. Fisher and Johnston, *Captain Cook and his Times*.
L.W. Fuchser, *Neville Chamberlain and Appeasement: A Study in the Politics of History* (Ann Arbor, 1982).
J. Fuller, *Troop Morale and Popular Culture in British and Dominion Armies* (Oxford, 1990).
F. Furedi, 'Creating a Breathing Space: The Political Management of Colonial Emergencies', *JICH*, 21 (1993).

R. Furse, *Aucuparius: Recollections of a Recruiting Officer* (Oxford, 1962).

J.S. Galbraith, 'British War Aims in World War I: A Commentary on Statesmanship', *JICH*, 13 (1984).
The Collected Works of Mahatma Gandhi, (82 volumes, Delhi, 1958–80).
N.G. Garson, 'South Africa and World War I', *JICH*, 8 (1979).
D.B. Gaspar, 'The Antigua Conspiracy of 1736: A Case Study in the Origin of Collective Resistance', WMQ, 35 (1978).
P. Gifford and W.R. Louis ed., *Britain and Germany in Africa*, (Yale, 1967).
______, *France and Britain in Africa*, (Yale, 1971).
P. Gifford and T.C. Westell, 'African Education in a Colonial Context: French and British Styles', in ed. Gifford and Louis, *France and Britain in Africa*.
M. Gilbert, *Winston S. Churchill* (6 volumes, 1966–1983).
D. Gillison, *Royal Australian Air Force, 1939–1942*, (Australia in the War of 1939–1945, Series 3, I) (Canberra, 1962).
W.E. Gladstone, *Speeches in Scotland* (3 volumes, Edinburgh, 1879–80).
J. Goldberg, 'The Origins of British-Saudi Relations: The Anglo-Saudi Treaty Revisited', *HJ*, 28 (1985).
H. Goldwin, *The Empire: A Series of Letters* (1862).
J. Gooch, 'Hidden in the Rock: American Military Perception of Great Britain, 1919–1940', in ed. L. Freedman, P. Hayes and R. O'Neill, *Essays in Honour of Sir Michael Howard* (Oxford, 1992).
S. Gopal, *British Policy in India* (Cambridge, 1965).
D.C. Gordon, *The Dominion Partnership and Imperial Defence, 1870–1914* (Baltimore, 1965).
B.M. Gough, *The Royal Navy and the Northeast Coast of North America, 1810–1914: A Study in British Maritime Supremacy* (Vancouver, 1971).
R.J. Goven, 'British Legerdemain at the 1911 Imperial Conference: The Dominions, Defense Planning, and the Renewal of the Anglo-Japanese Alliance', *JMH*, 52 (1980).
B.I. Grainger, *Political Satire in the American Revolution, 1763–1783* (Ithaca, NY, 1960).
M. Green, *Dreams of Adventure, Deeds of Empire* (1980).
J. Greenhut, 'The Imperial Reserve: The Indian Corps on the Western Front, 1914–1915', *JICH*, 12 (1983).
L.D. Gregg, 'Shipmasters in Early Barbados', *MM*, 77 (1991).
W. Gregory, 'Egypt in the Soudan', *Nineteenth Century*, 17 (1885).
The Grenville Papers, ed. W.J. Smith (7 volumes, 1852).
P. Griffiths, *To Guard My People: The History of the Indian Police* (1971).
I.D. Gruber, *The Howe Brothers and the American Revolution* (Williamsburg, Va., 1972).
J.J. Gurney, *A Winter in the West Indies* (1840).
J. Guy, 'A Note on Firearms in the Zulu Kingdom with special reference to the Anglo-Zulu War, 1879', *JAH*, 12 (1971).
______, *The Destruction of the Zulu Kingdom* (1979).

D. Haglund, 'George C. Marshall', *JCont.H*, 15 (1988).
A Handbook of the Anglo-Egyptian Sudan, 1922 (Naval Staff Intelligence Division, 1922).
J.S. Handler and R.S. Corruccini, 'Plantation Slave Life in Barbados: A Physical Anthropological Approach', *JIDH*, 14 (1983).

S. Hamid, *Disastrous Twilight: A Personal Record of the Partition of India* (1986).
Lord Hankey, *The Supreme Command* (2 vols, 1961).
G. Hanley, 'Bantu in Burma', *Spectator*, 19 January 1945.
_____. 'Resettling the West African', *Army Quarterly*, 52 (1946).
J.C. Hansard, *The Parliamentary History of England from the Earliest Period to the Year 1803* (36 volumes, 1806–1820)
Hansard's Parliamentary Debates
F. Harcourt, 'Disraeli and Imperialism, 1866–1868: A Question of Timing', *HJ*, 23 (1980).
J.D. Hargreaves, *Decolonisation in Africa* (1988).
J.H. Harris, 'Back to Slavery?' *Contemporary Review*, 120 (1921).
J.P. Harris, 'British Military Intelligence and the Rise of German Mechanical Forces, 1929–1940', *Intelligence and National Security*, 6, ii (1991).
B. Harrison, 'For Church, Queen and Family: The Girls Friendly Society, 1874–1920', *PP*, 61 (November 1973).
R. Hart, *Slaves who Abolished Slavery*, II (Blacks in Rebellion) (Kingston, Jamaica, 1955).
The Political Diaries of Oliver Harvey, 1937–1940, ed. J. Harvey (1970).
The Wartime Diaries of Oliver Harvey, 1937–1940, ed. J. Harvey (1978).
B. Hasluck, *The Government and the People 1939–1941* (Australia in the War of 1939–1945, Series 4, I) (Canberra, 1956 ed.).
R.G. Haycock, 'The "Myth" of Imperial Defence: Australian and Canadian Bilateral Military Cooperation, 1942', *WS* 2, i (1984).
S. Heap, 'The Development of Motor Transport in the Gold Coast, 1900–1939', *JTH*, 11 (1990).
R. Heber, *Narrative of a Journey through the Upper Provinces of India* (2 vols, 1849).
M.H. Heikal, *Cutting the Lion's Tail: Suez Through Egyptian Eyes* (1986).
M.A. Henniker, 'Early Days in Pakistan', *RUSI*, 93 (1948).
P. Hennessy, *Never Again* (1993 ed.).
A. Hilgruber, 'England's Place in Hitler's Plans for World Domination', *JCont.H*, 9 (1974).
ed. F. Hinsley and others, *History of the Second World War: British Intelligence in the Second World War* (5 vols, 1979–86).
HMC, *Reports on the Manuscripts of Reginald Rawdon Hastings Esquire* vols III (1903) and IV (1947).
HMC, *Reports on the Manuscripts of Mrs Stopford-Sackville* (2 vols, 1904–10).
HMC, *Reports on the Manuscripts of Earl Bathurst preserved at Cirencester Park* (1923).
The History and Proceedings of the House of Commons from the Restoration to the Present Day (14 vols, 1742–44).
The History of the Bermudas or Summer Islands, ed. J.H. le Froy (Hakluyt Society, 1882).
E.J. Hobsbawn, *The Age of Empire* (1986).
C. Hollis, 'Chamberlain's Policy', *Review of Politics*, 1 (1939).
P.M. Holt, *The Mahdist State in the Sudan*, 1881–1898 (Oxford, 1958).
H.D. Hooper, *Leading Strings: National Development and Missionary Education in Kenya Colony* (1921).
A.G. Hopkins, 'The Victorians and Africa: A Reconsideration of the Occupation of Egypt', *JAH*, 27 (1986).
D. Hopwood, *Tales of Empire: The British and the Middle East, 1880–1952* (1989).
A. Horne, *Macmillan, 1884–1956* (1988).
_____. *Macmillan, 1957–1986* (1989).

S. Hornstein, *The Deployment of the Navy in Peacetime, 1674–1688* (Leiden, 1986).
House of Commons Sessional Papers of the Eighteenth Century, (George III: Quebec and New South Wales, 1791–1792) ed. Lambert (Wilmington, Delaware, 1975).
G. Howe, *Conflict of Loyalty* (1994).
I.C.Y. Hsü, *The Rise of Modern China* (Oxford, 1990 ed.).
Hudson's Bay Company, Letters Outward, 1688–1969, Hudson's Bay Company Record Society, 20 (1957).
Hudson's Bay Miscellany, 1670–1870, Hudson's Bay Company Record Society, 30 (1975).
R. Hyam, 'Empire and Sexual Opportunity', *JICH*, 15 (1985).
_____, 'The Political Consequences of Seretse Khama: Britain, the Bangwato and South Africa', *HJ*, 29 (1986).
_____, *Empire and Sexuality* (Manchester, 1990).

Lord Ironside ed., *High Road to Command: The Diaries of Major-General Sir Edmund Ironside, 1920–1922* (1972).
R. Isaacs, *The Transformation of Virginia, 1740–1790* (Chapel Hill, North Carolina, 1982).

C.L.R. James, 'A Century of Freedom', *The Listener*, 31 May 1933.
L. James, *Mutiny* (1985).
_____, *Imperial Rearguard* (1988).
_____, *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia* (1990).
_____, *Imperial Warrior: The Life and Times of Field Marshal Viscount Allenby* (1993).
S.V. James, *Colonial Rhode Island: A History* (New York, 1975).
A. Jayal, 'Towards the Baghdad Pact: South Asia and the Middle East Defence in the Cold War, 1947–1955', *Int. HR*, 11 (1989).
K. Jeffrey, *The British Army and the Crisis of Empire* (Manchester, 1984).
E.H. Jenkins, *A History of the French Navy* (1973).
D.W. Jones, *War and Economy in the Age of William III and Marlborough* (Oxford, 1988).
T. Jones, *Whitehall Diaries* III (Ireland, 1918–1925), ed K. Middlemas (1971).
D.H. Johnson, 'The Death of General Gordon: A Victorian Myth', *JICH*, 10 (1982).
H.J.M. Johnston, *British Emigration Policy, 1815– 1830* (Oxford, 1972).
W.D. Jordan, *White Over Black: American Attitudes to the Negro, 1580–1812* (Williamsburg, North Carolina, 1968).

R. Kaplan, 'The Hidden Hand: British Intelligence Operations during the American Revolution', *WMQ*, 47 (1990).
J.W. Kaye, *Lives of the Indian Officers* (2 vols, 1867).
J.E. Kendall, *The Colonial and Imperial Conferences, 1887–1911* (1987).
P. Kennedy, *The Rise and Fall of British Naval Mastery* (1976).
_____, *The Rise of Anglo-German Antagonism, 1860–1914* (1982 ed.).
_____, *The Rise and Fall of the Great Powers* (1988).
L. Kennet, *French Forces in America, 1780–1763* (Westport, Conn., 1977).
M. Kent ed., *The Great Powers and the End of the Ottoman Empire* (1984).
Imam Khomeini, *Islam in Revolution* (Berkeley, Calif., 1981).
I. Klein, 'British Intervention in the Persian Revolution, 1905–1908', *HJ* 15 (1972).
H. Knatchbull-Hugessen, *Diplomat in Peace and War* (1949).

D. Killingray, 'Repercussions of World War I in the Gold Coast', *JAH*, 19 (1978).
_____, 'Ex-Servicemen in the Gold Coast', *JMAS*, 21 (1983).
_____, 'A Swift Agent of Colonial Government: Air Power in British Colonial Africa', *JAH*, 25 (1984).
_____, 'Labour Exploitation for Military Campaigns in British Colonial Africa, 1870–1945, *JCont.H*, 24 (1989).
R.J. King, 'Ports of Shelter, and Refreshment . . . Botany Bay and Norfolk Island in British Military Strategy, 1786–1808', *AHS*, 22 (1986).
K.O. Kupperman, 'The'Puzzle of the American Climate in the Early Colonial Period', *AHR*, 87 (1982).
_____, 'Fear of Hot Climates in the Anglo-American Colonial Experience', *WMQ*, 41 (1984).
M. Lake, 'Identifying the Masculine Context', AHS, 22 (1986).
I.K. Lambi, *The Navy and German Power Politics* (1984).
J.D. Lang, *A Historical and Statistical Account of New South Wales* (2 vols, 1834).
S.M. Lawler, 'Ireland from Truce to Treaty: War or Peace? July to October 1921', *IHS* 22 (1980–81).
T.E. Lawrence, *Letters*, ed. D. Garnett (1938).
F.H. Lawson, 'The Iranian Crisis of 1945–1946 and the Spiral Model of International Conflict', *IJMES*, 21 (1989).
_____, *Fur: A Study in English Mercantilism, 1700–1775* (Toronto, 1943).
League of Nations: Permanent Mandates Commission Minutes (vols 1–4, Geneva, 1921–23).
D.E. Leach, *The Northern Colonial Frontier, 1607–1763* (New York, 1966).
M.P. Leffler, *A Preponderance of Power: National Security and the Truman Administration in the Cold War* (Stamford, 1992).
J.D. Legge, *Britain in Fiji* (1958).
J. Lemisch, 'Jack Tar in the Streets: Merchant Seamen in the Politics of Revolutionary America', *WMQ*, 25 (1968).
M.G. Lewis, *Journal of a West India Proprietor, 1815–1817*, ed. C.M. Wilson (1929).
D. Livingstone, *A Popular Account of Missionary Travels and Researches in Southern Africa* (1861).
Lord Lloyd, *Egypt Since Cromer* (2 vols, 1934).
S. Lloyd, *Suez, 1956* (1980 ed.).
W.R. Louis, *Imperialism at Bay, 1941–1945: The United States and the Decolonisation of the British Empire* (Oxford, 1977).
_____, *The British Empire in the Middle East* (Oxford, 1984).
C.R. Low, *The Life and Correspondence of Field-Marshal Sir George Pollock* (1873).
D.A. Low ed., *Congress and the Raj: Facets of the Indian Struggle, 1917–1947* (1977).
P.L. Lovejoy and J.S. Hagendorn, 'Revolutionary Mahdism and Resistance to Colonial Rule in the Sokoto Caliphate, 1905–06, *JAH*, 31 (1990).
F.D. Lugard, *The Rise of our East African Empire* (2 vols, 1893).

R.H. MacDonald, 'Reproducing the Middle-Class Boy: From Purity to Patriotism in the Boys' Magazines, 1892–1914', *JCont.H*, 24 (1989).
J.M. Mackenzie, *Propaganda and Empire: The Manipulation of British Public Opinion, 1880–1960* (Manchester, 1984).
H. Macmillan, *War Diaries: The Mediterranean Diaries, 1943–1945* (1984).
N. Macready, *Memoirs of an Active Life* (2 vols, 1927).
The Life and Correspondence of Sir John Malcolm, ed. J.W. Kaye (2 vols, 1856).

N. Malcolm, 'On Service in Uganda', *Blackwoods Magazine* 166 (November 1899).
E.P. Malone, 'The New Zealand Journal and the Imperial Ideology', *NZJH*, 7 (1973).
J. Mangan, *The Games Ethic and Imperialism* (1986).
M. Mann, *China, 1860* (1989).
G.J. Marcus, *A Naval History of England, 1: The Formative Years* (1961).
ed. A.J. Marder, *Fear God and Dread Nought: The Correspondence of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone, II: The Years of Power, 1904–1914* (1956).
A.J. Marder, *From the Dardanelles to Oran: Studies in the Royal Navy in War and Peace* (Oxford, 1974).
_____. *Old Friends, New Enemies: The Royal Navy and the Imperial Japanese Navy, Strategic Illusions, 1936–1941* (Oxford, 1981).
_____. M. Jacobson and J. Horsfield, *Old Friends and New Enemies: The Royal Navy and the Imperial Japanese Navy, The Pacific War, 1942–1945* (Oxford, 1991).
P.J. Marshall, 'British Expansion in India in the Eighteenth Century: A History Revision', *History*, 60 (1975).
G. Martin, 'The Influence of Racial Attitudes on British Policy towards India during the First World War', *JCont.H*, 24 (1989).
N. Martin, 'A Different Kind of Courage: The French Military and the Canadian Irregular Soldiers during the Seven Years War', *JCH*, 70 (1986).
A.H. Mason, *Expeditions against the Black Mountain Tribes* (Simla, 1899).
_____. *Expedition against the Hasanzai and Azakai Tribes of the Black Mountain, 1891* (Simla, 1894).
H.L. Maw, *Memoir of the Early Operations of the Burmese War* (1832).
T. Mboya, *Freedom and After* (1963).
R. Matthew Bray, 'Fighting as an Ally: The English-Canadian Patriotic Response to the Great War', *CHR*, 61 (1980).
L. McCardell, *Ill-Starred General: Braddock of the Coldstream Guards* (Pittsburgh, 1958).
J.M. McCarthy, 'Australia and Imperial Defence: Cooperation and Conflict, 1918–1939', *AJPH*, 17 (1971).
R.I. McCormack, 'Imperial Mission: The Air Route to Cape Town, 1918–1932', *JCont.H*, 9 (1974).
_____. 'Missed Opportunities: Winston Churchill and the Air Ministry in Africa', *Int.HR*, 11 (1989).
J. McCracken, 'Coercion and Control in Nyasaland: Aspects of the History of the Colonial Police Force', *JAH*, 27 (1986).
G. McGhee, *Envoy to the Middle World* (New York, 1983).
W.D. McIntyre, *The Imperial Frontier in the Tropics, 1865–1875* (1967).
B.T.C. McKercher, 'Our Most Dangerous Enemy: Great Britain's Pre-eminence in the 1930s', *Int.HR*, 13 (1991).
J.R. McNeil, *Atlantic Empires of France and Spain: Louisbourg and Havana* (1985).
R. Meinertzhagen, *Kenya Diary* (1957).
The Life and Correspondence of Charles, Lord Metcalfe, ed. J.W. Kaye (1854).
K.A. Miller, *Emigrants and Exiles: Ireland and the Irish Exodus to North America* (Oxford, 1985).
Lord Milner, *England and Egypt* (2 vols, 1892).
Lord Milner, *The Nation and the Empire: being a collection of Speeches and Addresses* (1913).
A.F. Mockler-Ferryman, *Up the Niger: Narrative of Major Claude Macdonald's Mission*

to the Niger and Benue Rivers (1892).
The Naval Tracts of Sir William Monson, ed. M. Oppenheim (2 vols, Navy Records Society, 1902).
J. Montgomery, *The West Indies* (1809).
M. de Moraes Ruehsen, 'Operation "Ajax" Revisited', *MES*, 29 (1993).
Lord Moran, *Winston Churchill: The Struggle for Survival, 1940–1965* (1968 ed.).
K.O. Morgan, *Keir Hardie, Radical and Socialist* (1975).
S.E. Morison, *The Rising Sun in the Pacific 1931–April 1942* (History of United States Naval Operations in World War II, vol 3) (Oxford, 1948).
J. Morris, *Pax Britannica* (1968).
_____. *At Heaven's Command: An Imperial Progress* (1973).
_____. *Farewell the Trumpets* (1978).
R. Morris, *The Royal Dockyards during the Revolutionary and Napoleonic Wars* (Leicester, 1983).
L. Morsy, 'The Military Clauses of the Anglo-Egyptian Treaty of Friendship and Alliance, 1936', *IJMES*, 16 (1984).
_____, 'Britain's Wartime Policy in Egypt, 1940–42', *MES*, 25 (1989).
_____. 'The Role of the United States in the Anglo-Egyptian Agreements of 1956', *MES*, 29 (1993).
W.M. Mumford, 'Education and Social Adjustment of the Primitive People of Africa to European Culture', *Africa*, 2 (1929).
T. Mun, *England's Benefit and Advantage by Foreign Trade* (1698 ed.).
M.H. Murfett, 'Living in the Past: A Critical Re-examination of the Singapore Naval Strategy, 1918–1941', *WS*, 11, i (1993).
R. Murphy, 'Walter Long and the Making of the Government of Ireland Act', *IHS*, 25 (1986–87).

G.C. Nammack, *Fraud, Politics and the Dispossession of the Indians: The Iroquois Land Frontier in the Colonial Period* (Norman, Oklahoma, 1969).
W.P.F. Napier, *The Conquest of Scinde* (1846).
A.G. Nasser, *The Philosophy of Revolution* (Cairo, n.d.).
Naval Documents of the American Revolution, I, ed. W.B. Clark (Washington, DC, 1964).
M.S. Navias, 'Terminating Conscription? The British National Service Controversy, 1955–56', *JCont.H*, 24 (1989).
_____. *Nuclear Weapons and British Strategic Planning* (Oxford, 1991).
H. Neatby, 'C.J.W. Smith, an Eighteenth-Century Whig Imperialist', *CHR*, 27 (1947).
C.W. Newbury and A.S. Kanya-Forstner, 'French Policy and the Origins of the Scramble for West Africa', *JAH*, 10 (1969).
H. Nicolson, *Letters and Diaries*, 1945–1961, ed. N. Nicolson (1968).
R. Nixon, *The Memoirs of Richard M. Nixon* (New York, 1990 ed.).
K. Nkrumah, *The Autobiography of Kwame Nkrumah* (1957).
D. Norman ed., *Nehru. The First Sixty Years* (2 volumes, 1965).
D. Norris, 'Caspian Naval Expedition, 1918–1919', *JRCAS*, 10 (1923).

B.B. O'Brian, 'Empire v. National Interests in Australian-British Relations during the 1930s', *AHS*, 22 (1986–89).
P.K. O'Brian, 'Public Finance and the War with France', in ed. Dickinson, *Britain and the French Revolution*.

J. Ochterlony, *The Chinese War* (1844).
M. O'Dwyer, *India as I Knew It* (1926 ed.).
Official History of Operations in Somaliland, 1901–1904 (2 vols, 1907).
Oh Canada: A Medley of Stories, Verses, Pictures and Music Contributed by Members of the Canadian Expeditionary Force (1916).
The Old World and the New Society (Labour Party, 1942).
R. Oliver, 'The Two Miss Perhams', *JICH*, 19 (1991).
Orderly Books of the Fourth New York Regiment, 1778–1780 and the Second New York Regiment, 1780–1783 (Albany, NY, 1932).
R. Orme, *A History of the Military Transactions of the British Nation in Indostan from the Year MDCCXLV* (2 vols, 1763).
G. Orwell, *Collected Essays, Journalism and Letters of George Orwell, III, As I Please, 1943–1945*, ed. S. Orwell and I. Angus (1968).
R. Ovendale ed., *The Foreign Policy of the British Labour Governments, 1945–1951* (Leicester, 1984).

M. Page, 'The War of *Thangata*: Nyasaland in the East African Campaign, 1914–1918', *JAH*, 19 (1978).
T. Pakenham, *The Scramble for Africa* (1991).
A. Palmer, 'Black American Soldiers in Trinidad, 1942–44: Wartime Politics in a Colonial Society', *JICH*, 14 (1986).
R. Pares, *A West India Fortune* (1950).
M Pawson and D. Bussett, *Port Royal, Jamaica* (Oxford, 1975).
R.H. Pearce, *Savagism and Civilisation: A Study of the Indian and the American Mind* (Baltimore, 1977).
G. Pearson, *Hooligan: A History of Respectable Fears* (1983).
J.B. Peires, '"Soft" Believers and "Hard" Unbelievers in Xhosa Cattle-Killing', *JAH*, 27 (1986).
M. Perham, *Lugard: The Years of Adventure, 1858–1898* (1956).
F.W. Perry, *The Commonwealth Armies: Manpower and Organisation in two World Wars* (Manchester, 1988).
M. Peters, *Pitt and Popularity: The Prime Minister and London Opinion during the Seven Years War* (Oxford, 1980).
J.M. Phillips, *Jamaica: its Past and Present* (1843).
T. Phillips, 'The New Africa: The Need for New Forms of Government', *Nineteenth Century and After*, 182 (1937).
J.W. Pickersill, *The Mackenzie King Record*, I (1939–1944) (Chicago, 1960).
B. Pimlott, *Harold Wilson* (1992).
D.C.M. Platt, 'Economic Factors and British Policy during the "New Imperialism"', *PP*, 32 (1968).
W. Platt, 'East African Forces in the War and their Future', *RUSI*, 93 (1948).
A.W. Pollock, 'The Government and the Army', *Fortnightly Review*, New Series, 95 (January-June, 1914).
C. Ponting, *1940: Myth and Reality* (1990).
A. Porter, 'The South African War (1899–1902): Context and Motive Reconsidered', *JAH*, 31 (1990).
P. Porter, 'The Exotic as Erotic: Captain Cook in Tahiti', in ed. G.S. Rousseau and R. Porter, *Exoticism in the Enlightenment*.
B. Prasad, *Defence of India: Policy and Plans* (Cawnpore, 1965) (Official History of the Indian Armed Forces in the Second World War, 1939–1945).

N. Pronay and D.W. Spring ed., *Propaganda, Politics and Film, 1918–1945* (1982).
N. Pronay, 'The Political Censorship of Films in Britain before the War', in ed. Pronay and Spring, *Propaganda, Politics and Film, 1918–1945*.
V. Purcell, *The Boxer Uprising: A Background Study* (Cambridge, 1963).

A. Al-Qazzaz, 'The Iraqi-British War of 1941', *IJMES*, 7 (1976).
D.B. Quinault, 'Churchill and Australia: The Military Relationship, 1899–1945, *WS*, 6 (1988).
D.B. Quinn, 'James I and the Beginnings of Empire', *JICH*, 2 (1974).

Sir Walter Raleigh, *The Discovery of the Large, Rich and Beautiful Empire of Guiana*, ed. R.H. Schomberg (Hakluyt Society, 1848).
D. Read ed., *The Great War and Canadian Society* (Toronto, 1978).
The Records of the Virginia Company of London, ed. S.M. Kingsbury (3 vols, Washington DC, 1933).
Report of the Select Committee on Ceylon and British Guiana (1849).
Report of the Jamaica Royal Commission, 1866 (1866).
J. Richards, *The Age of the Dream Palace: Cinema and Society in Britain, 1930–1939* (1984).
J. Richards and A. Aldgate, *Best of British: Cinema and Society 1930–1970* (Oxford, 1983).
G. Rizvi, *Linlithgow and India: A Study of British Policy and the Political Impasse in India, 1936–1943* (1978).
W.R. Rock, *Chamberlain and Roosevelt: British Foreign Policy and the United States, 1937–1940* (Columbia, Ohio, 1988).
Lord Ronaldshay, *The Life of Lord Curzon* (3 vols, 1928).
N.A.M. Rodger, *The Wooden World: An Anatomy of the Georgian Navy* (1986).
S. Roskill, *Naval Policy Between the Wars* (2 vols, 1976).
J.H.S. Ross, *Royal New Zealand Air Force* (Official History of New Zealand in the Second World War) (Auckland, 1955).
P.T. Ross, *A Yeoman's Letters* (Hastings, 1901).
R.I. Rotberg, 'Resistance and Rebellion in British Nyasaland and German East Africa, 1888–1915', in ed. Gifford and Louis, *Britain and Germany in Africa*.
G.S. Rousseau and R. Porter, *Exoticism in the Enlightenment* (Manchester, 1988).
T. Royle, *The Last Days of the Raj* (1989).
D. Rule, *The Pursuit of Progress: A Study of the Intellectual Development of Romesh Chander Dutt, 1848–1888* (Calcutta, 1977).
S. Runciman, *The White Rajahs: A History of Sarawak from 1841 to 1946* (Cambridge, 1960).

B. Sacks, *J. Ramsay MacDonald in Thought and Action* (Albuquerque, 1952).
A. Al-Sadat, *In Search of an Identity: An Autobiography* (1978).
P.M. Sales, 'W. H. Hughes and the Chanak Crisis of 1922', *AJPH* 17 (1971).
J. Salmon, 'The Air Force in Iraq', *RUSI*, 70 (1925).
S. Sandber, 'Homefront Battlefront: Racial Disturbances in the Zone of the Interior, 1941–1945', *WS*, *11, ii (1993)*.
G.N. Sanderson, 'The Origins and Significance of the Anglo-French Confrontation at Fashoda, 1898', in ed. Gifford and Louis, *Britain and France in Africa*.
J.E. Seely, *Adventures* (1930).
The Crisis of British Power: The Imperial and Naval Papers of the Second Earl of Selbourne,

1885–1910, ed. D.G. Boyne (1990).
F. Selous, *Sunshine and Storm in Rhodesia* (1896).
Y. Shaffy, 'Unconcern at Dawn, Surprise at Sunset: Egyptian Intelligence Appreciation before the Sinai Campaign, 1956', *Intelligence and National Security*, 5 (1990).
J. Sherer, *The Gold-Finder in Australia: How he went, how he fared and how he made his Fortune* (1853).
R.B. Sheridan, 'The Jamaica Slave Insurrection Scare of 1776 and the American Revolution', *Journal of Negro History*, 3 (1978).
E. Shuckburgh, *Descent to Suez: Diaries, 1951–1956* (1986).
L. Simon, *Journal of a Tour and Residence in Great Britain during the years 1810 and 1811* (2 vols, Edinburgh, 1815).
G. Smith, *The Empire: A Series of Letters Published in 'The Daily News', 1862, 1863* (1863).
R. Smith, *14,000 Miles Through the Air* (1922).
R. Smith, 'Britain's African Colonies and British Propaganda during the Second World War', *JICH*, 14 (1985).
Historic Memoirs from 12 July 1776 to 25 July 1778 of William Smith, ed. W.H.W. Sabine (New York, 1958).
T. Smollett, *Continuation of the Complete History of England* (5 vols, 1763–67).
The Letters of Tobias Smollett, ed. L.M. Knapp (Oxford, 1970).
Selections from the Papers of Jan Smuts, ed. J. v. der Poel, 6 (Cambridge, 1973).
D. Souden, 'Rogues, Whores and Vagabonds? Indentured Servant Emigrants to North America and the Case of Mid-Eighteenth-Century Bristol', *JSH*, 3 (1978).
D. Spadadora, *The Idea of Progress in Eighteenth-Century Britain* (Yale, 1990).
E.M. Spiers, *The Army and Society, 1815–1914* (1980).
D. Spinney, *Rodney* (1969).
______, 'Rodney and the Saintes: A Re-assessment', *MM*, 68 (1982).
J.O. Springhall, 'Lord Meath, Youth and Empire', *JCont.H*, 5 (1970).
______, 'Baden-Powell and the Scout Movement before 1920: Citizen Training and Soldiers of the Future', *EHR*, 102 (1987).
Statistics of the Military Effort of the British Empire during the Great War, 1914–1920 (1922).
A.G. Steel and R.H. Lyttleton, *Cricket* (Badminton Library, 1888).
R. Stephens, *Nasser: A Political Biography* (1971).
H. Stewart, *The New Zealand Divisions, 1916–1919* (Auckland, 1921).
E. Stirling, *Some Considerations of the Political State of the Intermediate Countries between Persia and India* (1835).
E. Stokes, *The English Utilitarians and India* (Oxford, 1959).
______, *The Peasant Armed: The Indian Revolt of 1857* (Oxford, 1986).
A. Summers, 'Militarism in Britain before the Great War', *History Workshop*, 2 (1976).
______, 'Scouts, Guides, and VADs: A note in reply to Allen Warren', *EHR*, 102 (1987).
R. Swinhoe, *Narrative of the North China Campaign of 1860* (1861).
D. Syrett, 'The Methodology of British Amphibious Operations during the Seven Years and American Wars', *MM*, 58 (1972).

Viscount Templewood (Sir Samuel Hoare), *Empire of the Air: The Advent of the Air*

Age, 1922–1929 (1957).
J.J. Terry, *The Wafd, 1919–1952* (1982).
M. Thatcher, *The Downing Street Years* (1993).
G. Thayer, *The British Political Fringe* (1965).
J. Thomson, *Through Masai Land* (1885).
M. Thomson, 'A Year Round in Northern Nigeria', *Blackwoods Magazine*, 175 (May 1909).
C. Thorne, *Allies of a Kind: The United States, Britain and the War against Japan* (Oxford, 1978 ed.).
R.L. Tignor, 'Decolonisation and Business: The Case of Egypt', *JMH*, 59 (1987).
H. Tinker, 'India in the First World War and After', *JCont.H*, 4 (1968).
M.E. Townsend, *The Rise and Fall of Germany's Colonial Empire, 1884–1914* (New York, 1966).
N. Townsend, 'Moulding Minds: The School Paper in Queensland, 1905 to 1920', *JRAHS*, 75 (1989–90).
C. Townshend, *The British Campaign in Ireland, 1919–1921: The Developments of Political and Military Policies* (Oxford, 1975).
_____, 'Martial Law: Legal and Administrative Problems of Civil Emergencies in Britain and the Empire', *HJ*, 25 (1982).
_____, 'The Defence of Palestine: Insurrection and Public Security, 1936–1939', *EHR*, 103 (1988).
N. Tracy, 'British Assessments of French and Spanish Naval Reconstruction', *MM*, 61 (1975).
_____, *Navies, Deterrence and American Independence: British Seapower in the 1760s and 1770s* (Vancouver, 1988).
B.G. Trigger, 'Early Native American Response to European Contact: Romantic versus Rationalistic Interpretation', *Journal of American History*, 77 (1990–91).
A. Trotter, *Britain and East Asia, 1933–1937* (Cambridge, 1975).
J.S. Tucker ed., *Memoirs of Admiral the Right Honourable, the Earl of St Vincent* (2 vols, 1844).
J. Turner, *British Politics and the Great War: Coalition and Conflict, 1915–1918* (1992).

G. Vancouver, *A Voyage of Discovery to the North Pacific Ocean and Round the World, 1791–1795*, ed. W. Kaye Lamb (Hakluyt Society, 4 vols, 1984).
C. Van Onselen, 'The 1912 Wankie Colliery Strike', *JAH*, 15 (1974).
R. Vansittart, *The Mist Procession: The Autobiography of Lord Vansittart* (1958).
The Narrative of General Venables, ed. C.H. Firth (Camden Society, 1900).
A. Vinogradov, 'The 1920 Revolt in Iraq Reconsidered: the role of Tribes and National Politics', *IJMES*, 3 (1972).
M. Volodarsky, 'Persia's Foreign Policy between the two Herat Crises', *MES*, 21 (1985).
F.B. Vrooman, 'The Imperial Idea: From the Point of View of Vancouver', *Nineteenth Century and After*, 73 (1913).
F. Waite, *The New Zealanders at Gallipoli* (Official History of New Zealand's Effort in the War) (Auckland, 1921).
A.J. Ward, *Ireland in Anglo-American Relations*, 1899–1922 (1969).
F.R. Ward, *British West Indian Slavery: The Process of Amelioration* (Oxford, 1989).
A. Warren, 'Sir Robert Baden-Powell, the Scout Movement and Citizen Training in Britain, 1900–1920', *EHR*, 101 (1986).

B. Wasserstein, *Britain and the Jews of Europe, 1939–1945* (Oxford, 1979).
F. Watson, 'India Returned', *Life and Letters*, 49 (1946).
D. Cameron Watt, 'Britain, the United States and the Opening of the Cold War', in ed. Ovendale, *The Foreign Policy of the British Labour Governments, 1945–1951*.
I. Watts, *The Psalms and Hymns of the Reverend Isaac Watts, DD* ed. E. Williams (Doncaster, 1805).
Lord Wavell, *The Viceroy's Journal* (1973).
S.S. Webb, 'William Blathwayt, Imperial Fixer: From Popish Plot to Glorious Revolution', *WMQ*, 25 (1968).
______, 'Army and Empire: English Garrison Government in Britain and the Americas, 1569 to 1763', *WMQ*, 34 (1977).
S. Webb, 'Lord Rosebery's Escape from Houndsditch', *Nineteenth Century and After*, 50 (1901).
D. Wellesley, *Sir George Goldie: Founder of Nigeria* (1934).
We Shall Win Through (Conservative Party, 1952).
J. Wells, *Stewart of Lovedale: The Life of James Stewart* (1901).
West India Colonies and Mauritius: Immigration, I: British Guiana, Jamaica and Trinidad (House of Commons Papers, 1859).
A. Carton de Wiart, *Happy Odyssey* (1950).
G.R. Wilkinson, 'Soldiers by Instinct and Training: The *Daily Mail* and the Image of the Warrior, 1899–1914', *Newspaper and Periodical Society*, 8 (1992).
B.P. Willan, 'The South African Native Labour Contingent', *JAH*, 19 (1978).
H. Williamson, *Donkey Boy* (1962).
B. Wilson, *The Life and Letters of James Wolfe* (1909).
K.M. Wilson, *Empire and Conflict: Studies in British Foreign Policy from the 1880s to the First World War* (1987).
______, 'The Anglo-Japanese Alliance of August 1905 and the Defending of India: A Case of the Worst Scenario', *JICH*, 21 (1993).
The Papers of Woodrow Wilson 45 (1917–1918) (Princeton, NJ, 1984).
J.M. Winter, 'The Webbs and the Non-White World: a Case of Socialist Racism', *JCont.H*, 9 (1974).
L.B. Wright, *Religion and Empire: The Alliance between Piety and Commerce in English Expansion, 1558–1625* (Chapel Hill, North Carolina, 1943).
P. Wright, *Spycatcher* (New York, 1987).
H.F. Wyatt, 'The Cause of National Insecurity', *Nineteenth Century and After*, 71 (1912).
Lord Wylloughby de Broke, 'National Toryism', *National Review*, 59 (1912).

A.C. Yate, 'Britain's Buffer States in the East', *JRCAS*, 5 (1918).
P.J. Yearwood, 'Great Britain and the Repartition of Africa', *JICH*, 18 (1990).
G. Younghusband, *Forty Years a Soldier* (1923).

P. Ziegler, *Mountbatten* (1985).
______, *King Edward VIII: The Official Biography* (1990).

المؤلف فى سطور:

لورانس جيمس:

ولد فى باث بإنجلترا، عام ١٩٤٣.

درس التاريخ واللغة الإنجليزية فى جامعة يورك، وحصل على منحة دراسية من جامعة ميرتون بجامعة أكسفورد، وأصبح مدرسًا.

تفرغ لورانس للكتابة التاريخية فى عام ١٩٨٥، وقد ألف سبعة كتب نقدية وتاريخية، ويقطن فى سانت أندورس فى أسكتلندا مع زوجته واثنين من أبنائه، وتعمل زوجته مديرة مدرسة سانت ليونارد.

ومن مؤلفاته: القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦): الحرب مع روسيا فى صور معاصرة، والحرب البربرية: الحملة البريطانية فى أفريقيا من (١٨٧٠ - ١٩٢٠)، وأعمال التمرد فى القوات البريطانية والكومنولث (١٧٩٧ - ١٩٥٦)، وأيضا الحروب الإمبراطورية الأخيرة، والمحارب الذهبى: حياة وأسطورة لورانس العرب، والدوق الحديدى: حياة الدوق ولنجتون العسكرية، والمحارب الإمبراطورى: حياة وزمن المشير أفسكونت اللنبى.

المترجم فى سطور:

عبد اللــه عبد الرازق إبراهيم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ووكيل معهد البحــوث والدراســات الإفريقية الأسبق.

حصل على ليسانس الآداب من قسم اللغــة الإنجليزيــة عــام ١٩٦٢ وليسانس الآداب فى التاريخ عام ١٩٧٩، وماجستير الدراســات الأفريقيــة عام ١٩٦٧، ودكتوراه الفلسفة بمرتبة الشرف فى عام ١٩٨٢.

تدرج فى الوظائف الجامعية حتى صــار أســتاذًا للتــاريخ الحــديث والمعاصر، وتولى وكالة المعهد لشئون الدراسات العليا والبحوث حتى عــام ١٩٩٩، وبعدها صار أستاذًا متفرغًا بقسم التاريخ.

أعير إلى جامعة قطر فى الفترة من ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٢، شــارك فى أكثر من سبعين مؤتمرًا علميًا فى الداخل والخارج، وأشرف على عــدد كبير من الرسائل الجامعية فى مصر والدول الخارجية.

ألَّف أكثر من خمسة وعشرين كتابًا أكاديميا، ونال جائزة الفنجرى فى الدراسات الإسلامية.

ترجم عددًا من الكتب نشرها المجلس الأعلى للثقافة مثل: تراث الهنــد وتمبكت العجيبة، كما شارك فى مراجعة كتب المجلس الأعلى للترجمة مثل المشرق العربى والــشرق الأقــصى فــى العهــود الإغريقيــة الرومانيــة والإيرانية العربية.

المراجع فى سطور:

شوقى عطا اللــه الجمل

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية– جامعة القاهرة.

- تولى رئاسة قسم التاريخ فترة طويلة لعدم وجود أساتذة، وأعير إلى المملكة المغربية، ألف العديد من الكتب الجامعية والتاريخية.

- قدم للمكتبة العربية العديد من المراجع التاريخية مثل: تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، والمغرب العربى الكبير، وسودان وادى النيل، وتــاريخ غرب أفريقيا، وتاريخ شرق وجنوب أفريقيا، وقضية روديسيا.

- شارك فى أكثر من خمسين مؤتمرًا علميًا فى الداخل والخارج، كما أشرف على العديد من الرسائل العلمية.

- راجع عددا من كتب المجلس الأعلى للثقافة مثل: رحلة كشف شمال أفريقيا وغرب أفريقيا، وتمبكت العجيبة، والحضارة الأفريقيـــة، وحركــات التحرر الوطنى فى القارة الأفريقية.

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشـــراف الفنى: حـــسن كامل